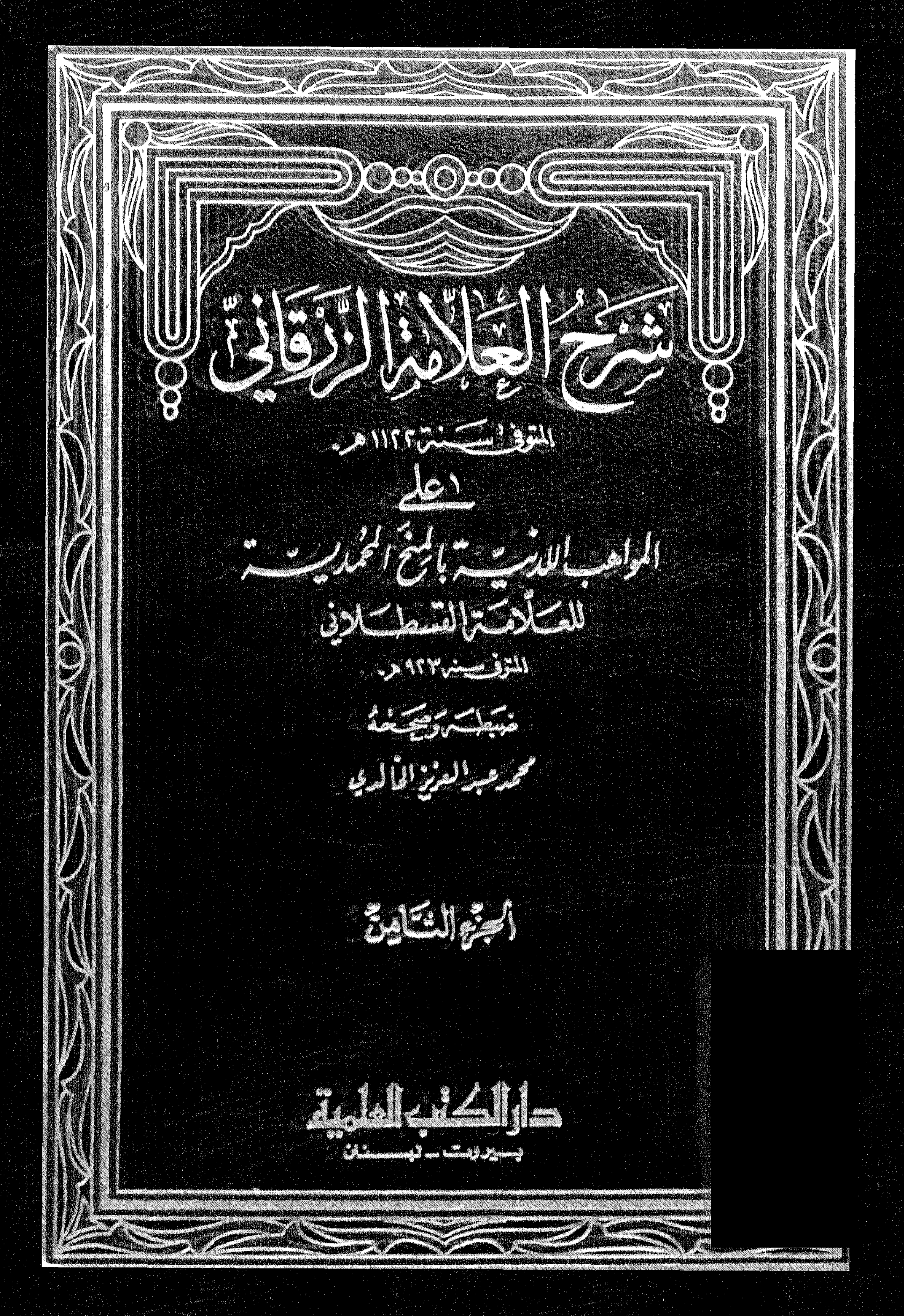

شرح العلامة الزرقاني
المتوفى سنة ١١٢٢ هـ
على
المواهب اللدنية بالمنح المحمدية
للعلامة القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣ هـ
ضبطه وصححه
محمد عبد العزيز الخالدي
الجزء الثامن
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

شرح العلامة الزرقاني

المتوفى سنة ١١٢٢ هـ.

على

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية

للعلامة القسطلاني

المتوفى سنة ٩٢٣ هـ.

ضبطه وصححه

محمد عبد العزيز الخالدي

الجزء الثامن

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١)٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

المقصد الخامس:

في تخصيصه عليه الصلاة والسلام بخصائص المعراج والإسراء، وتعميمه بعموم لطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة والآيات الكبرى.

اعلم ـ منحني الله وإياك الترقي في معارج السعادات، وأوصلنا به إليه في حظائر الكرامات ـ أن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات، وأظهر البراهين البينات، وأقوى الحجج المحكمات، وأصدق الأنباء، وأعظم الآيات، وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه عليه الصلاة والسلام بعموم الكرامات.

(المقصد الخامس: في) بيان **(تخصيصه عليه الصلاة والسلام بخصائص المعراج والإسراء،)** أي: جعلها مخصوصة به لا تتجاوزه إلى غيره، والمراد بها الأمور الخارقة التي اختص بها ليلته كرؤية الله والجنة، وقطعه في زمن قليل، واتساع الزمن حتى صلى بالأنبياء إلى غير ذلك، فلما كانت تلك الأمور كلها لم تتعده إلى غيره جعل المصنف همته في الترجمة بيانها، لأنه صار بها مقدماً على من عداه ومقرباً في حضرة التقديس عن كل ما سواه، وقدم المعراج في الذكر لتعلقه بالحضرة الإلهية، وآخره في الترتيب مطابقة للواقع.

(وتعميمه،) أي: تغطيته وستره، **(بعموم،)** أي: كثرة **(لطائف التكريم،)** أي: النعم التي أكرمه الله بها التي لا تحصى بجعلها شاملة كالملاءة التي تشتمل على جميع جسد من جعلت عليه **(في حضرة التقريب،)** أي: المكان الذي خاطبه فيه، **(بالمكالمة والمشاهدة)** له سبحانه وتعالى **(والآيات الكبرى)** العظمى.

(اعلم منحني) أعطاني، **(الله وإياك الترقي في معارج السعادات،)** أي: المراتب المحصلة لها لمن أراد الله به الخير والمعراج عند أهل الطريق منتهى سير المقربين الذي هو عروجهم، أي: سلوكهم، لأن كل سالك إلى طريق كان غايته الحق بشرط فوزه منه بسعادة ما، فذلك السالك صاحب معراج وسلوكه عروج، **(وأوصلنا)** الله **(به،)** أي: النبي ﷺ **(إليه،)** أي: إلى قرب المكانة إلى الله **(في حظائر الكرامات،)** أي: المحلات التي تنزل بها الكرامات وتليق بها، أو المراد بها الجنة، وأصل الحظيرة ما يعمل للإبل من الشجر ليقيها البرد ونحوه، **(أن قصة الإسراء والمعراج،)** بزنة مفتاح السلم، وجمعه معارج ومعاريج، ويقال: معرج للواحد، بكسر الميم وفتحها **(من أشهر المعجزات وأظهر البراهين البينات)** الواضحات، **(وأقوى الحجج)** بالضم، جمع حجة **(المحكمات وأصدق الأنباء:)** جمع نبأ، بالهمز، وهو الخبر، **(وأعظم الآيات وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه عليه الصلاة والسلام بعموم الكرامات)** لما اشتملت عليه من الأمور الخارقة للعادة التي تقصر العقول عن إدراك مثلها.

وقد اختلف العلماء في الإسراء.

هل هو إسراء واحد في ليلة واحدة؟ يقظة أو منامًا؟ أو إسرآان كل واحد منهما في ليلة، مرة بروحه وبدنه يقظة، ومرة منامًا، أو يقظة بروحه وجسده؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم منامًا من المسجد الأقصى إلى العرش، أو هي أربع إسرآات؟

احتج القائلون بأنه رؤيا منام ـ مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء وحي ـ بقوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء/٦٠]، لأن الرؤيا مصدر الحُلميَّة، وأما البصرية: فالرؤية بالتاء، وقد أنكر ابن مالك والحريري وغيرهما ـ كما أفاده الشيخ بدر الدين الزركشي ـ ورود «الرؤيا» للبصرية، ولحنوا المتنبي في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وأجيب: بأنه إنما قال «الرؤيا» لوقوع ذلك المرئيفي الليل، وسرعة تقضيه كأنه

(وقد اختلف العلماء) بحسب اختلاف الأخبار (في الإسراء،) أي: في جواب قول السائل (هل هو إسراء واحد في ليلة واحدة،) فقيل كان كذلك، ثم اختلف بناء على ذا القول هل كان (يقظة أو منامًا،) وعلى أنه يقظة هل إلى المسجد الأقصى فقط، أو إلى العرش منامًا، (أو) هما (إسراءان) واحد يقظة، وآخر منامًا، (كل واحد منهما في ليلة مرة بروحه وبدنه يقظة، ومرة منامًا،) وليلة اليقظة غير ليلة المنام، وبهذا فارق القول الذي قبله، (أو يقظة بروحه وجسده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم منامًا من المسجد الأقصى إلى العرش،) فالإسراء كان يقظة، والمعراج منامًا، عند هذا القائل، وقد علم تفريع هذا القول على اتحاد الليلة فيهما، (أو هي أربع إسراءات) يقظة كلها كما يأتي.

(احتج القائلون بأنه رؤيا منام مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء وحي بقوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك﴾ [الإسرء/٦٠] الآية،) ليلة الإسراء، (﴿إلا فتنة للناس﴾،) أهل مكة إذ كذبوا بها، وارتد بعضهم لما أخبرهم، (لأن الرؤيا) بالألف (مصدر الحلمية،) وهي المنامية، منسوبة إلى الحلم (بضمتين وقد تسكن اللام تخفيفًا)، (وأما البصرية، فالرؤية بالتاء) بالألف (وقد أنكر ابن لملك والحريري وغيرهما، كما أفاده الشيخ بدر الدين الزركشي ورود الرؤيا) بالألف (للبصرية، ولحنوا) أبا الطيب أحمد بن الحسين (المتنبي) الشاعر المشهور (في قوله: ورؤياك أحلى في العيون من الغمض،) لأنه استعمل الرؤيا بالألف في البصرية التي بالتاء، (وأجيب: بأنه) لا حجة في الآية على أنه منام، لأنه (إنما قال الرؤيا لوقوع ذلك المرئي في

منام، وبأن «الرؤيا» و«الرؤية» واحدة كقربى وقربة، ويشهد له قول ابن عباس في الآية ـ كما عند البخاري ـ: هي رؤية عين أريها ﷺ ليلة أسري به. وزاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث: وليس رؤيا منام. ولم يصرح في رواية البخاري بالمرئي.

وعند سعيد بن منصور من طريق أبي مالك هو ما أري في طريقه إلى بيت المقدس وهذا مما يستدل به على إطلاق لفظ «الرؤيا» على ما يرى بالعين في

الليل وسرعة تقضيه) حتى **(كأنه منام)** فهو مجاز علاقته المشابهة، **(وبأن الرؤيا)** بالألف **(والرؤية)** (بالتاء) **(واحدة)** يعني أن كلاً منهما يستعمل موضع الآخر **(كقربى وقربة)** وهذا نقله ابن دحية ولفظه.

قال أهل اللغة: رأيت رؤية ورؤيا مثل قربة وقربى، **(ويشهد له قول ابن عباس)** وهو من أئمة اللسان **(في)** تفسير **(الآية، كما عند البخاري: هي رؤية عين أريها ﷺ ليلة أسري به)** فاستعمل ابن عباس الرؤيا (بالألف) في البصرية، **(وزاد سعيد بن منصور عن سفيان)** بن عيينة راويه عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، **(في آخر الحديث وليس رؤيا منام)** فهو دليل قوي على استعمال كل منهما موضع الآخر.

قال الحافظ: وقد تمسك بكلام ابن عباس هذا من قال: الإسراء منام، ومن قال: يقظة، فالأول أخذه من لفظ الرؤيا لاختصاصها برؤيا المنام، والثاني من قوله: أريها ليلة الإسراء إذ لو كان منامًا كذبه الكفار ولا فيما هو أبعد منه، وإذا كان يقظة والمعراج تلك الليلة تعين كونه يقظة أيضًا إذ لم ينقل أنه نام لما وصل بيت المقدس، ثم عرج به وهو نائم، **(ولم يصرح في رواية البخاري بالمرئي)** بل لفظه ما قدمه المصنف.

قال الحافظ عقب ما نقلته عنه: وإذا كان يقظة فإضافة الرؤيا إلى العين للاحتراز عن رؤيا القلب، وقد أثبت الله في القرآن رؤيا القلب، فقال: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم/١١] الآية، ورؤيا العين، فقال: ﴿ما زاغ البصر وما طغى* لقد رأى﴾ [النجم/١٧، ١٨] الآية.

وروى الطبراني في الأوسط بإسناد قوي عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه مرتين، ومن وجه آخر قال: نظر محمد إلى ربه، جعل الكلام لموسى والخلة لإبراهيم والنظر لمحمد، فإذا تقرر ذلك ظهر أن مراد ابن عباس هنا برؤيا العين جميع ما ذكره ﷺ من الأشياء في تلك الليلة.

(وعند سعيد بن منصور من طريق أبي مٰلك هو ما أُري في طريقه إلى بيت المقدس) مما يأتي بعضه، **(وهذا مما يستدل به على إطلاق لفظ الرؤيا على ما يرى بالعين في اليقظة،)** كما تطلق على رؤيا المنام، **(وهو يرد على من خطأ المتنبي)** ولا عبرة بإنكار ذلك،

اليقظة. وهو يرد على من خطأ المتنبي.

على أنه اختلف المفسرون في هذه الآية،

فقيل: أن الرؤيا التي أريناك ليلة المعراج. قال البيضاوي ففسر الرؤيا بالرؤية.

وقيل: رؤيا عام الحديبية، حين رأى أنه دخل مكة فصده المشركون وافتتن بذلك ناس.

وقيل: رؤيا وقعة بدر. وسأل ابن النقيب شيخه أبا العباس القرطبي فقال:

إذ من حفظ حجة خصوصًا وابن عباس من فصحاء بني هاشم وأئمة اللسان.

وفي كلام الأشموني إفادة أن مصدر رأي: حلمية، أو بصرية أو علمية بالدليل، أو السمع يجيء بالألف في لغة، وأن المشهور كونها مصدرًا للحلمية؛ **(على أنه اختلف المفسرون في هذه الآية)** على هذه للاستدراك، وقيل: تتعلق بما قبلها من الكلام، وقيل: لا تتعلق بشيء، **(فقيل: إن الرؤيا التي أريناك ليلة المعراج)** كما مر عن ابن عباس.

(قال البيضاوي:) وتعلق به من قال كان في المنام، ومَن قال كان في اليقظة، **(ففسر الرؤيا)** (بالألف) **(بالرؤية)** (بالتاء)، **(وقيل: رؤيا عام الحديبية حين رأى أنه دخل)** المسجد الحرام، فسافر قاصدًا **(مكة فصده المشركون وافتتن بذلك ناس،)** أي: تحيروا من ذلك، لأن رؤياه وحي حتى قال ﷺ: «أقلت لكم في هذا العام»، وفي الفتح قال هذا القائل، والمراد بقوله فتنة للناس ما وقع من صد المشركين له في الحديبية عن دخول المسجد الحرام، وهذا وإن أمكن أنه مراد الآية لكن الاعتماد في تفسيرها على ترجمان القرآن أولى.

(وقيل: رؤياه وقعة بدر، وسأل ابن النقيب) الإمام المفسر العلامة المفتي جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن حسن البلخي، ثم المقدسي الحنفي مدرس العاشورية بالقاهرة، ولد سنة إحدى عشرة وستمائة، قدم مصر فسمع بها من يوسف المخلي، وأقام مدة بالجامع الأزهر، وصنف بها تفسيرًا كبيرًا إلى الغاية، وكان إمامًا عابدًا زاهدًا، أمارًا بالمعروف، كبير القدر، يتبرك بدعائه وزيارته، مات بالقدس في المحرم سنة ثمان وتسعين وستمائة، ذكره الذهبي في العبر **(شيخه أبا العباس)** أحمد بن عمر بن إبراهيم **(القرطبي،)** الأنصاري، المالكي، الفقيه المحدث، نزيل الإسكندرية، ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع الكثير، وقدم الإسكندرية، فأقام بها يدرس، وصنف المفهم في شرح صحيح مسلم، واختصر الصحيحين، مات في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة، وليس المراد بابن النقيب هنا شهاب الدين بن النقيب أحمد أبو العباس، أحد علماء الشافعية، لأنه ولد بالقاهرة سنة اثنين وسبعمائة، ومات بها في رمضان

الصحيح أنها رؤية عين، أراه جبريل مصارع القوم ببدر، فأرى النبي ﷺ الناس مصارعهم التي أراه جبريل، فتسامعت به قريش فاستخروا منه. انتهى.

واستدل القائلون بأنها رؤيا منام أيضًا بقول عائشة: «ما فقد جسده الشريف».

وأجيب بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن إذ ذاك زوجًا، ولا في سن من يضبط، أو لم تكن ولدت بعد على الخلاف في الإسراء متى كان.

سنة تسع وستين، كما ذكر السيوطي فلم يدرك القرطبي،(**فقال: الصحيح أنها رؤية عين أراه جبريل مصارع القوم ببدر، فأري النبي ﷺ الناس**) أصحابه الحاضرين (**مصارعهم،**) أي: القوم الهالكين ببدر من المشركين (**التي أراه جبريل،**) فصار يقول قبل الوقعة واضعًا يده على الأرض: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، (**فتسامعت به قريش فاستخروا**) مثل سخروا، أي: هزؤوا (**منه،**) فلما التقى الجمعان كان كما قال (**انتهى**).

لكن ما صححه خلاف ما صححه الشامي أنها رؤيا عين ليلة الإسراء، ونحوه للحافظ في الفتح قائلاً: وما روى ابن مردويه عن ابن عباس؛ أن المراد رؤيا الحديبية، وعن الحسن بن علي مرفوعًا: «إني أريت كأن بني أمية يتعاورون منبري هذا، فقيل: دنيا تنالهم»، ونزلت الآية، فكلاهما إسناده ضعيف.

(**واستدل القائلون بأنها رؤيا منام أيضًا بقول عائشة**) المروي عند ابن إسحٰق: حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: (**ما فقد جسده الشريف**) ولكن أسرى بروحه.

قال الشامي: كذا فيما وقفت عليه من نسخ السير فقد بالبناء للمفعول، والذي وقفت عليه من نسخ الشفاء ما فقدت بالبناء للفاعل وإسناد الفعل لتاء المتكلم، كذا قال وقد حكاهما في الشفاء روايتين، فقال أولاً: وأما قول عائشة: ما فقد جسده، فهي لم تحدث به عن مشاهدة...الخ، ثم قال بعد أسطر، وأيضًا قد روي حديث عائشة: ما فقدت، يعني بالبناء للفاعل، قال: ولم يدخل بها النبي ﷺ إلا بالمدينة، وكل هذا يوهنه، بل الذي يدل عليه صحيح قولها: إنه بجسده الشريف لإنكارها رؤيته لربه رؤية عين، ولو كانت عندها منامًا لم تنكره، وحديثها هذا ليس بالثابت عنها انتهى، يعني لما في متنه من العلة القادحة، وفي سنده من انقطاع وراوٍ مجهول.

وقال ابن دحية في التنوير: إنه حديث موضوع عليها، وقال في معراجه الصغير: قال إمام الشافعية أبو العباس بن سريج: هذا حديث لا يصح، وإنما وضع ردًا للحديث الصحيح.

(**وأجيب**) على تقدير صحته؛ (**بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن إذ ذاك زوجًا، ولا في سن من يضبط،**) لأنها سنة الهجرة، وكانت بنت ثمان سنين، (**أو لم تكن**

وقال التفتازاني: أي ما فقد جسده عن الروح، بل كان مع روحه، وكان المعراج للجسد والروح جميعًا. انتهى.

واحتج القائلون بأنه بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، بقوله تعالى: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾** [الإسراء/١]، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب به بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي ﷺ، وإظهار الكرامة له بالإسراء. ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح.

ولدت بعد،) بالبناء على الضم، أي: بعد هذه القصة، وهي ضد قبل، ويستعملان في التقدم والتأخر المتصل والمنفصل، والمراد هنا الأول، أو المراد زمن وقوعه للمحاورة والتضاد، وهو استعمال شائع **(على الخلاف في الإسراء متى كان،)** فعلى أنه كان بعد المبعث بعام لم تكن ولدت، وعلى أنه قبل الهجرة بعام تكون ابنة سبع، وعلى أنه قبلها بأكثر تكون أصغر من سبع.

قال عياض: وإذا لم تشاهد ذلك عائشة دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يرجح خبرها على خبر غيرها، وكان الظاهر أن يقول فرجح خبر غيرها على خبرها، أي: لعدم ثبوته عنها كما أفصح به بعد، وقد قدمت كلامه لا لروايتها عن مجهول إذ لو ثبت لكان مرسل صحابي وهو حجة.

(وقال التفتازاني) في الجواب على تقدير الصحة، **(أي: ما فقد جسده عن الروح، بل كان مع روحه وكان المعراج للجسد والروح جميعًا. انتهى،)** وهو جواب حسن على ما فيه من كونه خلاف المتبادر من اللفظ.

(واحتج القائلون بأنه بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح،) فالإسراء يقظة، والمعراج منام، **(بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ [الإسراء/١] الآية، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب به،)** من الكفار تعجب استحالة، ومن المؤمنين تعجب تعظيم **(بعظيم القدرة)** بالباء الجارة، وفي نسخة بالفوقية منصوب على أنه مفعول له، أي: لتعظيم قدرة الله الباهرة **(والتمدح بتشريف النبي ﷺ وإظهار الكرامة له بالإسراء، ولو كان الإسراء بجسده إلى)** مكان **(زائد عن المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح)** فلما لم يقع ذكر المعراج في هذا الموضع مع كون شأنه أعجب وأمره أغرب بكثير من الإسراء، دل على أنه كان

وأجيب: بأن حكمة التخصيص بالمسجد الأقصى سؤال قريش له على سبيل الامتحان على ما شاهدوه وعرفوه من صفة بيت المقدس، وقد علموا أنه لم يسافر إليه، فيجيبهم بما عاين ويوافق ما يعلمونه، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع، ولهذا لم يسألوه عما رأى في السماء، ولا عهد لهم بذلك.

وقال النووي في فتاويه: وكان الإسراء به عليه الصلاة والسلام مرتين: مرة في المنام، ومرة في اليقظة.

وذكر السهيلي تصحيح هذا المذهب عن شيخه القاضي أبي بكر بن العربي،

منامًا، وأما الإسراء فلو كان منامًا لما كذبوه ولا استنكروه لجواز وقوع مثل ذلك وأبعد منه لآحاد الناس.

(وأجيب) كما ذكر ابن المنير؛ **(بأن حكمة التخصيص بالمسجد الأقصى سؤال قريش له على سبيل الامتحان على ما شاهدوه وعرفوه من صفة بيت المقدس، وقد علموا أنه لم يسافر إليه فيجيبهم بما عاين،)** كما يأتي بيانه، **(ويوافق ما يعلمونه، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع، ولهذا لم يسألوه عما رأى في السماء، ولا عهد لهم بذلك،)** عطف علة على معلول، أي: لأنه لا عهد، أي: لا علم لهم به.

وفي الشامي، وأجاب الأئمة عن ذلك، بأنه استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء، فلما ظهرت أمارات صدقه ووضحت له براهين رسالته، واستأنسوا بتلك الآية أخبرهم بما هو أعظم منها، وهو المعراج، فحدثهم به، وأنزله الله في سورة النجم.

قال الحافظ: ويؤيد وقوع الإسراء عقب المعراج في ليلة واحدة رواية ثابت عن أنس عند مسلم: أتيت بالبراق فركبت حتى أتيت بيت المقدس، فذكر القصة إلى أن قال: ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا، وحديث أبي سعيد عند ابن إسحق: فلما فرغ مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج.

(وقال النووي في فتاويه: وكان الإسراء به عليه الصلاة والسلام مرتين: مرة في المنام، ومرة في اليقظة،) وإلى هذا ذهب المهلب شارح البخاري، وحكاه عن طائفة، وأبو نصر بن القشيري ومن قبلهم أبو سعد في شرف المصطفى قال: كان للنبي ﷺ معاريج، منها ما كان في اليقظة، ومنها ما كان في المنام.

(وذكر السهيلي تصحيح هذا المذهب عن شيخه القاضي أبي بكر بن العربي) واختاره؛ **(وأن مرة النوم توطئة له)** وتمهيد **(وتيسير عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة،)**

وأن مرة النوم توطئة وتيسير عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء سهلت عليه بالرؤيا، لأن هوله عظيم، فجاءت اليقظة على توطئة وتقدمة، رفقًا من اللَّه بعبده وتسهيلاً عليه.

وقد جوز بعض قائلي ذلك أن تكون قصة المنام قبل المبعث، لأجل قول شريك في روايته: «وذلك قبل أن يوحى إليه». وسيأتي البحث في ذلك إن شاء اللَّه تعالى.

واحتج القائلون بأنه أربع إسرآات يقظة بتعدد الروايات في الإسراء، واختلاف ما يذكر فيها، فبعضهم يذكر شيئًا لم يذكر الآخر، وبعضهم يسقط شيئًا ذكره الآخر.

وأجيب: بأنه لا يدل على التعدد، لأن بعض الرواة قد يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه. وقال الحافظ ابن كثير: من جعل كل رواية خالفت الأخرى

كما قالت عائشة: أول ما بدىء به رسول اللَّه ﷺ الرؤيا الصادقة، وفي رواية: الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، **(ليسهل عليه)** بالرؤيا **(أمر النبوة، فإنه أمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية،)** فقد ذكر أبو ميسرة التابعي الكبير وغيره؛ أن ذلك وقع في المنام، وجمعوا بينه وبين حديث عائشة؛ بأن ذلك وقع مرتين كما في الفتح، **(وكذلك الإسراء سهلت)** قصته **(عليه بالرؤيا)** في النوم قبل اليقظة، **(لأن هوله عظيم، فجاءت اليقظة على توطئة وتقدمة رفقًا من اللَّه بعبده وتسهيلاً عليه).**

(وقد جوز بعض قائلي ذلك؛ أن تكون قصة المنام قبل المبعث لأجل قول شريك) بن أبي نمر **(في روايته)** عن أنس، **(وذلك قبل أن يوحى إليه، وسيأتي البحث في ذلك إن شاء اللَّه تعالى)** قريبًا مع الجواب عن إشكاله بالإجماع؛ على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء فكيف يكون قبل الوحي.

(واحتج القائلون؛ بأنه أربع إسراءات يقظة،) كما ذهب إليه جماعة **(بتعدد الروايات في الإسراء واختلاف ما يذكر فيها، فبعضهم يذكر شيئًا لم يذكره الآخر، وبعضهم يسقط شيئًا ذكره الآخر، وأجيب بأنه لا يدل على التعدد، لأن بعض الرواة قد يحذف بعض الخبر للعلم به أو ينساه،)** أو ما يذكر هو الأهم عنده، أو ينشط تارة فيسوقه كله، وتارة يحدث المخاطب بما هو أنفع له.

مرة على حدة فأثبت إسرآات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولـم يحصل على مطلب. ولـم ينقل ذلك عن أحد من السلف. ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ أمته، بذلك ولنقله الناس على التعدد والتكرار. انتهى.

وقد وقع في رواية عبثر بن القاسم الزبيدي ـ بموحدة ثم مثلثة بوزن جعفر ـ في روايته عن حصين بن عبد الرحمٰن، عند الترمذي والنسائي: لـما أسري برسول اللّه ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد، الحديث. فإن كان ذلك محفوظًا

(وقال الحافظ ابن كثير: من جعل كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب،) جاء بشيء غريب لا يعرف، (وهرب إلى غير مهرب،) يعني أن ذلك لا يجد به نفعًا في دفع التعارض، (ولـم يحصل على مطلب،) حذف من كلام ابن كثير في تاريخه تعليله بقوله، لأن كل السياقات فيها تعريفه بالأنبياء، وفي كلها تفرض عليه الصلاة، فكيف يدعي تعدد ذلك، هذا في غاية البعد، ووصله بقوله (ولـم ينقل ذلك عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ أمته بذلك، ولنقله الناس على التعدد والتكرار) ولـم يقع ذلك. (انتهى).

ونحوه في الفتح، وزاد: ويلزم أيضًا وقوع التعدد في سؤاله ﷺ عن كل نبي، وسؤال أهل كل باب هل بعث إليه وفرض الصلوات الخمس وغير ذلك؟، فإن تعدد مثل ذلك في القصة لا يتجه، فتعين رد بعض الروايات المختلفة إلى بعض أو الترجيح.

وقال ابن القيم: هذه طريقة ضعفاء الظاهرية الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الرواة جعلوه مرة أخرى، فكلما اختلفت عليهم الرواة عددوا لهم الوقائع والصواب الذي عليه أئمة النقل؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة، ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه وقع مرارًا كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردد بين ربه تعالى وبين موسى حتى تصير خمسًا، فيقول أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين، ثم يحطها عشرًا عشرًا.

(وقد وقع في رواية عبثر بن القٰسم الزبيدي) (بضم الزاي) أبو زبيد، كذلك الكوفي الثقة من رجال الجميع، مات سنة تسع وسبعين ومائة، وعبثر بفتح العين المهملة، و (بموحدة) ساكنة، (ثم مثلثة) مفتوحة، ونسخة فمثناة تحريف، فالذي في التقريب: وفتح المثلثة (بوزن جعفر في روايته عن حصين بن عبد الرحمٰن) السلمي، الكوفي، ثقة، روي له الجماعة وتغير حفظه في الآخر، مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

(عند الترمذي والنسائي: لـما أُسرى برسول اللّه ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد..

كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأنه وقع بالمدينة أيضًا غير الذي وقع بمكة.

قال في فتح الباري: والذي يتحرر في هذه المسألة أن الإسراء الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة، من استفتاح أبواب السماء بابًا بابًا، ولا من التقاء الأنبياء كل واحد في سماء، ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات، ولا طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك. وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها ﷺ فمنها بمكة البعض، ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض، ومعظمها في المنام والله أعلم. انتهى.

الحديث، فإن كان ذلك محفوظًا كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء؛ وأنه وقع بالمدينة أيضًا) إسراء **(غير الذي وقع بمكة،)** فغير صفة محذوف.

(قال في فتح الباري: والذي يتحرر من هذه المسألة أن الإسراء الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة من استفتاح أبواب السماء بابًا بابًا) بالتكرير، **(ولا من التقاء الأنبياء كل واحد في سماء، ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات، ولا طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك، وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها النبي ﷺ، فمنها بمكة البعض، ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض، ومعظمها في المنام)** ضد اليقظة، **(والله أعلم، انتهى).**

وفي فتح الباري أيضًا: وجنح الإمام أبو شامة إلى وقوع المعراج مرارًا، واستند إلى ما أخرجه البزار، وسعيد بن منصور عن أنس رفعه: بينا أنا جالس إذ جاء جبريل، فوكز بين كتفي، فقمنا إلى شجرة فيها مثل وكري الطائر، فقعدت في أحدهما، وقعد جبريل في الآخر، فارتفعت حتى سدت الخافقين.. الحديث، وفيه: ففتح لي باب من السماء، فرأيت النور الأعظم، وإذا دونه حجاب رفرف الدر والياقوت، ورجاله لا بأس بهم، إلا أن الدارقطني ذكر له علة تقتضي إرساله، وعلى كل حال، فهي قصة أخرى، الظاهر أنها وقعت بالمدينة، ولا بعد في وقوع أمثالها، وإنما المستبعد وقوع التعدد في قصة المعراج الذي وقع سؤاله عن كل نبي، وسؤال أهل كل باب هل بعث إليه وفرض الصلوات الخمس وغير ذلك، فإن تعدد ذلك في اليقظة لا يتجه، فتعين رد بعض الروايات المختلفة إلى بعض، أو الترجيح، إلا أنه لا بعد في وقوع جميع ذلك في المنام توطئة، ثم وقوعه في اليقظة على وفقه كما قدمته، ومن المستغرب قول ابن عبد السلام في تفسيره: وكان الإسراء في النوم واليقظة، ووقع بمكة والمدينة، فإن أراد تخصيص المدينة بالنوم،

وقال بعض العارفين: إن له ﷺ أربعة وثلاثين مرة، الذي أسرى به منها واحد بجسمه، والباقي بروحه رؤيا رآها. انتهى.

فالحق: أنه إسراء واحد، بروحه وجسده يقظة، في القصة كلها.

وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله.

ويكون كلامه على طريق اللف والنشر غير المرتب، فيحتمل، ويكون الإسراء الذي اتصل به المعراج، وفرضت فيه الصلاة بمكة، والآخر في المنام بالمدينة، وينبغي أن يزاد فيه أن الإسراء بالمنام تكرر بالمدينة النبوية.

(وقال بعض العارفين؛ أن له ﷺ أربعة وثلاثين مرة) من الإسراءات **(الذي أسرى به منها واحد بجسمه، والباقي بروحه)** دون جسده **(رؤيا رآها انتهى)**.

(فالحق) وهو الصحيح **(أنه إسراء واحد بروحه وجسده يقظة في القصة كلها، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول:)** الرجوع والميل **(عن ذلك)** الظاهر، **(إذ ليس في العقل ما يحيله)** حتى يعدل عنه، وإنما عده محالاً صدر من كفار قريش وبعض ضعفاء المسلمين، لتوهمهم أن قطع مثل هذه المسافة ذهابًا وإيابًا في بعض ليلة محال لبعدها، فتقطع في أيام كثيرة، ومن بعض أرباب علم الهيئة، الزاعمين أن الأفلاك لا فرجة فيها ولا تقبل الخرق والالتئام، وكلاهما خطأ عقلاً ونقلاً. ألا ترى نقل عرش بلقيس في طرفة عين مع بعد مسافته، وقد نطقت النصوص بأن للسماء أبوابًا تفتح وتغلق، فلا عبرة بأوهام الفلاسفة.

قال التفتازاني: ادعاء استحالة المعراج باطل، لأنه إنما ينبني على أصول الفلاسفة من امتناع الخرق والالتئام على السموات، وإلا فالخرق والالتئام على السموات واقع عند أهل الحق، والأجسام العلوية والسفلية متماثلة مركبة من الجواهر الفردة المتماثلة ما يصح على كل من الأجسام ما يصح على الآخر ضرورة التماثل المذكور، فإن أمكن خرق الأجسام السفلية أمكن خرق الأجسام العلوية، والله قادر على الممكنات كلها، فهو قادر على خرق السموات وقد ورد به السمع، فيجب تصديقه.

وقال البيضاوي تبعًا للرازي الاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة، أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل لموضع طرفها الأعلى في أقل من درجة، والأجسام كلها متساوية في قبول الأعراض، والله قادر

قال الرازي: قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح سيدنا محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرءان والخبر.

أما القرءان فهو قوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾. وتقرير الدليل: أن «العبد» اسم للجسد والروح، فواجب أن يكون الإسراء حاصلاً بجميع الجسد والروح، ويدل عليه قوله: ﴿**أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلى**﴾ [العلق/٩] ولا شك أن المراد هنا مجموع الجسد والروح، وأيضًا: قال سبحانه وتعالى في سورة الجن: ﴿**وأنه لما قام عبد الله يدعوه**﴾ [الجن/١٩]، المراد: جميع الروح والجسد وكذا ههنا، في قوله: ﴿**أسرى بعبده ليلاً**﴾، انتهى.

واحتجوا أيضًا: بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام: أسري بي لأن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه.

على كل الممكنات، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما حمله، والتعجب من لوازم المعجزات.

(**قال الرازي**) الإمام فخر الدين: (**قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح سيدنا محمد** ﷺ **وجسده**) معًا يقظة (**من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر**،) أي: الحديث، (**أما القرآن، فهو قوله تعالى:** ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾ [الإسراء/١] الآية،إلا بعد، (**وتقرير الدليل أن العبد اسم للجسد والروح، فواجب أن يكون الإسراء حاصلاً بجميع الجسد والروح**) إذ لو كان منامًا لقال بروح عبده.

(**ويدل عليه قوله:** ﴿**أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلى**﴾ [**العلق/٩**] **الآية، ولا شك أن المراد هنا مجموع الجسد والروح**،) لأن العبد هنا محمد ﷺ والناهي له عن الصلاة أبو جهل، وهو لا ينهاه عن الصلاة بروحه. (**وأيضًا قال سبحانه وتعالى في سورة الجن:** ﴿**وأنه** بالفتح عطفًا، وبالكسر استئنافًا، والضمير للشأن (**لما قام عبد الله**) محمد ﷺ (**يدعوه**﴾، يعبده ببطن نخلة، (**والمراد**) في تينك الآيتين (**جميع الروح والجسد، وكذلك ههنا**) في قوله: ﴿**أسرى بعبده ليلاً**﴾ [الإسراء/١] الآية، إذ الآيات تحمل على نظيرها انتهى.

وأما الخبر فأشار إليه بقوله، (**واحتجوا أيضًا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام أسرى بي، لأن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه**) عقلي أو شرعي.

وإن ذلك لو كان منامًا لما كان فيه فتنة للضعفاء، ولا استبعده الأغبياء.

ولأن الدواب لا تحمل الأرواح وإنما تحمل الأجسام، وقد تواترت الأخبار بأنه أسري به على البراق.

فإن قلت: ما الحكمة في كونه تعالى جعل الإسراء ليلاً؟

أجيب: بأنه إنما جعل ليلاً تمكينًا للتخصيص بمقام المحبة، لأنه تعالى اتخذه ﷺ حبيبًا وخليلاً، والليل أخص زمان للمحبين لجمعهما فيه، والخلوة

قال عياض وتبعه غيره: الحق والصحيح أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وتدل عليه الآية نصًا، وصحيح الأخبار إلى السموات استفاضة، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده حال يقظته استحالة تؤذن بتأويل، إذ لو كان منامًا لقال بروح عبده ولم يقل بعبده، وقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم/١٧] الآية، أي: ما عدل عن رؤية ما أمر به من عجائب الملكوت، وما جاوزها لصراحة ظاهره في أنه بجسده يقظة، لأنه أضاف الأمر إلى البصر، وهو لا يكون إلا يقظة بجسده، بشهادة لقد رأى من آيات ربه الكبرى، ولو كان منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة، دالة على صدقه وإن كانت رؤيا الأنبياء وحيًا، إذ ليس فيها من الأبلغية وخرق العادة ما فيه يقظة على أن ذلك إنما يعرفه من صدقه وصدق خبره، **(وإن ذلك لو كان منامًا لما كان فيه فتنة للضعفاء)** الذين كانوا أسلموا فارتدوا فوقعوا في فتنة، أي: بلية عظيمة توقعهم في العذاب لردتهم وتكذيبهم وإنكارهم لخبر الصادق بما هو خارق للعادة، **(ولا استبعده الأغبياء:)** جمع غبي بمعجمة، أي: الكفار ولا كذبوه فيه، لأن مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن منهم ذلك إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن إسرائه بجسده وحال يقظته، **(ولأن الدواب لا تحمل الأرواح وإنما تحمل الأجسام، وقد تواترت الأخبار، بأنه أسرى به على البراق)** وهو دابة، فوجب كونه بالجسد والروح معًا.

(فإن قلت ما الحكمة في كونه تعالى جعل الإسراء ليلاً،) مع أن غالب الفرائض كالصوم والجهاد والصبح والظهر والعصر والابتغاء من فضل الله، إنما هو بالنهار، وإن وقع جهاد ليلاً فنادر لنحو غارة، وفيه الصلاة الوسطى، والصوم الذي قال الله فيه: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»، ومن ثم صحح الشرف المناوي أنه أفضل من الليل، وصحح غيره تفضيل الليل.

(أجيب بأنه إنما جعل ليلاً تمكينًا للتخصيص بمقام المحبة، لأنه تعالى اتخذه عليه السلام حبيبًا وخليلاً،) فجمع له بين المقامين، وهذا دليل لما أفهمه قوله بمقام المحبة، **(والليل أخص زمان للمحبين)** بفتح الباء المشددة تثنية محب، أي: أولى زمان يخلو فيه

بالحبيب متحققة بالليل.

قال ابن المنير: ولعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيمانًا بالغيب وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم. إذ الليل أخفى حالاً من النهار، قال: ولعله لو عرج به نهارًا لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب، ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي وجحد، انتهى.

وفي ذلك حكمة أخرى على طريق أهل الإشارات، ذكرها العلامة ابن مرزوق، وهي: أنه قيل لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر الليل، فجبر بأن أسري فيه بمحمد ﷺ. وقيل: افتخر النهار على الليل

المحب بحبيبه (**لجمعهما فيه**) فليس المراد بأخص هنا مقابل الأعم، ثم المحب لغة من وقعت منه المحبة، والحبيب والمحبوب من وقعت عليه فغلب المحب على المحبوب، فقال المحبين، أو إشارة إلى أن المتحابين إذا صدقت محبة كل منهما لصاحبه كان محبًا ومحبوبًا باعتبارين، (**والخلوة بالحبيب متحققة**) بالليل من تحقق الأمر إذا ثبت، ويجوز فتح القاف اسم مفعول أي: مثبتة، والأول أولى.

(**وقال ابن المنير: ولعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيمانًا بالغيب، وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم، إذ الليل أخفى حالاً من النهار**،) فما وقع فيه لا يطلع عليه غالبًا، فكان من الغيب، وما وقع نهارًا يطلع عليه غالبًا لمشاهدته، فإذا أخبر ﷺ عما وقع له ليلاً صدقه المؤمنون فزادوا به إيمانًا، وكذبه الكافرون فزادت فتنتهم.

(**قال**) ابن المنير: (**ولعله لو عرج به نهارًا لفات المؤمن من فضيلة الإيمان بالغيب**،) وقد أثنى الله على الذين يؤمنون بالغيب، ففيه فضل عظيم، (**ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي وجحد**،) عطف علة على معلول أي: شقي بجحوده (**انتهى**).

(**وفي ذلك حكمة أخرى**) ثالثة (**على طريق أهل الإشارات**،) وهم المحققون من الصوفية، والإشارات الحقائق التي يأخذونها من نص القرآن وغيره، ولا يقصدون أن ما أخذوه تفسير صريح النص، كما قاله العز بن عبد السلام وغيره.

(**ذكرها العلامة**) محمد (**بن مرزوق، وهي أنه قيل: لأن الله تعالى لما محا آية الليل**) طمس نورها بالظلام لنسكن فيه، والإضافة للبيان، (**وجعل آية النهار مبصرة**،) أي: مبصرًا فيها بالضوء، وفائدة إضافة البيان تحقيق مضمون الجملة السابقة، (**انكسر الليل، فجبر بأن أسري فيه بمحمد ﷺ**،) وذلك أعظم الجبر، (**وقيل: افتخر النهار على الليل بالشمس، فقيل له:**

بالشمس فقيل له: لا تفتخر، فإن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيعرج شمس الوجود في الليل إلى السماء. وقيل: لأنه ﷺ سراج، والسراج إنما يوقد بالليل، وأنشد:

قلت يا سيدي فلم تؤثر الليـ ... ـل على بهجة النهار المنير
قال لا أستطيع تغيير رسمي ... هكذا الرسم في طلوع البدور
إنما زرت في الظلام لكيما ... يشرق الليل من أشعة نوري

فإن قلت: أيما أفضل، ليلة الإسراء أم ليلة القدر؟

فالجواب: ـ كما قاله الشيخ أبو أمامة بن النقاش ـ أن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ من ليلة القدر، وليلة القدر أفضل في حق الأمة، لأنها لهم خير لهم

لا تفتخر، فإن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيعرج شمس الوجود في الليل إلى السماء،) وهذا أيضًا من كلام أهل الإشارات، (**وقيل: لأنه ﷺ سراج،**) كما قال تعالى: ﴿**وسراجًا منيرًا**﴾ [الأحزاب/٤٦]الآية، (**والسراج إنما يوقد بالليل،**) أي: إنما يحصل الانتفاع بإيقاده ليلاً، ويذم بإيقاده نهارًا.

قال الفرزدق:

فكم والد لك يا جرير كأنه ... قمر المجرة أو سراج نهار

(**وأنشد**) في ذلك المعنى يقول:

(**قلت يا سيدي فلم تؤثر الليـ ... ـل على بهجة النهار المنير**
قال لا أستطيع تغيير رسمي ... هكذا الرسم في طلوع البدور
إنما زرت في الظلام لكيما ... يشرق الليل من أشعة نوري)

وحاصل معنى الأبيات أنه سأل محبوبه عن حكمة زيارته ليلاً دون النهار، فقال: أنا بدر، وهو إنما يظهر أثره ليلاً ولا يستطيع تغيير ذلك الأثر، وإن في زيارته ليلاً فائدة لا تظهر لو زاره نهارًا، وهي إشراق الليل بنوره، فصار الليل في حقه كالنهار في الإضاءة والإشراق.

(**فإن قلت: أيما أفضل ليلة الإسراء أم ليلة القدر**) التي هي خير من ألف شهر؟، (**فالجواب كما قاله الشيخ أبو أمامة بن النقاش، أن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ من ليلة القدر،**) لما أكرم به فيها من خوارق العادات التي أجلها رؤيته لله تعالى على الصحيح.

(**وليلة القدر أفضل في حق الأمة لأنها**) أي: العمل فيها (**خير لهم من عمل في ثمانين سنة لمن قبلهم،**) بإلغاء الكسر، وهو ثلاث سنين وثلث سنة، بناء على أن المراد حقيقة العدد

من عمل في ثمانين سنة لمن قبلهم، وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف. ولذلك لم يعينها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلى الآن ولا إلى أن تقوم الساعة فيها شيء، ومن قال فيها شيئًا فإنما قال من كيسه لمرجع ظهر له استأنس به، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها على شيء، ولو تعلق بها نفع للأمة ـ ولو بذرة ـ لبينه لهم نبيهم ﷺ، انتهى.

وهو ألف شهر، وصدر البيضاوي بأن المراد التكثير.

(**وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح**) أراد به ما يشمل الحسن بدليل قوله، (**ولا ضعيف، ولذلك لم يعينها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلى الآن، ولا**) يصح (**إلى أن تقوم الساعة فيها شيء**) لأنه إذا لم يصح من أول الزمان، لزم أن لا يصح في بقيته، لعدم إمكان تجدد واحد عادة يطلع على ذلك بعد الزمن الطويل، وهذا لا يشكل عليه ما قيل أنه كان ليلة سبع عشرة أو سبع وعشرين خلت من شهر ربيع الأول، أو سبع وعشرين من رمضان، أو من ربيع الآخر، أو من رجب، واختير وعليه العمل، لأن ابن النقاش لم ينف الخلاف فيها من أصله، وإنما نفى تعيين ليلة بخصوصها للإسراء وأنها أصح.

(**ومن قال فيها شيئًا، فإنما قال من كيسه**) أي: من عند نفسه دون استناد لنص يعتمد عليه (**لمرجع ظهر له، استأنس به**) لما جزم به، (**ولهذا**) أي: عدم إتيان شيء فيها (**تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها على شيء ولو تعلق بها نفع للأمة ولو بذرة**)، أي: شيئًا قليلاً جدًا (**لبينه لهم نبيهم ﷺ**) لأنه حريص على نفعهم. (**انتهى**) كلام أبي أمامة.

زاد الشامي عقبه: ويؤخذ من قول الإمام البلقيني في قصيدته التي مدح فيها المصطفى:

فأولاك رؤيته في ليلة فضلت ليالي القدر فيها الرب رضاكا

إن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، قال في الاصطفاء: ولعل الحكمة في ذلك اشتمالها على رؤيته تعالى التي هي أفضل كل شيء، ولهذا لم يجعلها ثوابًا عن عمل من الأعمال مطلقًا، بل منّ بها على عباده يوم القيامة تفضلاً منه تعالى انتهى، لكن هذا لا يصادم كلام ابن النقاش، إذ ليس في النظم أنها أفضل في حق الأمة وإن كان فضل الزمان والمكان لا يختص بالعمل فيهما على ما رجحه الشهاب القرافي وغيره، فهو خاص بتلك الليلة، لا يتعداها لمماثلها كل سنة لعدم ورود شيء فيه.

وفي الهدى لابن القيم، أن ابن تيمية سئل هل ليلة الإسراء أفضل أم ليلة القدر؟، فأجاب،

فإن قلت: هل وقع الإسراء لغيره ﷺ من الأنبياء؟

أجاب العارف عبد العزيز المهدوي: بأن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية لم تكن لأحد من الأنبياء، إلا لنبينا ﷺ. انتهى.

وإنما قال تعالى: ﴿أسرى بعبده﴾ إشارة إلى أنه تعالى هو المسافر به، ليعلم أن الإسراء من عبده هبة إلهية، وعناية ربانية، سبقت له عليه السلام، مما لم يخطر بسره، ولا اختلج في ضميره .

بأن القائل ليلة الإسراء أفضل إن أراد أنها ونظائرها كل عام أفضل، فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاضطرار، وإن أراد أنها بخصوصها أفضل، لأنه حصل له ﷺ فيها ما لم يحصل له في غيرها، وما لم يحصل لغيره فهو صحيح إن سلم أن إنعام اللّه على نبيه ليلة الإسراء أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وهذا لا يعلم إلا بوحي، ولا يجوز التكلم فيه بلا علم، ولا يعرف عن أحد من الصحابة، أنه خص ليلة الإسراء بأمر من الأمور.

(**فإن قلت: هل وقع الإسراء لغيره ﷺ من الأنبياء**) أم هو من خصائصه عليهم؟، (**أجاب العارف عبد العزيز المهدوي: بأن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات:**) (بفتح الضاد) جمع حضرة، أي: المراتب (**العلية لم تكن لأحد من الأنبياء إلا لنبينا ﷺ انتهى**).

وعبارة الأنموذج في الخصائص التي اختص بها على الأنبياء ولم يؤتها نبي قبله لفظها، وبالإسراء وما تضمنه من اختراق السموات السبع والعلوّ إلى قاب قوسين، ووطئه مكانًا ما وطئه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وإحياء الأنبياء له، وصلاته إمامًا بهم وبالملائكة، واطلاعه على الجنة والنار، عد هذه البيهقي، ورؤيته آيات ربه الكبرى وحفظه حتى ما زاغ البصر وما طغى، ورؤيته للباري تعالى مرتين، وبركوب البراق في أحد القولين، (**وإنما قال تعالى ﴿أسرى﴾**) مأخوذ من السرى، وهو سير الليل، تقول: أسرى وسرى إذا سار ليلاً، هذا قول الأكثر.

وقال الحوفي: أسرى: سار ليلاً، وسرى: سار نهارًا، وقيل: أسرى: سار من أول الليل، وسرى: سار من آخره، وهذا أقرب (﴿**بعبده**﴾) محمد ﷺ اتفاقًا، والضمير للّه تعالى، والإضافة للتشريف، والمراد جعل البراق يسري به كما يقال: أمضيت كذا، أي: جعلته يمضي، وحذف المفعول لدلالة السياق عليه، ولأن المراد ذكر المسرى به لا ذكر الدابة، قاله في الفتح (**إشارة إلى أنه تعالى هو المسافر به ليعلم أن الإسراء من عبده هبة إلهية وعناية ربانية سبقت له عليه السلام مما لم يخطر بسره ولا اختلج في ضميره**) ولعل وجه الإعلام بذلك، أنه إذا كان تعالى هو المسافر به أفاد أنه لم يكن منه فعل في الإسراء، بل هو منٌّ ونعمة منه عليه،

وأدخل «باء» المصاحبة في قوله تعالى: ﴿بعبده﴾ ليفيد أنه تعالى صحبه في مسراه، بالألطاف والعناية والإسعاف والرعاية، ويشهد له قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم أنت الصاحب في السفر».

وتأمل قوله تعالى: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ [يونس/٢٢]، وقوله: ﴿أسرى بعبده﴾ تلح لك خصوصية مصاحبة الرسول عليه الصلاة والسلام الحق سبحانه وتعالى دون عموم الخلق.

وقرن سبحانه وتعالى «التسبيح» بهذا الإسراء، لينفي عن قلب صاحب الوهم

(**وأدخل باء المصاحبة**) على قول المبرد والسهيلي، لأن الفعل اللازم إذا تعدى بالباء غيرت الباء معناه، بخلاف بقية الحروف إذا تعدى بها الفعل، فلا يغير شيء منها معناه، فلذا جعلت للمصاحبة (**في قوله: ﴿بعبده﴾، ليفيد أنه تعالى صحبه في مسراه بالألطاف والعناية والإسعاف والرعاية**،) بيان لمعنى صحبة الله لعبده لاستحالة المصاحبة الحقيقية عليه، هكذا جزم المبرد والسهيلي، أن الباء تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل بخلاف الهمزة، حتى قال السهيلي: إذا قلت قعدت به، فلا بد من مشاركة ولو باليد، وبه جزم ابن دحية وابن المنير.

زاد ابن دحية، (**ويشهد له**،) أي: لوصفه تعالى بالصحبة (**قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم أنت الصاحب في السفر»**،) والجمهور أن الباء للتعدية وترادف الهمزة، ولا تقتضي المصاحبة، ورد على المبرد وأتباعه بقوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ [البقرة/١٧]الآية، لأن الله تعالى لا يوصف بالذهاب مع النور، وبقول الشاعر:

ديار التي كانت ونحن على منى تحل بنا لولا نجاء الركائب

أي: تحلنا، فالباء هنا للتعدية، ولم تقتضي المشاركة، لأن الديار لم تكن حرامًا فتصير حلالاً، ولكن الباء بمعنى الهمزة لا يجمع بينهما، فلا يقال: أذهبت بزيد، (**وتأمل قوله تعالى: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾** [يونس/٢٢]**الآية، وقوله: ﴿أسرى بعبده﴾ تلح لك خصوصية مصاحبة الرسول عليه الصلاة والسلام الحق سبحانه وتعالى دون عموم الخلق**،) لأنه أتى بباء المصاحبة في «بعبده»، وأتى بـ «في» في العموم إشارة إلى الفرق بين لطفه بعبده وبين غيره من الخلق، (**وقرن سبحانه وتعالى التسبيح بهذا الإسراء**،) فقال: ﴿سبحان الذي أسرى﴾، وأصلها التنزيه، ويطلق في موضع التعجب، فعلى الأول المعنى تنزه الله عن أن يكون رسوله كذابًا، وعلى الثاني عجب الله عباده بما أنعم به على رسوله، ويحتمل أنه بمعنى الأمر، أي: سبحوا الذي أسرى، قاله في الفتح (**لينفي عن قلب صاحب الوهم ومن يحكم عليه خياله من**

ومن يحكم عليه خياله من أهل التشبيه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق سبحانه من الجهة والحد والمكان، ولذا قال: ﴿لنريه من آياتنا﴾ يعنى ما رأى في تلك الليلة من عجائب الآيات، كأنه سبحانه وتعالى يقول: ما أسريت به إلا لرؤيته الآيات، لا «إلي» فإني لا يحدني مكان، ونسبة الأمكنة إلي نسبة واحدة، فكيف أسري به إلي، وأنا عنده، وأنا معه أينما كان. ولله در القائل لا محا معنى ما ذكر:

سبحان من أسرى إليه بعبده ليرى الذي أخفاه من آياته
كحضوره في غيبة وكسكره في صحوه والمحو في إثباته
ويرى الذي عنه تكون سره في منعه إن شاءه وهباته

أهل التشبيه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق سبحانه من الجهة والحد والمكان) حملاً لقوله: ﴿أسرى بعبده من المسجد﴾، على ظاهره، فيكون معناه صاحبه في سيره من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وذلك محال في حقه.

وفي البيضاوي تصديره بالتسبيح للتنزيه عن العجز عما ذكر بعد.

(ولذا قال: ﴿لنريه من آياتنا﴾ ، يعني ما رأى في تلك الليلة من عجائب الآيات، كأنه سبحانه وتعالى: يقول ما أسريت به إلا لرؤيته الآيات، لا إليّ فإني لا يحدني مكان،) لأنه الخالق له وموجده فكيف يحده، (ونسبة الأمكنة إلي نسبة واحدة، فكيف أسري به) (بضم الهمزة مضارع من أسرى)، أي: كيف أنقله من المكان الذي هو به لأحضره (إليّ، وأنا عنده وأنا معه أينما كان،) أي: في أي مكان حل به، (ولله در القائل: لا محا معنى ما ذكر:)

(سبحان من أسرى إليه بعبده ليرى الذي أخفاه من آياته)

أي: ستره عن عامة خلقه، ويرى مبني للفاعل بفتح أوله أو بضمه وحذف المفعول، أي: ليريه، ومثل لذلك على طريق أهل الإشارات بقوله: (كحضوره في غيبة) يعنون بها غيبة القلب عن علم ما يجري من أحكام الخلق لشغل الحس بما ورد عليه من الحق حتى أنه قد يغيب عن إحساسه بنفسه فضلاً عن غيره، والغيبة بإزاء الحضور، والغيب بإزاء الشهادة، فيقال الغيب عن عالم الشهادة حضور في عالم الغيب، والحضور في عالم القدس غيبة عن عالم الحس، (وكسكره،) وهو غيبة بوارد قوي (في صحوه،) وهو الرجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي، وذلك أن العبد إذا كوشف بنعت الجمال سكر وطرب وهام قلبه، فإذا عاد من سكره سمى صاحيًا، (والمحو) رفع أوصاف العادة (في إثباته،) وهو إقامة أحكام العادة مقابل للمحو.

(ويرى الذي عنه تكوّن سره،) السر يعني به عن حصة كل موجود من الحق بالتوجه

ويريه ما أبدى له من جوده   بوجوده والفقد من هيئآته
سبحانه من سيد ومهيمن   في ذاته وسماته وصفاته

وأكد اللّٰه تعالى بقوله: ﴿ليلاً﴾ مع أن الإسراء لا يكون في اللسان العربي إلا ليلاً، لا نهارًا، ليدفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه فقط، ويزيل من خاطر من يعتقد من الناس أن الإسراء ربما يكون نهارًا، فإن القرءان وإن كان نزوله بلغة العرب. فإنه خاطب به الناس أجمعين، أصحاب اللسان العربي وغيرهم.

الإيجادي المنبه عليه بقوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل/٤٠]الآية، **(في منعه إن شاءه)** أي: المنع **(وهباته:)** جمع هبة، ذكره كله في لطائف الأعلام، **(ويريه)** من الإراءة **(ما أبدى:)** أظهر **(له من جوده)** تعالى عليه ﷺ **(بوجوده والفقد من هيئاته)**.

(سبحانه من سيد) من أسمائه تعالى، كما في حديث **(ومهيمن،)** كما في التنزيل، المهيمن، أي: الشاهد الحافظ، أو المؤمن، أو الأمين، أو الرقيب، أو القائم على خلقه، **(في ذاته وسماته)** (بتثليث السين) لغة في الأسماء، وهو ما دل على الذات باعتبار صفة **(وصفاته:)** جمع صفة، وهي المعنى القائم بالذات، **(وأكد اللّٰه تعالى بقوله ليلاً مع أن الإسراء لا يكون في اللسان العربي إلا ليلاً لا نهارًا،)** وكذا سرى عند الأكثر كما مر.

قال الحافظ: ولم تختلف القراء في ﴿أسرى﴾ بخلاف قوله تعالى في قصة لوط، ﴿فأسر﴾ [هود/٨١]، فقرئت بالوصل والقطع، ففيه تعقب على من قال سرى وأسرى بمعنى واحد.

قال السهيلي: السرى من سريت إذا سرت ليلاً، يعني فهو لازم، والإسراء يتعدى في المعنى، لكن حذف مفعوله حتى ظن من ظن أنهما بمعنى واحد، وإنما معنى ﴿أسرى بعبده﴾ جعل البراق يسري به، كما تقول أمضيت كذا، أي: جعلته يمضي، لكن حذف المفعول لقوّة الدلالة عليه والاستغناء عن ذكره، إذ المقصود بالذكر المصطفى لا الدابة التي سارت به.

وأما قصة لوط، فالمعنى سر بهم على ما يتحملون عليه من دابة ونحوها، هذا معنى قراءة القطع، ومعنى الوصل سر بهم ليلاً، ولم يأت مثل ذلك في الإسراء، لأنه لا يجوز أن يقال سرى بعبده بوجه من الوجوه.

قال الحافظ: والنفي الذي جزم به إنما هو من هذه الحيثية التي قصد فيها الإشارة إلى أنه سار ليلاً على البراق، وإلا فلو قال قائل: سرت بزيد، بمعنى صاحبته لكان المعنى صحيحًا **(ليدفع الإشكال؛** حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه فقط:) دون جسده، **(ويزيل من خاطر من يعتقد من**

وقال البيضاوي تبعًا لصاحب الكشاف: وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء، ولذلك قرىء «من الليل» أي بعضه: كقوله تعالى: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾ [الإسراء/٧٩] وتعقبه القطب في حاشيته على الكشاف كما نبهت عليه في حاشية الشفاء.

والمعاريج ليلة الإسراء عشرة، سبع إلى السموات، والثامن إلى سدرة المنتهى. والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف

الناس أن الإسراء ربما يكون نهارًا، فإن القرآن وإن كان نزوله بلغة العرب، فإنه خاطب به الناس أجمعين أصحاب اللسان العربي وغيرهم).

وهذا على قول الأكثر من اختصاصه بالليل وإلا ففي الفتح ليلاً ظرف للإسراء للتأكيد، وفائدته دفع توهم المجاز، لأنه قد يطلق على سير النهار أيضًا.

(**وقال البيضاوي تبعًا لصاحب الكشاف**) الزمخشري، (**وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء**،) أي: أنه وقع في بعض الليل لا في جميعه، والعرب تقول سرى فلان ليلاً إذا سار بعضه، وسرى ليلة إذا سار جميعها، كما في الفتح، (**ولذلك قرىء**) في الشواذ: (**من الليل، أي: بعضه، كقوله تعالى:** ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾ [الإسراء/٧٩]الآية).

وقيل: يقال: أسرى ليلاً إذا سار أثناء الليل، وإذا سار في أوله، ويقال: أدلج منه، ومنه قوله تعالى في قصة موسى: ﴿**فأسر بعبادي ليلاً**﴾ [الدخان/٢٣] الآية، أي: من وسط الليل، (**وتعقبه القطب في حاشيته على الكشاف، كما نبهت عليه في حاشية الشفا،**) أي: نقل القطب التعقب عن غيره وأقره، فلذا نسبه إليه، وعبارته قال بعضهم، وفيه نظر، لأن التنكير للتقليل لا يكون إلا فيما يقبل القلة والكثرة، والليل لا يقبلهما ولا يسلم له أيضًا على تقدير أنه بالاعتبار، لأن هذا المعنى وهو البعض حاصل ولو لم ينكر، فإن قولك دخل زيد البلد الليل، أو ليلاً، يفيد هذا المعنى، إذ ليس الدخول في كل الليل انتهى.

قال النعماني: وفيه نظر، إذ لا نسلم أن هذا وزانه، وإنما وزانه طاف الأمير البلد ليلاً، فإن طوافه قد يكون مستغرقًا لكل الليلة، ولما استشعر صاحب الكشاف هذا استشهد بقراءة عبد الله وحذيفة من الليل، ولا يسلم أيضًا كونها تبعيضية، بل يجوز أنها ابتدائية، فالسؤال باق انتهى.

(**والمعاريج ليلة الإسراء عشرة، سبع إلى السموات**) السبع، (**والثامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام:**) تصويتها (**في تصاريف**

الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي.

وقد وقع له عليه الصلاة والسلام في سني الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة بهذه المعاريج العشرة، ولهذا ختمت سني الهجرة بالوفاة، وهي لقاء الحق جل جلاله، والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة. كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس.

وقد أفاد الإمام الذهبي أن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الإسراء في جزأين، ولم يتيسر لي الوقوف عليهما بعد الفحص الشديد.

وقد صنف الشيخ أبو إسحٰق النعماني -رحمه الله- في الإسراء والمعراج كتابًا جامعًا لَلإطناب بزيادة الرقائق والإشحان بفواضل الحقائق، ولم أقف عليه

الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية) لله عز وجل، **(وسماع الخطاب)** منه **(بالمكافحة:)** المخاطبة **(والكشف الحقيقي، وقد وقع له عليه الصلاة والسلام في سني الهجرة:)** بكسر السين، جمع سلامة لسنة، وبسكون الياء، فحذفت النون للإضافة، فالتقى ساكنان الياء واللام، فحذفت الياء لفظًا لالتقاء الساكنين، فبقي هكذا سني خطأ فتكتب الياء ولا تقرأ **(العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة بهذه المعاريج العشرة،)** ويأتي ذكرها للمصنف، **(ولهذا ختمت سني الهجرة،)** كذا في جميع النسخ بالياء، والصواب سنو بالواو، لأنه جمع مذكر سالم نائب فاعل، ختمت **(بالوفاة، وهي لقاء الحق جل جلاله والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق،)** مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، وأريد به الجنس، وقرىء مقاعد صدق، والمعنى أن مجالس الجنات سالمة من اللغو والتأثيم بخلاف مجالس الدنيا، فقل أن تسلم من ذلك، **(وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة، كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس، وقد أفاد الإمام الذهبي)** محمد الحافظ، العالم الشهير، نسبة إلى الذهب **(أن الحافظ عبد الغني)** المقدسي **(جمع أحاديث الإسراء في جزأين، ولم يتيسر لي الوقوف عليهما بعد الفحص)** الطلب **(الشديد، وقد صنف الشيخ أبو إسحٰق)** إبراهيم **(النعماني،)** تلميذ الحافظ ابن حجر **(رحمه الله في الإسراء والمعراج كتابًا جامعًا للإطناب بزيادة الرقائق والإشحان بفواضل الحقائق،)** أي: بزيادة بيانها، **(ولم أقف عليه حال كتابتي هذا المقصد الشريف،)** وقد

حال كتابتي هذا المقصد الشريف.

والله تعالى يرحم شيخ الإسلام والحافظ الشهاب ابن حجر العسقلاني، فإنه جمع في كتابه «الفتح» كثيرًا مما تشتت من طرق حديث الإسراء وغيره من الأحاديث، مع تدقيق مباحث فقهية، والكشف عن أسرار معاني كلمه وبدائع ألفاظه وحكمه.

وكل من صنف في شيء من المنح النبوية، والمناقب المحمدية لا يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض «عياض» والاستشفاء من أدواء المشكلات بدواء «شفائه» المبرئ لمعضل الأمراض.

والله تعالى يفيض عليه وعلى سائر علماء الأمة سجال رحمته ورضوانه ويسكننا معهم في بحبوحة جنانه.

وقد وردت أحاديث الإسراء من حديث أنس، وأبي بن كعب، وجابر بن

وقفت عليه، **(والله تعالى يرحم شيخ الإسلام والحافظ الشهاب ابن حجر العسقلاني، فإنه جمع في كتابه الفتح كثيرًا مما تشتت من طرق حديث الإسراء وغيره من الأحاديث مع تدقيق مباحث فقهية والكشف عن أسرار معاني كلمه وبدائع ألفاظه وحكمه،)** وأكثر ما ذكره المصنف هنا منه، **(وكل من صنف في شيء من المنح:)** العطايا **(النبوية والمناقب المحمدية لا يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض عياض،)** أي: فوائده المذكورة في الشفا، سماها رياضًا لكثرة نفعها، كنفع الأشجار المثمرة للعامة، **(والاستشفاء من أدواء المشكلات بدواء شفائه المبريء لمعضل)** بكسر الضاد، أي: شديد **(الأمراض، والله تعالى يفيض عليه وعلى سائر علماء الأمة سجال رحمته ورضوانه، ويسكننا معهم في بحبوحة)** بضم الباءين، **(جنانه،)** أي: وسطها.

(وقد وردت أحاديث الإسراء من حديث أنس) بن مالك في روايته عن النبي ﷺ بلا واسطة، رواه أحمد ومسلم عن ثابت، والشيخان عن شريك، وابن مردويه عن كثير بن خنيس، والنسائي وابن مردويه عن يزيد بن أبي مالك، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الرحمن بن هاشم، وعبد العزيز بن صهيب والطبراني عن ميمون بن سيار، وابن جرير عن كثير بن سليم، وابن مردويه عن أبي هاشم، وعلي بن زيد، وثمامة، وابن سعد، وسعيد بن منصور، والبزار عن أبي عمراني الجوني، الأحد عشر عن أنس عن المصطفى بلا واسطة، **(وأبي ابن كعب)،** رواه عنه ابن مردويه عن طريق عبيد بن عمير، ومن طريق مجاهد عن ابن عباس،

عبد اللَّه، وبريدة، وسمرة بن جندب، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عمرو، وحذيفة بن اليمان، وشداد بن أوس، وصهيب، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، ومالك بن صعصعة، وأبي أمامة، وأبي أيوب، وأبي حبة، وأبي

وعبد اللَّه بن أحمد في زوائد المسند، بلفظ حديث أنس عن أبي ذر حرفًا حرفًا.

قال الحافظ في أطراف المسند، أنه وقع فيه تحريف، وكان في الأصل عن أبي ذر، فسقط من النسخة لفظة ذر، فظن أنه ابن كعب فأدرج في مسند أبي بن كعب، غلطًا.

قال الشامي: نبه الدارقطني في العلل على أن الوهم فيه من أبي حمزة أنس بن عياض، **(وجابر بن عبد اللَّه)** عند الشيخين، ورواه الطبراني وابن مردويه بلفظ آخر بسند صحيح، **(وبريدة)** (بضم الموحدة وفتح الراء وسكون التحتية) ابن الحصيب (بمهملتين مصغر)، رواه الترمذي والحاكم وصححه، **(وسمرة بن جندب)** عند ابن مردويه، **(وابن عباس)** عبد اللَّه رواه أحمد، والشيخان، وأبو يعلى، وأبو نعيم، وابن مردويه، والنسائي، والبزار بطرق كلها مختصرة، **(وابن عمر)** رواه أبو داود والبيهقي، **(وابن مسعود)** رواه مسلم، وابن عرفة، وأحمد، وابن ماجه، والبزار، وأبو يعلى، والطبراني، والبيهقي بطرق عندهم عنه، **(وابن عمرو)** (بفتح العين) ابن العاصي عند ابن سعد، وابن عساكر، **(وحذيفة ابن اليمان)** عند ابن أبي شيبة، وأحمد والترمذي وصححه، **(وشداد بن أوس)** عند البزار، والطبراني والبيهقي وصححه، **(وصهيب)** بن سنان عند الطبراني وابن مردويه، **(وعلي بن أبي طالب)** عند أحمد وابن مردويه، **(وعمر بن الخطاب)** رواه أحمد وابن مردويه، **(ومالك بن صعصعة)** رواه أحمد، والشيخان، وابن جرير، والبيهقي وغيرهم، **(وأبي أمامة)** عند ابن مردويه في تفسيره، **(وأبي أيوب)** الأنصاري، رواه الشيخان في أثناء حديث أبي ذر، **(وأبي حبة)** (بموحدة على الصحيح) الأنصاري، الأوسي، البدري، رواه ابن مردويه.

قال في الإصابة: وقع ذكره في الصحيح من رواية الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبي حبة البدري عقب حديث الزهري، عن أنس، عن أبي ذر في الإسراء، وروي عنه أيضًا عمار بن عمار وحديثه عنه في مسند ابن أبي شيبة، وأحمد، وصححه الحاكم، وصرح بسماعه منه، وعلى هذا فهو غير الذي ذكر ابن إسحٰق أنه استشهد بأحد.

قال أبو حاتم: اسمه عامر بن عبد عمرو بن عمير بن ثابت، وقال أبو عمر: يقال بالموحدة وبالنون وبالياء، والصواب بالموحدة، وقيل: اسمه عامر، وقيل: مالك، وبالنون ذكره ابن عقبة وابن أبي خيثمة، وأنكر الواقدي أن يكون في البدريين من يكنى أبا حبة بالموحدة، وقد خلطه غير واحد بأبي حبة بن غزية بن عمرو الخزرجي، النجاري، وفرق بينهما غير واحد، وصوبه ابن عبد

ذر، وأبي سعيد الخدري، وأبي سفيٰن بن حرب، وأبي هريرة، وعائشة، وأسماء بنت أبي بكر، وأم هانىء، وأم سلمة، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي تفسير الحافظ ابن كثير من ذلك ما يكفي ويشفي.

وبالجملة: حديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة

البر، فقال: هذا خزرجي، وذاك أوسي، وهذا لم يشهد بدرًا، وذاك شهدها، **(وأبي ذر)** رواه الشيخان، **(وأبي سعيد الخدري)** رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق هٰرون العبدي، وهو متكلم فيه.

وقد روى البيهقي عن أبي الأزهر، قال: حدثنا زيد بن أبي حكيم، قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله رجل من أمتك يقال له سفيٰن لا بأس به، فقال ﷺ: «لا بأس به».

حدثنا عن أبي هٰرون عن أبي سعيد، عنك؛ أنك ليلة أسري بك قلت: رأيت في السماء، فحدثته بالحديث، فقال: نعم، فقلت: إن أناسًا من أمتك يحدثون عنك في الإسراء بعجائب، فقال: ذاك حديث القصاص.

(وأبي سفيٰن بن حرب) عند أبي نعيم في الدلائل، **(وأبي هريرة،)** رواه مطولاً ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي، والحاكم، وصححه مختصرًا الشيخان، وأحمد، وابن ماجه، وابن مردويه، وابن سعد، والطبراني، وسعيد بن منصور بطرق عنه، **(وعائشة)** عند الحاكم وصححه، والبيهقي وابن مردويه، **(وأسماء بنت أبي بكر)** رواه ابن مردويه، **(وأم هانيء)** عند الطبراني، **(وأم سلمة)** عند الطبراني، وأبي يعلى، وابن عساكر، وابن إسحٰق **(وغيرهم)** فأخرجه ابن عساكر عن سهل بن سعد، والبزار، والبغوي، وابن قانع عن عبد الله بن أسعد بن زرارة، والطبراني عن أبي الحمراء، وابن مردويه والطبراني عن أبي ليلى الأنصاري، وسعيد بن منصور عن عبد الرحمٰن بن قرط، وذكره ابن دحية عن أبي بكر الصديق، وعبد الرحمٰن بن عابس، وأبي سلمة وعياض.

وذكره أبو حفص النسفي عن العباس بن عبد المطلب، وعثمٰن بن عفان، وأبي الدرداء، وأبي سلمى راعي النبي ﷺ، وأم كلثوم بنت المصطفى، وبلال بن حمامة، وبلال بن سعد، وابن الزبير، وابن أبي أوفى، وأسامة بن زيد.

قال الشامي: ولم أقف على حديثه، فهؤلاء خمسة وأربعون صحابة رووا القصة **(رضي الله تعالى عنهم أجمعين)**.

(وفي تفسير الحافظ ابن كثير من ذلك ما يكفي ويشفي، وبالجملة حديث الإسراء

الملحدون، ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف/٨].

وقد روى البخاري، عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به.

بينما أنا نائم في الحطيم -وربما قال: في الحجر- مضطجعًا، إذ أتاني آت فقدَّ -قال: سمعته يقول: فشق- ما بين هذه إلى هذه. قال: فقلت للجارود وهو

أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون،) لاستحالته في زعمهم الكاذب، **﴿يريدون ليطفئوا﴾**، منصوب بأن مقدرة، واللام مزيدة (**﴿نور الله﴾**)، وشرعه وبراهينه (**﴿بأفواههم﴾**)، بأقوالهم فيه، (**﴿والله متم﴾**) مظهر (**﴿نوره ولو كره الكافرون﴾**) [الصف/٨] الآية، ذلك وقد، ساق البرهان النعماني غالب ألفاظ الصحابة الذين رووا القصة، والمصنف اقتصر على حديث البخاري في باب المعراج، وتكلم بعده بما غالبه من فتح الباري، فقال: (**وقد روى البخاري**) بسنده، وهو حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا همام (**عن قتادة**) بن دعامة، وليس هذا من التعليق في شيء، (**عن أنس بن مالك،**) وكذا رواه مسلم والنسائي، وأخرجه البخاري في بدء الخلق من وجه آخر عن قتادة، حدثنا أنس، فزال ما يخشى من تدليس قتادة لتصريحه بالتحديث، (**عن مالك ابن صعصعة**) بن وهب بن عدي بن مالك الأنصاري، من بني النجار ما له في البخاري ولا في غيره سوى هذا الحديث، ولا يعرف من روى عنه إلا أنس بن مالك قاله في الفتح.

وذكر في الإصابة الخلاف في أنه من بني عدي بن النجار، وبه جزم ابن سعد، أو من بني مازن بن النجار، وبه جزم البغوي، وقال: سكن المدينة.

وروي عن النبي ﷺ حديثين، وذكر الخطيب في المبهمات أنه الذي قال له النبي ﷺ: أكل تمر خيبر هكذا، (**أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به**) فيها صفة الليلة، هكذا رواه الكشميهني والنسفي، ورواه الأكثر عن ليلة الإسراء وبين ما حدثه به بقوله، (**بينما،**) أي: فقال المصطفى: بينما وثبت في بعض نسخ البخاري قال: بينما بالميم، (**أنا نائم في الحطيم، وربما قال: في الحجر**) بكسر فسكون، والشك من قتادة كما يأتي، والمراد بالحطيم الحجر، (**مضطجعًا**) نصب على الحال (**إذ أتاني آت**) هو جبريل، (**فقد**) بالقاف والدال الثقيلة، (**قال**) قتادة: (**سمعته**)، أي: أنسًا (**يقول**): فالقائل قتادة، والمقول عنه أنس، ولأحمد قال قتادة: وربما سمعت أنسًا يقول: قاله الحافظ، فلم يصب من قال الظاهر أن ضمير قال لمالك بن صعصعة، (**فشق ما بين هذه إلى هذه، قال**) قتادة: (**فقلت للجارود:**) بفتح الجيم فألف فراء مضمومة فواو فدال مهملة.

إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغره نحره إلى شعرته. فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد.

قال الحافظ: لم أر من نسبه من الرواة، ولعله ابن أبي سبرة البصري، صاحب أنس، فقد أخرج له أبو داود من روايته، عن أنس حديثًا غير هذا انتهى، وجزم المصنف بما ترجاه، **(وهو إلى جنبي ما يعني)** أنس **(به،)** أي: بقوله: فشق ما بين هذه إلى هذه، **(قال:)** يعني **(من ثغره نحره)** بضم المثلثة وسكون المعجمة: الموضع المنخفض بين الترقوتين **(إلى شعرته)** بكسر المعجمة، أي: شعر العانة، ووقع السؤال: هل كان شق صدره الشريف بآلة أم لا؟، ولم يجب عنه أحد، ولم أر من تعرض له بعد التتبع، وظاهر قوله: فشق أنه كان بآلة، ويدل له قول الملك في حديث أبي ذر خط بطنه فخاطه، وفي لفظ عتبة بن عبد حصه فحاصه.

وفي حديث أنس: كانوا يرون أثر المخيط في صدره ﷺ، ذكره الشامي، وزعم بعض أن الشق في المرات كلها لم يكن بآلة، ولم يسل منه دم، ولم يجد لذلك ألمًا، كما صرح في بعض الروايات، لأنه من خرق العادات وظهور المعجزات، **(فاستخرج قلبي، ثم أتيت)** (بضم الهمزة) **(بطست)** (بفتح الطاء وبكسرها وسكون السين المهملة وبمثناة وقد تحذف)، وهو الأكثر إثباتها لغة طيىء، وأخطأ من أنكرها، قاله الحافظ **(من ذهب)** قبل تحريم استعماله، **(مملوءة)** بالجر على الصفة والتأنيث على لفظ الطست، لأنها مؤنثة **(إيمانًا)** نصب على التمييز ملئًا حقيقة، وتجسد المعاني جائز، كتمثيل الموت كبشًا، ووزن الأعمال وغير ذلك من أحوال الغيب، أو مجازًا من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيرًا، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالحسي، ثم هذا لفظ البخاري في المعراج، وله في بدء الخلق بطست ملىء حكمة وإيمانًا بالتذكير باعتبار الإناء، وللمستملي والحموي ملآن بفتح الميم وسكون اللام وهمزة ونون، وللكشميهني ملأى بفتح الميم وسكون اللام وفتح الهمزة مؤنث على لفظ الطست، فزاد في هذه الرواية حكمة.

قال ابن أبي جمرة فيه: إن الحكمة ليس بعد الإيمان أجل منها، ولذا قرنت معه، ويؤيده قوله تعالى: **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾** [البقرة/٢٦٩]الآية، وأوضح ما قيل فيها، أنها وضع الشيء في محله أو الفهم في كتاب الله، وعلى الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد، وعلى الأوّل قد يتلازمان، لأن الإيمان يدل على الحكمة، **(فغسل)** بضم الغين، أي: غسل جبريل **(قلبي)**.

وفي مسلم والبخاري في الصلاة بماء زمزم، لأنه أفضل المياه ويقوّي القلب، **(ثم حشي)** بضم المهملة وكسر المعجمة إيمانًا وحكمة، **(ثم أعيد)** موضعه من الصدر المقدس، وللبخاري

ثم أتيت بدابة، دون البغل وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم ـ يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال:

في الصلاة: ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، **(ثم أتيت)** بضم الهمزة، **(بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض،)** ذكر باعتبار كونه مركوبًا أو نظرًا للفظ البراق، وحكمة كونه بهذه الصفة الإشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك عادة.

(فقال له الجارود: هو البراق) استفهام حذفت أداته **(يا أبا حمزة)** بمهملة وزاي، كنية أنس، **(قال أنس: (نعم)** هو البراق بضم الموحدة وتخفيف الراء، ضبطه الحافظ وغيره، وكثيرًا ما يخطيء المتشدقون، فيقرؤنه بكسر الباء، **(يضع خطوه)** بفتح المعجمة المرة الواحدة وبضمها الفعلة **(عند أقصى طرفه)** بسكون الراء وبالفاء، أي: نظره، أي: يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره.

قال الحافظ: والتعبير بالخطو مجاز، لأنه مصدر وهو لا يتصف بالوضع، **(فحملت عليه)** بضم الحاء مبنيًا للمفعول، **(فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا،)** ظاهره أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء، وليس بمراد، بل هذا اختصار من الراوي، ويأتي بسطه للمصنف.

وقال النعماني: ما المانع من أنه ﷺ رقي المعراج فوق ظهر البراق بظاهر هذا الحديث انتهى، والمانع من ذلك ربطه ببيت المقدس، كما يأتي بيانه، **(فاستفتح،)** أي: طلب فتح باب السماء بقرع أو صوت، والأشبه الأوّل، لأن صوته معروف، قاله الحافظ، وصرح به في رواية مسلم عن ثابت عن أنس بلفظ: فقرع الباب.

وفي حديث أبي ذر: قال جبريل لخازن السماء: افتح، فيجمع بينهما بأنه فعل القرع والصوت معًا، والتعليل بمعرفة صوته لا ينهض مع كون السماء شفافة.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي في ذكر الأنبياء إلى باب من أبواب السماء الدنيا، يقال له باب الحفظة، وعليه ملك يقال له إسمٰعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك.

وفي حديث جعفر بن محمد عند البيهقي أيضًا: يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض قط إلا يوم مات النبي ﷺ.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي في الدلائل وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف.

(قيل: من هذا) الذي يقرع الباب؟، **(قال: جبريل، قال: ومن معك؟، قال: محمد،)**

ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم، قال: هذا أبوك فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح النبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثانية، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحبًا به، فنعم

وهذا يشعر بأنهم أحسوا معه برفيق إما بمشاهدة، لأن السماء شفافة، وإما بأمر معنوي، كزيادة أنوار ونحوها، تشعر بتجدد أثر يحسن معه السؤال بهذه الصيغة، وإلا كان السؤال بلفظ: أمعك أحد؟، (**قيل: وقد أرسل إليه**) للعروج إلى السماء على الأظهر لقوله إليه، لأن أصل بعثه قد اشتهر في الملكوت الأعلى، كما يأتي في المتن، (**قال: نعم، قيل: مرحبًا به،**) أي: لقي رحبًا (بضم الراء وفتحها وسكون الحاء وبفتحها) وسعة، وكني بذلك عن الانشراح، (**فنعم**) لفظ البخاري في المعراج، وله في بدء الخلق، ولنعم (**المجيء جاء**).

قال ابن لملك: فيه شاهد على الاستغناء بالصلة عن الموصول، أو الصفة عن الموصوف في باب نعم لأنها تحتاج إلى فاعل هو المجيء وإلى مخصوص، بمعناها وهو مبتدأ مخبر عنه بنعم، وفاعلها، فهو في هذا وشبهه موصول أو موصوف بجاء، والتقدير نعم المجيء الذي جاء، أو نعم المجيء مجيء جاء، وكونه موصولاً أجود، لأنه مخبر عنه، والمخبر عنه إذا كان معرفة أولى من كونه نكرة انتهى، فلا حذف فيه ولا تقديم خلافًا لقول المظهري المخصوص المدح محذوف، وفيه تقديم وتأخير تقديره جاء، فنعم المجيء مجيئه،(**ففتح**) الباب، (**فلما خلصت**) بفتح اللام، أي: وصلت، (**فإذا فيها آدم**).

وفي حديث أنس عن أبي ذر عند البخاري في الصلاة: فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقلت لجبريل: من هذا؟، (**قال: هذا أبوك،**) ووقع ذكر الإسم هنا في بعض النسخ، والصواب إسقاطه، إذ ليس في حديث أنس عن لملك بن صعصعة الذي هو في سياق لفظه، وإنما هو في حديث أنس عن أبي ذر، كما في البخاري، (**فسلم عليه،**) لأن المار يسلم على القاعد، وإن كان المار أفضل، (**فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح،**) فيه إشارة إلى افتخاره بأبوّة (**النبي**) ﷺ و(**الصالح**) القائم بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد، فلذا كانت كلمة جامعة لمعاني الخير وتوارد الأنبياء على وصفه بها، وكررها كل منهم عند كل صفة.

(**ثم صعد بي إلى السماء الثانية، فاستفتح**) جبريل بابها، (**وقيل: من هذا؟، قال: جبريل، قال: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم، قيل: مرحبًا به،**)

المجيء جاء ففتح لنا، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت عليهما فردا ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

فنعم المجيء مجيء جاء، أو الذي **(جاء، ففتح لنا)** الخازن الباب، **(فلما خلصت إذا يحيى)**، بن زكريا **(وعيسى)** ابن مريم.

زاد في حديث أبي سعيد عند ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي شبيه أحدهما بصاحبه ثيابهما وشعرهما ومعهما نفر من قومهما، وإذا عيسى جعد مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، كأنما خرج من ديماس، أي: حمام شبهه بعروة بن مسعود الثقفي، **(وهما ابنا الخالة،)** لأن أم يحيى إيشاع، بنت فاقود أخت حنة بمهملة ونون شديدة، بنت فاقود أم مريم، وذلك أن عمران بن ماثان تزوج حنة، وتزوج زكريا إيشاع، فولدت إيشاع يحيى، وولدت حنة مريم، فتكون إيشاع خالة مريم، وحنة خالة يحيى، فهما ابنا خالة بهذا الاعتبار، وليس عمران هذا أبا موسى، إذ بينهما فيما قيل ألف وثمانمائة سنة.

قال ابن السكيت: يقال ابنا خالة ولا يقال ابنا عمة، ويقال ابنا عم ولا يقال ابنا خال.

قال الحافظ: والسبب فيه أن ابني الخالة أم كل منهما خالة الآخر لزومًا بخلاف ابني العمة، **(قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت عليهما فردا)** عليّ السلام، **(ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح)** جبريل الباب، **(قيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم، قيل: مرحبًا به. فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت، إذا يوسف قال)** لي جبريل: **(هذا يوسف فسلم عليه،)** ولعل حكمة أمره بالسلام على كل من ورد عليه، ولم يكتف بالأمر الأول مع حصول العلم بطلب السلام على كل من مر عليه منهم، الإشارة إلى استحقاق كل منهم للتعظيم، وإن من مر على جماعة مترتبين يطلب منه السلام على كل منهم بخصوصه، **(فسلمت عليه، فرد، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح،)** زاد في مسلم في رواية ثابت عن أنس: فإذا هو قد أعطى شطر الحسن، أي: الذي أوتيه نبينا ﷺ، كما

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

قال ابن المنير، أو المراد غير المصطفى بالمرة، ويأتي بسطه للمصنف، **(ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء)** الذي **(جاء، فلما خلصت، فإذا إدريس،)** زاد في حديث أبي سعيد عند ابن جرير، وابن أبي حاتم والبيهقي: قد رفعه الله مكانًا عليًا، واستشكل بأنه رأى هرون وموسى وإبراهيم في مكان أرفع منه، وأجيب بأن وجهه ما ذكر كعب الأحبار؛ أن إدريس خص من بين جميع الأنبياء برفعه حيًا، رفعه الملك الموكل بالشمس، وكان صديقًا له، وكان إدريس يسأله أن يريه الجنة، فإذن له الله في ذلك، فلما كان في السماء الرابعة، رآه ملك الموت، فعجب، وقال: أمرت أن أقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فقبضه هناك، فرفعه حيًا إلى ذلك المقام، خاص به دون الأنبياء، قاله السهيلي، وتعقبه الحافظ في كتاب الأنبياء، فقال: فيه نظر، لأن عيسى أيضًا رفع وهو حي على الصحيح، وكون إدريس رفع وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة قوية.

وروى الطبري، أن كعبًا قال لابن عباس: إن إدريس سأل صديقًا له من الملائكة، فحمله بين جناحيه، ثم صعد به، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت، فقال له: أريد أن تعلمني كم بقي من أجل إدريس؟، قال: وأين إدريس؟، قال: هو معي، قال: إن هذا لشيء عجيب، أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة، فقلت: كيف ذلك وهو في الأرض، فقبض روحه، فذلك قوله تعالى: ﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾ [مريم/٥٧]الآية، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته انتهى.

والجواب عن السهيلي؛ أنه قيد خصوصية إدريس برفعه حيًا إلى السماء الرابعة، فلا يرد عيسى، لأنه رفع حيًا إلى السماء الثانية، وذكر ابن قتيبة؛ أن إدريس رفع وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة.

(قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح،) قيل: فيه رد على النسابة في قولهم إدريس جد نوح، وإلا لقال والابن الصالح، كما قال آدم، ولا رد فيه، لأنه خاطبه بالأخوّة تادبًا وتلطفًا، وإن كان أبًا، والمؤمنون إخوة، وكان وجه الخطاب بذلك لرفعه مكانًا عليًا، **(ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة،**

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هٰرون، قال: هذا هٰرون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

فاستفتح، فقيل: من هذا؟، قال: جبريل، قال: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت، فإذا هٰرون) زاد في حديث أبي سعيد عند ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والبيهقي: ونصف لحيته بيضاء، ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرب إلى سرته من طولها.

وفي حديث أبي هريرة عند ابن جرير، والبيهقي وغيرهما: وحوله قوم من بني إسرائيل، وهو يقص عليهم، **(قال: هذا هٰرون، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟، قال: جبريل، قال: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم)** هكذا ثبت في البخاري في باب المعراج هنا، وفي السابعة قال نعم أيضًا، وسقط في الموضعين في بدء الخلق، وهو الذي وقف عليه الشارح فتجرأ وقال: لم يذكر البخاري، قال: نعم، لا في السادسة ولا في السابعة، **(قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت، فإذا موسى)** بن عمران، رجل آدم طوال، كأنه من رجال شنوأة، كما في البخاري عن أبي هريرة، ومسلم عن ابن عباس.

وفي حديث أبي سعيد: كثير الشعر، لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دونهما، **(قال: هذا موسى، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت)** بجيم وزاي حذف الضمير المنصوب، **(بكى)** موسى، **(فقيل له: ما يبكيك؟، قال: أبكي لأن غلامًا)** صغير السن بالنسبة إليه، وقد أنعم الله عليه بما لم ينعم به عليه مع طول عمره، **(بعث من بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي،)** وليس بكاؤه

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، فقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل

حسدًا، معاذ الله، فإنه منزوع عن آحاد المؤمنين في ذلك العالم، فكيف بمن اصطفاه الله، بل لا وجه تأتي في المتن.

(**ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟، قال: جبريل، قال: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم، قال: مرحبًا، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال**) جبريل: (**هذا أبوك إبراهيم، فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، فقال:**) بالفاء وحذفها روايتان في البخاري (**مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح**،) زاد في حديث أبي أيوب عند ابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، وأحمد، وقال: مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، فقال له: وما غراس الجنة؟، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأخرج الترمذي وقال: حسن، والطبراني عن ابن مسعود رفعه؛ أن إبراهيم قال: أقريء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

قال النووي: وقد منّ الله الكريم، فجعل لنا سندًا متصلاً بخليله إبراهيم.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وهو، أي: المصطفى، أشبه ولد إبراهيم به، ويأتي في المتن توجيه رؤيته لهؤلاء الأنبياء في السموات، ولهم ولغيرهم في بيت المقدس مع أن أجسادهم في قبورهم.

(**ثم رفعت**) كذا للأكثر بضم الراء وسكون العين، وضم التاء من رفعت بضمير المتكلم، وبعده حرف الجر، وهو (**إلى سدرة المنتهى**،) وللكشميهني رفعت بفتح العين وسكون التاء، أي: من أجلي، وسدرة المنتهى بالرفع نائب فاعل رفعت، وكذا في بدء الخلق، ويجمع بين الروايتين، بأن المراد أنه رفع إليها، أي: ارتقى به، وظهرت له، والرفع إلى الشيء يطلق على التقريب منه، وقد قيل في قوله: ﴿وفرش مرفوعة﴾ [الواقعة/٣٤] الآية، أي: تقرب لهم. (**فإذا نبقها**) بفتح النون، وكسر الموحدة وبسكونها أيضًا. قال ابن دحية: والأول هو الذي ثبت في الرواية، أي: التحريك المعروف، وهو ثمر السدر، (**مثل قلال**،) قال الخطابي: بالكسر: جمع قلة

آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات.

ثم رفع إلى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت

(بالضم) هي الجرار، يريد أن ثمرها في الكبر مثل القلال، وكانت معروفة عند المخاطبين، فلذا وقع التمثيل بها، قال: وهي التي وقع تحديد الماء الكثير بها في قوله: «إذا بلغ الماء قلتين» ، **(هجر)** بفتح الهاء والجيم، بلدة لا تنصرف للتأنيث والعلمية، ويجوز الصرف، **(وإذا ورقها مثل آذان الفيلة)** بكسر الفاء، وفتح التحتية بعدها لام: جمع فيل، وفي بدء الخلق مثل آذان الفيول، وهو جمع فيل أيضًا، قاله كله في فتح الباري، وقول الزركشي: الفيلة بفتح الفاء والياء سهو، قاله في المصابيح، **(قال)** جبريل: **(هذه سدرة المنتهى،)** ووجه تسميتها بذلك بينه ﷺ بقوله: «وإليها انتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها، ينتهي ما يسط من فوقها فيقبض منها». رواه مسلم من حديث ابن مسعود.

قال الحافظ: وأورده النووي بصيغة التمريض، فقال: وحكى عن ابن مسعود، أنها سميت بذلك...الخ، فأشعر بضعفه عنده، ولا سيما ولم يصرح برفعه، وهو صحيح مرفوع انتهى. ويأتي بعض هذا في المتن، **(وإذا أربعة أنهار)** تخرج من أصلها **(نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟، قال: أما الباطنان فنهران في الجنة،)** ويجريان في أصل سدرة المنتهى، ثم يسيران حيث شاء الله، ثم ينزلان إلى الأرض، ثم يسيران فيها، وقال مقاتل: الباطنان السلسبيل والكوثر، كذا في شرح المصنف، ويأتي في المتن أبسط منه، **(وأما الظاهران فالنيل)** نهر مصر **(والفرات)** بالفوقية خطًا ووصلاً ووقفًا، لا بالهاء، نهر بغداد.

قال الحافظ: هذه في القراءات المشهورة، وجاء في قراءة شاذة؛ أنها هاء تأنيث، وشبهها أبو المظفر بن الليث بالتابوت والتابوه، **(ثم رفع إلى البيت المعمور،)** زاد الكشميهني **(يدخله كل يوم سبعون ألف ملك،)** وتقدمت هذه الزيادة في بدء الخلق بزيادة إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم، كذا وقع مضمومًا إلى رواية قتادة عن أنس، عن لملك بن صعصعة، وهو مدرج من رواية قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، لأن البخاري عقب الحديث في بدء الخلق بقوله. وقال همام عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في البيت المعمور. قال الحافظ: ثمة يريدان هما ما فصل في سياقه قصة البيت المعمور من قصة الإسراء. فروي أصل الحديث عن قتادة، عن أنس، وقصة البيت عن الحسن البصري، وأما سعيد، وهو ابن أبي عروبة، وهشام، وهو الدستوائي، فأدرجا قصة البيت المعمور في حديث أنس، والصواب رواية همام، وهي

بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال جبريل: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

موصولة هنا عن هدبة عنه، ووهم من زعم أنها معلقة، فقد روى الحسن بن سفيٰن الحديث بطوله عن هدبة إلى قوله: فرفع لي البيت المعمور.

فقال: قال قتادة: فحدثنا الحسن عن أبي هريرة، أنه ﷺ رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون فيه، وعرف بذلك مراد البخاري بقوله في البيت المعمور.

وأخرج الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: البيت المعمور مسجد في السماء بحذاء الكعبة لو خر لخر عليها، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا، وهذا وما قبله يشعر بأن قتادة كان يدرج قصة البيت المعمور في حديث أنس، وتارة يفصلها، وحين يفصلها تارة يذكر سندها، وتارة يبهمه انتهى.

(**ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن**) فشربت منه، (**فقال جبريل: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك**).

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري في الأشربة: ولو أخذت الخمر غوت أمتك. وفي حديث أنس عند البيهقي: ولو شربت الماء غرقت وغرقت أمتك.

وفي مسلم من حديث ثابت عن أنس: أن إتيانه بالآنية كان ببيت المقدس قبل المعراج، ولفظه: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فأخذت اللبن، فقال جبريل: أخذت الفطرة، ثم عرج بي إلى السماء، وجمع الحافظ بحمل، ثم على غير بابها من الترتيب، وإنما هي بمعنى الواو هنا، أو بوقوع عرض الآنية مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس، وسببه ما وقع له من العطش، ففي حديث شداد: فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين أحدهما اللبن، والآخر عسل، فعدلت بينهما، ثم هداني الله، فأخذت اللبن، فقال شيخ بين يدي، يعني لجبريل، أخذ صاحبك الفطرة، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى، ورؤية الأنهار الأربعة.

وأما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها، فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكر الآخر، ومجموعها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى، وهي الماء واللبن والعسل والخمر، كما في حديث أبي هريرة عند الطبري، فلعله عرض عليه من كل نهر إناء.

وجاء عن كعب أن نهر العسل نهر النيل، ونهر اللبن نهر جيحان، ونهر الخمر نهر الفرات، ونهر الماء نهر سيحان.

ثم فرضت علي الصلاة، خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع

وفي حديث أبي هريرة عند ابن عائذ بعد ذكر إبراهيم: ثم انطلقنا فإذا نحن بثلاثة آنية مغطاة، فقال لي جبريل: يا محمد ألا تشرب مما سقاك ربك، فتناولت أحدها، فإذا هو عسل، فشربت منه قليلاً، ثم تناولت الآخر، فإذا هو لبن، فشربت منه حتى رويت، فقال: ألا تشرب من الثالث؟، قلت: قد رويت، قال: وفقك الله.

وفي رواية البزار: أن الثالث كان خمرًا، لكن وقع عنده أن ذلك كان ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل، ويأتي مزيد لذلك في كلام المصنف.

(ثم فرضت) بالبناء للمفعول **(عليّ الصلاة)** بالإفراد، وفي رواية: الصلوات بالجمع، **(خمسين صلاة كل يوم،)** أي: وليلة، وللنسائي عن أنس: وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتني ضبابة، فخررت ساجدًا، فقيل لي: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك، قال ﷺ: **(فرجعت)**.

وفي حديث أنس عند ابن أبي حاتم، فمر عليّ إبراهيم، فلم يقل شيئًا، **(فمررت على موسى،)** زاد في حديث أبي سعيد: ونعم الصاحب كان لكم، **(فقال: بما)** ولأبي ذر: بم، **(أمرت)** بضم الهمزة مبني للمفعول، وفي حديث أنس عند النسائي وغيره: ما فرض ربك عليك وعلى أمتك، **(قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم،)** ولمسلم عن ثابت عن أنس قال: فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة.

(قال) موسى: **(إن أمتك لا تستطيع)** أن تصلي، **(خمسين صلاة كل يوم)** وليلة **(وإني والله قد جربت)**.

وفي رواية: خبرت **(الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة،)** مثل المزاولة، يعني مارستهم ولقيت الشدة فيما أردت منهم.

وفي رواية النسائي: فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتان، فما قاموا بها.

وفي الصحيحين من رواية شريك عن أنس: وبلوت بني إسرائيل، وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا، فضعفوا وتركوه، وأمتك أضعف أجسادًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل يستشيره، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، **(فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله:)** إن أمتك لا

عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي.

تستطيع إلى آخره..، (**فرجعت فوضع عني عشرًا**) من الأربعين، (**فرجعت إلى موسى**،) فأخبرته، (**فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا**) من الثلاثين، (**فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات**،) بالإضافة.

وفي رواية بتنوين عشر، (**كل يوم**) وليلة، (**فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت، فأمرت بخمس صلوات كل يوم**)، كما في لفظ الحديث، أي: وليلة، (**فرجعت إلى موسى، فقال: بم**) (بلا ألف) رواية أبي ذر، ولغيره بما، بألف بعد الميم، (**أمرت؟، قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك**).

وفي رواية: فسله، والأصل فاسأله، لأنه أمر من السؤال، فنقلت حركة الهمزة إلى السين، فحذفت تخفيفًا، واستغنى عن همزة الوصل فحذفت، (**قال**) ﷺ لموسى: (**سألت ربي حتى استحييت، ولكني**) رواية أبي ذر عن الكشميهني وغيره، ولكن (**أرضى وأسلم**).

(**قال**) الحافظ: فيه حذف وتقدير الكلام، سألت ربي حتى استحييت، فلا أرجع، فإني إن رجعت صرت غير راض ولا مسلم، ولكني أرضى وأسلم، (**فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي**.) قال الحافظ: هذا من أقوى ما استدل به على أنه تعالى كلم نبيه محمدًا ليلة الإسراء بلا واسطة.

وفي رواية النسائي عن أنس: فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك، فعرفت أنها عزمة من الله، فرجعت إلى موسى، فقال: ارجع، فلم أرجع.

وفي الصحيح من طريق شريك عن أنس، فقال: اهبط باسم الله، قال المصنف، أي: قال جبريل لا موسى، وإن كان ظاهر السياق.

(**وفي رواية له**،) أي: للبخاري، وكذا مسلم، كلاهما من حديث أنس عن أبي ذر: أن

وفي رواية له: ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه.

وفي رواية شريك: فحشى به صدره ولغاديده وهي بلام مفتوحة وغين معجمة، أي عروق حلقه، وفي النهاية: جمع لغدودة: وهي لحمة مشرفة عند اللهاة.

والشك في قوله: وربما قال في الحِجر من قتادة، كما بينه أحمد عن عفان، ولفظه: بينما أنا نائم في الحطيم، وربما قال قتادة: في الحجر والمراد بالحطيم هنا: الحجر.

رسول الله ﷺ قال: فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، **(ففرج)** بفتحات، أي: شق **(صدري)**.

وفي رواية: عن صدري، بزيادة عن لمجرد التأكيد، أو فرج مضمن معنى كشف، والمراد بالصدر القلب، أي: كشف عن قلبي ما منع الوصول إليه، وذلك بشق الصدر، **(ثم غسله بماء زمزم،)** قال ابن أبي جمرة: إنما لم يغسل بماء الجنة، لما اجتمع في زمزم من كون أصل مائها من الجنة، ثم استقر في الأرض، فأريد بذلك بقاء بركة النبي ﷺ في الأرض، وقال السهيلي: لما كانت زمزم حفرة جبريل روح القدس لأم إسمعيل جده ناسب أن يغسل بها عند دخوله حضرة القدس لمناجاته، **(ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه،)** أي: الصدر الشريف.

وفي رواية مسلم: فاستخرج قلبي، فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانًا وحكمة.

(وفي رواية شريك) بن أبي نمر عن أنس عند الشيخين، **(فحشى به صدره ولغاديده، وهي،)** أي: هذه اللفظة **(بلام مفتوحة وغين معجمة، أي: عروق حلقه)**.

(وفي النهاية) لابن الأثير: **(جمع لغدودة، وهي لحمة مشرفة عند اللهاة والشك في قوله، وربما قال في الحجر)** كائن **(من قتادة، كما بينه)** الإمام **(أحمد)** في روايته هذا الحديث، **(عن عفان)** (بتشديد الفاء) ابن مسلم بن عبد الله الباهلي، البصري، ثقة، ثبت روي له الجميع، مات في سنة تسع عشرة ومائتين، **(ولفظه: بينما أنا نائم في الحطيم، وربما قال قتادة في الحجر،)** أي: أنه كان يحدث به تارة، فيقول في الحطيم، وتارة يقول في الحجر، لشكه في خصوص اللفظ الذي سمعه من أنس، وإن كان المعنى واحدًا كما قال، **(والمراد بالحطيم هنا الحجر،)** زاد الحافظ، وأبعد من قال المراد به ما بين الركن والمقام، أو بين زمزم والحجر،

ووقع عند البخاري في أول بدء الخلق بلفظ بينما أنا عند البيت وهو أعم.

وفي رواية الزهري عن أنس عن أبي ذر فرج سقف بيتي وأنا بمكة.

وفي رواية الواقدي بأسانيده: أنه أسري به من شعب أبي طالب.

وفي حديث أم هانيء ـ عند الطبراني ـ أنه بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل، فقال: إن جبريل أتاني.

والجمع بين هذه الأقوال ـ كما في فتح الباري ـ أنه بات في بيت أم هانيء، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لأنه كان يسكنه فنزل منزله الملك، فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد، فكان به مضطجعًا وبه أثر النعاس، ثم أخرجه الملك فأخرجه من المسجد إلى باب

وهو وإن كان مختلفًا في الحطيم، هل هو الحجر أم لا؟، لكن المراد هنا البقعة التي وقع ذلك فيها، ومعلوم أنها لم تتعدد، لأن القصة متحدة لاتحاد مخرجها.

(**ووقع عند البخاري في أول بدء الخلق**) أولية نسبية، إذ هو في باب ذكر الملائكة بعد خمسة أبواب من كتاب بدء الخلق من طريق قتادة، عن أنس، عن مٰلك بن صعصعة أيضًا، (**بلفظ: بينا**) بإسقاط ما المذكورة في باب المعراج، (**أنا عند البيت، وهو أعم**) من قوله في الحطيم، وربما قال في الحجر، أي: أنه محتمل لهما، ولمحل آخر من المسجد بقرب البيت.

(**وفي رواية الزهري عن أنس، عن أبي ذر**) عند البخاري ومسلم: (**فرج**) بضم الفاء وكسر الراء أي: فتح، (**سقف بيتي وأنا بمكة**) جملة حالية إسمية.

(**وفي رواية الواقدي بأسانيده: أنه أسري به من شعب أبي طالب**) بكسر الشين المعجمة.

(**وفي حديث أم هانيء**) فاختة، أو هند، أو عاتكة شقيقة علي، لها أحاديث في الكتب الستة وغيرها، (**عند الطبراني؛ أنه بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل**) فسألته لما رجع ذهب إلى أي: محل في الوقت الذي فقدته فيه، (**فقال: إن جبريل أتاني**) فذكر الحديث...

(**والجمع بين هذه الأقوال**) أي: الروايات، (**كما في فتح الباري، أنه بات في بيت أم هانيء، وبيتها عند شعب أبي طالب**) أبيها، (**ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه**) في رواية أبي ذر: (**لأنه كان يسكنه، فنزل منزلة الملك**) والإضافة تكون بأدنى ملابسة، ولأن البيت ينسب لساكنه، (**فنزل منه الملك**) جبريل، (**فأخرجه من البيت إلى المسجد**) الحرام، (**فكان به مضطجعًا، وبه أثر النعاس**)، فلذا قال: بينما أنا نائم في الحطيم مضطجعًا، (**ثم أخرجه**

المسجد، فأركبه البراق. قال: وقد وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحٰق أن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق، وهو يؤيد هذا الجمع.

فإن قيل: لم فرج سقف بيته عليه الصلاة والسلام ونزل منه الملك، ولم يدخل من الباب، مع قوله تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ [البقرة/١٨٩].

أجيب: بأن الحكمة من ذلك أن الملك انصب من السماء انصبابة واحدة على جهة الإستقامة ولم يعرج على شيء سواه، فكان نزوله على السقف مبالغة في المفاجأة، وتنبيهًا على أن الطلب وقع على غير ميعاد، كرامة له عليه الصلاة والسلام.

وهذا بخلاف موسى عليه الصلاة والسلام، فكانت كرامته بالمناجاة عن ميعاد واستعداد بخلاف نبينا ﷺ فإنه حمل عنه ألم الانتظار، كما حمل عنه ألم

الملك فأخرجه من المسجد إلى باب المسجد، فأركبه البراق).

(قال) في الفتح: **(وقد وقع في مرسل الحسن)** البصري **(عند ابن إسحٰق؛ أن جبريل أتاه، فأخرجه إلى المسجد، فأركبه البراق، وهو يؤيد هذا الجمع)** تأييدًا قويًا، **(فإن قيل: لم فرج سقف بيته عليه الصلاة والسلام، ونزل منه الملك، ولم يدخل من الباب مع قوله تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾** [البقرة/١٨٩] **(أجيب)**، كما قال ابن دحية: **(بأن الحكمة في ذلك أن الملك انصب)**، أي: نزل **(من السماء، انصبابة واحدة على جهة الاستقامة، ولم يعرج على شيء سواه،)** أي: من غير تعريج عن الجهة التي نزل منها إلى غيرها، **(فكان نزوله على السقف مبالغة في المفاجأة، وتنبيهًا على أن الطلب وقع على غير ميعاد، كرامة له عليه الصلاة والسلام،)** كما أفهمه قوله: بينما أنا نائم، إذ مجيئه له فجأة يشعر بأنه لا موعد بينهما، وكذا قوله: فرج سقف بيتي، إذ لو كان بينهما موعد لانتظر مجيئه فيه، ولأتاه من الباب على عادة الجائي لمن ينتظره، وفيه إشارة إلى طلب الاستقامة في الأمور وإلى المبادرة إليها، وأخذها من أقرب الطرق، **(وهذا بخلاف موسى عليه الصلاة والسلام، فكانت كرامته بالمناجاة)** لله سبحانه وتعالى، **(عن ميعاد واستعداد)** بالصوم قال تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ ، قال الجلال: أي؛ نكلمه عند انتهائها بأن يصومها، وهي ذو القعدة، فلما تمت أنكر خلوف فمه، فاستاك، فأمره الله تعالى بعشرة أخرى ليكلمه بخلوف فمه، كما قال تعالى: ﴿وأتممناها بعشر﴾ [الأعراف/١٤٢] الآية، أي: من ذي الحجة، **(بخلاف نبينا عليه الصلاة والسلام، فإنه حمل عنه ألم الانتظار)** الواقع لموسى مدة الصوم، حتى كلمه ربه، **(كما حمل**

الاعتذار. ويؤخذ من هذا: أن مقام نبينا عليه الصلاة والسلام بالنسبة إلى مقام موسى عليه الصلاة والسلام مقام المراد بالنسبة إلى مقام المريد. ويحتمل أن يكون توطئة وتمهيدًا لكونه فرج عن صدره، فأراه الملك بإفراجه عن السقف ثم التئام السقف على الفور كيفية ما يصنع به، وقرب له الأمر في نفسه بالمثال المشاهد في بيته، لطفًا في حقه عليه الصلاة والسلام وتثبيتًا لصبره، والله أعلم بحقيقة السر.

وقوله: مضطجعًا زاد في بدء الخلق بين النائم واليقظان.

وهو محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج به إلى باب المسجد فأركبه البراق، استمر في يقظته.

وأما ما وقع في رواية شريك عنده أيضًا فلما استيقظت فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال، وإلا حمل على أن المراد استيقظت: أفقت، يعني أنه أفاق مما كان فيه

عنه ألم الاعتذار) الذي اعتذر به موسى، أنه إنما استاك لإنكار رائحة فمه، **(ويؤخذ من هذا:أن مقام نبينا ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى عليه الصلاة والسلام مقام المراد،)** حيث طلب للمناجاة بلا سؤال، **(بالنسبة إلى مقام المريد،)** بقوله: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ [الأعراف/ ١٤٣] ، **(ويحتمل أن يكون توطئة وتمهيد لكونه فرج عن صدره، فأراه الملك بإفراجه عن السقف، ثم التئام السقف على الفور كيفية،)** أي: صفة **(ما يصنع به، وقرب له الأمر في نفسه بالمثال المشاهد في بيته لطفًا في حقه عليه السلام وتثبيتًا لبصره،)** وفي الفتح قيل: الحكمة في نزوله عليه من السقف الإشارة إلى المبالغة في مفاجآته بذلك، والتنبيه على أن المراد منه أن يعرج به إلى جهة العلو، **(والله أعلم بحقيقة السر)** في ذلك، **(وقوله: مضطجعًا، زاد)** البخاري **(في بدء الخلق بين النائم واليقظان،)** أي: أن نومه قريب من اليقظة، **(وهو محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج به إلى باب المسجد، فأركبه البراق استمر في يقظته)** التي لا يخالطها نوم.

وفي نسخة:لما أخرج به بزيادة الباء في المفعول، والأصل أخرجه، فهو مبني للفاعل، **(وأما ما وقع في رواية شريك عنده،)** أي: البخاري، **(أيضًا)** في كتاب التوحيد في آخر الحديث، **(فلما استيقظت)** لفظ الحديث في الصحيح: واستيقظ وهو بالمسجد الحرام، **(فإن قلنا بالتعديد)** للمعاريج، **(فلا إشكال،)** لأنه معراج آخر في النوم، **(وإلا حمل على أن المراد استيقظت أفقت، يعني أنه أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الملكوت،)** باطن

من شغل البال بمشاهدة الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي، فالمراد: الإفاقة البشرية من الغمرة الملكية.

وقوله: إذ أتاني آت هو جبريل عليه السلام، وفي رواية شريك أنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم وكانت تلك الليلة -أي كانت تلك القصة الواقعة تلك الليلة ما ذكر هنا- فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما

الملك، (ورجع إلى العالم الدنيوي فالمراد: الإفاقة البشرية) التي يكون البشر عليها عادة (من الغمرة الملكية) التي كان عليها.

وقال ابن أبي جمرة: لو قال ﷺ أنه كان يقظانًا لأخبر بالحق، لأن نومه ويقظته سواء، وعينه أيضًا لم يكن النوم تمكن منها، لكن تحرى الصدق في الإخبار بالواقع، فيؤخذ منه أنه لا يعدل عن حقيقة اللفظ إلا لضرورة.

(وقوله: إذ أتاني آت، وهو جبريل عليه السلام،) ووقع في بدء الخلق، وذكر بين الرجلين وهو مختصر، أوضحته رواية مسلم بلفظ: إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت، فانطلق بي، والمراد بالرجلين حمزة وجعفر، كان ﷺ نائمًا بينهما.

قال ابن أبي جمرة: وفيه تواضعه وحسن خلقه، إذ أنه في الفضل حيث هو، ومع ذلك كان يضطجع مع الناس، ويقعد معهم، ولم يجعل لنفسه مزية عليهم، وفيه جواز نوم جماعة في موضع واحد، لكن بشرط أن يكون لكل واحد منهم ما يستر به جسده.

(وفي رواية شريك،) عن أنس في الصحيحين: (أنه جاءه) بكسر الهمزة، وللكشميهني: إذ بدل أنه، والأولى أولى، وللحموي والمستملي؛ أنه بفتح الهمزة، وجاء بلا ضمير، (ثلاثة نفر).

قال الحافظ: لم أقف على أسمائهم صريحًا، لكن في رواية الطبري: فأتاه جبريل وميكائيل انتهى.

وكذا رواه ابن جرير وأبو يعلى، ويقال: إن الثالث إسرافيل، (قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم) جبريل، (أيهم هو) لأنه كان نائمًا بين حمزة وجعفر كما علم، (قال: أوسطهم،) أي: الثلاثة الذين جاءوه وهو ميكائيل، (هو خيرهم، فقال آخرهم:) الثالث.

ولأبي ذر عن الكشميهني: أحدهم بالدال، أي: أحد الثلاثة، (خذوا خيرهم، وكانت تلك الليلة، أي: كانت تلك القصة الواقعة تلك الليلة ما ذكر هنا) بالضمير المستتر في كانت

يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه...

وقد أنكر الخطابي قوله: قبل أن يوحى إليه ولذلك قال القاضي عياض والنووي، وعبارة النووي: وقع في رواية شريك ـ يعني هذه ـ أوهام أنكرها العلماء، أحدها قوله: قبل أن يوحى إليه وهو غلط لم يوافق عليه، وأجمع العلماء على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء، قبل الوحي. انتهى. فقد صرح هؤلاء بأن شريكًا تفرد بذلك.

لكن قال الحافظ ابن حجر: في دعوى التفرد نظر، فقد وافقه كثير بن خينس ـ بالمعجمة ونون مصغرًا ـ عن أنس، كما أخرجه سعيدبن يحيى بن سعيد الأموي في كتاب المغازي له من طريقه. قال: ولم يقع التعيين بين المجيئين،

المحذوف، وكذا خبر كان، وهذا شرح من المصنف لقوله، وكانت تلك الليلة، **(فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى)** هي ثالثة على ما يفيده رواية ابن مردويه عن أنس بلفظ: حتى أتوه ليلة أخرى، فقال الأول: هو هو، فقال الأوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سيد القوم، فرجعوا عنه، حتى إذا كانت الليلة الثالثة رآهم، فقال الأول: هو، فقال الأوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين، فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم، فاستلقوه على ظهره، وكان مجيء الملائكة له، **(فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم)** الثابت في الروايات أنه كان يقظة، فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال، وإلا حمل على أنه كان في طرفي القصة نائمًا، وليس في ذلك ما يدل على كونه نائمًا في كلها، **(فلم يكلموه)** ﷺ **(حتى احتملوه،)** فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، كما في نفس حديث شريك.

(وقد أنكر الخطابي قوله قبل أن يوحى إليه، ولذلك قال القاضي عياض، والنووي،) وابن حزم وعبد الحق، **(وعبارة النووي:وقع في رواية شريك، يعني هذه أوهام،)** أزيد من عشرة، فصلها الحافظ، وأجاب عن بعضها، **(أنكرها العلماء، أحدها)** مبتدأ خبره **(قوله:قبل أن يوحى إليه، وهو غلط)** من شريك، **(لم يوافق عليه، وأجمع العلماء على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء،)** فكيف يكون الإسراء **(قبل الوحي. انتهى)** كلام النووي.

(فقد صرح هؤلاء) الخطابي ومن بعده، **(بأن شريكًا تفرد بذلك، لكن قال الحافظ ابن حجر في دعوى التفرد نظر، فقد وافقه كثير بن خنيس (بالمعجمة ونون مصغرًا) عن أنس، كما أخرجه سعيد بن يحيى بن سعيد)** بن أبان بن سعيد بن العاصي، **(الأموي)** أبو عثمان

فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد الوحي، وحينئذٍ وقع الإسراء والمعراج. وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق بين أن تكون تلك المدة ليلة واحدة أو ليالي أو عدد سنين. وبهذا يرتفع الإشكال عن رواية شريك، ويحصل به الوفاق أن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة وسقط تشنيع الخطابي وغيره بأن شريكًا خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة، وأقوى ما يستدل به على أن المعراج كان بعد البعثة، قوله في هذا الحديث نفسه: إن جبريل قال لبواب السماء إذ قال: أبعث؟ قال: نعم، فإنه ظاهر في أن المعراج كان بعد البعثة.

ووقع في رواية ميمون بن سياه ـ عند الطبراني ـ: فأتاه جبريل وميكائيل،

البغدادي، ثقة، روى له الشيخان وغيرهما، وربما أخطأ، مات سنة تسع وأربعين ومائتين، **(في كتاب المغازي له من طريقه)**.

(قال) الحافظ مجيبًا عن إشكال قوله قبل أن يوحى إليه، **(ولم يقع التعيين بين المجيئين)** أي: زمن، **(فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد الوحي، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج،)** فقوله قبل أن يوحى إليه ظرف للمجيء الأول، لا لهما الذي هو منشأ التغليط، **(وإذا كان بين المجيئين مدة، فلا فرق بين أن تكون تلك المدة ليلة واحدة، أو ليالي)** كثيرة، **(أو عدد سنين، وبهذا)** التقرير **(يرتفع الإشكال عن رواية شريك، ويحصل به الوفاق)** على **(أن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة، وقبل الهجرة،)** وفي ليلته فرضت الصلاة، **(وسقط تشنيع الخطابي وغيره؛ بأن شريكًا خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة)**.

وقال الحافظ أبو الفضل بن طاهر تعليل الحديث بتفرد شريك، ودعوى ابن حزم؛ أن الآفة منه شيء لم يسبق إليه، فإن شريكًا قبله أئمة الجرح والتعديل، ووثقوه ورووا عنه، وأدخلوا حديثه في تصانيفهم، واحتجوا به قال: وحديثه هذا رواه عنه سليمٰن بن بلال، وهو ثقة، وعلى تقدير تفرد بقوله قبل أن يوحى إليه، فلا يقتضي طرح حديثه، فوهم الثقة في موضع من الحديث لا يسقط جميع الحديث، ولا سيما إذا كان الوهم لا يستلزم ارتكاب محذور، ولو ترك حديث من وهم في تاريخ، لترك حديث جماعة من أئمة المسلمين انتهى.

(وأقوى ما يستدل به على أن المعراج كان بعد البعثة قوله في هذا الحديث نفسه، أن جبريل قال لبواب السماء: إذ قال: أبعث) إليه، لم يقع في لفظ الحديث إليه، لكن حملها على المصنف كغيره، فقال إليه للاستواء وصعود السمٰوٰت وليس الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة، لأنه لا يخفى عليه إلى هذه المدة، ولاشتهار أمر النبوة في الملكوت الأعلى، **(قال:**

فقالا: أيهم؟ وكانت قريش تنام حول الكعبة، فقال: أمرنا بسيدهم، ثم ذهبا، ثم جاؤه وهم ثلاثة نفر. وفي رواية مسلم: سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلق بي. والمراد بالرجلين: حمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب، وكان النبي ﷺ نائمًا بينهما.

وقوله: «فقدّ» بالقاف والدال الثقيلة وفي رواية فشق.

«من ثغره» بضم المثلثة وسكون الغين المعجمة بعدها، راء الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين.

إلى شعرته بكسر الشين المعجمة، أي شعر العانة الشريفة. وفي رواية مسلم: إلى أسفل البطن.

نعم، فإنه ظاهر في أن المعراج كان بعد البعثة،) ولفظه: ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب بابًا من أبوابها، فناداه أهل السماء من هذا؟، فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟، قال: محمد، قال: وقد بعث؟، قال: نعم.

(ووقع في رواية ميمون بن سياه) بكسر السين المهملة وخفة التحتية، البصري، أبي بجر التابعي، صدوق، عابد، يخطىء، روى له البخاري والنسائي **(عند الطبراني، فأتاه جبريل وميكائيل، فقالا:)** المطلوب **(أيهم؟،)** أي: الثلاثة حمزة، وجعفر والمصطفى، **(وكانت قريش تنام حول الكعبة، فقال:)** الملك الآخر الذي لم يسم، **(أمرنا بسيدهم، ثم ذهبا، ثم جاؤه وهم ثلاثة نفر،)** كما جاؤه أولاً، وكون هذا يقتضي أن الجائين جاؤه أولاً اثنان فقط، ليس بمراد، لأن الثالث لم يسم كما مر.

(وفي رواية مسلم) من طريق سعيد، عن قتادة، عن أنس، **(سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت، فانطلق بي، والمراد بالرجلين حمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، وكان النبي ﷺ نائمًا بينهما،)** من مزيد تواضعه، وأجيب أيضًا؛ بأن المراد قبل أن يوحى إليه في شأن الصلاة، ومنهم من أجراه على ظاهره، ملتزمًا أن الإسراء كان مرتين قبل النبوة وبعدها، حكاه في المصابيح.

(وقوله: فقد ــ بالقاف والدال الثقيلة ــ وفي رواية: فشق) وأخرى فرج، والمعنى واحد، **(من ثغرة:)** نحره، **(بضم المثلثة وسكون الغين المعجمة بعدها راء) الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين)** تثنية ترقوة، بزنة فعلوة بفتح الفاء وضم اللام، وهي العظم الذي بين ثغره النحر والعاتق من الجانبين، والجمع التراقي.

قال بعضهم: ولا تكون الترقوة لشيء من الحيوان إلا للإنسان، خاصة **(إلى شعرته**

وفي رواية البخاري: إلى مراق البطن.

وفي رواية شريك: فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته ـ بفتح اللام وتشديد الموحدة ـ وهو موضع القلادة من الصدر.

وقد أنكر القاضي عياض في «الشفاء» وقوع شق صدره الشريف ليلة الإسراء، وقال: إنما كان وهو صبي قبل الوحي في بني سعد.

ولا إنكار في ذلك ـ كما قاله الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه اللّه ـ فقد تواترت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضًا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم

(بكسر الشين المعجمة، أي: شعر العانة الشريفة،) أي: الشعر النابت عليها، من إضافة اسم الحال للمحل.

قال الأزهري: وجماعة العانة منبت الشعر فوق قبل المرأة، وذكر الرجل والشعر النابت عليها يقال له الإسب بكسر الهمزة وسكون المهملة وموحدة، وقال الجوهري: هي شعر الركب بالتحريك، أي: فتح الراء والكاف، منبت العانة للمرأة خاصة عند الخليل، وللرجل أيضًا عند الفراء.

وقال ابن السكيت وابن الأعرابي: استعان واستحد حد عانته، وعلى هذا فالعانة الشعر النابت، وذكر الكرماني؛ أنه وقع في رواية إلى ثنته، بضم المثلثة وتشديد النون، أي: ما بين السرة والعانة.

(وفي رواية مسلم إلى أسفل البطن، وفي رواية البخاري) في بدء الخلق (إلى مراق،) بفتح الميم وخفة الراء فألف فقاف ثقيلة، وأصله مرافق بقافين، فأدغمت الأولى في الثانية، أي: ما سفل من بطنه ورق من جلده.

(وفي رواية شريك) عن أنس، (فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته) حتى فرغ من صدره وجوفه (بفتح اللام وتشديد الموحدة ــ وهو موضع القلادة من الصدر،) وفيه تنحر الإبل، (وقد أنكر القاضي عياض في الشفاء،) وسبقه إلى الإنكار ابن حزم (وقوع شق صدره الشريف ليلة الإسراء، وقال: إنما كان وهو صبي وقبل الوحي)، يعني (في بني سعد) بن بكر، وهو عند مرضعته حليمة، وادعى ابن حزم وعياض؛ أن ذلك من تخليط شريك.

قال الحافظ العراقي: وليس كذلك، فقد ثبت في الصحيحين من غير طريق شريك، وقال في المفهم: لا يلتفت لإنكاره، لأن رواته ثقات مشاهير، (ولا إنكار في ذلك كما قاله الحافظ أبو الفضل) أحمد بن حجر (العسقلاني رحمه اللّه) في الفتح، (فقد تواترت الروايات به،) فقد

في الدلائل، ولكل منها حكمة:

فالأول: وقع فيه من الزيادة، كما عند مسلم من حديث أنس: فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك. وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. ولعل هذا الشق كان سببًا في إسلام قرينه المروي عند البزار من حديث ابن عباس. ويحتمل أن يكون الإشارة إلى حظ الشيطان المباين كالعفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه.

وأما شق الصدر عند البعث، فلزيادة الكرامة، وليتلقى ما يوحى إليه بقلب

ثبت في الصحيحين من حديث لمالك بن صعصعة، وفي مسلم وغيره عن أنس في روايته عن النبي ﷺ بلا واسطة، وفي الصحيحين من رواية أنس عن أبي ذر وله طرق أخرى.

(**وثبت شق الصدر أيضًا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل**،) والطيالسي والحارث بن أبي أسامة، والبيهقي في الدلائل من حديث عائشة، وقدمته في المقصد الأول في المبعث النبوي، (**ولكل منها**،) أي: المرات الثلاث المذكورة في بني سعد، ثم عند المبعث، ثم ليلة الإسراء، (**حكمة، فالأول**) الذي وقع، وهو عند حليمة (**وقع فيه من الزيادة، كما عند مسلم من حديث أنس**؛) أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه وصرعه، فشق عن قلبه، واستخرج القلب، ثم شقه، (**فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان**،) أي: الموضع الذي يتوصل منه إلى وسوسة الناس، ولا ينافيه قوله (**منك**) لجواز تقدير مضاف، أي: من مثلك من بني آدم، وبقية خبر مسلم، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، فأعاده مكانه، وجعل الغلمان يسعون إلى أمه، يعني ظئره، فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فجاؤوا وهو منتقع اللون.

قال أنس: فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره. (**وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان**) وغيره، وخلقت هذه العلقة، لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقت تكملة للخلق الإنساني، ونزعها كرامة ربانية أبلغ من خلقه بدونها، قاله التقي السبكي، وقال غيره: لو خلق سليمًا منها لم يطلع الآدميون على حقيقته، فأظهره الله على يد جبريل، ليتحققوا كمال باطنه، كما برز لهم مكمل الظاهر.

(**ولعل هذا الشق كان سببًا في إسلام قرينه**،) أي: صاحبه الموكل به من الجن، (**المروي عند البزار من حديث ابن عباس**،) رفعه: فضلت على الأنبياء بخصلتين: كان شيطاني كافرًا، فأعانني الله عليه، فأسلم، قال: ونسيت الأخرى، (**ويحتمل أن يكون**) قوله هذا حظ الشيطان منك، (**الإشارة إلى حظ الشيطان المباين**،) أي: خلاف القرين، (**كالعفريت الذي**

قوي على أكمل الأحوال من التطهير.

وأما شقه عند إرادة العروج إلى السماء، فللتهيؤ للترقي إلى الملأ الأعلى، والثبوت في المقام الأسنى، والتقوي لاستجلاء الأسماء الحسنى، ولهذا لما لم يتفق لموسى عليه والسلام مثل هذا التهيؤ لم تتفق له الرؤية، وكيف يثبت الرجل لما لا يثبت له الجبل؟!.

ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل، لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه عليه السلام.

ثم إن جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من

أراد أن يقطع عليه صلاته، وأمكنه الله منه،) وقدمت لفظ الحديث قريبًا في الخصائص، وإن لفظ عفريت ظاهر في أن المراد غير إبليس، كما قال الحافظ.

(وأما شق الصدر عند البعث فلزيادة الكرامة، وليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي على كمل الأحوال من التطهير) وكذلك كان.

(وأما شقه عند إرادة العروج إلى السماء، فللتهيؤ للترقي إلى الملأ الأعلى والثبوت في المقام الأسنى، والتقوى لاستجلاء) بالجيم، **(الأسماء الحسنى،)** يعني رؤية الله سبحانه، بدليل قوله، **(ولهذا لما لم يتفق لموسى عليه السلام مثل هذا التهيؤ، لم تتفق له الرؤية)** مع كونه سألها، **(وكيف يثبت الرجل لما لا يثبت له الجبل)** المذكور في قوله: ﴿لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا﴾ [الأعراف/ ١٤٣] ، والحافظ قال حكمة ذلك ليتأهب للمناجاة، **(ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه عليه السلام،)** كذا أبدى هذا الاحتمال تبعًا للحافظ، مع أنه قال في المقصد الأول.

روى أبو نعيم الشق أيضًا، وهو ابن عشر قال: وروى خامسة، ولا تثبت، وحكمته أن العشر قريب من سن التكليف، فشق قلبه وقدس حتى لا يتلبس بشيء مما يعاب على الرجال، إلا أن يكون جعل مرتي الصبا بمنزلة المرة الواحدة.

قال النعماني: وقد سن لداخل الحرم الغسل، فما ظنك بداخل الحضرة المقدسة، فلما كان الحرم من عالم الملك، وهو ظاهر الكائنات، نيط الغسل له بظاهر البدن في عالم المعاملات، ولما كانت الحضرة الشريفة من عالم الملكوت، وهو باطن الكائنات، نيط لها الغسل بباطن البدن في التحقيقات، وقد عرج به لتفرض عليه الصلوات، وليصلي بملائكة السموٰت، ومن شأن الصلاة الطهور، فقدس ظاهرًا وباطنًا، قال: وقد رأيت في بعض المعاريج أن

الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك.

قال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن قدرة الله تعالى لا يعجزها ممكن، ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده، وليست مربوطة بالعادة إلا حيث شاءته القدرة، لأنه على ما يعهد ويعرف أن البشر مهما شق بطنه كله وانجرح القلب مات ولم يعش، وهذا النبي ﷺ قد شق بطنه المكرمة، حتى أخرج القلب وغسل،

جبريل وضأه بعد غسل قلبه، قلت ليصير مطهرًا متطهرًا انتهى.

(ثم إن جميع ما ورد،) وبينه بقوله، **(من شق الصدر واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة،)** كاختراق السموٰت **(مما يجب التسليم له،)** أي: تسليمه، فاللازم زائدة للتقوية **(دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك،)** لأن القدرة إنما تتعلق بالممكن دون المستحيل، هكذا قاله القرطبي في المفهم، والطيبي، والتوربشتي والحافظ في الفتح، والسيوطي وغيرهم، ويؤيده الحديث الصحيح، أنهم كانوا يرون أثر المخيط في صدره.

قال السيوطي: وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكار ذلك، وحمله على الأمر المعنوي، وإلزام قائله القول بقلب الحقائق، فهو جعل صراح، وخطأ قبيح، نشأ من خذلان الله تعالى لهم، وعكوفهم على العلوم الفلسفية، وبعدهم عن دقائق السنة، عافانا الله من ذلك انتهى.

(قال العارف ابن أبي جمرة:) بجيم وراء، **(فيه دليل على أن قدرة الله تعالى لا يعجزها ممكن،)** أي: لا يمنعها من التعلق به، بل يجوز تعلقها بسائر الممكنات، لا بالمستحيلات، فلا تتعلق بها أصلاً، ولذا قيد بممكن، فلا يفهم منه أنها تعجز عن التعلق بالمستحيل، لأنها لا تتعلق به أصلاً، فلا يلتفت إلى مثل هذا الإيهام، **(ولا تتوقف،)** أي: لا تتخلف عن إيجادها إرادة، **(لعدم)** وجود **(شيء)** يؤثر فيما تعلقت به، **(ولا لوجوده،)** أي: شيء يمنع تأثيرها فيما تعلقت به، **(وليست مربوطة بالعادة،)** أي: ليس تأثيرها قاصرًا على ما جرت به العادة، بل عام في جميع الممكنات، **(إلا حيث شاءته،)** أي: ربط التأثير بالعادة **(القدرة،)** ونسبة المشيئة إلى القدرة تسمح، إذ المشيئة إنما تنسب للقادر لا لشيء من صفاته، فهو إما على حذف مضاف، أي: ذو القدرة، أو مصدر بمعنى القادر، **(لأنه على ما يعهد ويعرف أن البشر)** **(بفتحتين)**، ذكرًا أو أنثى، واحدًا أو جمعًا، وقد يثنى ويجمع أبشارًا، كما في القاموس.

وفي المصباح؛ أن العرب ثنوه ولم يجمعوه من التثنية، أنؤمن لبشرين، **(مهما شق بطنه كله، وانجرح القلب مات ولم يعش،)** وكذا سائر الحيوان، واقتصر على البشر لكون

وقد شق بطنه كذلك أيضًا وهو صغير وشق قلبه وأخرج منه نزغة الشيطان. ومعلوم أن القلب مهما وصل له الجرح مات صاحبه، وهذا النبي عليه الصلاة والسلام شق بطنه في هاتين المرتين، ولم يتألم بذلك، ولم يمت لما أن أراد اللّٰه تعالى أن لا يؤثر ما أجرى به العادة، أن يؤثر بها موت صاحبها، فأبطل تلك العادة. وقد رمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فلم تحرقه، وكانت عليه بردًا وسلامًا. انتهى.

وقد حصل من شق صدره الكريم إكرامه عليه السلام بتحقيق ما أوتي من الصبر، فهو من جنس ما أكرم به إسمٰعيل الذبيح بتحقيق صبره على مقدمات الذبح شدًا وكتفًا وتلاً للجبين، وإهواء بالمدية إلى المنحر فقال: ﴿ستجدني إن

المصطفى منهم لا لإخراج غيره، (وهذا النبي ﷺ قد شق بطنه المكرمة،) أنثه باعتبار الجارحة، وإلا فالبطن خلاف الظهر مذكر، (حتى أخرج القلب وغسل) وهو حي، (وقد شق بطنه كذلك،) كهذا الشق الواقع في المعراج (أيضًا، وهو صغير، وشق قلبه، وأخرج منه نزغة الشيطان،) أي: محل نزغته، أي: وسوسته الحاملة على خلاف ما أمر به كاعتراه غضب وفكر، (ومعلوم أن القلب مهما وصل له الجرح، مات صاحبه، وهذا النبي ﷺ شق بطنه في هاتين المرتين،) وأخرج قلبه وشق، (ولم يتألم بذلك، ولم يمت لما أراد اللّٰه تعالى أن لا يؤثر ما،) أي: شيئًا، أو الذي (أجرى به العادة أن يؤثر بها موت صاحبها، فأبطل تلك العادة،) جواب لما، ودخول الفاء فيه قليل، قاله شيخنا، والأظهر أن اللام في لما تعليلية لعدم موته، فالفاء للتفريع على التعليل.

(وقد رُمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار، فلم تحرقه، وكانت عليه بردًا وسلامًا،) أي: إن شق الصدر الشريف، وإن كان خارقًا للعادة، لا بعد فيه، لأنه ممكن، وقد وقع مثله للخليل حيث فعل به ما هو مهلك عادة، ولم يؤثر فيه شيء، فذكره للتقريب. (انتهى) كلام ابن أبي جمرة.

(وقد حصل من شق صدره الكريم إكرامه عليه السلام، بتحقيق ما أوتي من الصبر،) بجعله صفة قائمة به، وكان ذلك تحقيقًا له لبروزه إلى الوجود الخارجي، (فهو من جنس ما أكرم به إسمٰعيل الذبيح) على أحد القولين الشهيرين، والثاني إسحٰق، وليت شعري، أي: اقتضاء فيمن حكى هذين القولين في الذبيح أن إبراهيم ليس له غيرهما من الأولاد، مع أن أولاده ثلاثة عشر، كلهم ذكور، كما في تاريخ ابن كثير، أو خمس منهم أناث على ما في الروض (بتحقيق صبره على مقدمات الذبح شدًا وكتفًا، وتلا) إلقاء (للجبين، وإهواء بالمدية) السكين، (إلى

شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات/١٠٢]، ووفي بما وعد الله تعالى، فأكرمه الله بالثناء على صبره إلى الأبد.

ولا مرية أن الذي حصل من صبر نبينا ﷺ أشد وأجل، لأن تلك مقدمات وهذه نتيجة، وتلك معاريض وهذه حقيقة، والمنحر مقتل وما أصابه من إسمعيل إلا صورة القتل لا فعله، وشق صدر نبينا ﷺ واستخراج قلبه ثم شقه ثم كذا مقاتل عديدة وقعت كلها، ولكن انخرقت العادة ببقاء الحياة، فهذا الابتلاء أعظم من ابتلاء الذبيح بما ذكر.

فإن قلت: إنما يتحقق الصبر أن لو كانت هناك مشقة، فلعل العادة لما

المنحر،) يعني أنه لما تلّه للجبين، بأن ألقاه على جنبه انقلب على جبهته، أو أنه فعل ذلك بإشارته لئلا يرى فيه تغيرًا، فيرق له فلا يذبحه، **(فقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾** [الصافات/١٠٢] **)** على الذبح، أو على قضاء الله، وترتيب ما ذكر على ما قبله يقتضي أن قوله ذلك بعده، وسوق الآية صريح أنه قال ذلك جوابًا لقول أبيه: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ ، إلا أن تجعل الفاء في المصنف بمعنى الواو، ولفظ ابن المنير متبوع المؤلف، وقد قال: ستجدني بالواو، **(ووفي بما وعد الله تعالى)** بقوله: **﴿ستجدني﴾** الآية **(فأكرمه الله بالثناء على صبره إلى الأبد، ولا مرية)** بكسر الميم، أي: لا شك، **(أن الذي حصل من صبر نبينا ﷺ أشد وأجل، لأن تلك)** الأحوال الواقعة لإسمعيل من الشد والكتف والتل **(مقدمات)** للذبح، **(وهذه)** الواقعة للمصطفى **(نتيجة)** ما يفعل بمن أريد ذبحه، أو نحوه من الأثر الذي قصد ترتبه على الفعل.

(وتلك معاريض،) أي: مقدمات لا حقائق، وتسميتها معاريض تجوز، إذ هي لغة التورية، فشبه المقدمات بالمعاريض، واستعار له اسمه لما سبق في علم الله، أن حقيقة ما أمر به أبوه من الذبح لا يقع، **(وهذه حقيقة، والمنحر مقتل،)** أي: يصدق عليه، وليس مفهومهما واحدًا، إذ المنحر موضع النحر من الحلق، ويكون مصدرًا أيضًا، **(وما أصابه،)** أي: المنحر **(من إسمعيل)** ظاهره أنه أمر السكين على منحره، مع أن الفداء وقع قبل مرور السكين إليه، فقوله **(إلا صورة القتل لا فعله،)** أي: الصورة التي تحصل عند إرادة القتل، **(وشق صدر نبينا ﷺ، واستخراج قلبه ثم شقه، ثم كذا،)** أي: نزع العلقة منه وغسله، ونحو ذلك، **(مقاتل عديدة:)** جمع مقتل، **(وقعت كلها، ولكن انخرقت العادة ببقاء الحياة، فهذا الابتلاء أعظم من ابتلاء الذبيح بما ذكر).**

انخرقت في إبقاء الحياة انخرقت في دفع المشاق وحمل الآلام.

أجيب: بأنه ورد في حديث شق صدره: فأقبل وهو منتقع اللون أو ممتقع، بالميم بدل النون، وهو يدل على أن الصبر على مشقة المعالجة المذكورة محقق. انتهى.

قال القاضي عياض: وأصل «انتقع» صار كلون النقع، والنقع الغبار، وهو شبيه بلون الأموات، وهذا يدل على غاية المشقة.

وأما قول ابن الجوزي: فشقه وما شق عليه، فيحمل على أنه صبر صبر من لا يشق عليه. انتهى.

وكذلك الابتلاء أيضًا من حيث الشق، فإن ذلك وقع لنبينا ﷺ بعيد ما

وفي المصباح: المقتل الموضع الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم، والواقع للمصطفى أسباب تفضي إلى القتل، فلعل المقاتل في المصنف جمع: مقتل، بمعنى القتل، وأطلقه على سببه مجازًا، (**فإن قلت: إنما يتحقق الصبر أن لو كانت هناك مشقة، فلعل العادة لما انخرقت في إبقاء الحياة،**) أي: لم تؤثر إزالتها، بل استمرت بعدما يوجب إزالتها عادة، وفي نسخ في بقاء، وهي أظهر، لأن البقاء استمرار الحياة، وهو أثر الإبقاء، (**انخرقت**) أيضًا (**في دفع المشاق وحمل الآلام،**) فلا تتم المفاضلة المذكورة بينه وبين الذبح، (**أجيب،**) أي: أجاب ابن المنير؛ (**بأنه ورد في حديث شق صدره**) في بني سعد وهو صغير، (**فأقبل، وهو منتقع اللون**) بنون ففوقية فقاف مفتوحة، أي: متغير، (**أو ممتقع بالميم بدل النون**)، روايتان قاله ابن المنير.

قال الكسائي: انتقع مبنيًا إذا تغير من حزن أو فزع، قال: وكذا ابتقع بالموحدة، وامتقع بالميم أجود، قاله الجوهري، أي: مبنيًا للمفعول، صرح به المجد وغيره، وفي المصباح ما يفيد بناءه للفاعل، (**وهو يدل على أن الصبر على مشقة المعالجة المذكورة محقق**) فتتم المفاضلة. (**انتهى**) ما أجيب به.

(**قال القاضي عياض: وأصل انتقع صار كلون النقع، والنقع الغبار، وهو شبيه بلون الأموات، وهذا يدل على غاية المشقة،**) إذ لا يصير كلون الأموات إلا بعد مشقة شديدة، (**وأما قول ابن الجوزي، فشقه وما شق عليه،**) أي: ما آلمه ذلك الشق، (**فيحمل على أنه صبر صبر من لم يشق عليه،**) ويحمل أيضًا على أنه ما شق عليه المشقة التي تحصل مثلها عادة من ذلك الفعل، فلا ينافي حصول مشقة دون المعتاد، فنزلها منزلة العدم، (**انتهى**) كلام ابن المنير.

فطم، وأيضًا: فإنه كان منفرداً عن أمه ويتيمًا من أبيه، واختطف من بين الأطفال، وفعل به ما فعل من الأهوال تسهيلاً لما يلقاه في المآل، وتعظيمًا لما يناله على الصبر من الثواب والثناء، ولهذا لما شج وجهه الشريف وجرح وكسرت رباعيته قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، زاده الله شرفًا وفضلاً.

وقوله: «ثم أتيت بطست من ذهب» إنما أتي بالطست لأنه أشهر آلات الغسل عرفًا.

فإن قلت: إن استعمال الذهب حرام في شرعه عليه السلام فكيف استعمل الطست الذهب هنا؟.

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأن تحريم الذهب إنما هو لأجل الاستمتاع به

وفي الشامي: اختلف هل وقع له مع ذلك مشقة أم لا؟، فقال الحافظ: من غير مشقة، وبه جزم ابن الجوزي، فقال: فشقه وما شق عليه، وقال ابن دحية: بمشقة عظيمة، ولهذا انتقع لونه، أي: صار كلون النقع، قلت رواية انتقع لونه حكاية لما وقع في المرة الأولى وهو صغير في بني سعد، وأما ما وقع بعدها، فلم ينقل أنه تأثر لذلك. انتهى.

(**وكذلك الابتلاء أيضًا من حيث الشق، فإن ذلك وقع لنبينا ﷺ بعيد،**) بلفظ التصغير، (**ما فطم**) بشهرين أو ثلاثة، وكان فطامه بعد عامين، (**وأيضًا كان منفردًا عن أمه**) في بني سعد، وأمه بمكة، (**ويتيمًا من أبيه،**) لموته وهو حمل على الصحيح، (**واختطف من بين الأطفال**) الذين كان معهم في البرية، (**وفعل به ما فعل من الأهوال تسهيلاً لما يلقاه في المآل، وتعظيمًا لما يناله على الصبر من الثواب والثناء**) من الكبير المتعال، (**ولهذا لما شُجّ وجهه الشريف**) في أحد، (**وجرح وكسرت رباعيته**) بفتح الراء الموحدة وخفة التحتية، (**قال: اللهم اغفر لقومي**) مغفرة تصرف عنهم عذاب الاستئصال، (**فإنهم لا يعلمون**) رفع قدري عندك، فأعتذر عنهم بالجهل الحكمي، وإن كان بعد الآيات البينات ليس بعذر، ولم يقل يجهلون تحسينًا للعبارة ليجذبهم بزمام لطفه إلى الإيمان، ويدخلهم بعظيم عفوه، حُرم الأمان، (**زاده الله شرفًا وفضلاً**) ﷺ.

(**وقوله: ثم أتيت بطست من ذهب، إنما أتى بالطست لأنه أشهر،**) أي: أظهر (**آلات الغسل عرفًا**) من حيث إن استعماله للغسل أكثر من استعمال غيره، (**فإن قلت: إن استعمال الذهب حرام في شرعه عليه السلام،**) بنصه على حرمته، (**فكيف استعمل الطست الذهب**

في هذه الدار، وأما الآخرة فهو للمؤمنين خالصًا، لقوله عليه السلام: «هو لهم في الدنيا وهو لنا في الآخرة». قال: ثم إن الاستمتاع بهذا الطست لم يحصل منه عليه الصلاة والسلام وإنما كان غيره في السائق له والمتناول لما كان فيه حتى وضعه في القلب المبارك.

فسوقان الطست من هناك، وكونه كان من ذهب دال على ترفيع المقام فانتفى التعارض بدليل ما قررنا. انتهى.

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لا يكفي أن يقال: إن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة، لأنه إذا كان قد حرم عليه استعماله لتنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم. ويمكن أن يقال: إن تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، وما وقع في تلك الليلة كان الغالب أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحوال الآخرة، ولعل ذلك كان قبل أن يحرم الذهب في هذه

هنا،) قلت: (أجاب العارف ابن أبي جمرة؛ بأن تحريم الذهب،) أي: علته، (إنما هو لأجل الاستمتاع به في هذه الدار) الدنيا، (وأما الآخرة فهو للمؤمنين خالصًا لقوله عليه السلام: «هو لهم في الدنيا) الفانية، (وهو لنا في الآخرة») الباقية، وما هنا كان الغالب أنه من أحوال الآخرة.

(قال) ابن أبي جمرة: (ثم إن الاستمتاع بهذا الطست لم يحصل منه عليه الصلاة والسلام) حتى يجيء السؤال، (وإنما كان غيره في السائق،) أي: الحامل (له) حتى أحضره له، يقال ساق الصداق إلى امرأته: حمله إليها، (والمتناول لما كان فيه حتى وضعه في القلب المبارك، فسوقان) مصدر على فعلان هذا ظاهره، ولم يذكره الجوهري، ولا المجد ولا غيرهما، وإنما قالوا في مصدر ساق سوقًا، وسياقة ومساقًا، فينظر سند المصنف (الطست من هناك، وكونه كان من ذهب دال على ترفيع المقام،) أي: إعلائه، (فانتفى التعارض بدليل ما قررنا، انتهى) جواب ابن أبي جمرة، وهو مشتمل على جوابين، أحدهما مسلم وهو الأول.

(و) الثاني: (تعقبه الحافظ ابن حجر؛ بأنه لا يكفي أن يقال إن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة، لأنه إذا كان قد حرم عليه استعماله لتنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم،) لأنه صين عما يخالف شرعه حتى قبل النبوّة، (ويمكن أن يقال) في الجواب؛ (إن تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، وما وقع تلك الليلة كان الغالب أنه من أحوال الغيب:) ما غاب عن مشاهدة الناس، (فيلحق بأحوال الآخرة،) وهذا مستفاد من الجواب الأول لابن أبي جمرة، فأشار إلى توافقهما عليه، والحافظ لم ينقل كلامه إنما قال:

الشريعة. ويظهر هٰهنا مناسبات: منها أنه من أواني الجنة، ومنها أنه لا تأكله النار ولا التراب، ومنها أنه لا يلحقه الصدأ، ومنها أنه أثقل الجواهر فناسب قلبه عليه الصلاة والسلام لأنه من أواني أحوال الجنة، ولا تأكله النار ولا التراب، كما قال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، ولا يلحقه الصدأ، ومنها أنه أثقل الجواهر، فناسب قلبه عليه الصلاة والسلام، لأنه من أواني أحوال الجنة، وأنه أثقل من كل قلب عدل به، وفيه مناسبة أخرى وهي ثقل الوحي فيه. انتهى.

قلت: قوله: «ولعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة». قد جزم هو في أول الصلاة من كتابه فتح الباري: بأنه تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة.

قال السهيلي وابن دحية: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهابه

(ولعل ذلك كان قبل أن يحرم الذهب في هذه الشريعة،) ولا يكفي أن يقال إلى آخر ما ذكر المصنف، فقوله: ولعل جواب مستقل فهي ثلاثة، وقال، أعني الحافظ في أول كلامه: خص الذهب لكونه أعلى الأواني الحسنة وأصفاها، ولأن فيه خواص ليست لغيره، ووصل هذا بقوله: **(ويظهر)** لها **(ههنا مناسبات)** للناظر في المقام، لا من خصوص ما قدمه **(منها، أنه من أواني الجنة،)** كما قال تعالى: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾ [الزخرف/٧١] ، **(ومنها أنه لا تأكله النار،)** وكذلك القرآن لا تأكله النار، ولا قلبًا وعاه، ولا بدنًا عمل به يوم القيامة، ففيه مناسبة له، **(ولا التراب)** لا يأكله؛ ولا يغيره، وكذلك القرآن لا يستطاع تغييره، كذا في الروض. **(ومنها أنه لا يلحقه الصدأ)** بفتح المهملتين مهموز.

(ومنها أنه أثقل الجواهر، فناسب قلبه عليه الصلاة والسلام، لأنه من أواني أحوال الجنة،) أي: من الأواني التي تستعمل في الأحوال التي تقع في الجنة وتحتاج إلى إناء، وعبارة الحافظ: ومنها أنه أثقل الجواهر، فناسب ثقل الوحي، **(ولا تأكله النار ولا التراب كما قال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»)**، ولا يلحقه الصدأ، بخلاف غيره، كما قال إن القلوب لتصدأ.

(وأنه أثقل من كل قلب عدل به، وفيه مناسبة أخرى، وهو ثقل الوحي فيه. انتهى) كلام الحافظ.

(قلت قوله: ولعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة،) يشعر أنه لم يطلع فيه على شيء، وإنما ترجاه من نفسه، وينافيه أنه **(قد جزم هو في أول الصلاة من كتابه فتح الباري؛ بأنه تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة،)** حيث قال: أبعد من استدل به، أي: حديث المعراج على جواز تحلية المصحف وغيره بالذهب، لأن المستعمل له الملك، فيحتاج إلى

الرجس عنه ولكونه وقع عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه، فلوضاءته ونقائه وصفاته. انتهى.

والمراد بقوله: ملىء حكمة وإيمانًا أن الطست جعل فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة، فسمي حكمة وإيمانًا مجازًا.

والملء يحتمل أن يكون حقيقة وبجسد المعاني جائز، كما جاء أن سورة البقرة

ثبوت كونهم مكلفين بما كلفنا به، ووراء ذلك أن ذلك كان على أصل الإباحة، لأن تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة كما سيأتي واضحًا في اللباس انتهى.

(قال السهيلي و) تلميذه **(ابن دحية: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهابه الرجس الإثم والسوء عنه ولكونه وقع عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه فلو ضاءته ونقائه وصفائه،)** ولثقله ورثوبته، والوحي ثقيل، قال الله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا﴾ [المزمل/٥] ﴿ومن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ [المؤمنون/١٠٢] الآية، ولأنه أعز الأشياء في الدنيا، والقرآن هو الكتاب العزيز. **(انتهى)** كلام السهيلي بهذا الذي زدته.

زاد ابن دحية: ولأنه رأس الإيمان وقيمة المتلفات، فهو إذا أصل الدنيا، والإيمان أصل الدين، فوقع التنبيه على أن أصل الدنيا آلة لأصل الدين، وخادم له ووسيلة إليه، وأنه إذا قضيت الحاجة منه عدل عنه.

قال بعض: ومن المناسبات خلق سرور القلب عند رؤيته، كما قال تعالى في البقرة: ﴿صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ [البقرة/٦٩] الآية، ويكون جعل الذهب آنية الإيمان من جنس قوله: «الدنيا مطية الآخرة»، **(والمراد بقوله: ملىء حكمة وإيمانًا، أن الطست جعل فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة، فسمى حكمة وإيمانًا مجازًا).**

وأورد السهيلي كيف يكون الإيمان والحكمة في طست من ذهب، والإيمان عرض من الأعراض لا يوصف بها إلا محلها الذي تقوم به، ولا يجوز فيها الانتقال، لأنه صفة الأجسام لا الأعراض، وأجاب؛ بأنه إنما عبر عما في الطست بهما، كما عبر عن اللبن الذي شربه وأعطى فضله عمر بالعلم، فكان تأويل ما أفرغ في قلبه إيمانًا وحكمة، ولعل الذي كان في الطست ثلجًا وبردًا، كما في الحديث الأول، فعبر في المرة الثانية بما يؤول إليه، وعبر عنه في الأولى بصورته التي رآها، لأنه كان طفلاً، فلما رأى الثلج في طست الذهب، اعتقده ثلجًا حتى عرف تأويله بعد، وفي المرة الأخرى كان نبيًا، فلما رأى طست الذهب مملوءة ثلجًا علم التأويل لحينه، أي: لوقته، واعتقده في ذلك المقام حكمة وإيمانًا، فكان لفظه في الحديثين على حسب اعتقاده في المقامين، انتهى.

تجيء يوم القيامة كأنها ظلة، والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك.

وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيرًا، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس.

(و) هذا (**الملء يحتمل أن يكون حقيقة، وبجسد المعاني جائز، كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها ظلة،**) كما قال ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف»، الحديث رواه مسلم، وأو للتنويع وتقسيم القارئين، فالأول لمن قرأهما بلا فهم معناهما، والثاني لمن قرأهما مع فهمه، والثالث لمن ضم إليهما تعليم المستفيد، وإرشاد الطالب، وبيان حقائقهما، وكشف ما فيهما، فالأول عام في كل أحد، والثاني يختص بمثل الملوك، والثالث أرفع كما كان سليمٰن، وغمامتان (بالميم)، وغيايتان (بتحتية): كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها، كما في النهاية.

قال البيضاوي: ولعله أراد ما يكون له صفاء وضوء، إذ الغيابة ضوء شعاع الشمس، (**والموت،**) وهو عرض يمثل (**في صورة كبش**) كما قال ﷺ: «يؤتى بالموت كأنه كبش أملح، حتى يوقف على السور بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، ويا أهل النار، هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، فيضجع ويذبح، فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحًا، ولو أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها لماتوا ترحًا».

وفي رواية: «فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحدًا مات فرحًا لمات أهل الجنة، ولو أن أحدًا مات حزنًا لمات أهل النار». رواهما الترمذي عن أبي سعيد، والقول إن الموت جسم لا يصح.

قال الحافظ: من الأخبار الواهية في صفة البراق ما ذكره الماوردي عن مقاتل، وأورده القرطبي في التذكرة، ومن قبله الثعلبي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: الموت والحياة جسمان، فالموت ليس يجد ريحه شيء إلا مات، والحياة فرس بلقاء أنثى، وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها، لا تمر بشيء، ولا يجد ريحها شيء إلا حيي، (**وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك**) من أحوال الغيب.

(**وقال البيضاوي**) في شرح المصابيح: (**لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيرًا، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط**) بضم العين، أي: جانبه، وهذا تنظير لأن الجنة والنار ليستا من المعاني التي تنتقل في الذهن، ولا صور لها خارجية، فلا يصح

وقال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن الإيمان والحكمة جواهر محسوسات لا معاني، لأنه عليه السلام قال عن الطست: إنه أُتي به مملوءًا حكمة وإيمانًا، ولا يقع الخطاب إلا على ما يفهم ويعرف، والمعاني ليس لها أجسام حتى تملأ، وإنما يملأ الإناء بالأجسام والجواهر، وهذا نص من الشارع عليه الصلاة والسلام بضد ما ذهب إليه المتكلمون في قولهم: إن الإيمان والحكمة أعراض.

والجمع بين الحديث وما ذهبوا إليه، هو أن حقيقة أعيان المخلوقات التي ليس للحواس فيها إدراك، ولا من النبوة إخبار عن حقيقتها غير محققة، وإنما هي غلبة ظن، لأن للعقل ـ بالإجماع من أهل العقل المؤيدين بالتوفيق ـ حدًا يقف عنده، ولا يتسلط فيما عدا ذلك، ولا يقدر أن يصل إليه، فهذا وما أشبهه منها، لأنهم تكلموا على ما ظهر لهم من الأعراض الصادرة عن هذه الجواهر التي ذكرها الشارع ﷺ في الحديث، ولم يكن للعقل قدرة أن يصل إلى هذه الحقيقة

جعلهما مثالين للمعاني، لكنه قصد تقريب تعقل تصوّر المعاني بتصوير الجنة والنار، فإنهما مع عظمهما صُورا له في عرض الحائط، فكما وقع خرق العادة بذلك كذلك لا بعد في تصوير المعاني بصور محسوسة خرقًا للعادة، (**وفائدته كشف المعنوي**،) إظهاره وتصويره (**بالمحسوس**،) أي: تصويره بصورته للتقريب.

(**وقال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن الإيمان والحكمة جواهر محسوسات، لا معاني، لأنه عليه السلام قال عن الطست، إنه أتى به مملوء حكمة وإيمانًا، ولا يقع الخطاب إلا على ما يفهم ويعرف**) للمخاطبين، فالمتبادر منه أنها جواهر، (**والمعاني ليس لها أجسام حتى تملأ**) الطست، (**وإنما يملأ الإناء بالأجسام والجواهر،**) لا بالأعراض، (**وهذا نص من الشارع عليه الصلاة والسلام بضد ما ذهب إليه المتكلمون في قولهم: إن الإيمان والحكمة أعراض، والجمع بين الحديث**) المذكور الدال على أنها جواهر قائمة بأنفسها، (**وما ذهبوا إليه**) من أنها أعراض تقوم بغيرها لا بأنفسها، (**هو أن حقيقة أعيان المخلوقات التي ليس للحواس فيها إدراك، ولا**) ثبت (**من**) جهة (**النبوّة أخبار عن حقيقتها،**) فلم يخبر بها أحد من الأنبياء (**غير محققة، وإنما هو غلبة ظن، لأن للعقل بالإجماع من أهل العقل المؤيدين بالتوفيق حدًا يقف عنده، ولا يتسلط فيما عدا ذلك، ولا يقدر أن يصل إليه، فهذا وما أشبهه منها، لأنهم تكلموا على ما ظهر لهم من الأعراض الصادرة عن هذه الجواهر التي ذكرها الشارع عليه السلام في الحديث، ولم يكن للعقل قدرة أن يصل**)

التي أخبر بها ﷺ. فيكون الجمع بينهما أن يقال: ما قاله المتكلمون حق لأنه الصادر عن الجواهر وهو الذي يدرك بالعقل. والحقيقة ما ذكره عليه الصلاة والسلام في الحديث.

ولهذا نظائر كثيرة بين المتكلمين وآثار النبوة، ويقع الجمع بينهما على الأسلوب الذي قررناه وما أشبهه. ثم مثل بمجيء الموت في هيئة كبش أملح، ثم بالأذكار والتلاوة، ثم قال: لأن ما ظهر منها هنا معان، وتوجد يوم القيامة جواهر محسوسات لأنها توزن، ولا يوزن في الميزان إلا جواهر.

قال: وفي ذلك دليل لأهل الصوفية وأصحاب المعاملات والتحقيق القائلين بأنهم يرون قلوبهم وقلوب إخوانهم، وإيمانهم وإيمان إخوانهم بأعين بصائرهم جواهر

إلى هذه الحقيقة التي أخبر بها عليه السلام، فيكون الجمع بينهما أن يقال ما قاله المتكلمون حق، لأنه الصادر عن الجواهر، وهو الذي يدرك بالعقل والحقيقة ما ذكره عليه الصلاة والسلام في الحديث) المفيد، أنها جواهر محسوسات، لأنه شاهدها، والمتكلمون لم يشاهدوها، فوقفوا على ما أدركته عقولهم، (ولهذا نظائر كثيرة) واقعة (بين المتكلمين، و) ناشئة عن (آثار النبوة؛) بأن تكلم بها الأنبياء، أو أخذت مما جاء عنهم، (ويقع الجمع بينهما على الأسلوب الذي قررناه وما أشبهه،) فيحمل كل من الكلامين المتخالفين على وجه لا يخرج عن قواعد الشرع، (ثم مثل) ابن أبي جمرة للنظائر، (بمجيء الموت في هيئة،) أي: صورة (كبش أملح، ثم) مثل (بالأذكار والتلاوة، ثم قال: لأن ما ظهر منها هنا) في دار الدنيا (معان، وتوجد يوم القيامة جواهر محسوسات، لأنها توزن، ولا يوزن في الميزان إلا جواهر،) لاستحالة وزن المعاني، (قال: وفي ذلك دليل لأهل الصوفة،) واحدة الصوف، أي: القطعة منه، وهم السادة الصوفية، سموا بذلك للبسهم الصوف، أو لصفاء قلوبهم، أو لغير ذلك مما هو معلوم، (وأصحاب المعاملات،) وهي عند الطائفة توجه النفس الإنساني إلى باطنها الذي هو الروح الروحاني والسر الرباني، واستمدادها منهما ما يزيل به الحجب عنها، فيحصل لها قبول المراد في إزالة كل حجاب، ومنازل هذه المعاملات عشرًا: الرعاية، والمراقبة، والحرمة، والإخلاص، والتهذيب، والاستقامة، والتوكل، والتفويض، والثقة، والتسليم، سميت هذه المنازل بالمعاملات، لأن العبد لا تصلح له المعاملة للحق حتى يتحقق بهذه المقامات، كما في اللطائف، وقول شيخنا: هم الذين يعاملون الله تعالى بالتمادي في

محسوسات، فمنهم من يعاين إيمانه مثل المصباح، ومنهم من يعاينه مثل الشمعة، ومنهم من يعاينه مثل المشعل وهو أقواها. ويقولون: بأنه لا يكون المحقق محققًا حتى يعاين قلبه بعين بصيرته، كما يعاين كفه بعين بصره فيعرف الزيادة فيه من النقصان.

فإن قلت: ما الحكمة في شق صدره الشريف ثم ملئه إيمانًا وحكمة، ولـمَ لم يوجد اللّٰه تعالى ذلك فيه من غير أن يفعل به ما فعل؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأنه ﷺ لما أعطي كثرة الإيمان وقوي

الطاعات، واجتناب المنهيات، سمي ذلك معاملة أخذًا من قوله تعالى: ﴿منْ ذا الذي يقرض اللّٰه قرضًا حسنًا﴾ [البقرة/٢٤٥]

قال البيضاوي: إقراضه مثل لتقديم العمل الذي يطلب ثوابه، أي: إقراضًا حسنًا مقرونًا بالأخلاص وطيب النفس، أو مقرضًا حلالاً طيبًا، وقيل: القرض الحسن المجاهدة والإنفاق في سبيل اللّٰه، صحيح في نفسه، لكنه غير ما يعنيه الصوفية، وإن رجع إلى بعض ما قالوا.

(والتحقيق القائلين بأنهم يرون قلوبهم وقلوب إخوانهم، وإيمانهم وإيمان إخوانهم بأعين بصائرهم:) جمع بصيرة، وهي قوّة للقلب المنور بنور القدس، يرى بها حقائق الأشياء، وبواطنها بمثابة البصر للعين، يرى به صور الأشياء وظاهرها، قاله ابن الكمال.

(جواهر محسوسات، فمنهم من يعاين إيمانه مثل المصباح،) أي: السراج، أي: الفتيلة الموقودة، **(ومنهم من يعانيه مثل الشمعة)** واحدة الشمع بفتح الميم وتسكن تخفيفًا، وقيل: الفتح، لغة العرب، والسكون لغة المولدين، **(ومنهم من يعاينه مثل المشعل،)** كمقعد القنديل، كما في القاموس، والمراد هنا معناه العرفي، وهو الشعلة العظيمة، وإلا ساوى المصباح، ونافى قوله: **(وهو أقواها،)** أي: أكثر من ضوء المصباح والشمعة.

(ويقولون: بأنه لا يكون المحقق محققًا حتى يعاين قلبه بعين بصيرته) قلبه، فله عين، كما أن للجسد عينًا، **(كما يعاين كفه بعين بصره، فيعرف الزيادة من النقصان،)** وحينئذ يكون محققًا.

(فإن قلت: ما الحكمة في شق صدره الشريف، ثم ملئه) بكسر الميم وسكون اللام، من عطف الاسم على الاسم، هكذا في نسخة صحيحة، وهي ظاهرة.

وفي نسخة: ثم ملىء، وينبغي تأويله بالمصدر ليحصل التناسب بين المتعاطفين **(إيمانًا وحكمة، ولم لم يوجد اللّٰه تعالى ذلك)** المذكور من الإيمان والحكمة **(فيه،)** أي: القلب،

التصديق إذ ذاك، أعطي برؤية شق البطن والقلب عدم الخوف في جميع العادات الجارية بالهلاك، فحصلت له عليه السلام قوة الإيمان من ثلاثة أوجه: بقوة التصديق، والمشاهدة، وعدم الخوف من العادات المهلكات فكمل له عليه الصلاة والسلام بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان بالله عز وجل، وعدم الخوف مما سواه.

ولأجل ما أعطيه مما أشرنا إليه كان عليه السلام في العالمين أشجعهم وأثبتهم وأعلاهم حالاً ومقالاً.

ففي العلوي: كان ـ كما أخبر عليه السلام ـ أن جبريل لما وصل إلى مقامه قال: ها أنت وربك، وهذا مقامي لا أتعداه، فزج به في النور زجة ولم يتوان ولم

(من غير أن يفعل به ما فعل) من الشق قلت: **(أجاف العارف ابن أبي جمرة: بأنه عليه السلام لما أعطى كثرة الإيمان،)** أي: خصاله وشعبه، أو الأسباب المحصلة لكماله، فلا يرد أن الإيمان هو التصديق، وهو شيء واحد لا تعدد فيه ولا تكثر، وإنما التكثر في متعلقاته من صلاة وصوم ونحوهما.

(وقوي) بضم القاف أولى من فتحها، لاحتياجه لتقدير قوي **(التصديق)** منه بذلك، لكل ما ورد عليه من قبل الله، **(إذ ذاك)** ليس هذا من الإضافة إلى المفرد، بل إلى الجملة الإسمية، أو الفعلية، والتقدير إذ ذاك، كذلك، أو إذ كان ذاك كذلك **(أعطي برؤية شق البطن والقلب عدم الخوف في جميع العادات الجارية بالهلاك، فحصلت له عليه السلام قوة الإيمان من ثلاثة أوجه، بقوة التصديق،)** أي: الحاصلة بزيادة الإيمان، والحكمة، **(وبالمشاهدة)** لشق الصدر وغسل القلب، **(وعدم الخوف)** المترتب على عدم حصول أذى له بعد فعل ما يهلك به عادة **(من العادات،)** أي: مما تجري به العادات **(المهلكات:)** جمع عادة، وتجمع أيضًا على عادة وعوائد، وجعل المشاهدة وعدم الخوف من قوّة الإيمان بناء على أنه يزيد وينقص، فلا يرد أنهما خارجان عن التصديق الذي هو مسمى الإيمان، **(فكمل له عليه الصلاة والسلام بذلك ما أريد منه من قوّة الإيمان بالله عز وجل وعدم الخوف، مما سواه، ولأجل ما أعطيه مما أشرنا إليه، كان عليه السلام في العالمين أشجعهم وأثبتهم وأعلاهم حالاً ومقالاً،)** أي: قولاً مصدر، قال كقولاً ومقالة، **(ففي)** أي: فرفعة حاله وشأنه في العالم **(العلوي:)** بضم العين وكسرها مع سكون اللام، المكان المرتفع من نسبة الكلي، وهو المكان العالي من حيث هو إلى جزئية، وهو ما وصل إليه تلك الليلة، فإنه جزئي من جزئيات مطلق المكان.

(كان كما أخبر عليه السلام أن جبريل لما وصل إلى مقامه،) أي: جبريل المشار إليه

يلتفت، فكان هناك في الحضرة كما أخبر عنه ربه عز وجل بقول: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم/١٧].

وأما حاله عليه السلام في هذا العالم: فكان إذا حمي الوطيس في الحرب ركض بغلته في نحر العدو، وهم شاكون في سلاحهم، ويقول: «أنا النبي لا كذب».

ثم إن في العناية بتطهير قلبه المقدس، وإفراغ الإيمان والحكمة، فيه إشارة إلى مذهب أهل السنة في أن محل العقل ونحوه من أسباب الإدراكات كالنظر أو

بقوله: وما منا إلا له مقام معلوم، وهو سدرة المنتهى التي لم يتجاوزها أحد إلا نبينا ﷺ، قاله النووي، (قال: ها أنت وربك وهذا مقامي) بفتح الميم، أي: موضعي، (لا أتعداه، فزج به في النور زجة، ولم يتوان، ولم يلتفت،) أي: ألقى نفسه بلا توقف لما عنده من الثبات وقوّة القلب، (فكان هناك في الحضرة، كما أخبر عنه ربه عز وجل بقوله: ﴿ما زاغ البصر﴾) ما مال بصره ﷺ عما رآه، (﴿وما طغى﴾ [النجم/١١٧]) الآية، ما تجاوزه، بل أثبته إثباتًا صحيحًا متيقنًا، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها، وما جاوزها، وما أحسن اختصار الحافظ لهذا كله بقوله في الفتح.

قال ابن أبي جمرة: الحكمة في شق بطنه مع القدرة على أن يمتلىء قلبه إيمانًا وحكمة بغير شق، الزيادة في قوّة اليقين، لأنه أعطى بشق بطنه وعدم تأثره بذلك، ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذا كان أشجع الناس وأعلاهم حالاً ومقالاً، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم/١٧] الآية.

(وأما حاله عليه السلام في هذا العالم:فكان إذا حمي الوطيس) التنور، أي: اشتد الحرب كما فسر به حديث: «الآن حمي الوطيس»، فالأولى إسقاط قوله، (في الحرب) اللهم إلا أن يجرد عن معناه، بأن يقال المعنى إذا اشتد الأمر (ركض بغلته) أي: ضربها لتعدو (في نحر العدو،) أي: صدورهم فلا يهاب أحدًا منهم، ولا يمنعه من ذلك كثرتهم ولا شدتهم في الحرب، (وهم شاكون،) أي: داخلون (في سلاحهم) دروعًا وغيرها، فهي محيطة بكل بدنهم، وفيه مسامحة، إذ لا يتأتى أن تكون الأسلحة لهم غير الدروع ظروفًا، فالظرفية اعتبارية فيه كما في جذوع النخل بالغ في جعل السلاح ظرفًا لهم، كأنهم لشدة تمكنهم منها واستيلائهم عليها مظروفون فيها.

(ويقول: «أنا النبي لا كذب»،) لأن صفة النبوّة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي، والنبي لا يكذب، فلست بكاذب، أنا ابن عبد المطلب، فركوبه البغلة مزيد ثبات، لأنها

الفكر إنما هو القلب لا الدماغ، خلافًا للمعتزلة والفلاسفة.

وأما الحكمة في غسل قلبه المقدس عليه الصلاة والسلام بماء زمزم، فقيل لأنه ماء زمزم يقوي القلب ويسكن الروع. قال الحافظ الزين العراقي: ولذلك غسل به قلبه عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت. واستدل شيخ الإسلام السراج البلقيني، بغسل قلبه الشريف به على أنه أفضل من ماء الكوثر،

ليست من مراكب الحرب، بل الأمن، فالحرب عنده كالسلم، وكذا إشهار نفسه مبالغة في الشجاعة وعدم المبالاة بالعدو. ومر بسط هذا في حنين، **(ثم إن في العناية،)** أي: الاهتمام **(بتطهير قلبه المقدس، وإفراغ الإيمان والحكمة فيه إشارة إلى مذهب أهل السنة، في أن محل العقل ونحوه من أسباب الإدراكات كالنظر أو الفكر، إنما هو القلب لا الدماغ، خلافًا للمعتزلة والفلاسفة)** وبعض أهل السنة كالحنفية وعبد الملك بن الماجشون من المالكية، لكن مذهب الأكثرين ظاهر على إثبات القوى الباطنية، ولم يقولوا بها، فوصفها بأن لها محلاً تسمح، والمراد أنه جعل للقلب حالة يدرك بها الأمور المعقولة، وفي قوله: من أسباب الإدراك إشعار بأن المدرك هو العقل، وما عداه طريق لإدراكه، وفي العقل تعاريف نقل المجد منها جملة، وقد نقل كلامه المصنف في الفصل الثاني من المقصد الثالث.

(وأما الحكمة في غسل قلبه المقدس عليه الصلاة والسلام،) كما مر في رواية البخاري: ففرج صدري ثم غسله **(بماء زمزم فقيل: لأن ماء زمزم يقوي القلب ويسكن الروع)** بالفتح، الفزع.

(قال الحافظ الزين العراقي: ولذلك غسل به قلبه عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء، ليقوى على رؤية الملكوت): باطن الملك.

وقال ابن أبي جمرة: إنما لم يغسل بماء الجنة، لما اجتمع في زمزم من كون أصل مائها من الجنة، ثم استقر في الأرض، فأريد بذلك بقاء بركة النبي ﷺ في الأرض.

وقال السهيلي: لما كانت زمزم حفرة جبريل روح القدس لأم إسمعيل جد النبي ﷺ ناسب أن يغسل عند دخوله حضرة القدس لمناجاته.

وقال غيره: لما كان ماء زمزم أصل حياة أبيه إسمعيل، وقد ربي عليها ونما قلبه وجسده، وصار هو صاحبه وصاحب البلدة المباركة، ناسب أن يكون ولده الصادق المصدوق، كذلك ولما فيه من الإشارة إلى اختصاصه بذلك بعد وفاته، فإنه قد صارت الولاية إليه في الفتح، فجعل السقاية للعباس وولده، وحجابة البيت لعثمن بن شيبة، وعقبه إلى يوم القيامة.

(واستدل شيخ الإسلام السراج البلقيني بغسل قلبه الشريف به،) بماء زمزم، **(على أنه**

قال: لأنه لم يغسل قلبه المكرم إلا بأفضل المياه، وإليه يومىء قول العارف ابن أبي جمرة في كتابه «بهجة النفوس».

أفضل من ماء الكوثر، قال: لأنه لم يغسل قلبه المكرم إلا بأفضل المياه) وتوقف السيوطي فيه بأن كونه لا يغسل إلا بأفضل المياه مسلم، ولكن بأفضل مياه الدنيا، إذ الكوثر من متعلقات دار البقاء، فلا يستعمل في دار الفناء، ولا يشكل بكون الطست الذي غسل منه صدره ﷺ من الجنة، لأن استعمال هذا ليس فيه ذهاب عين بخلاف ذاك.

وأجاب في الإيعاب، بأنه إذا سلم أنه لا يغسل إلا بأفضل المياه لزمه تسليم قول البلقيني، وتخصيصه بأفضل مياه الدنيا، لما ذكره لا دليل عليه، وكون ماء الكوثر من الجنة لا يقضي عدم الغسل به، لأن المناسب لحاله ﷺ أن يستعمل له الأفضل مطلقًا لا بالنسبة لدار الدنيا، إذ لا أصل في الأفضل على الإطلاق أن لا يستعمل له إلا الأفضل، كذلك والفرق بينه وبين الطست بما ذكره لا تأثير له، لأن ذلك الوقت وقت إظهار كرامته وخرق العادة له وإلا لحرم استعمال الذهب، فلما جاز علمنا أن القصد به خرق العادة لمزيد إظهار الكرامة، وهذا مقتضى لاستعمال ماء الكوثر، لو كان أفضل، فلما نزل إلى ماء زمزم اقتضى ذلك بقرينة المقام أنه أفضل منه.

قال: وبهذا يرد على من نازع البلقيني أيضًا، يعني السيوطي، بخبر لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وأجاب عن الغسل به دون مائها؛ بأنه قد ألفه ونشأ عليه كجده إسمٰعيل، إذ هو أول ماء نبع بمكة لأجله، ووجه رد أن الخبر مخصوص والألفة لا تقتضي ما ذكر، سيما في مقام إظهار شرفه.

ونازعه أيضًا بأن الحكمة الغسل به، قول الزين العراقي، إنه يقوى به على رؤية الملكوت، لأن من خواصه أنه يقوي القلب، ويسكن الروع، فإذا ثبت هذا لم يكن في الغسل به دلالة على أفضليته، لأن سلب هذا المعنى عن ماء الكوثر لا يقتضي أن ماء زمزم أفضل منه، لأن سبب انتفائه عنه أنه من مياه الجنة، وهي لا روع فيها حتى يحتاج لسلبه، فسلبه عنه لعدم المحل القابل، لا لعجز الفاعل، وبأن الكوثر مما منّ اللّٰه به على نبيه، وأنزل فيه القرآن وزمزم من عطاء إسمٰعيل، ولم ينزل فيها ما نزل من القرآن فيه، ومن خصوصياته أن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، وغير ذلك انتهى.

ووجه رده أن ما ذكر من الحكمة لم يثبت على أنه يكفي في تقوية قلبه، وتسكين روعه، ما وقع له من تكرر شق الصدر المنبىء عن بلوغه في قوة القلب، وسكون الروع إلى الغاية القصوى، فلا يحتاج لشيء آخر، وعلى التنزل، فكونه غسل به لأجل ذلك لا يقتضي أنه غسل به لذلك، بل يحتمل أنه لذلك، ولإظهار شرفه، فالأمران يحتمل أنهما مقصودان، فما الدليل على

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «فغسل صدري» فالظاهر أن المراد به القلب، كما في الرواية الأخرى، وقد يحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع الجمع بأن يقال: أخبر عليه الصلاة والسلام مرة بغسل صدره الشريف ولم يتعرض لذكر قلبه، وأخبر مرة أخرى بغسل قلبه ولم يتعرض لذكر صدره، فيكون الغسل قد حصل فيهما معًا مبالغة في تنظيف المحل المقدس. ولا شك أن المحل الشريف كان طاهرًا مطهرًا وقابلاً لجميع ما يلقى إليه من الخير، وقد غسل أولاً وهو عليه السلام طفل، وأخرج من قلبه نزغة الشيطان، وإنما كان ذلك إعظامًا وتأهبًا لما يلقى هناك، وقد جرت الحكمة بذلك في غير موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متنظفًا، لأن الوضوء في حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، فكذلك

قصره على أحدهما، وكون الكوثر مما منّ الله به على نبينا بخلاف زمزم لا يكون صريحًا في الأفضلية، وما ذكر فيه من الخصوصية ورد في زمزم أعظم منه، وهو أن من شرب منها للأمن من العطش يوم القيامة أعطيه، كما يصرح به الحديث الصحيح، خلافًا لمن نازع فيه ماء زمزم لما شرب له، وقول ابن الرفعة والماء النابع من بين أصابعه ﷺ أشرف المياه، لا يرد على البلقيني، لأن قوله إلا بأفضل المياه، أي: الموجودة إذ ذاك، والنابع لم يكن موجودًا إذ ذاك، ولا يرد على ابن الرفعة الحديث الصحيح خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، لأن ما نبع من أصابعه لم يكن موجودًا عند قوله ذلك انتهى.

(**وإليه يومىء قول العارف ابن أبي جمرة في كتابه بهجة النفوس**) اسم شرحه على الأحاديث التي انتخبها من البخاري.

(**وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «فغسل صدري»، فالظاهر أن المراد به القلب، كما في الرواية الأخرى**) في البخاري عن لملك بن صعصعة: فغسل قلبي، وفي رواية مسلم: فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم، (**وقد يحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع**) أي: يحصل، (**الجمع**) بينهما، (**بأن يقال أخبر عليه الصلاة والسلام مرة بغسل صدره الشريف، ولم يتعرض لذكر قلبه، وأخبر مرة أخرى بغسل قلبه، ولم يتعرض لذكر صدره، فيكون الغسل قد حصل فيهما**) مرة لقلبه بعد إخراجه، ومرة لصدره بعد شقه، (**معًا مبالغة في تنظيف المحل المقدس، ولا شك أن المحل الشريف كان طاهرًا مطهرًا وقابلاً لجميع ما يلقى إليه من الخير**) ومنه الإيمان والحكمة، (**وقد غسل أولاً وهو عليه السلام طفل، وأخرج من قلبه نزغة الشيطان، وإنما كان ذلك إعظامًا وتأهبًا لما يلقى هناك**) لا لإزالة أمر مستقذر فيه لكمال خلقه، والعلقة التي أخرجت منه لم يكن للشيطان عليها لو لم تخرج سبيل، وإنما قصد

غسل جوفه الشريف هنا، وقد قال اللّه تعالى: **﴿ومن يعظم شعائر اللّه فإنها من تقوى القلوب﴾** [الحج/٣٢] فكان الغسل له عليه السلام من تعظيم شعائر اللّه، وإشارة لأمته بالفعل بتعظيم شعائر اللّه، كما نص عليه بالقول.

وأما قوله: ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، وفي رواية عنده في الصلاة ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء.

فظاهره: أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء.

قال العارف ابن أبي جمرة: أفاد ذلك أنهم كانوا يمشون في الهواء، وقد

بإخراجها المبالغة في إظهار تعظيمه وتكميله من بين أفراد أنواعه.

(**وقد جرت الحكمة بذلك في غير موضع**،) وفي نسخة بزيادة ما للتأكيد، (**مثل الوضوء للصلاة لمن كان متنظفًا**،) ولو نظافة حسية، بأن غسل بدنه، وبالغ في تنظيفه، ولم يأت بأفعال الوضوء على الوجه المعتبر فيه شرعًا، (**لأن الوضوء**) الشرعي (**في حقه، إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي اللّه تعالى ومناجاته**،) لأن المصلي يناجي ربه، والقصد بالوضوء إعظامه، إذ ليس ثم دنس محسوس يزيله الوضوء، ولا ينافي هذا قول الفقهاء أن الحدث أمر اعتباري يقوم بالأعضاء يمنع صحة الصلاة حيث لا مرخص لجواز أنهم أرادوا بالاعتباري معنى أراده الشارع منافيًا لكمال التعظيم مع خلو الأعضاء من الدنس الحسي، (**فكذلك غسل جوفه الشريف هنا**) ليس لعدم القابل، بل للإعظام والتأهب للمناجاة.

(**وقد قال اللّه تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر اللّه فإنها من تقوى القلوب﴾** [الحج/٣٢]،) أي: فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من، وذكر القلوب، لأنها منشأ التقوى والفجور والآمرة بهما، قاله البيضاوي.

(**فكان الغسل له عليه السلام من تعظيم شعائر اللّه وإشارة لأمته بالفعل**) من الملك معه **بتعظيم شعائر اللّه كما نص عليه بالقول**) في الآية المذكورة.

(**وأما قوله: ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض**،) ذكر باعتبار أنه مركوب أو نظر اللفظ البراق، (**يضع خطوه عند أقصى طرفه**) براء ساكنة وفاء، أي: نظره، (**فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا**).

(**وفي رواية عنده**:) أي: البخاري(**في الصلاة**،(**ثم أخذ بيدي فعرج بي السماء، فظاهره أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء**،) وهذا الظاهر ليس بمراد لما ثبت أنه ربط البراق ببيت المقدس، ورقي السماء على المعراج كما يأتي بيانه، ومشى على ظاهره ابن

جرت العادة بأن البشر لا يمشي في الهواء، سيما وكان راكبًا على دابة من ذوات الأربع، لكن لما أن شاءت القدرة ذلك كان، فكما بسط تعالى لهم الأرض يمشون عليها، كذلك يمشيهم في الهواء، كل ذلك بيد قدرته، لا ترتبط قدرته تعالى بعادة جارية. وقد سئل عليه السلام حين أخبر عن الأشقياء الذين يمشون على وجوههم يوم القيامة كيف يمشون فقال عليه السلام: «الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادر أن يمشيهم يوم القيامة على وجوههم». انتهى.

وقد استدل بعضهم بهذا الحديث على أن المعراج كان في ليلة غير ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، لكون الإسراء إليه لم يذكر هنا.

فأما المعراج ففي غير هذه الرواية من الأخبار أنه لم يكن على البراق، بل رقي في المعراج وهو السلم، كما وقع التصريح به في حديث عن ابن إسحٰق

أبي جمرة في قوله، والقدرة كانت صالحة لأن يصعد بنفسه من غير براق، لكن ركوب البراق كان زيادة في تشريفه، لأنه لو صعد بنفسه كان في صورة ماش، والراكب أعز من الماشي.

(**قال العارف ابن أبي جمرة**) عقب هذا: (**أفاد ذلك أنهم كانوا يمشون في الهواء، وقد جرت العادة بأن البشر لا يمشي في الهواء، سيما وكان راكبًا على دابة من ذوات الأربع،**) يعني البراق، (**لكن لما أن شاءت القدرة ذلك كان،**) أي: شاء ذو القدرة، ففيه مضاف، أو مصدر، بمعنى اسم الفاعل، أي: القادر، وأنث الفعل نظرًا للفظ، فلا يرد أن القدرة صفة لا تنسب لها المشيئة، وإنما تنسب للّٰه تعالى، (**فكما بسط تعالى لهم الأرض يمشون عليها، كذلك يمشيهم في الهواء، كل ذلك بيد قدرته، لا ترتبط قدرته تعالى بعادة جارية،**) أي: لا يتوقف تأثيرها على موافقة عادة، بل تؤثر في كل ممكن أراد تأثيرها فيه وإن خالف العادة.

(**وقد سئل عليه السلام حين أخبر عن الأشقياء**) الكفار، (**الذين يمشون على وجوههم يوم القيامة، كيف يمشون؟، فقال عليه السلام:**) إن (**الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم**) في رواية: على أرجلهم، (**قادر على أن يمشيهم يوم القيامة على وجوههم،**) والحديث في الصحيحين عن أنس. (**انتهى**) كلام ابن أبي جمرة.

(**وقد استدل بعضهم بهذا الحديث على أن المعراج، كان في ليلة غير ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، لكون الإسراء إليه لم يذكر هنا،**) إذ ظاهر قوله: فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، أنه استمر سائرًا به إليها، ثم إلى حيث شاء اللّٰه، ولم ينزل بيت المقدس، (**فأما المعراج ففي غير هذه الرواية من الأخبار**) ما يدل على (**أنه لم يكن على البراق، بل**

والبيهقي في الدلائل كما سيأتي إن شاء اللَّه تعالى.

ويمكن أن يقال: ما وقع هنا اختصار من الراوي، والإتيان بـ «ثم» المقتضية للتراخي لا ينافي وقوع الإسراء بين الأمرين المذكورين، وهما: الانطلاق والعروج. وحاصله: أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، وثابت البناني قد حفظ الحديث. ففي روايته عند مسلم: أنه أتى بيت المقدس فصلى به ثم عرج إلى السماء كما سيأتي إن شاء اللَّه تعالى.

وقد قيل: إن الحكمة في الإسراء به راكبًا، مع القدرة على طي الأرض له، إشارة إلى أن ذلك وقع تأنيسًا له بالعادة، في مقام خرق العادة، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركوب سني يحمله عليه في

رقي في المعراج، وهو السلم كما وقع التصريح به في حديث عند ابن إسحٰق، **والبيهقي في الدلائل**) النبوية، من حديث أبي سعيد (**كما سيأتي إن شاء اللَّه تعالى**) قريبًا، (**ويمكن أن يقال**) في الجمع (**ما**) الذي (**وقع هنا اختصار من الراوي**،) فيرد ما هنا إلى تلك الرواية، كأن يقال قوله: حتى أتى السماء الدنيا، ذكر غاية ما وصل به جبريل، ولم ينظر لتفاصيل ما دون ذلك، (**والإتيان بثم المقتضية للتراخي لا ينافي وقوع الإسراء بين الأمرين المذكورين، وهما الانطلاق**) المذكور في قوله: فانطلق بي جبريل، (**والعروج**) المذكور بقوله: حتى أتى السماء، وفي نسخة: الإطباق (بكسر الهمزة فطاء ساكنة فموحدة ثم قاف)، أي: إطباق صدره كما كان، وفيه تعسف، (**وحاصله**،) أي: هذا الجمع (**أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر**).

وقال النعماني: ما المانع من أنه ﷺ رقي المعراج فوق ظهر البراق لظاهر الحديث.. انتهى. والمانع موجود، وهو أحاديث ربطه البراق بالحلقة كما يأتي.

(**وثابت البناني**) (بضم الموحدة وبالنون)، (**قد حفظ الحديث، ففي روايته عند مسلم**) عن أنس، (**أنه أتى إلى بيت المقدس، فصلى به، ثم عرج إلى السماء، كما سيأتي إن شاء اللَّه تعالى**،) ومن قواعد المحدثين تقديم رواية من حفظ القصة وفصلها، فيرد إليه رواية من أجمل أو نقص فيها.

(**وقد قيل: إن الحكمة في الإسراء به راكبًا مع القدرة على طي الأرض له إشارة إلى أن ذلك وقع تأنيسًا له بالعادة**،) حيث أسرى به راكبًا مع إمكان إيصاله بلا ركوب، بل لو أراد حضوره بغير شيء كان (**في مقام خرق العادة**،) حيث قطع تلك المسافات الكثيرة ذهابًا وإيابًا في أقل زمن، (**لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى**،) أي: طلب (**من يختص به بعث إليه**

وفادته إليه.

وفي كلام بعض أهل الإشارات: لما كان ﷺ ثمرة شجرة الكون، ودرة صدقة الوجود، وسرَّ معنى كلمة «كن» ولم يكن بد من عرض هذه الثمرة بين يدي مثمرها رفعها إلى حضرة قدسه، والطواف بها على ندمان حضرته، أرسل إليه أعز خدام الملك عليه، فلما ورد عليه قادمًا، وافاه على فراشه نائمًا، فقال له قم يا نائم، فقد هيئت لك الغنائم. قال: «يا جبريل إلى أين»؟ قال: يا محمد ارفع «الأين» من البين، إنما أنا رسول للقدم أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم، يا محمد أنت مراد الإرادة، الكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، أنت صفوة كأس المحبة،

بمركوب سني،) أي: شريف، (يحمله عليه في وفادته إليه،) فعامله بذلك تأنيسًا وتعظيمًا.

(وفي كلام بعض أهل الإشارات،) أي: محقق الصوفية، (لما كان ﷺ ثمرة شجرة الكون،) يعنون بالشجرة في اصطلاحهم الإنسان الكامل المشار إليه في آية النور، وهو الشجرة المباركة الزيتونة، التي لا شرقية ولا غربية، لاعتدالها بين طرفي الإفراط والتفريط في الأقوال والأحوال، (ودرة صدقة الوجود وسر معنى كلمة كن) السر، يعني به حصة كل موجود من الحق بالتوجه الإيجادي المنبه عليه، بقوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل/٤٠]، فقولهم لا يحب الحق إلا الحق، ولا يطلب الحق إلا الحق، ولا يعلم الحق إلا الحق؛ إنما أشاروا بذلك إلى السر المصاحب من الحق للخلق على الوجه الذي عرفت، فإنه هو الطالب للحق، والمحبب له، والعالم به، كذا في الأعلام بإشارات أهل الإلهام، (ولم يكن بد) فراق ومحالة، (من عرض هذه الثمرة بين يدي مثمرها، رفعها إلى حضرة قدسه والطواف:) الدوران (بها على ندمان حضرته، أرسل إليه) جبريل، (أعز خدام الملك) (بكسر اللام) سبحانه (عليه، فلما ورد عليه قادمًا وافاه على فراشه نائمًا، فقال:) بلسان الحال، (قم يا نائم، فقد هيئت لك الغنائم:) جمع غنيمة، (فقال) بلسان حاله: (يا جبريل إلى أين؟، فقال: يا محمد ارفع الأين من البين، إنما أنا رسول للقدم،) أي: لذي القدم، وهو الحق تعالى، (أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم، يا محمد أنت مراد الإرادة) المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته مع تهيؤ الأمور له، فجاوز الرسوم كلها، والمقامات من غير مكابدة وهزاهز، وهذا مراد شيخ الإسلام أبي إسمعيل الأنصاري بقوله: المراد هو المختطف من وادي التفرق إلى ربوة الجمع، وهذا هو الإنسان الذي اجتباه الحق واستخلصه (الكل،) أي: كل المخلوقات (مراد لأجلك،) كما قال تعالى لآدم: لولا محمد ما خلقتك، رواه الحاكم مرفوعًا.

أنت درة هذه الصدفة، أنت شمس المعارف، أنت بدر اللطائف، ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما حمي ذلك الحمى إلا لوصلك، وما روّق كأس المحبة إلا لشربك. فقال عليه السلام: «يا جبريل فالكريم يدعوني إليه، فما الذي يفعل»؟ قال: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: يا جبريل هذا لي، فما لعيالي وأطفالي؟ قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الضحى/٦]، قال: الآن طاب قلبي ها أنا

وروى أبو الشيخ والحاكم، وصححه عن ابن عباس: «أوحى الله إلى عيسى؛ آمن بمحمد ومر أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار»، وذكر ابن سبع وغيره عن علي: أن الله قال لنبيه: من أجلك أسطح البطحاء، وأموج الموج، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب، (**وأنت مراد لأجله، أنت صفوة كأس المحبة، أنت درة هذه الصدفة، أنت شمس المعارف،**) هي في اصطلاح القوم عبارة عن إحاطة العبد بعينه، وإدراك ما له وعليه، كما قال الإمام الجنيد: أن تعرف ما لك وما له، (**أنت بدر اللطائف:**) جمع لطيفة، وهي كل إشارة دقيقة المعنى، تلوح في الفهم لا تسعها العبارة، (**ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما حمى ذلك الحمى إلا لوصلك، ما روق كأس المحبة إلا لشربك**)، فسر شيخ الإسلام الهروي في منازل السائرين المحبة؛ بأنها تعلق القلب بين الهمة والأنس في البذل والمنع، أي: بذل النفس للمحبوب، ومنع القلب من التعرض إلى ما سواه، وإنما يكون ذلك بإقرار المحب لمحبوبه بالتوجه إليه، والأعراض عما عداه، وذلك عندما ينسى أوصاف نفسه في ذكر محاسن حبه، فتذهب ملاحظته الثنوية، وإلى هذا المعنى أشار القائل بقوله:

شاهدته وذهلت عني غيرة   مني عليه فذا المثنى مفرد

وإنما كانت المحبة حالة بين الهمة والأنس، كما أشار إليه الشيخ، لأن المحب لما كان أشد الراغبين طلبًا صارت الهمة من جملة أوصافه، إذ المراد بالهمة شدة طلب القلب للحق، طلبًا خالصًا عن رغبة في ثواب، أو رهبة من عقاب، ولما كان الطلب بالهمة قد يعرى عن الأنس، ومن شرط المحب كونه مستأنسًا بمحاسن محبوبه مستغرقًا، وجب أن يكون المحب موصوفًا بالأنس، فلذا اكتفت المحبة بالهمة الأنس.

(**فقال عليه السلام**) بلسان الحال: (**يا جبريل، فالكريم يدعوني إليه، فما الذي يفعل؟، قال: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر**،) أي: يستر الذنب عنك، فلا تلابسه، (**قال: يا جبريل هذا لي، فما لعيالي:**) أمتي (**وأطفالي**) أصحابه وآلي، (**قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾**) [الضحى/٦] الآية، فقال ﷺ: «إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار». روى البيهقي عن ابن عباس في هذه الآية قال: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة.

ذاهب إلى ربي، ثم قال جبريل: يا محمد أنما جيء بي إليك الليلة لأكون خادم دولتك، وحاجب حاشيتك، وحامل غاشيتك، وجيء بالمركوب إليك لإظهار كرامتك، لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيبًا أو استدعوا قريبًا وأرادوا ظهور كرامته واحترامه أرسلو أخص خدامهم وأعز قوامهم لنقل أقدامهم، فجئناك على رسم عادة الملوك وآداب السلوك، ومن اعتقد أنه يصل إليه بالخُطا فقد وقع بالخطأ، ومن ظن أنه محجوب بالغطا فقد حرم العطا. انتهى.

والحكمة في كون البراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، ولم يكن

وفي مسلم عن ابن عمر أنه ﷺ تلا قول اللّٰه عن إبراهيم: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ [إبراهيم/٣٦] الآية، وعن عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ [المائدة/١١٨]، ثم رفع يديه، فقال: «اللهم أمتي»، وبكى، فقال اللّٰه: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك، (**قال: الآن طاب قلبي**:) لذ و زكا، (**ها أنا ذاهب إلى ربي، ثم قال جبريل: يا محمد، إنما جيء بي إليك الليلة لأكون خادم دولتك وحاجب حاشيتك**،) جانبك.

قال المصباح: حاشية الثوب: جانبه، والجمع الحواشي، وحاشية النسب كأنه مأخوذ منه، وهو الذي يكون على جانبه كالعم وابنه، (**وحامل غاشيتك**) بغين وشين معجمتين، اسم لشيء نفيس يحمل أمام الأكابر، ويمشي به بين يديهم عرفًا، والغشاء في الأصل الغطاء وزنًا ومعنى، (**وجيء بالمركوب إليك لإظهار كرامتك، لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيبًا**:) طلبوا زيارته، (**أو استدعوا قريبًا، وأرادوا ظهور كرامته واحترامه، أرسلوا أخص خدامهم، وأعز قوامهم لنقل أقدامهم**،) أي: الذين أرسل إليهم، وجمعه حملاً على أن المراد بالحبيب الجنس الصادق بالواحد والمتعدد، (**فجئناك على رسم عادة الملوك**،) تأنيسًا بالعادة (**وآداب السلوك**،) وهو في اصطلاح الطائفة عبارة عن الترقي في مقامات القرب إلى حضرات الرب فعلاً وحالاً، وذلك بأن يتحد باطن الإنسان وظاهره فيما هو بصدده، مما يتكلفه من فنون المجاهدات، وما يقاسيه من مشاق المكابدات، بحيث لا يجد في نفسه حرجاً من ذلك، (**ومن اعتقد أنه يصل إليه بالخطأ**:) بالضم، جمع خطوة، ما بين القدمين، (**فقد وقع في الخطأ**:) بالفتح خلاف الصواب، (**ومن ظن أنه محجوب بالغطاء**) بغين معجمة، (**فقد حرم العطاء انتهى**).

(**والحكمة في كون البراق**،) الذي أعد له وتعلق علمه تعالى بأنه سيسرى به عليه، (**دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض**) أو فيه حذف، أي: الحكمة في المجيء له بالبراق

على شكل الفرس، إشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراء الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة. وذكره بقوله: أبيض، باعتبار كونه مركوبًا، أو عطفًا على لفظ البراق.

واختلف في تسميته بذلك، فقيل: من البريق، وقال القاضي عياض: لكونه ذا لونين، يقال: شاة برقاء، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود، وقيل: من البرق، لأنه وصف بسرعة السير، ويحتمل أن لا يكون مشتقًا.

ووصفه بأنه يضع خطوه عند أقصى طرفه ـ بسكون الراء وبالفاء ـ أي يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره. وقال ابن المنير: يقطع ما انتهى إليه بصره في

الموصوف بما ذكر، فلا يرد أنه ليس المراد بيان حكمة خلق البراق على هذه الصورة، فحق العبارة الحكمة في المجيء له بالبراق دون فرس مثلاً، (ولم يكن على شكل الفرس) التي هي أشرف الدواب المركوبة، (إشارة) خبر الحكمة، (إلى أن الركوب كان في سلم وأمن، لا في حرب وخوف،) فإن الحرب هي التي يعتد لها لنحو الفرس، وصورة البراق لم يعهد عليه قتال البتة، (أو لإظهار المعجزة،) أي: المبالغة في إظهارها (بوقوع الإسراء الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة،) لكن البياض لا دخل له في الحكمتين، فلعل ذكره لبيان الواقع، أو لإظهار السرور، لأن البياض يختار عادة لإظهاره، (وذكره بقوله أبيض باعتبار كونه مركوبًا أو عطفًا) لغويًا، أي: ميلاً، يقال: عطفت على كذا، ملت له، (على لفظ البراق،) على بمعنى إلى، ولفظ الفتح أو بالنظر للفظ البراق.

(واختلف في) اشتقاق (تسميته بذلك) لقوله الآتي، ويحتمل أن لا يكون مشتقًا، (فقيل) مشتق (من البريق) اللمعان، أي: سمي بذلك للمعان بدنه لصفاء بياضه، (وقال القاضي عياض: لكونه ذا لونين، يقال: شاة برقاء، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود).

قال الحافظ: ولا ينافيه وصفه في الحديث بأنه أبيض، لأن البرقاء من الغنم معدودة في البيض. انتهى.

ولكن اعترض بأن هذا الوصف لم يثبت للبراق، وما يأتي أن صدره ياقوتة حمراء ضعيف.

(وقيل:) مشتق (من البرق) ما يلمع من السحاب، (لأنه وصف بسرعة السير) فأشبه البرق في سيره، (ويحتمل أن لا يكون مشتقًا،) فلا يلاحظ في تسميته أخذه من مادة أصلاً، وإنما هو اسم له، (ووصفه بأنه يضع خطوه عند أقصى طرفه بسكون الراء وبالفاء) أي: نظره، (أي: يضع رجله،) بيان للمراد بخطوه، فليس المراد نفس المصدر (عند منتهى ما يرى بصره،)

خطوة واحدة، قال: فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، لأن بصر الذي في الأرض يقع على السماء، فبلغ أعلى السموات في سبع خطوات. انتهى.

وفي حديث ابن مسعود عند أبي يعلى والبزار ـ كما أفاده في الفتح ـ: إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه.

وفي رواية لابن سعد عن الواقدي بأسانيده: له جناحان. قال الحافظ ابن حجر: ولم أرها لغيره.

فالطرف بمعنى البصر، فقوله عند أقصى طرفه، أي: في المكان الذي هو غاية منتهى ما يصل إليه بصره.

(وقال ابن المنير: يقطع ما انتهى إليه بصره في خطوة واحدة، قال: فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، لأن بصر الذي في الأرض يقع على السماء، فبلغ أعلى السموات في سبع خطوات،) أخبار عما وصف به في حالة عروجه، لأنه يرى كل سماء، وهو فيما دونها. (انتهى) كلام ابن المنير، وهو مبني على أنه عرج به على البراق أخذًا بظاهر الحديث، والصحيح خلافه.

(وفي حديث ابن مسعود عند أبي يعلى والبزار، كما أفاده في الفتح ما لفظه: إذا أتى،) بمعنى أقبل، (على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه،) فلا مشقة على راكبه في صعود ولا هبوط.

(وفي رواية لابن سعد) محمد، (عن الواقدي) محمد بن عمر بن واقد، (بأسانيده: له جناحان).

(قال الحافظ ابن حجر: ولم أرها لغيره،) وهو عجب مع قول الشامي قوله: له جناحان في فخذيه يحفز بهما، رواه ابن إسحق، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن البصري مرسلاً، ورواه ابن سعد من طريق الواقدي، وابن عساكر من حديث جماعة من الصحابة، ويحفز بفتح التحتية وسكون المهملة وكسر الفاء فزاي: يحث بهما رجليه على سرعة السير.

قال ابن الأثير: الحفز الحث والإعجال، ولعل سر كونهما في فخذيه لثقل مؤخر الدابة، أو لأن ذلك جار على هذا الأمر في خرق العادة، أو لأنهما لو كانا في جنبيه على العادة لكانا تحت فخذي الراكب، أو فوقهما، ويحصل له مشقة بضمهما ونشرهما خصوصًا مع السرعة العظيمة انتهى.

وعند الثعلبي ـ بسند ضعيف ـ عن ابن عباس، في صفة البراق: له خد كخد إنسان، وعرف كعرف الفرس، وقوائم كالإبل، وأظلاف وذنب كالبقر، وكان صدره ياقوتة حمراء.

وفي رواية أبي سعد في «شرف المصطفى» فكان الذي أمسك بركابه جبريل، وبزمام البراق ميكائيل.

وفي رواية معمر عن قتادة عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به مسرجًا ملجمًا، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما حملك على هذا، ما

(وعند الثعلبي بسند ضعيف عن ابن عباس في صفة البراق لـه خد كخد إنسان، وعرف) (بضم المهملة وإسكان الراء وقد تضم وبالفاء) (كعرف الفرس،) وهو شعره النابت في محدب رقبته، (وقوائم كالإبل،) أي: كقوائمها، (وأظلاف:) بمعجمة، جمع ظلف بالكسر، للبقرة والشاة بمنزلة القدم لنا، (وذنب كالبقر) عائد لهما، أي: لها أظلاف كالبقر وذنب كالبقر، (وكان صدره ياقوتة حمراء) تشبيه بليغ، أي: كياقوتة لا أن ذاته ياقوتة بالفعل، هذا إن قرىء كان بالفعل، فإن قرىء بالتشديد والهمز، فهو تشبيه حقيقي، لكن ظاهر السياق الأول.

(وفي رواية أبي سعد) هكذا في نسخة صحيحة بأداة الكنية وإسكان العين، واسمه عبد الرحمٰن بن الحسن الأصفهاني، النيسابوري، الحافظ المشهور، الثقة، المتوفى سنة سبع وثلاثمائة، وقد وصفه الذهبي في تاريخه الحافظ، وأغفله من طبقات الحفاظ، والسهيلي يكنيه أبا سعيد بالياء، ورده مغلطاي بأنه إنما هو سعد بسكون العين، ويقع في نسخ ابن سعد، وهي خطأ لقوله (في شرف المصطفى،) إذ هذا الكتاب إنما هو لأبي سعد عبد الرحمٰن، لا لابن سعد محمد، والذي في الفتح وغيره أبي سعد، (فكان الذي أمسك بركابه جبريل، وبزمام:) بكسر الزاي مقود (البراق ميكائيل،) ولا ينافي ذلك أن جبريل كان راكبًا معه كما يأتي، لأنه أمسك ركابه حتى ركب، فركب أمامه.

نعم يعارضه رواية: وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، رواه سعيد بن منصور والطبراني وابن مردويه، فإنه ظاهر في عدم الركوب، إلا أن يكون ذلك إخبارًا عن مبدأ سيره، ثم ركب جبريل قدامه رفقًا به، والعلم لله.

(وفي رواية معمر عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بالبراق ليلة أسرى به مسرجًا ملجمًا) حالان من البراق، (فاستصعب عليه،) أي: عسر وامتنع، (فقال له جبريل: ما حملك على هذا؟،) يعني أي: شيء أغراك بهذا، أي: ما منعك من الانقياد له، مع أنه أعظم من يستحق غاية التعظيم، لأنه (ما ركبك خلق،) أي: مخلوق، (أكرم على الله منه،) بل هو

ركبك خلق أكرم على اللّٰه منه، قال: فارفض عرقًا. أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب وصححه ابن حبان.

وذكر ابن إسحٰق عن قتادة: أنه لما شمس وضع جبريل ـ عليه السلام ـ يده على معرفته وقال: أما تستحي وذكر نحوه، لكنه مرسل لأنه لم يذكر أنسًا.

وفي رواية وثيمة عند ابن إسحٰق: «نعست حتى لصقت بالأرض فاستويت عليها».

في رواية للنسائي وابن مردويه من طريق يزيد بن أبي مالك عن أنس نحوه موصولاً، وزاد: وكانت تسخر للأنبياء قبله، ونحوه في حديث أبي سعيد الخدري عند ابن إسحٰق.

أكرم من ركبك على مفاد النفي عرفًا، وإن صدق لغة بالمساواة، (**قال: فارفض**) سال وجرى، (**عرقًا**) منصوب على التمييز من الفاعل، ولهذا ورد مخففًا، والمعنى خجل من الاستصعاب وعرق من خجل العتاب، قاله في الآيات الباهرة، (**أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، وصححه ابن حبان**) من حديث أنس، وأخرجه أبو داود، والطبراني والبيهقي، وصححه من حديث شداد بن أوس.

(**وذكر ابن إسحٰق**) حيث قال: حدثت (**عن قتادة؛ أنه لما شمس**) بفتح المعجمة والميم فسين مهملة، أي: منع ظهره من ركوبه بامتناعه، (**وضع جبريل عليه السلام يده على معرفته:**) بفتح فسكون ففتح موضع نبات العرف، أي: الشعر النابت على عنقه، (**وقال: أما تستحيي، وذكر نحوه،**) فقال: أما تستحي يا براق مما تصنع، فواللّٰه ما ركبك عبد للّٰه قبل محمد أكرم عليه منه، فاستحيا حتى ارفض عرقًا، ثم قر حتى ركبته، (**لكنه مرسل، لأنه لم يذكر أنسًا،**) إنما قال قتادة: حدثت عن رسول اللّٰه ﷺ قال: لما دنوت منه لأركبه شمس فذكره.

(**وفي رواية وثيمة**) بمثلثة وتحتية وميم (**عند ابن إسحٰق: نعست**) الدابة، كذا في النسخ، وهو تصحيف، فالذي في الفتح وغيره، فارتعشت (**حتى لصقت بالأرض، فاستويت عليها**).

(**وفي رواية للنسائي وابن مردويه**) بفتح الميم ويكسر، كما مر (**من طريق يزيد**) بتحتية فزاي، (**ابن أبي مالك**) عبد الرحمن الهمداني بالسكون، الدمشقي، القاضي، صدوق ربما وهم، مات سنة ثلاثين ومائة أو بعدها، روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه (**عن أنس نحوه موصولاً، وزاد وكانت تسخر للأنبياء قبله ونحوه في حديث أبي سعيد الخدري عند ابن إسحٰق**)

وفيه دلالة على أن البراق كان معدًا لركوب الأنبياء، خلافًا لمن نفى ذلك، كابن دحية، وأوّل قول جبريل: «فما ركبك أكرم على اللّه منه» أي: ما ركبك أحد قط، فكيف يركبك أكرم منه؟ فيكون مثل قول امرىء القيس:

على لاحب لا يهتدى لمناره

فيفهم أن له منارًا لا يهتدى له، وليس المراد: إلا أنه لا منار له البتة، فتأمله.

وقد جزم السهيلي بأن البراق إنما استصعب عليه لبعد عهد ركوب الأنبياء قبله.

قال النووي: قال صاحب مختصر العين، وتبعه صاحب التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق. قال: وهذا يحتاج إلى نقل صحيح، انتهى وقد تقدم النقل بذلك.

قال في الفتح: ويؤيده ظاهر قوله: فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء.

محمد صاحب السيرة، (**وفيه دلالة على أن البراق كان معدًا لركوب الأنبياء خلافًا لمن نفى ذلك كابن دحية، وأوّل قول جبريل: فما ركبك أكرم على اللّه منه، أي: ما ركبك أحد قط، فكيف يركبك أكرم منه**،) فيكون من نفي الموصوف، فينتفي ذلك الوصف بانتفائه، وهي طريقة معلومة خرجوا عليها قوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾ [البقرة/٢٧٣]، أي: لا سؤال، فلا إلحاف، ولم يرد إثبات السؤال، ونفى الإلحاف بدليل يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، إذ التعفف لا يجامع المسألة، وقوله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر/٤٨]، أي: لا شافع، فلا شفاعة بغير عمد ترونها، أي: لا عمدة، فلا رؤية، (**فيكون مثل قول امرىء القيس على لا حب**) بمهملة وموحدة، طريق واضح، (**لا يهتدي لمناره**،) أي: علمه، (**فيفهم أن له منارًا لا يهتدي له، وليس المراد، إلا أنه لا منار له البتة**،) فالمراد نفي المنار من أصله لا إثبات منار انتفى عنه الاهتداء (**فتأمله**،) لأن شرط التخريج على هذا إذا وجد ما يدل عليه، وليس كذلك هنا، كيف (**وقد جزم السهيلي؛ بأن البراق إنما استصعب عليه لبعد عهد ركوب الأنبياء قبله**،) فصرح بأنه ليس خاصًا به، وهو من الحفاظ الكبار، وهو مثبت، فيقدم على نفي تلميذه ابن دحية وإن وافقه ما (**قال النووي: قال صاحب مختصر العين**) الزبيدي، (**وتبعه صاحب التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق**).

(**قال**) النووي متعقبًا لهما، (**وهذا يحتاج إلى نقل صحيح. انتهى، وتقدم النقل بذلك قريبًا**).

(**قال في الفتح: ويؤيده ظاهر قوله: فربطته**،) أي: شددته (**بالحلقة التي تربط**) بكسر

انتهى. فليتأمل فإنه ليس فيه فربطته بالحلقة التي تربطه بها الأنبياء، وإنما قال: تربط بها الأنبياء وسكت عن ذكر المربوط ما هو؟ فيحتمل ـ كما قال ابن المنير ـ أن يكون غير البراق، ويحتمل أن يريد ارتباط الأنبياء أنفسهم بتلك الحلقة، أي تمسكهم بها، ويكون من جنس العروة الوثقى، انتهى.

ولكن وقع التصريح بذلك في حديث أبي سعيد عند البيهقي ولفظه: «فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه». وقد وقع عند ابن إسحٰق من رواية وثيمة في ذكر الإسراء أيضًا: «فاستصعب البراق وكانت الأنبياء تركبها قبلي وكانت بعيدة العهد بركوبهم، لم تكن ركبت في الفترة».

وفي مغازي ابن عائذ، من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال: البراق هي الدابة التي كان يزور إبراهيم عليها إسمٰعيل. وعلى ذلك فلا يكون ركوب

الباء وضمها لغة (**بها الأنبياء. انتهى. فليتأمل، فإنه ليس فيه، فربطته بالحلقة التي تربطه بها الأنبياء**) بالضمير، (**وإنما قال: تربط بها الأنبياء، وسكت عن ذكر المربوط ما هو، فيحتمل كما قال ابن المنير أن يكون غير البراق،**) ويصير تقديره تربط بها الأنبياء دوابهم، .وذلك لا يستلزم كون البراق مركوبًا لهم، وهذا لا يرد على الحافظ، لأنه لم يقل يؤيده قوله، إنما قال ظاهر قوله، ولا شك أن ظاهره ربط البراق، لأنه المحدث عنه، وأما هذا الاحتمال فبعيد وأبعد منه قوله.

(**ويحتمل أن يريد ارتباط الأنبياء أنفسهم بتلك الحلقة، أي: تمسكهم بها، ويكون من جنس العروة الوثقى،**) وهو متمسك المحق من النظر الصحيح؛ والرأي: القويم، كما في البيضاوي. (**انتهى**) كلام ابن المنير، ثم استدرك المصنف تعقبه على الحافظ؛ بأن الروايات يفسر بعضها بعضًا، فتعين أن المراد تربط بها البراق لا الدواب ولا أنفسهم، فقال: (**لكن وقع التصريح بذلك في حديث أبي سعيد عند البيهقي، ولفظه: فأوثقت،**) أي: ربطت (**دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه، وقد وقع عند ابن إسحٰق**) في المبتدأ (**من رواية وثيمة في ذكر الإسراء أيضًا، فاستصعب البراق، وكانت الأنبياء تركبها قبلي، وكانت بعيدة العهد بركوبهم، لم تكن ركبت في الفترة**) التي بينه وبين عيسى، وهي ستمائة على الصحيح.

(**وفي مغازي ابن عائذ من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، قال البراق: هي الدابة التي كان يزور إبراهيم عليها إسمٰعيل**).

وفي أوائل الروض للسهيلي: أن إبراهيم حمل هاجر على البراق لما سار إلى مكة بها

البراق من خصائصه ﷺ. نعم قيل: ركوبه مسرجًا ملجمًا لم يرو لغيره من الأنبياء عليهم السلام.

فإن قلت: ما وجه استصعاب البراق عليه؟

أجيب: بأنه تنبيه على أنه لم يذلل قبل ذلك، إن قلنا: إنه لم يركبه أحد قبله، أو لبعد العهد إن قلنا إنه ركب قبله.

ويحتمل أن يكون استصعابه تيهًا وزهوًا بركوبه ﷺ، وأراد جبريل «أبمحمد تستصعب» استنطاقه بلسان الحال أنه لم يقصد الصعوبة وإنما تاه زهوًا لمكان الرسول عليه السلام منه، ولهذا قال: فارفض عرقًا، فكأنه أجاب بلسان الحال متبريًا

وبولدها.

وفي كتاب مكة للفاكهي والأزرقي: أن إبراهيم كان يحج على البراق، فهذه آثار يشد بعضها بعضًا. وجاءت آثار أخرى تشهد لذلك لم أر الإطالة بإيرادها قاله الحافظ، (وعلى ذلك) كله، (فلا يكون ركوب البراق من خصائصه ﷺ).

قال النعماني: ولعل النافي ركوب غيره لم يستحضر هذه الأحاديث والآثار، لأنه اقتصر على الحديثين، ولم أر نصًا ينفي ركوب غيره من الأنبياء عليه، ومعارضة النص بتأويل قول جبريل فيه نظر، بل ورد ما يدل على أن غير الأنبياء ركبه.

ففي أوائل روض السهيلي: أن إبراهيم حمل هاجر على البراق لما سار إلى مكة بها وبولدها، وفيه أيضًا عن الطبري أوحى اللّه إلى أرمياء أن اذهب إلى بختنصر، فاعلمه أني قد سلطته على العرب، فاحمل معدًا على البراق، كي لا تصيبه النقمة، فإني مستخرج من صلبه نبيًا كريمًا أختم به الرسل، فحمله معه على البراق إلى أرض الشام انتهى.

(نعم، قيل: ركوبه مسرجًا ملجمًا لم يرو لغيره من الأنبياء عليهم السلام،) فيحمل القول بأن ركوبه من خصائصه على ركوبه مسرجًا ملجمًا لا مطلقًا، فلا ينافي أن غيره ركبه لا بهذه الصفة، (فإن قلت: ما وجه استصعاب البراق عليه، أجيب،) أي: أجاب ابن المنير، (بأنه)، أي: وجهه، (تنبيه): إعلام، (أنه لم يذلل قبل ذلك إن قلنا: إن لم يركبه أحد قبله، أو لبعد العهد به، إن قلنا إنه ركب قبله،) وهم قولان، أرجحهما الثاني كما علم، (ويحتمل أن يكون استصعابه تيهًا) بكسر الفوقية وسكون التحتية، تكبرًا، (وزهوًا) عطف تفسير.

ففي القاموس: الزهو: التيه والفخر (بركوبه ﷺ، وأراد جبريل) بقوله: (أبمحمد تستصعب استطاقة بلسان الحال، أنه لم يقصد الصعوبة، وإنما تاه زهواً لمكان الرسول عليه

من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب، ومثل هذا رجفة الجبل به حتى قال: «اثبت أُحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب. وكذا البراق لما قال له جبريل: اسكن فما ركبك أحد أكرم على اللّٰه منه أقر فاستقر وخجل من ظاهر الاستصعاب وتوجه الخطاب فعرق حتى غرق.

ووقع في حديث حذيفة عند الإمام أحمد قال: أتي رسول اللّٰه ﷺ بالبراق فلم يزل على ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس. وهذا لم يسنده حذيفة عن النبي ﷺ، فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد، ويحتمل أن يكون قوله: «هو وجبريل» متعلقًا بمرافقته في السير، لا في الركوب. وقال ابن دحية معناه: وجبريل قائد أو سائق أو دليل، قال: وإنما جزمنا بذلك لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي ﷺ، فلا مدخل لغيره فيها.

السلام منه،) أي: لوجوده عنده وإرادته ركوبه، **(ولهذا قال: فارفض عرقًا، فكأنه أجاب بلسان الحال متبريًا من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب،)** أي: عتاب جبريل له، **(ومثل هذا رجفة الجبل،)** تحركه **(به، حتى قال:)** كما في الصحيح عن أنس، أن النبي ﷺ صعد أحدًا، وأبو بكر، وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: **(اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصديق)** أبو بكر، **(وشهيدان)** عمر وعثمان، **(فإنهما هزة الطرب:)** الفرح، **(لا هزة الغضب،)** فلذا قر الجبل وسكن، **(وكذا البراق لما قال له جبريل: أسكن فما ركبك أحد أكرم على اللّٰه منه أقر فاستقر:)** سكن **(وخجل من ظاهر الاستصعاب، وتوجه الخطاب)** إليه بالعتاب، **(فعرق حتى غرق،)** أي: عمه العرق، فشبه عمومه له بالغرق في الماء.

(ووقع في حديث حذيفة) بن اليمان **(عند الإمام أحمد، قال: أتي رسول اللّٰه ﷺ بالبراق، فلم يزل على ظهره هو وجبريل، حتى انتهيا إلى بيت المقدس، وهذا لم يسنده حذيفة عن النبي ﷺ، فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد،)** ولم تبلغه الأحاديث التي فيها نزوله في أماكن قبل بيت المقدس.

(ويحتمل أن يكون قوله: «هو وجبريل» متعلقًا بمرافقته في السير، لا في الركوب) إلى بيت المقدس دون نزول قبله، فلا يخالفه أحاديث نزوله قبله في أماكن، **(وقال ابن دحية معناه: وجبريل قائد أو سائق، أو دليل، قال: وإنما جزمنا بذلك، لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي ﷺ، فلا مدخل لغيره فيها،)** وتبعه ابن المنير وغيره، والتعليل لا ينهض، فإن من جملة كرامته إكرام صاحبه.

وقد تعقب الحافظ ابن حجر التأويل المذكور: بأن في صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود: أن جبريل حمله على البراق رديفًا له، وفي رواية الحٰرث في مسنده: أتي بالبراق فركبه خلف جبريل فسار بهما. فهذا صريح في ركوبه معه، والله أعلم. انتهى.

وقد وقع في غير هذه الرواية بيان ما رآه في ليلة الإسراء، فمن ذلك:

ما وقع في حديث شداد بن أوس ـ عند البزار والطبراني، وصححه البيهقي في الدلائل ـ أنه أول ما أسري به مرَّ بأرض ذات نخل، فقال له جبريل: انزل

(**وقد تعقب الحافظ ابن حجر**) فقال: يرد (**التأويل المذكور؛ بأن في صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود، أن جبريل حمله على البراق رديفًا له**) أي: جاعلاً له خلفه.

(**وفي رواية الحٰرث**) بن أبي أسامة (**في مسنده**) عن ابن مسعود: (**أتي بالبراق فركبه خلف جبريل**) وكأنه لسرعة السير، وكونه ليلاً، وكونها دابة غير مألوفة، فخفف عليه لئلا ينزعج، فلم يجعله أمامه، (**فسار بهما، فهذا صريح في ركوبه معه، والله أعلم انتهى**).

ومعلوم تقديم صريح المنقول على مقتضى العقول، (**وقد وقع في غير هذه الرواية بيان ما رآه ليلة الإسراء**) قبل إتيانه بيت المقدس، فلا يحسن إبقاء قول حذيفة استمرا على ظهر البراق حتى انتهيا إلى بيت المقدس على ظاهره، وكذا قوله في حديث لملك بن صعصعة: «ثم أتيت بدابة، فحملت عليها، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا»، لا يليق بقاؤه على ظاهره، لأنه مجمل، فيقضي عليه المفصل من الأحاديث المذكور فيها ما رآه في ذهابه وإيابه وفي السمٰوت، ولما كانت ما صيغة عموم تفيد استيعاب جميع ما رآه، أتى بقوله: (**فمن ذلك**) لإفادة أنه لم يستوعب ذلك.

(**ما وقع في حديث شداد بن أوس عند البزار والطبراني، وصححه البيهقي في الدلائل؛ أنه أول ما**) أي: شيء رآه ليلة (**أسري به، مر بأرض ذات نخل**) فهو أول المرئيات، أو سماه أول باعتبار قطع المسافة سريعًا، فلا يقال بين مكة ويثرب مسافة طويلة، فلا يصدق الخبر على المبتدأ، وهو أول، فعلى هذا فالخبر جملة قوله مر..الخ، بتقدير أنه واسمها ضمير الشأن، أو يجوز نصب أول على أنه ظرف متعلق بمر، فما مصدرية، واسم إن ضمير للنبي ﷺ، أي: أنه مر أول إسرائه بأرض، والأولية نسبية، أي: إنه عد المرور أول إسرائه مع تأخره لقصر سيره فيه، وقرر شيخنا أن هذا أحسن.

(**فقال له جبريل: أنزل فصل،**) فنزل، (**فصلى،**) ثم ركب، (**فقال له: أتدري أين**

فصل، فصلى، فقال له: أتدري أين صليت؟ صليت بيثرب، ثم مر بأرض بيضاء فقال: انزل فصل، فصلى، فقال له جبريل: صليت بمدين، ثم مر ببيت لحم فقال له جبريل: انزل فصل، فصلى، فقال صليت حيث ولد عيسى.

صليت؟،) فقلت: اللَّه أعلم، هكذا في حديث شداد نفسه قبل قوله: (**صليت بيثرب**،) صليت بطيبة، هكذا جمع بينهما في حديث شداد، فيثرب، لأنها إنما كانت مشهورة بهذا الاسم، فقصد إخباره بالمحل وطيبة، للإشارة إلى أنها تسمى به بعد حلوله فيها.

وفي حديث أنس عند النسائي: أتدري أين صليت؟، صليت بطيبة وإليها المهاجر (بفتح الجيم)، فجبريل تبرع بإخباره بذلك بعد سؤاله، هل يدري المحل الذي صلى فيه أولاً قاصدًا إدخال السرور عليه، ولم يسأله النبي ﷺ عنه على الظاهر المتبادر.

(**ثم مر بأرض بيضاء، فقال: انزل فصل، فصلى،**) ثم ركب، (**فقال له جبريل:**) أتدري أين صليت؟، قال: لا، قال: (**صليت بمدين**) عند شجرة موسى، كما في خبر شداد، ومدين: (بفتح الميم، والتحتية، وإسكان المهملة بينهما) بلد بالشام، تلقاء غزة، سميت باسم بانيها مدين بن إبراهيم، ويحتمل أن المراد بشجرة موسى الشجرة التي كلمه اللَّه عندها لما خرج من عند شعيب، بعد انقضاء الأجل، قاصدًا مصر، فنودي منها: ﴿أن يا موسى إني أنا اللَّه رب العالمين﴾ [القصص/٣٠]، أو المراد الشجرة التي آوى بعد سقي الغنم للمرأتين المذكورة في قوله: ﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل﴾ [القصص/٢٤] ، فإنه كان ظل سمرة، قاله ابن عطية عن ابن عباس، وعلى هذا، ففي إطلاق مدين على بقعتها تجوّز، لأنها بالطور، وليس هو مدين، لكنه لقربه منه سماه بذلك.

وفي حديث شداد تلو قوله: عند شجرة موسى، ثم ركب فانطلق البراق يهوي به، ثم قال له: انزل فصل، ففعل، ثم ركب، فقال: أتدري أين صليت؟، قال: لا، قال: صليت بطور سيناء، حيث كلم اللَّه موسى، فصرح بأنه صلى في الموضعين عند الشجرة وعند الجبل، وكلمه اللَّه عندهما معًا، لكن بين التكليمين لموسى مدة طويلة، فالتكليم الأول الذي نبىء فيه كان عمره أربعين سنة، كما في ابن عطية، والثاني كان بعد غرق فرعون واستقرار الأمر لموسى بعد الأمر بالصوم وانقضاء مدة الوعد المذكورة في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾ [الأعراف/١٤٢]، (**ثم مر ببيت لحم:**) بلام مفتوحة، فمهملة ساكنة، قرية من الشام، تلقاء بيت المقدس، والمصنف اختصر الحديث، وإلا فلفظ حديث شداد عند من عزاه لهم عقب قوله: ﴿**حيث كلم اللَّه موسى**﴾ **الآية**، ثم بلغ أرضًا بدت له قصور، (**فقال له جبريل: انزل فصل، فصلى،**) ثم ركب، وانطلق البراق يهوي به، (**فقال**) له جبريا : أتدري أين صليت؟،

وفي حديث أنس عند البيهقي في الدلائل: لما جاء جبريل بالبراق إليه ﷺ فكأنها أصرت أذنيها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله ما ركبك مثله، فسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جنب الطريق، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا هو بشيخ يدعوه منحنيًا متنحيًا عن الطريق يقول: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر، وأنه مرَّ بجماعة فسلموا عليه فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: أردد عليهم السلام، فرد، الحديث. وفي آخره فقال له جبريل: أما العجوز التي رأيت جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز،

قال: لا، قال: (صليت) ببيت لحم، (حيث ولد عيسى) بن مريم.

(وفي حديث أنس عند البيهقي في الدلائل: لما جاء جبريل بالبراق إليه ﷺ) استصعب عليه، **(فكأنها)** بسبب ذلك **(أصرت أذنيها،)** أي: جمعت بينهما، فهو مفرع على محذوف، وأصل الصر الجمع والشد، كما في النهاية، **(فقال لها جبريل: مه،)** أي: انكفي عن هذا واتركيه وانقادي له، **(يا براق، فوالله ما ركبك مثله)** (بكسر الكاف) ليناسب أصرت، وإن جاز فتحها، **(فسار رسول الله ﷺ، فإذا هو بعجوز على جنب الطريق:)** ناحيتها، سقط من البيهقي عن أنس، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، **(فقال: ما هذه يا جبريل؟، قال: سر يا محمد،)** أمره بالسير خشية أن يسمع سؤالها رقة عليها لسنها، لما جعل الله في قلبه من الرأفة والرحمة، **(فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا هو بشيخ يدعوه منحنيًا)** من شدة الكبر، **(متنحيًا،)** مصروفًا، مباعدًا **(عن الطريق، يقول: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر)** يا محمد، لئلا يرق له لسنه، فيقبل عليه.

(و) في حديث أنس المذكور: **(أنه مر بجماعة)** في مسيره، ذلك. ولفظه: وبينما هو يسير، إذ لقيه خلق من خلق الله تعالى، **(فسلموا عليه، فقالوا: السلام عليك يا أول)** من أسمائه ﷺ، لأنه أول الأنبياء خلقًا، وأول من قال: بلى يوم ﴿ألست بربكم﴾، والأول عودًا، فهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، وأول شافع، وأول مشفع، **(السلام عليك يا آخر،)** لأنه آخر الأنبياء بعثًا، **(السلام عليك يا حاشر،)** لأنه يحشر الناس على قدميه، أي: يقدمهم وهم خلفه، أو يسبقهم، فيحشر قبلهم، والثلاثة من أسمائه، كما مر في مقصدها، **(فقال له جبريل: أردد عليهم السلام، فرد... الحديث)**، أسقط منه، ثم لقيه الثانية، فقال له مثل ذلك، ولقيه الثالثة، فقال له مثل ذلك.

(وفي آخره، فقال له جبريل: أما العجوز التي رأيت جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا

والذي دعاك إبليس، والعجوز الدنيا، أما لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، قال الحافظ عماد الدين بن كثير: في ألفاظه نكارة وغرابة.

وفي رواية: أنه ﷺ مر بموسى عليه السلام، وهو يصلي في قبره. قال أنس: ذكر كلمة فقال: أشهد أنك رسول الله. ولا مانع أن الأنبياء عليهم السلام يصلون في

إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، والذي دعاك إبليس،) أراد أن تميل إليه، كما في نفس الحديث، **(والعجوز الدنيا،)** أي: أنها صوّرت له بصورة عجوز، إشارة إلى قرب انقضائها، وإلا فهي نقيض الآخرة، لا صورة لها يرى فيها.

(أما) (بالتخفيف) **(لو أجبتها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة،)** تجعلها نصب أعينهم، وعبادتهم دون الله، فلا يرد أن كثيرًا من أمته، بل أكثرهم يبتغون الدنيا، ويتهالكون عليها، لأنهم وإن فعلوا ذلك، لكن لأغراض قامت عندهم مع اعتقاد كمال قدرة الله ووحدانيته، فلا يصدق عليهم إتباعهم للدنيا، **(وأما الذين سلموا عليك، فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام،)** سلموا عليه ثلاثًا، زيادة في المحبة.

(قال الحافظ عماد الدين بن كثير في ألفاظه،) أي: هذا الحديث: **(نكارة وغرابة،)** لمخالفته لما في حديث أبي سعيد: أن جبريل أجابه بقوله: لو أجبتها.. الخ، لما تمثلت بامرأة حاسرة عن ذراعيها، عليها من كل زينة، خلقها الله، وأمّا حين تمثلها بعجوز، فأجابه بأنه لم يبق من الدنيا.. الخ، ومن جهة تفرده بذكر لقائه لهؤلاء الثلاثة في ذهابه إلى بيت المقدس قبل دخوله.

(وفي رواية) عند أبي يعلى الموصلي عن أنس، بلفظ: **(أنه ﷺ مر بموسى عليه السلام، وهو يصلي في قبره)**.

(قال أنس) راويه، **(ذكر كلمة، فقال: أشهد أنك رسول الله،)** بيان لكلمة، ويحتمل أن الكلمة غيرها، وقوله أشهد.. الخ، ناشىء عنها، والحديث في مسلم والنسائي وغيرهما عن أنس؛ أن النبي ﷺ قال: مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره.

وفي حديث ابن مسعود عند الحسن بن عرفة، والطبراني وأبي نعيم وغيرهم، رجل طوال سبط آدم، كأنه من رجال شنوأة، وهو يقول برفع صوته: أكرمته وفضلته، فدفعنا إليه، فسلمنا عليه، فرد السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟، قال: هذا أحمد، قال: مرحبًا بالنبي الأمي العربي، الذي بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، ودعا له بالبركة، وقال: سل لأمتك اليسر، ثم أبعد

قبورهم لأنهم ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [الاعراف/١٦٩]، فهم يتعبدون بما يجدون من دواعي أنفسهم، لا بما يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. وسيأتي الإشارة إلى ذلك في حجة الوداع إن شاء الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار: أنه عليه الصلاة والسلام مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل: ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين، ثم أتى على قوم ترضخ

عنا، فقلت: من هذا يا جبريل، قال: هذا موسى بن عمران، قلت: ومن يعاتب؟، قال: يعاتب ربه، قلت: أيرفع صوته على ربه؟، قال: إن الله قد عرف له حدته، فذكر الحديث، وفيه: أنه لقي إبراهيم في طريقه، ثم دخل الأقصى، وصلى بالأنبياء.

قال النعماني: وفيه غرابة، (ولا مانع أن الأنبياء عليهم السلام يصلون في قبورهم) الصلاة الشرعية، التي كانوا يصلونها في الحياة الدنيا، لأنهم إلى الآن في الدنيا، وهي دار تعبد، وقيل: المراد الصلاة اللغوية، أي: يدعون الله ويذكرونه ويثنون عليه، وجزم القرطبي الأول، لأنه ظاهر الحديث.

(لأنهم ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [الأعراف/١٦٩]،) حياة حقيقية، والصلاة تستدعي جسدًا حيًا، سواء قلنا إنها الشرعية، أو اللغوية، ولا يلزم من كونها حقيقية أن تكون الأبدان معها، كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب ونحوهما من صفات الأجسام التي نشاهدها، لأن ذلك عادي لا عقلي، وهذه الملائكة أحياء ولا يحتاجون إلى ذلك.

(فهم يتعبدون بما يجدون من دواعي أنفسهم،) فتعبدهم بذلك لذة، أي: لذة، (لا بما،) أي: شيء، (يلزمون به،) لأنه لا تكليف بعد الموت، (كما يلهم أهل الجنة الذكر،) ويجدون اللذة القوية، ولا تكليف في الجنة. (وسيأتي الإشارة) القليلة (إلى ذلك في حجة الوداع إن شاء الله تعالى،) وسبق في الخصائص بأبسط مما في الموضعين.

(وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني، والبزار،) والبيهقي، وابن جرير، وأبي يعلى؛ (أنه عليه الصلاة والسلام مر على قوم يزرعون ويحصدون) بكسر الصاد وضمها (في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل: ما هذا؟، قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء، فهو يخلفه،) إخبار عن حالهم، ولم يقصد القرآن، فلا بد أن التلاوة ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، (وهو خير الرازقين﴾ [سبأ/٣٩]،) والمراد أن ما يتنعمون به من فواكه وغيرها، إذا نفذ في ذلك الوقت،

رؤسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة، ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم، قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر، ولحم نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من

جيء لهم بغيره على التوالي، وبذلك يتميزون عن غيرهم من أهل الجنة، أو أنه إخبار بأنه ما أنفقه المجاهدون يعوّضون به في الدنيا سريعًا، ولا يؤخر ثوابهم للآخرة.

(**ثم أتى على قوم ترضخ**،) أي: تشدخ، كما في التقريب، وفي المصباح: تكسر (**رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم**) بضم أوله وفتح الفاء وشد الفوقية، أي: لا يخفف عنهم (**من ذلك**) الرضخ (**شيء**،) أو هو بفتح الياء وضم الفوقية مخففًا، أي: لا يرتفع عنهم ذلك، ولا يسهل، (**فقال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة**،) بالتساهل فيها، إما بتركها أصلاً، أو بإخراجها عن وقتها، كلاً أو بعضها، (**ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع**:) جمع قبل، كأعناق وعنق، وهو من كل شيء خلاف دبره، قيل: سمي قبلاً، لأن صاحبه يقابل به غيره، (**وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام**) الذي في رواية البزار، والبيهقي وغيرهما، كما تسرح الإبل والغنم، (**يأكلون الضريع**:) الشوك اليابس، أو نبات أحمر، منتن الريح، يرمي به البحر، (**والزقوم**:) ثمر، شجر كريه الطعم، قيل: لا يعرف في شجر الدنيا، وإنما هي في النار، يكره أهل النار على أكلها، كما قال تعالى: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ [الصافات/٦٤]، وفي القاموس: الزقوم كتنور الزبد بالتمر، وشجرة بجهنم، ونبات بالبادية، له زهر ياسميني الشكل، وطعام أهل النار.

وأخرج ابن جرير عن قتادة، قال: قال أبو جهل: زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد، فأنزل الله: حين عجبوا أن يكون في النار شجرة: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾. (**ورضف جهنم**:) بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة بعدها فاء الحجارة المحماة، واحدها رضفة بسكون الضاد وتفتح: (**قال: ما هؤلاء يا جبريل؟، قال: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله**) شيئًا، (**وما الله بظلام**،) أي: بذي ظلم (**للعبيد**،) فيعذبهم بلا ذنب.

(**ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج**:) مستو (**في قدر، ولحم نيء**،) بالهمز،

النيء الخبيث، ويدعون النضيج، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال جبريل: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيبًا فتأتي رجلاً خبيثًا فتبيت عنده حتى تصبح. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل عليها. ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة، قال: ثم أتى على

وزان حمل كل شيء شأنه أن يعالج بطبخ، أو شيء لم يطبخ، فيقال لحم نيء والإبدال والإدغام عامي (**في قدر خبيث**) بالرفع نعت لحم، (**فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث، ويدعون النضيج، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟، قال جبريل: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة، فيبيت عندها حتى يصبح،**) ولعله قيد بأمته، لأن لغيرهم عذابًا أعظم من هذا، أو لأن الغرض إعلامه بما أعد لمرتكبي ذلك لينكفوا عنه، (**والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيبًا، فتأتي رجلاً خبيثًا فتبيت عنده، حتى تصبح،**) ولعل التقييد بذلك لأنه الأغلب، والمراد الزنا، وإن لم يكن بيات حتى الصباح، ويؤيده أن الحافظ اختصر الحديث بقوله، قال: هؤلاء الزناة.

(**ثم أتى على رجل قد جمع حزمة:**) بضم فسكون ما حزم من أي شيء، وفي فتح الباري: حزمة حطب، (**عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها**)، أي: يضم إليها غيرها، (**قال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده،**) أي: في جهته، (**أمانات الناس، لا يقدر على أدائها،**) أي: الخروج من عهدتها، فدخل فيه ما تحت يده كوديعة، وما وكل على بيعه، وما تحت يده من مال يتيم ونحوه، وما فوّض إليه كإمامة، وخطابة وغيرهما من المناصب الشرعية، مما لا يوصف بكونه تحت يده حسًا، (**وهو يريد أن يحمل،**) أي: يزيد (**عليها**) ما يحتاج إلى حمله معها، مع عدم قدرته على حمل الأولى.

(**ثم أتى على قوم تقرض:**) تقطع (**ألسنتهم وشفاههم:**) جمع شفة مخففة (**بمقاريض:**) جمع مقراض بكسر الميم، (**من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هؤلاء خطباء الفتنة،**) أي: الذين يقولون ما لا يفعلون، فيفتنون الناس بذلك لعدم مطابقة قولهم لفعلهم، وأسقط من الرواية خطباء أمتك، يقولون ما لا يفعلون، والمراد بالخطباء كل من تصدى لتعليم العامة ما طلب منهم، ونهيهم عما نهوا،

جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها. ثم أتى على واد فوجد فيه ريحًا طيبة باردة، كريح المسك، وسمع صوتًا، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: رب آتني بما وعدتني، فقد كثرت غرفي واستبرقي وحريري وسندسي وعبقري ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي، ومراكبي، وعسلي

فدخل العالم الواعظ وغيرهما.

(قال: ثم أتى على جحر:) بضم الجيم وسكون المهملة، ثقب مستدير، **(صغير يخرج منه ثور عظيم:)** بمثلثة، ذكر البقر، **(فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج، فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة،)** من سخط الله، **(ثم يندم عليها، فلا يستطيع أن يردها)** لعدم إمكانه.

(ثم أتى على واد، فوجد فيه ريحًا طيبة باردة، كريح المسك، وسمع صوتًا، فقال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا صوت الجنة، تقول) بلسان القال على الظاهر المتبادر، فلا مانع من أن يخلق لها إدراك ونطق، **(رب آتني)** بالمد، **(بما وعدتني،)** بزيادة الباء في المفعول، كقوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم﴾ [البقرة/١٩٥] ، لأن آتي يتعدى بنفسه، كقوله: ﴿وآتاه الله الملك﴾ [البقرة/٢٥١]، **(فقد كثرت غرفي:)** بالضم، جمع غرفة، وهي العلية، **(واستبرقي)** ثخين الديباج، وفي البيضاوي: ثخين الحرير، **(وحريري)** عطف عام على خاص، **(وسندسي)** رقيق الديباج، **(وعبقري،)** قيل: هو الديباج، أو البسط الموشية، أو الطنافس الثخان، وأصله فيما قيل: إن عبقر قرية يسكنها الجن، فيما يزعمون، فكلما رأوا شيئًا فائقًا غريبًا، مما يصعب علمه ويدق، أو شيئًا عظيمًا في نفسه، نسبوه إليها، فقالوا: عبقري.

وفي القاموس: العبقري الكامل في كل شيء، والسيد الذي ليس فوقه شيء، وعليه فالمراد هنا، وكثرت نفائسي الكاملة من ثياب وغيرها، ويكون من ذكر العام بعد الخاص، **(ولؤلؤي)** بهمزتين، وبحذفهما، وبإثبات الأولى دون الثانية، **(ومرجاني،)** قال الأزهري وغيره: هو صغار اللؤلؤ.

وقال الطرسوسي: هو عروق حمر، تطلع من البحر كأصابع الكف، قال: وهكذا شاهدناه بمغارب الأرض، **(وفضتي، وذهبي وأكوابي:)** جمع كوب، إناء لا عروة له ولا خرطوم، **(وصحافي:)** جمع صحفة، إناء كالقصعة، **(وأباريقي:)** جمع أبريق، إناء له عروة وخرطوم،

ومائي ولبني وخمري، فائتني بما وعدتني، قال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحًا، ولم يشرك بي شيئًا، ولم يتخذ من دوني أندادًا، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جازيته، ومن توكل علي كفيته، إنني أنا اللَّه، لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك اللَّه أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت، ثم أتى على واد فسمع صوتًا منكرًا، ووجد ريحًا منتنة فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم، تقول رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وعذابي، وقد بعد قعري واشتد حري، فآتني بما وعدتني، قال: لك كل

(**ومراكبي**:) ما يركب، (**وعسلي، ومائي، ولبني وخمري**) بالأنهار الأربعة، (**فأتني بما وعدتني**.

(**قال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحًا**) الطاعات، (**ولم يشرك بي شيئًا**،) بل لا يرائي أحدًا بعبادته لي، وحملناه على هذا ليغاير قوله: (**﴿ولم يتخذ من دوني أندادًا﴾**)، شركاء يخصهم بالعبادة، (**ومن خشيني**)، خافني مع الإجلال، (**فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني**) بإنفاقه في سبيلي لأجلي، (**جازيته**) جزاء مضاعفًا، كما قال: ﴿من ذا الذي يقرض اللَّه قرضًا حسنًا فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ [الحديد/١١]، (**ومن توكل عليَّ كفيته، إنني أنا اللَّه لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد**،) الوعد بالبعث والجزاء، (**وقد**) للتحقيق (**أفلح**) فاز (**المؤمنون، وتبارك اللَّه أحسن الخالقين**)، أي: المقدرين، بزنة اسم الفاعل، ومميز أحسن محذوف للعلم به، أي: خلقًا، (**قالت**) الجنة: (**قد رضيت، ثم أتى على واد، فسمع صوتًا منكرًا**،) ينكره سامعه لعدم سماع نظيره في الأصوات المعتادة لشناعته وقبحه، (**ووجد ريحًا منتنة**:) بضم الميم وكسر التاء، اسم فاعل من أنتن كذا، ويجوز كسر الميم للإتباع، وضم التاء إتباعًا للميم، قليل كما في المصباح، (**فقال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا صوت جهنم، تقول**) بلسان القال: (**رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي**:) جمع سلسلة، (**وأغلالي**:) قيودي، (**وسعيري**:) ناري، وسعرتها وأسعرتها: أوقدتها، (**وحميمي**:) مائي الحار غاية الحرارة، (**وغساقي**:) بخفة السين وتثقيلها، أي: ما يسيل: ويخرج مني، لشدة حرارتي.

وفي البيضاوي وغيره: الغساق ما يغسق أن يسيل من صديد أهل النار، فإنهم يذوقونه، (**وعذابي وقد بعد قعري، واشتد حري، فآتني بما وعدتني، قال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة**،) عطف عام على خاص، لأن المشرك إذا جمع مع الكافر أريد به من جعل للَّه

مشرك ومشركة وكافر وكافرة، وكل جبار عنيد لا يؤمن بيوم الحساب، قالت: قد رضيت. قال: فسار حتى أتى بيت المقدس.

وفي رواية أبي سعيد عند البيهقي: دعاني داع عن يميني: انظرني أسألك، فلم أجبه، ثم دعاني آخر عن يساري كذلك فلم أجبه، وفيه: إذا امرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى فقالت: يا محمد انظرني أسألك، فلم ألتفت إليها، وفيه أن جبريل قال له: أما الداعي الأول فهو داعي اليهود، ولو أجبته لتهودت أمتك، وأما الثاني فداعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك، وأما المرأة فالدنيا. وفيه: أنه صعد إلى السماء الدنيا ورأى فيها آدم، وأنه رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد، وأخرى عليها لحم نتن عليها ناس يأكلون، قال

شريكًا كعباد الأوثان، والكافر يشمل ذلك وغيره، **(وكل جبار)** كافر **(لا يؤمن بيوم الحساب)** يوم القيامة، **(قالت: قد رضيت، قال: فسار حتى أتى بيت المقدس،)** وفي نسخة: أتيت، أي: فسار بي حتى أتيت.

(وفي رواية أبي سعيد) الخدري سعد بن مُلك بن سنان، **(عند البيهقي،)** وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه: **(دعاني داع عن يميني:)** يا محمد **(انظرني،)** نظر إقبال عليّ، وتوجه إليّ **(أسألك، فلم أجبه، ثم دعاني آخر عن يساري:)** يا محمد، انظر لي أسألك، كما في الرواية، واختصرها بقوله **(كذلك، فلم أجبه، وفيه،)** أي: حديث أبي سعيد المذكور، وبينما هو يسير **(إذا امرأة حاسرة:)** كاشفة **(عن ذراعيها)** اسم فاعل من حسر، إذا كشف، **(وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك، فلم ألتفت إليها، وفيه،)** أي: الحديث المذكور، **(أن جبريل قال له: أما الداعي الأول)** الذي هو عن يمينه، **(فهو داعي اليهود، ولو أجبته لتهوّدت أمّتك،)** لعل حكمة ذلك لو وقع أن الله جعل إجابته سببًا لذلك في سابق علمه، وكذا يقال في قوله.

(وأما الثاني فداعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك، وأما المرأة فالدنيا،) أما أنك لو أجبتها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، هكذا في حديث أبي سعيد المذكور، وتصورت له أيضًا بصورة عجوز، إشارة إلى قلة ما بقي منها كما مر.

(وفيه)، أي: الحديث المذكور؛ **(أنه صعد إلى السماء الدنيا، ورأى فيها آدم، وأنه)** بعد اجتماعه بآدم، مضى هنيهة، و **(رأى أخونة:)** جمع خوان بكسر المعجمة وضمها، الذي يؤكل عليه، وقال الخليل: هو المائدة **(عليها لحم طيب، ليس عليها أحد)** يأكل منها،

يا جبريل: ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام، وفيه: أنه مرَّ بقوم بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خرَّ، وأن جبريل قال له: هم أكلة الربا، وأنه مرَّ بقوم مشافرهم كالإبل، يلتقمون حمرًا، فيخرج من أسافلهم، وأن

(وأخرى عليها لحم نتن، عليها ناس يأكلون) منها، **(قال: يا جبريل ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام)** وفي لفظ عند البيهقي أيضًا وغيره: فإذا هو بأقوام على مائدة لحم عليها شوى كأحسن ما رؤي من اللحم، وإذا حوله جيف، فجعلوا يقبلون على الجيف، يأكلون منها، ويدعون اللحم، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟، قال: هؤلاء الزناة، يحلون ما حرم الله عليهم، وتركوا ما أحل الله لهم.

(وفيه) أي: حديث أبي سعيد المذكور؛ **(أنه مر بقوم بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرَّ)** سقط من قيام، **(وأن جبريل قال له)** جوابًا لقوله: يا جبريل من هؤلاء؟، قال: **(هم أكلة الربا)** أي: الذين يتناولون من الأموال ما أخذوه على وجه الربا، وهو خاص بالمطعومات والنقود، إذا أخذت بالعقد المسمى بعقد الربا، بأن اشتمل أحد العوضين فيه على زيادة، أو تأخير في البدلين، أو أحدهما، وخرج بذلك المأخوذ بعقود فاسدة، كفقد رؤية، أو شرط فاسد مع انتفاء الربا عنها، فلا يكون لفاعلها ذلك الوصف، وإن أثم، ولم يملك ما أخذه.

وقد أفاد المصنف أنه اختصر الحديث، وهو كذلك، ولفظه في هذه الجملة، ثم مضى هنيهة، فإذا هو بقوم بطونهم أمثال البيوت، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، كلما نهض أحدهم خر، يقول: اللهم لا تقم الساعة، وهم على سابلة آل فرعون، فتجيء السابلة فتطؤهم، فسمعهم يضجون إلى الله تعالى، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟، قال: هؤلاء من أمتك، الذين يأكلون الربا، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، والسابلة أبناء السبيل المختلفة، وجعلوا بطريق آل فرعون يمرون عليهم غدوًا وعشيًا، لأن آل فرعون هم أشد الناس عذابًا، يطؤنهم فضلاً عن غيرهم من الكفار، وهم لا يستطيعون القيام، ومعنى ذلك؛ أن الله وقف أمرهم بين أن ينتهوا، فيكون جزاء لهم، وبين أن يعودوا ويصروا، فيدخلهم النار واستشكل بأن هذه الحالة إن كانت عبارة عن حالهم في الآخرة، فآل فرعون قد دخلوا أشد العذاب، وإنما يعرضون على النار غدوًا وعشيًا في البرزخ، وإن كانت هذه الحال التي رآهم عليها، فأي: بطون لهم، وقد صاروا عظامًا ورفاتًا، ومزقوا كل ممزق، وأجيب بأنه إنما رآهم في البرزخ، لأنه حدث عما رأى، وهذه الحال هي حال أرواحهم بعد الموت، وفيه تصحيح لمن قال: الأرواح أجسادًا لطيفة، قابلة للنعيم والعذاب، فخلق الله تعالى في تلك الأرواح من الألم ما يجده من انتفخ بطنه حتى وطيء بالأقدام، ولا يستطيع معه قيامًا، ولا دليل فيه على أنهم أشد عذابًا من آل فرعون، بل

جبريل قال له: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، وأنه مرَّ بنساء يعلقن بثديهن وأنهن الزواني، وأنه مرَّ بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيطعمون وأنهم الغمازون اللمازون.

فيه دليل على أن آل فرعون وغيرهم من الكفار الذين لا يأكلون الربا يطؤنهم ما داموا في البرزخ إلى أن يقوموا يوم القيامة، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ثم ينادي مناد: الله ﴿ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ ، ذكره السهيلي؛ **(وأنه مر بقوم مشافرهم:)** بفتح الميم وخفة المعجمة، فألف، ففاء مكسورة فراء، أي: شفاههم، **(كالإبل،)** لفظ الرواية: كمشافر الإبل، وعبر عن شفاههم بذلك مجازًا، إذ يقال: شفة الإنسان، ومشفر البعير، وجحفل الفرس، **(يلتقمون جمرًا، فيخرج من أسافلهم).**

وفي رواية: يجعل في أفواههم صخر من جهنم، ثم يخرج من أسافلهم، فسمعهم يضجون إلى الله تعالى؛ **(وأن جبريل قال له)** جوابًا لقوله: يا جبريل من هؤلاء؟، قال: **(هؤلاء ﴿الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا،)** إنما يأكلون في بطونهم نارًا، وسيصلون سعيرًا﴾ [النساء/١٠] ، كما في بقية جواب جبريل.

(وأنه مر بنساء يعلقن بثديهن:) بضم المثلثة، ويقال بكسرها وكسر المهملة، جمع ثدي، يذكر ويؤنث، فيقال: هو الثدي، وهي الثدي، وهو معروف، **(وأنهن الزواني،)** يجوز أنه رأى أرواحهن، وقد خلق فيها من الآلام ما يجده من هذه حاله، وأن يكون مثلت له حالهن في الآخرة، قاله السهيلي.

ولفظ الحديث: ثم مضى هنيهة، فإذا هو بنساء معلقات بثديهن، ونساء منكسات بأرجلهن، فسمعهن يضججن إلى الله، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟، قال: هؤلاء اللاتي يزنين ويقتلن أولادهن.

(وأنه مر بقوم يقطع من جنوبهم اللحم، فيطعمون، وأنهم الغمازون،) كذا في نسخ بغين معجمة، أي: المشيرون بأعينهم أو حواجبهم لمعايب الناس، ولما فيه ضررهم، لكن لفظ الرواية: الهمازون، بالهاء بدل الغين، وهم الذين يغتابون الناس بلا مواجهة، **(اللمازون:)** العيابون، كما في الشامي، أي: الذين يكسرون من أعراض الناس.

قال البيضاوي: اللمز: الكسر كالهمز، شاعا في كسر أعراض الناس، والطعن فيهم.

ولفظ الحديث: ثم مضى هنيهة، فإذا هو بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم، فيلقمون، فيقال له: كل كما كنت تأكل لحم أخيك، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟، قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون.

وفي حديث أبي هريرة ـ عند البزار والحاكم ـ أنه ﷺ صلى ببيت المقدس مع الملائكة، وأنه أتي هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله. وفيه قول إبراهيم: لقد فضلكم محمد.

وفي رواية عبد الرحمٰن بن هاشم عن أنس: ثم بعث له آدم فمن دونه فأمهم تلك الليلة.

وفي حديث أم هانىء عند أبي يعلى: ونشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى.

وفي رواية أبي سلمة ثم حانت الصلاة فأممتهم. أخرجه مسلم.

(**وفي حديث أبي هريرة عند البزار، والحاكم**) والبيهقي: (**أنه ﷺ صلى ببيت المقدس**) قبل صعوده كما هو، سياق الحديث عند الثلاثة، ولفظه: ثم سار إلى بيت المقدس، فنزل، فربط فرسه إلى صخرة بيت المقدس، ثم دخل، فصلى (**مع الملائكة**)، ويأتي أنه صلى بالأنبياء أيضًا؛ (**وأنه أتي هناك بأرواح الأنبياء، فأثنوا على الله ــ وفيه،**) أي: الحديث، (**قول إبراهيم،**) لما أثنى نبينا على ربه، بعد ثناء الأنبياء، (**لقد فضلكم محمد،**) أي: زاد عليكم، وتميز بما أثنى به على ربه، قال ذلك إبراهيم إظهارًا لشرف المصطفى وفضله، وليس ضميرًا فيه عائدًا لما أثنوا به، كما توهم، لأن ثنائهم إنما كان على الله، والمصنف اختصر الحديث هنا، وسنذكره تامًا عن قريب.

(**وفي رواية عبد الرحمٰن بن هاشم، عن أنس،**) عند الطبراني والبيهقي، (**ثم بعث له آدم،**) أي: أمر بالمجيء إليه، (**فمن دونه**) من الأنبياء، كما في نفس حديث أنس، (**فأمّهم تلك الليلة،**) أي: صلى بهم إمامًا.

(**وفي حديث أم هانيء عند أبي يعلى، ونشر،**) أي: سيق (**لي رهط من**) جملة (**الأنبياء،**) وجمعوا حولي، عبر عن ذلك بالنشر إشارة إلى كثرتهم وتفرقهم، (**منهم: إبراهيم وموسى وعيسى،**) أو المعنى: أخرجوا من قبورهم عبر عنه بالنشر، تشبيهًا له ببعثهم من قبورهم وسعيهم إلى المحشر وحضورهم فيه، ويحتمل أن المراد جميع الأنبياء، مأخوذ من نشر الراعي غنمه نشرًا، من باب قتل إذا بثها، ولا ينافيه لفظ رهط من الأنبياء، لجواز أن من للبيان وسماهم رهطاً، نظرًا لقلتهم بالنسبة لغيرهم من الناس، هذا وإن كان بعيدًا، لكن الحامل عليه الجمع بينه وبين قوله في الحديث: قبله آدم، فمن دونه من الأنبياء.

(**وفي رواية أبي سلمة**) بن عبد الرحمٰن بن عوف اسمه عبد الله، وقيل: إسمٰعيل عن

وفي حديث أبي أمامة عند الطبراني في الأوسط: ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمدًا ﷺ.

وفي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم قال: فربطته، يعني البراق، بالحلقة ـ وهي بإسكان اللام على الأشهر ـ التي تربط به الأنبياء بتذكير الضمير، إعادة على معنى الحلقة وهو الشيء، والمراد حلقة باب مسجد بيت المقدس. قاله صاحب التحرير ـ قال عليه السلام: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم

أبي هريرة، رفعه، (**ثم حانت الصلاة،**) أي: دخل وقتها، ويأتي للمصنف الخلاف في أنها الصبح، أو العشاء، ويأتي تضعيفهما، وأن الأظهر أنها من النفل المطلق، أو من الفرض الذي كان قبل الخمس، فالمراد بحانت الصلاة؛ دخل الوقت المأمور بالصلاة فيه، (**فأممتهم:**) صليت بهم إمامًا، (**أخرجه مسلم**).

(**وفي حديث أبي أمامة عند الطبراني في الأوسط: ثم أقيمت الصلاة،**) أي: تهيؤًا وقاموا لها، لا الإقامة المشروعة الآن، لأنها إنما شرعت بالمدينة، (**فتدافعوا،**) أي: منع كل نفسه الإمامة بعد أن طلب منه أن يكون إمامًا، وطلب من غيره التقدم عليه، (**حتى قدموا محمدًا ﷺ،**) لا ينافيه حديث ابن مسعود الآتي: فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمنا، فأخذ جبريل بيدي، فقدمني، فصليت بهم المفيد، ظاهره أنهم لم يتدافعوا، ولم يقدموه، لأن انتظار من يؤم لا ينافي تدافعهم، أي: قول بعضهم لبعض تقدم أنت مثلاً، ولما قدمه جبريل رضوا به، فنسب هنا تقديمه إليهم لرضاهم به وسرورهم.

(**وفي رواية ثابت البناني عن أنس،**) رفعه (**عند مسلم،**) قال: أتيت بالبراق، فوصفه، (**قال**): فركبته حتى أتيت بيت المقدس، (**فربطته، يعني البراق**)، تفسير من المصنف لإسقاطه أول الحديث كما ترى، (**بالحلقة، وهي بإسكان اللام على الأشهر،**) وقد تفتح لامها وتكسر، أو ليس في الكلام حلقة بفتح اللام، إلا جمع حالق، أو لغة ضعيفة، حكاه القاموس: (**التي تربط به الأنبياء**) البراق، كما رواه البيهقي لأدوابهم، كما توهمه بعض، وقد تقدم.

قال النووي: قوله به كذا في الأصول، (**بتذكير الضمير إعادة،**) أي: إرجاعاً للضمير، مذكرًا حملاً (**على معنى الحلقة، وهو،**) أي: المعنى (**الشيء،**) وإلا فكان الظاهر أن يقول بها، لأن الحلقة مؤنثة تأنيثًا لفظيًا.

وقال غيره: روى بالتأنيث والتذكير في مسلم والشفاء، (**والمراد حلقة باب مسجد بيت المقدس، قاله صاحب التحرير،**) أي: بابه المعهود المعروف، وإن كان للمسجد أبواب متعددة.

خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

أي اخترت اللبن الذي عليه بنيت الخلقة، وبه نبت اللحم ونشز العظم،

وعند البيهقي، والطبراني والبزار من حديث شداد: ودخل المدينة من بابها اليماني، ودخل المسجد من باب يميل فيه الشمس والقمر.

وروى الواسطي في فضائل بيت المقدس عن الوليد بن مسلم، قال: حدثني بعض أشياخنا، أن النبي ﷺ رأى عن يمين المسجد، وعن يساره نورين ساطعين، فقال: يا جبريل ما هذان النوران؟، قال: أما الذي عن يمينك فإنه محراب أخيك داود، وأما الذي عن يسارك فعلى قبر أختك مريم.

(قال عليه السلام) في رواية مسلم، عن ثابت، عن أنس: **(ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين،)** غير الصلاة التي صلاها بالأنبياء: كما صرح به في حديث ابن مسعود الآتي، ومن ثم قيل: يحتمل أنها تحتية المسجد وأنها غيرها، **(ثم خرجت)** بعد صلاته بالأنبياء، الواقعة بعد هذين الركعتين، كما صرح به حديث أبي هريرة، ثم حانت الصلاة، فأممتهم، رواه مسلم.

وعند ابن إسحٰق، عن أبي سعيد؛ فصلى بهم، أي: الأنبياء، ثم أُتي بإناء فيه لبن.. الخ، فعرض الأواني إنما كان بعد صلاته بالأنبياء، ففي هذا السياق اختصار، فليس المراد أنه خرج من المسجد بعد صلاة الركعتين، بل بعد صلاته بالأنبياء.

(فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن،) فلم يقع في رواية مسلم هذه، وإناء من عسل، خلاف ما يوجد في نسخ سقيمة من المصنف، وإناء من عسل بعد قوله من خمر، نعم هو ثابت في غير ما رواية، فليس النزاع في أنه أُتي بإناء فيه عسل، إنما هو في العز.

ولمسلم ما ليس فيه في روايته من طريق ثابت عن أنس مرفوعًا بلا واسطة؛ **(فاخترت،)** وفي رواية: فأخذت، **(اللبن، فقال جبريل: اخترت)** وفي رواية: أخذت **(الفطرة)** (بكسر الفاء).

قال ابن دحية: تطلق الفطرة على الإسلام، كخبر كل مولود يولد على الفطرة، وتطلق على أصل الخلقة، كقوله تعالى: ﴿فطرة اللّٰه التي فطر الناس عليها﴾ [الروم/٣٠]، و ﴿فاطر السموات والأرض﴾ [يوسف/١٠١] ، أي: مبدىء خلقهما، وقول جبريل: اخترت الفطرة، **(أي: اخترت اللبن الذي عليه)**، أي: بسببه، **(بنيت الخلقة)**، وبين بناءها عليه بقوله: **(وبه نبت اللحم ونشز: (بزاي منقوطة)** أي: ارتفع **(العظم)** وغلظ، **(واخترته، لأنه الحلال الدائم)**، هو **(في دين**

واخترته لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام بخلاف الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر.

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا، في قول جبريل أخذت الفطرة الإسلام والاستقامة، قال: ومعناه ـ والله أعلم ـ: اخترت علامة الإسلام والاستقامة، قال: وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيبًا طاهرًا سائغًا للشاربين، سليم العاقبة، وأما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل، انتهى.

الإسلام) فاستتر الضمير الفاعل، وحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، أي: الدائم حله كـ ﴿عيشة راضية﴾ [الحاقة/٢١]، **(بخلاف الخمر، فحرام فيما يستقر عليه الأمر)**.

وقد روى أبو يعلى، والبزار من حديث أبي هريرة: أُتي بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأُتي بإناء منها فيه ماء، فشرب منه قليلاً، وفي لفظ: فلم يشرب منه شيئًا، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فشرب منه حتى روي منه، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب، قال: لا أريده قد رويت، فقال جبريل: أما إنها ستحرم على أمتك.

قال ابن دحية أيضًا: وقد تكون الإشارة بتقديم اللبن إلى أنه شعار العلم في التعبير، كما ورد أنه ﷺ قال: رأيت كأني أتيت بقدح من لبن، فشربت حتى أرى الري يخرج من أظفاري، ثم ناولت فضلي عمر بن الخطاب، قالوا: يا رسول الله ما أوّلته، قال: العلم والإسراء، وإن كان يقظة، إلا أنه ربما وقعت في اليقظة إشارة إلى حكم الفأل، فيعبر كما يعبر في المنام، ولذا كان ﷺ يحب الفأل الحسن، فكأنه لما ملىء قلبه إيمانًا وحكمة، أردف ذلك بالعلم مطلقًا، ويجعل الله تعالى شرب ذلك اللبن سببًا في ترادف العلوم وإشحان القلب النبوي بأنوارها.

(وقال النووي: المراد بالفطرة هنا في قول جبريل: أخذت الفطرة الإسلام والاستقامة،) وبه فسرت الآية، أي: بملة الإسلام، فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه، لأدى بهم إليها، وفسرت أيضًا بخلقته التي خلقهم عليها، وهي قبولهم للحق، وتمكنهم من إدراكه، وبالعهد المأخوذ من آدم وذريته.

(قال: ومعناه، والله أعلم، اخترت علامة الإسلام، و) علامة **(الاستقامة)** بالجر، ففيه حذف مضاف، إذ شرب اللبن ليس هو هما، **(قال: وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيبًا،)** لذيذًا، **(طاهرًا،)** لا يشوبه شيء من الفرث والدم من لون، أو طعم أو ريح، وهو بينهما **(سائغًا للشاربين)** سهل المرور في حلقهم، لا يغص به، **(سليم العاقبة)** في الحال والمآل، وهذا كله تعليل لجعله علامة الإسلام والاستقامة.

(وأما الخمر، فإنها أم الخبائث،) كما ورد مرفوعًا عند القضاعي، بلفظ الخمر أم

وقال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لكون أول شيء يدخل جوف المولود، ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفًا له أولاً، انتهى.

وإذا كانت الخمرة مباحة، لأنها إنما حرمت بالمدينة والإسراء كان بمكة، فما وجد تعيينه عليه السلام لأحد المباحين، وما وجه عد ذلك صوابًا، وعد الآخر خطأ، وهما سواء في الإباحة؟

فيحتمل أن يكون توقاها تورعًا وتعريضًا بأنها ستحرم، وأنه لما وافق الصواب في علم الله تعالى قال له جبريل: أصبت الفطرة، أو أصبت أصاب الله

الخبائث، أي: أصلها الذي تنشأ عنه لحملها الشارب على مجاوزة الحدود، **(وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل. انتهى)**.

وقد قال ﷺ: الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر، من شربها ترك الصلاة، ووقع على أمه وخالته وعمته، رواه الطبراني.

(وقال القرطبي) شارح مسلم في المفهم: **(يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة، لكونه أوّل شيء يدخل جوف المولود، ويشق أمعاءه، والسر)** أي: السبب **(في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره، لكونه مألوفًا له أولاً)**، ولكونه لا ينشأ عن جنسه مفسدة، **(انتهى)** كلام القرطبي بما زدته.

وحقيقة السر ما يكتم، وهو خلاف الإعلان، فإطلاقه على السبب مجاز مرسل من تسمية الجزئي باسم الكلي، **(وإذا كانت الخمرة مباحة، لأنها إنما حرمت بالمدينة، والإسراء كان بمكة،)** وجواب إذا الشرطية قوله: **(فما وجه تعيينه عليه السلام لأحد المباحين،)** باختياره الشرب منه، **(وما وجه عد ذلك صوابًا، وعد الآخر خطأ، وهما سواء في الإباحة)**، وفرع على ذلك بجواب شرط هو، وإذا أردت بيان الوجه، **(فيحتمل أن يكون توقاها تورعًا)** لما في تنافي تناوله من الغائلة المتوقعة، وإن كان مباحًا، ولا خلاف أن مثل هذا الورع يثاب عليه، قاله ابن المنير، **(وتعريضًا بأنها ستحرم،)** ولعل سبب التعريض، أنه أوحى إليه بذلك، ولو بالإلهام، فتركها تنبيهًا على أن حلها لا يستمر، **(وأنه لما وافق الصواب في علم الله تعالى، قال له جبريل: أصبت الفطرة، أو أصبت، أصاب الله بك، كما رويا)** الأول في الصحيح، والثاني في غيره.

قال ابن المنير: فدل قول جبريل ذلك على أن اختيار الخمر خطأ عصم منه ﷺ، وأن

بك، كما رويا، وإن قلنا: أنها كانت من خمر الجنة فيكون سبب تجنبها صورتها ومضاهاتها الخمر المحرمة، أي في علم الله تعالى، وذلك أبلغ في الورع.

ويستفاد منه: أن من اتخذ من ماء الرمان أو غيره، ولو ماء قراحًا، وضاهى به الخمر في الصورة وهيأه في الهيآت التي يتعاطاها أهل السماعات الشهوات من الاجتماعات فقد أتى منكرًا، وإن كان لا يحد عليه. قاله ابن المنير.

المسألة اجتهادية، لأن الخمر لم تكن حرمت، قال: وفيه دليل على المذهب المشهور لمالك والشافعي، وغيرهما أن المسائل الاجتهادية لله فيها حكم معين، من أصابه فقد أصاب الحق، ومن أخطأه فقد أخطأ الحق، خلافًا للقول؛ بأن حكم الله على كل مجتهد ما غلب على ظنه انتهى.

وفيه إفادة وجه، كون اختيار الخمر خطأ، وهو أن حكم الله فيها تحريمها بعد أبدًا، وإن كانت مباحة حينئذ لأمور خفيت علينا، ثم الخمر المحضرة، يحتمل أنها من خمر الدنيا، وأنها من خمر الجنة التي لا يصدعون عنها، ولا ينزفون، فإذا قلنا من خمر الدنيا، فوجه تجنبها ما تقدم.

(وإن قلنا: إنها)، أي الخمر المحضرة له، **(كانت من خمر الجنة، فيكون سبب تجنبها، صورتها: ومضاهاتها)** مشابهتها **(الخمر المحرمة، أي: في علم الله تعالى، وذلك أبلغ في الورع،)** فإن قلت: فيلزم اجتنابها في الجنة تورعًا من صورتها، قلت: لا يلزم، لأن الجنة ليست دار تكاليف، قاله ابن المنير.

(ويستفاد منه؛ أن من اتخذ من ماء الرمان أو غيره) شيئًا يستعمله على الصفة المعتادة بين شربة الخمر، **(ولو ماء قراحًا:)** صرفًا، **(وضاهى به الخمر في الصورة، وهيأه في الهيئات التي يتعاطاها أهل السماعات)**، لفظ ابن المنير أهل **الشهوات من الاجتماعات، فقد أتى منكرًا، وإن كان لا يحد عليه)**.

قال، أعني ابن المنير: وقد نص العلماء على هذا، فينبغي أن يؤخذ من حديث الإسراء كما بيناه، **(قاله ابن المنير)** في المقتفى فيما لخصه المصنف منه فأحسن، وإلا فهو قد أتى بعبارة طويلة استطرد فيها فوائد نفيسة على عادته، وأورد قبل ذلك إحضار الخمر واللبن، هل أريد إباحتهما معًا أو أحدهما؟، لا بعينه، وعلى كل فمشكل، لأنه إن كان المراد إباحتهما معًا، كما لو أحضرت طعامين لضيف، وأبحتهما له، فما معنى اختياره لأحدهما، وتصويب جبريل له، وإن كان في أحدهما لا بعينه، بحيث يكون الآخر ممنوعًا، لزم التخيير بين ممنوع ومباح، وذلك لا يتصور.

وينظر فيما يعمله كثير من فقراء اليمن بمكة المشرفة وجدة وغيرهما من ماء قشر البن ويسمونه بالقهوة، وهو اسم من أسماء الخمر.

وفي حديث ابن عباس -عند أحمد-: فلما أتى المسجد الأقصى قام يصلي، فلما انصرف جيء بقدحين في أحدهما لبن، وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن.

وفي رواية البزار: بثلاث أوان، وأن الثالث كان خمرًا، وأن ذلك وقع ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل.

وفي حديث شداد بن أوس: فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني

قال: والذي يرفع الإشكال؛ أن المراد تفويض الأمر في تحريم ما يحرم، وتحليل ما يحل إلى اجتهاده ﷺ، وسداد نظره المعصوم، فلما نظر فيهما أداه اجتهاده إلى تحريم الخمر وتحليل اللبن، فوافق الصواب في حكم الله تعالى، فقال له جبريل: أصبت، وفيه اجتهاده فيما لم يوح إليه فيه، وهي مسألة خلاف، وهذا الحديث يحقق الجواز مع اتفاق المسلمين على أن اجتهاده معصوم من الخطأ بخلاف غيره من العلماء.

(**وينظر فيما يعمله كثير من فقراء اليمن بمكة المشرفة وجدة**:) بضم الجيم، ساحل البحر بمكة، (**وغيرهما من ماء قشر البن**) ثم صاروا بعد ذلك يعملونه من البن أيضًا، (**ويسمونه بالقهوة، وهو اسم من**) أشهر (**أسماء الخمر**) هل يحرم تناوله لتسميتهم بالخمر، فكأنهم شبهوه بها، وجوابه لا حرمة، لأنه لا يشرب على الهيئة التي يشرب عليها الخمر، ومجرد تسميته قهوة لا يقتضي أن يعطي حكمها.

(**وفي حديث ابن عباس عند أحمد؛ فلما أتى المسجد الأقصى، قام يصلي، فلما انصرف**) من صلاته بالأنبياء، (**جيء بقدحين، في أحدهما لبن، وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن**،) وهذا موافق لرواية مسلم؛ أن إتيانه بالآنية كان ببيت المقدس قبل المعراج، ومر لفظه قريبًا.

(**وفي رواية البزار**) من حديث أبي هريرة؛ أنه جيء له (**بثلاث أوان، وأن الثالث كان خمرًا، وأن ذلك وقع ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل**.) وأخرجه ابن عائذ من هذا الوجه في حديث المعراج بعد ذكر إبراهيم قال: ثم انطلقنا، فإذا نحن بثلاثة آنية مغطاة، فقال لي جبريل: يا محمد ألا تشرب مما سقاك ربك، فتناولت إحداها، فإذا هو عسل، فشربت منه قليلاً، ثم تناولت الآخر، فإذا هو لبن، فشربت منه حتى رويت، فقال: ألا تشرب من الثالث، قلت: قد رويت، قال: وفقك الله.

(**وفي حديث شداد بن أوس**) عند البزار، والطبراني، والبيهقي: (**فصليت**) في جانب

من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر عسل، ثم هداني الله فأخذت اللبن. فقال شيخ بين يدي ـ يعني لجبريل ـ: أخذ صاحبك الفطرة.

وقد كان إتيانه بالأواني مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة.

وممن صرح بأنه كان مرتين الحافظ عماد الدين بن كثير، وعلى هذا فيكون

(من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين، أحدهما لبن، والآخر عسل،) فعدلت بينهما، هكذا في الحديث قبل قوله، **(ثم هداني الله، فأخذت اللبن، فقال شيخ بين يدي،)** أسقط من الرواية، متكىء على منبر له، **(يعني لجبريل، أخذ صاحبك الفطرة،)** وإنه لمهدي، كما في بقية حديث شداد.

وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين: أتي رسول الله ﷺ ليلة أسريَ به بإيلياء بإناء فيه خمر، وإناء فيه لبن، فنظر إليهما، فأخذ اللبن، فقال له جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك.

وفي حديث أنس عند البيهقي: فعرض عليه الماء، والخمر واللبن، فأخذ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، لو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت وغويت أمتك.

قال الحافظ: ويجمع بين هذا الاختلاف في عدد الآنية وما فيها، بحمله على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكر الآخر، ومجموعها أربعة آنية، فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى، فلعله عرض عليه من كل نهر إناء. انتهى، وسيأتي هذا في كلام المصنف.

وأما الاختلاف؛ أن عرض الأواني في بيت المقدس، أو بعد سدرة المنتهى، والبيت المعمور، فالجمع بينهما ما ذكره بقوله:

(وقد كان إتيانه بالأواني مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة) ببيت المقدس، وسببه ما وقع له من العطش، قاله الحافظ، **(ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى. ورؤية الأنهار الأربعة)** التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى. وفي هذا أعمال لجميع الروايات لصحتها كلها، وهو أولى من جمع الحافظ أيضًا بحمل، ثم في رواية لملك بن صعصعة؛ أنه أتى بالأواني بعد سدرة المنتهى، ورفع البيت المعمور له على غير بابها من الترتيب، وإنما هي بمعنى الواو هنا.

(وممن صرح) على طريق الترجي؛ **(بأنه كان مرتين الحافظ عماد الدين بن كثير،)** لا الجزم كما يوهمه المصنف؛ فعبارة الشامي.

تكرار جبريل عليه السلام للتصويب حيث اختار اللبن تأكيدًا للتحذير مما سواه.

وقد أنكر حذيفة ربط البراق بالحلقة، فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال: يحدثون أنه ربطه، أخاف أن يفر منه، وقد سخره له عالم الغيب والشهادة؟ وكذا أنكر حذيفة أيضًا صلاته عليه السلام ببيت المقدس.

وتعقبه البيهقي وابن كثير: بأن المثبت مقدم على النافي، يعني من أثبت ربط البراق والصلاة في بيت المقدس معه زيادة علم على من نفى ذلك، فهو أولى بالقبول.

قال السهيلي، وابن دحية، وابن المنير، وابن كثير والحافظ: ولعله قدم مرتين، أي: جمعا بين الروايات، (**وعلى هذا، فيكون تكرار جبريل عليه السلام للتصويب، حيث اختار اللبن تأكيدًا للتحذير مما سواه،**) أي: اللبن، وذلك السوي هو الخمر خاصة، (**وقد أنكر حذيفة،**) بن اليمان رضي الله عنهما (**ربط البراق بالحلقة، فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال: يحدثون أنه ربطه،**) أي: البراق، (**أخاف أن يفر منه،**) كذا في النسخ الصحيحة، بهمزة الإنكار، ومثلها في الفتح، والنعماني، والشامي والغيطي، فما في نسخ: خاف بحذفها سهو من قلم المصنف أو نساخه.

(و) الحال أنه (**قد سخره له عالم الغيب والشهادة،**) فكيف يخاف أن يفر منه، وتجويز أن خاف بلا همزة، حكاية عن كلام المحدث عنهم، وأنه رد عليهم بقوله، وقد ممنوع، إذ جميع الذين حدثوا بأنه ربطه، لم يقل أحد منهم أنه خاف أن يفر منه، والجواب عما وجه به إنكار ربطه؛ أنه لم يفعل ذلك خوفًا.

قال النووي في ربط البراق: الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وأن ذلك لا يقدح في التوكل، إذا كان الاعتماد على الله.

وقال السهيلي: فيه من الفقه التنبيه على الأخذ بالحزم مع صحة التوكل، وأن الإيمان بالقدر لا يمنع الحزم من توقي المهالك.

كما روي عن وهب بن منبه، (**وكذا أنكر حذيفة أيضًا**) في هذا الحديث (**صلاته عليه السلام ببيت المقدس،**) واحتج بأنه لو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه، كما كتبت عليكم الصلاة في البيت العتيق.

(**وتعقبه البيهقي وابن كثير، بأن المثبت مقدم على النافي، يعني من أثبت ربط البراق والصلاة في بيت المقدس،**) وهم جمهور الصحابة (**معه زيادة علم على من نفى ذلك، فهو أولى بالقبول**) من النافي، لأنه لم يصحبه دليل نفيه.

ووقع في رواية بريدة عند البزار: لما كان ليلة أسري بي، فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشد بها البراق، ونحوه للترمذي.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس،

قال الحافظ: والجواب عنه منع التلازم في الصلاة إن كان أراد بقوله: كتب عليكم الفرض، وإن أراد التشريع، فنلتزمه، وقد شرع النبي ﷺ فيه، فقرنه بالمسجد الحرام ومسجده في شد الرحل، وذكر فضيلة الصلاة فيه في غير ما حديث.

(ووقع في رواية بريدة عند البزار: لما كان ليلة أُسري بي، فأتى جبريل الصخرة،) بالفاء، في جواب لما، وهو قليل، أجازه ابن لملك ورده ابن هشام **(التي ببيت المقدس)** التي كانت قبلة.

قال البرقي في غريب الموطأ: هي من غرائب الدنيا، فإن جميع المياه تخرج من تحتها، وهي صخرة صماء في وسط المسجد الأقصى، كجبل بين السماء والأرض، معلقة لا يمسكها إلا الله، وفي أعلاها موضع قدم النبي ﷺ حين ركب البراق ليلة الإسراء، فمالت من تلك الجهة من هيبته، وفي الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها إذ مالت، وكان بعضها أبعد من الأرض من بعض، وتحتها غار عليه باب يفتح لمن يدخله للصلاة والدعاء.

(فوضع أصبعه فيها، فخرقها، فشد بها البراق، ونحوه للترمذي،) وابن حبان والحاكم، وصححه عن بريدة، قال: قال ﷺ: لما انتهينا إلى بيت المقدس ليلة أسرى بي، قال جبريل: بأصبعه، فخرق بها الحجر، وشد به البراق، والمراد بالحجر صخرة بيت المقدس: كما في رواية البزار، فلذا اختار سياقه لصراحته، والجمع بين هذا وبين قوله في حديث أنس عند مسلم: فربطته بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء، ما قاله بعضهم؛ أنه ﷺ ربطه أولاً بالحلقة تأدبًا واتباعًا للأنبياء، فأخذه جبريل وحله من الحلقة، وخرق الصخرة وشده بها، كأنه يقول: أنت لست ممن يكون مركوبه بالباب، بل أنت أعلى وأغلى، فلا يكون مركوبك إلا في داخل المحل، وهذا أمر مشاهد في العادة بين الكبراء، وأما جواب الطيبي؛ بأن المراد بالحلقة الموضع الذي كان فيه الحلقة، وقد اشتد، فخرقه جبريل، فرده النجم؛ بأن الحلقة وموضعها الباب، والذي خرقه جبريل بأصبعه إنما هو الصخرة وهي داخل المسجد بعيدة عن الباب انتهى.

(وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل

فصلى كل واحد منا ركعتين.

وفي رواية ابن مسعود نحوه، وزاد: ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم.

وفي حديث ابن مسعود أيضًا ـ عند مسلم ـ: وحانت الصلاة فأممتهم.

وفي حديث ابن عباس، عند أحمد: فلما أتى ﷺ الأقصى قام يصلي، فإذا

واحد منا ركعتين) غير الصلاة التي صلاها بالأنبياء، كما هو صريحه.

قال بعضهم: يحتمل أنهما تحية المسجد، ويحتمل غير ذلك، أي: ككونهما من صلاة الليل، أو القصد بهما شغل البقعة.

قال ابن دحية: وفيه دليل على أن الصلاة لم تزل معهودة قبل أن تفرض، ومعهودة مثنى مثنى.

قال النعماني: وقد فرضت الصلاة قبل الهجرة ركعتين.

(وفي رواية ابن مسعود) عند الحسن بن عرفة وأبي نعيم **(نحوه، وزاد)** ابن مسعود عن النبي ﷺ: **(ثم دخلت المسجد، فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع)** أي: خاشع كخشوع الراكع، فلا يرد أن الركوع من خصائص الأمة، وما صلاه المصطفى قبل الإسراء لا ركوع فيه، وكذا ظهر عقب الإسراء، وأول صلاة بركوع العصر بعدها، **(وساجد، ثم أذن)** كذا في النسخ، وفيها سقط، فليس هذا من رواية ابن مسعود، إنما هو عن أنس، ففي فتح الباري بعد قوله: وساجد، ثم أقيمت الصلاة فأممتهم، وفي رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس عند ابن أبي حاتم: فلم ألبث إلا يسيرًا حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن **(مؤذن)** أي: أعلم بطلب الصلاة، **(فأقيمت الصلاة)** أي: تهيئوا لها، وشرعوا فيها، فلا يرد أن الأذان والإقامة إنما شرعا بالمدينة، والإسراء كان بمكة، **(فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمنا)** وفي نسخة: ننتظر وهي بمعنى ننتظر، كقوله تعالى: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾، أي: ما ينتظرون، **(فأخذ بيدي جبريل، فقدمني، فصليت بهم)** إمامًا.

(وفي حديث ابن مسعود أيضًا عند مسلم: وحانت الصلاة) دخل وقت طلبهم بها، **(فأممتهم:)** صليت بهم إمامًا.

(وفي حديث ابن عباس عند أحمد: فلما أتى ﷺ) المسجد **(الأقصى، قام يصلي)** بعد انتظارهم من يؤمهم، وتقديم جبريل للمصطفى، **(فإذا النبيون أجمعون يصلون معه)** كما

النبيون أجمعون يصلون معه.

وفي حديث أبي سعيد: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا

في الحديث قبله، فليس المراد ظاهره؛ أنه قام يصلي وحده، فاقتدوا به، لأن الأحاديث يفسر بعضها بعضًا، فإن قيل: كيف يصلي الأنبياء وهم أموات في الدار الآخرة، وليست دار عمل، أجاب عياض، وتبعه السبكي؛ بأنهم كالشهداء، بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا يستبعد أن يحجوا ويصلوا، وأن يتقربوا إلى الله ما استطاعوا، لأنهم وإن ماتوا فهم في هذه الدنيا التي هي دار العمل حتى إذا فنيت مدتها، وتعقبها الآخرة التي هي دار الجزاء انقطع العمل، وحاصله أن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور، وبأن المنقطع في الآخرة إنما هو التكليف، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها والخضوع لله، ولذا أصح عن أهل الجنة أنهم يسبحون ويدعون ويقرؤون القرآن، كما في الحديث: إنهم يلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس»، وهو معنى قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللَّهم﴾ [يونس/١٠] الآية، وانظر إلى سجوده ﷺ وقت الشفاعة، أليس ذلك عبادة وعملاً، وعلى كلا الجوابين لا يمتنع حصول هذه الأعمال في مدة البرزخ، وقد صح عن ثابت البناني التابعي أنه قال: اللهم إن كنت أعطيت أحدًا أن يصلي في قبره، فأعطني ذلك، فرأي بعد موته يصلي في قبره، وتكفي رؤيته ﷺ قائمًا يصلي في قبره، ولأن جميع الأنبياء لم يقبضوا حتى خيروا في البقاء في الدنيا وبين الآخرة، ولا شك أنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا من الأعمال الصالحة، ثم انتقلوا إلى الجنة، فلو لم يعلموا أن انتقالهم إلى الله أكمل لما اختاروه، ولو كان انتقالهم من هذه الدار يفوّت عليهم زيادة فيما يقوب إلى الله لما اختاروه. انتهى.

(وعن أبي سعيد) الخدري، **(ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فربط فرسه)** أي: البراق، سماه فرسًا، تجوزًا لقرب صورته منها، لا لأن الفارس يطلق على مقابل الماشي، سواء ركب فرسًا، أو بغلاً، أو حمارًا؛ وتجويز أن جبريل ركب معه فرسًا لا يصح لحديث؛ أنه ركب معه على البراق، وقد جاء تسمية البراق فرسًا في رواية أخرى؛ أنه أتى بفرس، فحمل عليه، وضمن ربط معنى ضم، فعداه بإلى في قوله **(إلى صخرة)** أو إلى بمعنى الباء، أو عند كقوله:

أشهى إليّ من الرحيق السلسل

والمراد بالصخرة هنا الحلقة التي بالباب، لا التي بداخل المسجد، بدليل قوله: **(ثم دخل، فصلى مع الملائكة)** إمامًا بهم على المتبادر، فضمير صلى للنبي ﷺ بعد صلاته ركعتين، هو وجبريل، كما مر قريبًا.

معك؟ قال: هذا محمد رسول اللّٰه خاتم النبيين، قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياه اللّٰه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة. ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم.

فقال إبراهيم عليه السلام: الحمد للّٰه الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكًا عظيمًا، وجعلني أمة قانتًا يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها علي بردًا وسلامًا.

وترجيع ضمير صلى بجبريل، وأن المعنى صلى مع الملائكة لما وجدهم يصلون بعيد جدًا، بل يمنعه ما رواه الواسطي عن كعب، فأذن جبريل، ونزلت الملائكة من السماء، وحشر اللّٰه له المرسلين، فصلى النبي ﷺ بالملائكة والمرسلين، (**فلما قضيت الصلاة،**) بالبناء للمفعول، أي: تمت، وفرغوا منها، (**قالوا: يا جبريل من هذا معك؟**،) خبر بعد خبر، أو حال، (**قال: هذا محمد رسول اللّٰه خاتم النبيين**) والرسل، (**قالوا: وقد أرسل إليه،**) أي: طلب للحضور، لا أرسل إليه بالوحي، أم لا لقوله لهم رسول اللّٰه، (**قال: نعم، قالوا: حياه اللّٰه،**) أي: أبقاه، وسلمه وملكه ما أعظمه وأكرمه (**من أخ،**) فمن متعلق بمحذوف، أو مبنية للضمير، أو زائدة، وجعلوه أخًا لهم، لأن المراد أخوّة الإيمان، (**ومن خليفة**) للّٰه تعالى لعمارة الأرض وسياستها، وتكميل النفوس البشرية، وتنفيذ الأوامر الإلهية، لا لاحتياجه تعالى، بل لقصور الخلق عن التلقي بلا واسطة، (**فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ثم لقوا،**) أي: المصطفى والملائكة ببيت المقدس بعد انقضاء الصلاة (**أرواح الأنبياء**) متشكلة بصور أجسادهم، (**فأثنوا،**) أي: الأنبياء (**على ربهم،**) وتجويز أن المثنى الملائكة لملاقاتهم الأنبياء، كما يقول: من رأى صالحًا، الحمد للّٰه الذي من عليّ بلقائك، يمنعه قوله، (**فقال إبراهيم عليه السلام: الحمد للّٰه الذي اتخذني خليلاً**) صفيًا خالص المحبة له، (**وأعطاني ملكًا عظيمًا**).

قال ابن دحية: لا يعهد لإبراهيم ملك عرفي، فإما أن يراد بالملك الإضافة إليه نفسه، لقهره عظماء الملوك، وناهيك بنمروذ وقد قهره اللّٰه لخليله وعجزه عنه، وغاية الملك العظيم قهر الملك العظيم، فالقاهر أعظم من المقهور قطعًا، أو يراد الإضافة إلى بنيه وذريته نحو ملك يوسف، وهلم جرًا، كملك داود وسليمن، والكل من ولد إبراهيم. وفي التنزيل: ﴿وآتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكًا عظيمًا﴾ [النساء/٥٤]، والإشارة هنا إلى ذريته، وإما أن يراد ملك النفس في مظنة الاضطرار مثل ملكه لنفسه، وقد سأله جبريل: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، (**وجعلني أمة:**) إمامًا جامعًا لخصال الخير، وفضائل لا تكاد توجد إلا مفرقة في أشخاص كثيرة، والجامع لذلك أمة لقيامه مقام الجماعة، كأنه اجتمع فيه ما تفرق في غيره، كقوله:

ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد للَّه الذي كلمني تكليمًا، واصطفاني، وأنزل علي التوراة، وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قومًا يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن داود أثنى على ربه فقال: الحمد للَّه الذي جعل لي ملكًا عظيمًا، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن معي والطير وآتاني الحكمة وفصل الخطاب.

وليس على اللَّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

(قانتًا) مطيعًا، **(يؤتم:)** يقتدى **(بي، وأنقذني من النار، وجعلها عليّ بردًا:)** ذهبت حرارتها: فلم تحرق غير وثاقه، وبقيت إضاءتها، **(وسلامًا،)** سلم من الموت ببردها، **(ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه، فقال: الحمد للَّه الذي كلمني تكليمًا،)** بلا واسطة، **(واصطفاني،)** واختارني على أهل زماني.

قال تعالى: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف/١٤٤]، **(وأنزل عليّ التوراة)** فيها هدى ونور، وسماها اللَّه تعالى الفرقان لفرقها بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وبصائر للناس، وهدى ورحمة، **(وجعل هلاك فرعون)** على يدي، **(ونجاة بني إسرائيل على يدي،)** يتنازعه هلاك ونجاة، **(وجعل من أمتي قومًا يهدون)** الناس **(بالحق، وبه يعدلون)** ويحكمون، **(ثم إن داود أثنى على ربه، فقال: الحمد للَّه الذي جعل لي ملكًا عظيمًا)** في بني إسرائيل، ولم يجتمعوا على نبي قبله، **(وعلمني الزبور:)** كتاب اللَّه المنزل عليه، **(وألان لي الحديد،)** فكان في يدي كالعجين، **(وسخر لي الجبال، يسبحن معي)** بالعشي، وقت صلاة العشاء، والإشراق وقت صلاة الضحى، وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها.

وفي التنزيل: ﴿يا جبال أوّبي معه﴾ [سبأ/١٠]، أي: سبحي معه، قاله مجاهد، رواه الفريابي، وعن الضحاك: هو التسبيح، بلغة الحبشة، قال ابن كثير: فيه نظر، فالتأويب لغة الترجيع، وقال وهب: نوحي معه، وذلك إما بخلق صوت مثل صوته فيها، أو بحملها إياه على التسبيح، إذا تأمل فيها. وقيل: سيري معه حيث سار والتضعيف للتكثير، **(والطير،)** قال تعالى: ﴿وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير﴾ [الأنبياء/٧٩]، للتسبيح معه لأمره به، إذا وجد فترة لينشط للتسبيح، **(وآتاني الحكمة)** النبوة والإصابة في الأمور، **(وفصل الخطاب)** البيان الشافي في كل قصد.

وفي البيضاوي: وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، أو الكلام الملخص الذي ينبه

ثم إن سليمٰن عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين، يعملون ما شئت من محاريب وتماثيل، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وآتاني ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل لي ملكًا طيبًا ليس علي فيه حساب.

المخاطب على المقصود من غير التباس، يراعى فيه مظان الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والإظهار، والحذف والتكرار، ونحوها.

(ثم إن سليمٰن عليه السلام أثنى على ربه، فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح،) ذللها لطاعتي إجابة لدعوتي، تجري بأمره رخاء: لينة من الرخاوة، لا تزعزع، أو لا تخالف إرادته، كالمأمور المنقاد حيث أصاب، أي: أراد، **(وسخر لي الشياطين يعملون)** لي **(ما شئت من محاريب:)** أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج كالقصور، سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها، **(وتماثيل:)** جمع تمثال، وهو كل شيء مثلته بشيء، أي: صورًا من نحاس وزجاج ورخام، ولم يكن اتخاذ الصور حرامًا في شريعته.

وأسقط المصنف من حديث أبي سعيد: وجفان كالجوابي وقدور راسيات، وكذا هو ثابت في حديث أبي هريرة عند البيهقي وغيره، وهو موافق للقرآن، فكأنه سقط من قلم المصنف سهوًا، والجوابي: جمع جابية وهي حوض كبير: يجتمع على الجفنة ألف رجل يأكلون منها، وقدور راسيات ثابتات لها قوائم، لا تحرك عن أماكنها: تتخذ من الجبال باليمن يصعد إليها بالسلاليم.

(وعلمني منطق الطير،) أي: فهم أصواته، **(وآتاني من كل شيء)** يؤتاه الأنبياء والملوك **(فضلاً)** مبينًا ظاهرًا، **(وسخر لي جنود الشياطين)**، أي: أعوانًا هم الشياطين، فهو من إضافة الأعم إلى الأخص، أو إضافة بيانية، **(والإنس والجن)** ظاهره أنهم غير الشياطين، وهو كذلك باعتبار الإيمان، فمن كفر من الجن يقال له شيطان، كما في حياة الحيوان وغيرها، **(والطير)** أسقط من الحديث: وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، قبل قوله **(وآتاني ملكًا لا ينبغي)** لا يكون **(لأحد من بعدي،)** أي: سواء، ولو في حياتي، كقوله تعالى: ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ [الجاثية/٢٣]، أي: سواء، **(وجعل لي ملكًا طيبًا ليس عليّ فيه حساب)** ولا عقاب، كما في الرواية، أي: لعصمته من الظلم المؤدي إلى ذلك، فهو وإن اتسع ملكه بحيث تجري العادة في مثله بترتب الحساب والعقاب، لم يحصل فيه شيء يقتضيهما للملوك، لا سيما الجبابرة.

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعلني مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وجعلني أبرىء الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم. فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

قال: وإن محمدًا ﷺ أثنى على ربه فقال: كلكم أثنى على ربه وأنا أثني على ربي: فأقول الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيرًا

(ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه، فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته،) أي: مكوّنًا بها، وهي قوله تعالى: كن من غير واسطة أب ولا نطفة، **(وجعلني مثل آدم،)** كشأنه في خلقه من غير أب، وهو من تشبيه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم، وأوقع في النفس **(خلقه،)** أي: آدم، أي: قالبه **(من تراب، ثم قال له: كن)** بشرًا، **(فيكون،)** أي: فكان، وكذلك عيسى قال له: كن من غير أب، فكان، والجملة مفسرة للتمثيل، مبينة لما به الشبه، **(وعلمني الكتاب)** الخط، أو جنس الكتب الإلهية، **(والحكمة،)** أي: العلوم وتهذيب الأخلاق، **(والتوراة)** النازلة قبله على موسى، **(والإنجيل)** المنزل على عيسى، **(وجعلني أخلق،)** أصور **(من الطين كهيئة الطير،)** مثل صورته، والكاف اسم مفعول، **(فأنفخ فيه،)** الضمير للكاف، أو للطين، أو للطير، وهكذا بالتذكير في آل عمران، وبالتأنيث في المائدة، عائدًا للهيئة، وهو تفنن على عادة العرب في التفنن في الكلام، **(فيكون طيرًا بإذن الله،)** أي: بإرادته، **(وجعلني أبرىء:)** أشفي **(الأكمه)** الذي ولد أعمى: **(والأبرص:)** وخصا لأنهما داء أعياء، وكان بعثه في زمن الطب، فأبرأ في يوم خمسين ألفًا بالدعاء، بشرط الإيمان، **(وأحيي الموتى بإذن الله؛)** بإرادته، فأحيا عاذر صديقًا له، وابن العجوز، وابن العاشر، فعاشوا وولد لهم، وسام بن نوح، ومات في الحال، **(ورفعني)** إليه من الدنيا بلا موت، **(وطهرني:)** بعدني من الذين كفروا، **(وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم)** المطرود، **(فلم يكن للشيطان علينا سبيل:)** قال ﷺ: ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد: فيستهل صارخًا إلا مريم وابنها، رواه الشيخان.

(قال: وإن محمدًا ﷺ أثنى على ربه، فقال: كلكم) يا هؤلاء الذين أثنوا، **(أثنى على ربه، وأنا أثني على ربي، فأقول: الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين)** المسلمين، لسعادتهم في الدارين في معاشهم ومعادهم، والكافرين، بأمنهم من الخسف، والمسخ والاستئصال، **(وكافة للناس،)** بيان لعموم رسالته، فهو إما صفة مصدر، أي: إرساله كافة، أي:

ونذيرًا، وأنزل عليّ الفرقان، فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطًا، وجعل أمتي هم الأولون والآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا.

عامة كفتهم عن الخروج منها، فهو مفعول مطلق لأرسلني، أو اسم فاعل حال من الياء، أي: حال كوني كافًا للناس، فالتاء للمبالغة، وكونه حالاً من الناس، مقدمًا على صاحبها المجرور قول ضعيف، (**بشيرًا**،) أي: مبشرًا بالخير لمن آمن وأتقى، (**ونذيرًا:**) منذرًا، محذرًا من كفر وعصى، وهو حال مترادفة، أو متداخلة حمدًا، ولا على ما أنعم عليه، ثم ثنى بماله من المنافع والفوائد، وبعبارة كافة، أي: جامعًا في الإنذار والإبلاغ من الكف، بمعنى الجمع، ومنه كف الثواب، وهو جمعه بالخياطة، والهاء للمبالغة، كعلامة ونحوها، وقيل: معناه مانعًا ورادعًا عن الكفر، وسائر المعاصي من الكف، بمعنى المنع، والهاء للمبالغة أيضًا، ونصب كافة على الوجهين حال من المفعول في أرسلني، (**وأنزل عليّ الفرقان:**) من أسماء القرآن، لأنه فرق بين الحق والباطل، وهذا عام لغة، وعليه: ﴿ولقد آتينا موسى وهٰرون الفرقان﴾ [الأنبياء/٤٨] ، ثم خص عرفًا بالقرآن، فصار علمًا له بالغلبة، وأصله تبارك الذي نزل الفرقان على عبده، وهو مصدر بمعنى الفارق، أو المفرق آياته، أو إنزاله (**فيه تبيان كل شيء:**) بكسر التاء البيان الشافي، كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام/٣٨] ، أي: يحتاج إليه من الأمور المهمة الشرعية، تفصيلاً في بعض، وإجمالاً في بعض، وأحاله على الرسول عليه السلام في أمره، بإتباعه بقوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر/٧] ، وعلى الإجماع بقوله، ويتبع غير سبيل المؤمنين وهو شامل للقياس والاجتهاد، كما في الكشاف وغيره.

(**وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس**) كما في الكتاب العزيز: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون﴾ [آل عمران/١١٠] ، (**وجعل أمتي أمة وسطًا،**) أي: خيارًا عدولاً، جامعين بين العمل والعلم، وسائر الصفات التي بين التفريط والإفراط.

(**وجعل أمتي هم الأولون**) في دخول الجنة، (**والآخرون**) في الوجود، وهم ضمير مبتدأ مفيد للحصر، لا ضمير فصل، لأنه لو كان كذلك لقيل الأولَين، (**وشرح لي صدري:**) وسعه بالعلم والإيمان والحكمة واليقين، بحيث لا أحزن على أمر من أمور الدنيا، أو شقه وملأه بالأنوار، كما مر، (**ووضع عني وزري:**) طهر قلبي من حظ الشيطان، وعصمني، فلا أرتكب ذنبًا، ولذا قال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [القلم/٢] ، فسوى بينهما لعدم وقوعهما، أو خفف أعباء النبوة والتبليغ بإفاضة منته عليّ، والجملتان في غاية التناسب، (**ورفع لي ذكري:**) جعلني مذكورًا في الملأ الأعلى، وجعل اسمي طراز الجنان، ومقرونًا باسمه تعالى على كل

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد. ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء. ذكره القاضي عياض في «الشفاء» مختصرًا من حديث أبي هريرة من غير عزو.

ورواه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري، وهذا لفظه.

لسان، وعلى المنابر في كل إقامة وأذان. قال حسان:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

(**وجعلني فاتحًا**) لأبواب الإيمان والهداية إلى الصراط المستقيم، ولبيان أسباب التوفيق، وما استغلق من العلم، أو هو من الفتح بمعنى الحكم، فجعله حاكمًا كما في خلقه، ففتح ما انغلق بين الخصمين، بإحيائه الحق وإيضاحه، وإماتته الباطل وإدحاضه، أو فاتحًا بالشفاعة يوم القيامة، (**وخاتمًا**) للنبيين، أي: آخرهم بعثًا.

(**فقال إبراهيم: بهذا،**) أي: بمجموع ما ذكر، وبكل واحدة منها لا بالأولى فقط، كما زعم (**فضلكم محمد،**) أي: زاد فضله عليكم، وقدم المعمول للحصر، وقال هذا إبراهيم خطابًا للأنبياء إذاعة لفضله لما سمع ثناءه، (**ثم ذكر**) في هذا الحديث؛ (**أنه عرج به إلى السماء الدنيا:**) القريبة إلينا من بين السبع سموٰت، (**ومن سماء إلى سماء، ذكره القاضي عياض في الشفاء مختصرًا،**) بمعنى أنه لم يذكر ثناء الأنبياء، بل قال: فأثنوا على ربهم، وذكر كلام كل واحد منهم، وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمٰن؛ ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: كلكم... فذكره بلفظ المصنف هنا (**من حديث أبي هريرة من غير عزو**) لمخرج، وقد أخرجه أبو يعلى، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والبيهقي، كلهم من حديث أبي هريرة، فما يوهمه قول المصنف، (**ورواه،**) أي: الحديث الذي ذكره أولاً بقوله.

وعن أبي سعيد: ثم سار حتى أتى بيت المقدس إلى هنا، لا قوله: ثم عرج به إلى السماء، كما زعمه من لم يقف على شيء.

(**البيهقي من حديث أبي سعيد**) الخدري، (**وهذا لفظه:**) من أن البيهقي لم يروه عن أبي هريرة، وأن عياضًا، وهم في نسبته له، ليس بمراد، وروى أحمد، وابن ماجه، وصححه الحاكم عن ابن مسعود، مرفوعًا: لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم، وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا الأمر إلى موسى، فقال: لا علم لي بها، فردوا الأمر إلى عيسى، فقال: أما وجبتها، فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج، ومعي قضيبان، فإذا رآني، ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله إذا رآني، حتى أن الحجر والشجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافرًا، فتعال فاقتله، فيهلكهم الله، ثم ترجع الناس

وفي رواية ابن أبي حاتم في تفسيره، عن أنس: لما بلغ بيت المقدس، فبلغ المكان الذي يقال له: باب محمد، أتى إلى الحجر الذي به، فغمز جبريل بأصبعه فثقبه، ثم ربطها، ثم صعدا، فلما استويا في سرحة المسجد قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ قال: نعم، قال: فانطلق إلى أولئك النسوة

إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يطؤون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، ثم ترجع الناس إليّ فيشكونهم، فأدعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم، ففيما عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها، ليلاً أو نهارًا. وتجوى (بالجيم): أي: تنتن، وقوله: فيهلكه الله إذا رآني، أي: على يدي، بقتلي له بعد هروبه، لا بمجرد رؤيته، وقوله: حتى إن الشجر غاية لمقدر، ففي حديث أبي أمامة عند ابن ماجه، وصححه ابن خزيمة والحاكم، مرفوعًا، فإذا انصرف، أي: من الصلاة خلف المهدي، قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحون، ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى، وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب، كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربًا، ويقول عيسى: إن لي فيك ضربة لن تسبقني، فيدركه عند باب لد الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل، تتوافى به دابة إلا الغرقدة، فإنها من شجرهم، لا تنطق، إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي، فتعال اقتله.

(وفي رواية ابن أبي حاتم في تفسيره، عن أنس: لما بلغ بيت المقدس، فبلغ،) أي: فسار حتى بلغ، **(المكان الذي يقال له باب محمد)** الآن بعد دخوله ﷺ منه، ويحتمل أنه كان معروفاً عندهم قبل المعراج، وبهذا الاسم من الأنبياء والكتب القديمة، **(أتى إلى الحجر)** جواب لما **(الذي به)** وهو الصخرة المعروفة، **(فغمز جبريل بإصبعه، فثقبه، ثم ربطها)** أي: الدابة، وهو البراق، وفي نسخة: ثم **(صعدا)**، أي: مرا بعد ربط البراق، وإلا فلا معنى للصعود هنا، وأكثر النسخ بإسقاطها وهي ظاهرة.

(فلما استويا في سرحة) بسين مهملة وراء وحاء، أي: فناء **(المسجد،)** أي: ساحته التي في وسطه، وفي نسخة: صرحة المسجد بصاد مهملة، وهي ظاهرة، أي: ساحته، وفي نسخة: عرصة المسجد، أي: ساحته التي لا بناء فيها، ونقل الشامي هذا الحديث بعينه، بلفظ: في صخرة المسجد، أي: عندها.

(قال جبريل: يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين:) بكسر العين جمع عيناء، حسنة العينين واسعتهما، والحور: النساء البيض، اللواتي بأعينهن حور، وهو شدة بياض بياضها،

فسلم عليهن، قال: فسلمت عليهن فرددن علي السلام، فقلت لمن أنتن؟ فقلن: خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا، قال: ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيرًا، حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمنا، فأخذ جبريل عليه السلام بيدي فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال لي جبريل: أتدري من صلى خلفك؟ قلت: لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه اللّٰه.

قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون ﷺ صلى بالأنبياء جميعًا في بيت المقدس، ثم صعد منهم إلى السماء من ذكر أنه عليه السلام رآه في السمٰوات ويحتمل أن يكون صلى بهم بعد أن هبط من السماء، فهبطوا أيضًا، والأظهر أن

وسواد سوادها، وقيل: الحور اسوداد المقلة كلها، كعيون الظباء، قالوا: ولا حور في الإنسان، وإنما قيل ذلك في النساء على التشبيه، **(قال: نعم، قال: فانطلق إلى أولٰئك النسوة)** فإنهن من الحور العين، **(فسلم عليهن، قال)** ﷺ: فانطلقت، **(فسلمت عليهن، فرددن عليّ السلام، فقلت: لمن أنتن، فقلن: خيرات)** أخلاقًا، **(حسان)** وجوهًا: جمع حسناء، وقيل: خيرات: جمع خيرة بفتح فسكون، وهي الحوراء، **(نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا)** بفتح الياء والراء، أو بضم الياء وكسر الراء، أي: لم يصبهم درن، وهو الوسخ، **(وأقاموا، فلم يظعنوا،)** يرتحلوا من محل لآخر، فتصيبهم مشقة الظعن، **(وخلدوا، فلم يموتوا، قال: ثم انصرفت)** من عند الحور، **(فلم ألبث إلا يسيرًا حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة،)** تقدم المراد بهما؛ **(قال: فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمنا، فأخذ جبريل عليه السلام بيدي، فقدمني، فصليت بهم، فلما انصرفت)** من الصلاة، **(قال لي جبريل: أتدري من صلى خلفك؟، قلت: لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه اللّٰه)** تعالى، أي: أوحى إليه بشرع، فشمل الأنبياء والمرسلين لقوله في الحديث السابق: «فإذا النبيون أجمعون يصلون معه»، ثم ظاهر سياق هذا الحديث يخالف قوله في الرواية السابقة، ثم دخلت المسجد، فعرفت النبيين ما بين قائم، وراكع وساجد، ثم أقيمت الصلاة، فأممتهم.

(قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون ﷺ صلى بالأنبياء جميعًا في بيت المقدس) قبل العروج.

قال الشامي: وهو الذي تظافرت به الروايات، واستظهره الحافظ، **(ثم صعد منهم إلى السماء من ذكر أنه عليه السلام رآه في السمٰوات)** آدم، فيحيى وعيسى، فيوسف، فإدريس، فهٰرون فموسى فإبراهيم، **(ويحتمل أن يكون صلى بهم بعد أن هبط من السماء، فهبطوا أيضًا)**

صلاته بهم في بيت المقدس كان قبل العروج. انتهى.

وقال ابن كثير: صلى بهم ببيت المقدس قبل العروج وبعده، فإن في الحديث ما يدل على ذلك، ولا مانع منه، انتهى.

وقد اختلف في هذه الصلاة، هل هي فرض أو نفل؟ وإذا قلنا إنها فرض، فأي صلاة هي؟

قال بعضهم: الأقرب أنها الصبح، ويحتمل أن تكون العشاء، وإنما يتأتى على قول من قال: إنه ﷺ صلى بهم قبل عروجه إلى السماء، وأما على قول من قال:

للصلاة معه.

قال الشامي: وصححه ابن كثير، وقوله: **والأظهر أن صلاته بهم ببيت المقدس كان قبل العروج، انتهى)** ظاهره أنه من كلام عياض، وليس كذلك.

إنما هو للحافظ، ذكره في فتح الباري بعد كلام عياض، وكذا عزاه له تلميذه النعماني، ثم الشامي، ثم الغيطي.

(**وقال ابن كثير: صلى بهم ببيت المقدس قبل العروج وبعده، فإن في الحديث ما يدل على ذلك، ولا مانع منه، انتهى،**) وهذا منابذ لنقله عن ابن كثير نفسه، من قوله: الظاهر أنه بعد رجوعه إلى آخر ما يأتي بعد أسطر، وقد نسب النعماني ما هنا لنفسه، وتبعه الشامي فعزا له.

(**وقد اختلف في هذه الصلاة؛**) هل هي الشرعية المعروفة، أو اللغوية؟، وصوب الأول، لأن النص يحمل على حقيقته الشرعية قبل اللغوية ما لم يتعذر حمله على الشرعية، ولم يتعذر هنا، فوجب حمله على الشرعية، وعلى هذا اختلف (**هل هي فرض؟،**) ويدل عليه، كما قال النعماني حديث أنس عند ابن أبي حاتم المتقدم قريبًا للمصنف، (**أو نفل، وإذا قلنا إنها فرض، فأي: صلاة هي؟، قال بعضهم: الأقرب أنها الصبح، ويحتمل أن تكون العشاء، وإنما يتأتى على قول من قال إنه ﷺ صلى بهم قبل عروجه إلى السماء**).

وفي النعماني: إنما يتأتى على أن الإسراء من أول الليل، لكن قال بعض رواة حديث الإسراء: إنه بعد صلاة العشاء، (**وأما على قول من قال: صلى بهم بعد العروج، فتكون الصبح**)؛ والاحتمالان، كما قال الشامي ليسا بشيء، سواء قلنا صلى بهم قبل العروج أو بعده، لأن أول صلاة صلاها النبي ﷺ من الخمس مطلقًا الظهر بمكة باتفاق، ومن حمل الأولية على مكة، فعليه الدليل. قال: والذي ظهر أنها كانت من النفل المطلق، أو كانت من الصلاة المفروضة عليه قبل ليلة الإسراء، وفي فتاوى النووي ما يؤيد الثاني.

صلى بهم بعد العروج فتكون الصبح.

قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، والظاهر أنه بعد رجوعه إليهم لأنه لما مرَّ بهم في منازلهم جعل من يسأل جبريل عنهم واحدًا بعد واحدًا، وهو يخبره بهم، ثم قال: وهذا هو اللائق، لأنه أولاً كان مطلوبًا إلى الجناب العلوي، ليفرض اللَّه عليه وعلى أمته ما يشاء، ثم لما فرغ مما أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه عليهم بتقديمه في الإمامة.

وفي رواية ابن إسحٰق: أنه عليه السلام قال: لما فرغت مما كان في بيت

(قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس،) فهو الواجب القبول، **(والظاهر أنه بعد رجوعه إليهم، لأنه لما مر بهم في منازلهم)** من السمٰوات **(جعل من يسأل جبريل عنهم واحداً بعد واحد، وهو يخبره بهم،)** فلو رآهم قبل العروج ما حسن السؤال ولا الجواب، ولكن هذا عقلي يدفعه قوله: ثم دخلت المسجد، فعرفت النبيين ما بين قائم، وراكع وساجد، والسؤال عنهم بعد ذلك في السمٰوت لا يستلزم أنه لم يرهم قبل، لجواز اختلاف الصفة.

وقد نقل الحافظ، أن رؤيته الذين صلوا ببيت المقدس تحتمل الأرواح خاصة، والأرواح بأجسادها، وأما في السماء، فمحمولة على الأرواح إلا عيسى، لما أثبت أنه رفع بجسده، وقد قيل في إدريس أيضًا ذلك، ويأتي ذلك للمصنف.

(ثم قال) ابن كثير: **(وهذا هو اللائق، لأنه أولاً كان مطلوبًا إلى الجناب العلوي، ليفرض اللَّه عليه وعلى أمته ما يشاء، ثم لما فرغ مما أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين،)** وهذا أيضًا عقلي لا ينهض حجة في المدعي، لأنه قدم على هذا الأمر العظيم الذي ليس في طوق بشرًا يناسبه بالانتقال من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وما رآه في سيره من الآيات، ثم دخوله الأقصى وصلاته ركعتين، فناسب أن يجتمع بإخوانه ليزيد إيناسه بالاجتماع بجنسه، **(ثم أظهر شرفه عليهم بتقديمه في الإمامة،)** ثم ثناء من أثنى منهم على ربه، وزيادة ثنائه عليهم، وقول إبرٰهيم: بهذا فضلكم محمد، فيتلقى المعراج بقلب قوي، فلا يكون عنده وحشة في العالم العلوي.

(وفي رواية ابن إسحٰق،) عن أبي سعيد، **(أنه عليه السلام قال: لما فرغت مما كان في بيت المقدس)** من صلاته الركعتين، وصلاته بالأنبياء، وثنائهم على اللَّه، **(أتي بالمعراج)**

المقدس، أتي بالمعراج ولم أر قط شيئاً أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا احتضر، فأصعدني صاحبي جبريل فيه حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء.

وفي رواية كعب: فوضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب حتى عرج هو وجبريل.

وفي «شرف المصطفى» أنه أتي بالمعراج من جنة الفردوس، وأنه منضد باللؤلؤ عن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة.

وفي رواية أبي سعيد ـ عند البيهقي ـ ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم تر الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق

الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، كما في الرواية الآتية؛ **(ولم أر قط شيئًا أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا احتضر)** ولو كان الميت أعمى، كما في شرح الصدور، فالميت يكشف له إذا احتضر عن المعراج، فيراه، فيمد عينيه إليه، فإذا قبضت روحه، صعدت فيه إلى حيث شاء اللّه، **(فأصعدني صاحبي جبريل فيه، حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء)** أي: الدنيا، كما مر في الحديث.

(وفي رواية كعب) عند الواسطي في فضائل بيت المقدس؛ **(فوضعت له مرقاة من فضة، ومرقاة من ذهب)**، وهو المعراج، **(حتى عرج هو وجبريل)** عليها، والمرقاة موضع الرقي، ويجوز فتح الميم على أنه موضع الارتقاء، وكسرها تشبيهًا باسم الآلة، كالمطهرة، وأنكره أبو عبيد، وقال: لم تقله العرب.

(وفي) رواية لابن سعد في كتاب **(شرف المصطفى؛ أنه أتي بالمعراج من جنة الفردوس)** قال ﷺ: «والفردوس أعلى الجنة ووسطها، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتم اللّه، فاسألوه الفردوس» رواه ابن ماجه، وصححه الحاكم.

(وأنه منضد باللؤلؤ) أي: جمع عليه بحيث عمه بجعل بعضه فوق بعض، **(وعن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة)**.

(وفي رواية أبي سعيد عند البيهقي: ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم تر الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت) استفهام قصد به تقرير المبالغة في حسنه، **(حين يشق بصره)** أي: تنفتح عيناه عند الاحتضار انفتاحًا لا يرتد عما رآه، قال المجد: شق بصر الميت، نظر إلى شيء لا يرتد إليه طرفه، ولا تقل شق الميت بصره، فأفاد أنه لازم، وفسره الفقهاء بيشخص بصره، ولعله إشارة إلى أنه صار كالشاخص الذي لا يتحرك من

بصره طامحًا إلى السماء، فإن ذلك عجبه بالمعراج.

وقد تقدم في حديث البخاري السابق: فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم.

ولم يقل جبريل عليه السلام: أنا، حيث قال له: من هذا؟ إنما سمى نفسه فقال: جبريل، لأن لفظ «أنا» فيه إشعار بالعظمة. وفي الكلام السائر: أول من قال «أنا» إبليس، فشقي، وأيضًا فقوله «أنا» مبهمة لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان.

وعلى هذا فينبغي للمستأذن إذا قيل له من أنت؟ أن لا يقول: «أنا»، بل

شدة نظره للمعراج الذي تعرج روحه عليه، وترى بصرية حال كونه، (**طامحًا،**) أي: رافعًا بصره إلى السماء، (**فإن ذلك،**) أي: سببه (**عجبه بالمعراج، وقد تقدم في حديث البخاري السابق**) عن لملك بن صعصعة، (**فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟، قال: نعم، ولم يقل جبريل عليه السلام: أنا حيث قال له: من هذا؟، إنما سمى نفسه، فقال جبريل**)، واقتصر عليه، لأنه ليس في الملائكة من تسمى بهذا الاسم غيره، (**لأن لفظ أنا فيه إشعار بالعظمة**) التي لا تخلو عن نوع تكبر، كأنه يقول: أنا لا أحتاج إلى ذكر اسمي لسمو مقامي، قاله ابن الجوزي.

قال بعضهم: وعادة العارفين المتقنين أن يذكر أحدهم اسمه بدل قوله أنا، لا في نحو إقرار بحق، فالضمير أولى، (**وفي الكلام السائر**) الجاري بين الناس، (**أول من قال أنا إبليس، فشقي،**) وقال فرعون: أنا ربكم الأعلى فتعس، (**وأيضًا، فقوله أنا مبهمة لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان،**) والضمير إذا عاد وتعين مضمره كان أعرف المعارف، والمستأذن محجوب عن المستأذن عليه، غير متعين عنده، فكأنه أحاله على جهالة، كما في ابن المنير وغيره.

(**وعلى هذا فينبغي للمستأذن إذا قيل له: من أنت؟، أن لا يقول: أنا، بل يقول فلان،**) ويصف نفسه بما يميزه عن غيره، فلا يكفي أن يقول محمد مثلاً، إلا إذا كان معروفًا للمخاطب بذلك الاسم، وقد أنكر النبي ﷺ على الذي استأذن عليه، فقال: من هذا؟، فقال: أنا، فقال ﷺ: أنا أنا إنكارًا عليه، قاله ابن المنير وغيره.

وقال بعض المحققين: ذهبت طائفة من العلماء وفرقة من الصوفية إلى كراهة إخبار الرجل

يقول: فلان.

وفي رواية للبخاري ومسلم: فعرج. وهو بفتح العين بمعنى صعد.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، وعليه ملك يقال له إسمعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك.

عن نفسه بأنا، تمسكًا بظاهر الحديث حتى قالوا: كلمة أنا، لم تزل مشؤومة على أصحابها، وزادوا أن إبليس إنما لعن بقولها، وليس كما قالوا، بل النهي عنه لما صحبه من النظر إلى نفسه بالخيرية: ولا تنكر إصابة الصوفية في دقائق علومهم، وإشاراتهم في التبري من الدعاوي الوجودية، لكن الذي أشاروا إليه بهذا راجع إلى معان تتعلق بأحوالهم دون ما فيه من التعلق بالقول، كيف وقد ناقض أقوالهم نصوص كثيرة، وهم أشد الناس فرارًا من مخالفتها، كقوله تعالى: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ [الكهف/١١٠]، ﴿أنا أول المسلمين﴾ [الأعراف/١٤٣]، ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ [ص/٨٦]، وقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»، والحاصل كما قال بعض الأفاضل؛ أن ذلك يتفاوت بتفاوت الأحوال والمقامات، فالمتردد في الأحوال، المتحول في الفناء والتلوين ينافي حاله أن يقول أنا، ومن رقي إلى مقام البقاء بالله، وتصاعد إلى درجات التمكين فلا يضره.

(**وفي رواية البخاري**) في الصلاة وغيرها، (**ومسلم**) في الإيمان من حديث أنس، عن أبي ذر: (**فعرج**) بي جبريل إلى السماء الدنيا، بدل قوله في رواية ابن صعصعة: فانطلق، (**وهو بفتح العين**) والفاء والراء، (**بمعنى صعد**).

(**وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي**) وابن إسحٰق: (**حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء، يقال له: بال الحفظة وعليه ملك يقال له إسمعيل**)، وهو صاحب سماء الدنيا، كما في رواية البيهقي عن أبي سعيد.

وفي حديث جعفر بن محمد عند البيهقي معضلاً أيضًا: يسكن الهواء، لم يصعد إلى السماء قط، ولم يهبط إلى الأرض قط إلا يوم مات النبي ﷺ، ومعلوم أن علم ذلك بإخباره. عليه السلام به قبل موته، لأن هذا لا مدخل فيه للرأي.

(**تحت يده اثنا عشر ألف ملك**،) ينقادون لأمره ونهيه كالجند، زاد في رواية ابن إسحٰق: مع كل ملك اثنا عشر ملك، وروى ابن جرير والبيهقي في الدلائل من حديث أبي سعيد: وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جنده مائة ألف.

وفي رواية للبزار: تحت يده سبعون ألف ملك، تحت يد كل ملك سبعون ألف ملك، ولعل المراد التكثير، فلا يخالف مائة ألف، ولعل الإثني عشر ألفًا رؤساء السبعين ألفًا، وكذا الإثنا

وفي رواية شريك ـ عند البخاري أيضًا ـ ثم عرج به إلى سماء الدنيا، فضرب بابًا من أبوابها، فناداه أهل سماء الدنيا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، أي على لسان من شاء كجبريل.

ووقع في هذه الرواية أيضًا أنه رأى في سماء الدنيا النيل والفرات عنصرهما.

وظاهرها يخالف حديث مُلك بن صعصعة فإن فيه بعد ذكر سدرة المنتهى: وإذا في أصلها أربعة أنهار.

ويجمع بينهما: بأن أصل نبعهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في السماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض.

عشر ألفًا الذين مع كل ملك رؤساء على باقي المائة ألف، فلا خلف، والله أعلم.

(وفي رواية شريك) بن عبد الله المدني، عن أنس، **(عند البخاري أيضًا، ثم عرج)** جبريل **(به)** بالنبي ﷺ **(إلى سماء الدنيا، فضرب بابًا من أبوابها، فناداه أهل سماء الدنيا)** أي: جنسهم الصادق بالحفظة للباب: **(من هذا؟)** الذي يدق الباب.

وفي حديث أبي ذر: فلما جئت إلى السماء، قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح، قال: من هذا؟، **(قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟، قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟، قال: نعم، قالوا: مرحبًا وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء)** سقطت الفاء من رواية الأصيلي، وزاد الدنيا، **(لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، أي: على لسان من شاء، كجبريل)** عليه السلام، **(ووقع في هذه الرواية)** أي: رواية شريك عن أنس **(أيضًا؛ أنه رأى في سماء الدنيا النيل والفرات، عنصرهما)** بضم المهملتين، بينهما نون ساكنة، أصلهما الذي تميزا به عن نهري الجنة، فينزلان إلى سماء الدنيا، ثم ينزلان إلى الأرض بدل مما قبله.

ولفظ رواية شريك: فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟، قال: هذا النيل والفرات عنصرهما. **(وظاهرها)** أي: هذه الرواية، **(يخالف حديث مُلك ابن صعصعة، فإن فيه بعد ذكر سدرة المنتهى، وإذا في أصلها أربعة أنهار)** نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟، قال: أما الباطنان، فنهران في الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات، **(ويجمع بينهما؛ بأن أصل نبعهما من تحت سدرة المنتهى، ومقرهما في السماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض)** وجمع ابن دحية؛ بأنه رأى هذين عند سدرة المنتهى

ووقع في هذه الرواية أيضًا: ثم مضى به في السماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر، عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، وأنه الكوثر.

وهو مما استشكل من رواية شريك، فإن الكوثر من الجنة، والجنة فوق السماء السابعة. ويحتمل أن يكون تقديره: ثم مضى في سماء الدنيا إلى السابعة فإذا هو بنهر.

ثم إن قوله في الحديث «استفتح» دلالة على أنه صادف أبواب السماء مغلقة، والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ التنويه بقدره عليه السلام، وتحقيق أن السموات لم تفتح أبوابها إلا من أجله، ولو وجدها مفتحة لم يتحرر أنها فتحت

مع نهري الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد بالعنصر عنصر انتشارهما السماء الدنيا، وكان الحافظ لم يرتضه لقوله، كذا قال ابن دحية انتهى، وتبعه المصنف فيما، يأتي وجمع غيره؛ بأن منبعهما من السدرة، وإذا نزلا إلى الأرض، يسلكان أولاً على الجنة، فيدخلانها، ثم ينزلان إلى الأرض بعد ذلك، ويأتي مزيد لذلك إن شاء الله قريبًا.

(**ووقع في هذه الرواية أيضًا: ثم مضى به في السماء الدنيا، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، وأنه**) فسره جبريل بقوله: هذا (**الكوثر**) ولفظه عقب زبرجد، فضرب يده، فإذا هو مسك، قال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر الذي خبا لك ربك، (**وهو مما استشكل من رواية شريك، فإن الكوثر في الجنة، والجنة فوق السماء السابعة، ويحتمل**) الجمع برد رواية شريك إلى هذا، وهو (**أن يكون**) هناك حذف (**تقديره: ثم مضى في سماء الدنيا إلى السابعة، فإذا هو بنهر،**) كذا ذكره الحافظ، واستبعده تلميذه القطب الخيضري في الخصائص، بأن بين الأولى والسابعة خمس سموٰت، كل منها له صفة غير صفة الأخرى، ولها أبواب وخدام غير الأخرى، فإطلاق المسير إليها بعيد، وذكرها بعد السادسة مما يبعده أيضًا، لكن قد يقال من غير استبعاد؛ أن أصل الكوثر في الجنة، وجعل الله تعالى منه فرعًا في السماء الدنيا، عجل لنبيه رؤيته استبشارًا، لأنها أول المراتب العلوية بعد السفلية، ويؤيد هذا قول جبريل: خبا لك ربك انتهى.

(**ثم إن قوله في الحديث: استفتح، دلالة**) صريحة (**على أنه صادف أبواب السماء مغلقة،**) وأصرح منه قوله في حديث أبي ذر: قال جبريل لخازن السماء: افتح، وكذا ضربه الباب.

(**والحكمة،**) كما قال ابن المنير (**في ذلك، والله أعلم، التنويه بقدره،**) أي: إظهاره ورفعه (**عليه السلام، وتحقيق أن السموٰت لم تفتح أبوابها إلا من أجله، ولو وجدها مفتحة**

لأجله، فلما فتحت له تحقق عليه السلام أن المحل مصون، وأن فتحه له كرامة وتبجيل.

وأما قوله في الحديث: «أرسل إليه؟» وفي رواية وقد «بعث إليه؟» فيحتمل أن يكون استفهم عن الإرسال إليه للعروج إلى السماء، وهو الأظهر لقوله: «إليه» لأن أصل بعثه قد اشتهر في الملكوت الأعلى.

وقيل: سألوا تعجبًا من نعمة اللَّه تعالى عليه بذلك، أو استبشارًا به، وقد علموا أن بشرًا لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن من اللَّه تعالى، وأن جبريل لا يصعد بمن لم يرسل إليه.

قيل: إن اللَّه تعالى أراد إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى،

لم يتحرر) أي: لم يعلم **(أنها فتحت لأجله،)** ولا بد، بل كان يحتمل أنها مفتوحة دائمًا، وأنها فتحت لغيره، تصادف مجيئه بعده، **(فلما فتحت له تحقق عليه السلام أن المحل مصون، وأن فتحه له كرامة وتبجيل:)** تعظيم، وقال ابن دحية: وإنما لم تهيأ له بالفتح قبل مجيئه، وإن كان أبلغ في الإكرام، لأنه لو رآها مفتحة لظن أنها لا تزال كذلك، ففعل ذلك ليعلم أن ذلك فعل من أجله، ولأن اللَّه تعالى أراد أن يطلعه على كونه معروفًا عند أهل السمٰوت.

(وأما قوله في الحديث: أرسل إليه،) بهمزة واحدة، ولأبي ذر: أأرسل بهمزتين، الأولى للاستفهام، والثانية للتعدية، وهي مضمومة، وللكشميهني أوَأرسل، بواو مفتوحة بين الهمزتين.

(وفي رواية) لشريك، عن أنس: **(وقد بعث إليه، فيحتمل أن يكون استفهم عن الإرسال إليه للعروج إلى السماء)** والإسراء، **(وهو الأظهر لقوله: إليه،)** إذ لو كان المراد أصل البعثة، لم يحتج لقوله إليه، **(لأن أصل بعثه قد اشتهر في الملكوت الأعلى،)** فلا يخفى عليهم إلى هذه المدة.

قال الحافظ: بعدها استظهر هذا تبعًا لابن المنير وغيره: ويحتمل أن يكون خفي عليه أصل إرساله لاشتغاله بعبادته، قال: ويؤيده رواية شريك: وقد بعث إليه. انتهى، وقد يقال: لا تأييد فيه، لأن المراد البعث الخاص للإسراء وصعود السمٰوت، لا عن أصل البعثة.

(وقيل: سألوا تعجبًا من نعمة اللَّه تعالى عليه بذلك، أو استبشارًا به، وقد علموا أن بشرًا لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن من اللَّه تعالى،) إذ لا قدرة له على ذلك حتى يأذن، **(وأن جبريل لا يصعد بمن لم يرسل إليه،)** فليس سؤالاً حقيقيًا.

(وقيل: إن اللَّه تعالى أراد إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى، لأنهم

لأنهم قالوا: وقد بعث إليه؟ أو: أرسل إليه؟ فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له، وإلا لكانوا يقولون: ومن محمد مثلاً؟ ولذلك أجابوا بقولهم: مرحبًا به ولنعم المجيء جاء، وكلامهم بهذه الصيغة أدل دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالته وتحقيق رسالته، ولأن هذا أحسن ما يكون من حسن الخطاب والترفيع، على المعروف من عادة العرب.

وأما قوله: «من معك؟» فيشعر بأنهم أحسوا به عليه الصلاة والسلام، وإلا لكان السؤال بلفظ: أمعك أحد؟ وهذا الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما لأمر معنوي كزيادة أنوارها ونحوها. قاله الحافظ ابن حجر.

ولعله أخذه من كلام العارف ابن أبي جمرة، حيث قال في «بهجته»: الثاني أن يكون سؤالهم له لما رأوا حين رأوا إقبالهم عليه من زيادة الأنوار وغيرها من

قالوا: وقد بعث إليه») بحذف همزة الاستفهام، للعلم بها، (أو أرسل إليه») بحذفها وإثباتها روايتان كما علم، (فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له) ﷺ، (وإلا لكانوا يقولون: ومن محمد مثلاً، ولذلك أجابوا بقولهم: مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء، وكلامهم بهذه الصيغة أدل دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالته وتحقيق رسالته، ولأن هذا أحسن ما يكون من حسن الخطاب والترفيع:) المبالغة في إظهار قدره وشرفه بين الملائكة، بناء (على المعروف من عادة العرب») فيمن خاطبوه بذلك، وهذا ذكره ابن أبي جمرة.

وذكر ابن المنير: أن موقع قول الخازن، وقد بعث إليه استنطاق جبريل بالسبب الموجب للإذن والفتح، لأن مجرد قوله: معي محمد، لا يوجب الإذن إلا بواسطة البعث من الله تعالى، ويلزم منه الإذن في إزالة الموانع وفتح أبواب السماء، فلم يتوقف الخازن على أن يوحى إليه بالفتح، لأنه لزم عنده من البعث الإذن.

(وأما قوله: من معك، فيشعر بأنهم أحسوا به عليه الصلاة والسلام) لفظ الحافظ؛ بأنهم أحسوا معه برفيق، (وإلا لكان السؤال بلفظ أمعك أحد؟، وهذا الإحساس إما بمشاهدة، لكون السماء شفافة) لا تحجب ما وراءها، (وإما لأمر معنوي، كزيادة أنوار ونحوها، قاله الحافظ ابن حجر) في فتح الباري: (ولعله أخذه من كلام العارف ابن أبي جمرة، حيث قال في بهجته،) أي: كتابه بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وعليها، وهو اسم شرحه على الأحاديث التي انتخبها من البخاري.

(الثاني: أن يكون سؤالهم له) لجبريل، (لما رأوا حين رأوا إقبالهم عليه)، على جبريل (من

المآثر الحسان زيادة على ما يعهدونه منه. قال: وهذا هو الأظهر، كأنهم قالوا: من الشخص الذي من أجله هذه الزيادة التي معك؟ فأخبرهم بما أرادوا وهو تعيين الشخص باسمه حتى عروفه، انتهى.

وقد قال بعض العلماء: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم/١٨] أنه ﷺ رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة.

وأما قولهم له: «مرحبًا به ولنعم المجيء جاء» فيحتمل أن يكونوا قالوه لما عاينوه من بركاته عليه السلام التي سبقته للسماء مبشرة بقدومه. وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: جاء فنعم المجيء مجيئه، وإنما لم يقل الخازن: مرحبًا بك،

زيادة الأنوار وغيرها،) بيان لما رأوا **(من المآثر الحسان، زيادة على ما يعهدونه منه، قال: وهذا هو الأظهر)** من احتمال أن ذلك، لأن السماء شفافة، **(كأنهم قالوا: من الشخص الذي من أجله هذه الزيادة التي معك، فأخبرهم بما أرادوا، وهو تعيين الشخص باسمه حتى عرفوه. انتهى)**..

(و) يؤيده أنه **(قد قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم/١٨]، أنه ﷺ رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت، فإذا هو عروس المملكة)** لشدة أنواره، **(وأما قولهم له:مرحبًا به،)** أي: أصاب رحبًا وسعة، كنى بذلك عن الانشراح، وأخذ منه ابن المنير جواز رد السلام بغير لفظه، وتعقب بأن مرحبًا به ليس ردًا، لأنه كان قبل فتح الباب، والسياق يرشد إليه، وقد نبه على ذلك ابن أبي جمرة.

(ولنعم المجيء جاء، فيحتمل أن يكونوا قالوه لما عاينوه من بركاته عليه السلام التي سبقته للسماء مبشرة بقدومه،) وفيه دلالة على أن للحاشية إذا فهموا من سيدهم عزمًا إكرام وافد أن يبشروه بذلك، وإن لم يأذن لهم فيه، ولا يكون إفشاء سر، لأن الخازن أعلم النبي ﷺ حال استدعائه؛ أنه استدعاء إكرام وإعظام، فعجل بالبشرى والفراسة الصادقة عند أهلها، وفي محلها تحصل العلم، كما يحصله الوحي، قاله ابن المنير.

(وفيه تقديم وتأخير، والتقدير جاء، فنعم المجيء مجيئه،) كذا قاله بعض الشراح، وخرجه ابن ملك في التوضيح على وجه لا تقديم فيه ولا تأخير، فقال: في هذا الكلام شاهد على الاستغناء بالصلة عن الموصول، أو الصفة عن الموصوف في باب، نعم، لأنها تحتاج إلى فاعل هو المجيء، وإلى مخصوص بمعناها، وهو مبتدأ مخبر عنه بنعم وفاعلها، فهو في هذا الكلام، وشبهه موصول أو موصوف بجاء، والتقدير نعم المجيء الذي جاء، أو نعم المجيء

بصيغة الخطاب، بل قال به بصيغة الغيبة لأنه حياة قبل أن يفتح الباب، وقبل أن يصدر من النبي ﷺ خطاب، ويحتمل أن يكون حياه بصيغة الغيبة تعظيمًا له، لأن «هاء» الغيبة ربما كانت أهم من كاف الخطاب.

وأما قوله في الحديث: فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة التي عن

مجيء جاء، وكونه موصولاً أجود، لأنه مخبر عنه، والمخبر عنه إذا كان معرفة أولى من كونه نكرة، نقله في الفتح، وقدمته في شرح الحديث.

(وإنما لم يقل الخازن: مرحبًا بك، بصيغة الخطاب، بل قال به بصيغة الغيبة، لأنه حياه قبل أن يفتح الباب، وقبل أن يصدر من النبي ﷺ خطاب،) ولهذا قال الملك لجبريل: ومن معك؟، فخاطبه بصيغة الخطاب، لأن جبريل خاطب الملك، فارتفع حكم الغيبة بالتخاطب من الجانب، قاله ابن المنير.

(ويحتمل أن يكون حياه بصيغة الغيبة تعظيمًا له، لأن هاء الغيبة ربما كانت أهم من كاف الخطاب،) لما فيها من إجلال المخاطب على مخاطبه، لأنه لم ينزل نفسه أهلاً لخطابه، لجلالته عليه، وهذان الاحتمالان ذكرهما ابن المنير.

(وأما قوله في الحديث) ليس يعني به حديث لملك بن صعصعة الذي قدمه، لأنه ليس فيه ذكر النسم، كما في البخاري ومسلم، وإنما عني به حديث أنس، عن أبي ذر عند البخاري أول كتاب الصلاة، ولفظه: فلما فتح علونا السماء الدنيا، **(فإذا)** بالفاء، وللأصيلي وابن عساكر بدونها، **(رجل قاعد عن يمينه أسودة)** أشخاص: جمع سواد، كأزمنة جمع زمان، **(وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل)** بكسر القاف وفتح الموحدة، أي: جهة **(يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال)** ذلك الرجل القاعد: **(مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح)**.

وفي رواية شريك: فقال: مرحبًا وأهلا بابني، نعم الابن أنت، والصالح القائم بما يلزمه من حقوق الله، وحقوق العباد، فهي صفة جامعة لمعاني الخير، فوصفه بها مكررًا مع النبوة، والبنوّة إشارة إلى أنه جمع بين صلاح الأنبياء وصلاح الأبناء، كأنه قال مرحبًا بالنبي التام في نبوته، والابن البار في نبوته، وفيه افتخار بأبوّته للنبي ﷺ، ولجمع الصلاح لخلال الخير، اقتصر الأنبياء على وصفه بالصالح، وتواردوا على ذلك، وكررها كل منهم عند كل صفة، ولم يقولوا بالنبي الصادق، أو الأمين، قال بعضهم: وصلاح الأنبياء غير صلاح الأمم، فصلاح الأنبياء صلاح كامل، لأنهم يزول بهم كل فساد، فلهم صلاح خاص لا يتناول عموم الصالحين، لأن كثيرًا من

يمينه وشماله نسم بنيه. فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

فالأسودة: بوزن أزمنة، مفرد سواد، هي الأشخاص.

والنسم: ـ بالنون والسين المفتوحتين ـ جمع نسمة، وهي الروح.

وقد قال القاضي عياض: جاء أن أرواح الكفار في سجين، وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، يعني: فكيف تكون مجتمعة في سماء الدنيا؟

الأنبياء تمنى أن يلحق بالصالحين، ولا يتمنى الأعلى أن يلحق بالأدنى، فهذا يحقق أن صلاح الأنبياء غير صلاح الأمم، ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به، أو منه من الفساد.

(**قلت لجبريل: من هذا؟، قال: هذا آدم،**) ظاهره أنه سأل عنه بعد أن قاله له آدم مرحبًا، ورواية لملك بن صعصعة بعكس ذلك، وهي المعتمدة، فتحمل هذه عليها، إذ ليس في هذه أداة ترتيب، كذا في فتح الباري، وتبعه الشامي، أي: لأنه لم يقل هنا، فقلت لجبريل، بالفاء، إنما قال قلت، فيحمل على أن القول وقع قبل قول آدم مرحبًا، والمراد بالعكس المخالفة، فلفظ رواية ابن صعصعة: فلما خلصت، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.

(**وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نسم بنيه:**) أرواحهم، (**فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك**) سرورًا، (**وإذا نظر قبل شماله بكى**) حزنًا، (**فالأسودة بوزن أزمنة مفرد سواد**) بوزن زمان، (**هي الأشخاص**) من كل شيء، وتطلق بمعان أخر، (**والنسم: بالنون والسين المفتوحتين، جمع نسمة**)، بزنة قصب وقصبة، (**وهي الروح،**) بيان للمراد بها هنا، وإلا ففي المصباح النسم والنسمة نفس الريح، ثم سميت بها النفس بالسكون.

قال الحافظ: وحكى ابن التين؛ أنه رواه شيم: (بكسر الشين المعجمة وفتح الياء آخر الحروف بعدها ميم)، وهو تصحيف، وظاهره أن أرواح بني آدم من أهل الجنة والنار في السماء، وهو مشكل.

(**وقد قال القاضي عياض: جاء أن أرواح الكفار في سجين:**) مكان يعذبون فيه أسفل السافلين، كما في ابن المنير، وفي المصنف: في سجين الأرض السابعة، وفي القاموس: سجين موضع فيه كتاب الفجار، وواد في جهنم..

(**وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة،**) روى الطبراني والبيهقي بسند حسن عن أم

وأجاب: بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتًا، فوافق عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على كونهم في النار في أوقات دون أوقات، قوله تعالى: ﴿**النار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا**﴾ [غافر/٤٦].

واعترض: بأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء، كما هو نص القرآن.

والجواب عنه: ما أبداه هو احتمالاً أن الجنة كانت في جهة يمين آدم، والنار كانت في جهة شماله: وكان يكشف له عنهما، ولا يلزم من رؤية آدم لها ـ وهو في السماء ـ أن تفتح لها أبواب السماء ولا تلجها.

وفي حديث أبي هريرة عند البزار: فإذا عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر عن يمينه استبشر، وإذا نظر عن

مبشر، وكعب بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت، ونسمة الكافر في سجين»، وسئل النبي ﷺ عن أرواح المؤمنين، فقال: «في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت»، قالوا: وأرواح الكفار، قال: «محبوسة في سجين»، رواه الطبراني، (**يعني: فكيف تكون مجتمعة في سماء الدنيا**) مع أرواح الكفار في سجين الأرض السابعة.

(**وأجاب**) عياض: (**بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتًا، فوافق:**) صادف (**عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على أن كونهم في النار في أوقات دون أوقات قوله**) تعالى: (﴿**النار يعرضون عليها**،) يحرقون بها (﴿**غدوًا وعشيًا**﴾[غافر/٤٦]) صباحًا ومساءً، (**واعترض بأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء، كما هو نص القرآن**) في قوله تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ (**والجواب عنه ما أبداه هو، احتمالاً أن الجنة كانت في جهة يمين آدم، والنار كانت في جهة شماله، وكان يكشف له عنهما،**) وحين مر المصطفى على آدم كشف له عن ذلك، فرأى ما رآه آدم، وإلى هنا جواب عياض، كما في الفتح.

زاد المصنف: (**ولا يلزم من رؤية آدم لها، وهو في السماء؛ أن تفتح لها أبواب السماء ولا تلجها،**) فلا اعتراض على عياض، وإن كان الحافظ في الفتح، إنما ذكر هذا عقب احتمال؛ أن المراد من خرجت من أجسادها حين خروجها، لا أنها مستقرة، ولا يلزم إلى آخر ما هنا، ويأتي كلامه.

(**وفي حديث أبي هريرة عند البزار**) وأبي يعلى، وابن جرير والبيهقي: (**فإذا عن يمينه،**) أي: آدم، (**باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر عن يمينه**

شماله حزن. وهذا ـ لو صح ـ لكان المصير إليه أولى من جميع ما تقدم، ولكن سنده ضعيف. قاله الحافظ ابن حجر.

استبشر، وإذا نظر عن شماله حزن، وهذا لو صح لكان المصير إليه أولى من جميع ما تقدم،) لعدم احتياجه لتأويل، لأن المستفاد منه رؤية البابين حين مروره على آدم، وهو لا يستلزم أن عنده شيئًا من النسم التي رآها عند آدم، لجواز أنه رآها من وراء الأبواب، **(ولكن سنده ضعيف، قاله الحافظ ابن حجر)** في كتاب الصلاة ببعض تصرف من المصنف.

وفيه أيضًا قبل ذكر هذا الحديث الضعيف، ويحتمل أن النسم المرئية هي التي لم تدخل الأجساد بعد، وهي مخلوقة قبل الأجساد، ومستقرها عن يمين آدم وشماله، وقد أعلم بما سيصيرون إليه، فلذلك كان يستبشر إذا نظر إلى من على يمينه، ويحزن إذا نظر إلى من على يساره، بخلاف التي في الأجساد، فليست مرادة قطعًا، وبخلاف التي انتقلت من الأجساد إلى مستقرها، فليست مرادة أيضًا فيما يظهر، وبهذا يندفع الإيراد، ويعرف أن قوله نسم بنيه عام مخصوص، أو أريد به الخصوص انتهى، وهو مبني على أن الأرواح كلها خلقت قبل الأجساد، كما جزم به، ثم إذا أراد الله إحياء شخص أرسل الروح التي سبق في علمه أنها معدة لذلك الجسد.

وقال في الفتح هنا في باب المعراج: وظهر لي الآن احتمال آخر، وهو أن يكون المراد من خرجت من الأجساد حين خروجها إلا أنها مستقرة، ولا يلزم من رؤية آدم لها، وهو في السماء أن تفتح لها أبواب السماء، ولا تلجها.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي ما يؤيده، ولفظه: فإذا أنا بآدم تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة ونفس طيبة، اجعلوها في عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار، فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة، اجعلوها في سجين. ويظهر منه ومن حديث أبي هريرة عدم اللزوم المذكور، وهذا أولى مما جمع به القرطبي في المفهم؛ أن ذلك في حالة مخصوصة اهـ، وهو مخصص للأرواح بالخارجة من الأجساد حين الموت، لا مطلقًا، فهو أيضًا عام مخصوص، أو أريد به الخصوص، وأجاب بعضهم عن الإشكال بحمل الأسودة التي عن شماله على العصاة من الموحدين، لا على الجاحدين، وعضده ببكاء آدم رحمة لهم، ولا يرحم الكفار.

وتعقبه ابن المنير، بأن المؤمنين، برهم وفاجرهم، مطيعهم وعاصيهم من أهل اليمين، وقد فسر الله أصحاب الشمال بالكفار، فقال: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم﴾ [الواقعة/٤١]، وهذا إنما هو لكافر لا حظ له في الإيمان، ولا حجة في بكاء آدم، لأنه ليس فيه استغفار لهم، ولا خلاف أن من مات أبوه كافرًا، وهو مسلم، لا يحرم عليه البكاء عليه، لا سيما الطبيعي والرقة الطبيعية.

وأما قوله في الحديث: ثم صعد بي، حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت عليهما فردا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. إلى قوله: ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد

وقال ابن دحية: فإن قيل: كيف يكون نسمْ السعداء كلهم في السماء، وقد كان حين الإسراء جماعة من الصحابة في الأرض وهم من السعداء، فالجواب أن آدم إنما رآهم في مواضعهم ومقارهم في الأرض، ولكنه يراهم من الجانب الأيمن، فالتقييد للنظر لا للمنظور اهـ، وتبعه ابن المنير وهو واضح.

وقال السهيلي: فإن قيل: كيف رأى عن يمينه أرواح أصحاب اليمين، ولم يكن إذ ذاك منهم إلا نفر قليل، ولعله لم يكن مات تلك الليلة منهم أحد.

وظاهر الحديث يقتضي أنهم جماعة، فالجواب أن الإسراء إن كان منامًا، فتأويله أن ذلك سيكون وإن كان يقظة، فمعناه أن أرواح المؤمنين رآها هنالك، لأن الله يتوفى الخلق في منامهم، فصعد بالأرواح إلى هنالك، فرآها، ثم أعيدت إلى أجسادها انتهى، وهو مبني على تخصيص الأرواح بالخارجة من الأجساد بالموت، ولو بالنوم.

(وأما قوله في الحديث،) أي: حديث لملك بن صعصعة، **(ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية،)** كذا في رواية أبي ذر، للبخاري ولغيره: ثم صعد بي إلى السماء، وهي التي قدمها المصنف، **(فاستفتح، فقيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟، قال: نعم،)** أرسل إليه، **(فقيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح)** الخازن الباب، **(فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت عليهما، فردا)** عليّ السلام، **(ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، إلى قوله: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟، قال: نعم، قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت)** بفتح اللام، وصلت **(فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، وقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن**

السلام وقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح.

فهذه الرواية موافقه لرواية ثابت عن أنس عند مسلم: أن في السماء الأولى؛ آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هٰرون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم.

وخالف ذلك ابن شهاب الزهري في روايته عن أنس عن أبي ذر ـ كما في أول الصلاة من البخاري أيضًا ـ أنه لم يثبت كيف منازلهم. وقال فيه: وإبراهيم في السماء السادسة.

وفي رواية شريك عن أنس أن إدريس في الثانية وهٰرون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل

الصالح،) وقصد المصنف زيادة البيان لطول العهد بسوق لفظ الحديث، وإلا فالأوجز لو قال، وأما ما ذكره في الحديث من أماكن الأنبياء في السموٰت.

(**فهذه الرواية موافقة لرواية ثابت**) البناني، (**عن أنس، عند مسلم**،) وفيه: (**أن في السماء الأولى آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هٰرون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم**) فهذا بيان للموافقة، محكي بالمعنى.

(**وخالف ذلك ابن شهاب الزهري في روايته، عن أنس، عن أبي ذر، كما في أول الصلاة من البخاري أيضًا**).

وقد خرج مسلم حديثه أيضًا في الإيمان، وذكر (**أنه لم يثبت**) من الإثبات أبو ذر، (**كيف منازلهم**،) أي: لم يعين أبو ذر، لكل نبي سماء، والمراد منازل الجميع، فلا ينافي أنه قال آدم في السماء الدنيا.

(**وقال فيه: وإبراهيم في السماء السادسة**،) ولفظ البخاري، قال أنس: فذكر، أي: أبو ذر، أنه وجد في السموٰت آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة.

(**وفي رواية شريك، عن أنس**) في الصحيحين: ثم عرج به إلى السابعة، فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء، قد سماهم وعيت منهم (**أن إدريس في الثانية، وهٰرون في الرابعة، وآخر في الخامسة، لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى**،) أي: بسبب أن له فضل كلام الله إياه، وفيه دلالة على أن شريكًا

كلام اللّٰه تعالى. وسياقه يدل على أنه لم يضبط منازلهم أيضًا كما صرح به الزهري.

ورواية من ضبط أولى، لاسيما من اتفاق قتادة وثابت، وقد وافقهما يزيد بن أبي مٰلك عن أنس، إلا أنه خالف في إدريس وهٰرون، فقال: هٰرون في الرابعة، وإدريس في الخامسة.

ووافقهم أبو سعيد الخدري إلا أن في روايته: يوسف في الثانية، وعيسى ويحيى في الثالثة.

والمشهور في الروايات: أن الذي في السابعة هو إبرٰهيم، وأكد ذلك في حديث مٰلك بن صعصعة: بأنه كان مسندًا ظهره إلى البيت المعمور.

ضبط كون موسى في السابعة، فيتعين أحد الجموع الآتية.

(**وسياقه يدل على أنه لم يضبط منازلهم،**) أي: جميعهم، وإلا فقد صرح بقوله: وعيت، أنه ضبط أربعة، (**أيضًا، كما صرح به الزهري**) محمد بن مسلم بن شهاب في حديث أبي ذر.

(**ورواية من ضبط أولى،**) أحق بتقديمها على من لم يضبط، (**لا سيما**) مع ما حصل فيها من القوة (**من**) أجل (**اتفاق،**) ولفظ الفتح مع اتفاق فلا يحتاج لهذا التعسف (**قتادة**) بن دعامة عند الشيخين، (**وثابت**) البناني عند مسلم، (**وقد وافقهما يزيد بن أبي مٰلك،**) هو ابن عبد الرحمٰن، نسب إلى جده الهمداني (بالسكون) الدمشقي، القاضي، صدوق، ربما وهم، مات سنة ثلاثين ومائة أو بعدها، وله أكثر من سبعين سنة، روى له أبو داود، والنسائي وابن ماجه، (**عن أنس: إلا أنه خالف في إدريس وهٰرون، فقال هٰرون في الرابعة،**) فوافق شريكًا في ذلك، (**وإدريس في الخامسة،**) فخالف قتادة وثابتًا في أنه في الرابعة، وشريكًا في أنه في الثانية، (**ووافقهم أبو سعيد الخدري**) عند ابن مردويه، وكان الأولى وافقهما بتثنية الضمير، عائدًا على قتادة وثابت، وجمعه قد يوهم موافقة أبي ذر، وشريك، وليس بمراد، فإن رواية أبي سعيد إنما وافقت رواية قتادة وثابت، (**إلا أن في روايته يوسف في الثانية، وعيسى ويحيى في الثالثة،**) وجمع باحتمال الانتقال لا التعدد، لأنه خلاف الصحيح.

(**والمشهور في الروايات**) كلها، غير روايتي أبي ذر وشريك، (**أن الذي في السابعة هو إبرٰهيم.**)

قال الحافظ: وهو الأرجح، (**وأكد:**) قوى (**ذلك في حديث مٰلك بن صعصعة، بأنه كان مسندًا ظهره إلى البيت المعمور.**)

فمع التعدد: فلا إشكال.

ومع الاتحاد فقد جمع: بأن موسى كان حالة العروج في السادسة وإبراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعصعة. وعند الهبوط: كان موسى في السابعة، لأنه لم يذكر في القصة أن إبراهيم كلمه في شيء مما يتعلق بما فرض على أمته من الصلاة، كما كلمه موسى عليه السلام، والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها، لأنه هو الذي خاطبه في ذلك، كما ثبت في جميع الروايات.

ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأصعد معه إلى السابعة تفضيلاً

قال الحافظ: وهو في السابعة، بلا خلاف، وما جاء عن علي أنه في السادسة عند شجرة طوبى، فإن ثبت، حمل على البيت الذي في السادسة بجانبه شجرة طوبى، لأنه جاء عنه؛ أن في كل سماء بيتًا يحاذي الكعبة، وكل منهما معمور بالملائكة، وكذا القول فيما جاء عن الربيع بن أنس وغيره، أن البيت المعمور في السماء الدنيا، فإنه محمول على أول بيت يحاذي الكعبة من بيوت السموات، **(فمع التعدد)** أي: مع القول بتعدد المعراج، **(فلا إشكال)** بين الثابت المشهور في الروايات أنه في السابعة، وبين روايتي أبي وشريك؛ أذرنه في السادسة يحمل كل على مرة، **(ومع الاتحاد)** الذي هو الصحيح وقول الجمهور.

(فقد جمع بأن موسى كان حالة العروج في السادسة، وإبراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعصعة، وعند الهبوط كان موسى في السابعة؛) بأن يكون صعد معه أو بعده، لأجل المراجعة في أمر الصلاة، **(لأنه لم يذكر في القصة، أن إبراهيم كلمه في شيء مما يتعلق بما فرض على أمته من الصلاة،)** لكن لا يلزم من عدم الكلام أن يكون في السادسة حين الرجوع الذي هو تمام الجمع بين الروايتين، إذ تركه وإن كان في السابعة، لأن الخليل شأنه التسليم لخليله، **(كما كلمه موسى عليه السلام،)** وجزاه عنا خيرًا، **(والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط،)** مما هو أعلى منها.

(فناسب أن يكون موسى بها، لأنه هو الذي خاطبه في ذلك،) أي: أمر الصلاة، **(كما ثبت في جميع الروايات،)** لأن شأن الكليم التكلم، ولا بأس بهذا الجمع، لكن قد علمت أن تمامه بوجوده إبراهيم حين رجع في السادسة، وأن تعليله بعدم تكلمه في الصلاة لا ينهض، بل قد يخدش فيه قوله في حديث أنس عند ابن أبي حاتم: ثم انجلت عنه السحابة، وأخذ بيده، فانصرف سريعًا، فأتى على إبراهيم، فلم يقل شيئًا. فظاهر هذا أنه مر على إبراهيم قبل موسى.

(ويحتمل) في الجمع أيضًا، **(أن يكون لقي موسى في السادسة، فأصعد معه إلى**

له على غيره من أجل كلام اللَّه تعالى، وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة. قاله في فتح الباري. وقال: إن النووي أشار إلى شيء من ذلك.

وفي رواية شريك عن أنس في قصة موسى: لم أظن أن أحدًا يرفع علي.

قال ابن بطال: فهم موسى عليه الصلاة والسلام من اختصاصه بكلام اللَّه تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر: لقوله تعالى: **﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾** [الأعراف/١٤٤] أن المراد بالناس هنا: البشر كلهم، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحد، فلما فضل اللَّه تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام بما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى وغيره بذلك.

السابعة، تفضيلاً له على غيره من أجل كلام اللَّه تعالى، وظهرت فائدة ذلك مع كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة،) وهو قريب من الاحتمال قبله، ولم يعرج في هذا أيضًا على رواية: وإبراهيم في السادسة، **(قاله في فتح الباري)**.

(وقال: إن النووي أشار إلى شيء من ذلك،) وجمع الكرماني في كتاب الصلاة، بأنه رأى إبراهيم في السادسة، ثم ارتقى إبراهيم إلى السابعة، ليراه في مكانين تعظيمًا له، وتبعه شيخ الإسلام زكريا، وهو عندي أولى من الاحتمالين.

(وفي رواية شريك، عن أنس في قصة موسى:) تلو قوله بتفضيل كلام اللَّه، فقال موسى: رب **(لم أظن)** فيما مضى، **(أحدًا يرفع علي)**، لا في الماضي ولا في المستقبل، ولفظ الصحيح: لم أظن أن يرفع علي أحد.

قال المصنف: بضم التحتية وفتح الفاء، ولأبي ذر عن الحموي والمستملي: أن ترفع علي أحدًا بالنصب وفتح الفوقية.

(قال ابن بطال: فهم موسى عليه الصلاة والسلام من اختصاصه بكلام اللَّه تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر، لقوله تعالى:) تعليل لفهم اختصاصه، **(﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾** [الأعراف/١٤٤]، أن المراد بالناس هنا: البشر كلهم)، من في زمنه ومن تقدمه ومن تأخره، **(وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحد، فلما فضل اللَّه تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام بما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى وغيره بذلك،)** فكان المراد بالناس ناس زمانه، لا جميع البشر.

وفي حديث أبي سعيد قال موسى: تزعم بنو إسرائيل أني أكرم الخلق على اللّه، وهذا أكرم على اللّه مني. زاد الأموي في روايته: ولو كان هذا وحده لهان علي، ولكن معه أمته، وهم أفضل الأمم عند اللّه.

وفي حديث لملك بن صعصعة: ولما جاوزته - بقي موسى - يبكي، فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب، هذا غلام بعثته من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي.

ولم يكن بكاء موسى حسدًا، معاذ اللّه، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع من آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه اللّه تعالى، بل كان آسفًا على ما فاته من

(**وفي حديث أبي سعيد**) عند البيهقي وغيره، (**قال موسى: تزعم بنو إسرائيل إني أكرم الخلق على اللّه، وهذا أكرم على اللّه مني**،) وأخرج البزار، والبيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة، قال موسى: تزعم بنو إسرائيل إني أكرم بني آدم على اللّه، وهذا رجل من بني آدم خلفني في دنيا، وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبالِ، ولكن مع كل نبي أمته.

(**زاد**) سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاصي بن أمية، (**الأموي**) بفتح الهمزة، على غير قياس، وضمها على القياس، وهو الأشهر عندهم، كما في المصباح نسبة لجده الأعلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وجزم الجوهري بالفتح، ثم قال: وربما ضموا (**في روايته**) لحديث المعراج في مغازيه، (**ولو كان هذا وحده لهان عليّ، ولكن معه أمته، وهم أفضل الأمم عند اللّه**،) ومعلوم أن هذا من الغبطة لا الحسد، معاذ اللّه.

(**وفي حديث لملك بن صعصعة: ولما جاوزته بقي موسى يبكي، فنودي**) لفظ الحديث، كما مر: فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟، وكذا هو لفظ البخاري في المعراج، وبدء الخلق، وكذا لفظ مسلم وغيره، (**ما يبكيك؟، قال:**) قال ابن أبي جمرة: الظاهر أن قائل ذلك له الباري تبارك وتعالى، يدل على هذا قوله في الجواب، (**رب هذا غلام بعثته من بعدي، يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي**،) وفي رواية أبي عبيدة بن عبد اللّه، ابن مسعود، عن أبيه أنه مر بموسى عليه السلام يرفع صوته، فيقول: أكرمته وفضلته، فقال جبريل: هذا موسى، قلت: من يعاتب؟، قال: يعاتب ربه، قلت: ويرفع صوته على ربه؟، قال: إن اللّه قد عرف له حدته.

قال العلماء: (**ولم يكن بكاء موسى حسدًا، معاذ اللّه**،) مفعول مطلق حذف عامله، أي: أعوذ، أي: أعتصم باللّه معاذًا من توهم أن بكاءه حسد، (**فإن الحسد في ذلك العالم منزوع من آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه اللّه تعالى، بل كان آسفًا على ما فاته من الأجر**

الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجات له بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم، المستلزمة لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ، مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأمة.

وقال العارف ابن أبي جمرة: قد جعل اللّٰه تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرأفة والرحمة لأمتهم، وركبهم على ذلك، وقد بكى نبينا ﷺ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: هذا رحمة وإنما يرحم اللّٰه من عباده الرحماء، والأنبياء

الذي يترتب عليه رفع الدرجات له بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزمة لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من تبعه) من غير أن ينقص من أجورهم شيء، **(ولهذا كان من أتبعه في العدد دون من أتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأمة، وقال العارف ابن أبي جمرة: قد جعل اللّٰه تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرأفة والرحمة لأمتهم وركبهم)** أي: ركب بنيتهم في أصل خلقتهم، مجبولة **(على ذلك،)** حتى كأنهم خلقوا من الرأفة والرحمة، **(وقد بكى نبينا فقيل له: ما يبكيك؟)**.

روى الشيخان عن أسامة: أرسلت بنت النبي ﷺ: أن ابني قد احتضر، فأشهدنا، فأرسل يقرىء السلام، ويقول: إن للّٰه ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فدفع إليه الصبي، فأقعده في حجره، ونفسه تقعقع، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول اللّٰه ما هذا؟، **(قال: هذا رحمة)** جعلها اللّٰه في قلوب عباده، **(وإنما يرحم اللّٰه من عباده الرحماء،)** روي بالنصب مفعول يرحم، على أن ما في إنما كافة، أو أداة حصر، وبالرفع خبر أن على أنها موصولة بمعنى الذين، والرحماء جمع رحيم من صيغ المبالغة، فمقتضاه أن رحمة اللّٰه تختص بالمتصف بالرحمة الكاملة، بخلاف من فيه رحمة ما.

لكن قضية خبر أبي داود الراحمون يرحمهم اللّٰه، شموله له، ورجح، وإنما بولغ في الأول، لأن ذكر الجلالة دال على العظمة، فناسب فيه التعظيم والمبالغة.

وقال شيخنا: لعل مراد الحديث أنه يرحم، كثير الرحمة رحمة تامة، بحيث تمنع من قامت به من العذاب، فلا يرد أنه يرحم الكافر بتخفيف العذاب عنه، وبتأخيره في سعة عيش وصحة، وغيرهما إلى وقت قبض روحه، وقد يخفف عنه عذاب غير الكفر.

عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم، فلأجل ما كان بموسى عليه الصلاة والسلام من الرحمة واللطف بكى إذ ذاك رحمة منه لأمته، لأن هذا وقت إفضال وكرم وجود، لعل أن يكون وقت القبول والإفضال فيرحم الله أمته ببركة هذه الساعة.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا، وأمته لا تخلو من قسمين: قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر، فالذي مات على الإيمان لا بد له من دخول الجنة، والذي مات على الكفر لم يدخل الجنة أبدًا، فبكاؤه لأجل ما ذكر لا يسوغ، لأن الحكم فيهم قد مرَّ ونفذ.

قيل: إن الله تعالى قدر قدره على قسمين، فقدر قدرًا وقدر أن ينفذ على كل الأحوال، وقدر قدرًا وقدر أن لا ينفذ، ويكون رفعه بسبب دعاء أو صدقة أو غير ذلك، فلأجل ما ركب في موسى عليه الصلاة والسلام من اللطف ....

(والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم، فلأجل ما كان بموسى عليه الصلاة والسلام من الرحمة واللطف بكى إذ ذاك رحمة منه لأمته، لأن هذا وقت إفضال وكرم وجود، فرجًا) حصول ما يتمناه من الثواب لأمته، فقال: (لعل أن يكون،) والرجاء يستعمل بمعنى التمني والخوف، لأن الراجي يخاف أن لا يدرك ما يترجاه، (وقت القبول والإفضال،) أي: الزيادة من النعم والخير على العباد، (فيرحم الله أمته ببركة هذه الساعة،) لأن لله أوقاتًا يتجلى فيها بالرحمة على العباد، فلا يرد فيها سائلاً ولا يمنع راجيًا، (فإن قال قائل: كيف يكون هذا:) الواقع من موسى، (وأمته لا تخلو من قسمين) جملة حالية، مقررة للإشكال، (قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر، فالذي مات على الإيمان لا بد له من دخول الجنة،) وإن كثر عصيانه في الدنيا، (والذي مات على الكفر لا يدخل الجنة أبدًا،) ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء/٤٨]، (فبكاؤه لأجل ما ذكر لا يسوغ، لأن الحكم فيهم قد مر ونفذ،) عطف تفسير، (قيل) في الجواب: (إن الله تعالى قدر قدره على قسمين، فقدر قدرًا، وقدر أن ينفذ على كل الأحوال،) فلا بد من وقوعه، (وقدر قدرًا، وقدر أن لا ينفذ،) أي: أن لا يوجد خارجًا، ولكن (يكون رفعه بسبب دعاؤه أوصدقه، أو غير ذلك) مما علق عليه في الأول، وحصل ذلك المعلق عليه، (فلأجل ما ركب في موسى عليه الصلاة والسلام من اللطف والرحمة بالأمة، طمع) في ذلك، وقال: (لعل أن يكون ما اتفق لأمته من القدر الذي

والرحمة بالأمة طمع لعل أن يكون ما اتفق لأمته من القدر الذي قدره الله تعالى وقدر ارتفاعه بسبب الدعاء والتضرع إليه، وهذا وقت يرجى فيه التعطف والإحسان من الله تعالى، لأنه وقت أسرى فيه بالحبيب الكريم، ليخلع عليه خلع القرب والفضل العميم، فطمع الكليم لعل أن يحلق لأمته نصيبًا من هذا الخير العظيم وقد قال نبينا ﷺ: إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله. وهذه نفحة من النفحات فتعرض لها موسى، فكان أمرًا قد قدر، والأسباب لا تؤثر إلا بما سبقت

قدره الله تعالى، وقدر ارتفاعه بسبب الدعاء والتضرع إليه، وهذا وقت يرجى فيه التعطف والإحسان من الله تعالى، لأنه وقت أسرى فيه بالحبيب الكريم ليخلع عليه خلع:) بكسر ففتح، جمع خلعة، بزنة سدرة وسدر، **(القرب والفضل العميم، فطمع الكليم، لعل أن يلحق لأمته نصيبًا من هذا الخير العظيم).**

(وقد قال نبينا ﷺ: إن لله نفحات، فتعرضوا،) أي: تصدوا، أو من التعرض، وهو الميل إلى الشيء من أحد جوانبه، **(لنفحات الله،)** أي: اسلكوا طرقها حتى تصير عادة، وطبيعة وسجية، وتعاطوا أسبابها، وهو فعل الأوامر، وتجنب المناهي، رجاء أن تهب من رياح رحمته نفحة بسعدكم، أو المعنى تعرضوا لها بطلبكم منه.

قال الصوفية: التعرض للنفحات: الترقب لورودها بدوام اليقظة والانتباه من سنة الغفلة، حتى إذا مرت، نزلت بفناء القلوب.

قال بعضهم: ومقصود الحديث إن لله فيوضًا ومواهب، تبدو لوامعها من أبواب خزائن الكرم والمنن في بعض الأوقات، فتهب فورتها ومقدماتها، كالأنموذج لما وراءها من مدد الرحمة، فمن تعرض لها مع الطهارة الظاهرة والباطنة، بجمع همة وحضور قلب، حصل له منها في دفعة واحدة، ما يزيد على النعم الدارة في الأزمنة الطويلة على طول الأعمار، فإن خزائن الثواب بمقدار على طريق الجزاء، وخزائن المنن، النفحة منها تفوق، فما يعطى على الجزاء له مقدار ووقت معلوم، ووقت النفحة مبهم في الأزمنة، والساعات ليداوم على الطلب بالسؤال، كما في ليلة القدر، وساعة الجمعة، فقصد أن يكونوا متعرضين له في كل الأوقات، قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم، وفي وقت التصرف في أشغال الدنيا، فإنه إذا دام أوشك أن يوافق الوقت الذي ينفخ فيه فيسعد بسعادة الأبد، فقال ﷺ: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات، تصيب من يشاء من عباده» الحديث، أخرجه البيهقي من حديث أنس وأبي هريرة.

(وهذه نفحة من النفحات،) عطية من العطيات، قال المصباح: النفحة: العطية، وقيل: مبدأ شيء قليل من كثير، وفي المصباح: نفح الطيب: فاح، ونفحت الريح: هبت، **(فتعرض لها**

القدرة بأنها فيه تؤثر، وما كان قضاء نافذًا لا تؤثر فيه ولا ترده الأسباب، حتم قد لزم.

وفي بكائه عليه الصلاة والسلام وجه آخر، وهو البشارة لنبينا ﷺ وإدخال السرور عليه، وذلك قول موسى عليه الصلاة والسلام ـ الذي هو أكثر الأنبياء أتباعًا ـ: إن الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ أكثر مما يدخلها من أمتي.

وأما قول موسى عليه الصلاة والسلام: لأن غلامًا ولم يقل غير ذلك من الصيغ، فإشارة إلى صغر سنه بالنسبة إليه.

وفي القاموس: الغلام، الطار الشارب، والكهل ضد.

وقال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلامًا، ما دامت فيه

موسى، **فكان أمرًا قد قدر، والأسباب لا تؤثر إلا بما سبقت القدرة؛ بأنها فيه تؤثر)** من تعليقه على سبب وقوعه، **(وما كان قضاء نافذًا لا تؤثر فيه، ولا ترده الأسباب،)** لأنه **(حتم قد لزم،)** ومثال ذلك دعاء النبي ﷺ لأمته، أن يظهر عليهم عدوّ من غيرهم، وأن لا يهلكهم بالسنين، فأعطيهما، وأن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعها، فأستجيب له في الاثنتين دون الثالثة، وقيل له: هذا أمر قدرته، أي: أنفذته، فكانت الاثنتان من القدر الذي قدره اللّٰه، وقدر أن لا ينفذه بسبب الدعاء، والثالثة من القدر الذي قدره، وقدر إنفاذه على كل الأحوال لا يرده راد.

(وفي) حكمة **(بكائه،)** أي: موسى، **(عليه الصلاة والسلام: وجه آخر، وهو البشارة لنبينا ﷺ وإدخال السرور عليه،)** بكثرة أمته المستلزمة لكثرة أجره، **(وذلك قول موسى عليه الصلاة والسلام، الذي هو أكثر الأنبياء أتباعًا، أن الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ أكثر مما يدخلها من أمتي،)** فبكاؤه حين جاوزه المصطفى، وقبل أن يبعد عنه، لأجل أن يسمعه هذه البشارة، إذ لو لم يكن لذلك لترك البكاء حتى يبعد عنه، فلا يسمعه، ولم يبك حين كان معه، بل رحب به وأثنى عليه، ودعا له بخير لئلا يشوش عليه.

(وأما قول موسى عليه الصلاة والسلام: لأن غلامًا، ولم يقل غير ذلك من الصيغ،) كرجلاً، أو نبيًا، **(فإشارة إلى صغر سنه،)** أي: المصطفى، **(بالنسبة إليه،)** إلى موسى، **(وفي القاموس: الغلام الطار،)** أي: النابت، **(الشارب. والكهل ضد،)** فيحتمل أنه استعمله بمعنى الكهل لاستعماله فيه وفي الكهل.

(وقال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن،) أي: البالغ مبلغ الرجال، بأن بلغ أشده، واستوت لحيته **(غلامًا، ما دامت فيه بقية من القوّة في الكهولة،)** إشارة إلى مدحه

بقية من القوة في الكهولة.

قال في فتح الباري: ويظهر لي أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا عليه السلام من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم، ولا اعتراه في قوته نقص، حتى إن الناس في قدومه المدينة لما رأوه مردفًا أبا بكر، أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ، مع كونه عليه السلام في العمر أسن من أبي بكر والله أعلم. انتهى. وقد ذكرت ذلك في الهجرة من المقصد الأول.

بقوة الشاب مع أنه كهل.

وقال ابن أبي جمرة: العرب إنما يطلقون على المرء غلامًا إذا كان سيدًا فيهم، فلأجل ما في هذا اللفظ من الاختصاص على غيره من ألفاظ الأفضلية، ذكره موسى دون غيره تعظيمًا للنبي ﷺ.

(قال في فتح الباري: ويظهر لي أن موسى عليه السلام، أشار إلى ما أنعم الله به. على نبينا عليه السلام، من استمرار القوة في الكهولة، إلى أن دخل في سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم، ولا اعتراه في قوته نقص،) وهذا غير كلام الخطابي، لأنه قال بقية من القوة، وهذا صرح ببقاء قوته كلها، **(حتى أن الناس في قدومه المدينة لما رأوه مردفًا أبا بكر)** على راحلته، وإن كان له راحلة، إكرامًا له، أو على راحلة أخرى، قال تعالى: ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ [الأنفال/٩]، أي: يتلو بعضهم بعضًا، قاله الداودي.

ورجح ابن التين الأوّل، وقال: لا يصح الثاني، لأنه يلزم منه أن يمشي أبو بكر بين يديه ﷺ، ورده الحافظ؛ بأنه إنما يلزم ذلك لو جاء الخبر بالعكس، فأما، ولفظه وهو مردف أبا بكر فلا.

وفي البخاري من وجه آخر، عن أنس: فكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه، **(أطلقوا عليه اسم الشاب، وعلى أبي بكر اسم الشيخ)**.

قال أنس: أقبل ﷺ إلى المدينة، وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، والنبي ﷺ شاب لا يعرف، الحديث في البخاري، **(مع كونه عليه السلام في العمر أسن من أبي بكر)** بأزيد من عامين، لأنه استكمل بمدة خلافته عمر المصطفى، **(والله أعلم انتهى. وقد ذكرت ذلك)** أي: حديث أنس المذكور **(في الهجرة من المقصد الأول)**.

قال الحافظ: وقد وقع من موسى في هذه القصة من مراعاة جانب النبي ﷺ؛ أنه أمسك

وقد وقع في حديث أبي هريرة عند الطبري في ذكر إبراهيم: فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي.

وفي رواية مسلم من حديث ثابت عن أنس: ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فإذا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، إلى يوم القيامة وفيه: فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي

عن جميع ما وقع له حتى فارقه النبي ﷺ أدبًا معه وحسن عشرة، فلما فارقه بكى، وقال ما قال. انتهى.

(وقد وقع في حديث أبي هريرة عند الطبري) محمد بن جرير، (في ذكر إبراهيم، فإذا هو برجل أشمط،) أي: أبيض الرأس يخالط سواده، (جالس عند باب الجنة على كرسي،) وفي حديث أبي سعيد: فإذا بإبراهيم خليل الرحمٰن مسندًا ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال.

(وفي رواية مسلم من حديث ثابت) البناني، (عن أنس، ثم عرج) بالبناء للفاعل وضمير، (بنا) للمصطفى، وجبريل، ويجوز بناؤه للمفعول، (إلى السماء السابعة، فإذا إبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور).

قال أبو عبيدة: معنى المعمور: الكثير الغاشية، ويقال له الضراح (بضم المعجمة)، واهمًا لها غلط بين، كما في ربيع الأبرار، سمي به، لأنه ضرح عن الأرض، أي: بعد.

قال الحافظ: فيه جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وبغيره، لأن البيت المعمور كالكعبة في أنه قبلة من كل جهة، وقد أسند إبراهيم ظهره إليه. انتهى.

وقال التلمساني قيل: فيه دلالة على أن الأفضل في غير الصلاة إسناد الظهر للقبلة، وقيل: الأفضل استقبالها، ولعل إبراهيم أسند ظهره ليتوجه للمصطفى ويخاطبه. انتهى.

وقد يقال: إنما دل على الجواز لا على أنه أفضل، كيف وفي الحديث: «أشرف المجالس ما استقبل به القبلة» رواه الطبراني.

(وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك،) للعبادة، (ثم لا يعودون إليه،) لأن حجه مرة، كفرض الحج علينا، أو لإشغال غير دخوله، هذا في مسلم، وزاد ابن إسحٰق من حديث أبي سعيد إلى يوم القيامة، هكذا بينه في الفتح، فما أوهمه قوله (إلى يوم القيامة) من أنه في رواية مسلم خطأ نشأ عن سقط، ثم وجدت في نسخ صحيحة عدمها، ووقعت هذه الزيادة عند البخاري في بدء الخلق، مضمومة إلى رواية قتادة عن أنس، عن مٰلك بن صعصعة، بلفظ: إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم، وهي مدرجة من رواية قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة، كما

شطر الحسن.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وأبي هريرة عند الطبري: فإذا أنا برجل أحسن ما خلق اللّه: قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع الناس، لكن روى

بينه في الفتح، وإليه أشار البخاري، وقد قدمته، وآخر روي بالرفع بتقدير ذلك آخر، والنصب على الظرف.

قال عياض: والرفع أجود، قال الحافظ: واستدل به على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه لا يعرف من جميع العوالم من يتجدد من جنسه في كل يوم سبعون ألفًا، غير ما ثبت من الملائكة في هذا الخبر. انتهى.

ويأتي مزيد لهذا في المصنف، وسئل علي عنه، فقال: بيت في السماء السابعة بحيال البيت، حرمته كحرمة هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه، أخرجه ابن راهويه، وحكمه الرفع، إذ لا يقال رأيًا.

(**وفيه**،) أي: حديث ثابت، المذكور عن أنس: ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا، (**فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن**،) أي: نصفه، والناس كلهم بعده شركاء في النصف الآخر، هذا ظاهر بادي الرأي، لكن الحقيقة، والمراد منه أنه أوتي شطر الحسن الذي أوتي المصطفى جملته، قاله ابن المنير.

وقال بعض شراح المصابيح: المراد بالشطر البعض، لأن الشطر، كما يراد به نصف الشيء، قد يراد به بعضه مطلقًا.

قال الطيبي: وقد يراد به الجهة أيضًا، نحو: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ [البقرة/ ١٥٠]، أي: جهة من الحسن، ومسحة منه، كما يقال على وجهه مسحة ملك، ومسحة جمال، أي: أثر ظاهر، ولا يقال ذلك إلا في المدح.

(**وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وأبي هريرة عند الطبري**) محمد بن جرير: (**فإذا أنا برجل**،) يعني يوسف، (**أحسن ما خلق اللّه، قد فضل**،) زاد، (**الناس بالحسن، كالقمر ليلة البدر**،) أربعة عشر، وهو أعلى ما يكون البدر (**على سائر الكواكب، وهذا ظاهره؛ أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع الناس، لكن**) هذا الظاهر ليس بمراد، إذ لا نزاع أن المصطفى أحسن منه.

وقد (**روى الترمذي من حديث أنس: ما بعث اللّه نبيًا إلا حسن الوجه، حسن الصوت**،

الترمذي من حديث أنس: ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا. فعلى هذا يحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ. ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه.

وحمل ابن المنير حديث الباب على أن المراد: أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ.

وأما قوله في الحديث عن إدريس: ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح فيحمل على أخوة النبوة والإسلام، لأنها تجمع الوالد والولد، وقال ابن المنير: وفي طريق شاذة: مرحبًا بالابن الصالح، وهذه هي القياس، لأنه جده الأعلى.

وكان نبيكم أحسنهم وجهًا، وأحسنهم صوتًا،) فصرح بأنه أحسن من يوسف وغيره.

(فعلى هذا يحمل حديث المعراج،) المذكور من رواية أبي سعيد، وأبي هريرة، **(على أن المراد غير النبي ﷺ،)** فلا تعارض بينه وبين حديث أنس المذكور.

(ويؤيده قول من قال) من أهل الأصول، **(أن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه، وحمل ابن المنير حديث الباب،)** المروي في مسلم، **(على أن المراد؛ أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا،)** أي: أوتي جملته، كما عبر به ابن المنير قائلاً، فالنبي ﷺ قد بلغ الغاية، ويوسف عليه السلام بلغ نصفها، قال: ويحقق هذا حديث ما بعث الله نبيًا، فذكره، أو المراد به البعض، أو الجهة، كما مر عن الطيبي وغيره.

(وأما قوله في الحديث عن إدريس، ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح،) فسماه بالأخ، مع أنه جد له أعلى، لأنه إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، فكان قياسه أن يقول بالابن، كما قال إبراهيم وآدم، **(فيحمل على أخوة النبوة والإسلام، لأنها تجمع الوالد والولد،)** فلا إشكال في خطابه له بالأخوة، لأنه، كما هو والده نسبا أخوه في النبوة والإسلام، وعدل للأخوة تلطفًا وتأدبًا.

(وقال ابن المنير: وفي طريق شاذة: مرحبًا بالابن الصالح،) هكذا ذكره في الفوائد من معراجه، وقال قبل ذلك في أوائله أكثر الطرق على أنه خاطبه بالأخ، وقال لي ابن أبي الفضل: صحت لي طريق أنه خاطبه بالابن الصالح. انتهى، وكأنه بين مراده أوّلاً، فالشاذ ما خالف فيه الثقة غيره، **(وهذه هي القياس،)** وإن قال بعضهم: في صحتها نظر، **(لأنه جده**

وقيل: إن إدريس الذي لقيه ليس هو الجد المشهور، ولكنه إلياس، فإن كان كذلك ارتفع الإشكال.

فإن قلت: لم يكن هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السموات دون غيرهم من الأنبياء؟

وما وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء تخصه؟

ولم كان في السماء الثانية بخصوصها اثنان؟

أجيب عن الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، بأنهم أمروا بملاقاة

الأعلى،) إذ هو سبط شيث، كما علم، وجد أبي نوح بن لمك (بفتح اللام وإسكان الميم وكاف)، ابن متوشلخ (بفتح الميم، وشد الفوقية مضمومة، وسكون الواو، وفتح المعجمة، واللام آخره معجمة)، ابن خنوخ، وهو إدريس، سمي به لكثرة درسه للصحف؛ على أنه عربي مشتق من الدراسة، وقيل: سرياني.

(**وقيل: إن إدريس الذي لقيه ليس هو الجد المشهور، ولكنه إلياس)** بن ياسين، سبط هرون أخي موسى، بعث بعده، ويسمى إدريس أيضًا، لأنه قرىء إدريس وإدراس مكان إلياس.

وفي البخاري: يذكر عن ابن مسعود، وابن عباس؛ أن إدريس هو إلياس، واختار هذا القول ابن العربي وتلميذه السهيلي، لحديث المعراج حيث سماه أخًا، **(فإن كان كذلك ارتفع الإشكال،)** وإن كان هو الجد الأعلى، فيحمل على أخوة النبوة والإسلام، لأنها تجمع الوالد والولد، وإنما خص إبراهيم ونوح، وآدم بالأبوة لعرف خاص، كما يشتهر الإنسان بأحد أجداده دون من سواه من الأعلين والأدنين، كاشتهار محمد بن إدريس بالشافعي، نسبة إلى أحد أجداده شافع، وهكذا أسماء القبائل كلها، يشتهر واحد من طبقة الأجداد، فينسب إليه الأولاد دون من فوقه وتحته، هذا بقية كلام ابن المنير.

(فإن قلت: لم كان هؤلاء الأنبياء) الثمانية، المذكورون في حديث لملك بن صعصعة: آدم، فيحيى وعيسى، فيوسف، فإدريس، فهرون، فموسى، فإبراهيم **(عليهم الصلاة والسلام في السموات دون غيرهم من الأنبياء،)** لعل المراد أنه إنما وجد هؤلاء دون غيرهم في السموات، وإلا، فكونه مر على هؤلاء لا يلزم منه أن لا يكون فيها غيرهم، ولا يأت نص بنفي كون غيرهم فيها.

(وما وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء تخصه، ولم كان في السماء الثانية بخصوصها اثنان) يحيى وعيسى، **(أجيب عن الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، بأنهم أمروا بملاقاة نبينا ﷺ، فمنهم من أدركه من أول وهلة، ومنهم من تأخر فلحقه، ومنهم**

نبينا ﷺ، فمنهم من أدركه من أول وهلة، ومنهم من تأخر فلحقه، ومنهم من فاته.

وقيل: إشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه، من نظير ما وقع لكل منهم:

فأما آدم عليه السلام فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض، بما سيقع لنبينا ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة، وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان عاقبة كل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه.

من فاته) على عرف الناس، إذا تلقوا الغائب مبتدرين للقائه، فلا بد غالبًا أن يسبق بعضهم بعضًا، ويصادف بعضهم اللقاء، ولا يصادف بعضهم، وإلى هذا أشار ابن بطال.

قال السهيلي: فلم يصنع شيئًا. انتهى، لكن هذا الجواب لا يطابق سؤال المصنف إلا بتقدير مضاف، أي: لم كان انتظار هؤلاء لملاقاة النبي في السموات، فحذف المضاف لفهمه من الجواب.

وفي فتح الباري اختلف في حكمة اختصاص كل منهم بالسماء التي التقاه بها، فقيل: ليظهر تفاضلهم في الدرجات، وقيل: لمناسبة تتعلق بالحكمة في الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، فقيل: أمروا بملاقاته، فمنهم من أدركه من أول وهلة، ومنهم من تأخر فلحق، ومنهم من فاته، وهذا زيفه السهيلي، فأصاب، انتهى. فلو أتى المصنف بهذا كان أفيد مما ذكره، وأسلم من الإيراد.

(وقيل:) الحكمة في الاقتصار على المذكورين، **(إشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه من نظير ما وقع لكل منهم،)** ووجه الإشارة؛ أن رؤيته لصورهم كالفال، فتفسر رؤية كل واحد بما يشبه ما وقع له، فهو تنبيه على الحالات الخاصة بهم، وتمثيل بما سيقع للمصطفى مما اتفق لهم مما قصه الله عنهم في كتابه، والنبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن، ويستدل به على حسن العاقبة، وبالضد من ذلك، والفأل في اليقظة نظير الرؤيا في المنام، وأهل التعبير يقولون: من رأى نبيًا من الأنبياء بعينه في المنام، فإن رؤياه تؤذن بما يشبه من حال ذلك النبي من شدة أو رخاء، أو غير ذلك من الأمور التي أخبر بها عن الأنبياء في القرآن والحديث، أشار إلى هذا ابن المنير وغيره.

(فأما آدم عليه السلام، فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة) التي كان فيها في أمن الله وجواره، **(إلى الأرض بما سيقع لنبينا ﷺ من الهجرة)** من مكة، وهي حرم الله وأمنه، وقطانها جيران الله، لأن فيها بيته **(إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة، وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان عاقبة كل منهما أن يرجع إلى وطنه**

وبعيسى ويحيى على ما وقع له أول الهجرة من عداوة اليهود وتماديهم على البغي عليه، وإرادتهم وصول السوء إليه.

وبيوسف، على ما وقع له مع إخوته على ما وقع لنبينا ﷺ من قريش، من

الذي خرج منه،) فآدم رجع إلى السماء بعد أن أهبط منها، والمصطفى رجع إلى مكة لما فتحها وصارت في يده، وهذا معنى كلام السهيلي، وزاد تلميذه ابن دحية، وتبعه ابن المنير؛ أن فيه تنبيهًا على أنه يقوم مقامه في مبدأ الهجرة، لأن مقام آدم التهيئة، والنشاة وعمارة الدنيا بأولاده، وكذا كان مقام المصطفى أول سنة من الهجرة مقام تنشئة الإسلام، وتربية أهله، واتخاذ الأنصار لعمارة الأرض كلها بهذا الدين الذي أظهره الله على الدين كله، وزوى الأرض لنبيه حتى أراه مشارقها ومغاربها.

وقال ﷺ: «ليبلغن ملك أمتي ما زوى لي منها»، واتفق في ذلك في زمن هشام بن عبد الملك، جيء إليه خراج الأرض شرقًا وغربًا، وكان إذا نشأت سحابة يقول: أمطري حيث شئت، فسيصل إلي خراجك **(وبعيسى ويحيى على ما وقع له أول الهجرة،)** وهي ثاني حال له، والأولى بمكة **(من عداوة اليهود وتماديهم)** بالدال، أي: استمرارهم.

وفي نسخ: تماليهم باللام، أي: تعاونهم، أو اجتماعهم **(على البغي عليه وإرادتهم وصول السوء إليه،)** وهذا لفظ الفتح قائلاً: إنه لخصه من السهيلي، وهو محتاج لبيان، ولفظ السهيلي واضح، وهو: ثم رأى في الثانية عيسى ويحيى، وهما الممتحنان باليهود، أما عيسى، فكذبته اليهود وآذوه، وهموا بقتله، فرفعه الله، وأما يحيى، فقتلوه، ورسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان، وكانت محنته فيها باليهود آذوه، وظاهروا عليه، وهموا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه، فنجاه الله، كما نجى عيسى، ثم سموه في الشاة، فلم تزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره.

وقال ابن دحية: كانت حالة عيسى ومقامته معالجة بني إسرائيل، والصبر على معالجة اليهود وحيلهم ومكرهم، وطلب عيسى الانتصار عليهم بقوله: ﴿من أنصاري إلى الله﴾، أي: مع الله، قال الحواريون: نحن أنصار الله، فهذه كانت حالة نبينا ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ففيها طلب الأنصار للخروج إلى بدر العظمى، فأجابوه ونصروه، فلقاؤه لعيسى في السماء الثانية، تنبيه على أنه سيلقى مثل حاله ومقامه في السنة الثانية من الهجرة.

(وبيوسف على ما وقع له مع أخوته، على ما وقع لنبينا ﷺ من قريش:) أقاربه، **(من نصبهم الحرب له، وإرادتهم إهلاكه، وكانت العاقبة له، وقد أشار عليه السلام إلى ذلك يوم**

نصبهم الحرب له، وإرادتهم إهلاكه، وكانت العاقبة له، وقد أشار عليه السلام إلى ذلك يوم الفتح بقوله لقريش: أقول كما قال يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء، أي العتقاء.

الفتح، بقوله لقريش) بعد الخطبة: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟، قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال **(أقول كما قال)** أخي **(يوسف لا تثريب:)** عتب **(عليكم اليوم)** خصه بالذكر، لأنه مظنة التثريب، فغيره أولى، **(يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء:)** (بضم المهملة وفتح اللام وقاف) جمع طليق.

قال المصنف في فتح مكة، أي: الذين أطلقوا فلم يسترقوا، ولم يؤسروا، والطليق الأسير إذا أطلق، فتفسيره هنا بقوله، **(أي: العتقاء:)** جمع عتيق بمعنى معتوق، فيه تجوز، لأن حقيقة العتيق من أزيل عنه الرق، وهؤلاء لم يسترقوا، لكن لما كان المصطفى متمكنًا منه، ورفعه عنهم، شبههم بمن أزيل عنه الرق، وأطلق عليه اسمه، ثم هذا الذي ذكره المصنف إلى قوله اليوم يغفر، هو ما ذكر في الفتح؛ أنه لخصه من السهيلي.

وأما لفظه في الروض، فهو: وأما لقاؤه ليوسف في الثالثة، فيؤذن بحالة ثالثة تشبه حال يوسف، وذلك أنه ظفر بأخوته بعد إخراجه من بين ظهرانيهم، فصفح عنهم، وقال: ﴿لا تثريب عليكم﴾ [يوسف/٩٢]، وكذا نبينا أسر يوم بدر جملة من أقاربه الذين أخرجوه، فيهم عمه العباس، وابن عمه عقيل، فمنهم من أطلق، ومنهم من فدى، ثم ظهر عليهم عام الفتح، فقال: أقول، كما قال أخي يوسف: ﴿لا تثريب عليكم﴾. انتهى.

وقال ابن دحية: مناسبة لقائه ليوسف في الثالثة، أن الثالثة من الهجرة اتفقت فيها غزوة أحد، وكانت على المسلمين، لم يصابوا بنازلة قبلها ولا بعدها مثلها، فإنها كانت وقعة أسف وحزن، وأهل التعبير يقولون: من رأى أحدًا اسمه يوسف، آذن ذلك من حيث الاشتقاق، ومن حيث قصة يوسف بأسف يناله.

قال ابن دحية: فإن كان يوسف النبي، فالعاقبة حميدة، والآخرة خير من الأولى، ومما اتفق في أُحد من المناسبة شيوع قتل المصطفى، فناسب ما حصل للمسلمين من الأسف على فقد نبيهم، ما حصل ليعقوب من الأسف على يوسف، لاعتقاد أنه فقد إلى أن وجد ريحه بعد تطاول الأمد.

ومن المناسبة أيضًا بين القصتين؛ أن يوسف كيد وألقي في غيابة الجب حتى أنقذه الله على يد من شاء.

وبإدريس على رفيع منزلته عند الله تعالى.
وبهٰرون إذ رجع قومه إلى محبته بعد إن آذوه.

قال ابن إسحٰق: واكبت الحجارة على جبهته ﷺ من قريش حتى سقط لجنبه في حفرة، كان أبو عامر الفاسق حفرها مكيدة للمسلمين، فأخذ علي بيده ﷺ، واحتضنه طلحة حتى قام، **(وبإدريس على رفيع منزلته عند الله تعالى،)** لفظ الروض، ثم لقاؤه لإدريس في الرابعة، وهو المكان الذي سماه الله مكانًا عليًا، وهو أول من خط بالقلم، فكان ذلك مؤذنًا بحالة رابعة، وهو علو شأنه ﷺ حتى أخاف الملوك، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته حتى قال أبو سفيٰن وهو عند ملك الروم حين جاءه كتاب النبي ﷺ، ورأى ما رأى من خوف هرقل، لقد أمر ابن أبي كبشة حتى أصبح يخافه ملك بني الأصفر، وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض، فمنهم من أتبعه على دينه، كالنجاشي وملك عمان، ومنهم من هادنه، وأهدى إليه وأتحفه، كهرقل والمقوقس، ومنهم من تعصى عليه فأظفره الله به، فهذا مقام علي، وخط بالقلم، كنحو ما أوتي إدريس. انتهى، ولا يفهم من قوله بحالة رابعة وقوع الكتابة إلى الملوك في رابعة الهجرة، كما ظن ابن المنير، فقال: فلعل ذلك صادف السنة الرابعة، مطابقًا للقاء إدريس في السماء الرابعة. انتهى، فإنه سهو عجيب، فإن كتابته للملوك كانت أول السنة السابعة، كما تقدم في المكاتبات.

قال ابن المنير: واختلف هل رفع إدريس بعد الوفاة، أو رفع حيًا كعيسى، وفي المكان العلي هل هو السماء الرابعة، أو الجنة، فإن كان هو الجنة فقد شاركه المصطفى بلقائه فيها، وزاد عليه في الارتفاع إلى أعلى الجنان، وأرفع الدرجات انتهى ملخصًا.

(وبهرون إذ رجع قومه إلى محبته بعد أن آذوه،) ولفظ الروض: ولقاؤه في الخامسة لهٰرون المحبب في قومه، يؤذون بحب قريش وجميع العرب له بعد بغضهم فيه.

وقال تلميذه ابن دحية: ما نال هٰرون من بني إسرائيل من الأذى، ثم الانتصار عليهم، والإيقاع بهم، وقصر التوبة فيهم على القتل دون غيره من العقوبات المنحطة عنه، وذلك أن هٰرون عندما تركه موسى في بني إسرائيل، وذهب للمناجاة، تفرقوا على هٰرون وتحزبوا عليه، وداروا حول قتله، ونقضوا العهد، وأخلفوا الموعد، واستصغروا جانبه، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم، وكانت الجناية العظمى الصادرة منهم عبادة العجل، فلم يقبل الله منهم التوبة إلا بالقتل، فقتل في ساعة واحدة سبعون ألفًا، كان نظير ذلك في حقه ﷺ ما لقيه في خامسة الهجرة من يهود قريظة، والنضير وقينقاع، فإنهم نقضوا العهد وخربوا الأحزاب، وجمعوها، وحشدوا، وحشروا، وأظهروا عداوة النبي ﷺ، وأرادوا قتله، وذهب إليهم قبل الوقعة بزمن يسير، يستعينهم

وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر.

وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم الله له ﷺ في آخر عمره من إقامة نسك الحج، وتعظيم البيت الحرام.

في دية قتيلين، فأظهروا إكرامه، وأجلسوه تحت جدار، ثم تواعدوا أن يلقوا عليه رحى، فنزل جبريل، فأخبره بمكرهم الذي هموا به، فمن حينئذ عزم على حربهم وقتلهم، وفعل الله تعالى ذلك، وقتل قريظة بتحكيمهم سعد بن معاذ، فقتلوا شر قتله، وحاق المكر السيء بأهله، ونظير استضعاف اليهود لهرون استضعافهم للمسلمين في غزوة الخندق.

(**وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك عليه الصلاة والسلام، بقوله:**) لما آثر ناسًا ليؤلفهم في قسمة غنائم حنين، فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فتغير وجهه، ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله، ورسوله ثم قال: (**لقد أوذي موسى بأكثر من هذا، فصبر،**) رواه الشيخان.

ولفظ السهيلي: ولقاؤه في السادسة لموسى يؤذن بحالة تشبه حالة موسى حين أمر بغزو الشام، فظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها، وأدخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد إهلاك عدوهم، وكذلك غزا ﷺ تبوك من أرض الشام، وظهر على صاحب دومة الجندل حتى صالحه على الجزية بعد أن أتى به أسيرًا، وافتتح مكة، ودخل أصحابه البلد الذي خرجوا منه.

وقال ابن دحية: يؤذن لقاؤه له في السادسة بمعالجة قومه، فإن موسى ابتلى بمعالجة بني إسرائيل، والصبر على أذاهم، وما عالجه المصطفى في السنة السادسة، لم يعالج قبله ولا بعده مثله، ففيها افتتح خيبر وفدك وجميع حصون اليهود، وكتب الله عليهم الجلاء، وضربهم بسوط البلاء، وعالج ﷺ في هذه السنة، كما عالج موسى من قومه، أراد أن يقيم الشريعة في الأرض المقدسة، وحمل قومه على ذلك، فتقاعدوا عنه، وقالوا: إن فيها قومًا جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، وفي الآخر سجلوا بالقنوط: إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها، فغضب الله عليهم، وحال بينهم وبينها، وأوقعهم في التيه، وكذلك أراد ﷺ في السادسة أن يدخل بمن معه مكة، يقيم بها شريعة الله وسنة إبراهيم، فصدوه، فلم يدخلها في هذا العام، فكان لقاؤه لموسى تنبيهًا على التأسي به، وجميل الأثر في السنة القابلة.

(و) وقع التنبيه (**بإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم الله له ﷺ في آخر عمره من إقامة نسك الحج وتعظيم البيت الحرام**) ولفظ الروض: ثم لقاؤه في السابعة لإبراهيم لحكمتين، إحداهما: أن البيت المعمور بحيال الكعبة، وإليه تحج الملائكة، كما أن إبراهيم هو

وأجاب العارف ابن أبي جمرة عن وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء: بأن الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء، وأول الآباء،

الذي بنى الكعبة، وأذن في الناس بالحج إليها، والثانية؛ أن آخر أحواله ﷺ حجه إلى البيت الحرام، وحج معه ذلك العام نحو من تسعين ألفًا، ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل تؤذن بالحج، لأنه الداعي إليه، والرافع لقواعد الكعبة المحجوجة.

وقال ابن دحية: مناسبة لقيه لإبراهيم في السابعة؛ أنه ﷺ اعتمر عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة هو وأصحابه، ملبين معتمرين، محييًا لسنة إبراهيم، ومقيمًا لرسمه الذي كانت الجاهلية أماتت ذكره وبدلت أمره، ورؤيته لإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، إشارة إلى أنه يطوف بالكعبة في السابعة، وهي أول دخلة دخل مكة بعد الهجرة، والكعبة في الأرض قبالة البيت المعمور.

قال: وفي قوله: فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا، لا يرجعون إليه، إلى آخر الدهر، إشارة إلى أنه إذا دخل البيت الحرام لا يرجع إليه، لأنه لم يدخله بعد الهجرة إلا عام الفتح، ثم لم يدخله في حجة الوداع، واعلم أن ما ذكره المصنف تبع فيه الحافظ، وقال في آخرها: هذه مناسبات لطيفة أبداها السهيلي، فأوردتها منقحة ملخصة.

وقد زاد ابن المنير في ذلك أشياء أضربت عنها، إذ أكثرها في المفاضلة بين الأنبياء، والإشارة في هذا المقام عندي أولى من تطويل العبارة. انتهى. وقال ابن دحية: لا بأس بما ذكره هذا الإمام، يعني شيخه السهيلي، لكن يحتاج إلى تنبيهات، منها إجراؤه لذلك، كالتعبير، فإنه يوهم أن الإسراء كان منامًا، والصحيح أنه يقظة، والذي يرفع الإشكال، أن الفأل في اليقظة نظير الأحلام، فيكون تعبير الفأل ببيان ما يدل عليه يقظة، كتعبير الأحلام بما تدل عليه منامًا، فعلى هذا يصح كلامه، وقد كان ﷺ يحب الفأل الحسن، ويستدل به على حسن العاقبة، وبالضد من ذلك.

ومنها أنه لم يذكر للمستوى، ولا لما بعده نظيرًا، إما لتعذر استنباط المناسبة، أو لانقطاع الفكرة دون. ذلك، انتهى. أو لأن الأولى ترك ذلك، كما أفصح به السهيلي نفسه عقب ذكر المناسبات، إذ قال: وكان الحزم ترك التكلف لتأويل ما لم يرد فيه نص عن السلف، ولكن عارض هذا ما يجب من التفكر في حكم الله وتدبر آياته، قال: ولولا مسارعة الناس إلى إنكار ما جهلوه، وغلظ الطباع عن فهم كثير من الحكمة، لأبدينا من سر هذا السؤال أكثر مما كشفنا.

(وأجاب العارف ابن أبي جمرة عن وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء) الذي هو ثاني أسئلة المصنف، وفيه جواب الثالث، وهو لم كان في الثانية بخصوصها اثنان، **(بأن**

وهو الأصل، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة.

وأما عيسى فإنما كان في السماء الثانية لأنه أقرب الأنبياء إلى النبي ﷺ ولا انمحت شريعة عيسى عليه السلام إلا بشريعة سيدنا محمد ﷺ، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة محمد ﷺ على شريعته ويحكم بها، ولهذا قال عليه السلام: «أنا أولى الناس بعيسى». فكان في الثانية لأجل هذا المعنى.

وإنما كان يحيى عليه السلام معه هناك لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد، فلأجل التزام أحدهما بالآخر كانا هناك معًا.

الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا، **لأنه أول الأنبياء وأول الآباء،)** فناسب مقام الأولية، **(وهو الأصل،)** فكان الأول في الأولى، **(ولأجل تأنيس النبوة بالأبوّة)** في مبدأ العالم العلوي.

(وأما عيسى، فإنما كان في السماء الثانية، لأنه أقرب الأنبياء) من حيث الزمن **(إلى النبي ﷺ،** و) لأنه **(لا انمحت شريعة عيسى عليه السلام إلا بشريعة سيدنا محمد، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة محمد ﷺ على شريعته، ويحكم بها،)** ووجه جعل هذا حكمة كونه في الثانية؛ أن عيسى لما شابه المصطفى في ثاني أحواله، وهي حكمه بشريعته، وكونه واحدًا من أمته، ناسب أن يكون في السماء الثانية، وأوّل أحوال عيسى كونه رسولاً إلى بني إسرائيل، **(ولهذا)** المذكور من الحكم الثلاث.

(قال عليه السلام) في الصحيحين وغيرهما: **(أنا أولى الناس،)** أي: أخصهم **(بعيسى)** ابن مريم، وأقربهم إليه، لأنه بشّر بأنه يأتي من بعده، فالأولوية هنا من جهة قرب العهد، كما أنه أولى الناس بإبراهيم لأنه أبوه، ودعا به، وأشبه الناس به خلقًا وملة، وبين وجه الأولوية بقوله في بقية الحديث: ليس بيني وبينه نبي، كأنه قال، لأنه ليس.. الخ، وضعف هذا الحديث ما ورد؛ أن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين بعد عيسى، لأن في إسنادهما مقالاً، وهذا صحيح بلا شك، إلا أن يجاب بأنهما بعثا بتقرير شريعة عيسى، لا شريعة مستقلة، ذكره الحافظ وغيره.

(فكان في الثانية لأجل هذا المعنى،) وفي فتح الصفا، لأنه خلق ثان كخلق آدم، أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، **(وإنما كان يحيى عليه السلام معه هناك، لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد، فلأجل التزام أحدهما بالآخر كانا هناك معًا،)** أدق من هذا قول ابن المنير: السر في ذلك أن عيسى لم يلقه بعد موته لرفعه حيًا صيانة له، وذخيرة إلى وقت عوده إلى الأرض قائمًا بشرع المصطفى، غير مجدد شرعًا، فهو في حكم الأحياء، ومقامه في السماء ليس على معنى السكنى الدائمة، بخلاف غيره من الأنبياء، ويحيى هو المقيم في السماء أسوة غيره من الأنبياء، واختص مقامه عند عيسى، لأنهما ابنا الخالة، وكانا لدتين، وكانت أم يحيى تقول

وإنما كان يوسف عليه السلام في السماء الثالثة لأن على حسنه تدخل أمة النبي ﷺ الجنة، فأري له هناك لكي يكون ذلك بشارة له عليه السلام فيسر بذلك.

وإنما كان إدريس عليه السلام في السماء الرابعة لأنه هناك توفي ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر.

وإنما كان هٰرون عليه السلام في السماء الخامسة لأنه ملازم لموسى عليه

لأم عيسى وهما حاملتان: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، أي: سجود تحية، فكان بينهما اتحاد منذ كانا، فلما عرض لعيسى الصعود إلى السماء جعل عند يحيى.

(**وإنما كان يوسف عليه السلام في السماء الثالثة، لأن على حسنه تدخل أمة النبي ﷺ الجنة،**) وهي ثالث دورها، الدنيا، فالبرزخ، فالجنة، فناسب كونه في الثالثة، (**فأري له هناك لكي يكون ذلك بشارة له عليه السلام، فيسر بذلك،**) وفي فتح الصفا: ويوسف في الثالثة، باعتبار أن جعله على خزائن الأرض كان مرتبة ثالثة له، لأنه بعد خروجه من السجن، وذلك بعد رفعه من الجب.

(**وإنما كان إدريس عليه السلام في السماء الرابعة، لأنه هناك توفي، ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر**) عن كعب الأحبار: أن الملك الموكل بالشمس، كان صديقًا لإدريس، فسأله أن يريه الجنة، فأذن الله له في ذلك، فرفعه، فلما كان في السماء الرابعة رآه ملك الموت، فعجب، وقال: أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة، فقبضه.

قال السهيلي: ولكون رفعه حيًا إلى ذلك المقام خاصًا به، قال تعالى: ﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾ [مريم/٥٧]، فلا ينافي رؤيته إبراهيم وموسى في مكان أعلى منه، ومر عن الحافظ؛ أن هذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته، وأن رفعه وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة قوية.

وقال ابن المنير: اختلف في إدريس هل رفع إلى السماء بعد موته كغيره من الأنبياء، أو إنما رفع حيًا، وهو إلى الآن حي كعيسى، وجاء في القصص، أن إدريس أحبته الملائكة لكثرة عبادته، فسأل ملك الموت أن يذيقه الموت ليهون عليه، فأذاقه، ثم حيي، فسأل أن يورده النار ليزداد رهبة، فأوردها، ثم أخرج، فسأل أن يدخل الجنة ليزيد رغبة، فأدخلها، فقيل له: اخرج، قال: لا يا رب إني ذقت الموت ووردت النار ودخلت الجنة، وقد وعدت من دخلها على ذلك أن لا يخرج منها أبدًا، فأوحى الله إلى الخازن أن دعه، فبإذني فعل ما فعل، فبقي في الجنة في السماء الرابعة على هذا الوجه انتهى، فتأمله.

(**وإنما كان هٰرون عليه السلام في السماء الخامسة، لأنه ملازم لموسى عليه السلام،**

السلام، لأجل أنه أخوه وخليفته في قومه، فكان هناك لأجل هذا المعنى. وإنما لم يكن مع موسى في السماء السادسة لأن لموسى مزية وحرمة وهي كونه كليمًا، واختص بأشياء لم تكن لهٰرون فلأجل هذا المعنى لم يكن معه.

وإنما كان موسى في السماء السادسة لأجل ما اختص به من الفضائل، ولأنه الكليم، وهو أكثر الأنبياء أتباعًا بعد نبينا ﷺ.

وإنما كان إبرٰهيم عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة لأنه الخليل والأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي عليه السلام بلقياه أنس، لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وهو اختراق الحجب، وأيضًا لأنه الخليل، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، والحبيب ها هو قد علا ذلك المقام فكان الخليل فوق الكل لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل لأجل ما اختص مما زاد به عليهم، قال اللّٰه تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم اللّٰه ورفع

لأجل أنه أخوه) ووزيره **(وخليفته في قومه،)** لما ذهب إلى المناجاة، **(فكان هناك لأجل هذا المعنى، وإنما لم يكن مع موسى في السماء السادسة، لأن لموسى مزية وحرمة، وهي كونه كليمًا، واختص بأشياء لم تكن لهٰرون، فلأجل هذا المعنى لم يكن معه)** تكرار لزيادة البيان.

(وإنما كان موسى في السادسة، لأجل ما اختص به من الفضائل، ولأنه الكليم، وهو أكثر الأنبياء اتباعًا بعد نبينا ﷺ،) فكان فيها للإشعار بالقرب.

(وإنما كان إبرٰهيم عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة، لأنه الخليل والأب الأخير) للمصطفى، **(فناسب أن يتجدد للنبي عليه السلام بلقياه أنس لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وهو اختراق الحجب،)** كما أنس بأبيه آدم في أول عالم السمٰوات، ثم في وسطها بأبيه إدريس، لأن الرابعة من السبع وسط معتدل، **(وأيضًا، لأنه الخليل، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، والحبيب ها هو قد علا ذلك المقام، فكان الخليل فوق الكل، لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل، لأجل ما اختص مما زاد به عليهم،)** وما أحسن اختصار الحافظ لهذا بقوله، وأيضًا، فمنزلة الخليل تقتضي أن تكون أرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته، فلذلك ارتفع عن منزلة إبرٰهيم إلى قاب قوسين، أو أدنى.

(قال اللّٰه تعالى: (﴿تلك﴾) مبتدأ **(﴿الرسل﴾)** صفة، والخبر **(﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾،)** بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره، **(﴿منهم من كلم اللّٰه﴾،)** كموسى، **(﴿ورفع بعضهم﴾،)** أي: محمدًا **(﴿درجات﴾** [البقرة/٢٥٣] **)** على غيره، بعموم الدعوة، وختم النبوة

بعضهم درجات﴾ [البقرة/٢٥٣] فحصل لهم الكمال والدرجة الرفيعة وهي درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض بمقتضى الحكمة ترفيعًا للمرفوع دون تنقيص بالمنزول. انتهى فليتأمل.

وقد اختلف في رؤية نبينا ﷺ لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فحمله بعضهم على رؤية أرواحهم إلا عيسى، لما ثبت أنه رفع بجسده. وقد قيل في إدريس أيضًا ذلك.

وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس، فيحتمل، الأرواح خاصة، ويحتمل: الأجساد بأرواحها.

به، وتفضيل أمته على سائر الأمم، والمعجزات المتكاثرة، والخصائص العديدة، **(فحصل لهم الكمال والدرجة الرفيعة، وهي درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض بمقتضى الحكمة)** الإلهية، **(ترفيعًا للمرفوع دون تنقيص بالمنزول،)** وفي نسخة: للمنزول بلام بدل الموحدة، أي: النازل عن غيره في الفضل **(انتهى، فليتأمل)**.

(وقد اختلف في) صفة **(رؤية نبينا ﷺ لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام)** في السموات، ولهم ولغيرهم في بيت المقدس، مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض، **(فحمله بعضهم على رؤية أرواحهم)** متشكلة بصور أجسادهم، **(إلا عيسى لما ثبت أنه رفع بجسده،)** سواء قلنا رفع حيًا عند الأكثرين، أو بعد أن توفي على ظاهر: ﴿إني متوفيك﴾، للاتفاق على رفعه بجسده.

(وقد قيل في إدريس أيضًا ذلك،) أي: رفع بجسده حيًا، ثم مات أم لا على قولين تقدما، **(وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس، فيحتمل الأرواح خاصة،)** دون الأجساد، ويؤيده حديث أبي هريرة عند الحاكم والبيهقي، فلقي أرواح الأنبياء، وفيه دليل على تشكل الأرواح بصور أجسادها في عالم الله، **(ويحتمل الأجساد بأرواحها،)** بأن يكون أسرى بأجسادهم من قبورهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة تشريفًا وتكريمًا، ويؤيده حديث أنس عند البيهقي، وبعث له آدم، فمن دونه من الأنبياء، فأمهم.

وعند البزار والطبراني: فنشر لي الأنبياء من سمى الله تعالى، ومن لم يسم، فصليت بهم.

قال الحافظ: واختاره بعض شيوخنا، واحتج بما في مسلم، مرفوعًا: «رأيت موسى ليلة أسرى بي قائمًا يصلي في قبره». فدل على أنه أسري به لما مر به، وقلت، وليس ذلك بلازم، بل يجوز أن لروحه اتصالاً بجسده في الأرض، ولذلك تمكن من الصلاة فيها وروحه مستقرة في السماء.

وقيل: يحتمل أن يكون عليه السلام عاين كل واحد منهم في قبر في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه، فيكون اللَّه عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك، ويشهد له رؤيته عليه الصلاة والسلام الجنة والنار في عرض الحائط وهو محتمل لأن يكون عليه الصلاة والسلام رآهما من ذلك الموضع أو مثل له صورتهما في عرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما.

وقيل: يحتمل أن يكون اللَّه سبحانه وتعالى لما أراد بإسراء نبينا، رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكرامًا لنبيه عليه السلام وتعظيمًا له حتى يحصل له من قبلهم ما أشرنا إليه من الأنس والبشارة، وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن.

(**وقيل:**) أي: قال ابن أبي جمرة رؤيته لهؤلاء الأنبياء (**يحتمل**) وجوهًا: أحدها: أنه يحتمل (**أن يكون عليه السلام عاين كل واحد منهم في قبر في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه، فيكون اللَّه عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك،**) لكن قد يبعده، فإذا فيها آدم الخ..، لا سيما قوله: فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، فإن الأصل الحقيقة، وكون المعنى، فإذا في وجودي في السماء عاينت آدم في قبره، ثم يقال مثله في البقية، مجاز بعيد جدًا بلا داعية، وكيف يقال عاينت وأنا في السماء السابعة إبراهيم في قبره، وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور.

(**ويشهد له رؤيته عليه الصلاة والسلام الجنة والنار في عرض الحائط:**) (بضم العين وإسكان الراء) جانبه وناحيته، (**وهو محتمل لأن يكون عليه الصلاة والسلام رآهما من ذلك الموضع**) حقيقة، بأن كشف له عنهما، وأزيلت الحجب التي بينه وبينهما.

قال ابن أبي جمرة: كما يقال: رأيت الهلال من منزلي من الطاق، والمراد من موضع الطاق، (**أو مثل له صورتهما في عرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما،**) لكن هذان الاحتمالان ظاهران في ذا الحديث، وإجراء مثلهما في حديث المعراج لا يظهر لبعده.

(**وقيل:**) أي: قال ابن أبي جمرة أيضًا، (**يحتمل**) أن يكون ﷺ عاين أرواحهم هناك في صورهم، و (**أن يكون اللَّه سبحانه وتعالى لما أراد بإسراء نبينا رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكرامًا لنبيه عليه السلام وتعظيمًا له، حتى يحصل له من قبلهم**) بكسر ففتح، جهتهم، (**ما أشرنا إليه من الإنس والبشارة وغير ذلك، مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن،**)

وكل هذه الوجوه محتملة، ولا ترجيح لأحدها على الآخر إذ القدرة صالحة لكل ذلك. انتهى.

وأما قوله في الحديث: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال

وهذا الاحتمال هو عين قوله أولاً، ويحتمل الأجساد بأرواحها غايته أنه مبسوط عنه، فهو كالشرح له، وبقي احتمال رابع، وبه جزم أبو الوفاء بن عقيل، أن أرواحهم مستقرة في الأماكن التي رآهل المصطفى فيها متشكلة بصور أجسادهم، لكنه إنما يظهر في الذين رآهم في السموات، لا في بيت المقدس.

(**وكل هذه الوجوه محتملة**) (بضم الميم الأولى وفتح الثانية)، أي: قريبة، (وإما بكسر الثانية)، فالواقعة نفسها، كما صرح به بعضهم، (**ولا ترجيح لأحدها على الآخر**) من حيث الاحتمال في حد ذاته، (**إذ القدرة صالحة لكل ذلك**) أما بالنظر لما يشهد له من خارج، فيرجع. (**انتهى**) يعني كلام ابن أبي جمرة، وإن لم يفصح به، وأوله ما قد علمته، وما قبله أتى به المصنف من فتح الباري، وفيه رد على ما أطال به ابن القيم في كتاب الروح من ترجيح أن رؤيته إنما هي لأرواحهم فقط، إذ الأجساد في الأرض قطعًا إنما تبعث يوم القيامة، ولو بعثت قبل ذلك لكانت انشقت عنهم الأرض قبلها، وكانت تذوق الموت عند نفخ الصور، وهذه موتة ثالثة، وهذا باطل قطعًا، وبأنها لو بعثت الأجساد لم تعد إلى القبور، بل كانت في الجنة مع أنها محرمة على الأنبياء حتى يدخلها نبينا، وهو أول من يستفتح باب الجنة، ولا تنشق الأرض عن أحد قبله إلى آخر ما أطال به، مما لا حجة له فيه، وجوابه كما أملاني شيخنا أنه إنما يتم ما قاله، لو كانت أرواحهم مفارقة لأجسادهم في قبورهم، وليس كذلك، بل هم أحياء في قبورهم بحياة حقيقية يأكلون ويشربون ويتمتعون فيها، وخروجهم من قبورهم، ومجيئهم لها ليس الخروج المقتضي للبعث، بل هو كخروج الإنسان من منزله لحاجة يقضيها، ويعود إليه، فلا يعد بذلك مفارقًا له، والذي يعد به مفارقًا هو الذي بحيث لا يعود إليه، بل يقوم للقيامة، وبهذا سقط كلامه.

(**وأما قوله في الحديث: ثم رفعت**) رواه الأكثر بضم الراء، وسكون العين وضم التاء، ضمير المتكلم بعده حرف الجر، وهو (**إلى سدرة المنتهى**) وللكشميهني: رفعت، بفتح العين وسكون التاء، أي: السدرة لي، أي: من أجلي.

وكذا في بدء الخلق، ويجمع بين الروايتين بأنه رفع إليها، أي: ارتقى به، وظهرت له، والرفع إلى الشيء يطلق على التقريب منه، وقد قيل في قوله: ﴿وفرش مرفوعة﴾ [الواقعة/٣٤] ، اي: تقرب لهم، (**فإذا نبقها**) بفتح النون، وكسر الموحدة، وبسكونها أيضًا.

هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: وما هذا يا جبريل: قال: أما الباطنان فنهران في

قال ابن دحية: والأول هو الذي ثبت في الرواية، أي: التحريك، وهو ثمر السدر، (**مثل قلال**،) قال الخطابي: بالكسر، جمع قلة بالضم، هي الجرار، يريد أن ثمرها في الكبر مثل القلال، وكانت معروفة عند المخاطبين (**هجر**:) بفتح الهاء والجيم، بلدة لا تنصرف للتأنيث والعلمية، ويجوز الصرف، كما في الفتح، وقدمته.

قال النعماني: وأما ثمرها، فهل هو كالثمار المأكولة، وأنه يزول، ويعقبه غيره، وهل الزائل يؤكل أو يسقط، لم أر من ذكر هذا، ولا يمتنع أن يكون كذلك، وأنه تأكله الطيور التي تسرح في الجنة، والروح على قول من يقول: إنهم صنف على صورة الإنسان، لهم أيد وأرجل ورؤوس، وأنهم يأكلون الطعام، وليسوا من الملائكة.

قال ابن عباس: ما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح، وقال أبو صالح: وليسوا بناس، ولا بالملائكة، وعن بعضهم: أن الملائكة لا يرونهم، وليس بينه وبين قول ابن عباس هذا تناف، فإنه لا يلزم من نزولهم معهم رؤيتهم لهم انتهى.

(**وإذا ورقها مثل آذان الفيلة**) بكسر الفاء وفتحها غلط زاعمه، وفتح التحتية: جمع فيل، وفي بدء الخلق الفيول: جمع فيل أيضًا، والتشبيه في الشكل فقط لا في الكبر ولا في الحسن، فلا تنافي رواية تكاد الورقة تغطي هذه الأمة.

(**قال**) جبريل: (**هذه سدرة المنتهى**،) ولعل سبب إخباره أنه ﷺ كان عالمًا بوجودها قبل الرؤية، فكأنه قال هذه سدرة المنتهى التي علمت بوجودها.

قال الرازي: وإضافتها إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه، كقولك: أشجار بلدة كذا، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك أو روح من الأرواح، أو من إضافة المحل إلى الحال فيه، ككتاب الفقه، فالتقدير سدرة عندها منتهى العلوم، أو من إضافة الملك إلى مالكه، كشجرة زيد، فالمنتهى إليه محذوف، تقديره سدرة المنتهى إليه.

قال تعالى: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ [النجم/٤٢]، فالمنتهى إليه هو الله تعالى، وإضافتها إليه كإضافة البيت للتشريف والتعظيم.

(**وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران**،) قال ابن أبي جمرة: يحتمل الحقيقة، فهذه الأنهار تنبع من أصل الشجرة نفسها، فتكون الشجرة طعمها نبق، وأصلها ينبع منه الماء، والقدرة لا تعجز عن هذا، ويحتمل أنه من تسمية الشيء بما قاربه، فتكون الأنهار تنبع قريبًا من أصل الشجرة. انتهى.

الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات.

وفي رواية عند البخاري أيضًا: فإذا في أصلها -أي سدرة المنتهى- أربعة أنهار.

وعند مسلم: يخرج من أصلها.

وعنده أيضًا من حديث أبي هريرة: أربعة أنهار من الجنة: النيل والفُرات وسيحان وجيحان.

فيحتمل: أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من أصلها، فيصح أنها من الجنة.

ووقع في رواية شريك، كما عند البخاري في التوحيد: أنه رأى في سماء

(فقلت: وما هذا يا جبريل؟، قال: أما الباطنان فنهران في الجنة،) قال ابن أبي جمرة فيه: إن الباطن أجل من الظاهر، لأن الباطن جعل في دار البقاء، والظاهر جعل في دار الفناء، ومن ثم كان الاعتماد على ما في الباطن، كما قال ﷺ: «إن اللّه لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

(وأما الظاهران فالنيل) نهر مصر، **(والفرات)** بالفوقية في حال الوصل والوقف نهر الكوفة.

(وفي رواية عند البخاري أيضًا) في بدء الخلق: **(فإذا في أصلها، أي: سدرة المنتهى، أربعة أنهار،)** فيفسر قوله في المعراج: وإذا أربعة أنهار، أي: في أصلها، إذ الحديث واحد.

(وعند مسلم: يخرج من أصلها) فقوله في أصلها، معناه يخرج منه، **(وعنده،)** أي: مسلم، **(أيضًا من حديث أبي هريرة: أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان)** من السيح، وهو جري الماء على وجه الأرض، وهو نهر العواصم بقرب مصيصة، وهو غير سيحون نهر بالهند، أو السند، **(وجيحان)** نهر أذنة، وجيحون نهر بلخ، وينتهي إلى خوارزم، وزعم أنهما هما وهم.

فقد حكى النووي الاتفاق على أنهما غيرهما، لكن نازعه السيوطي في دعوى الاتفاق، **(فيحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من أصلها، فيصح أنها من الجنة)** بهذا الاعتبار، فلا يعارض حديث المعراج.

(ووقع في رواية شريك، كما عند البخاري في) كتاب **(التوحيد)** من صحيحه **(أنه رأى في سماء الدنيا نهران يطردان:)** بالتشديد، يجريان، **(فقال له جبريل:)** جوابًا لقوله: ما

الدنيا نهران يطردان، فقال له جبريل: هما النيل والفرات عنصرهما.

والجمع بينهما: أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة، ورآهما في سماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد بـ«العنصر» عنصر انتشارهما بسماء الدنيا، كذا قال ابن دحية.

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أنه ﷺ بعد أن رأى إبراهيم قال: ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر، أنعم طير رأيت، قال جبريل: هذا الكوثر الذي

هذان النهران يا جبريل؟، قال: (**هما النيل والفرات، عنصرهما:**) بضم العين والصاد المهملتين، أصلهما بدل من النيل والفرات، (**والجمع بينهما أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة،**) الباطنين، (**ورآهما في سماء الدنيا دون نهري الجنة وأراد بالعنصر عنصر انتشارهما بسماء الدنيا،**) لا أصلهما الحقيقي، فإنه من أصل السدرة، فلا تنافي بين الأحاديث، (**كذا قال ابن دحية:**) كأنه تبرأ منه لعدم تعين ما قال: لجواز أن يراد أصل نبعهما من تحت السدرة، ومقرهما في سماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض، كما تقدم للمصنف، وهو في المعنى قريب من جمع ابن دحية، أو عينه.

وقال النعماني: يجوز أن عنصرهما مبتدأ يتعلق به خبر سابق، لم يتقدم له ذكر من حيث اللفظ، لكن من حيث العهد، فيكون المعنى هذا النيل والفرات، فيتم الكلام، ثم يكون عنصرهما ما كنت رأيت عند سدرة المنتهى يا محمد، فاكتفى بهذا العهد السابق عن إعادة الكلام، انتهى وهو مع تعسفه لا يصح، لأن رؤيته ذلك في سماء الدنيا قبل رقيه للسدرة، فلا عهد هنا.

(**وروى ابن أبي حاتم عن أنس،أنه ﷺ بعد أن رأى إبراهيم، قال: ثم انطلق**) جبريل (**بي على ظهر السماء السابعة حتى انتهى إلى نهر عليه خيام الياقوت**) بخاء معجمة، جمع خيم، كسهم وسهام، وهو مثل الخيمة.

وفي نسخة: جام بالجيم، بلا ياء، أي: إناء، والمراد الجنس، فيصدق بالأواني الكثيرة، (**واللؤلؤ والزبرجد:**) بفتح الزاي ودال مهملة، جوهر معروف، ويقال هو الزمرد، (**وعليه طير خضر**) هو (**أنعم،**) فهو خبر مبتدأ محذوف، (**طير رأيت،**) وهو اسم تفضيل من نعم بالضم نعومة، لأن ملمسه، يعني أن ملمس هذه الطيور ألين من ملمس سائر الطيور، وفي رواية: أنعم طير أنت راء.

(**قال جبريل: هذا الكوثر الذي أعطاك الله، فإذا فيه آنية الذهب والفضة، يجري على**

أعطاك اللّٰه، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، قال: فأخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: وإذا فيها عين تجري يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، والآخر يقال له نهر الرحمة. وسيأتي

رضراض:) بفتح الراء، وسكون الضاد المعجمة، آخره مثلها، حصى صغار، **(من الياقوت والزمرد:)** بزاي، فميم، فراء ثقيلة مضمومات، آخره ذال معجمة ومهملة، كما في القاموس، وقال: إنه الزبرجد معرب، **(ماؤه أشد بياضًا من اللبن، قال: فأخذت من آنيته، فاغترفت من ذلك الماء، فشربت، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد رائحة من المسك،)** فجمع الأوصاف الثلاثة الحسنة.

(وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: وإذا فيها،) أي: السماء السابعة، **(عين تجري يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، والآخر يقال له: نهر الرحمة).**

قال الحافظ: فيمكن أن يفسر بهما النهران الباطنان، المذكوران في الحديث، وكذا روي عن مقاتل، قال: الباطنان السلسبيل والكوثر. انتهى. وفيه مسامحة، لأن ما روي عن مقاتل صريح في أن أحد النهرين السلسبيل، والآخر الكوثر.

وحديث أبي سعيد صريح في أن السلسبيل هو الأصل، ويخرج منه نهران، أحدهما الكوثر، فهو فرع منه لا قسيم له، فحق العبارة.

وروي عن مقاتل: بإسقاط لفظ كذا، ويكون مقابلاً لتفسيرهما بما في حديث أبي سعيد، ثم قال الحافظ عقب ما نقلته عنه: وأما الحديث الذي أخرجه مسلم بلفظ: سيحان وجيحان، والنيل والفرات، من أنهار الجنة، فلا يغاير هذا، لأن المراد به أن في الأرض أربعة أنهار، أصلها من الجنة، وحينئذ لم يثبت لسيحان وجيحان أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك، وأما الباطنان، فهما غير سيحان وجيحان.

قال النووي في هذا الحديث: إن أصل النيل والفرات من الجنة، وأنهما يخرجان من أصل السدرة، ثم يسيران حيث شاء اللّٰه، ثم ينزلان إلى الأرض، ثم يسيران فيها، ثم يخرجان منها، وهذا لا يمنعه العقل، وقد شهد به ظاهر الخبر فليعتمد، وقول عياض الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى في الأرض، لقوله: إن النيل والفرات يخرجان من أصلها، وهما يخرجان من الأرض، فيلزم منه أن أصل السدرة في الأرض متعقب، لأن خروجهما من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض، والحاصل أن أصلهما من الجنة، ويخرجان أولاً من أصلها، ثم يسيران إلى أن

مزيد لذلك عما ذكر هنا في الكوثر في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

وقد وقع في حديث ثابت عن أنس عند مسلم: ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، إذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشي تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من

يستقرا في الأرض، ثم ينبعان.

واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات، لكون منبعهما من الجنة، وكذا سيحان وجيحان.

قال القرطبي: لعل ترك ذكرهما في حديث الإسراء، لكونهما ليسا أصلاً برأسهما، وإنما يحتمل أن يتفرعا من النيل والفرات، قال: وقيل: إنما أطلق على هذه الأنهار، أنهار الجنة، تشبيهًا لها بأنهار الجنة، لما فيها من شدة العذوبة، والحسن، والبركة، والأول أولى انتهى.

وقال ابن المنير: صورة انصبابها كانصباب المطر متفرقًا، ثم يجتمع في مواقعها في الأرض إلى أن ينساق كل منها إلى مستقره ومجراه، ويحتمل أن يكون انصبابها في نواحي الأرض النائية، المتصلة بمبادىء هذه الأنهار، فإنه لم يقف أحد على مباديها إلى الآن.

وقال ابن أبي جمرة: وردت الأخبار أن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يفنى، وأنه لا فضلة له، تخرج على ما يعهد في الدنيا، وإنما خروجه رشح مسك على البطن، فجعل فيه هذه الخاصية العظيمة، ثم لما شاءت الحكمة نزوله إلى هذه الدار، نزعت منه تلك الخصوصية، وبقي جوهره بحاله، وكل الخواص مثله في هذا المعنى إن شاء الله تعالى أبقى له الخاصية، وإن شاء سلبها مع بقاء جوهره، وليس لذوات الخواص تأثير، بل الخاصية خلقه والجوهر خلقه، وإنما القدرة هي المؤثرة في كلها انتهى. **(وسيأتي مزيد لذلك عما ذكر هنا في الكوثر في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى، وقد وقع في حديث ثابت، عن أنس، عند مسلم: ثم ذهب بي،)** لم يقل عرج، لأنها في السماء السابعة **(إلى سدرة المنتهى، وإذا أوراقها كآذان الفيلة،)** شبهه بها، وإن لم تكن بأرض الحجاز، لأنها كثيرة ببلاد الحبش، وكثيرًا ما كانوا يأتونها للتجارة، وإليها كانت الهجرة، **(وإذا ثمرها كالقلال،)** شبهها بها لمد ظلها، ولطف ورقها، وطيب ثمرها، وحسن رائحته، وإن كان شجر الجنة إنما يحاكيه ما في الدنيا صورة، **(فلما غشيها،)** طرأ عليها وغطاها، **(من أمر الله عز وجل ما غشي،)** أي: أمر عظيم غشي، فإن الإبهام بمثله يفيده نحو الحاقة، ما الحاقة، فهو كقوله: ﴿إذ يغشى السدرة﴾ [النجم/١٦]، ما يغشى في إرادة الإبهام للتفخيم، أو التهويل، وإن معلومًا، كقوله: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم في حق فرعون وقومه﴾ [طه/٧٨]، **(تغيرت)** عن حالها التي كانت عليه.

حسنها.

وقد جاء في حديث ابن مسعود عند مسلم أيضًا بيان سبب تسميتها بـ «سدرة المنتهى»، ولفظه: لما أسري برسول الله ﷺ قال: انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها.

وهو معنى قول ابن أبي جمرة: لأن إليها تنتهي الأعمال، وينزل الأمر بتلقي الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم لا يتعدونها، فكانت منتهى، لأن إليها ينتهي ما يصعد من أسفل، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي.

وقال النووي: لأن علم الملائكة ينتهي إليها. ولم يجاوزها أحد إلاّ رسول الله ﷺ.

وفي رواية ابن عائذ: تحولت ياقوتًا وزبرجدًا، والظاهر أن المراد بأمر الله وحيه أو تجليه لرسوله، فأشرق لها نور إلهي زهت به، وحسنت حسنًا لا ينعت، ونور لا يمكن أن يقابله الأبصار، كما قال: **(فما أحد من خلق الله يستطيع:)** يقدر، **(أن ينعتها من حسنها)** الذي طرأ عليها، أي: يصفها بأوصاف تحصل صورتها في الذهن، لقصر العبارة، لكمال حسنها عن بيان ماهيتها، وإنما ثبتت لكونها من أشجار الجنة المعتادة لإشراق تلك الأنوار عليها، ولو كانت من أشجار الأرض، لاحترقت، كما صار الجبل دكًا.

(وقد جاء في حديث ابن مسعود، عند مسلم أيضًا بيان سبب تسميتها بسدرة المنتهى، ولفظه: لما أسرى برسول الله ﷺ، قال: «انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها، فيقبض منها».) قال القرطبي: وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله، أو من أعلمه، فكأنه قيل: سميت بذلك، لأنه إليها ينتهي الخ...

(وهو معنى قول ابن أبي جمرة: لأن إليها تنتهي الأعمال، وينزل الأمر بتلقي الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم، ولا يتعدونها، فكانت منتهى، لأن إليها ينتهي ما يصعد من أسفل، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي) سبحانه، وهذا كالشرح لحديث ابن مسعود المذكور.

(وقال النووي: لأن علم الملائكة ينتهي إليها،) وقال كعب: لأنه ينتهي إليها علم كل نبي مرسل، وكل ملك مقرب، **(ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ،)** فجاوزها بما لا يعلمه

ولا يعارض قوله في حديث ابن مسعود هذا، أنها في السادسة، ما دل عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها في السماء السابعة، لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، قاله في فتح الباري.

وجاء في حديث أبي ذر عند البخاري في الصلاة: فغشيها ألوان لا أدري ما هي.

إلا الله

قال الحافظ: وهذا لا يغاير حديث ابن مسعود، لكنه ثابت في الصحيح، فهو أولى بالاعتماد، وأورده النووي بصيغة التمريض، فقال: وحكي عن ابن مسعود.. الخ، فأشعر بضعفه عنده، ولا سيما، ولم يصرح بأنه رفعه، وهو صحيح مرفوع، انتهى.

وأطنب القرطبي، فعد تسعة أقوال لم سميت بذلك، فذكر ما في مسلم، وقال: أو لأن علم الأنبياء ينتهي إليها، ويعزب عما وراءها، قاله ابن عباس، والأعمال تنتهي إليها وتقبض منها؛ أو لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها، ووقوفهم عندها؛ أو لأن أرواح الشهداء تنتهي إليها، قاله الربيع ابن أنس؛ أو تأوي إليها أرواح المؤمنين، قاله قتادة؛ أو لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة رسول الله ﷺ ومنهاجه، قاله علي بن أبي طالب، والربيع بن أنس أيضًا؛ أو لأن علم الخلائق ينتهي إليها؛ أو لأن من رفع إليها فقد انتهى به إلى الكرامة. انتهى.

والظاهر أن هذه الأقوال كلها يمكن دخولها في لفظ من أوتي جوامع الكلم، إذ ما يعرج من الأرض شامل للأعمال، وأرواح الشهداء، والمؤمنين ومن كان على سنته، ومن رفع إليها، فهذه الخمسة ظاهر شمول ما يعرج من الأرض لها، وباقيها يشمله بضرب من المجاز.

(ولا يعارض قوله في حديث ابن مسعود هذا؛ أنها في السادسة، ما دل عليه بقية الأخبار) كحديث أنس، وهو قول الأكثر، **(أنه وصل إليها في السماء السابعة،)** كما زعمه في المفهم، فقال: وهذا تعارض لا شك فيه، ويترجح حديث أنس؛ بأنه مرفوع، وحديث ابن مسعود موقوف. **(لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، قاله في فتح الباري،)** ودعوى القرطبي أن حديث ابن مسعود موقوف لا تصح، لأنه صرح برفعه..

(وجاء في حديث أبي ذر عند البخاري في) أول **(الصلاة، فغشيها:)** علاها ولابسها **(ألوان)** أنواع، وإطلاقها عليها حقيقي، كما في القاموس، **(لا أدري ما هي،)** قال الكرماني: هو كقوله تعالى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾، في أن الإبهام للتفخيم والتهويل، وإن كان معلومًا

وفي حديث ابن مسعود، المذكور عند مسلم، **قال الله تعالى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾**، قال: فراش من ذهب.

وفي رواية يزيد بن أبي مُلك عن أنس جراد من ذهب.

قال البيضاوي: وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب حقيقة، والقدرة صالحة لذلك.

وفي حديث أبي سعيد وابن عباس فغشيها الملائكة.

وفي حديث أبي سعيد على كل ورقة منها ملك.

انتهى. وفيه أنه لا إبهام هنا، وإنما هو إخبار بنفي درايته، ولذا قال شيخنا الحافظ البابلي: الأولى حمل النفي على حقيقته، لأنه ﷺ من شدة الخشية لم يقدر على النظر إلى جميع ألوانها، وقد قال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم/١٧].

(وفي) بقية **(حديث ابن مسعود، المذكور عند مسلم، قال الله تعالى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾** [النجم/١٦]، **قال/فراش:)** بالفتح، جمع فراشة الطير، الذي يلقي نفسه في ضوء السراج **(من ذهب،)** ففسر المبهم في ما يغشى بذلك.

(وفي رواية يزيد بن أبي مُلك، عن أنس) تفسير المبهم، بقوله: **(جراد من ذهب)**.

(قال البيضاوي) في شرح المصابيح، **(وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل،)** أي: أنه يسقط عليها أشياء تشبه الفراش، وخصه بالذكر، لأنه يتهافت في السراج، فشبه ما ينزل عليها به في سرعة سقوطه، **(لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد، وشبهه)** كالفراش، وجعلها من ذهب لصفاء لونها، وإضاءتها في نفسها، انتهى كلام البيضاوي.

قال الحافظ: **(و)** يجوز **(جعلها من الذهب حقيقة،)** ويخلق فيه الطيران، **(والقدرة صالحة لذلك،)** فما أوهمه المصنف؛ أن جعلها حقيقة من كلام البيضاوي، وهم نشأ عن سقط، أو انتقال نظر حين نقل من فتح الباري، ويحتمل أن يكون قوله: وجعلها من الذهب من المصنف اختيارًا لما جوزه الحافظ، مبتدأ حذف خبره أولى، أي: للعلم به من قوله: والقدرة صالحة، فيكون عطف علة على معلول.

(وفي حديث أبي سعيد) عند البيهقي، **(وابن عباس: فغشيها الملائكة، (وفي حديث أبي سعيد)** عند البيهقي، **(على كل ورقة منها ملك،)** قال بعضهم: كأنهم طيور يرتقون إليها، متشوقين متبركين بها زائرين، كما يزور الناس الكعبة، وفي حديث أبي هريرة عند البزار والبيهقي: فغشيها أنوار الخلاق، وغشيها من الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجر.

وفي رواية ثابت عن أنس عند مسلم فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها.

وفي رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه، نحوه، لكن قال: تحولت ياقوتًا، ونحو ذلك.

قال ابن دحية: واختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل مديد وطعم لذيذ، ورائحة ذكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول.

وقال العارف ابن أبي جمرة: وهل الشجرة مغروسة في شيء أم لا، يحتمل

(وفي رواية ثابت، عن أنس عند مسلم: فلما غشيها من أمر الله ما غشي، تغيرت)، عن حالها الأول، فزادت حسنًا، لأن الذي غشيها أنوار الخلاق، لأن النبي ﷺ لما وصل إليها تجلى ربه لها، كما تجلى للجبل، فظهرت الأنوار، لكن كانت أقوى من الجبل وأثبت، فجعل الجبل دكًا، ولم تتحرك الشجرة، وخر موسى صعقًا، ولم يتزلزل محمد ﷺ عليهما، **(فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها،)** يصفها ببيان ما هي عليه من حسنها، وقدم المصنف هذه الرواية قريبًا، وكأنه أعادها لقوله.

(وفي رواية حميد، عن أنس، عند ابن مردويه نحوه، لكن قال: تحولت ياقوتًا، ونحو ذلك).

وفي رواية ابن عائذ: تحولت ياقوتًا وزبرجدًا، قال الشامي: ولا منافاة بين هذه الروايات، لأن كلا منها يغشاها، وقيل: أبهمه تعظيمًا، كأنه قيل: إذ يغشى السدرة ما الله أعلم به من دلائل ملكوته وعجائب قدرته.

(قال ابن دحية: واختيرت السدرة دون غيرها، لأن فيها ثلاثة أوصاف:) جمع وصف، وهو ذكر ما في الموصوف من آثار تقوم به، والمراد هنا الصفات التي هي نفس الآثار، **(ظل مديد، وطعم لذيذ)** لثمرها، **(ورائحة ذكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل)** لتجاوزه، **(والطعم بمنزلة النية)** لكمونه، أي: استتاره، **(والرائحة بمنزلة القول)** لظهوره، وكذا قاله الماوردي معللاً بما ذكرته.

(وقال العارف ابن أبي جمرة: وهل الشجرة مغروسة في شيء، أم لا؟، يحتمل

الوجهين معًا، لأن القدرة صالحة لكليهما. فكما جعل اللّه تعالى في هذه الدار الأرض مقرًا للشجر، كذلك يجعل الهواء لتلك مقرًا، وكما رجع ﷺ يمشي في الهواء، ولأن بالقدرة استقرت الأرض مع أنها على الماء، فلا مانع من أن تكون الشجرة في الهواء، ويحتمل أن تكون مغروسة بأرض، وأن تكون من تراب الجنة، واللّه قادر على ما يشاء.

الوجهين معًا، لأن القدرة صالحة لكليهما، فكما جعل اللّه تعالى في هذه الدار الأرض مقرًا للشجر، كذلك يجعل الهواء لتلك مقرًا،) وجاء عن كعب الأحبار ما قد يعين هذا الاحتمال، حيث قال: هي في أصل العرش على رؤوس حملة العرش، وإليها ينتهي علم الخلائق، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا اللّه.

(**وكما رجع ﷺ يمشي في الهواء، ولأن بالقدرة استقرت الأرض مع أنها على الماء، فلا مانع من أن تكون الشجرة في الهواء،)** لأن قدرة اللّه لا يعجزها شيء، (**ويحتمل أن تكون مغروسة بأرض، وأن تكون)** تلك الأرض (**من تراب الجنة، واللّه قادر على ما يشاء،)** وقد استظهر ابن أبي جمرة نفسه هذا الاحتمال، لقوله: ونهران باطنان، ولا يطلق هذا اللفظ وما أشبهه إلا على ما يفهم، والباطن لا بد أن يكون سريانه تحت شيء، وحينئذ يطلق عليه اسم الباطن. انتهى، لكنه مبني على الشاهد، ولا يتم قياس الغائب عليه لعدم الجامع، وقد جاء عن كعب ما قد يعين الأول، كما علم.

قال ابن المنير: وجه مناسبة المعراج الثامن إلى سدرة المنتهى، لما اشتملت عليه السنة الثامنة من الهجرة، أنها اشتملت على فتح مكة، ومكة هي أم القرى، وإليها المنتهى، وإليها المبتدأ على ما ورد، أن الأرض كلها دحيت من مكة، فلذا سميت أم القرى، أو لأن أهل القرى يرجعون إليها في الدين والدنيا، حجًا واعتمارًا، وجوارًا، وكسبًا وإتجارًا.

قال اللّه تعالى: ﴿جعل اللّه الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس﴾ [المائدة/٩٧]، أي: يقوم بأبدانهم وأديانهم، وقال تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ [الحج/٢٨]، قيل: هي الأجر والتجارات في الموسم، فبين أم القرى وسدرة المنتهى من المناسبة ما لا يخفى، إذ سدرة المنتهى ينتهي إليها علم الخلائق، ومكة ينتهي إليها أهل الآفاق، شرقًا وغربًا، وفيها يكون الاجتماع، فكان بلوغه إلى سدرة المنتهى تنبيهًا على بلوغه إلى فتح مكة أم القرى في العام الثامن، وقد غشيها الجراد، أو الفراش الذي هو جند من جند اللّه، جاء اللفظان معًا في الحديث، كما غشي مكة في الفتح جند اللّه وحزبه، وغشيها أيضًا أجناس من الخلق، وألوان من الأسود والأحمر، كما غشي سدرة المنتهى ألوان لا يعلمها إلا اللّه، ولما غشيت الألوان السدرة، حسنت إلى أن لا

وأما قوله ﷺ في الحديث: ثم أتيت بإناء من خمر، وإنا من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فشربت منه فقال جبريل: هي الفطرة التي أنت عليها.

فيدل على أنه عرض عليه الآنية مرتين، مرة ببيت المقدس، ومرة عند وصوله سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة.

وأما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها، فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، ومجموعها أربعة أوانٍ، فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي

يحسن أحد أن ينعتها لفرط الحسن، كما أن ألوان الخلق لما غشيت مكة يوم الفتح حسنت حينئذ بالإيمان وبأهل القرآن حتى لا يحسن أحدًا أن يصف حالها حينئذ من عظم الشأن، ثم كان ظهور الأنهار الأربعة حينئذ دليلاً على أن ملك الأمة سيبلغها، ويحققه أيضًا قوله ﷺ: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»، دل على أنه عليه الصلاة والسلام يكشف له رأى العين علامات تدل على ما سيكون في المستقبل، ولم يكن ذلك منامًا يعبر عنه، ولكنه علم يظهر، ويتفرس فيه بنور النبوة ما سيقع حتى تكون الصور في حقه عليه السلام دالة دلالة الألفاظ على المعاني، كذلك هذه الإشارات الواقعة في حديث الإسراء انتهى.

(**وأما قوله ﷺ في الحديث**) السابق من رواية لمالك بن صعصعة: (**ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فشربت منه، فقال جبريل: هي الفطرة**) علامة الإسلام (**التي أنت عليها**) وأمتك، (**فيدل**) مع رعاية ما مر من أحاديث عرضها عليه ببيت المقدس، (**على أنه عرض عليه الآنية مرتين**،) وإلا فهو لا يدل بذاته إلا على مرة واحدة عند السدرة، (**مرة ببيت المقدس**،) وسببه ما وقع له من العطش، (**ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى، ورؤية الأنهار الأربعة**) السابقة في قوله: وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، وتقدم أن جمعًا من الحفاظ جمعوا بينهما بالتعدد أعمالاً للأحاديث لصحة جميعها، وأن الحافظ زاد احتمال أن «ثم» هنا على غير بابها من الترتيب، وإنما هي بمعنى الواو.

(**وأما الاختلاف في عدد الآنية**:) جمع إناء، كوعاء وزنا ومعنى، ففي هذا الحديث قال: إنها ثلاثة.

وفي مسلم، عن أنس والصحيحين، عن أبي هريرة: إناءين، إناء من خمر وإناء من لبن، وللبزار، عن أبي هريرة والبيهقي، عن أنس، فعرض عليه الماء والخمر واللبن، (**وما فيها**،) كما رأيت، (**فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر**،) لنسيان أو نقص في السماع، أو نحو ذلك، (**ومجموعها**،) أي: الأواني، التي اشتملت عليها الروايات المختلفة (**أربعة أوان**،)

رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى.

ووقع في حديث أبي هريرة عند الطبري: سدرة المنتهى يخرج من أصلها أربعة أنهار نهر من ماء غير آنس، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر لذة للشاربين، ونهر من عسل مصفى.

فلعله عرض عليه من كل نهر إناء.

وجاء عن كعب: أن نهر العسل نهر النيل، ونهر اللبن نهر جيحان، ونهر الخمر نهر الفرات، ونهر الماء نهر سيحان.

ولنهر النيل فضائل ولطائف أفردها بالتأليف غير واحد من الأئمة.

ووقع في بعض الطرق: أنه ﷺ صلى بالأنبياء في السموات.

كما علمت: جمع إناء أيضًا، والأولى رسم أوان بلا ياء، كما في أكثر النسخ، وهو الأكثر، ويجوز إثباتها، كما في نسخة: وأما النطق فبلا ياء اتفاقًا، وهذا بخلاف ما عرف بأل، فالأكثر رسمه بالياء، كالقاضي، **(فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى)**.

(ووقع في حديث أبي هريرة عند الطبري) محمد بن جرير بيان ما في الأنهار الأربعة، ففيه لما ذكر، **(سدرة المنتهى يخرج من أصلها أربعة أنهار، نهر من ماء غير آسن)** بالمد والقصر، كضارب وحذر، أي: متغير طعمه وريحه، بخلاف ماء الدنيا، فيتغير لعارض، **(ونهر من لبن لم يتغير طعمه)** بخلاف لبن الدنيا، لخروجه من الضرع بتغير إذا مكث، **(ونهر من خمر لذة)** لذيذة **(للشاربين)** بخلاف خمر الدنيا، كريهة عند الشرب، **(ونهر من عسل مصفى)** بخلاف عسل الدنيا، لخروجه من بطون النحل، يخالطه الشمع وغيره، وهذا قد يفيد بيان المحال التي جيء بها بهذه الأواني، منها كما قال: **(فلعله عرض عليه من كل نهر إناء)** إكرامًا له.

(وجاء عن كعب) عند البيهقي وغيره: **(أن نهر العسل)** في الجنة **(نهر النيل، ونهر اللبن نهر جيحان، ونهر الخمر نهر الفرات، ونهر الماء نهر سيحان)** فهي الآن وإن كانت كلها ماء، لكن أصولها التي خرجت منها، وهي الجنة مختلفة بالأربعة.

(ولنهر النيل فضائل ولطائف، أفردها بالتأليف غير واحد من الأئمة، ووقع في بعض الطرق؛ أنه ﷺ صلى بالأنبياء في السموات) فإن ثبت تكون صلاته متعددة ببيت المقدس، وفي السماء على قياس عرض الأواني، لكن قدم المصنف عن ابن كثير ما حاصله أن هذا لم

وأما قوله عليه السلام في الحديث: ثم رفع إلي البيت المعمور.

فمعناه أنه أري البيت المعمور له، ويحتمل أن يكون المراد الرفوع والرؤية معًا، لأنه قد يكون بينه وبين البيت المعمور عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع إليه وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه.

وروى الطبري من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «البيت المعمور مسجد في السماء بحذاء الكعبة لو خرَّ لخرَّ

يصح، والذي تظاهرت به الروايات أنه إنما أمهم ببيت المقدس.

(**وأما قوله عليه السلام:**) وكان الأولى تقديمه على قوله: ثم أتيت.. الخ، لأنه (**في الحديث**) مقدم على قوله، (**ثم رفع**) بضم الراء وكسر الفاء، (**إلى البيت المعمور، فمعناه أنه أري البيت المعمور له**) وهو مكانه، لا أنه جيء له به.

(**ويحتمل أن يكون المراد الرفوع**) صوابه الرفع، كما عبر به الشامي، وهو ما ذكره الجوهري وأتباعه مصدر الرفع، وزعم بعضهم أنه مصدر لرفع عدل إليه، لئلا يتوهم أنه أحد علامات الإعراب ليس بشيء، إذ لا يخطر ببال عاقل ذلك، مع قوله: البيت المعمور، ولا نعلم أحدًا ذكر الرفوع مصدرًا، (**والرؤية معًا، لأنه قد يكون بينه وبين البيت عوالم:**) بكسر اللام، جمع عالم، بفتحها، قياسًا مطردًا باتفاق، (**حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع إليه، وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه**).

زاد الشامي على هذا وقد يحتمل أن تلك العوالم التي كانت بينه وبينه أزيلت حتى أدركه ببصره، وقد يحتمل أن العالم بقي على حاله والبيت على حاله، وأمد في بصره وبصيرته حتى أدركه وعاينه، والقدرة صالحة للكل. انتهى، ولم أعلم حقيقة المراد من هذه الاحتمالات، وقد قال ﷺ: «فدخلت البيت المعمور»، أخرجه البيهقي كما يأتي، وليس هذا كقوله: رفع لي بيت المقدس، لأن قوله هذا لما سألوه بمكة عنه، عن أشياء لم يكن أثبتها، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، وأما البيت المعمور، فقد أخبر أنه رفع إليه بعد إخباره أنه رأى إبراهيم مسندًا ظهره إليه، فالمتبادر أنه رفع ورؤية معا، وتأيد بدخوله وصلاته فيه، حينئذ كما يأتي.

(**وروى الطبري**) محمد بن جرير (**من حديث سعيد بن أبي عروبة**) مهران اليشكري، مولاهم البصري، ثقة، حافظ، من رجال الجميع، من أثبت الناس في قتادة، له تصانيف، (**عن قتادة**) ابن دعامة، (**قال: ذكر لنا**) الذاكر له ذلك الحسن البصري، ففي رواية الحسن بن سفيٰن في مسنده، عن قتادة، حدثنا الحسن، عن أبي هريرة (**أن النبي ﷺ قال: البيت المعمور مسجد في السماء**) السابعة، كما في أكثر الروايات، وجاء من وجه آخر عن أنس مرفوعًا؛ أنه

عليها، يدخله سبعون ألف ملك كل يوم للعبادة، إذا خرجوا منه لم يعودوا».

وفي هذا دليل على عظيم قدرة اللّٰه تعالى، وأنه لا يعجزها شيء ممكن، لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق اللّٰه الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبدًا. ومع أنه قد روي أنه ليس في السماء ولا في الأرض موضع شبر إلا وملك واضع جبهته هناك ساجدًا، ثم البحار

في السماء الرابعة، وبه جزم شيخنا في القاموس، وقيل: في السماء السادسة، وقيل: هو تحت العرش، وقيل: بناه آدم لما أهبط إلى الأرض، ثم رفع زمن الطوفان، وكان هذا شبهة من قال: إنه الكعبة، جاء ذلك عن الحسن، ومحمد بن عباد بن جعفر، والأول أكثر وأشهر، أي: كونه غير الكعبة، كذا ذكره الحافظ في بدء الخلق، وهو ينافي قوله في الصلاة أنه في السابعة، بلا خلاف.

وما ورد عن علي أنه في السادسة، وعن غيره أنه في سماء الدنيا، محمول على ما جاء عن علي أيضًا، أن في كل سماء بيتًا يحاذي الكعبة، وكل منها معمور بالملائكة، وقدمت عبارته (**بحذاء الكعبة، لو خر لخر عليها،**) وقوله: (**يدخله سبعون ألف ملك كل يوم للعبادة، إذا خرجوا منه لم يعودوا،**) هذه الجملة أيضًا في مسلم من رواية ثابت، عن أنس، ووقعت في بدء الخلق من البخاري مدرجة في حديث لملك بن صعصعة، كما مر.

وروى إسحٰق بن راهويه، والطبري، وغيرهما: أن ابن الكوّاء سأل عليًا عن السقف المرفوع، قال: السماء، وعن البيت المعمور قال: بيت في السماء السابعة، بحيال البيت، حرمته في السماء كحرمته في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه.

ولابن مردويه عن ابن عباس نحوه، وزاد: وهو على مثل البيت الحرام، لو سقط لسقط عليه.

ومن حديث عائشة نحوه بإسناد صالح.

ومن حديث عبد اللّٰه بن عمر ونحوه بإسناد ضعيف، وهو عند الفاكهي في كتاب مكة بإسناد صحيح عنه، لكن موقوفًا عليه.

(**وفي هذا دليل على عظيم قدرة اللّٰه تعالى، وأنه لا يعجزها شيء ممكن، لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق اللّٰه الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبدًا**) إلى يوم القيامة، كما جاء في حديث أبي سعيد عند ابن إسحٰق، (**ومع**) ذلك الأمر الدال على عظم القدرة؛ (**أنه قد روي**) ما هو أعظم في الدلالة منه؛ (**أنه ليس في السماء، ولا في الأرض موضع شبر إلا وملك واضع جبهته هناك ساجدًا**).

ما من قطرة إلا ولها ملك موكل، فإذا كانت السموات والأرض والبحار هكذا، فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء.

وفي هذا دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه إذا كان سبعون

روى البيهقي، عن ابن مسعود، قال: ما في السموات سماء منها موضع إلا وعليه جبهة ملك، أو قدماه.

وأخرج أبو الشيخ، عن عائشة، رفعته: «ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد، أو قائم».

وروى أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الحاكم، عن أبي ذر رفعه: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما منها موضع أربعة أصابع إلا وعليه ملك واضع جبهته».

وروى ابن أبي حاتم، والطبراني، والضياء، عن حكيم بن حزام: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا عليه ملك ساجد، أو قائم.

وروى ابن منده عن العلاء بن سعيد، ممن بايع يوم الفتح مرفوعًا: أطت السماء، وحق لها أن تئط، ليس منها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم، أو راكع، أو ساجد، ثم قرأ: ﴿وإنا لنحن الصَّافُّونَ وإنا لنحن المسبحون﴾ [الصافات/١٦٥، ١٦٦]، ولم أقف على مثل ذلك في الأرض، كما ذكر المصنف.

نعم، روى ابن أبي حاتم، عن كعب، قال: ما من موضع خرم إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وعلى المؤلف مغمز في حصره ذلك في السجود، مع أن الأحاديث، كما ترى ناصة على أنه فيه، وفي الركوع والقيام. هذا وأورد النعماني على هذا كيف مر ﷺ ليلة المعراج، وأجاب بأن الملك رفع رأسه حتى مر، أو حمله على يديه، كما في حديث حجاب الذهب؛ أن الملك احتمله حتى وضعه بين يديه، وهذا على القول الصحيح؛ أن الملائكة متحيزة، تملأ الحيز، أما على أنها أرواح غير متحيزة، ولا تملأ حيزًا، فلا سؤال.

(ثم البحار ما من قطرة إلا ولها ملك موكل، فإذا كانت السموات والأرض والبحار هكذا) مملوءة بالملائكة، **(فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون، هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء، وفي هذا دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات،)** وقد قال ﷺ: «ليس شيء من خلق الله أكثر من الملائكة، ما من شيء ينبت إلا وملك موكل به» رواه أبو الشيخ.

وقال ابن عمر: ليس أكثر من الملائكة، رواه البزار، وقال تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك

ألف ملك كل يوم يصلون في البيت المعمور على ما تقدم، ثم لا يعودون إليه، مع أن الملائكة في السموات والأرض والبحار.

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وابن أبي حاتم: أن في السماء نهرًا يقال له: الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه، ثم يخرج فينتفض، فيخرج عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكًا، هم الذين يصلون فيه، أي في البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه. وإسناده ضعيف.

إلا هو﴾ [المدثر/٣١]، (**لأنه إذا كان سبعون ألف ملك كل يوم يصلون في البيت المعمور، على ما تقدم، ثم لا يعودون إليه**) إلى يوم القيامة، (**مع أن الملائكة في السموات والأرض والبحار**،) لزم أن تكون الملائكة أكثر من جميع المخلوقات غير الملائكة، فإن المخلوقات بأسرها في بعض الأرض، وأكثر الأرض خال منها، فحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه.

وفي فتح الباري: واستدل به على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه لا يعرف من جميع العوالم من يتجدد من جنسه في كل يوم سبعون ألفًا غير الملائكة.

(**وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه، وابن أبي حاتم**،) والعقيلي عن النبي ﷺ: في السماء السابعة بيت يقال له: البيت المعمور، بحيال الكعبة، (**أن**) زائدة من المصنف لإسقاطه أول الحديث المذكور، ولفظه: و (**في السماء**) الرابعة، كما في نفس حديث أبي هريرة هذا (**نهرًا**،) بالنصب، اسم إن التي زادها، والرواية بالرفع، لأنه ليس فيها أن (**يقال له الحيوان، يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه**) انغماسة، كما هو الرواية، (**ثم يخرج فينتفض**) انتفاضة، كما في الرواية، (**فيخرج**)، أي ينفصل، (**عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكا، هم الذين يصلون فيه، أي: في البيت المعمور**،) لفظ الرواية: يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور، فيصلون، فيفعلون، (**ثم لا يعودون إليه**،) ولفظ الرواية: ثم يخرجون، فلا يعودون إليه أبدًا، ويولي عليهم أحدهم، ثم يؤمر أن يقف بهم في السماء موقفًا، يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة، (**وإسناده ضعيف**،) كما جزم به الحافظ في بدء الخلق.

وزاد، وروى ابن المنذر ونحوه بدون ذكر النهر من طريق صحيحة، عن أبي هريرة، لكن موقوفًا، انتهى. لكن حكمه الرفع، إذ لا يقال رأيا، فاعتضد ضعف طريق رفعه، ولذا قال الشامي: الصواب أنه ليس بموضوع، أي: كما زعمه بعضهم.

وروى أبو الشيخ عن الليث: حدثني خالد بن سعد، قال: بلغني أن إسرافيل مؤذن أهل السماء، فيؤذن لاثنتي عشرة ساعة من النهار، ولاثنتي عشرة ساعة من الليل، لكل ساعة تأذين،

وذكره الإمام فخر الدين الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾ [النحل/٨] أنه روي عن عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال: إن عن يمين العرش نهرًا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع، يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيه، فيزداد نورًا إلى نوره وجمالاً إلى جماله، ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم البيت المعمور سبعون ألفًا، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة.

وقد روي أن ثم ملائكة يسبحون الله تعالى، فيخلق الله بكل تسبيحة ملكًا.

يسمع تأذينه من في السموات السبع، ومن في الأرضين السبع، إلا الجن والإنس، ثم يتقدم عظيم الملائكة، فيصلي بهم، قال: وبلغنا أن ميكئيل يؤم الملائكة بالبيت المعمور.

وروى الديلمي عن علي، مرفوعًا: «مؤذن أهل السموات جبريل، وإمامهم ميكائيل، يؤم بهم عند البيت المعمور، فيجتمع ملائكة السموات، فيطوفون بالبيت المعمور، وتصلي وتستغفر، فيجعل الله ثوابهم، واستغفارهم وتسبيحهم لأمة محمد ﷺ»، فإن صحا، فلعل إسرافيل وجبريل يتناوبان الأذان، أو يؤذنان في آن واحد معًا، أو واحد بعد واحد.

(**وذكره الإمام فخر الدين الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** [النحل/٨] ، **أنه روي عن عطاء ومقاتل والضحاك، عن ابن عباس أنه قال: إن عن يمين العرش نهرًا من نور مثل السموات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع،**) لعل المراد سيحان وجيحان والنيل والفرات وسيحون وجيحون والملح، (**يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر، ويغتسل فيه، فيزداد نوراً إلى نوره، وجمالاً إلى جماله، ثم ينقض، فيخلق الله تعالى من كل نقطة تقع من ريشة، كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم البيت المعمور، سبعون ألفًا، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة،**) وفي هذا مخالفة لما قبله من وجهين: أحدهما في النهر الذي يدخله، والثاني صريح الأول، أنه لا يخرج منه غير سبعين ألفًا، والثاني يخرج منه أكثر، يدخل منهم البيت سبعون ألفً، والجمع بينهما، يجوز أن المراد بالسبعين التكثير، وأن جبريل ينغمس في البحرين، ومن يدخل البيت المعمور بعضهم يخلق من القطرات الخارجة عنه عند انتفاضه من بحر الحيوان، وبعضهم مما ينفصل عنه حين خروجه من بحر النور.

(**وقد روي أن ثم ملائكة يسبحون الله، فيخلق الله بكل تسبيحة ملكًا،**) وأخرج أبو الشيخ عن أبي سعيد، مرفوعًا: «إن في الجنة نهرًا ما يدخله جبريل من دخلة، فيخرج فينتفض.

هذا ما عدا الملائكة التي للتعبد، وما عدا الملائكة الموكلين بالنبات والأرزاق، والحفظة، والملك الموكل بتصوير ابن آدم، والملائكة الذين ينزلون في

إلا خلق الله من كل قطرة تقطر منه ملكًا».

وأخرج عن الأوزاعي، قال موسى: يا رب من معك في السماء؟، قال: ملائكتي، قال: وكم هم يا رب؟، قال: اثنا عشر سبطًا، قال: وكم عدد كل سبط؟، قال: عدد التراب.

وأخرج عن كعب: لا تقطر عين ملك منهم إلا كانت ملكًا يطير من خشية الله، **(هذا ما عدا الملائكة التي للتعبد)** أي: الذين خلقوا، وأمروا به دائمًا على صفة خاصة، كركوع، أو سجود، أو قيام.

قال ﷺ: «إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته، ما منهم من ملك يقطر من عينه دمعة إلا وقعت ملكًا قائمًا يسبح، وملائكة سجودًا منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم، ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وملائكة ركوعًا لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وصفوفًا لم ينصرفوا عن مصافهم، ولا ينصرفون عنها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة تجلى لهم ربهم عز وجل، فنظروا إليه، وقالوا: سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك»، رواه البيهقي وأبو الشيخ وغيرهما.

(وما عدا الملائكة الموكلين بالنبات) قال ﷺ: «ليس من خلق الله أكثر من الملائكة، ما من شيء ينبت إلا وملك موكل بها»، رواه أبو الشيخ، **(والأرزاق)** قال ﷺ: «إن لله ملائكة موكلين بأرزاق آدم، قال لهم: أيما عبد وجدتموه جعل الهم همًا واحدًا، فضمنوا رزقه السموات والأرض، وبني آدم، وأيما عبد وجدتموه طلب، فإن تحرى الصدق، فطيبوا له، ويسروا، وإن تعدى ذلك، فخلوا بينه وبين ما يريد، ثم لا ينال فوق الدرجة التي كتبتها له»، رواه الحكيم الترمذي في النوادر.

(والحفظة)، قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كرامًا﴾ [الإنفطار/ ١٠، ١١]، كما تبين، فقيل: على كل إنسان ملكان عن اليمين، وعن الشمال، وقيل: أربعة، اثنان ليلاً، واثنان نهارًا، وقيل: بزيادة ملك خامس، لا يفارقه لا ليلاً ولا نهارًا، وعن عثمان: يا رسول الله كم ملك مع العبد؟، قال: «ملك عن يمينك على حسناتك، وهو أمين على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كتبت عشرًا، وإذا عملت سيئة، قال الذي على الشمال للذي على اليمين أكتب، قال لا، لعله، يستغفر، فإذا قال ثلاثًا، قال: نعم، أراحنا الله منه، فبئس القرين ما أقل مراقبته لله تعالى، وأقل استحياءه من الله، يقول الله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله تعالى: له معقبات من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من أمر الله،

السحاب، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يتعاقبون، والذين يؤمنون على قراءة المصلي، والذين يقولون: ربنا ولك

وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت للّه رفعك، وإذا تجبرت على اللّه قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على النبي، وملك قائم على فيك لا يدع الحية أن تدخل في فيك، وملكان على عينيك، فهؤلاء عشرة يبدلون، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكًا على كل آدمي»، أخرجه ابن جرير.

وروى أبو داود في كتاب القدر، والطبراني وغيرهما، مرفوعًا: وكل بالمؤمن ستون وثلاثمائة ملك يدفعون ما لم يقدر عليه، الحديث.

(**والملك الموكل بتصوير ابن آدم**،) قال ﷺ: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث اللّه إليها ملكًا، فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها وشحمها وعظامها» الحديث، رواه مسلم.

وفي رواية الطبراني: إن النطفة إذا استقرت في الرحم، فمضى لها أربعون يومًا، جاء ملك الرحم، فصور عظمه ولحمه ودمه وشعره وبشره، وهذا غير الملك الموكل بالجنين.

روى أبو الشيخ بسند جيد، عن ابن عباس، قال: وكل بالجنين ملك، إذا نامت الأم واضطجعت، رفع رأسه، لولا ذلك لغرق في الدم، (**والملائكة الذين ينزلون في السحاب**،) يصرفونه حيث أمروا به، كما في حديث مرفوع عند أبي الشيخ.

(**والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة**،) روى أحمد والشيخان، عن أبي هريرة، مرفوعًا: إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على قدر منازلهم الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر.

وروى أحمد، وصححه الضياء، عن أبي سعيد، مرفوعًا: «إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد يكتبون من جاء من الناس على قدر منازلهم، فرجل قدم جزور أو رجل قدم بقرة، ورجل قدم شاة، ورجل قدم دجاجة، ورجل قدم عصفورًا، ورجل قدم بيضة، فإذا أذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر طووا الصحف، ودخلوا المسجد يستمعون الذكر».

(**وخزنة الجنة**) رضوان وأتباعه، وكذا خزنة النار لملك وجنده، قال تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المدثر/٣٠]، قال القرطبي: المراد بهم رؤساؤهم، وأما جملة الخزنة، فلا يعلم عدتهم إلا اللّه.

(**والملائكة الذين يتعاقبون**،) روى الإمام لملك والبخاري ومسلم، عن أبي هريرة: أن رسول اللّه ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة

الحمد، والذين يدعون لمنتظر الصلاة، والذين يلعنون من هجرت فراش زوجها.

وروي أن في السماء الدنيا ـ وهي من ماء ودخان ـ ملائكة خلقوا من ماء

الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين يأتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟، فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

قال ابن حبان: في هذا دليل واضح أن ملائكة الليل إنما تنزل، والناس في صلاة العصر، وحينئذ تصعد ملائكة النهار، ضد قول من زعم أن ملائكة الليل تنزل بعد غروب الشمس.

(والذين يؤمنون على قراءة المصلي) روى لملك والبخاري وغيرهما، عن أبي هريرة، مرفوعًا: إذا قال الإمام ﴿ولا الضالين﴾، فقولوا آمين، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه، وظاهر المصنف هنا؛ أنهم غير الحفظة، وبه قيل لرواية وافق قوله قول أهل السماء، وقيل: هم الحفظة، وأنهم إذا قالوها قالها من فوقهم حتى تنتهي إلى أهل السماء، قال بعض: ولو قيل بأنهم الحفظة وسائر الملائكة، لكان أقرب.

وقال الحافظ: الذي يظهر أن المراد بهم من يشهد تلك الصلاة من الملائكة ممن في الأرض، أو السماء.. الحديث.

وقالت الملائكة في السماء، ولمسلم: فوافق ذلك قول أهل السماء.

(والذين يقولون ربنا ولك الحمد..) الحديث، لملك والشيخين مرفوعًا، «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

(والذين يدعون لمنتظر الصلاة) قال ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»، رواه لملك وأحمد والبخاري ومسلم، زاد في رواية لأبي داود والنسائي وأحمد: أو يقوم بعد قوله يحدث.

(والذين يلعنون من هجرت فراش زوجها) قال ﷺ: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها، لعنتها الملائكة حتى تصبح»، رواه أحمد والشيخان، قيل: هم الحفظة أو من وكل منهم بذلك، أو أعم، ويرشد إليه رواية في مسلم: لعنتها الملائكة الذين في السماء، إن كان المراد به سكانها، وبسط القول في هذه الأحاديث يخرج عن المقصود، فإن المراد منها الاستدلال على كثرة الملائكة، مع أن المصنف لم يستوف جزئيات ذلك، كالملائكة الموكلين بالشمس، والريح، والمطر، وقبر المصطفى، والمبلغين له السلام من أمته، وغير ذلك مما يحتمل مؤلفًا حافلاً، ثم زاد في الاستدلال، فقال:

(وروي أن في السماء الدنيا، وهي من ماء ودخان) قال تعالى: ﴿ثم استوى إلى

وريح عليهم ملك يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت.

وأن في السماء الثانية ملائكة على ألوان وصفات شتى، رافعين أصواتهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأن فيها ملكًا نصف جسده من نار ونصف جسده

السماء وهي دخان﴾ [فصلت/١١]، روى عثمٰن بن سعيد الدارمي، عن ابن عمر، قال: لما أراد الله أن يخلق الأشياء، إذ كان عرشه على الماء، ولا أرض، ولا سماء خلق الريح، فسلطها على الماء حتى اضطربت أمواجه، وأثار أركانه، فأخرج من الماء دخانًا وطينًا وزبدًا، فأمر الدخان فعلاً، وسما ونما، فخلق منه السماء، وخلق من الطين الأرضين، ومن الزبد الجبال.

وأخرج ابن المنذر وابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة لما أراد الله أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخانًا، فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسماه سماء، وهذا نحو قول من قال: من موج مكفوف، إذ الموج لغة اضطراب الماء، فهو مكفوف عن الاضطراب.

(**ملائكة خلقوا من ماء وريح، عليهم ملك، يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر**) روى أحمد والترمذي وصححه، والنسائي عن ابن عباس: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالت: أخبرنا ما هذا الرعد؟، قال: «ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب، بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمر الله»، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟، قال: «صوته»، قالوا: صدقت.

(**يقولون**،) أي: الرعد وجنده، (**سبحان ذي الملك والملكوت**،) وفي العظمة عن ابن عباس: الرعد ملك يسوق السحاب بالتسبيح، كما يسوق الحادي الإبل بحدائه، ولا ينافي الحديث قبله في سوقه بمخراق من نار، لأنه يفعله بيده، ويسبح بلسانه حال سوقه.

وعن جابر سئل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب، فقال: إن ملكًا موكل بالسحاب يلم القاصية، ويلحم الدانية، في يده مخراق، فإذا رفع برقت، وإذا زجر رعدت، وإذا ضرب صعقت.

وعن عمرو بن بجاد، مرفوعًا: «اسم السحاب عند الله العنان، والرعد ملك، والبرق طرف ملك، يقال له روقيل». رواهما ابن مردويه.

(**وأن في السماء الثانية**،) وهي من مرمرة بيضاء، كما عند ابن راهويه، وأبي الشيخ والطبراني وغيرهم، عن الربيع بن أنس (**ملائكة على ألوان**،) أي: أنواع، (**وصفات شتى**،) متفرقين فيما أمروا به من العبادة المختلفة، (**رافعين أصواتهم، يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت**، و) روي مما هو افتراء؛ (**أن فيها ملكًا، نصف جسده**) الأسفل (**من نار، ونصف**

من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفىء النار، وهو يقول: يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين.

وأن في الثالثة ـ وهي من حديد ـ ملائكة ذوي أجنحة ووجوه شتى وأصوات شتى، رافعين أصواتهم بالتسبيح يقولون: سبحانك اللّهم أنت الحي الذي لا تموت، وهم صفوف قيام، كأنهم بنيان مرصوص، لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية اللّه.

جسده) الأعلى **(من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفىء النار، وهو يقول: يا من ألف بين الثلج والنار،)** فلم يبغ أحدهما على الآخر، مع أنهما ضدان، **(ألف بين قلوب عبادك المؤمنين،)** وفيه جواز إطلاق الأسماء المبهمة على اللّه في مقام الدعاء، وبه صرح بعضهم، ولا يرد أن كثيرًا من الناس قلوبهم مختلفة، ودعاء الملائكة مستجاب، لأن مختلفي القلوب بينهم ائتلاف في الجملة يمنعهم من استئصال بعضهم بعضًا، واختلافهم إنما هو لأغراض دنيوية، لا من جميع الوجوه، أو أن الإضافة في عبادك للتخصيص بالكاملين الذين استحقوا أن يضافوا إليه، لكن هذا الحديث أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، مرفوعًا: «لما أسري بي، مررت بخلق عجيب، رأيت ملكًا نصف جسده مما يلي رأسه ثلج، والآخر نار، يكون ما بينهما رتق، فلا النار يذيب الثلج، ولا الثلج يذيب النار، وهو قائم ينادي بصوت رفيع جدًا، يقول: سبحان ربي الذي كف برد هذا الثلج، فلا يطفىء حر هذه النار، سبحان ربي الذي كف حر هذه النار، فلا تذيب الثلج، اللهم يا من ألف بين الثلج والنار، ألف بين قلوب عبادك المؤمنين، فقلت: من هذا يا أخي جبريل؟، قال: هذا ملك من الملائكة، وكله اللّه بأكتاف السموات وأطراف الأرضين، وهو من أفصح الملائكة لأهل الأرض من المؤمنين، يدعو لهم بما تسمع، فهذا قوله منذ خلق». وذكر حديثًا طويلاً فيه عجائب، وهو موضوع، كما قاله ابن حبان، وابن الجوزي، والحافظ في اللسان، والذهبي في الميزان.

(وأن في الثالثة، وهي من حديد ملائكة ذوي) صفة لملائكة، وفي نسخة: ذوا على لغة من يلزم المثنى الألف، وفي أخرى: ذو خبر محذوف، أي: هم ذوو **(أجنحة، ووجوه شتى:)** جمع شتيت، كمريض ومرضى، أي: متفرقات في الصور، **(وأصوات شتى، رافعين)** حال، وفي نسخة: رافعو بتقديرهم **(أصواتهم بالتسبيح، يقولون: سبحانك اللّهم، أنت الحي الذي لا تموت،)** (بفوقية) مراعاة للفظ أنت، وتحتية مراعاة للفظ الحي، **(وهم صفوف قيام، كأنهم بنيان مرصوص،)** ملزوق بعضه إلى بعض ثابت، **(لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية اللّه،)** لأنه ما نظر واحد منهم إلى وجه صاحبه، ولا ينظر إليه إلى يوم القيامة، كما في العظمة عن خالد

وأن في الرابعة ـ وهي من نحاس ـ ملائكة يضعفون على ملائكة الثالثة، وكذلك كل سماء أكثر عددًا من السماء التي تليها، وأن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة، يبعث اللّٰه الملك منهم إلى أمر من أموره، فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي إلى جنبه من شدة العبادة وهم يقولون. سبوح قدوس، ربنا الرحمٰن الذي لا إله إلا هو.

وأن في السماء الخامسة ـ وهي من فضة ـ ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سمٰوات، وهم سجود وركوع لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قالوا: ربنا، لم نعبدك حق عبادتك.

وأن في السماء السادسة ـ وهي من ذهب ـ جند اللّٰه الأعظم الكروبيون، لا

ابن معدان، (**وأن في الرابعة، وهي من نحاس ملائكة يضعفون**،) يزيدون (**على ملائكة الثالثة**،) مثلهم فأكثر عند الخليل.

وقال الأزهري: الضعف في كلام العرب، المثل، ثم استعمل فيه وما زاد بلا حد.

(**وكذلك كل سماء أكثر عددًا من السماء التي تليها، وأن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود على ألوان**،) أنواع، (**شتى**:) متفرقات (**من العبادات، يبعث اللّٰه الملك منهم إلى أمر من أموره، فينطلق الملك، ثم ينصرف، فلا يعرف**) المبعوث (**صاحبه الذي إلى جنبه**) ليرجع إليه، فصاحبه بالنصب، ويجوز رفعه على معنى أن الباقي بمحله لا يعرف هل انصرف الذاهب أم لا، (**من شدة العبادة**) واشتغاله بها، (**وهم يقولون: سبوح قدوس**:) (بضم أولهما)، أي: منزه عن كل سوء وعيب، والأظهر أنه خبر لقوله: (**ربنا الرحمٰن الذي لا إله إلا هو، وأن في السماء الخامسة، وهي من فضة ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سموات، وهم سجود وركوع، لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان**) يوجد (**يوم القيامة، قالوا: ربنا لم نعبدك حق عبادتك**،) اعتذارًا واعترافًا بالتقصير، وإظهارًا لكمال عظمته وأنعامه، بحيث لا يقدر أحد على القيام بشكر ما يقابل نعمة من نعمه.

(**وأن في السماء السادسة، وهي من ذهب جند اللّٰه**،) وجند اسم جنس مفرد، ولذا وصف بقوله (**الأعظم الكروبيون**،) قال الحليمي: ملائكة العذاب من الكرب، وفي القاموس: الكروبيون سادة الملائكة، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وهم المقربون من كرب، إذا قرب، وفي تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم: سئل ابن دحية هل يعرف لغة أم لا؟، فقال: الكروبيون بتخفيف الراء، سادة الملائكة، وهم المقربون من كرب إذا قرب، أنشد أبو علي البغدادي:

يحصي عددهم إلا اللّه تعالى، عليهم ملك له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك، وهم الذين يبعثهم اللّه في أموره إلى أهل الدنيا رافعوا أصواتهم بالتسبيح والتهليل.

وأن في السماء السابعة - وهي من ياقوتة حمراء - من الملائكة ما يزيدون على ما تقدم، وعليهم ملك مقدم على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء، وتراب الثرى والرمل والسهل، وعدد الحصى والورق، وعدد كل شيء خلق في السموات والأرض، ويخلق اللّه تعالى في كل يوم ما يشاء، ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر/٣١].

كروبية منهم ركوع وسجد

وقال الطيبي عن بعضهم: في هذه اللفظة ثلاث مبالغات، إحداها أن كرب، أبلغ من قرب حين وضع موضع كاد، تقول: كربت الشمس، أن تغرب، كما تقول: كادت، والثانية أنه على وزن فعول، وهو للمبالغة، والثالثة زيادة الياء فيه، وهي تزاد، للمبالغة، كأحمري، ذكره في الحبائك.

(لا يحصي عددهم إلا اللّه تعالى، عليهم ملك) أمير **(له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك، وهم الذين يبعثهم اللّه في أموره إلى أهل الدنيا رافعوا أصواتهم بالتسبيح والتهليل)**.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو يرفعه: «الملائكة عشر أجزاء، تسعة أجزاء الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار، لا يفترون، وجزء قد وكلوا بخزانة كل شيء، وما في السماء وضع إهاب إلا فيه ملك ساجد، أو ملك راكع».

(وإن في السماء السابعة، وهي من ياقوتة حمراء من الملائكة ما) أي: ملائكة، **(يزيدون على ما تقدم، وعليهم ملك مقدم على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء وتراب الثرى)** في الكثرة، **(والرمل، والسهل، وعدد الحصى، والورق، وعدد كل شيء خلق في السموات والأرض، ويخلق اللّه تعالى في كل يوم ما يشاء، ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾)**.

وروى أبو الشيخ، مرفوعًا: خلق اللّه السماء الدنيا، فجعلها سقفًا محفوظًا، وجعل فيها جرسًا شديدًا، وشهبًا، ساكنها من الملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع في صورة البقر، مثل عدد النجوم، لا يفترون من التسبيح والتهليل والتكبير.

وأن حملة العرش، لكل منهم وجوه شتى وأعين شتى في جسده، لا يشبه بعضها بعضًا، رافعة أصواتهم بالتهليل، ينظرون إلى العرش لا يفترون، لو أرسل الملك منهم جناحه لطبق الدنيا بريشة من جناحه، لا يعلم عددهم إلا اللَّه.

وأما السماء الثانية، فساكنها عدد القطر في صورة العقبان لا يسأمون، ولا يفترون، ولا ينامون، منها ينشأ السحاب حتى يخرج من تحت الخافقين، فينشر في جو السماء، معه ملائكة يصرفونه حيث أمروا به، أصواتهم التسبيح، ونشحهم تخويف.

وأما السماء الثالثة، فساكنها عدد الرمل في صورة الناس، يحشرون الليل النهار.

وأما السماء الرابعة، فساكنها عدد أوراق الشجر، صافون مناكبهم في صورة الحور العين من بين راكع وساجد، تبرق وجوههم، سبحات ما بين السملوات السبع والأرض السابعة.

وأما السماء الخامسة، فإن عددها يضعف على عدد سائر الخلق على صورة البشر منهم الكرام البررة، والعلماء السفرة.

وأما السماء السادسة، فحزب اللَّه الغالب وجنده الأعظم في صورة الخيل المسوّمة.

وأما السماء السابعة، ففيها الملائكة المقربون الذين يرفعون الأعمال في بطون الصحف، ويحفظون الخيرات، فوقها حملة العرش الكروبيون، (و) روي: **(أن حملة العرش لكل منهم وجوه شتى، وأعين شتى في جسده لا يشبه بعضها بعضًا)**.

روى عبد الرزاق وابن المنذر وغيرهما، عن وهب، قال: حملة العرش أربعة، لكل ملك منهم أربعة وجوه، وأربعة أجنحة، جناحان على وجهه من أن ينظر إلى العرش، فيصعق، وجناحان يطير بهما، وأقدامهم في الثرى، لكل واحد منهم وجه ثور وأسد وإنسان ونسر، ليس لهم كلام إلا أن يقولوا: سبوح، قدوس، اللَّه القوي ملأت عظمته السملوات والأرض.

وزاد أبو الشيخ عن وهب: ملك منهم في صورة إنسان يشفع لبني آدم في أرزاقهم، وملك في صورة نسر يشفع للطير في أرزاقها، وملك في صورة نور يشفع للبهائم في أرزاقها، وملك في صورة أسد يشفع للسباع في أرزاقها، فلما حملوا العرش وقعوا على ركبهم من عظمة اللَّه، فلقنوا لا حول ولا قوة إلا باللَّه، فاستووا على أرجلهم قيامًا.

وروى عثملن بن سعيد الدارمي، عن ابن عباس، قال لحملة العرش: قرون لها كعوب ككعوب القنا، ما بين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، وبين أرنبته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، ومن ترقوته إلى موضع القرط خمسمائة عام، **(رافعة أصواتهم بالتهليل، ينظرون إلى العرش لا يفترون، لو أرسل الملك منهم جناحه لطبق:)** بشد الباء، غطى **(الدنيا بريشة من جناحه، لا يعلم عددهم إلا اللَّه)**.

حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم، تقول أربعة منهم: سبحانك اللّٰهم وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول أربعة: سبحانك اللّٰهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

وقد روى الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل:

(و) روى ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب، عن هُرون بن رياب، قال: (**حملة العرش ثمانية**،) رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة، وأقدامهم في الأرض السفلى، ولهم قرون كقرون الوعلة، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه مسيرة خمسمائة عام، (**يتجاوبون بصوت حسن رخيم**،) أي: سهل، (**تقول أربعة منهم: سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول أربعة: سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك**.) وهذا ظاهر أن الثمانية في الدنيا، ولكن روى ابن جرير، عن ابن زيد، عن النبي ﷺ، قال: يحمله اليوم أربعة، ويوم القيامة ثمانية، وروى أبو الشيخ، عن وهب: حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة أخرى.

وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [الحاقة/١٧]، قال: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدتهم إلا اللّٰه، والأصل الحقيقة، لا أنه تمثيل لعظمته تعالى بالمشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم للقضاء العام بين الناس، وحكى الضحاك في الآية قولين: ثمانية أملاك، وثمانية صفوف.

(**وقد روى الطبراني**،) والبيهقي، وأبو الشيخ (**من حديث ابن عباس، قال**:) بينا رسول اللّٰه ﷺ ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء، فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه في بعض، ويدنو من الأرض، فإذا ملك قد مثل بين يدي رسول اللّٰه ﷺ، فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام، ويخيرك بين أن تكون نبيًا ملكًا، أو نبيًا عبدًا، قال ﷺ، فأشار جبريل إليّ بيده، أن تواضع، فعرفت أنه لي ناصح، فقلت نبيًا عبدًا، فعرج ذلك الملك إلى السماء، فقلت: يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا، فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة، فمن هذا يا جبريل؟، قال: هذا إسرافيل خلقه اللّٰه يوم خلقه، صافًا قدميه، لا يرفع طرفه، بينه وبين الرب سبعون نورًا، ما منها نور يدنو منه إلا احترق، بين يديه اللوح المحفوظ، فإذا أذن اللّٰه في شيء من السماء، أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح، فضرب جبهته، فينظر فيه، فإن كان من عملي أمرني به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به.

(**قال رسول اللّٰه ﷺ لجبريل: على أي: شيء أنت؟**،) أي: أنت موكل على أي شيء

على أي شيء أنت؟ قال على الرياح والجنود، قال: وعلى أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر، قال: وعلى أي شيء ملك الموت؟ قال: على قبض الأرواح، الحديث، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، وقد ضعف لسوء حفظه ولم يترك.

وروى الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعًا: «فوزيراي من أهل السماء: جبريل وميكائيل». الحديث.

وروى النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة، وأنه جوزي على ذلك بولاية اللوح المحفوظ.

تقوم به وتدبره، (**قال: على الرياح والجنود، قال: وعلى أي شيء ميكئيل؟، قال: على النبات والقطر**) أي: أنهما رأسا الموكلين بذلك، (**قال: وعلى أي شيء ملك الموت؟، قال: على قبض الأرواح**).

وفي لفظ: الأنفس، أي: وله أعوان، قال تعالى: ﴿توفته رسلنا﴾ [الأنعام/٦١]، (**الحديث**) بقيته: وما ظننت أنه هبط إلا بقيام الساعة، وما ذاك الذي رأيت مني إلا خوفًا من قيام الساعة، (**وفي إسناده محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى**) الأنصاري، الكوفي، القاضي أبو عبد الرحمٰن، مات سنة ثمان وأربعين ومائة، (**وقد ضعف لسوء حفظه**) جدًا، (**ولم يترك**) بل روى له أصحاب السنن الأربعة، لأنه صدوق.

(**وروى الترمذي**) بإسناد صحيح، والحاكم، وصححه (**من حديث أبي سعيد، مرفوعًا:**) إن لي وزيرين من أهل السماء، ووزيرين من أهل الأرض، (**فوزيراي من أهل السماء جبريل وميكئيل**،) ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر، هذا تمامه المشار له بقوله، (**الحديث**،) وأخرجه الحكيم الترمذي من حديث ابن عباس.

وأخرج البزار والطبراني، وأبو نعيم، عن ابن عباس، رفعه: إن الله أيدني بأربعة وزراء اثنين من أهل السماء، جبريل وميكئيل، واثنين من أهل الأرض أبي بكر وعمر، قال القرطبي: وفيه دلالة أن المصطفى أفضل من جبريل وميكئيل، والوزير من الوزر، وهو الثقل، فإنه يتحمل عن الملك أوزاره، قال تعالى حكاية عن موسى: ﴿واجعل لي وزيرًا من أهلي﴾ [طه/٢٩].

وروى أبو يعلى وابن عساكر، عن أبي ذر، مرفوعًا: «إن لكل نبي وزيرين، ووزيراي وصاحباي أبو بكر وعمر».

(**وروى النقاش أن إسرافيل أول من سجد**) لآدم (**من الملائكة**) حين أمروا بالسجود، (**وأنه جوزي على ذلك بولاية اللوح المحفوظ**،) بأن جعل مطلعًا عليه، ومتصرفًا فيه بنقل ما

وفي كتاب «العظمة» لأبي الشيخ ابن حبان من ذلك العجب العجاب، وعندي منه الجزء الثاني.

وقد وقعت في غير رواية البخاري هنا زيادات:

فمنها ما وقع في رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي في دلائله: ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا إبراهيم الخليل ساند ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي، وإذا أنا بأمتي شطرين، شطر عليهم ثياب بيض كأنهم القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمدة، قال:

فيه للملائكة، كما في حديث ابن عباس المتقدم قريبًا.

وروى أبو الشيخ، عن عائشة، رفعته: لإسرافيل أربعة أجنحة، منها جناحان: أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب، واللوح بين عينيه، فإذا أراد الله أن يكتب الوحي ينقر بين جبهته.

وروى أبو الشيخ وابن أبي حاتم، عن ضمرة، قال: بلغني أن أول من سجد لآدم إسرافيل، فأثابه الله أن كتب القرآن في جبهته، ولا منافاة، فكلاهما جوزي به.

(**وفي كتاب العظمة لأبي الشيخ**) عبد الله (**بن حبان**،) بفتح المهملة والتحتية الثقيلة، الحافظ المشهور، (**من ذلك**،) أي: ما يدل على كثرة الملائكة جدًا (**العجب العجاب، وعندي منه الجزء الثاني، وقد وقعت في غير رواية البخاري هنا**،) أي: في ذكر السلوات (**زيادات**،) لا بقيد كونها بعد السدرة، ورؤية الأنهار، لأن رؤيته لإبراهيم كان قبل ذلك.

(**فمنها**،) أي: الزيادات، (**ما وقع في رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي في دلائله**،) والبزار، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، (**ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا إبراهيم الخليل ساند**،) برفعه خبر مبتدأ محذوف (**ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ**،) أي: رد السلام علي، سماه سلامًا لاشتماله عليه معنى، (**وإذا أنا بأمتي**) متقسمة، أو أراها (**شطرين**،) فنصب بمقدر، وإلا فالظاهر شطران، خبر أمتي زيدت فيه الباء، والشطر لغة النصف، وقد يستعمل في البعض قل أو كثر، وهو المراد هنا، فلا يلزم استواء القسمين عددًا، (**شطر عليهم ثياب بيض، كأنهم القراطيس**:) جمع قرطاس ما يكتب فيه، وكسر القاف أشهر من ضمها، والقرطس، وزان جعفر لغة فيه، (**وشطر عليهم ثياب رمدة**،) أي: لونها كلون الرماد، لكن الذي في دلائل البيهقي رمد بلا هاء، قال في النهاية: أي: غبر، فيها كدورة كلون الرماد، وأحدها أرمد.

(**قال: فدخلت البيت المعمور**،) نقل في النور: أن السلطان برقوق سأل عن البيت المعمور من أي شيء هو؟، فأجابه بعض الحاضرين، بأنه من عقيق، ونقله عن بعض التفاسير،

فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة، فصليت أنا ومن في البيت المعمور.

وفي رواية الطبراني: فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فدخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم وصارت مثل ألوان البيض الوجوه، فقال: من هذا ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجاؤا وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، وأما

(**ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون**) أي: منعوا من الدخول، (**الذين عليهم الثياب الرمدة**) وهم على خير، كما في رواية البيهقي وغيره، أي: لأنهم لما تاب الله عليهم صارت سيئاتهم مغفورة، فبقيت أعمالهم التي يجاوزون عليها كل حسنة، (**فصليت أنا ومن في البيت المعمور**) إمامًا على الظاهر.

(**وفي رواية الطبراني: فإذا هو برجل أشمط**) أي: أبيض شعر الرأس يخالط سواده، كما في القاموس، وفي المغرب الشمط في الرجل شيب اللحية، وأطلق ابن الأثير، فقال: الشمط الشيب، (**جالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه، أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء**) أي: غبرة، كما في الحديث قبله، (**فدخلوا نهرًا، فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص**) بفتحات، (**من ألوانهم شيء**) أي: صفا بعض الصفاء، (**ثم دخلوا نهرًا آخر، فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهرًا آخر**) ثالثًا، (**فاغتسلوا فيه**) هكذا في النسخ الصحيحة، ذكر ثلاثة أنهار موافقة للرواية، خلاف ما في نسخ سقيمة من الاقتصار على نهرين، فإنه خطأ نشأ عن سقط، ويدل عليه بقية الحديث، (**فخرجوا وقد خلصت ألوانهم وصارت مثل ألوان البيض الوجوه**) فجاؤا، فجلسوا إلى أصحابهم، كما في الرواية، (**فقال:**) يا جبريل (**من هذا؟**) لفظ الرواية من هؤلاء البيض الوجوه؟، (**ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟، وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها، فجاءوا وقد صفت ألوانهم، قال**) جبريل: (**هذا أبوك إبراهيم أول من شمط:**) بكسر الميم، كفرح (**على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه، فقوم لم يلبسوا**) يخلطوا (**إيمانهم بظلم**) أي: شرك، كما فسره به

هؤلاء النفر الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فتابوا فتاب اللَّه عليهم، وأما الأنهار، فأولها رحمة، والثاني نعمة اللَّه، والثالث وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا.

وفي رواية البخاري في الصلاة ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام الحديث.

والمستوى: المصعد.

النبي ﷺ في الصحيحين، (**أولئك لهم الأمن**) من العذاب (**وهم مهتدون**،) وتوقف بعض في تفسيره هنا بالشرك، لمقابلته بقوله: (**وأما هؤلاء النفر الذين في ألوانهم شيء، فقوم خلطوا عملاً صالحًا**)، وهو جهادهم، أو اعترافهم بذنوبهم، أو غير ذلك، (**وآخر سيئًا**)، ولا وقفة أصلاً، فالمراد بالعمل السيء ما يشمل ادعاء الشريك للَّه تعالى، وقوله: (**فتابوا**) منه، بمعنى أسلموا، (**فتاب اللَّه عليهم**،) وأما البيض الوجوه، فما خلطوه بشرك أصلاً، فلذا ميزوا عليهم، وإن سبقت لمن لم يشرك معصية وتاب منها.

(**وأما الأنهار فأولها رحمة اللَّه، والثاني نعمة اللَّه، والثالث، وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا**،) مبالغة في طهارته ونظافته، وظاهره أن الجملة اسم للنهر، وليس مرادًا، وإنما المراد أن الثالث هو النهر الذي يقال للذين يشربون منه سقاهم... الخ، وعليه، فاسم النهر الشراب الطهور.

(**وفي رواية البخاري في الصلاة**،) عن ابن عباس، وأبي حبة الأنصاري، قال النبي ﷺ: (**ثم عرج**) بفتحات، أو ضم الأول وكسر الثاني، (**بي حتى ظهرت**)، أي: ارتفعت (**المستوى**) بفتح الواو منون، أي: موضع مشرف يستوي عليه، أي: يصعد.

قال المصنف: وفي بعض الأصول: بمستوى بموحدة بدل اللام، (**أسمع فيه صريف الأقلام**،) قال القرطبي: لعلها المعبر عنها بالقلم المقسم به في نون والقلم، ويكون القلم للجنس، (**الحديث، والمستوى: المصعد**،) وقيل: المكان المستوي، وعليهما فالباء ظرفية، وعلى رواية اللام، قال التوربشتي: اللام للعلة، أي: ارتفعت لاستعلاء مستوى، أو لرؤيته، أو لمطالعته، ويحتمل أن يكون متعلقًا بالمصدر، أي: ظهرت ظهور المستوى، ويحتمل أن تكون بمعنى إلى، قال تعالى: ﴿أوحى لها﴾، أي: إليها، والمعنى أني أقمت مقامًا، ما بلغت فيه من رفعة المحل إلى حيث اطلعت على الكوائن، وظهر لي ما يراد من أمر اللَّه وتدبيره في خلقه، وهذا هو المنتهى الذي لا تقدم فيه لأحد عليه، وقال الطيبي: لام الغرض، وإلى الغائية يلتقيان في المعنى.

قال في الكشاف في قوله تعالى: ﴿**كل يجري لأجل مسمى**﴾[الرعد/٢] ﴿**ويجري إلى**

وصريف الأقلام: ـ هو بفتح الصاد المهملة ـ تصويتها حالة الكتابة.

والمراد: ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى. والقدر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة، وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فرغ من كتابته، وجف القلم بما فيه قبل خلق السموات والأرض، وإنما هذه الكتابة في مصحف الملائكة كالفروع المنتسخة من الأصل، وفيها الإثبات والمحو على ما ذكر في الأثر.

أجل مسمى﴾ [الرعد/١٣] الآية، أهو من تعاقب الحرفين، قلت: كلا، ولن يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع، ضيق العطن، ولكن المعنيين، أعني الانتهاء والاختصاص، كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض، لأن قوله: ﴿إلى أجل مسمى﴾، معناه يبلغه وينتهي إليه، وقوله: ﴿لأجل مسمى﴾، يريد، يجري لإدراك أجل مسمى. انتهى.

فالحاصل أن اللام وإلى وإن كان معناهما، أعني الإدراك والانتهاء ملائمًا لصحة الغرض، فليستا، متعاقبتين، فمعنى ظهرت إلى مستوى بلغته وانتهيت إليه، أي: لو روى بذلك، ومعنى لمستوى الذي الرواية به أدركت مستوى، وجعل البيضاوي اللام صالحة للعلة والغاية.

(**وصريف الأقلام هو** (**بفتح الصاد المهملة**) وكسر الراء وآخره فاء، وفي النور عن بعضهم: صرير بالراء آخره عوض الفاء، وهو الأشهر في اللغة (**تصويتها حالة الكتابة، والمراد**) كما قال عياض والنووي: (**ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى**) ووحيه، وما ينسخون من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله من ذلك أن يكتب ويرفع، لما أراده من أمره وتدبيره، وفيه حجة لأهل السنة في الإيمان بصحة كتابة الوحي والمقادير في كتب الله من اللوح المحفوظ بالأقلام، التي هو يعلم كيفيتها على ما جاءت به الآيات والأحاديث الصحيحة، وأن ما جاء من ذلك على ظاهره، لكن كيفية ذلك، وصورته وجنسه لا يعلمه إلا الله، ومن أطلعه على شيء منه من ملائكته ورسله، وما يتأول هذا، ويحيله إلا ضعيف النظر والإيمان، إذ جاءت به الشريعة، ودليل العقول لا يحيله، والله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، حكمة من الله وإظهارًا لما يشاء من غيبه لمن يشاء من ملائكته وسائر خلقه، وإلا فهو غني عن الكتب والاستذكار. انتهى.

(**والقدر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة،**) فلا يتوهم أن القدر الذي تكتبه الملائكة حادث، إنما الحادث والكتابة ونفس القدر لايكتب، فيؤول بما تعلق به القدر وأمضاه، والمتعلق حادث كالكتابة، (**وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فرغ من كتابته وجف القلم،**) كناية عن فراغ لكتابة وانتهائها، عبر به على عادة الكتاب؛ أنهم إذا فرغوا من الكتابة نظفوا أقلامهم، فيجف بإزالة أثر المداد الذي كان عليها (**بما فيه قبل خلق السموات والأرض، وإنما هذه الكتابة في مصحف الملائكة، كالفروع المنتسخة من الأصل، وفيها الإثبات والمحو على ما ذكر في**

وذكر ابن القيم: أن الأقلام اثنا عشر قلمًا، وأنها متفاوتة في الرتب:

فأعلاها وأجلها قدرًا، قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقادير الخلق، كما في سنن أبي داود، عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب

الأثر) وهذا ذكره ابن دحية، وتبعه ابن المنير، وزاد: أو أصل اللوح المحفوظ الذي انتسخ منه اللوح هو علم الغيب القديم في أزل القدم، وهو الذي لا محو فيه، ولا إثبات حيث لا لوح، ولا قلم، والحكمة البالغة، والله أعلم في سماعه لصريف الأقلام حصول الطمأنينة بجفاف القلم بما في القدر، حتى يتمكن التفويض للقدر لا للسبب، وحتى يتعاطى السبب تعبدًا لا تعوذًا، وبذلك يتم التوكل، ويسكن الاضطراب عند اختلاف الأسباب، قالا: والمناسبة بين هذا المعراج التاسع، والعام التاسع من الهجرة؛ أنه كان فيه غزوة تبوك، خرج ﷺ من المدينة إلى الشام في العدد الذي لم يتم قبله مثله، كان العدد ثلاثين ألفًا والشقة بعيدة، ولهذا لم يور فيها، بل أعلم الناس بوجههم، ليكونوا ناهيهم بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد في الاستعداد لم يلق ﷺ حربًا، ولا افتتح فيها بلدًا، لأن أجل فتح الشام لم يكن بعده، فانتسخ العزم بالقدر وبجفاف القلم، ورجع ﷺ إلى المدينة وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عند انصراف العزيمة.

(وذكر ابن القيم: أن الأقلام اثنا عشر قلمًا، وأنها متفاوتة في الرتب:) جمع رتبة المنزلة، **(فأعلاها وأجلها قدرًا، قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلق،)** بمعنى القدر، وهو عبارة عن تعلق علم الله وإرادته أزلاً بالكائنات قبل وجودها، وهو سبحانه أزلي لا يتقيد وجوده بزمان، قال الأبي، وقال النووي: قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ، أو غيره لا أصل التقدير، لأنه أزلي لا أول له، **(كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت)** الخزرجي، النقيب، البدري، من فضلاء الصحابة، **(قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما)** أي: شيء، **(خلق الله القلم،)** بالرفع على الخبرية، والأولية نسبية، أي: بعد العرش، لأن الجمهور، وهو الأصح؛ أن العرش خلق قبل القلم.

قال ابن السيد: الوجه رفع القلم، وما أعلم أحدًا رواه بالنصب، وهو خطأ، لأن القلم أول مخلوق، كما دلت عليه الأحاديث، فإن صحت رواية بنصبه، خرجت على لغة نصب أن الجزأين، لا على أنه مفعول خلق لفساده في المعنى والإعراب، انتهى.

وظاهر الأحاديث أنه قلم حقيقي من نور، كحديث ابن عباس: قلمه نور، وعن مجاهد: أنه من اليراع: القصب، فإن صح، فلعل تجسمه من نور على صفة اليراع، وطوله خمسمائة عام،

مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». فهذا القلم أول الأقلام وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم اللّه به.

والقلم الثاني: قلم الوحي.

الثالث: قلم التوقيع عن اللّه ورسوله.

والرابع: قلم طب الأبدان الذي يحفظ به صحتها.

والخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وبه تساس الممالك.

رواه أبو الشيخ عن ابن عمر، وعنده أيضًا بسند واه، وعرضه كذلك، وسنه مشقوقة، ينبع منه المداد، وفي خبر مرسل: إنه من لؤلؤ، طوله سبعمائة عام ولا معارضة، فالأقل لا ينفي الأكثر، وكونه لؤلؤًا على التشبيه لشدة بياضه، إذ هو نور، وأغرب شيخ الإسلام السراج البلقيني، فيما حكاه عنه ولده في ترجمته، فقال: القلم ملك من الملائكة، لأنه من نور، والملائكة مخلوقة من النور؛ وأنه عاقل قائم بكل ما يؤمر به.

(**قال له: اكتب، قال**) القلم، بأن خلق اللّه له قوة النطق والإدراك، كما خلقها في الأعضاء واحد، وغير ذلك، وتجويز غير هذا خروج عن الظاهر بلا دليل: (**يا رب وما أكتب؟، قال: اكتب مقادير كل شيء**) زاد في رواية الترمذي: ما كان وما هو كائن إلى الأبد، أي: ما كان قبل القلم، لأن أوليته نسبية، فلا يرد تصريحه أنه أول مخلوق، وما هو كائن إلى انقضاء هذا العالم، كما قال إلى الأبد، وكقوله: (**حتى تقوم الساعة**) وكذا ما بعدها مما يمكن تناهيه، لا نعيم الآخرة وعذابها، إذ لا نهاية له، فلا يدخل تحت الكتابة.

وبقية حديث أبي داود: من مات على غير هذا فليس مني.

(**فهذا القلم أول الأقلام وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم اللّه به**) في قوله: ﴿**ن والقلم**﴾، إنه الذي خط في اللوح، وقيل: المراد الذي يكتب به، وأقسم له لكثرة فوائده الحاصلة بالكتابة به.

(**والقلم الثاني: قلم الوحي**).

(**والثالث: قلم التوقيع**)، أي: الذي يكتب به ما يقع، صادرًا (**عن اللّه ورسوله**)، والتوقيع ما يوقع في الكتاب، كما في القاموس.

(**والرابع: قلم طب الأبدان الذي يحفظ به صحتها**).

(**والخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم، وبه تساس الممالك**) أي: يدبر أمرها.

والسادس: قلم الحساب، وهو الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصرفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق.

والسابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا.

والثامن: قلم الشهادة الذي تحفظ به الحقوق.

والتاسع: قلم التعبير، وهو كتاب وحي المنام وتفسيره وتعبيره.

والعاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه.

والحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها.

والثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ودفع شبه المحرفين.

فهذه الأقلام بها انتظام مصالح العالم. قال: ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب اللَّه إلا به، وأنه تعالى أقسم به في كتابه. انتهى ملخصًا من كتاب «أقسام القرءان».

وقد وقع في رواية أبي ذر عند مسلم وغيره من الزيادة أيضًا: ثم أدخلت

(والسادس: قلم الحساب، وهو الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصرفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق).

(والسابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا).

(والثامن: قلم الشهادة الذي تحفظ به الحقوق).

(والتاسع: قلم التعبير) تفسير الرؤيا، (وهو كتاب وحي المنام، وتفسيره وتعبيره).

(والعاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه).

(والحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها).

(والثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ودفع شبه المحرفين، فهذه الأقلام بها انتظام مصالح العالم، قال: ويكفي في جلالة القلم؛ أنه لم تكتب كتب اللَّه إلا به؛ وأنه تعالى أقسم به في كتابه) في أحد القولين، كما مر، (انتهى ملخصًا من كتاب أقسام القرآن) لابن القيم رحمه اللَّه.

(وقد وقع في رواية أبي ذر عند مسلم) في الإيمان (وغيره)، كالبخاري في أحاديث الأنبياء، والترمذي في التفسير، والنسائي في الصلاة، (من الزيادة أيضًا: ثم أدخلت الجنة، فإذا

الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك الحديث.

والجنابذ: ـ بالجيم ثم النون المفتوحتين ثم ألف ثم موحدة ثم ذال معجمة ـ هي القباب. ويؤيده ما في «التفسير» من البخاري من طريق قتادة عن أنس: لما عرج به ﷺ قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ. وأما ما في «كتاب الصلاة» من البخاري فإذا فيها حبائل اللؤلؤ ـ بالمهملة والموحدة وآخره لام ـ فقال القاضي عياض وغيره: هو تصحيف.

فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك) حقيقة، وقول المصنف: أي: تراب الجنة كرائحة المسك، تعقب بأنه لا ضرورة إلى هذا التأويل، وقد تظاهرت الأحاديث على أن ترابها المسك.

وفي حديث أبي بن كعب عند ابن مردويه، فقال: يا جبريل إنهم يسألوني عن الجنة؟، فقال: أخبرهم أنها قيعان، وأن ترابها المسك **(الحديث.)**.

(والجنابذ: بالجيم، ثم النون المفتوحتين، ثم ألف ثم موحدة، ثم ذال معجمة، هي القباب،) وفي الفتح: شبه القباب، واحدها جنبذ بالضم، وهو ما ارتفع من البناء، فارسي معرب، وأصله بلسانهم، كنبذة بوزنه، لكن الموحدة مفتوحة، والكاف ليست خالصة، وفي القاموس: الجنبذة، وقد تفتح الباء، أو هو لحن كالقبة.

(ويؤيده،) أي: تفسيره بالقباب، **(ما في التفسير)** لسورة الكوثر، **(من البخاري من طريق قتادة، عن أنس لما عرج به،)** أي: بالنبي، كما هو لفظه، **(ﷺ قال: أتيت على نهر، حافتاه قباب اللؤلؤ)** مجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر، وللترمذي: حافتاه فيهما مثل القباب.

(وأما ما في كتاب الصلاة من البخاري) من حديث أبي ذر: ثم أدخلت الجنة، **(فإذا فيها حبائل اللؤلؤ (بالمهملة والموحدة وآخره لام)،** كذا لجميع الرواة في الصلاة.

(فقال القاضي عياض وغيره) من الأئمة: **(هو تصحيف،)** وإنما هو جنابذ، كما عند البخاري في أحاديث الأنبياء، وكذا عند غيره من الأئمة، ووقع في نسخة معتمدة من رواية أبي ذر في الصلاة: جنابذ، على الصواب.

قال الحافظ: وأظنه من إصلاح بعض الرواة، وقال صاحب المطالع: الحبائل القلادة والعقود، أو هي من حبال الرمل: أي: فيها لؤلؤ مثل حبال الرمل، جمع حبل، وهي ما استطال من الرمل، وتعقب بأن الحبائل لا تكون إلا جمع حبالة، أو حبيلة بوزن عظيمة.

وقال بعض من اعتنى بالبخاري: الحبائل جمع حبالة، وحبالة جمع حبل على غير قياس، والمراد أن فيها عقودًا أو قلائد من اللؤلؤ، انتهى.

وفي حديث الإمام أحمد من رواية حذيفة: فتحت لهما أبواب السماء، قال: فرأيت الجنة والنار.

وفي حديث أبي سعيد: أنه عرضت عليه الجنة، وأن رمانها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنه البخت، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها.

ووقع عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس: رفعه بينما أنا أسير في

(**وفي حديث الإمام أحمد**) والترمذي (**من رواية حذيفة: فتحت لهما،**) أي: للمصطفى وجبريل (**أبواب السماء، قال**) ﷺ: (**فرأيت الجنة والنار،**) وعد الآخرة أجمع.

(**وفي حديث أبي سعيد،**) عند البيهقي، وابن جرير، وابن أبي حاتم: (**أنه**) ﷺ (**عرضت عليه الجنة، وأن رمانها كأنه الدلاء:**) بكسر الدال والمد جمع دلو.

وفي رواية للبيهقي وغيره أيضًا: وإذا فيها رمان كأنه جلود الإبل المقتبة، أي: التي بأقتابها، (**وإذا طيرها كأنه البخت:**) نوع من الإبل الواحد، بختي مثل روم ورومي، ثم يجمع على البخاتي، ويخفف ويثقل، كما في المصباح.

وفي رواية للبيهقي وغيره: وإذا بطيرها كالبخاتي، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن تلك الطير لنا عمة، قال: أكلتها أنعم منها، وإني لأرجو أن تأكل منها، وفي عرضها عليه كرامة عظيمة، لأنه كان يعرضها على أمته ليشتروها، كما قال تعالى: ﴿**إن الله اشترى**﴾، فأراد أن يعاين نبيه ما يعرضه على أمته ليكون وصفه لها عن مشاهدة، ولأنه كان يدعو إليها، فأراها له ليعلم أنها تسع الخلائق كلهم، ولا تمتلىء حتى ينشىء الله لها خلقًا، كما في الحديث، وليعلم خسة الدنيا في جنبها، فيكون فيها أزهد، وعلى الشدائد اصبر، ولئلا يكون لأحد كرامة إلا وله مثلها، وكان لإدريس كرامة دخول الجنة قبل القيامة، فأراد تعالى أن يكون ذلك لصفيه ونجيه أيضًا، قاله ابن دحية ملخصًا.

(**وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها**)، وفي مسلم عن ابن عباس، وابن مردويه عن عمر: ورأى مالكًا خازن النار، فإذا رجل عابس يعرف الغضب في وجهه، وفي حديث أبي هريرة في مسلم، والنسائي: فبدأ النبي ﷺ بالسلام.

(**ووقع عند مسلم،**) وكذا عند البخاري في الرقائق، والترمذي (**من طريق همام**) بن منبه ابن كامل الصنعاني، أخو وهب، ثقة، روى له الجميع، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة على الصحيح، (**عن قتادة**) بن دعامة بن قتادة السدوسي، البصري، ثقة، روى له الجميع، ويقال: ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومائة.

الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر.

وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي ﷺ يا بني، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك في أمتك فافعل.

(**عن أنس رفعه: بينما**) بالميم، (**أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر،**) وذلك ليلة المعراج، كما في رواية البخاري السابقة قريبًا عن أنس: لما عرج بالنبي ﷺ، قال: أتيت على نهر، (**حافتاه:**) بحاء مهملة وخفة الفاء، جانباه، لأنه ليس مستطيلاً يجري فيه الماء حتى يكون له حافتان، بل سائل على وجه أرض الجنة، كما قال ﷺ: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض»، رواه أبو نعيم، وصححه الضياء عن أنس: والأخدود شق مستطيل في الأرض.

(**قباب الدر المجوف، وإذا طينه**) بالنون، وشك هدبة بن خالد شيخ البخاري هل هو بالنون، أو الموحدة، ولم يشك فيه أبو الوليد شيخ البخاري أيضًا، فقاله بالنون، وهو المعتمد.

وفي رواية البيهقي بلفظ: ترابه (**مسك أذفر:**) بذال معجمة، يقال ذفر الشيء بالكسر ذفرًا بفتحتين، اشتدت رائحته، طيبة كانت أو كريهة، وأما بدال مهملة، فالريح المنتنة، (**فقال جبريل: هذا الكوثر،**) ولمسلم أيضًا من طريق شيبان عن قتادة، عن أنس: لما عرج بالنبي ﷺ، فذكر نحوه.

(**وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود،**) مشهور بكنيته، والأشهر أنه لا اسم له غيرها، ويقال: اسمه عامر، كوفي ثقة، والراجح أنه لا يصح سماعه من أبيه، مات بعد سنة ثمانين، (**عن أبيه: أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي ﷺ: يا بني**) تصغير تحبب، (**إنك لاق ربك الليلة،**) يحتمل أن يكون إبراهيم علم بذلك في حياته، ويحتمل غير ذلك، (**وأن أمتك آخر الأمم، وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك**) كلها بدليل قوله فيما أسقطه من الحديث أو جلها: بضم الجيم، أي: معظمها، وكان معناه إن لم تستطع كلها (**في أمتك فافعل،**) ودعا له بالبركة.

وهذا الحديث ساقه الشامي في القصة قبل دخوله بيت المقدس، فقال: ومر على شجرة تحتها شيخ وعياله، فرأى مصابيح وضوء، فقال: من هذا يا جبريل؟، قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟، قال: هذا ابنك أحمد، فقال: مرحبًا بالنبي العربي، الأمي، الذي بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، يا بني إنك لاق، فذكره، ثم قال:

في حديث أبي سعيد الخدري، عند البيهقي: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، قال: ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تغطي هذه الأمة، وإذا فيها عين تجري يقال لها: السلسبيل، فينشق منها نهران، أحدهما الكوثر، والآخر يقال له: الرحمة، فاغتسلت فيه فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، ثم دفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت لها: لمن أنت؟ قالت: لزيد بن حارثة. وفيه: فإذا رمانها كالدلاء عظمًا، ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله

ثم سار حتى أتى المدينة، يعني مدينة القدس، فما أوهمه سياق المصنف أن إبراهيم وصاه بذلك لما اجتمع به في السماء السابعة ليس بمراد.

(**وفي حديث أبي سعيد الخدري عند البيهقي: ثم صعد**) جبريل (**بي إلى السماء السابعة، قال: ثم رفعت لي**) بضم الراء، مبني للمفعول ونائبه، (**سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تغطي،**) لفظ رواية البيهقي وغيره عن أبي سعيد: تكاد تغطي، (**هذه الأمة**).

نعم في حديث أبي هريرة عند البزار، والبيهقي وغيرهما: الورقة منها مغطية للأمة كلها.

وفي لفظ للطبري: الورقة منها تظل الخلق، (**وإذا فيها،**) أي: في أصلها كما مر، (**عين تجري يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران، أحدهما الكوثر، والآخر يقال له الرحمة، فاغتسلت فيه، فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر،**) المراد تشريفه بهذا الأمر، أي: لو كان له ذنوب لغفرت، ولم يكن له ذنب البتة، قاله التقي السبكي تبعًا لابن عطية، ونحوه قول عياض عن بعضهم المغفرة هنا تنزيه من العيوب.

وقال بعض المحققين: المغفرة هنا كناية عن العصمة، أي: فعصمت فيما تقدم من عمري، وفيما تأخر منه عن الذنوب، وهذا قول في غاية الحسن، وسيكون لنا إن شاء الله تعالى عودة إلى بسط ذلك حيث تكلم فيه المصنف.

(**ثم دفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية فقلت لها: لمن أنت؟، قالت: لزيد بن حارثة**) الكلبي، مولى المصطفى، وحبه أبي أسامة البدري، المختص؛ بأن الله تعالى لم يصرح في كتابه باسم أحد سواه من الصحابة.

(**وفيه،**) أي: حديث أبي سعيد، (**فإذا رمانها كالدلاء عظمًا**) بكسر ففتح، وفي رواية؛ كأنه جلود الإبل المقتبة، ولا منافاة، لجواز أنه رأى فيها ما يشبه بكل منهما، فأخبر بكل مرة، ويحتمل غير ذلك، (**ثم عرضت عليّ**) بالبناء للمجهول ونائبه (**النار، فإذا فيها غضب الله وزجره،**) عذابه (**ونقمه:**) جمع نقمة، (**لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها**) من شدة توقدها.

وزجره ونقمه، لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت دوني.

وفي الطبراني من حديث عائشة: لما كان ليلة أسري بي إلى السماء، أدخلت الجنة، فوقفت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة شجرة أحسن منها، ولا أبيض منها، ولا أطيب منها ثمرة، فتناولت ثمرة من ثمرها فأكلتها

وفي حديث شداد بن أوس: فإذا جهنم تكشف عن مثل الزرابي، ووجدتها مثل الحمة السخنة، وزاد فيه: أنه رآها في وادي بيت المقدس، كذا في فتح الباري، فيحتمل أنها لما عرضت عليه، وهو في السماء رآها في وادي بيت المقدس، أي: من جهته، بأن قوى الله بصره حتى رآها، وأورد الشامي الحديث في القصة قبل دخوله بيت المقدس، ثم قال: الزرابي بزاي فراء، كما رأيته بخط جماعة، منهم الذهبي في تاريخ الإسلام، والهيثمي في مجمع الزوائد، والشيخ، يعني السيوطي في تفسيره: جمع زربية بتثليث الزاي، وهي الطنفسة بكسر الطاء والفاء وبضمهما وبكسر الطاء وضم الفاء، وهي البساط الذي له خمل رقيق، ورأيت بخط بعض المحدثين الروابي براء فواو، وأظنه تصحيفًا، وإن كان قريب المعنى، والحمة: بحاء مضمومة، الفحمة، والسخنة بضم السين المهملة وسكون الخاء المعجمة، أي: حارة، **(ثم أغلقت دوني)** حتى لا يحصل له نوع ضجر.

قال ابن دحية: إنما عرضت عليه النار، ليكون آمنًا يوم القيامة، فيفزع إلى الشفاعة، ولو لم يؤمن لكان مشغولاً بنفسه كغيره من الأنبياء، لأنهم لم يروا قبل يوم القيامة شيئًا منها، فإذا رأوها جزعوا، وكفت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هو لها، وقال كل منهم: نفسي نفسي، وهو ﷺ قد رآها قبل، فلا يفزع منها مثل ما فزعوا، فيقدر على الخطبة، وهو المقام المحمود، ولأن الكفار لما كذبوا واستهزءوا به آذوه أشد الأذى، أراه الله تعالى النار المعدة لهم تطييبًا لقلبه، وتسكينًا لفؤاده، وللإشارة إلى أن من طيب قلبه بإهانة أعدائه والانتقام منهم، فأولى أن يطيبه في أوليائه بالشفاعة والإكرام، وليعلم منة الله عليه حين أنقذهم منها ببركته وشفاعته، انتهى ملخصًا.

(وفي الطبراني) وابن حبان من طريق أبي واقد الحراني، قال الذهبي: وهو الآفة، والخطيب من طريق محمد بن خليل.

قال ابن الجوزي: كذاب يضع، وابن غيلان من طريق أحمد بن الأحجم المروزي، وهو كذاب وابن الجوزي من طريق غلام خليل، وهو كذاب، كلهم **(من حديث عائشة)** مرفوعًا: **(لما كان)** تامة، أي: حصل **(ليلة أسرى بي إلى السماء أدخلت الجنة، فوقفت)** بالفاء، أي أطلعت **(على شجرة من أشجار الجنة، لم أر في الجنة شجرة أحسن منها، ولا أبيض منها)**

فصارت نطفة في صلبي، فلما أهبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة. وهو حديث ضعيف. وفيه التصريح بأن الإسراء كان قبل ولادة فاطمة، وهي ولدت قبل النبوة بسبع سنين وشيء، ولا ريب أن الإسراء كان بعد النبوة.

وذكر أبو الحسن بن غالب، فيما تكلم فيه على أحاديث الحجب السبعين والسبعمائة والسبعين ألف حجاب وعزاها لأبي الربيع بن سبع في شفاء الصدور من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء، كما ورد في الأمهات:

ورقًا، **(ولا أطيب منها ثمرة، فتناولت)** أخذت **(ثمرة من ثمرها، فأكلتها، فصارت نطفة في صلبي، فلما أهبطت إلى الأرض واقعت خديجة، فحملت بفاطمة،)** فإذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت ريح فاطمة، هذا بقيته، **(وهو حديث ضعيف،)** أراد به شر الضعيف، وهو الموضوع، فقد صرح ابن الجوزي، والذهبي والحافظ؛ بأنه موضوع وإن تعددت طرقه عن عائشة، ورواه ابن الجوزي عن ابن عباس من طريق الأبرادي، وهو وضاع كذاب، والحاكم في المستدرك عن سعد بن أبي وقاص.

قال الذهبي في تلخيصه: هذا كذب جلي، وهو من وضع مسلم بن عيسى الصفار، لأن فاطمة ولدت قبل النبوة فضلاً عن الإسراء، ويدل على أن المصنف أراد بالضعف الوضع قوله، **(وفيه التصريح بأن الإسراء كان قبل ولادة فاطمة، وهي ولدت قبل النبوة بسبع سنين وشيء،)** الذي جزم به ابن الجوزي والمدائني، وأسنده الواقدي، عن الباقري، عن العباس، أنها ولدت قبل النبوة بخمس سنين، **(ولا ريب أن الإسراء كان بعد النبوة)** بالإجماع، ولذا قال في اللسان: كأن واضعه خذل، وإلا ففاطمة ولدت قبل فرض الصلاة، انتهى.

(وذكر أبو الحسن) علي **(بن غالب، فيما،)** أي: كتاب **(تكلم فيه على أحاديث الحجب السبعين، والسبعمائة والسبعين ألف حجاب،)** وهذه الأحوال الثلاثة نشأت من اختلاف الروايات في عدة الحجب، حيث وردت بكل منها، وجمع النعماني؛ بأن السبعين بالنسبة إلى السموات السبع والسبعمائة اعتبار عالم الكرسي وما حوى، والسبعين ألفًا باعتبار عوالم العرش وما حوى، وبسط الكلام على ذلك، **(وعزاها لأبي الربيع بن سبع)** بإسكان الموحدة، وقد تضم، كما في التبصير، ومقتضى المصنف أنه لم يره لابن سبع، **(في شفاء الصدور،)** لأنه كثير النقل عنه.

(من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء كما،) أي: مثل ما **(ورد في الأمهات،)** أي: الأصول، وهي الكتب، وظاهره أن ابن عباس رواه بلا

أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبي ﷺ: يا جبريل، هل لك من حاجة؟ فقال: يا محمد، سل الله تعالى في أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه، ثم زج بي في النور زجًا، فخرق بي إلى سبعون ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه الآخر، وانقطع عني حس كل ملك وإنس، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي، فبينما أنا أتفكر في ذلك أقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا النداء من العلي الأعلى، ادن يا

واسطة، وليس كذلك، فالمنقول عن ابن غالب، عن ابن سبع، عن ابن عباس، قال: قال علي: سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن علم لا يعلمه جبريل، ولا ميكئيل، أعلمني رسول الله مما علمه ليلة الإسراء، قال: علمني ربي علومًا شتى، فأعلمني ﷺ، قال: كنت نورًا في جسد إبراهيم، وذرة في ظهره، فلما عارضه جبريل، وهو في المنجنيق، فقال له: يا خليل الرحمن هل لك من حاجة؟، قال: أما إليك فلا، فعاد إليه ثانية ومعه ميكئيل، فقال: لا إليك ولا إلى ميكئيل، فعاد إليه الثالثة، فقال: هل لك من حاجة إلى ربك؟، قال: يا أخي، يا جبريل، من شأن الخليل أن لا يعارض خليله، قال النبي ﷺ: فأنطقني الله أن قلت إن بعثني الله نبيًا واصطفاني بالرسالة، لأجازين أخي جبريل على فعله بأبي إبراهيم، فلما كان ليلة الإسراء بعد أن بعثني الله، (**أتاني جبريل، وكان السفير**) أي: المسافر بمعنى الذاهب (**بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام، ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل في مثل هذا المقام**) وهو سدرة المنتهى، (**يترك الخل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبي ﷺ: يا جبريل هل لك من حاجة**) إلى ربك؟ (**فقال: يا محمد سل الله تعالى في أن أبسط جناحي**)، مفرد مضاف إلى ياء المتكلم، (**على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه،**) إذ لو كان مثنى لقال عليهما، (**ثم زج**) بزاي فجيم ثقيلة، (**بي في النور زجًا، فخرق بي**) بالبناء للمفعول، (**سبعون ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه الآخر، وانقطع عني حس كل ملك وإنسي، فلحقني عند ذلك استيحاش،**) أي: حالة تشبه حالة المستوحش في الانفراد، والبعد عن الخلق، وتطلق الوحشة على الخلوة، (**فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي، فبينما أنا أتفكر في ذلك، أقول: هل سبقني أبو بكر، فإذا النداء من العلي الأعلى،**) سبحانه وتعالى، وتأويله؛ بأن النداء من الملك بأمر العلي يأباه المقام، كما لا يخفى، بل العلي تعالى خاطبه بلا واسطة، بقوله: (**ادن يا خير البرية،**) أي: الخلق، وأصله بالهمزة، قلبت ياء لوقوعها بعد ياء زائدة، وأدغمت الزائدة في المبدلة

خير البرية، ادن يا أحمد، ادن يا محمد، ليدن الحبيب، فأدناني ربي حتى كنت كما قال تعالى: **﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** [النجم/٩] قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي - بلا تكييف ولا تحديد - فوجدت بردها بين ثديي، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علومًا شتى، فعلم أخذ علي كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه، وعلمني القرءان فكان جبريل يذكرني به، وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي. قال ولقد عاجلت جبريل في آية نزل علي بها، فعاتبني ربي وأنزل علي **﴿ولا تعجل بالقرءان من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربي زدني علمًا﴾** [طه/١١٤]، ثم قلت: اللّهم إنه لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك

عن الهمزة، **(ادن يا أحمد، ادن يا محمد، ليدن الحبيب،)** مجزوم بلام الأمر مساو لأدن، فجمع بين الأمر بالصيغة وباللام، **(فأدناني ربي حتى كنت كما قال تعالى:** (**﴿ثم دنا:)** قرب **(فتدلى:)** زاد في القرب، **(فكان:)** منه **(قاب:)** قرب: **(قوسين أو أدنى﴾،)** من ذلك، **(قال: وسألني ربي،)** لم يبين ما سأله عنه، **(فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد،)** لاستحالتهما عليه، **(فوجدت بردها بين ثديي، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علومًا شتى، فعلم أخذ علي كتمانه،)** بكسر الكاف، أي: أمرني بإخفائه، **(إذ علم،)** أي: لعلمه **(أنه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه،)** أي: في إخفائه وإظهاره.

قال في الحديث: فكنت أسر إلى أبي بكر، وإلى عمر، وإلى عثمن، وإليك يا أبا الحسن، يعني عليًا، لأنه راويه، **(وعلمني القرآن، فكان جبريل يذكرني به:)** بضم الياء وسكون الذال وكسر الكاف مخففة، وبضم الياء وفتح الذال وكسر الكاف مشددة، وكأنه نزل معارضته بالقرآن حين كان يدارسه منزلة من يغفل عن الشيء فيذكر به، أو كان يحصل له سهو عن بعض الكلمات، فيذكره به، **(وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي،)** وهو قوله: ﴿يا أيها الرسول، بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾، كذا في الرواية قبل قوله، **(قال: ولقد عاجلت جبريل في آية نزل عليّ بها،)** لم يبينها، ولم نر من بينها، **(فعاتبني ربي وأنزل عليّ ﴿ولا تعجل بالقرآن﴾،)** أي: بقراءته (**﴿من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾،)** أي: يفرغ جبريل من إبلاغه، (**﴿وقل ربي زدني علمًا﴾)** الآية، بالقرآن، فكلما نزل عليه شيء منه زاد به علمه، **(ثم)** ألهمني ربي أن **(قلت،)** كما في الرواية: **(اللهم إنه لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك،**

سمعت مناديًا ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر فقال لي: قف إن ربك يصلي، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى هذا المقام؟ وإن ربي لغني عن أن يصلي، قال فناداني: أنا الغني عن أن أصلي لأحد، وإنما أقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمد: **﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾** [الأحزاب/٤٣] فصلاتي رحمة لك ولأمتك، وأما أمر صاحبك يا محمد، فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه قلنا: **﴿وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي﴾** [طه/١٨]، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة، وكذلك أنت يا محمد، لما كان أنسك بصاحبك أبي بكر وأنك خلقت أنت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملكًا على صورته يناديك بلغته ليزول عنك

سمعت مناديًا ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر، فقال لي: قف، إن ربك يصلي، فعجبت من هاتين،) وبينهما بقوله (**هل سبقني أبو بكر إلى هذا المقام؟، وإن ربي لغني عن أن يصلي، قال: فناداني: أنا الغني عن أن أصلي لأحد:**) أتكمل به، أو لغرض يحمل على صلاتي، وإنما أصلي على غير رحمة، وتفضلاً مني من غير إجبار، ولا ألجاء على ذلك، فإني أنا الغني المطلق، لا إله غيري، (**وإنما أقول سبحاني سبحاني:**) تنزيهًا إليّ عما لا يليق، (**سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمد، ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾،**) أي: يرحمكم، (**﴿وملائكته﴾،**) أي: يستغفرون لكم، (**﴿ليخرجكم﴾**) ليديم إخراجه إياكم (**﴿من الظلمات﴾**) أي: الكفر (**﴿إلى النور﴾**) أي: الإيمان، (**﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾**) ومن رحمته صلاته عليهم، كما قال: (**فصلاتي رحمة لك ولأمتك**).

وروى ابن المنذر وغيره: لما نزلت: ﴿إن الله وملائكته﴾ [الأحزاب/٥٦]، قال الصديق: يا رسول الله ما خصك الله بشرف إلا وأشركنا فيه، فنزلت: ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ [الأحزاب/٤٣].

(**وأما أمر صاحبك يا محمد،**) وهو سماعك صوتًا يشبه صوته، فسببه تأنيسك بسماع شبهه، ليزول عنك عظيم الهيبة، فتقوى على قبول ما يلقى إليك، كما أشار إليه بقوله: (**فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه، قلنا: ﴿وما تلك﴾**) كائنة (**﴿بيمينك يا موسى﴾**) الاستفهام للتقرير، ليرتب عليه المعجزة فيها، (**﴿قال هي عصاي﴾** [طه/١٧]، **وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة، وكذلك أنت يا محمد لما كان أنسك**) التام (**بصاحبك**

الاستيحاش، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك. ثم قال الله تعالى: وأين حاجة جبريل؟ فقلت: اللّٰهم إنك أعلم، فقال: يا محمد، قد أجبته فيما سأل، ولكن في من أحبك وصحبك.

وفي رواية: فتقدمت وجبريل على أثري، حتى انتهى بي إلى حجاب فراش الذهب فحرك الحجاب، فقيل من هذا؟ قال: أنا جبريل ومعي محمد ﷺ فقال الملك: اللّٰه أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني فوضعني بين يديه في أسرع من طرفة عين، وغلظ الحجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ، فحرك الحجاب، فقال الملك من وراء الحجاب: من هذا؟ فقال أنا فلان صاحب

أبي بكر، وأنك خلقت) (بكسر الهمزة) جملة حالية، **(أنت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا،)** كما وقع ليلة الغار **(والآخرة، خلقنا ملكًا على صورته، يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم،)** مصدر مضاف للمفعول، أي: عن فهمك **(ما يراد منك)** فهمه، **(ثم)** أنساني ربي حاجة أخي جبريل، وأراد أن يمن عليّ بأن أذكرنيها، فـ**(قال اللّٰه تعالى: وأين حاجة جبريل؟،)** هكذا في الرواية: أنساني... الخ، فكأنه أنساها له بشغله بعظيم الهيبة والجلال، أو تلذذه بسماع الخطاب، فمن عليه بإذكاره، **(فقلت: اللهم إنك أعلم، فقال: يا محمد قد أجبته فيما سأل، ولكن في)** طائفة من أمتك، فقلت: اللهم فمن تلك الطائفة؟، قال: **(من أحبك وصحبك،)** فأجابه بإذنه في بسط جناحه لخواص أمته الأتقياء دون من دنس إيمانه بتقصير في طاعة، وبالعصيان كمن أبغض بعض صحبه.

(وفي رواية) من حديث ابن عباس: أن رسول اللّٰه ﷺ بعد أن ذكر حديث الإسراء، كما في الأمهات، قال: **(فتقدمت وجبريل على أثري،)** فيه العطف على الضمير المتصل بلا فاصل، وهو ضعيف، ومع ضعفه هو جائز في السعة، كما قال ابن مالك، **(حتى انتهى بي إلى حجاب فراش الذهب، فحرك الحجاب، فقيل: من هذا؟، قال: أنا جبريل ومعي محمد ﷺ، فقال الملك: اللّٰه أكبر،)** تعظيمًا لما رأى، وفرحًا بقدوم المصطفى، **(فأخرج يده من تحت الحجاب، فاحتملني، فوضعني بين يديه في أسرع من طرفة عين، وغلظ الحجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد،)** أسقط منه: فقلت إنك أنت تقدم، قال: يا محمد تقدم، فأنت أكرم على اللّٰه مني، **(فمضيت، فانطلق بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ، فحرك الحجاب، فقال الملك من وراء الحجاب: من هذا؟، قال: أنا فلان،)** لم يسم **(صاحب حجاب الذهب،)** ولا شك أن سيره معه بإذن اللّٰه تأنيسًا له عليه السلام،

حجاب الذهب، وهذا محمد ﷺ رسول رب العزة معي، فقال الملك: اللّٰه أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني حتى وضعني بين يديه، فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب، حتى جاوزت سبعين حجابًا، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك، ثم دلي لي رفرف أخضر تغلب خضرته ضوء الشمس، فالتمع بصري، ووضعت على ذلك الرفرف، ثم احتملت حتى وصلت إلى العرش، فأبصرت أمرًا عظيمًا لا تناله الألسن، ثم دلي لي قطرة من العرش، فوضعت على لساني، فما ذاق الذائقون شيئًا قط أحلى منها، فأنبأني اللّٰه بها نبأ الأولين والآخرين، ونور قلبي، وغشي نور عرشه بصري فلم أر شيئًا فجعلت أرى بقلبي ولا أرى بعيني، ورأيت من خلفي ومن بين كتفي، كما رأيت أمامي، الحديث.

(وهذا محمد ﷺ رسول رب العزة معي، فقال الملك: اللّٰه أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب، فاحتملني حتى وضعني بين يديه،) ووجود الملائكة عند الحجب معلول بما تفيده الأحاديث أن سدرة المنتهى لم يجاوزها أحد إلا المصطفى، وبه جزم النووي، كما مر، وتأويله باحتمال أن المراد لم يجاوزها أحد من ملائكة السمٰوات ونحوها، إنما ينهض لو كان لهذا الحديث نوع تماسك، ويأتي أنه كذب، **(فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب حتى جاوزت سبعين حجابًا غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت، فانطلق بي الملك، ثم دلى لي رفرف أخضر، تغلب خضرته ضوء الشمس، فالتمع،)** أي: أضاء **(بصري،)** فقوي إدراكه حتى تمكن من مشاهدة ما في تلك الحضرات من الأمور التي يقصر العقل عن وصفها وبيان حقيقتها، **(ووضعت على ذلك الرفرف، ثم احتملت حتى وصلت إلى العرش،)** أسقط قوله: فلما رأيت العرش اتضع كل شيء عند العرش، ثم إن اللّٰه تعالى بحوله وقوته وتمام نعمته عليّ قربني عند العرش، **(فأبصرت أمرًا عظيمًا لا تناله الألسن،)** حذف منه، فسألت إلهي أن يمن عليّ بالثبات حتى أستتم نعمته، فمنّ اللّٰه عليّ وقواني لذلك، **(ثم دلى لي قطرة من العرش، فوضعت على لساني، فما ذاق الذائقون شيئًا قط أحلى منها، فأنبأني اللّٰه بها نبأ الأولين والآخرين، ونور قلبي، وغشي نور عرشه بصري، فلم أر شيئًا، فجعلت أرى بقلبي، ولا أرى بعيني).**

قال النعماني: أي: فقط، بل رأيت بالباطن والظاهر، وقد أرشد إلى ذلك بقوله: **(ورأيت من خلفي ومن بين كتفي، كما رأيت أمامي،)** وإلا فما المقتضى لكونه سلب رؤية بصره، ورأى بغيره من ظاهر جسده، وبهذا لا يشكل مع ما تقرر من الرؤية، انتهى **(الحديث).**

رواه والذي قبله في كتاب «شفاء الصدور» كما ذكره ابن غالب والعهدة في ذلك عليه.

وتكثير الحجب لم يرد في طريق صحيح، ولم يصح في ذلك غير ما في مسلم: حجابه النور.

والرفرف: البساط، وقيل إنه في الأصل ما كان من الديباج وغيره رقيقًا حسن الصنعة ثم اتسع فيه.

واعلم أن ما ذكر في هذا المحل الرفيع من الحجب فهو في حق المخلوق، لا في حق الخالق عز وجل، واللّٰه سبحانه وتعالى منزه عما يحجبه، إذ

ذكر النعماني تمامه: في أزيد من ورقتين، ناسبًا له لمن عزاه له المصنف بقوله، **(رواه والذي قبله)** ابن سبع **(في كتاب شفاء الصدور، كما ذكره ابن غالب،)** هذا يشعر بعدم رؤيته في ابن سبع، **(والعهدة في ذلك عليه)**.

قال الشامي بعد نقل كلام المصنف هذا: وهو كذب بلا شك، انتهى، والعجب من النعماني حيث أورد الروايتين بطولهما ساكتًا عليهما قائلاً: ولا يستبعد وقوع هذا كله في بعض ليلة.

(وتكثير الحجب لم يرد في طريق صحيح، ولم يصح في ذلك غير ما في مسلم) في الإيمان عن أبي موسى، قال: قام فينا رسول اللّٰه ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن اللّٰه تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، **(حجابه النور،)** لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، أي: أنه محتجب بنور عزته وأشعة عظمته، وذلك الحجاب هو الذي تدهش دونه العقول وتذهب الأبصار، وتتحير البصائر، فحجابه خلاف الحجب المعهودة، فكيف يشاهد، فهو استئناف في جواب سؤال مقدر هو، لم لا نشاهد اللّٰه»، أشار إليه الطيبي.

(والرفرف البساط،) أي: هو المراد هنا، **(وقيل: إنه في الأصل ما كان من الديباج وغيره، رقيقًا، حسن الصنعة، ثم اتسع فيه،)** فأطلق على البساط وعلى كل ثوب عريض، وعلى ذيل الخيمة، وعلى الوسائد والنمارق، وبها فسر متكئين على رفرف خضر، وفي نسخ رقيق، مبتدأ خبره من الديباج مقدم عليه، واسم كان ضمير الشأن، والجملة خبر كان.

(واعلم أن ما ذكر في هذا المحل الرفيع من الحجب) على تقدير صحتها، وكذا حجابه النور، **(فهو في حق المخلوق،)** زاد الفاء في خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط وهو

الحجب إنما تحيط بقدر محسوس، فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعاني الأسماء والصفات والأفعال، وسائر المخلوقات من معاني الأنوار والظلمات كل له مقام من الحجب معلوم، وحظ من الإدراك والمعرفة مقسوم، وأقرب الخلق إلى اللّٰه تعالى الملائكة الحافون والكروبيون، وهم محجوبون بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس والقيومية؛ حجب الذات بالصفات. وهم في الحجب عنه على طبقات مختلفات، كل على مقام معلوم ودرجات.

وبالجملة، فالمخلوقات كلها ما كانت حجاب عن الخالق؟ فقوم حجبوا

جائز، (لا في حق الخالق عز وجل،) إذ الحجاب لغة المنع، والحاجب المانع، ومنه حاجب العين، وحاجب الأمير، فيقتضي تناهيه وتحيزه، (واللّٰه سبحانه وتعالى منزه عما يحجبه، إذ **الحجب:**) (بضمتين) جمع حجاب، أو بفتح فسكون مصدر، (**إنما تحيط بقدر محسوس،**) له طول وعرض في جهة يحس بتوجه الناظر، فيقتضي الجهة، وهو منزه عن ذلك، (**فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعاني الأسماء والصفات والأفعال وسائر المخلوقات من معاني الأنوار والظلمات، كل له مقام من الحجب معلوم، وحظ من الإدراك،**) أي: أنواع العلم (**والمعرفة**) به، (**مقسوم**) بحسب ما أراده تعالى، وقد قال تعالى في الكفار: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [المطففين/١٥]، فجعلهم هم المحجوبين لا هو، وأورد أن الحجب أمر نسبي لا بد من تعلقه بالطرفين، فكيف يصح ذلك، وأجيب بأنه نسبي، لكن بين حاجب ومحجوب، والحاجب سبحات الأنوار وستائر العظمة، والمحجوب مخلوقاته لا هو، لأنه محجوب عنه لا محجوب، فيجوز أن يوصف بأنه محجوب عنه، وحاجب ومحتجب خلافًا لمن أنكره، (**وأقرب الخلق إلى اللّٰه تعالى الملائكة الحافون**) بعرشه، (**والكروبيون**) بخفة الراء سادات الملائكة من كرب، إذا قرب، كما مر، (**وهم محجوبون**) عن رؤيته (**بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس، والقيومية حجب الذات بالصفات،**) أي: كما أن الذات حجبت بالصفات التي قامت بها عن معرفة حقيقتها وتعلقها بهيئة تميزها، كذلك حجب الحافون والكروبيون عنه تعالى بأنوار المهابة، (**وهم في الحجب عنه على طبقات مختلفات، كل على مقام معلوم ودرجات،**) وفي التنزيل: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات/١٦٤]، (**وبالجملة، فالمخلوقات كلها،**) أي: التي تقوم بالعالم يشتغل بها عما يقربه إلى اللّٰه (**ما كانت**) ما ظرفية، أي: مدة كونها، أي: وجدانها، (**حجاب،**) بالرفع خبر المخلوقات (**عن الخالق،**) أي: هي التي تحجبهم عن القيام بحقوق الخالق، وجعلها بعض معترضة بين المبتدأ والخبر، والأظهر جعلها ظرفًا من المبتدأ، (**فقوم حجبوا برؤية النعم**) التي أسبغت عليهم (**عن**

برؤية النعم عن المنعم، وبرؤية الأحول عن الحول، وبرؤية الأسباب عن المسبب، وقوم حجبوا بالعلم عن المعلم وبالفهم عن المفهم، وبالعقل عن المعقل، وكل ذلك من معنى حجاب النعم عن المنعم، والمواهب عن الواهب.

وقوم حجبوا بالشهوات المباحة، وقوم حجبوا بالشهوات المحرمات والمعاصي والسيئات، وقوم حجبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا.

اللَّهم لا تحجب قلوبنا عنك في الدنيا ولا أبصارنا عنك في الآخرة يا كريم.

وقد ورد في الصحيح عن أنس قال: عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى.

المنعم) جل وعلا، **(وبرؤية الأحوال)** المشاهدة لهم من نحو صحة وغنى وضديهما **(عن)** ذي **(الحول)** والقوة، الذي خلق ذلك وقدره، وفي نسخة عن المحول، أي: الموجد لتلك الأحوال، لكن في إطلاقه على اللَّه نظر، **(وبرؤية الأسباب،)** كالشبع والري وضديهما **(عن المسبب)** الخالق لذلك، **(وقوم حجبوا بالعلم عن المعلم،)** فتراهم أبدًا إنما يبحثون ويتكلمون في العلم وما يتفرع منه، غافلين عن التفكر في آلاء من علمهم، **(وبالفهم عن المفهم، وبالعقل عن المعقل،)** وفي إطلاق ذلك كله على اللَّه تعالى نظر، فأسماؤه توقيفية، **(وكل ذلك من معنى حجاب النعم عن المنعم، والمواهب عن الواهب،)** إذ هي بعض تفاصيل للنعم والمواهب، **(وقوم حجبوا بالشهوات المباحة،)** فهم أبدًا فيها يرتعون، **(وقوم حجبوا بالشهوات المحرمات والمعاصي والسيئات،)** وإن لم يكن فيها شهوات، فتغاير العطف، **(وقوم حجبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا، اللهم لا تحجب قلوبنا عنك في الدنيا، ولا أبصارنا عنك في الآخرة، يا كريم،)** واجعل وجوهنا ناضرة إلى ربها ناظرة، وما أحلى قول الحكم الحق ليس بمحجوب، إنما المحجوب أنت عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء، فهو له ساتر، وهو القاهر فوق عباده، كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر في كل شيء، كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر بكل شيء، كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر لكل شيء، كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء، كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أظهر من كل شيء. انتهى.

(وقد ورد في الصحيح) للبخاري من طريق شريك، **(عن أنس، قال: عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى،)** لفظ الصحيح: ثم علا به جبريل فوق ذلك بما لا يعلمه إلا اللَّه حتى جاء سدرة المنتهى، ففي قول المصنف بي شيء، لأنه لم يصرح برفعه، **(ودنا الجبار رب العزة)** دنو

ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى،

قرب ومكانة، لا دنو مكان، ولا قرب زمان، **(فتدلى)** زاد في القرب، **(فكان قاب قوسين أو أدنى)** أقرب، وهو بالنسبة للمصطفى عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة، وبالنسبة إلى الله تعالى إجابته ورفع درجته، وهذا مما أنكر من رواية شريك.

قال الخطابي: ليس في البخاري أشنع ظاهرًا، ولا أمنع مذاقًا من هذا، فإنه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر، وتمييز مكان كل واحد منهما، هذا مع ما في التدلي من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذي تعلق من فوق إلى أسفل، فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعًا عن غيره، ولم يعتبره بأول القصة ولا بآخرها، اشتبه عليه وجهه ومعناه، وكان قصاره إما رد الحديث من أصله، وإما الوقوع في التشبيه، وهما مرغوب عنهما، وأما من اعتبر أول الحديث بآخره، فإنه يزول عنه الإشكال، فإنه مصرح فيهما، بأنه كان رؤيا لقوله: أوله وهو نائم، وفي آخره استيقظ، وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأول على الوجه الذي يجب أن يصرف إليه معنى التعبير في مثله، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك، بل يأتي كالمشاهدة، قال: وهو كما قال: ولا التفات إلى من تعقبه، بأن في الحديث الصحيح: إن رؤيا الأنبياء وحي، فلا يحتاج إلى تعبير، لأنه كلام من لم يمعن النظر، فإن بعض مرائي الأنبياء يقبل التعبير، كقول بعض الصحابة في القميص، فما أولته يا رسول الله، قال: الدين، وفي رؤيا اللبن، قال: العلم، لكن جزم الخطابي، بأنه منام متعقب، بأن الراجح أنه يقظة بالأدلة، ثم دفع الخطابي الحديث من أصله، بأن القصة بطولها إنما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه، لم يعزها إلى النبي ﷺ، ولا نقلها عنه، فحاصل الأمر في النقل أنها من جهة الراوي، إما أنس، وإما شريك، فإنه كثير التفرد بمناكير الألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة.

قال الحافظ: وما نفاه من أن أنسًا لم يسند هذه القصة إلى النبي ﷺ لا تأثير له، فأدنى أمره فيها أن تكون مرسل صحابي، فإما أن يكون تلقاها عن النبي ﷺ، أو عن صحابي تلقاها عنه، ومثل ما اشتملت عليه لا يقال بالرأي، فيكون لها حكم الرفع، ولو أثر ما ذكره لم يحمل حديث أحد.

روى مثل ذلك على الرفع أصلاً وهو خلاف عمل المحدثين قاطبة، فالتعليل بذلك مردود، ثم قال الخطابي: نسبة التدلي للجبار مخالف لعامة السلف والعلماء، وأهل التفسير من تقدم ومن تأخر، والذي قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: دنا جبريل من محمد فتدلى، أي: تقرب منه، وقيل: هو على التقديم والتأخير، أي: تدلى فدنا، لأن التدلي سبب الدنو.

الثاني: تدلى جبريل بعد الانصباب والاندفاع حتى رآه مرتفعًا، وذلك من آيات الله حيث

....

أقدره على أن يتدلى في الهواء من غير اعتماد على شيء، وتمسك بشيء.

الثالث: دنا جبريل فتدلى محمد ساجدًا لربه شكرًا على ما أعطاه من الزلفى، قال: وقد روى هذا الحديث عن أنس من غير طريق شريك، فلم يذكر هذه الألفاظ الشنيعة، وذلك مما يقوى الظن أنها صادرة من شريك.

قال الحافظ: قد أخرج البيهقي من طريق الأموي في مغازيه، عن محمد بن عمر بن أبي سلمة، عن ابن عباس في قوله: ولقد رآه نزلة أخرى، قال: دنا منه ربه، وهذا سند حسن، وهو شاهد قوي لرواية شريك، ثم قال الخطابي: وفي هذا الحديث لفظة أخرى، تفرد بها شريك أيضًا، لم يذكرها غيره، وهي قوله فعلاً به، يعني جبريل إلى الجبار تعالى، فقال وهو مكانه: يا رب خفف عنا، والمكان لا ينسب إلى الله، إنما هو مكان النبي ﷺ في مقامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه.

قال الحافظ: وهذا الأخير متعين، وليس في السياق تصريح بإضافة المكان إلى الله، قال: وما جزم به من مخالفته للسلف والخلف، فقد ذكرنا من وافقه، وقد نقل القرطبي عن ابن عباس؛ أنه قال: دنا الله.

قال القرطبي: والمعنى دنا أمره وحكمه، وأصل التدلي النزول إلى الشيء حتى يقرب منه، وقيل: تدلى الرفرف لمحمد حتى جلس عليه، ثم دنا محمد من ربه، وقد أزال العلماء إشكاله، فقال القاضي عياض: إضافة الدنو والقرب هنا من الله، أو إلى الله، ليس بدنو مكان وقرب مدى ينتهي إليه، وإنما دنا ﷺ من ربه، وقربه، ومنه إبانة عظيم منزلته وتشريف رتبته، اعتناء بشأنه، وإظهارًا لما لم يؤته أحدًا غيره، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، مما لم يطلع عليه غيره، كما قال جعفر بن محمد: الدنو من الله لا حد له ينتهي إليه مطمح فهم، أو مطرح وهم، ومن العباد بالحدود الغائية المنتهية إلى غاية.

وقال أيضًا: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه، ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه إليه، وأزال عن قلبه الشك والارتياب، أي: الذي عرا خاطره هل يغشى حضرة هذا القرب، وينال مواهبه من أناقة وإكرام وشرف وأنعام، فأنجح الله أمنيته لا الشك في ذلك، إذ كان أثبت الناس معرفة وإيمانًا، وأسكنهم جنانًا، وأملكهم طمأنينة وسكونًا، وإنما الدنو والقرب من الله تعالى، أو إليه، كناية عن جزيل فوائده إليه، وجميل عوائده عليه، وتأنيس لاستيحاشه بانقطاع الأصوات عنه، وبسط بالمكالمة، وإكرام بشرائف منيفة، أو هو دنو إفضال وإجمال على أحد الوجوه في حديث: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة».

فأوحى إلى عبده ما أوحى الحديث.

وهذا الدنو والتدلي المذكور في هذا الحديث وغيره من أحاديث المعراج غير الدنو والتدلي المذكور في قوله تعالى في سورة النجم: **﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين﴾** [النجم/٩] وإن اتفقا في اللفظ.

فإن الصحيح أن المراد في الآية جبريل، لأنه الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾** [النجم/١٤] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح.

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال:

وقال الواسطي: من توهم أنه تعالى بنفسه دنا، فقد جعل ثم مسافة، ولا مسافة لاستحالتها، بل كلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا، يعني: كلما قرب منه نزل بساحة البعد، كناية عن نفيهما جميعًا، أو عن إدراك حقيقته، إذ لا يدركها أحد، إذ لا دنو للحق، ولا بعد لاستحالتهما، وقوله: ﴿فإني قريب﴾ [البقرة/١٨٦]، تمثيل لكمال علمه وإجابته لتعاليه عن القرب مكانًا.

(**فأوحى إلى عبده ما أوحى**،) كذا في النسخ، ولفظ البخاري: فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة (**الحديث**،) ذكر في بقيته: الهبوط والمراجعة في الصلاة، (**وهذا الدنو والتدلي المذكور في هذا الحديث وغيره من أحاديث المعراج غير الدنو والتدلي المذكور في قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب﴾**) قدر (**﴿قوسين﴾** [النجم/٩]،) ما بين مقبض القوس، والسية بكسر السين المهملة وتحتية خفيفة، وهي ما عطف من طرفها، ولكل قوس قابان، (**وإن اتفقا في اللفظ**،) لاختلافهما في المسند إليه، لأنه في الحديث مسند إلى الله تعالى بخلاف الآية.

(**فإن الصحيح أن المراد في الآية جبريل، لأنه الموصوف بما ذكر من أول السورة**،) يعني قوله: ﴿علمه شديد القوى﴾، (**إلى قوله: ﴿ولقد رآه نزلة﴾**) مرة من النزول، كجلسة من الجلوس، والواو للعطف، أو الحال، أي: كيف تجادلونه فيما رآه، وهو قد رآه على وجه لا شك فيه (**﴿أخرى﴾**) [النجم/٥]، يدل على سبق رؤية قبلها (**﴿عند سدرة المنتهى﴾**) [النجم/١٣] ظرف مكان لرأى، (**هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح**) الذي أخرجه مسلم.

(**قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية**،) أي: ﴿ولقد رآه

ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين.

ولفظ القرءان لا يدل على غير ذلك من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿علمه شديد القوى﴾. وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أنه قال: ﴿ذو مرة﴾ أي حسن الخلق وهو الكريم الذي في سورة التكوير.

نزلة أخرى﴾، (فقال: ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين) الأولى بالأرض، والنبي ﷺ بحراء في أوائل البعثة بعد فترة الوحي، كما قال ابن كثير وجبريل بالأفق الأعلى، ومرة في السماء ليلة الإسراء.

(ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه) سبعة: (أحدها: أنه قال ﴿علمه﴾،) أي: صاحبكم محمدًا، والمفعول الثاني محذوف، أي: علم النبي الوحي، ويجوز أن ضمير علمه للوحي، أي: الموحى، فالمفعول الأول محذوف، أي: علم الوحي النبي، (﴿شديد القوى﴾،) أي: قواه العلمية والعملية شديدة كلها، (وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير) بقوله: ﴿ذي قوة﴾ [التكوير/٢٠]، وفي وصفه بذلك فوائد، إذ مدح المعلم مدح للمتعلم، فلو قال علمه جبريل بلا وصف لم يحصل للمصطفى فضيلة ظاهرة، وفيه رد قولهم: ﴿أساطير الأولين﴾ [الأنفال/٣١]، والوثوق بقول جبريل، لأن قوة الإدراك شرط للوثوق بقول القائل، وكذا قوة الحفظ والأمانة، فوصفه بجميع هذه الشروط.

(الثاني: أنه قال: ﴿ذو مرة﴾)، قال القرطبي: قال قطرب: تقول العرب: لكل جزل الرأي: حصيف العقل ذو مرة. قال الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندي لكل مخاصم ميزانه

وكانت جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله ائتمنه على وحيه إلى جميع رسله، وفسره ابن القيم بقوله: (أي: حسن الخلق،) (بفتح فسكون، أو بضمتين)، (وهو الكريم الذي في سورة التكوير) في ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ [التكوير/١٩]، أي: كريم خلقًا وخلقًا.

قال ابن القيم أيضًا: ﴿ذو مرة﴾، أي: جميل المنظر، حسن الصورة، ذو جلالة، ليس شيطانًا، أقبح الخلق صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم، وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله، قال: وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما ذكر نظيره في سورة التكوير، فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته، وهذه كانت أوصاف الرسولين البشري والملكي.

الثالث: أنه قال: ﴿فاستوى وهو بالأفق الأعلى﴾ وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل عليه السلام، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ فهذا دنو جبريل وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق السموات فهناك دنا الجبار جل جلاله منه وتدلى.

(**الثالث: أنه قال: ﴿فاستوى﴾**،) قال القرطبي: أي: ارتفع، وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمدًا، قاله ابن المسيب وابن جبير.

قال الرازي: وهو المشهور، وقيل: ظهر في صورته التي خلق عليها، (**وهو**،) أي: جبريل مبتدأ خبره (**﴿بالأفق الأعلى﴾**،) والجملة حال من فاعل استوى، قاله مكي.

قال القرطبي: والمعنى فاستوى جبريل عاليًا على صورته، ولم يكن المصطفى رآه عليها حتى سأله إياها، وقيل الجملة مستأنفة، (**وهو**،) أي: الأفق (**ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل عليه السلام، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه**،) كما قال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه/٥]، لكن الآية فيها تأويل معلومة، لا يليق الجزم بظاهرها دون الإتيان بها، كما فعل ذلك، لكن هذا كلام ابن القيم، وقد رمي بالتجسيم.

(**الرابع: أنه قال: ثم دنا﴾**) جبريل من النبي ﷺ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، (**فتدلى**) على المصطفى، والمعنى أنه لما رأى من عظمة جبريل ما رأى، وهاله ذلك، رده الله إلى صورة آدمي، حتى قرب من المصطفى، هذا قول الجمهور، كما في القرطبي، (**﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾**) [الصافات/١٤٧].

قال ابن القيم: أو ليست للشك، بل لتحقيق قدر المسافة، وأنها لا تزيد على قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات/١٤٧]، تحقيقًا لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجلاً واحدًا، (**فهذا دنو جبريل، وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها، وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج، فرسول الله ﷺ كان فوق السموات، فهناك دنا الجبار جل جلاله منه، وتدلى**:) دنو منزلة، كما في الحديث القدسي: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»، وهو تمثيل يقرب المعنى إلى الإفهام، أي: من تقرب إليّ بطاعتي جازيته بأضعاف ما تقرب إليّ، ومن هرول في طاعتي سبقته بجزائه، فهو قرب بالإجابة والقبول، وإتيان بالإحسان والمأمول، ثوابًا مضاعفًا، ومر له مزيد قريبًا.

الخامس: أنه قال: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ والذي عند سدرة المنتهى قطعًا هو جبريل، وبهذا فسره النبي ﷺ فقال: ذاك جبريل.

السادس: أن نفس الضمير في قوله: ﴿ولقد رآه﴾ وقوله: ﴿دنا فتدلى﴾ وقوله: ﴿فاستوى﴾ وقوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسرين من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، بل تحتها فدنا من الأرض فتدلى من رسول الله ﷺ، ودنو الرب تبارك وتعالى وتدليه ـ على ما في حديث شريك ـ كان فوق العرش لا إلى الأرض.

(**الخامس: أنه قال: ولقد رآه نزلة﴾**) نصب على المصدر الواقع، موقع الحال، أي: رآه نازلاً نزلة (﴿**أخرى**﴾) قاله الحوفي وابن عطية، أو على المصدر المؤكد، أو الظرف الذي هو مرة لأن فعلة اسم للمرة من الفعل، فكانت في حكمها، ورد بأنه ليس مذهب البصريين، إنما هو مذهب الفراء، (﴿**عند سدرة المنتهى**﴾**، والذي عند سدرة المنتهى قطعًا هو جبريل، وبهذا فسره النبي ﷺ، فقال: ذاك جبريل،**) ولا معدل عن تفسيره.

(**السادس: أن نفس الضمير في قوله: ﴿ولقد رآه﴾، وقوله: ﴿دنا فتدلى﴾، وقوله: ﴿فاستوى﴾، وقوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾، واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسرين:**) بفتح السين والراء تثنية، بجعل ضميري ﴿استوى﴾، وهو لجبريل، و ﴿دنا فتدلى﴾ لله تعالى (**من غير دليل،**) لأنه تحكم، والأصل توافق الضمائر، لكن الاستدلال بهذا لا يصح، إذ الدليل ما سلمه الخصم، وقد قيل: الضمير إن في فاستوى، وفي: وهو لله تعالى، وهو قول الحسن البصري على معنى العظمة والقدرة والسلطان.

(**السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء،**) أي: جانب من جوانبها، قاله ابن دريد، ومنه قوله:

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وقال مجاهد: مطلع الشمس، وقال قتادة: هو الأفق الذي يأتي منه النهار، يعني طلوع الفجر، حكاها الماوردي، ولذا قال: (**بل تحتها، فدنا من الأرض، فتدلى من رسول الله ﷺ، ودنوّ الرب تبارك وتعالى وتدليه على ما في حديث شريك،**) عن أنس: (**كان فوق العرش، لا إلى الأرض،**) فلا يصح تفسير الآية بما في حديث شريك، ولذا جزم ابن كثير بأن الدنوّ

ثم نفى سبحانه وتعالى على نبينا ﷺ بقوله سبحانه: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يمينًا وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبًا ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وهو روع القلب إذا اضطرب، وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

والتدلي في حديث شريك غير الذي في الآية، **(ثم نفى سبحانه وتعالى عن نبينا ﷺ بقوله؛ سبحانه ﴿ما زاغ البصر﴾،)** أي: ما مال، قال ابن عباس: ما زاغ يمينًا ولا شمالاً **(﴿وما طغى﴾،)** ما جاوز ما أمر به، وعلى هذا المفسرون ومفعول نفي قوله **(ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يمينًا وشمالاً،)** وهذا تفسير لزاغ، (و) نفي بقوله: ﴿ما طغى﴾، **(مجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب)** التي لا يشبهها شيء، **(بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه،)** فاعل ومفعوله **(إطراقه،** و) أوجب **(إقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش)** بالهمز، **(وهو روع)** **(بالفتح)**، أي: خوف **(القلب إذا اضطرب)** عند الفزع، وقد لا يهمز والجمع جؤش، كما في القاموس.

وفي النهاية: الجأش القلب والنفس والجنان، يقال: فلان ثابت الجأش، أي: ثابت القلب، لا يرتاع للعظائم والشدائد، **(وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال،)** فزيغ البصر التفاته جانبًا، وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي، فنزه علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

قال الإمام الرازي: اللام في البصر يحتمل وجهين: أحدهما: البصر المعروف، وهو بصر محمد ﷺ، أي: ما زاغ بصر محمد ﷺ، فعدم الزيغ إن قلنا الغاشي للسدرة هو الجراد، أو الفرش، معناه لم يلتفت إليه، ولم يشتغل به، ولم يقطع نظره عن مقصوده، وإن قلنا أنوار الله، فمعناه لم يلتفت يمنة ويسرة، بل اشتغل بمطالعتها، ففيه بيان أدبه، أو ما زاغ بضعفه عن مطالعتها، ففيه بيان قوته.

الثاني: أنها لتعريف الجنس، أي: ما زاغ بصر أصلاً في ذلك الموضع لعظم الهيبة، قال:

قال في «مدارج السالكين»:

وفي هذه الآية أسرار عجيبة هي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر، صلوات الله وسلامه عليه، تواطأ هناك بصره وبصيرته وتوافقا، فما يشاهده بصره فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر، فتوطأ في حقه، أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره، ولهذا قرأها هشام وأبو جعفر ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ بتشديد الذال، أي لم يكذب القلب البصر بل صدقه وواطأه بصحة الفؤاد والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًا. وقرأ الجمهور ﴿**ما كذب الفؤاد**﴾ بالتخفيف، وهو متعد، و«ما رأى» مفعولة، أي: ما كذب

وفيه لطيفة، هي أنه لم يقل ما مال وما جاوز، لأن الميل والتجاوز مذمومًا في ذلك الموضع، فاستعمل الزيغ والطغيان فيه، أو هو بيان لشدة يقينه الذي لا يقين فوقه، أي: ما مال عن الطريق، فلم ير الشيء على خلاف ما هو عليه، بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً، ثم ينظر إلى شيء أبيض، فإنه يراه أبيض وأخضر، يزيغ بصره عن جادة الأبصار، وقوله: ﴿ما طغى﴾، أي: ما تخيل المعدوم موجودًا، وقيل: ما جاوز ما أمر به انتهى.

(**قال**) ابن القيم (**في مدارج السالكين**) في شرح منازل السائرين لأبي إسمعيل الهروي: (**وفي هذه الآية أسرار عجيبة، هي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر صلوات الله وسلامه عليه، تواطئًا هناك بصره وبصيرته،**) وهي العقل المنور بنور القدس، المكحل بضياء هداية الحق، فلا يخطىء في العيان، ولا يحتاج إلى برهان، بل يتصور الحق بينًا مكشوفًا، والباطل زاهقًا مدحورًا، فلذا قال صاحب المنازل البصيرة: ما يخلص من الحيرة، (**وتوافقًا**) عطف تفسير لتواطا، (**فيما يشاهده بصره، فالبصيرة مواطئة**) موافقة (**له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر، فتوطا في حقه، أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره،**) فهو إخبار عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ما هو عليه، فكذب فؤاده بصره، (**ولهذا قرأها هشام وأبو جعفر: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ بتشديد الذال، أي: لم يكذب القلب البصر، بل صدقه وواطأه بصحة الفؤاد والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًا،**) وحاصله أن قلبه صدق ما رآه بعينه، ولم يقل إنه خيال لا حقيقة له.

(**وقرأ الجمهور: ﴿ما كذب الفؤاد﴾ بالتخفيف، وهو متعد**) بنفسه على القراءتين، (**وما رأى مفعوله، أي: ما كذب قلبه ما رأت عيناه، بل واطأه ووافقه،**) وما مصدرية، أي: ما كذب فؤاده رؤيته، أو موصول، والعائد محذوف، أي: الذي رآه بعينه، وقيل: قراءة التخفيف على

قلبه ما رأت عيناه بل واطأه ووافقه.

فلموافقة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته، لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده فيطغى، ولم يمل على المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر على المرئي ما جاوزه ولا مال عنه كما اعتدل القلب في الإقبال على الله تعالى والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته وأعرض عما سواه بكليته.

وللقلب زيغ وطغيان، كما أن للبصر زيغًا وطغيانًا وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله تعالى الذي لا يلحقه فيه سواه، فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى

إسقاط الخافض، أي: فيما رآه، قاله مكي وغيره.

وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما وتصديق كل واحد منهما صاحبه، وهذا ظاهر في قراءة التشديد، وقد استشكلها المبرد وغيره، بأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضًا بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه، وأجيب بأنه قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به، فيكذبه قلبه إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه وكذبته عينه، فنفي ذلك سبحانه عن رسوله.

(فلموافقة قلبه لقالبه:) جسده، **(وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته، لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده فيطغى، ولم يمل على المرئي، فيزيغ، بل اعتدل البصر على المرئي ما جاوزه، ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله تعالى، والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته وأعرض عما سواه بكليته،)** قلبًا وقالبًا.

وقد حكى الماوردي في الفؤاد قولين: أحدهما نفسه، لأنه محل الاعتقاد، والثاني صاحبه، وعبر عنه بالفؤاد، لأنه قطب الجسد، وبه قوام الحياة.

(وللقلب زيغ وطغيان، كما أن للبصر زيغًا وطغيانًا،) بل قد يكون أشد الحديث ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب، **(وكلاهما منتف عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله تعالى)** ولا بدع، ففي الحديث: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، **(الذي لا يلحقه فيه)** أحد **(سواه، فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع، أن تطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى أن موسى**

أن موسى عليه الصلاة والسلام، لما أقيم مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية، ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه، ولم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة، ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع فلم تعقه إرادة منه لشيء، ولم تقف به دون كمال العبودية همة، ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع خطوة عند منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راكبه وبعد شأوه الذي سبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يتخلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لم يتأخر عن محل معرفته فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله تعالى، وتكميل مرتبة عبوديته له، حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت له هناك أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت له سحائب الحجب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غبطه به

عليه الصلاة والسلام لما أقيم مقام التكليم والمناجاة) لله سبحانه **(طلبت نفسه الرؤية،)** فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾، **(ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه ولم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة)** بالقطع، فلم يسأل حتى قال له ربه سل، ومع ذلك سأل بالتلويح دون التصريح، فقال: إنك اتخذت إلى آخر ما يأتي.

(ولأجل هذا ما عاقه عائق ولا وقف به، مراد حتى جاوز السموات السبع، فلم تعقه إرادة منه لشيء، ولم تقف به دون كمال العبودية همة، ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع خطوه،) وفي نسخة قدمه **(عند منتهى طرفه:)** بسكون الراء، أي: نظره، وهذا صريح في التساوي، فيدافع قوله يسبق إلا أن يكون المراد ما ينتهي إليه طرفه، وهو الجزء الأخير من المسافة التي ينتهي إليها الطرف، يضع مؤخر قدمه عنده، فتكون جملة القدم مقدمة على ما وصل إليه طرفه، **(مشاكلاً لحال راكبه، وبعد شأوه:)** بالشين المعجمة والهمز، بزنة فلس، أي: غايته وأمده، **(الذي سبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يتخلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته، فلم يزل ﷺ في خفارة:)** (بضم الخاء وكسرها)، أي: حماية، **(كمال أدبه مع الله تعالى، وتكميل مرتبة عبوديته له حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق،)** وهي السموات، **(وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين،)** إذ لم يصل إليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، **(فانصبت له هناك أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت:)** انكشفت **(له سحائب الحجب:)** (بضمتين) جمع حجاب، **(ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا،)** أي: حجابًا بعد حجاب، **(وأقيم مقامًا**

الأنبياء والمرسلون.

فإذا كان في المعاد أقيم مقامًا من القرب ثانيًا، يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع اللّٰه تعالى ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط على الحق والهدى، وأقسم بكلامه القديم على ذلك في الذكر الحكيم فقال: ﴿**يس والقرءان الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم**﴾ [يس/١ - ٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط، فيسأل السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزوا إلى جنات النعيم، وذلك فضل اللّٰه يؤتيه من يشاء واللّٰه ذو الفضل العظيم.

ثم أعلم إن ما ذكر هنا من القرب والدنو، المراد به تأكيد المحبة والقربة، ورفع المنزلة والرتبة، قال جعفر الصادق: لما قرب الحبيب من الحبيب غاية

غبطه:) استحسنه (**به الأنبياء والمرسلون، فإذا كان في المعاد**) يوم القيامة (**أقيم مقامًا من القرب، ثانيًا يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع اللّٰه تعالى ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾، فأقامه في هذا العالم**،) أي: عالم الدنيا، (**على أقوم صراط على الحق والهدى**،) وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، (**وأقسم بكلامه القديم على ذلك في الذكر**،) أي: القرآن (**الحكيم، فقال: ﴿يس﴾**) القراءة المشهورة بسكون النون، وقرىء شاذًا بالفتح للخفة، وبالكسر لالتقاء الساكنين، وبالضم على النداء، كما في الإتقان، (**﴿والقرآن الحكيم﴾**،) المحكم بعجيب النظم، وبديع المعاني، (**﴿إنك لمن المرسلين على﴾**) متعلق بما قبله (**﴿صراط مستقيم﴾** [يس/١ ــ ٤]) أي: طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى، والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار لست مرسلاً، (**فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط، فيسأل السلامة لأتباعه ولأهل سنته حتى يجوزوا إلى جنات النعيم، وذلك فضل اللّٰه يؤتيه من يشاء، واللّٰه ذو الفضل العظيم، ثم اعلم أن ما ذكر هنا من القرب والدنوّ**) إلى اللّٰه، ومن اللّٰه في حديث شريك، وفي الآية على أحد القولين ليس بدنو مكان ولا قرب مدى، وإنما (**المراد به تأكيد المحبة**) بإظهار عظيم منزلته وتشريف رتبته، (**والقربة ورفع المنزلة والرتبة**) عطف تفسير.

(**قال جعفر الصادق**،) لصدقه في مقاله ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي الهاشمي أبو عبد اللّٰه، الفقيه، الإمام الصدوق، المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة، روى له مسلم وأصحاب السنن: (**لما قرب الحبيب من الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة، فلاطفه**

القرب، نالته غاية الهيبة، فلاطفه الحق تعالى بغاية اللطف، وذلك قوله جل جلاله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي كان ما كان وجرى ما جرى، وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب: وألطف به ألطاف الحبيب بالحبيب، فخفي السر ولم يطلع عليه أحد، ولم يعلم أحد ما أوحى إلا الذي أوحى.

وقال غيره في قوله تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أبهمه لعظمته، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، فهو مبهم لا يطلع عليه بل يتعبد بالإيمان به.

وقيل: هو مفسر بالأخبار الواردة، قال سعيد بن جبير: أوحى الله تعالى إليه ﷺ، ألم أجدك يتيمًا فآويتك، ألم أجدك ضالاً فهديتك، ألم أجدك عائلاً

الحق تعالى بغاية الطف، وذلك قوله جل جلاله: ﴿فأوحى﴾) الله (**﴿إلى عبده﴾**) محمد ﷺ بلا واسطة ملك ولا غيره، على ما هو المنقول عن جعفر في الشفاء وغيره، فالمراد بالوحي هنا الكلام وإن كان أعم منه (**﴿ما أوحى﴾**)، أي: أمرًا عظيمًا، ففي إبهامه تفخيمه وتعظيمه، كما أفاده قوله، (**أي: كان ما كان، وجرى ما جرى**).

(**وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب، وألطف به ألطاف، الحبيب للحبيب، فخفي السر ولم يطلع عليه أحد،**) لأنه من أسرار المعارف التي لم يطلع عليها غيره، (**ولم يعلم أحد ما أوحى إلا الذي أوحى،**) وهو الله سبحانه، أي: الموحي إليه محمد ﷺ علمه أيضًا، ويحتمل قراءة ﴿أوحي﴾ بالبناء للمفعول، أي: أوحي إليه، لكن فيه حذف نائب الفاعل إلا أن يكون للعلم به من السياق.

(**وقال غيره في قوله تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** [النجم/١٠]، **أبهمه لعظمته، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، فهو مبهم، لا يطلع عليه، بل يتعبد بالإيمان به،**) وهذا معنى كلام جعفر وإن اختلف التعبير، (**وقيل: هو مفسر بالأخبار الواردة**).

(**قال سعيد بن جبير: أوحى الله تعالى إليه ﷺ ألم أجدك،**) استفهام تقرير (**يتيمًا،**) بفقد أبيك قبل ولادتك، أو بعدها، (**فآويتك،**) بضمك إلى عمك أبي طالب، وإسكان محبتك في قلبه حتى كان يقدمك على أولاده، (**ألم أجدك ضالاً**) عما أنت عليه الآن من الشريعة، كقوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى/٥٢]، (**فهديتك**) إليها، أو ضالاً في بعض شعاب مكة، فبينت لك الطريق ورددتك، أو ناسيًا فهديتك إلى الذكر، لأن الضلال جاء بمعنى النسيان، قال تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، وجمع بينهما في لا يضل ربي ولا ينسى، لأنه ثم بمعنى الخطأ والغفلة، (**ألم أجدك عائلاً**) قليل المال (**فأغنيتك،**)

فأغنيتك، **﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾** [الشرح/ ١- ٤].

وقيل: أوحى اللّه تعالى إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. ذكره الثعلبي والقشيري.

وقيل: أوحى اللّه تعالى إليه: خصصتك بحوض الكوثر، فكل أهل الجنة أضيافك بالماء، ولهم الخمر واللبن والعسل. ذكره القشيري.

وذكر أيضًا: أنه أوحى إليه ما أوحى إلى الرسل لقوله تعالى: **﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾** [فصلت/٤٣].

وقيل: أوحى إليه الصلوات الخمس. ذكره النقاش.

بما قنعتك به من الغنائم وغيرها.

وفي الحديث: ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس، (**﴿ألم نشرح لك صدرك﴾** [الانشراح/١]،) بالنبوة وغيرها، (**﴿ووضعنا﴾**) حططنا (**﴿عنك وزرك الذي أنقض﴾**) أثقل (**﴿ظهرك﴾**) وهذا كقوله: **﴿ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾** [الفتح/٢]، وتقدم قريبًا، ويأتي للمصنف، (**﴿ورفعنا لك ذكرك﴾**) بأن تذكر مع ذكري في الأذان والإقامة والتشهد والخطبة وغيرها.

(**وقيل: أوحى اللّه تعالى إليه إن الجنة حرام**،) ممنوع دخولها (**على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك، ذكره الثعلبي**) الإمام المفسر، (**والقشيري**) العلم الشهير.

(**وقيل: أوحى اللّه تعالى إليه خصصتك بحوض الكوثر، فكل أهل الجنة أضيافك بالماء، ولهم الخمر واللبن والعسل، ذكره القشيري، وذكر أيضًا: أنه أوحى إليه ما أوحى إلى الرسل، لقوله تعالى: ﴿ما يقال لك﴾**،) بناء على أن معناه: ما يوحى إليك (**﴿إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾** [فصلت/٤٣]،) من الوحي، وقيل: معناه ما يقال لك من التكذيب، (**وقيل: أوحى إليه الصلوات الخمس، ذكره النقاش**،) وقيل: ما في ما أوحى للعموم، والمراد كل ما جاء به.

وفي الشفاء أكثر المفسرين على أن الموحي اللّه إلى جبريل، وجبريل إلى محمد، إلا شذوذًا، منهم جعفر الصادق، قال: أوحى إليه بلا واسطة، ونحوه ذهب بعض المتكلمين أن

وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي: أن اللّه تعالى قال له صلوات اللّه وسلامه عليه: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وآتيته ملكًا عظيمًا، وكلمت موسى تكليمًا، وأعطيت داود ملكًا عظيمًا، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا، وسخرت له الإنس والجن والشياطين، وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة

محمدًا كلمه ربه في الإسراء، وحكي عن الأشعري وابن مسعود وابن عباس، وأنكره آخرون. انتهى.

(**وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي**،) وأبي هريرة عند ابن جرير والبزار وأبي يعلى والبيهقي: (**أن اللّه تعالى قال له صلوات اللّه وسلامه عليه**،) وفي رواية: فرأى ربه سبحانه، فخر ﷺ ساجدًا، وكلمه ربه عند ذلك، فقال: يا محمد، قال: لبيك يا رب، قال: (**سل**،) أصله اسأل، فخفف وحذف المفعول للعموم، أي: كل ما تريد، (**فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً**:) صفيًا خالص المحبة، وفي رواية أبي يعلى: أن اللّه قال له: ﴿إني اتخذتك خليلا﴾.

وروى ابن ماجه عن ابن عمر، مرفوعًا: إن اللّه اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فمنزلي ومنزل إبراهيم في الجنة يوم القيامة تجاهين، والعباس بيننا مؤمن وبين خليلين.

(**وآتيته ملكًا عظيمًا**،) تقدم أنه لا يعهد لإبراهيم ملك عرفي، فيجوز أن المراد قهره لعظماء الملوك كالنمرود، فالقاهر هو أعظم من المقهور، أو ملك النفس، أو بالنسبة لذريته، كيوسف وداود وسليمان، (**وكلمت موسى**) بلا واسطة، (**تكليمًا**،) أكد به لإفادة أنه حقيقي، فلا عبرة بإنكار بعض المعتزلة، (**وأعطيت داود ملكًا عظيمًا**،) فجعلته خليفتك في الأرض، (**وألنت له الحديد**،) فكان في يده كالعجين يتخذ منه الدروع، (**وسخرت له الجبال**) تسبح معه بالعشي والإشراق، (**وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا**،) إذ ملكته الدنيا بأسرها، (**وسخرت له الإنس**) جندًا، ورعايا لا يعصونه في شيء، (**والجن**،) فكانوا يخدمونه في بنائه وفي غيره فبنت له بيت المقدس بالرخام المزخرف بناء عاليًا حتى كان يضيء في الليلة المظلمة، ولم يزل كذلك حتى خربه بختنصر، ونقل ما فيه لمملكته بالعراق، (**والشياطين**،) وهم مردة الجن، فهو عطف خاص على عام، فكانوا يغوصون البحار، ويستخرجون له الدرر والجواهر، ويعملون له ما يريد، (**وسخرت له الرياح**) تجري بأمره رخاء حيث أصاب، وتحمل كرسيه وبساطه مسيرة شهر غدوًا، ومسيرة شهر رواحًا، (**وأعطيته ملكًا لا ينبغي**:) لا يكون (**لأحد من بعده**،) كما سألك فملك ما فوق الأرض وما تحتها، (**وعلمت عيسى**،) وهو صغير (**التوراة والإنجيل**،)

والإنجيل، وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل. فقال له ربه: قد اتخذتك حبيبًا، فهو مكتوب في التوراة: محمد حبيب الرحمٰن، وأرسلتك إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلاَّ وتذكر

الذي أنزل عليه، ولا أحكام فيه، وإنما هو حكم وحقائق التوحيد، وقيل: فيه أحكام قليلة بالنسبة للتوراة، فلذا حفظها وعمل بها، (**وجعلته يبرىء الأكمه**) الذي ولد أعمى، (**والأبرص**) بياض لون البدن، وصيرورته قبيحًا من علة مزمنة لا يتيسر علاجها، وخصهما لأنهما داءا إعياء، (**ويحيي الموتى بإذنك،**) فأحيا جماعة كما مر، (**وأعذته**) حفظته وأجرته (**وأمه من الشيطان الرجيم:**) المطرود اللعين، (**فلم يكن له عليهما سبيل:**) طريق، (**فقال له ربه**) جوابًا لمعنى كلامه: إن المقامات العلية سبق لها السابقون من الرسل، (**قد اتخذتك حبيبًا،**) هذا في مقابلة الخلة والمحبة أعظم.

وفي رواية أبي يعلى أنه تعالى قال له: اتخذتك خليلاً، فجمع بين الصفتين، ولم يذكر ما يقابل ما بعده لعلمه، إذ هو لم يرض الملك لما عرض عليه، والكلام وقع له كما وقع لموسى، والقرآن أعظم من التوراة والإنجيل وإبراء الأكمه والأبرص، وقع للمصطفى نظيره، كرد عين قتادة، وبرء كثير من الأمراض بمس يده، وأعيذ من الشيطان حتى أن قرينه آمن به، ووقع له إحياء الموتى، وما هو أغرب منه كما تقدم بسط ذلك كله في المعجزات، (**فهو مكتوب في التوراة محمد حبيب الرحمٰن،**) هذا من كلام الراوي أبي سعيد، أو غيره استشهادًا وتقوية للحديث، وفي سبعيات الهمداني، ثبت في الحديث أنه ﷺ قال: «هممت ليلة المعراج أن أخلع نعلي، فسمعت النداء من قبل الله: يا محمد لا تخلع نعليك لتشرف السماء بهما، فقلت: يا رب إنك قلت لموسى: ﴿اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس﴾ [طه/١٢]، فقال: يا أبا القسم: ادن مني، لست عندي كموسى؛ فإنه كليمي، وأنت حبيبي». انتهى، وتعقب بأن هذا باطل لم يذكر في شيء من الأحاديث بعد الاستقراء التام، ويأتي له مزيد.

(**وأرسلتك إلى الناس كافة،**) جامعًا في الإنذار والإبلاغ من الكف بمعنى الجمع، ومنه كف الثوب، وهو جمعه بالخياطة، والهاء للمبالغة كعلامة، وقيل: معناه مانعًا ورادعًا عن الكفر وسائر المعاصي من الكف بمعنى المنع، والهاء للمبالغة أيضًا، والنصب على الوجهين حال من المفعول في أرسلتك، أو على أنه مفعول مطلق لأرسلتك، أي: إرساله كافة، أي: عامة، كفتهم عن الخروج منها، فكأنه صفة مصدر، (**بشيرًا**) للمؤمنين والمتقين، (**ونذيرًا**) للكافرين والعاصين، (**وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا وتذكر معي،**)

معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطًا، وجعلت أمتك هم الأولون وهم الآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقوامًا قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول

أي: كثيرًا، أو عادة، أو في مواطن معلومة، كالأذان والإقامة، والتشهد والإسلام، والخطبة وغير ذلك، وبهذا دافع إيراد أن الشهادة الثانية قد لا تذكر، وهذا بيان لرفع ذكر، ولا أرفع من ذلك، وقد قال ﷺ: «أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول لك تدري كيف رفعت ذكرك، قلت: اللّٰه أعلم، قال: لا أذكر إلا ذكرت معي»، رواه أبو يعلى والطبراني، وصححه ابن حبان والضياء من حديث أبي سعيد، فقد خاطبه بذلك بعد إرساله جبريل له به قبل ذلك على مدلول الحديثين زيادة في التعظيم والإكرام.

(وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس) فيه تبشيره بذلك قبل إنزاله عليه، لأن الإسراء بمكة والسورة مدنية.

(وجعلت أمتك أمة وسطًا)، خيارًا عدولاً.

(وجعلت أمتك هم الأولون) في القيام من القبور والقضاء ودخول الجنة، **(والآخرون)** في الوجود والمنة بهذا عليه لما تضمنه من كثرتهم وقلة مكثهم في القبور، وعدم نسخ شريعته.

وروى الخطيب عن أنس، مرفوعًا: لما أسري بي إلى السماء قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى، وعلمني المسميات، قال: يا محمد، قلت: لبيك، قال: هل غمك أن جعلتك آخر النبيين، قلت: يا رب لا، قال: هل غم أمتك أني جعلتهم آخر الأمم؟، قلت: لا، قال: فاقرأ أمتك مني السلام وأخبرهم أني جعلتهم آخر الأمم، لأفضح الأمم عندهم ولا أفضحهم.

(وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة،) أي: لا يعتد بها اعتدادًا كاملاً، **(حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي،)** أي: يأتوا بكلمتي الشهادة، لحديث: «كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء»، أي: ناقصة لا بركة فيها، وبالتقييد بكاملاً اندفع ما قيل مقتضاه أن التشهد في الخطبة ركن، أو شرط، ولم يقل به أحد من الفقهاء، وتعسف الجواب؛ بأن المعنى لا يصح إلا خطبة المسلم المصدق بك، والأمة أمة الدعوة، أو النسخ، إذ لا يثبت بالاحتمال على أن الشافعي وغيره اشترطوا في الخطبة الصلاة على النبي ﷺ، وهي تتضمن الشهادة بذلك، فدعوى الإجماع غير مسموعة.

(وجعلت من أمتك أقوامًا قلوبهم أناجيلهم،) أي: يحفظون الكتاب المجيد، ويتلونه حفظًا، والأناجيل جمع إنجيل، وهو اسم كتاب اللّٰه المنزل على عيسى.

النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعًا من المثاني لم أعطها نبيًا قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيًا قبلك، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحًا وخاتمًا. وفي إسناده أبو جعفر الرازي ضعفه بعضهم، وقال أبو زرعة: متهم، وقال

(وجعلتك أول النبيين خلقًا) لأنه خلق روحه قبل الأرواح، وخلق الأرواح ونبأه قبلهم في عالم الأرواح، فهو أولهم خلقًا، ونبوة، **(وآخرهم بعثًا:)** إرسالاً، **(وأولهم يقضى له)** قبل الناس، **(وأعطيتك سبعًا من المثاني:)** الفاتحة، لأنها تثنى وتكرر في كل ركعة أو غيرها تقدم بسطه، **(لم أعطها نبيًا قبلك، وأعطيتك الكوثر:)** نهر في الجنة، كما في مسلم مرفوعًا، **(وأعطيتك خواتيم سورة البقرة،)** من آمن الرسول **(من كنز تحت العرش)**.

قال الحافظ العراقي: معناه أنها ادخرت له وكنزت، كما قال، **(لم أعطها نبيًا قبلك،)** وكثير من آي القرآن منزل في الكتب السابقة باللفظ، أو المعنى، وإن كان في القرآن أيضًا ما لم يؤت غيره، لكن في هذه خصوصية لهذه الأمة، وهي موضع الأصر الذي كان على من قبلها.

قال التوربشتي: ليس يعني بقوله: أعطى، أنها أنزلت عليه، بل المعنى أنه استجيب له فيما لقن من الآيتين من قوله: ﴿غفرانك ربنا﴾ [البقرة/٢٨٥] إلى آخر السورة، ولمن يقوم بحقهما من السائلين.

قال الطيبي: وفي كلامه إشعار بأن الإعطاء بعد الإنزال، لأن المراد منه الاستجابة، وهي مسبوقة بالطلب، والسورة مدنية، والمعراج كان بمكة، قال: ويمكن أن يقال هذا من قبيل ﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾، [النجم/٣، ٤]، وإنما أوثر الإعطاء لتعبيره بكنز.

(وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام،) وصفًا لأمتك دون الأمم، ومر أن هذا أرجح القولين، **(والهجرة، والجهاد،)** وما فيه من الغنائم، **(والصلاة،)** أي: مجموع الصلوات الخمس، **(والصدقة:)** الزكاة، **(وصوم رمضان،)** وفيه حجة لأحد القولين في اختصاصه بالأمة المحمدية، **(والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)** لك بلا شرط، ولأمتك بالشروط المعلومة، **(وجعلتك فاتحًا)** لكل خير، **(وخاتمًا)** للنبيين.

(وفي إسناده أبو جعفر الرازي) التميمي، مولاهم، مشهور بكنيته، واسمه عيسى بن عبد الله بن ماهان، وأصله من مرو، وكان يتجر إلى الري، مات في حدود الستين ومائة، روى له أصحاب السنن، **(ضعفه بعضهم)**.

(وقال أبو زرعة) الرازي: **(متهم، وقال ابن كثير: الأظهر أنه سيء الحفظ،)** وليس

ابن كثير: الأظهر أنه سيء الحفظ.

وذكر الفخر الرازي عن والده قال: سمعت أبا القٰسم سليمٰن الأنصاري يقول: لما وصل محمد ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعراج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم شرفك؟ قال: يا رب، بنسبتي إليك بالعبودية. فأنزل الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ فسماه تعالى بهذا الاسم لتحققه ﷺ بالاسم الأعظم واتصافه بجميع صفاته، فلا يصلح هذا الاسم بالحقيقة إلا له عليه الصلاة والسلام وللأقطاب من بعده بتبعيته لا بالحقيقة، وإن أطلق على غيره مجازًا، ويرحم الله الأديب برهان الدين القيراطي فلقد أجاد حيث قال:

بتهم، وبه جزم الحافظ، فقال: صدوق، سيء الحفظ، خصوصاً عن مغيرة.

(**وذكر الفخر الرازي عن والده، قال: سمعت أبا القٰسم سليمٰن الأنصاري يقول: لما وصل محمد ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعراج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم**) يكون (**شرفك**) الذي تريده، (**قال: يا رب بنسبتي إليك بالعبودية، فأنزل الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾**،) لأنه ليس للمؤمن صفة أتم، ولا أشرف من العبودية، ولذا أطلقه الله على نبيه في أشرف المواطن، كقوله: ﴿أسرى بعبده﴾، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، تبارك الذي نزل الفرقان على عبده، فأوحى إلى عبده، قاله أبو علي الدقاق.

قال الطوسي: وسبب ذلك أن الإلهية والسيادة والربوبية، إنما هي في الحقيقة لله لا غيره، والرتب الحقيقية أشرف المراتب، إذ ليس بعدها إلا المجاز.

قال بعض: وبهذا يخرج الجواب عن وصف يحيى بالسيادة، (**فسماه تعالى بهذا الاسم لتحققه ﷺ بالاسم الأعظم، واتصافه بجميع صفاته، فلا يصلح هذا الاسم بالحقيقة إلا له عليه الصلاة والسلام، وللأقطاب من بعده بتبعيته لا بالحقيقة، وإن أطلق على غيره مجازًا**،) لأن حقيقة العبد عند القوم، القائم إلى أوامر سيده على حد النشاط، حيث جعله محل أمره، قاله أبو حفص النيسابوري.

وقال ابن عطاء: هو الذي لا ملك له، وقيل: هو الذي يتخلق بأخلاق ربه، وقيل: غير ذلك مما هو متقارب المعنى، مختلف اللفظ، وكل تكلم بلسان حاله على قدر مقامه.

(**ويرحم الله الأديب برهان الدين**) إبراهيم بن شرف الدين بن عبد الله بن محمد، (**القيراطي**،) البارع، المتفنن، ولد في صفر سنة ست وعشرين وسبعمائة، ولازم علماء عصره،

ودعتني بالعبد يومًا فقالوا قد دعته بأشرف الأسماء

ولبعض الإشارات:

كأن اللَّه تعالى قال له: محمد، إني أعطيتك نورًا تنظر به جمالي، وسمعًا تسمع به كلامي، يا محمد، إني أعرفك بلسان الحال معنى عروجك إلي، يا محمد، أرسلتك إلى الناس شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به، فأريك جنتي لتشهد ما أعددت فيها لأوليائي، وأريك ناري لتشهد ما أعددت فيها لأعدائي، ثم أشهدك جلالي، وأكشف لك عن جمالي لتعلم أني منزه في

وبرع في الفنون، ودرس بعدة أماكن، وفاق في النظم، وله ديوان مشهور، مات بمكة سنة إحدى وثمانين وسبعمائة.

(فلقد أجاد حيث قال:)

ودعتني بالعبد يومًا فقالوا قد دعته بأشرف الأسماء

وقد أخذ قول القائل:

يا قوم قلبي عبد زهراء يعرفه السامع والرائي

لا تدعني الأبيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

أنشده الأستاذ أبو القسم القشيري.

(ولبعض الإشارات) من محققي الصوفية الذين يستخرجون من النصوص معاني، كأنها منطوق بها، بحسب أفهامهم وأحوالهم، **(كأن اللَّه تعالى قال له محمد)** بحذف ياء النداء، لأنها للبعيد، وهو قد حصل له غاية القرب: **(إني أعطيتك نورًا:)** قوة في بصرك، شديدة زائدة على المعتاد، **(تنظر به جمالي:)** إذ لو لم أعطك ذلك ما قدرت على نظره، **(وسمعًا)** زائدًا على سمعك، **(تسمع به كلامي،)** فلولاه ما سمعت، ثم لما ثبت وتحقق له القرب المعنوي، ذكر ياء النداء على الأصل، فقال: **(يا محمد إني أعرفك بلسان الحال معنى عروجك إلى يا محمد،)** وذلك لأني **(أرسلتك إلى الناس شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به،)** كما قال ﷺ على مثل الشمس: «فاشهد وإلا فدع» رواه الحاكم والبيهقي.

(فأريك جنتي لتشهد ما أعددت فيها لأوليائي) المؤمنين، **(وأريك ناري لتشهد ما أعددت فيها لأعدائي)** الكافرين، إذ ليس الخبر كالعين، وفي التنزيل عن إبراهيم: ﴿بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾، **(ثم أشهدك جلالي:)** عظمتي، **(وأكشف لك عن جمالي لتعلم أني منزه في جمالي)** وجلالي **(عن الشبيه والنظير والوزير)** المعين **(والمشير، فرآه ﷺ بالنور الذي**

جمالي عن الشبيه والنظير، والوزير والمشير، فرآه ﷺ بالنور الذي قواه من غير إدراك ولا إحاطة فردًا صمدًا، لا في شيء، ولا من شيء، ولا قائمًا بشيء، ولا على شيء، ولا مفتقرًا إلى شيء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فلما كلمه شفاها، وشاهده كفاحًا، فقال: يا محمد لا بد لهذه الخلوة من سر لا يذاع ورمز لا يشاع، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، فكان سرًا من سر، لم يقف عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأنشد لسان الحال:

بين المحبين سر ليس يفشيه قول ولا قلم في الكون يحكيه
سر يمازجه أنس يقابله نور تحير في بحر من التيه

ولما انتهى إلى العرش تمسك العرش بأذياله، وناداه بلسان حاله: يا محمد،

قواه من غير إدراك ولا إحاطة) عطف تفسير، كما فسر به قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام/١٠٣]، أي: لا تحيط به، **(فردًا صمدًا،)** مقصودًا في الحوائج على الدوام، أو لا جوف له، كما في الطبراني عن بريدة، وقاله كثير من المفسرين وكأنه بمعنى المصمود.

وقال الشعبي: لا يأكل ولا يشرب، ونظر فيهما ابن عطية، بأن الجسم في غاية البعد عن صفات الله، فما الذي يعطينا هذه العبارات، **(لا في شيء)** يحويه أي: مكان، **(ولا من شيء)** متولدًا، **(ولا قائمًا بشيء)** بعينه، **(ولا على شيء، ولا مفتقرًا إلى شيء،)** لأنه خالق كل شيء (**﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**) [الشورى/١١]، الكاف زائدة، لأنه تعالى لا مثل له، **(فلما كلمه شفاها)**، أي: بلا واسطة، **(وشاهده كفاحًا:)** (بكسر الكاف) أي: مواجهة، أي: بلا حائل، **(فقال: يا محمد لا بد،)** لا فراق، ولا محالة **(لهذه الخلوة من سر لا يذاع:)** لا ينتشر، ولا يظهر، **(ورمز)** إشارة **(لا يشاع)** لا يظهر، فمعناهما واحد، حسنه اختلاف اللفظ لرعاية السجع، (**﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، فكان سرًا من سر لم يقف عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وأنشد لسان الحال:**

بين المحبين سر ليس يفشيه قول ولا قلم في الكون يحكيه)

يقال: فشا الشيء فشوًا وفشوًا: ظهر وانتشر،

وأفشيته بالألف:

(سر يمازجه أنس يقابله نور تحير في بحر من التيه)

(ولما انتهى إلى العرش تمسك العرش بأذياله:) جمع ذيل كذيول، قال في سبل الرشاد: لم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أنه ﷺ عرج به إلى العرش، فقول ابن المنير أنه عرج به إليه

أنت في صفاء وقتك آمنا من مقتك أشهدك جمال أحديته، وأطلعك على جلال

ليس على ما ينبغي، وقد سئل الإمام رضي الدين القزويني عن وطء النبي ﷺ العرش بنعله، وقول الرب جل جلاله: لقد شرف العرش بنعلك يا محمد، هل ثبت أم لا؟، فأجاب: أما حديث وطء النبي ﷺ العرش بنعله، فليس بصحيح ولا ثابت، بل وصوله إلى ذروة العرش لم يثبت في خبر صحيح، ولا حسن ولا ثابت أصلاً، وإنما صح في الأخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب، وأما إلى ما وراءها، فإنما ورد ذلك في أخبار ضعيفة ومنكرة، لا يعرج عليها، انتهى.

قال بعض المحدثين: قاتل الله من وضع أنه رقي العرش بنعله ما أعدم حياءه، وما أجرأه على سيد المتأدبين ورأس العارفين ﷺ، قال: وجواب الرضي القزويني هو الصواب، فقد وردت قصة الإسراء والمعراج مطولة ومختصرة عن نحو أربعين صحابيًا، وليس في حديث أحد منهم أنه ﷺ كان تلك الليلة في رجليه نعل، وإنما وقع ذلك في نظم بعض قصاص جهلة، ولم يذكر العرش، بل قال: وأتى البساط، فهم بخلع نعله، فنودي: لا تخلع، وهذا باطل، لم يذكر في شيء من الأحاديث بعد الاستقراء التام، ولم يرد في حديث صحيح، ولا حسن، ولا ضعيف أنه جاوز سدرة المنتهى، بل ذكر فيها أنه انتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام فقط، ومن ذكر أنه جاوز ذلك، فعليه البيان، وأنى له به ولم يرد في خبر ثابت، ولا ضعيف أنه رقي العرش، وافتراء بعضهم لا يلتفت إليه، ولا أعلم خبرًا ورد فيه أنه رأى العرش إلا ما رواه ابن أبي الدنيا عن أبي المخارق أنه ﷺ قال: مررت ليلة أسري بي برجل مغيب في نور العرش، فقلت: من هذا، ملك؟، قيل: لا، قلت: نبي؟، قيل: لا، قلت: من هو؟، قيل: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطب من ذكر الله، ولم يستسب لوالديه قط، وهو خبر مرسل لا تقوم به الحجة في هذا الباب. انتهى، أي: لأن المرسل ضعيف عند جماهر النقاد للجهل بالساقط في الإسناد، ما أن أبا المخارق مجهول، لكن دعواه أنه لم يرد أنه جاوز سدرة المنتهى في حديث ضعيف، ولا حسن، ولا صحيح فيها نظر.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس أنه ﷺ لما انتهى إلى سدرة المنتهى غشيته سحابة فيه من كل لون، فتأخر جبريل والقزويني الذي صوب هذا المحدث كلامه، قد اعترف بورود هذا، بقوله: ﴿وأما إلى ما وراءها﴾، فإنما ورد في أخبار ضعيفة ومنكرة.

(وناداه بلسان حاله) قصره عليه، ليس لامتناع كونه بلسان القال، لأنه جماد، وقد عهد نطقه، كتسبيح الحصا وغيره، بل لأنه لم يرد في حديث نطقه، وبقوله: **(يا محمد أنت)** كائن **(في صفاء)** أي: خالص **(وقتك)** حال كونك **(آمنًا)** فهو حال من الضمير في الخبر المحذوف، وهذا أولى من جعله حالاً من المبتدأ لضعفه، بخلاف الخبر، فالراجح جوازه، **(من مقتك)** مصدر مضاف لمفعوله، أي: من وصول مقت إليك، والمراد من جميع المشوشات،

صمديته، وأنا الظمآن إليه اللهفان عليه المتحير فيه لا أدري من أي وجه آتيه، جعلني أعظم خلقه، فكنت أعظمهم منه هيبة، وأكثرهم فيه حيرة، وأشدهم منه خوفًا. يا محمد، خلقني فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي، لا إله إلا اللّه فازددت لهيبة اسمه ارتعادًا وارتعاشًا، فكتب محمد رسول اللّه، فسكن لذلك

(**أشهدك جمال أحديته،**) أي: أحديته الجميلة، وهي تنزهه عن الجسمية والتعدد والتحيز.

قال البيضاوي: الأحد يدل على مجامع صفات الكمال، إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد، وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة، وخواصها، كوجوب الوجود والقدرة الذاتية، والحكمة التامة المقتضية للألوهية، (**وأطلعك على جلال صمديته،**) أي: سيديته، واحتياج غيره إليه، وقصدهم إليه.

قال البيضاوي: الصمد السيد المصمود إليه في الحوائج من صمد إذا قصد، وهو المقصود على الإطلاق، فإنه مستغن عن غيره مطلقًا، وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته، (**وأنا الظمآن،**) أي: المشتاق (**إليه،**) فهو مجاز من إطلاق الملزوم على لازمه، فالظمأ بالهمز: العطش وزنا ومعنى، ويلزمه الاشتياق للماء، (**اللهفان**) المتحسر (**عليه المتحير فيه، لا أدري من أي: وجه،**) أي: طريق (**آتيه، جعلني أعظم خلقه**) من حيث الجسم.

قال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي، كفضل الفلاة على تلك الحلقة»، رواه ابن مردويه وابن أبي شيبة عن أبي ذر.

وروى ابن جرير عنه، رفعه: ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة، ألقيت في ترس، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض، وهذا نص صريح في أن الكرسي غير العرش.

وما روي عن الحسن البصري: أن الكرسي هو العرش، فضعيف لا يصح عنه، والصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره.

(**فكنت أعظمهم منه هيبة،**) أي: أعظم الخلق الذي أشابههم ويشبهوني، كالكرسي واللوح والقلم، لا الأنبياء والملائكة، كيف وقد قال ﷺ: «أنا أعلمكم باللّه وأشدكم له خشية»، (**وأكثرهم فيه حيرة،**) مصدر حار من باب تعب، لم يدر وجه الصواب.

قال الأزهري: وأصله أن ينظر الإنسان إلى شيء فيغشاه ضوؤه، فيصرف بصره عنه.

(**وأشدهم منه خوفًا، يا محمد خلقني فكنت أرعد:**) بضم العين وفتحها، قال المجد: رعد: كمنع ونصر اضطرب (**لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي لا إله إلا اللّه، فازددت لهيبة**

قلقي، وهدأ روعي، فكان اسمك لقاحًا لقلبي، وطمأنينة لسري، فهذه بركة كتابة اسمك علي، فكيف إذا وقع جميل نظرك علي، يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين، ولا بد لي من نصيب من هذه الرّحمة، ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور إلي، وتقوله أهل الغرور علي، زعموا: أني أسع من لا مثل له، وأحيط بمن لا كيفية له. يا محمد، من لا حدَّ لذاته، ولا عدَّ لصفاته كيف يكون مفتقرًا إلي؟ ومحمولاً علي؟ إذا كان الرحمٰن اسمه، والاستواء صفته وصفته متصلة بذاته فكيف يتصل بي أو ينفصل عني؟ يا محمد، وعزته، لست

اسمه ارتعادًا وارتعاشًا) عطف تفسير.

قال المجد: رعش: كفرح ومنع أخذته الرعدة، **(فكتب محمد رسول الله، فسكن لذلك قلقي:)** اضطرابي، **(وهدأ:)** سكن **(روعي:)** فزعي.

روى الحاكم وصححه عن ابن عباس: أن الله أوحى إلى عيسى، لقد خلقت العرش على الماء، فاضطرب، فكتبت عليه لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فسكن، موقوف حكمه الرفع، إذ لا يقال رأيًا، **(فكان اسمك لقاحًا،)** كذا في نسخ بلام قبل القاف، أي: كمالاً **(لقلبي،)** لأن الناقة لا تلقح حتى تكمل، فكذا العرش لم يكمل حتى كتب عليه محمد رسول الله، وبهذا سقط اعتراض بعضهم، بأنه لا معنى للقاح هنا، لأنه من لقحت الناقة حملت، فما كان ينبغي لهذا الصوفي إلا إبداله بنحو شفاء.

وفي نسخ: نفاحًا، بنون، ثم فاء، أي: راحة من نفحت الريح هبت، فكما أن هبوبها بريح ما تتصل به، كذلك اسمه ﷺ لما ظهر أشبه هبوب المريحة للأجسام الواصلة إليها، **(وطمأنينة:)** اسم من اطمأن القلب سكن، ولم يقلق **(لسري،)** أي: جوفي.

قال المجد في معاني السر: وجوف كل شيء ولبه، **(فهذه بركة كتابة اسمك عليّ، فكيف إذا وقع جميل نظرك عليّ، يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين،)** وأنا من جملتهم، **(ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة)** لعمومها، **(ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور إليّ،)** أي: الكذب، قال تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ [الفرقان/ ٧٢]، **(وتقوله أهل الغرور،)** أي: ادعوا **(عليّ)** ما لا حقيقة له، وبينه بقوله: **(زعموا أني أسع من لا مثل،)** لا شبيه **(له، وأحيط بمن لا كيفية له، يا محمد من لا حد لذاته ولا عد لصفاته، كيف يكون مفتقرًا إليّ ومحمولاً عليّ،)** لا يتأتى ذلك، ولا يكون **(إذا كان الرحمٰن اسمه، والاستواء صفته،)** كما قال: ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ [طه/٥]، **(وصفته متصلة بذاته، فكيف يتصل بي أو ينفصل عني،)** فإنما الاستواء صفة لا تفسر، إذ لا يعلمها إلا هو، أو تفسر

بالقريب منه وصلاً، ولا بالبعيد عنه فصلاً، ولا بالمطيق له حملاً، أوجدني منه رحمة وفضلاً، ولو محقني لكان حقًا منه، وعدلاً، يا محمد، أنا محمول قدرته، ومعمول حكمته.

فأجاب لسان حال سيدي، زاده اللّه فضلاً وشرفًا لديه، وواصل صلاته وسلامه عليه: أيها العرش إليك عني، أنا مشغول عنك، فلا تكدر علي صفوتي، ولا تشوش علي خلوتي، فما أعاره ﷺ منه طرفًا، ولا أقرأه من مسطور ما أوحي إليه حرفًا، ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾.

وقد ورد في بعض أخبار الإسراء مما ذكره العلامة ابن مرزوق في شرحه لبردة المديح: أنه ﷺ لما كان من ربه قاب قوسين قال: اللّهم إنك عذبت الأمم

بالاستيلاء، كقوله:

قد استوى بشر على العراق

أو بغيره، فيه المذهبان الشهيران.

(يا محمد، وعزته لست بالقريب منه وصلاً،) أي: لا أتصل به، **(ولا بالبعيد عنه فصلاً،)** بل أنا من جملة مخلوقاته، **(ولا بالمطيق له حملاً، أوجدني منه،)** متعلق بقوله: **(رحمة)** مقدم عليه، لأجل السجع، **(وفضلاً)** عليّ وعلى عباده، حيث جعلني سقف المخلوقات، **(ولو محقني)** أذهبني كلي، حتى لا يرى لي أثر، كقوله: ﴿يمحق اللّه الربا﴾ [البقرة/٢٧٦]، **(لكان حقًا منه وعدلاً،)** إذ لا حجر على الملك الحقيقي فيما يفعل بملكه.

(يا محمد، أنا محمول قدرته،) فكيف أحمله، **(ومعمول حكمته، فأجابَ لسان حال: سيدي زاده اللّه فضلاً وشرفًا لديه)** عنده، **(وواصل صلاته وسلامه عليه، أيها العرش إليك عني، أنا مشغول عنك فلا تكدر، علي صفوتي)**. مثلث الصاد، أي: خالص ما أنا فيه من إشتغالي بالحضرة العلية، **(ولا تشوش عليّ خلوتي)** بشين معجمة أوله، أي: تخلط عليّ، قاله الفارابي، وتبعه الجوهري.

وقال بعض الحذاق: هي كلمة مولدة، والصحيح هوش بالهاء أوله.

وقال ابن الأنباري: قال أئمة اللغة: إنما يقال هوشت، وتبعه الأزهري وغيره، وقالوا: شوش خطأ، **(فما أعاره ﷺ منه طرفًا:)** نظرًا، **(ولا أقرأه من مسطور ما أوحي إليه حرفًا، ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾،)** استدلال لقوله: فما أعاره منه طرفًا.

(وقد ورد في بعض أخبار الإسراء) والمعراج **(مما ذكره العلامة)** محمد **(بن مرزوق في شرحه لبردة المديح: أنه ﷺ لما كان من ربه،)** كما قال ﷺ في رواية شريك: «ودنا

بعضهم بالحجارة وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالمسخ، فما أنت فاعل بأمتي؟ قال: أنزل عليهم الرحمة وأبدل سيئاتهم حسنات، ومن دعاني منهم لبيته، ومن سألني أعطيته، ومن توكل علي كفيته، وفي الدنيا أستر على العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه لما حاسبت أمتك.

ولما أراد ﷺ الانصراف قال: يا رب، إن لكل قادم من سفره تحفة، فما تحفة أمتي؟ قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم إذا ماتوا، وأنا لهم في

الجبار فتدلى»، ﴿فكان (قاب قوسين)، أو أدنى﴾ فليس فاعل قال عائداً على الله، فلا يخالف ما مر له، أن المراد في الآية جبريل على الصحيح، **(قال: اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم)** بدل **(بالحجارة،)** كقوم لوط، **(وبعضهم بالخسف،)** كقارون، **(وبعضهم بالمسخ،)** كطائفة من بني إسرائيل، **(فما أنت فاعل بأمتي؟، قال)** تعالى: **(أنزل عليهم الرحمة، وأبدل سيئاتهم حسنات)**، أي: يجعل في الآخرة مكان السيئة حسنة.

قال ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فيعرض الله عليه صغار ذنوبه، فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: إن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يا رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا.، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»، رواه مسلم وغيره.

(ومن دعاني:) ناداني بنحو يا الله **(منهم، لبيته:)** أجبته بلبيك، **(ومن سألني أعطيته)** ما سأل، أو نظيره فورًا، أو بعد مدة، سبق في علمه تأخيرًا لا عطاء إليها، لحكمة اقتضت ذلك، أو تدخر له دعوته في الآخرة، فيجازى عليها، **(ومن توكل عليّ كفيته،)** وفي التنزيل: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق/٣]، **(وفي الدنيا أستر على العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه،)** أي: ملاطفته بالكلام، **(لما حاسبت أمتك،)** وقال الخليل: حقيقة العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة.

(ولما أراد ﷺ الانصراف، قال: يا رب، إن لكل قادم من سفره تحفة،) بزنة رطبة، وحكى سكون الخاء ما أتحفت به غيرك، **(فما تحفة أمتي؟،)** التي أتحفهم بها في قدومي، **(قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا)** في الدنيا بالحفظ والنصر، وتيسيرهم لصالح الأعمال وغير ذلك، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، **(وأنا لهم إذا ماتوا،)** أي: وقت نزع أرواحهم بطرد الشياطين عنهم وتوفيهم على الإسلام وغير ذلك، **(وأنا لهم في القبور،)** بجعلها روضة من رياض

القبور، وأنا لهم في النشور. نسأل الله الوفاة على الإسلام.

واعلم أنه قد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في رؤيته ﷺ لربه تعالى ليلة الإسراء.

فروى البخاري في التفسير تامًا من حديث مسروق قال: قلت لعائشة: يا أمتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدث بهن فقد كذب: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت

الجنة، وتثبيتهم لسؤال الملكين وغير ذلك، **(وأنا لهم في النشور)** يوم القيامة، بجعل الفزع الأكبر لا يحزنهم، وجعلهم على مكان عال، وغرًا محجلين من آثار الوضوء، وغير ذلك حتى يدخلهم الجنة قبل الأمم، **(نسأل الله الوفاة على الإسلام)** والإيمان بلا محنة.

(واعلم أنه قد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في رؤيته ﷺ لربه تعالى ليلة الإسراء،) وعلى أنه رآه هل بعيني رأسه، أو بقلبه، أو مرة بالبصر، وأخرى بالقلب، وثالثها الوقف، هذا حاصل ما ذكره، **(فروى البخاري في التفسير تامًا،)** وفي التوحيد مقطعًا، ومسلم في الإيمان، والترمذي والنسائي في التفسير، **(من حديث مسروق)** بن الأجدع بن لملك الهمداني الوادعي، الكوفي، ثقة، فقيه، عابد مخضرم، روى له الأئمة، مات سنة اثنتين، ويقال: سنة ثلاث وستين، وله ثلاث وستون سنة، **(قال: قلت لعائشة)** رضي الله عنها، وفي رواية عبد الرزاق وابن حميد والترمذي وغيرهم، عن مسروق، قال: لقي ابن عباس كعبًا بعرفة، فسأله عن شيء، فقال ابن عباس: إنا بني هاشم نزعم، وفي لفظ: نقول إن رسول الله ﷺ رأى ربه مرتين، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين، قال مسروق: فدخلت على عائشة، فقلت: **(يا أمتاه،)** بضم الهمزة وشد الميم، ففوقية فألف فهاء ساكنة، قال في الفتح: والأصل: يا أمه، والهاء للسكت، فأضيف إليها ألف الاستغاثة، فأبدلت تاء، ثم زيدت هاء السكت بعد الألف.

وقال الخطابي: إذا نادوا قالوا: يا أمه بهاء السكت، وعند الوصل يا أمت، فإذا تفجعوا للندبة، قالوا: يا أمتاه، والهاء للسكت، وتعقبه الكرماني، بأن قول مسروق ليس للندبة، إذ ليس هو متفجعًا عليها، قال الحافظ: وهو كما قال: **(هل رأى محمد ربه)** ليلة الإسراء؟، **(فقالت: لقد قف:)** بفتح القاف وشد الفاء، قام **(شعري مما قلت،)** ولأبي ذر: مما قلته بالضمير، **(أين أنت من ثلاث،)** أي: كيف يغيب فهمك عنها، وكان ينبغي أن تكون مستحضرها ومعتقدًا، كذب من يدعي وقوعها، **(من حدث بهن، فقد كذب)** في حديثه **(من حدثك أن محمدًا رأى ربه)** ليلة المعراج، **(فقد كذب، ثم قرأت)** مستدلة لذلك بطريق الاستنباط: (﴿لا تدركه الأبصار﴾)

﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام/١٠٣] **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب﴾** [الشورى/٥١] ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت **﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا﴾** [لقمان/٣٤] ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾** [المائدة/٦٧]، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

أي: لا تراه، (**﴿وهو يدرك الأبصار﴾**،) أي: يراها ولا تراه، ولا يجوز في غيره أن يدرك البصر وهو لا يدركه، أي: يحيط بها علمًا، (**﴿وهو اللطيف﴾**) بأوليائه (**﴿الخبير﴾** [الأنعام/١٠٣] الآية،) بهم، وقرأت مستدلة أيضًا: (**﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا،﴾**) أن يوحى إليه (**﴿وحيًا﴾**) في المنام، أو بإلهام، (**﴿أو من وراء حجاب﴾** [الشورى/٥١]،) بأن يسمعه كلامه ولا يراه، كما وقع لموسى عليه السلام.

وأجيب بأن هذه الآية لا تدل على نفي الرؤية مطلقًا، بل على أن البشر لا يرى الله في حال التكلم، فنفي الرؤية مقيد بهذه الحالة دون غيرها، وبأنه عام مخصوص بما تقدم، وبأن المراد بالوحي الكلام بلا واسطة، والقول وإن كان محتملاً، لكن الجمهور على أن المراد بالوحي هنا الإلهام والرؤيا في المنام، وكلاهما يسمى وحيًا، وأما قوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾، فقال الواحدي وغيره: معناه غير مجاهر لهم بالكلام، بل يسمعون كلامه تعالى من حيث لا يرونه، وليس المراد أن يكون هناك حجاب يفصل موضعًا عن موضع، ويدل على تحديد المحجوب، فهو بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، حيث لم ير المتكلم.

(**ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب﴾**،) أي: تعمل (**﴿غدًا﴾**،) من خير أو شر، ويعلمه الله، وفي رواية مسلم: فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النحل: ٦٥].

(**ومن حدثك أنه كتم**) شيئًا مما أمر بتبليغه، ولأبي ذر: أنه قد كتم، (**فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾**،) جميعه، ولا تكتم منه شيئًا خوفًا أن تنال بمكروه، (**﴿وإن لم تفعل﴾**) أي: لم تبلغ جميع ما أنزل إليك، (**﴿فما بلغت رسالته﴾**) بالإفراد والجمع، لأن كتمان بعضها كتمان كلها.

زاد مسلم في رواية: ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما

وفي رواية مسلم من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية.

وقوله: «قف» أي قام من الفزع، لما حصل عندها من هيبة الله، واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك.

قال النووي ـ تبعًا لغيره ـ: لم تنف عائشة وقوع الرؤيا بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقًا.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: جزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع، تبع فيه ابن خزيمة، وهو عجيب، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم ـ الذي

الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾[الأحزاب/ ٣٧]، (ولكنه) ﷺ، وللمستملي: ولكن (رأى جبريل في صورته مرتين،) مرة بالأرض وهو بالأفق الأعلى، ومرة في السماء عند سدرة المنتهى.

(وفي رواية مسلم: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية،) بدل قوله كذب، والفرية (بالكسر) الكذب، وجمعها فرى كعنب.

(وقوله،) أي: الشخص، وهو عائشة، (قف، أي: قام من الفزع لما حصل عندها من هيبة الله، واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك) في الدنيا، وليس إنكارًا لوقوع الرؤية مطلقًا، كما تزعم المعتزلة.

قال النضر بن شميل: القفة (بفتح القاف وشد الفاء) كالقشعريرة، وأصله القبض والاجتماع، لأن الجلد ينقبض عند الفزع، فيقوم الشعر لذلك.

(قال النووي تبعًا لغيره: لم تنف عائشة وقوع الرؤيا بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته،) لأن النص أقوى من الاستنباط، (وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة)، فلم يفهمها على ظاهرها كابن عباس، (والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيره منهم،) أي: الصحابة، (لم يكن ذلك القول حجة اتفاقًا) ممن قال بأنه حجة، ومن قال ليس بحجة.

(قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: جزمه،) أي: النووي، (بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة) محمد بن إسحٰق، إمام الأئمة، كما تبعه جماعة، (وهو عجيب، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ) النووي، (فعنده من طريق

شرحه الشيخ، فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق، في الطريق المذكورة، قال مسروق: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: ألم يقل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطًا.

داود بن أبي هند) القشيري، مولاهم البصري، ثقة، متقن، مات سنة أربعين ومائة، وقيل: قبلها.

روى له مسلم وأصحاب السنن **(عن الشعبي)** عامر بن شراحيل، **(عن مسروق في الطريق المذكورة.**

(قال مسروق: وكنت متكئًا، فجلست، فقلت:) يا أم المؤمنين، انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: **﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾** [التكوير/٢٣] الآية، ولقد رآه نزلة أخرى، فقالت: أنا أول هذه الأمة، سأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء ساد أعظم خلقه ما بين السماء والأرض، هذا لفظ مسلم في كتاب الإيمان.

قال في الفتح: وأخرجه ابن مردويه أيضًا عن مسروق، فقلت، **(ألم يقل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** [النجم/١٣] الآية، **فقالت: أنا أول هذه الأمة، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟، قال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطًا،)** أي: نازلاً من السماء، فسقط من قلم المصنف أو نساخه بعض الكلام، كما رأيت، إذ لم يقع في مسلم تصريح بأن النبي ﷺ نفى رؤيته لله تعالى، وبهذا بطل تعجب الحافظ من النووي، لأن غاية ما في رواية مسلم أنها زيفت دليل الخصم بإسنادها إلى المصطفى، أن المراد جبريل، فلا يلتفت إلى غيره، ولكن لا يدل على نفي الرؤية، كما صرح به الأبي، لأنه لا يلزم من إبطال الدليل بطلان المدلول.

وأما رواية ابن مردويه المصرحة بنفي الرؤية ورفعها إليه ﷺ، فمعناه في الآية المسؤول عنها، وهي: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾، إن سلم أن رواية ابن مردويه تعادل رواية مسلم، وإلا فما فيه أصح، ولم يقع فيه تصريح بنفي الرؤية مرفوعًا.

وقد قال التقي السبكي في تفسيره: قول ابن عطية حديث عائشة عن النبي ﷺ قاطع لكل تأويل في اللفظ، لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن، فيه نظر، لأنه إن كان سؤالها عن ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾، فليس مما نحن فيه، وجائز أن يكون ذلك جبريل، وهذا، أي: الله سبحانه، وإن كان عن الآيتين فيقرب ما قاله ابن عطية، والاحتمال حاصل فيما سألت عنه، ليس في لفظها صراحة بذكره، ثم قال: فلذلك يستمر ما ادعاه هؤلاء الأئمة من أن عائشة

نعم، احتجاج عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ بالآية، خالفها فيه ابن عباس. فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: رأى محمد ربه، فقلت: أليس يقول اللَّه تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ قال: ويحك، ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نور، وقد رأى ربه مرتين.

وقال القرطبي: «الأبصار» في الآية جمع محلى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت دليل ذلك سمعًا في قوله تعالى: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون**﴾ [المطففين/١٥] فيكون المراد: الكفار، بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿**وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة/٢٣]، وإذا جازت

لم تذكر فيه نصًا، وبأن بهذا أن الراجح في تفسير الآية؛ أن الرؤية بالبصر، وأنها للَّه تعالى. انتهى، وفيه تأمل، لأن رواية ابن مردويه صرحت بأن السؤال عن ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾، لكن كلامه إنما هو مع رواية مسلم، ومن قال: إنه ﷺ خاطبها على قدر عقلها وحاول تخطئتها فيما ذهبت إليه، فهو مخطىء، قليل الأدب.

(**نعم احتجاج عائشة رضي اللَّه عنها بالآية**) الأولى، (**خالفها فيه ابن عباس، فأخرج الترمذي**) وحسنه (**من طريق الحكم بن أبان**) العدني أبي عيسى، صدوق، عابد، له أوهام، مات سنة أربع وخمسين ومائة، وكان مولده سنة ثمانين.

روي له أصحاب السنن (**عن عكرمة، عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما، قال: رأى محمد ربه، قال عكرمة: قلت: أليس يقول اللَّه تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾**) [الانعام/١٠٣]، أي: لا تراه.

(**قال**) ابن عباس: (**ويحك**) يا عكرمة (**ذاك إذا تجلى**) ظهر (**بنوره الذي هو نور**،) وأما إذا تجلى بغيره، فتمكن رؤيته على الوجه الذي يليق بالرائي، (**وقد رأى ربه مرتين**) مرة ببصره، ومرة بفؤاده، رواه الطبراني بإسناد صحيح عن ابن عباس.

قال الشامي: وحاصله أن المراد بالآية نفي الإحاطة به عند رؤيته، لا نفي أصل رؤيته، وقال النووي: المراد بالإدراك الإحاطة، واللَّه تعالى لا يحاط به، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة.

(**وقال القرطبي**) الشيخ أبو العباس في المفهم: (**الأبصار في الآية جمع محلى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت دليل ذلك سمعًا في قوله تعالى: ﴿كلا﴾**) حقًا، (**﴿إنهم عن ربهم يومئذ﴾**) يوم القيامة (**﴿لمحجوبون﴾** [المطففين/١٥]،) فلا يرونه، (**فيكون المراد الكفار بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وجوه يومئذ﴾**،) يوم القيامة،

في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي، انتهى وهو استدلال جيد.

وقال القاضي عياض: رؤية الله تعالى جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها: سؤال موسى -عليه الصلاة والسلام- لها، ثم قال: وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ لاختلاف التأويلات في هذه الآية، انتهى.

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن إسمعيل بن علية في تأويل هذه الآية

(﴿ناضرة﴾،) حسنة مضيئة، (﴿إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة/٢٢]،) فثبت النظر في الآخرة للمؤمنين بنص الآية، (**وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا، لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي،**) وهو ذاته تعالى. (**انتهى، وهذا استدلال جيد**) من القرطبي.

(**وقال القاضي عياض**) في الشفاء: والحق الذي لا امتراء فيه، أن (**رؤية الله تعالى جائزة عقلاً،**) لأنه موجود حقيقة، وكل موجود تجوز رؤيته عيانًا، (**وليس في العقل ما يحيلها،**) أي: ما يقتضي أنها مستحيلة، وهذا كالدليل لما قبله، فهو عطف علة على معلول، وذكر دليلاً نقليًا، تأييدًا للعقلي بقوله: (**والدليل على جوازها سؤال موسى عليه الصلاة والسلام لها،**) ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله، وما لا يجوز عليه، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علمه الله، فقال له الله: ﴿لن تراني﴾، أي: لن تطيق، ولا تحتمل رؤيتي، ثم ضرب له مثالاً مما هو أقوى من نبيه موسى، وأثبت وهو الجبل، وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة.

(**ثم قال**) عقب هذا: (**وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها، ولا**) دليل قاطع على (**امتناعها،**) وإذا لم تكن مستحيلة، فلا دليل على امتناع وقوعها مطلقًا، أو في الدنيا، (**إذ كل موجود، فرؤيته جائزة غير مستحيلة،**) والله موجود، وهذا تعليل للجواز، فالعلة فيه الوجود، وهو مشترك بين الله وسائر الموجودات، فكما تجوز رؤيتها تجوز رؤيته. وانتقد هذا التعليل باقتضائه صحة رؤية الأصوات والروائح والطعوم، وكيفية الملموس، فإنها موجودة مع أنها غير محسوسة بالبصر. وأجيب: بأنه منقول عن الأشعري، وهو قد التزم جواز رؤيتها، فالكلام في الجواز لا الوقوع، (**ولا حجة**) مسلمة عند الخصم (**لمن استدل على منعها،**) أي: الرؤية، (**بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾**[الأنعام: ١٠٣]، **لاختلاف التأويلات في هذه الآية،**)

قال: هذا في الدنيا.

وقال آخرون: لا تدركه الأبصار، أي جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة.

وقال آخرون من المعتزلة، بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة.

فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وقوله:

فقيل: لا تدركه أبصار الكفار، وقيل: لا تحيط به، وهو قول ابن عباس، وقيل: لا تدركه الأبصار، وإنما يدركه المبصرون، وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها. (انتهى) كلام عياض بهذا الذي زدته، وحذفه المصنف استغناء بما بسطه تبعًا للحافظ بقوله.

(وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن إسمٰعيل بن علية) (بضم العين المهملة وفتح اللام وشد التحتية)، وهي أمه اشتهر بها، وأبوه إبرٰهيم بن مقسم (بكسر الميم وسكون القاف وفتح السين) البصري، ثقة، حافظ، روى له الستة، مات سنة ثلاث وتسعين ومائة، وهو ابن ثلاث وثمانين.

(في تأويل هذه الآية، قال:هذا في الدنيا، وقال آخرون: لا تدركه الأبصار، أي: جميعها، وهذا مخصص) بصيغة اسم المفعول، **(بما ثبت)** في الكتاب والسنة، **(من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة،)** وهذا كالشرح لقول ابن علية.

(وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة،) وقد بالغ عياض في الرد عليهم، بأن ما استدلوا به حجة عليهم لا لهم، فقال: وقد استدل بعضهم بهذه الآية على جواز الرؤية، وعدم استحالتها. انتهى، أي: لأن نفي الشيء عند البلغاء يقتضي جوازه، وإلا كان عبثاً، فلا يقال للحافظ لا علم له، والله قد ساق نفي إدراك الأبصار في سياق المدح، وإنما يتمدح بأمر ثبوتي كمالي، لا بالعدم الصرف، فكل نفي مدح به تضمن أمرًا وجوديًا، كنفي الموت المتضمن للحياة السرمدية، فلو كان نفي الأبصار معناه أنه لا يرى أصلاً كسائر المعدومات لم يكن فيه مدح.

(فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها

﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى.

وأما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله منهم.

وقيل: المنفي في الآية، إدراك العقول: قال ابن كثير: وهو غريب جدًا،

ناظرة﴾ [القيامة/ ٢٢]،) تراه يوم القيامة مستغرقة في مطالعة جماله، بحيث تغفل عما سواه، ولذا قدم المفعول، وليس هذا في كل الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره، وقول المعتزلة معناه منتظرة أنعامه، رد بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه، وتفسير الوجه بالجملة خلاف الظاهر، فإن المستعمل بمعناه لا يتعدى بإلى، واستشهادهم لتفسيرهم بقوله:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما

قال العلم السخاوي: لا حجة فيه، لأن النظر بمعنى التأمل لا يطلع عليه مخلوق، ولذا قال: زدتني نعمًا. وقال البيضاوي: النظر بمعنى السؤال، فإن الانتظار لا يستعقب العطاء، وقال الطيبي: والبحر دونك، جملة معترضة، تحتمل وجهين: أحدهما البحر بيني وبينك، وثانيهما البحر أقل منك في الجود، وهذا أرجح، وحينئذ لا يصلح للاستشهاد.

(وقوله: **﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾** [المطففين/ ١٥]،) فلا يرونه بخلاف المؤمنين.

(**قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: فدل هذا**) بالمفهوم (**على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى،**) إذ تخصيص الحجب بالكفار، يدل بمفهومه على ذلك دلالة ظاهرة، وحاد المعتزلة عن سواء السبيل، فقدروا مضافًا متصل رحمة ربهم، أو قرب ربهم، أو هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يمنع من الدخول على الملوك.

(**وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد،**) سعد بن مالك بن سنان، (**وأبي هريرة،**) عبد الرحمن بن صخر، (**وأنس**) بن مالك، (**وجرير**) بن عبد الله البجلي، (**وصهيب**) (بضم الصاد) ابن سنان الرومي، (**وبلال**) المؤذن، (**وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى في الدار الآخرة في العرصات،**) قبل دخول الجنة.

(**وفي روضات الجنات: جعلنا الله منهم،**) وتفصيل ذلك يطول، (**وقيل: المنفي في**

وخلاف ظاهر الآية.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم.

ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنون. كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى.

وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية: كما لا يلزم من عدم الإحاطة بالعلم عدم العلم. وفي صحيح مسلم لا

الآية،) بقوله: **﴿لا تدركه الأبصار﴾، (إدراك العقول،)** فلا ينادي إدراك الأبصار.

(قال ابن كثير: وهو غريب جدًا، وخلاف ظاهر الآية،) لأنه صرح بالأبصار.

(وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم،) إذ النفي إنما وقع على خاص.

(ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو، فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر، فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته،) عطف مساو، **(فالعظيم)** تبارك وتعالى **(أولى بذلك)** من القمر، لأنه إذا لم يدرك حقيقة المخلوق، فكيف الخالق، **(وله المثل:)** الوصف **(الأعلى)** الذي ليس لغيره مما يساويه، ولا يدانيه، فإنما هذا تقريب للفهم.

(وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة) بجوانب المرئي وحدوده، لأن حقيقة الإدراك اللحوق والوصول في المكان، كقول أصحاب موسى: **﴿إنا لمدركون﴾** [الشعراء/٦١]، أو الزمان، كما يقال: أدرك فلان النبي ﷺ، أو الصفة كأدرك الغلام إذا بلغ، وأدركت الثمرة إذا نضجت، ثم نقل لأبصار الشيء المتناهي، المحدود بالجهات لتوهم معنى اللحوق فيه، كأن المبصر قطع المسافة التي بينه وبينه حتى بلغه ووصل إليه، فإبصار ما ليس في جهة لا يتحقق فيه معنى البلوغ، فلا يسمى إدراكًا، فلا يلزم من نفيه وهو رؤية مخصوصة نفي المطلقة، وإلى هذا أشار بقوله.

(قالوا،) أي: الآخرون: وليس المراد التبري بل النسبة، **(ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم الإحاطة بالعلم عدم العلم،)** فالمعنى لا تدركه الأبصار، إذا نظرت إليه على وجه الإحاطة لتعاليه عن التناهي، وعن الاتصاف بالحدود التي هي النهايات

أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ولا يلزم من هذا عدم الثناء فكذلك هذا.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ قال: لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا، صفوا صفًا واحدًا ما أحاطوا بالله أبدًا. قال ابن كثير: غريب، لا يعرف إلا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم.

والجوانب، والإحاطة بما لا يتناهى هي محال، وحينئذ فدلالة الآية على جواز الرؤية، بل على تحققها بالوقوع أظهر من دلالتها على الجواز بما ذكر من التمدح.

(وفي صحيح مسلم) قوله ﷺ: **(لا أحصي ثناء عليك،)** قال ابن الأثير: الإحصاء هنا بلوغ الواجب، أي: لا أبلغ الواجب في الثناء عليك، وقال الراغب: هو التحصيل، أي: لا أحصل ثناء لعجزي عنه، إذ هو نعمة تستدعي شكرًا، وهكذا إلى غير نهاية أولاً أعد ثناء، كما في الصحاح، لأن معنى الإحصاء العد بالحصا، كما قال:

ولست بالأكثر منهم حصا ... وإنما العزة للكاثر

وعليه، فهو من نفي الملزوم، المعبر عنه بالإحصاء، المفسر بالعدو، إرادة نفي اللازم، وهو استيعاب المعدود، فكأنه قيل: لا أستوعب، فالمراد نفي القدرة عن الإتيان بجميع الثناءات، لا نفي القدرة على أفراد، أو فرد منها، ولا عدها، إذ يمكن عد أفراد كثيرة من الثناء.

(أنت) مبتدأ خبره، **(كما أثنيت،)** أي: الثناء عليك هو المماثل لثنائك **(على نفسك،)** ولا قدرة لأحد عليه، ويحتمل إن أنت، تأكيد للكاف من عليك، باستعارة الضمير المنفصل للمتصل، والثناء: الوصف بالجميل.

قال النووي: بتقديم المثلثة، والمد المشهور في اللغة قصر استعماله في الخير، واستعماله في الشر مجاز. وقال المجد: وصف بمدح، أو ذم، أو خاص بالمدح، **(ولا يلزم من هذا عدم الثناء،)** بل وجد الثناء من المصطفى كثيرًا جدًا على ربه، **(فكذلك هذا)** الذي فيه الكلام لا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية.

(وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾، قال: لو أن الجن والإنس والشياطين:) مردة الجن، **(والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفًا واحدًا ما أحاطوا بالله أبدًا،)** فهذا يؤيد أن المراد بالإدراك الإحاطة.

(قال ابن كثير: غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه،) بمعنى أنه تفرد به الراوي، فلا متابع

ومما ينسب لإمام الحرمين في «لمع الأدلة» أنه قال: من أصحابنا من قال: إن الرب تعالى يُرى ولا يُدرَك، لأن الإدراك ينبي عن الإحاطة، ودرك الغاية، والرب جل جلاله تقدس عن الغاية والنهاية، ثم قال: فإن عارضوا بقوله تعالى في جواب موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿لن تراني﴾ [الأعراف/١٤٣] وزعموا: أن «لن» تفيد النفي على التأبيد، قلنا: هذه الآية أوضح الأدلة على جواز الرؤية، لأنها لو كانت مستحيلة لكان معتقد جواز الرؤية ضالاً وكافرًا، وكيف يعتقد ما لا يجوز على الله تعالى من اصطفاه لرسالته واختاره لنبوته، وخصه بكرامته، وشرفه بتكليمه، وجعله أفضل أهل زمانه، وأيده ببرهانه، وكيف يجوز على الأنبياء الريب في أمر يتعلق بعلم الغيب. فيجب حمل الآية على أن ما اعتقد موسى عليه الصلاة

له، (ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة،) وذلك ظاهر في غرابته، وليس المراد أن ما ليس فيها يكون غريبًا، (والله أعلم)، بالحق في ذلك.

(ومما ينسب لإمام الحرمين في) كتاب (لمع الأدلة:) بضم ففتح، جمع لمعة من لمع أضاء، (أنه قال: من أصحابنا من قال: إن الرب تعالى يرى ولا يدرك، لأن الإدراك ينبىء عن الإحاطة، ودرك:) (بفتح فسكون) بمعنى إدراك (الغاية، والرب جل جلاله تقدس:) تنزه (عن الغاية والنهاية،) وكلامهم في الإدراك مسلم، لكنه ليس بلازم من الرؤية، كما مر، فنفيهم لها ليس بمسلم، وإليه أشار بقوله، (ثم قال: فإن عارضوا، بقوله تعالى) في جواب قول موسى عليه الصلاة والسلام:) ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ قال (﴿لن تراني﴾ [الأعراف/١٤٣])، لا تقدر على رؤيتي، (وزعموا أن لن تفيد النفي على التأبيد،) كما زعمه الزمخشري في أنموذجه، أو تأكيده كما زعمه في كشافه في الآية، والصحيح أنها لا تفيد ذلك، (قلنا: هذه الآية أوضح الأدلة على جواز الرؤية، لأنها لو كانت مستحيلة لكان معتقد جواز الرؤية ضالاً كافرًا،) باعتقاد المحال على الله، (وكيف يعتقد) بالبناء للفاعل، (ما،) أي: أمرًا، (لا يجوز على الله تعالى) مفعول والفاعل من (اصطفاه لرسالته) ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي﴾ [الأعراف/١٤٤] الآية، (واختاره لنبوته، وخصه بكرامته وشرفه، بتكليمه) بلا واسطة، (وجعله أفضل أهل زمانة)، أشار إلى أن قوله على الناس ناس زمانه، (وأيده ببرهانه)، كأنه أراد قوله: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ [الإسراء/١٠١]، والاستفهام للنفي، أي: لا يمكن اعتقاده ذلك، وكذا قوله، (وكيف يجوز على الأنبياء الريب،) الشك (في أمر يتعلق بعلم الغيب،) وانفصل المعتزلة عن هذا، بأنه لم يسأله لجوازه عنده، بل تبكيتًا للقائلين له: ﴿أرنا الله جهرة﴾ [النساء/١٥٣]، أو سألها مع علمه باستحالتها، ليتأكد الدليل العقلي بالسمعي،

والسلام جوازه جائز، لكن ظن أن ما اعتقد جوازه ناجز، فرجع النفي في الجواب إلى الإنجاز، وما سأل موسى ربه رؤيته في المآل، فصرف النفي إليه، والجواب يدل على قضية الخطاب، انتهى.

وقال البيضاوي: في هذه الآية دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصًا ما يقتضي الجهل بالله، ولذلك رده بقوله: ﴿لن تراني﴾ دون: لن أرى، انتهى.

ويطمئن قلبه، كما قال إبراهيم: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾، فإن العلم يتفاوت قوة وضعفًا، ورد بأن تفاوته غير مسلم، والخليل لم يسأله لذلك، وإنما علم أن الله متخذ خليلاً، يحيي الموتى بدعائه، فسأل ذلك ليعلم أهو هو؟، أم لا؟ ولو سلم، فلا يلزم سؤال ما لا يجوز، وينافي الأدب إذ كان يقول موسى: بين لي علم ذلك جوازًا، أو استحالة، (**فيجب حمل الآية على أن ما اعتقد موسى عليه الصلاة والسلام جوازه جائز، لكن ظن أن ما اعتقد جوازه ناجز:**) واقع في الحال، (**فرجع النفي في الجواب إلى الإنجاز،**) فكأنه قيل: لن تراني، في الحال، (**وما سأل موسى ربه رؤيته في المآل، فصرف النفي إليه**) حتى يلزم أنه لا يرى أبدًا، (**والجواب**) بلن تراني دون لن أرى، (**يدل على قضية الخطاب. انتهى**).

(**وقال البيضاوي: في هذه الآية دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال،**) لأنهم بعثوا لتعليم الأمم الشرائع والعقائد الحقة، وهي معرفة ما يجوز على الله ويمتنع، فلو جهل ذلك كان الله آمرًا له بما لا يعلمه، وهو محال، لأنه جهل، أو عبث، (**وخصوصًا ما يقتضي الجهل بالله،**) وجواب المعتزلة؛ بأنه إنما يلزم هذا لو كان سؤالاً حقيقيًا، لا لإلزام غيره، أو تبكيته رد بأن السياق يأباه، (**ولذلك رده بقوله: ﴿لن تراني﴾، دون لن أرى،**) ففي ذلك دليل واضح على الجواز. (**انتهى**).

وقوله: ﴿تبت إليك﴾ [الأعراف/١٢٣]، أي: من سؤال ما لم تقدره لي، قاله عياض، أي: في ذلك الوقت، فلا ينافي قوله، وقد ذكر القاضي أبو بكر: أن موسى رأى الله، فلذا خر صعقًا، وأن الجبل رآه بإدراك خلقه الله له، فصار دكًا.

قال عياض: واستنبط ذلك، والله أعلم من قوله: ﴿ولكن أنظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا﴾ [الأعراف/١٤٣]، وتجليه للجبل ظهوره حتى رآه على هذا القول.

وقال جعفر بن محمد: شغله بالجبل حين تجلى، ولولا ذلك مات صعقًا بلا إفاقة، وهذا يدل على أن موسى رآه.

ونقل القاضي عياض عن أبي بكر الهذلي، في الآية، أن المراد: ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليّ في الدنيا، وأنه من نظر إليّ مات. قال: وقد رأيت لبعض السلف المتقدمين والمتأخرين ما معناه: أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة، غرضًا للآفات والفناء، فلم يكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيبًا آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم

وقال بعض المفسرين: رآه الجبل، وبه استدل من قال برؤية نبينا ﷺ، إذ جعله دليلاً على الجواز، ولا مرية في الجواز، إذ ليس في الآيات نص في المنع. انتهى.

والراجح أن موسى لم يره، وقيل قوله: ﴿تبت إليك﴾، إنما كان لما غشيه من شدة ما أفضى به إلى أن صعق، كما يقول من فعل جائزًا حصل له منه مشقة تبت عن فعل مثله.

(ونقل القاضي عياض عن أبي بكر الهذلي في) تفسير **(الآية، أن المراد ليس لبشر أن يطيق،)** أي: يقدر **(أن ينظر إليّ في الدنيا، وأنه من نظر إليّ)** فيها **(مات،)** لضعف القوى البشرية عن سبحات الجلال، إلا من أقدره الله، وفيه دليل على جواز وقوعه في الدنيا، لكن من وقع له لا يعيش، كما روي أن من رأى جبريل من غير الأنبياء يعمى.

(قال) عياض: **(وقد رأيت لبعض السلف المتقدمين، و)** لبعض **(المتأخرين ما معناه: أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة،)** لمانع منها، لا لذاتها من حيث هي، لما مر من جوازها عقلاً، فامتناعها لعارض، **(لضعف تركيب أهل الدنيا،)** أي: لضعف أبدانهم المركبة، كما قال تعالى: ﴿وخلق الإنسان ضعيفًا﴾ [النساء/٢٨] وقواهم، جمع قوة، وهي أمر أودعه الله في البدن، به الإدراك، أو المراد المعنى اللغوي، **(وكونها،)** أي: القوى، أو هي مع التركيب، **(متغيرة)** بالازدياد أول أمرها، ثم النقص بعده، وذلك يدل على ضعفها **(غرضًا)** بمعجمتين **(للآفات،)** شبه الجسد بهدف ينصب لرمي السهام، وآفات الدهر ومصائبه بسهام لا يزال يرمى بها حتى تفنى، ويجوز إهمال العين، أي: معرضًا لها، والأول أصح رواية ودراية، ونصب حالاً، أو خبرًا بعد خبر لكون، ولم يعطف لكونه سببًا لما قبله قيل لكمال الاتصال بينهما، وفيه نظر، لأن ذلك مخصوص بالجمل.

وقال التلمساني: روي معترضة، بدل قوله متغيرة، أي: ذات أعراض، وهي الآفات والأمراض، أو من العرضة، أي: متعرضة للآفات، وهي كالعاهات: كل ما يعرض لشيء فيفسده، **(والفناء)** (بفتح الفاء والمد) الزوال والعدم، **(فلم يكن لهم قوة على الرؤية،)** لضعف أبدانهم وقواهم في الدنيا، **(فإذا كان في الآخرة،)** أي: إذا أحياهم الله، **(وركبوا تركيبًا آخر)** غير تركيبهم الأول، **(ورزقوا قوى ثانية)** بمثلثة ونون وتحتية، أي: غير القوى الأولى الدنيوية.

أنوار أبصارهم وقلوبهم، قووا بها على الرؤية. قال: وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس ـ رضي اللّٰه عنه ـ قال: لم ير في الدنيا لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني. فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية، رؤي الباقي بالباقي، وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دلالة على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة، فإذا قوى الله من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه، انتهى.

والاستثناء في قوله: «إلا من حيث ضعف القوة» ينبغي أن يكون منقطعًا،

وفي نسخ ثابتة بموحدة وفوقية، فقوله: (**باقية**) تفسير له، أي: مخلدة لا تفنى لقوة تركيبها وتمام قواها، (**وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم،**) أي: جعلها تامة كاملة مستعدة للبقاء السرمدي، (**قووا بها على الرؤية،**) جواب إذا، وضمير بها للمذكورات من التركيب والقوى والأنوار، فهذا يدل على وقوعها في الآخرة، وجوازها في الدنيا، لأنه لو رزقهم ذلك في الدنيا صح ذلك منهم أيضًا، ولذا شق صدر المصطفى، وأودع فيه ما قوى به على ذلك.

(**قال**) عياض: (**وقد رأيت،**) وفي نسخ: وروى (**نحو هذا لمالك بن أنس**) الإمام (**رضي اللّٰه عنه قال: لم ير**) (بضم التحتية ونائب الفاعل عائد على اللّٰه) (**في الدنيا، لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني، فإذا كان**) النظر، أو الناظر، (**في الآخرة، ورزقوا أبصارًا باقية رؤي الباقي بالباقي،**) لأن البقاء الأبدي علة لصحة الرؤية، كما أن الفناء والحدوث لا مدخل له في المنع، لأن الرؤية بخلق اللّٰه، وليست مشروطة بشيء عند أهل السنة، فكأنه أراد أن البقاء يلزمه قوة التركيب والقوّة المعدة لصحة النظر، فيكون بمعنى ما قبله، وكذا إن كان مراده أن الرائي والمرئي لا بد أن يكون بينهما مناسبة وأبصار هذه الدار فانية، فإذا عادت وكسيت صفة دوام البقاء تحملت رؤية الحي القيوم للمناسبة في الجملة، وإن كان بقاؤه قديمًا ذاتيًا، وبقاؤها طار عرضي.

(**وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دلالة على الاستحالة**) والامتناع عقلاً، بل هو دال على الجواز، إذ لا مانع منه (**إلا من حيث ضعف القدرة البشرية**) في الدنيا، (**فإذا قوى اللّٰه من شاء من عباده،**) بأن رزقه قوة تطيق ذلك، (**وأقدره على حمل أعباء:**) أثقال (**الرؤية،**) أي: جعل له قدرة وطاقة على رؤيته ومشاهدته، ونسخة الرسالة تصحيف، فلا دخل لها هنا، والذي في الشفاء: الرؤية، (**لم تمتنع في حقه**) الرؤية، فيمكنه منها بما منحه من القوة، وأعباء: جمع عبء بكسر المهملة، وسكون الموحدة وهمزة: الحمل الثقيل حقيقة في المحسوسات، استعير للمعاني الشاقة. (**انتهى**) كلام عياض.

(**والاستثناء في قوله: إلا من حيث ضعف القوة، ينبغي أن يكون منقطعًا على معنى،**

على معنى: لكن من حيث ضعف القوة، وإلا فضعف القوة قصاراه أن يكون مانعًا، أي امتنع من حيث ضعف القوة لا من جهة كونه مستحيلاً، ويدل على هذا قوله: «فإذا قوى اللَّه تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه».

وقد وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا». وأخرجه ابن خزيمة أيضًا من حديث أبي أمامة، ومن حديث عبادة بن الصامت.

فإذا جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت سماعًا، لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه. وفي تفسير ابن كثير: في بعض كتب اللَّه المتقدمة أن اللَّه تعالى قال لموسى لما سأله الرؤية، يا موسى، إنه لن يراني حي إلا مات.

لكن من حيث ضعف القوة وإلا) بأن كان متصلاً، (**فضعف القوة قصاراه:**) غايته، (**أن يكون مانعًا**) فلا يصح دخوله فيما قبل الاستثناء، (**أي: امتنع من حيث ضعف القوة لا**) نافية (**من جهة كونه مستحيلاً،**) تقرير وبيان للانقطاع، (**ويدل على هذا قوله: فإذا قوى اللَّه تعالى من شاء من عباده، وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه،**) إذ لو كان متصلاً ما حسن التفريع.

(**وقد وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»، وأخرجه ابن خزيمة أيضًا**) في صحيحه، (**من حديث أبي أمامة**) صدى ابن عجلان الباهلي.

(**ومن حديث عبادة بن الصامت**) الأنصاري، (**فإذا جازت الرؤية في الدنيا عقلاً، فقد امتنعت سماعًا،**) بقوله: حتى تموتوا، (**لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه**) على أحد الأقوال في الأصول.

(**وفي تفسير ابن كثير في بعض كتب اللَّه المتقدمة: إن اللَّه تعالى قال لموسى لما سأله الرؤية: يا موسى إنه لن يراني حي إلا مات،**) وقد اختلف على قول من قال: إن موسى رآه هل مات، ثم أحياه اللَّه، كما ذهب إليه كثير من المفسرين، أو لم يمت، لأنه أُلهي بالنظر للجبل حتى لا يموت، إذا تجلى له ابتداء، وهو قول جعفر بن محمد، كما مر، وعليه فمعنى قوله إلا مات، ما لم أثبته وأقوه فلا يموت.

وقد جزم القشيري -في الرسالة- بأنها لا تجوز في الدنيا على جهة الكرامة، وادعى حصول الإجماع عليه.

وحكى القاضي عياض امتناعها في الدنيا عن جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وقال القشيري أيضًا: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يحكي عن الإمام أبي الحسن الأشعري في ذلك قولين في كتاب الرؤية الكبير. انتهى.

(**وقد جزم القشيري في الرسالة، بأنها لا تجوز في الدنيا على جهة الكرامة، وادعى حصول الإجماع عليه**) ونزع بوجود الخلاف.

(**وحكى القاضي عياض**) في الشفاء: (**امتناعها**) أي: رؤيته تعالى (**في الدنيا عن جماعة من المحدثين**) لعدم صحة حديث عن المصطفى صريح بذلك، (**والفقهاء**) في باب الردة هل يكفر مدعيها أم لا؟، (**والمتكلمين**) في أصول الدين.

(**وقال القشيري أيضًا: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك**) (بضم الفاء وإسكان الواو وفتح الراء فكاف)، (**يحكي عن الإمام أبي الحسن الأشعري**) إمام أهل السنة والجماعة (**في ذلك قولين في كتاب الرؤية الكبير. انتهى**) أي: في جوازها وعدمه، وأجمعوا على وقوعها في الآخرة للمؤمنين، كما تواترت به الأحاديث، وبه نطق القرآن، وقوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ [يونس/٢٦]، وزيادة الحسنة الجنة، وزيادة هي النظر إليه تعالى، كما فسره به النبي ﷺ في مسلم وغيره، وأحالت المعتزلة ذلك، فصارت الأدلة عندهم، كالصائل لا يبالون بأي: شيء دفعوه، فقال كبيرهم الزمخشري: زعمت المسمية والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله، وجاءوا بحديث مرفوع.

قال الطيبي: هو عنده بالقاف، أي: مقتري، وأما عند أهل السنة فبالفاء.

وقال ابن المنير: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، والحديث مدون في الصحاح، وقد جعل أهل السنة، جاءوا به من عند أنفسهم، فحسبه الله.

وقال الزمخشري في موضع آخر:

لجماعة سموا هواهم سنه وجماعة حمر لعمري موكفه
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفه

قال ابن المنير: انتقل إلى الهجاء، وقد أذن ﷺ لحسان في المنافحة، وهجاء المشركين، فتأسيت وقلت:

وقد ذهبت عائشة وابن مسعود إلى أنه عليه السلام لم ير ربه ليلة الإسراء.

واختلف عن أبي ذر.

وذهب جماعة إلى إثباتها. وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه حلف أن محمدًا رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها، وبه قال

وجماعة كفروا برؤية ربهم ... هذا ووعد الله ما إن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل ... عدلوا بربهم فحسبهم سفه

وتلقبوا الناجين كلا إنهم ... إن لم يكونوا في لظى فلهم شفه

قال السعد: لقد عورض ما أنشده أو أنشأه من الهذيان:

لجماعة كفروا برؤية ربهم ... ولقائه فهم حمير موكفه

فكما هم علموا بلا كيف فنحـ ... ـن نرى فلم ننفعهم بالبلكفه

هم عطلوه عن الصفات وعطلوا ... عنه الفعال فيا لها من متلفه

هم نازعوه الخلق حتى أشركوا ... بالله زمرة حاكة وأساكفه

هم غلقوا أبواب رحمته التي ... هي لا تزال على المعاصي موكفه

إلى آخر ما قال.

وقد أكثر الناس في الرد عليه نظمًا ونثرًا، ثم لما أثبت المؤلف جواز الرؤية في الدنيا عقلاً وسمعًا، وإن كان كلامه في الخلاف في وقوعها للمصطفى وعدمه، لأنه إن لم يثبت الجواز لم يثبت الوقوع، أخذ في تتميم الكلام على الوقوع، فقال: **(وقد ذهبت عائشة،)** كما تقدم، **(وابن مسعود)** في المشهور عنه؛ **(إلى أنه عليه السلام لم ير ربه ليلة الإسراء، واختلف عن أبي ذر،)** فروى عنه أنه رآه، وروى عنه أنه لم يره، وكذا اختلف عن أبي هريرة، فحكى ابن إسحٰق، أن مروان سأل أبا هريرة: هل رأى محمد ربه؟، قال: نعم.

وفي رواية لم يره، وإلى النفي ذهب كثير من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وبالغ الحافظ عثمٰن بن سعيد الدارمي، فنقل فيه الإجماع.

(وذهب جماعة إلى إثباتها،) قال النووي: وهو قول أكثر العلماء.

(وحكى عبد الرزاق) بن همام الصنعاني، أحد الأعلام، **(عن معمر)** بن راشد، **(عن الحسن البصري؛ أنه حلف أن محمدًا رأى ربه،)** لفظ الرواية أنه كان يحلف بالله، لقد رأى محمد ﷺ ربه.

(وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها)، أي: رؤية الله للمصطفى، وأنه كان يشتد

سائر أصحاب ابن عباس. وجزم به كعب الأحبار والزهري، وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه.

ثم اختلفوا: هل رآه بعينيه أو بقلبه؟

وجاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجب حمل مطلقها على مقيدها، فمن ذلك، ما أخرجه النسائي بإسناد جيد، وصححه الحاكم أيضًا من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ.

عليه إنكار عائشة لها، (**وبه قال سائر**) أي: جميع (**أصحاب ابن عباس، وجزم به كعب الأحبار**) أي: ملجأ العلماء، وكبر لما وافقه ابن عباس حتى جاوبته الجبال بعرفة سرورًا.

(**والزهري**) محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، (**وصاحبه**) أي: تلميذه (**معمر**) بن راشد البصري، أحد الأعلام، (**وآخرون**) كثيرون، (**وهو قول الأشعري وغالب أتباعه**) وفي الشفاء.

وقال الأشعري وجماعة من أصحابه أنه ﷺ رأى الله ببصره وعيني رأسه، وقال، أي: الأشعري: كل آية أوتيها نبي، فقد أوتي مثلها نبينا، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية.

(**ثم اختلفوا هل رآه بعينيه، أو بقبله؟**)، ويأتي معناه، وقال النووي: الراجح عند أكثر العلماء؛ أنه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج، واستدل بأشياء نوزع في بعضها.

(**وجاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة،**) أي: دالة على الرؤية بلا قيد بالعين، ولا بالقلب، (**وأخرى مقيدة؛**) بأنه رآه بقلبه، (**فيجب حمل مطلقها**) الدال على الرؤية، (**على مقيدها؛**) أنه رآه بقلبه عملاً بقاعدة حمل المطلق على المقيد، هكذا قاله الحافظان ابن كثير وابن حجر وغيرهما، ومقتضاه أنه لم يرد عنه أخبار مقيدة؛ بأنه رآه بعينه، وهو عجب.

ففي الشفاء بعد حكاية اختلاف الروايات عن ابن عباس في أنه رآه بعينه، أو بقلبه، ما نصه: والأشهر عنه أنه رآه بعينه، روى ذلك عنه من طرق. انتهى، فالوجه الجمع بأنه رآه مرتين، مرة بقلبه ومرة بعينه، كما قال ابن خزيمة، وبه صرح ابن عباس في الطبراني بسند صحيح كما يأتي، ومحل القاعدة إذا عارض المطلق مقيد واحد، أما إذا عارضه مقيدان، فلا يقيد بواحد دون الآخر، لأنه تحكم، فإن أمكن الجمع، كما هنا بالتعدد وجب المصير إليه، وإلا رجع للمطلق.

(**فمن ذلك،**) أي: ما جاء عن ابن عباس لا يفيد المطلق والمقيد، (**ما أخرجه النسائي بإسناد جيد،**) أي: مقبول، وفي نسخ صحيح، وهي أنسب بقوله، (**وصححه الحاكم أيضًا من طريق عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم**) كما قال تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ [النساء/١٢٥]، (**والكلام لموسى**) ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾،

ومنها: ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ قال: رأى ربه بفؤاده مرتين.

وله: من طريق عطاء عن ابن عباس قال: رآه بقلبه.

وأصرح من ذلك: ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينه وإنما رآه بقلبه.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب.

لكن روى الطبراني في الأوسط بإسناد رجاله رجال الصحيح، خلا جهور بن

(والرؤية لمحمد ﷺ) وهذا من الأحاديث المطلقة، وأخرجه ابن خزيمة بلفظ: أن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، وموسى بالكلام، ومحمدًا بالرؤية، واستشكل تفريقه هذه الخصائص؛ بأن الخلة والكلام ثبتا لنبينا أيضًا، وأجيب بأن مراده أن الخلة ثبتت له مع زيادة المحبة، فهو خليل، وحبيب، وموسى اشتهر بالكليم، لأن كلام الله بالأرض في الدنيا بلا واسطة لم يقع لأحد سواه، وإن كان الله تعالى كلم نبينا في المعراج بلا واسطة في حظائر قدسه.

(ومنها ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية) رفيع بضم الراء مصغر، ابن مهران الرياحي بكسر الراء وبالتحتية، ثقة، من رجال الجميع، مات سنة تسعين، وقيل: ثلاث وتسعين، وقيل بعد ذلك، (عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾[النجم/ ١١] ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم/ ١٣]، قال: رأى ربه بفؤاده مرتين،) أي: بقلبه.

(وله،) أي: مسلم، (من طريق عطاء) بن أبي رباح، (عن ابن عباس، قال: رآه بقلبه،) وكل من الروايتين مفيد، لكن لا صراحة فيها أنه لم يره بعينه، ولذا قال: (وأصرح من ذلك ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء، عن ابن عباس، قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينه، وإنما رآه بقلبه،) وكأن هذا خاطب ابن عباس به من لا يليق به، والإفصاح بأنه رآه بعينه، أو مراده لم يره بعينه فقط، وإنما رآه بقلبه وعينه، أو هو من تصرف الراوي عن عطاء، فلا ينافي ذلك أن الأشهر عنه أنه رآه بعينه، ولا شك أن رواية مسلم عن عطاء، عنه أصح من رواية ابن مردويه هذه.

(وعلى هذا، فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، لكن) يقدح في الجمع المذكور، أنه (روى الطبراني في الأوسط بإسناد رجاله رجال الصحيح،) بمعنى أنه خرج لهم أصحاب الصحيح، (خلا جهور) (بفتح الجيم وإسكان الهاء وفتح الواو ثم راء) (ابن منصور الكوفي، وجهور بن

منصور الكوفي، وجهور بن منصور قد ذكره ابن حبان في الثقات، عن ابن عباس أنه كان يقول: إن محمدًا ﷺ رأى ربه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده.

ثم المراد «برؤية الفؤاد» رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالمًا بالله على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت له في قلبه كما تخلق الرؤية بالعين، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين.

وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: رأى محمد ربه.

وفي مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: نور أنى

منصور) المذكور (قد ذكره ابن حبان في الثقات، فالإسناد صحيح لثقة رجاله،) وإن لم يخرج لبعضهم في الصحيح، لأن الصحيح مراتب.

(عن ابن عباس، أنه كان يقول: إن محمدًا ﷺ رأى ربه مرتين، مرة ببصره، ومرة بفؤاده،) فلا يمكن الجمع حينئذ بما تقدم بين إثباته ونفي عائشة، لأنه مصرح بأنه رآه مرة ببصره، ولا رد المطلق عنه إلى المقيد بالقلب أيضًا، كما قدمته.

وقول ابن كثير: من روى عن ابن عباس أنه رآه ببصره فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة.

قال الشامي: ليس بجيد، لأن إسناد الطبراني هذا صحيح، (ثم المراد برؤية الفؤاد،) كما قال الحافظ ابن حجر، (رؤية القلب لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالمًا بالله على الدوام، بل مراد من أثبت أنه رآه بقلبه، أن الرؤية التي حصلت له خلقت له في قلبه، كما تخلق الرؤية بالعين، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً،) بل هي قوة يجعلها الله تعالى فيما شاء من خلقه، ولا يشترط فيها أيضًا اتصال أشعة، ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك.

(ولو جرت العادة بخلقها في العين،) فليست شرطًا.

وقال الواحدي: وعلى القول؛ بأنه رآه بقلبه، جعل الله تعالى بصره في فؤاده، أو خلق لفؤاده بصراحتي رأى ربه رؤية صحيحة، كما يرى بالعين.

(وروى ابن خزيمة بإسناد قوي، عن أنس قال: رأى محمد ربه) بعينه، كما حمله عليه الواحدي، وتبعه البغوي.

(وفي مسلم من حديث أبي ذر) الغفاري، (أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك،) أي: رؤيته لربه، فلفظه عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر، قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟،

أراه أي حجابه نور فكيف أراه، ومعناه: أن النور منعني من الرؤية.

وعند أحمد قال: رأيت نورًا ومن المستحيل أن تكون ذات اللّٰه نورًا، إذ النور من جملة الأعراض، واللّٰه تعالى يتعالى عن ذلك.

(**فقال: نور**) منون مرفوع، وروي بالنصب أيضًا، (**أني**) بفتح الهمزة وشد النون والقصر (**أراه، أي: حجابه نور،**) إشارة إلى أن نور خبر مبتدأ، ويجوز أنه فاعل لفعل مقدر، أي: حجبني، أو منعني، أو ظهر لي نور، وعلى رواية النصب تقديره رأيت نورًا، (**فكيف**) تفسير لقوله أني (**أراه، ومعناه أن النور منعني من الرؤية،**) لجري العادة؛ بأن النور إذا غشي البصر حجبه عن رؤية ما وراءه.

وروي نوراني بكسر النون الثانية وشد التحتية، نسبة للنور على غير قياس، كصنعاني، وهذه الرواية حكاها في الشفاء عن بعض مشايخه، ولكنه قال في شرحه لمسلم الإكمال: هذه الرواية لم تقع لنا ولا رأيتها في أصل من الأصول.

(**وعند أحمد،**) عن أبي ذر، (**قال**) ﷺ: (**رأيت نورًا،**) ظاهر عزوه لأحمد بعد عزو ما قبله لمسلم أنه لم يروه، وليس كذلك، فقد رواه مسلم أيضًا عقب الأل من وجه آخر عن عبد اللّٰه بن شقيق، قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول اللّٰه ﷺ لسألته، فقال: عن أي: شيء كنت تسأله؟، قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟، قال: قد سألته، فقال رأيت نورًا، أي: رأيت نورًا حجبني عن رؤية اللّٰه، فتتفق الروايتان على أن النور مانع.

(**ومن المستحيل أن تكون ذات اللّٰه نورًا، إذ النور من جملة الأعراض، واللّٰه تعالى يتعالى عن ذلك،**) ولذا قال في الشفاء: حديث أبي ذر هذا مختلف، أي: فيه من حيث اللفظ محتمل، أي: لكونه رآه ولم يره مشكل، أي: من حيث جعل ذاته نورًا.

وقال في الإكمال: ومن المستحيل أن تكون ذاته نورًا، لأنه جسم، وهو منزه عنه بإجماع، فيؤول بما ذكر في اللّٰه نور السموات والأرض، أن معناه منورهما، أو هادي أهلهما، أو منور قلوب المؤمنين، أو ذو بهجة وجمال، أو خالق النور، ورده أبو عبد اللّٰه الأبي؛ بأنه لا يستقيم تأويل الرواية بشيء من الجميع، لأنه لا يلتئم مع قوله: أني أراه، لأن كونه خالقًا أو منورًا، أو هاديًا لا يمنع من رؤيته.

قال السنباطي: فالذي يظهر على ما نعتقده من وقوع الرؤية؛ أن قوله نور، أي: هو ذو نور، ثم استعظم ما وقع له من الرؤية، وما شاهده من الذات العلية، فقال: أني أراه، اعترافًا بالقصور عن درجة الرؤية، واستعظامًا للذات المرئية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿أنى يحيى هذه اللّٰه بعد موتها﴾ [البقرة/٢٥٩]، قال: وأما رأيت نورًا، فهو نص في الرؤية، وتأويله بأن المراد منعني عن

وعند ابن خزيمة عنه، قال: رآه بقلبه ولم يره بعينه. وبهذا يتبين مراده في حديث أبي ذر بذكر النور، الذي حال بينه وبين رؤيته ببصره.

وجنح ابن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات، وأطنب في الاستدلال بما يطول ذكره، وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤية وقعت مرتين: مرة بقلبه ومرة بعينه.

ومما يعزى للأستاذ عبد العزيز المهدوي: أنه ﷺ لما رجع من سفر الإسراء، أبصر العوالم من حيث فلكهم ومراتبهم، وسقى كل واحد من كأسه،

رؤيته، كعادة الأنوار الساطعة، فضعيف جدًا، لأن فيه قياس الأشياء الخارقة للعادة الجائية في طور ما وراء العقل على الأشياء المحسوسة العادية، وهذا خطأ قطعًا انتهى.

وقال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء: ما زلت لهذا الحديث منكرًا، وقال ابن خزيمة في القلب من صحة إسناده شيء. انتهى، وأجيب؛ بأن النور من أسمائه تعالى، كما في الحديث.

قال الغزالي: ومعناه الظاهر بنفسه المظهر لغيره، ونحوه قول الأشعري: الله نور ليس كالأنوار، فالروايتان بمعنى: فهو نور النور، الخفي بفرط الظهور. وقول عياض: النور جسم غير مسلم، **(وعند ابن خزيمة)** والنسائي، **(عنه،)** أي: عن أبي ذر، أنه **(قال)** في تفسير الآية: **(رآه بقلبه، ولم يره بعينه)**.

وروى ابن جرير عن بعض الصحابة، قلنا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟، قال: لم أره بعيني، رأيته بفؤادي مرتين، ثم تلا: ﴿ثم دنا فتدلى﴾، وفيه موسى بن عبيدة ضعيف.

(وبهذا يتبين مراده في حديث أبي ذر،) المذكور عن مسلم **(بذكر النور الذي حال بينه وبين رؤيته ببصره،)** وذلك لا يمنع رؤيته بقلبه، **(وجنح،)** أي: مال **(ابن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات،)** أي: أنه رآه ببصره، **(وأطنب في الاستدلال بما يطول ذكره، وحمل ما ورد عن ابن عباس)** من أنه رآه بقلبه، **(على أن الرؤية وقعت مرتين، مرة بقلبه، ومرة بعينه،)** جمعًا بين مختلف الروايات عنه، وعملاً بتصريحه بذلك في الطبراني المانع من رد المطلق للمقيد، كما مر تحريره.

(ومما يعزى للأستاذ عبد العزيز المهدوي أنه ﷺ لما رجع من سفر الإسراء،) سمى خروجه من مكة إلى المقدس، ثم إلى السموات، ثم إلى حيث شاء الله، سفر الصدق، حد السفر عليه، وهو الخروج للارتحال من محله إلى غيره، **(أبصر العوالم)** بكسر اللام، **(من حيث فلكهم)** أي: نظر كل عالم، وخاطبه بما يليق بفلكه المتعلق به، **(ومراتبهم)** اللائقة بهم قربًا وبعدًا، **(وسقى كل واحد من كأسه، وعلى قدر عقله، فخاطب الكفار وهم آخر العوالم بما**

وعلى قدر عقله، فخاطب الكفار، وهم آخر العوالم، بما رأى في الطريق، وما كان في المسجد الأقصى على العيان وبما يعرفون، لأنهم في فلك الأجسام، حتى صدقوا بالإسراء، ثم ارتقى حتى حدث عن فلك السماء، وكذلك في كل سماء، حتى أخبر عما شاهد ورأى في كل فلك وما يليق أن يحدث به ـ أعني أصحابه ـ كلا على قدر مرتبته بلا ضيق ولا مزاحم إلى السماء السابعة، ولما وصل مقام جبريل تحدث عن الأفق المبين، وعما فوق إلى الدنو وإلى التدلي إلى موضع الإيحاء عند حضرة إسقاط الصور والخلق، فأخبر بذلك أصحابه، فمنهم من قال: رأى جبريل بالأفق المبين، وبالأفق الأعلى، وصدق، ومنهم من قال برؤية الفؤاد والبصيرة وصدق، وهي عائشة ومن معها، ومنهم من قال: بعيني رأسه رأى وصدق.

فكل أخبر بما حدثه ﷺ من مقامه وسقاه من كأسه وما يليق به، فإذا صح

رأى في الطريق وما كان في المسجد الأقصى على العيان:) (بكسر العين) المشاهدة، حيث جلا الله له المسجد، **(وبما يعرفون، لأنهم في فلك الأجسام حتى صدقوا بالإسراء)** حقيقة، وإن لم يؤمنوا عنادًا، **(ثم ارتقى حتى حدث عن فلك السماء، وكذلك في كل سماء حتى أخبر عما شاهد ورأى في كل فلك، وما يليق أن يحدث به، أعني أصحابه، كلا على قدر مرتبته بلا ضيق ولا مزاحم إلى السماء السابعة،)** وحاصل معنى كلامه أنه ﷺ رأى تلك الليلة ما تقصر العقول عن إدراكه، فحدث أصحابه، كلاً بما يليق بمخاطبته وبمرتبته، فاختلفت العبارات باختلاف أحوال المخاطبين، مع كون المخبر عنه واحدًا لا اختلاف فيه، وإنما نشأ الاختلاف من اختلاف العبارات التي أدى بها عليه السلام.

(ولما وصل مقام جبريل تحدث عن الأفق المبين، البين،) وهو الأعلى، **(وعما فوق)** الأفق **(إلى الدنو:)** القرب، **(وإلى التدلي إلى موضع الإيحاء عند حضرة إسقاط الصور والخلق، فأخبر بذلك أصحابه، فمنهم من قال: رأى جبريل بالأفق المبين، وبالأفق الأعلى، وصدق،)** لأنه حدث بما أخبره به.

(ومنهم من قال: برؤية الفؤاد:) القلب، **(والبصيرة)** لا البصر، **(وصدق، وهي عائشة، ومن معها)** كابن مسعود في الأشهر عنه.

(ومنهم من قال: بعيني رأسه رأى) ربه تبارك وتعالى، **(وصدق، فكل أخبر بما حدثه ﷺ من مقامه، وسقاه من كأسه، وما يليق به،)** لكن قال الشامي: من قال: إنه ﷺ خاطب عائشة على قدر عقلها، ومن حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه، فهو مخطىء، قليل الأدب. انتهى.

هذا المعراج عرفت الأمر، ومقامات الرؤية والقائلين بذلك واختلافهم وقولهم الجميع الحق انتهى.

وممن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد. روى الخلال في «كتاب السنة» عن المروزي: قال قلت لأحمد: إنهم يقولون إن عائشة قالت: من زعم أن محمدًا قد رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي معنى يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: رأيت ربي، قول النبي ﷺ أكبر من قولها.

وقد أنكر صاحب «الهدي» على من زعم أن أحمد قال: رأى ربه بعيني

(**فإذا صح هذا المعراج، عرفت الأمر ومقامات الرؤية، والقائلين بذلك، واختلافهم**) نفيًا وإثباتًا ووقفًا، (**وقولهم الجميع الحق انتهى**) كلام المهدي، وحاول بذلك الجمع بين النفي والإثبات، وقد يؤيده خبر حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله، رواه الديلمي عن علي رفعه، وهو في البخاري موقوف عليه.

وروى الحسن بن سفيٰن عن ابن عباس، يرفعه: أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم.

قال الحافظ: وسنده ضعيف جدًا لا موضوع.

(**وممن أثبت الرؤية**) أي: رؤية الله تعالى (**لنبينا ﷺ الإمام أحمد**) بن حنبل.

(**روى الخلال**) بالخاء المعجمة، نسبة إلى الخل، أبو محمد الحسن بن أبي طالب بن محمد بن الحسن البغدادي، الحافظ، الثقة، صاحب التصانيف، مات سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، (**في كتاب السنة، عن**) إسحٰق بن منصور بن بهرام الكوسج، التميمي، (**المروزي**) نزيل نيسابور، أحد الأئمة الحفاظ الثقات، روى عنه الجماعة سوى أبي داود، قال الخطيب: كان فقيهًا، عالمًا، وهو الذي دون المسائل عن أحمد، مات سنة إحدى وخمسين ومائتين.

(**قال: قلت لأحمد**) بن حنبل الإمام: (**إنهم يقولون إن عائشة قالت: من زعم أن محمدًا قد رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية:**) بكسر الفاء، الكذب، (**فبأي: معنى يدفع**) بتحتية مضمومة، أو فوقية مفتوحة. (**قولها**) بالرفع والنصب، (**قال بقول النبي ﷺ: رأيت ربي**) أي: ببصري، على الظاهر المتبادر (**قول النبي ﷺ أكبر**) بموحدة، أعظم وأجل (**من قولها**) فيقدم عليه، إذ لا رأي لأحد مع نصه، وهذا ظاهر في أن أحمد كان يقول إنه رآه ببصره قبل أن يسأل، ويجيب، لأن عائشة تقول بأنه رآه بقلبه على ما مر، فدفعه أحمد بالحديث حملا له على المتبادر منه، وحينئذ بطل الإنكار المذكور بقوله.

(**وقد أنكر صاحب «الهدي»**) ابن القيم فيه (**على من زعم أن أحمد قال: رأى ربه بعيني**)

رأسه. قال: وإنما قال أحمد مرة: رأى محمد ربه، وقال مرة: بفؤاده. وحكي عنه بعض المتأخرين: أنه رأى ربه بعيني رأسه. وهذا من تصرف الحاكي، فإن نصوصه موجودة انتهى.

وقد رجح القرطبي في «المفهم» بشرح مسلم قول الوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه: بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به الطائفتان ظواهر متعارضة، قابلة للتأويل.

قال: وليست المسألة من العمليات فكيتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من

رأسه، قال: وإنما قال أحمد مرة رأى محمد ربه) وأطلق، (وقال مرة) رآه (بفؤاده،) فيحمل المطلق على المقيد.

(وحكى عنه بعض المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه، وهذا من تصرف الحاكي، فإن نصوصه) أي: أحمد، (موجودة) وليس فيها أنه رآه بعيني رأسه، فالحاكي ذلك عنه من تصرفه. (انتهى).

لكن في الشفاء: أن عبد الله بن أحمد حكى عن أبيه أنه رآه، وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس أنه رأى ربه بعينيه، رآه رآه رآه حتى انقطع نفسه، يعني نفس أحمد، وقال أبو عمر: رآه بقلبه، وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار. انتهى، وجمع بينهما؛ بأنه قد يخفيه في بعض المجالس.

(وقد رجح القرطبي في المفهم بشرح مسلم قول الوقف في هذه المسألة،) وهو قول سعيد بن جبير: لا أقول رآه ولا لم يره، (وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به الطائفتان، ظواهر متعارضة قابلة للتأويل،) ونحوه قول عياض أواخر هذا المبحث من الشفاء: لا مرية في الجواز، إذ ليس في الآيات نص في المنع، بل هي مشيرة للجواز، وأما وجوب وقوعها لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضًا ولا نص إذ المعول فيه على آيتي النجم، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع، متواتر عن النبي ﷺ بذلك.

وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده، ولم يسنده إلى النبي ﷺ، فيجب العمل باعتقاده، متضمنه من رؤيته ربه، ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية، ثم قال: فإن ورد حديث نص، بين في الباب اعتقد ووجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه، ولا مانع قطعي يرده انتهى.

(قال) القرطبي: (وليست المسألة من العمليات فيكتفي فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات، فلا يكتفي فيها إلا بالدليل القطعي،) ورده السبكي في السيف المسلول

المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي. والله أعلم.

وأما قوله في الحديث: ثم فرضت علي الصلاة كل يوم خمسين صلاة.

ففي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم ففرض الله علي خمسين صلاة كل يوم وليلة.

ونحوه في رواية لملك بن صعصعة عن البخاري أيضًا.

ويحتمل أن يقال: ذكر الفرض عليه يستلزم الفرض على الأمة، وبالعكس، إلا ما يستثنى من خصائصه.

على من سب الرسول؛ بأنه ليس من شرطه أن يكون قاطعًا متواترًا، بل متى كان حديثًا صحيحًا، ولو ظاهرًا، وهو من رواية الآحاد، جاز أن يعتمد عليه في ذلك، لأن ذلك ليس من مسائل الاعتقاد التي يشترط فيها القطع، على أنا لسنا مكلفين بذلك انتهى، **(والله أعلم)** بالواقع من ذلك.

(وأما قوله في الحديث،) أي: حديث لملك بن صعصعة الذي قدمه المصنف، ثم تكلم عليه، **(ثم فرضت علي الصلاة،)** بالإفراد لأبي ذر، ولغيره الصلوات بالجمع، **(كل يوم خمسين صلاة)**.

(ففي رواية ثابت البناني) بضم الموحدة ونونين بينهما ألف، **(عن أنس، عند مسلم: ففرض الله عليّ،)** فصرح بذكر الفاعل، وإن كان في الأولى بني للمفعول للعلم به **(خمسين صلاة كل يوم وليلة،)** فأفاد أن المراد بيوم في الرواية الأولى مع الليلة، **(ونحوه في رواية لملك ابن صعصعة عند البخاري أيضًا)** لا محل لذكر هذا، لأن رواية لملك هي التي أراد بقوله.

وأما قوله في الحديث وهذا إنما ذكره الحافظ في قوله في الصلاة، قال النبي ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة»، فعارضه الحافظ بروايتي ثابت ولملك من جهة تصريحه فيهما، بأن الفرض عليه، وجمع الحافظ بقوله: فيحتمل أن يقال في كل من رواية الباب، والرواية الأخرى اختصار.

(ويحتمل أن يقال ذكر الفرض عليه يستلزم الفرض على الأمة، وبالعكس إلا ما يستثنى من خصائصه،) وكان المصنف حذف احتماله الأول، لأنه لم يذكر رواية الصلاة، لكنه بترك رواية الصلاة صار لا كبير فائدة فيه، إذ رواية ثابت موافقة للرواية التي شرحها، فيكون قوله: ذكر الفرض عليه ضائعًا.

وفي حديث ثابت عن أنس عند مسلم فنزلت إلى موسى، فقال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمسًا، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله

(**وفي حديث ثابت عن أنس عند مسلم**،) عقب قوله: وليلة، (**فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك**،) قال: أولاً فرض عليّ، وهنا على أمتك، لأن ما فرض على النبي فرض على أمته، ففيه احتباك، وهو من أنواع البديع، وهو أن يذكر شيئين بحذف من كل منهما ما ذكر في الآخر، فحذف من الأول، وعلى أمتي، ومن الثاني عليك، وهذا جمع ثالث، ولم يقل موسى عليك، لأنه علل بعدم الطاقة، وهي إنما تنسب إلى الأمة لا له، ففيه حسن أدب موسى في الخطاب.

(**قلت: خمسين صلاة**،) تمييز، (**قال: ارجع إلى ربك**،) أي: إلى الموضع الذي ناجيته فيه، (**فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون**) بضم أوله، (**ذلك**،) أي: أنه يشق عليهم، فيقصرون فيه لا أنه محال حتى يقال إنه مبني على تكليف المحال، وهو جائز، وفائدته الأخذ في مقدماته حتى يعلم امتثاله، (**فإني قد بلوت بني إسرائيل**،) أي: اختبرتهم، بأن أمرتهم بما كلفوا به، (**وخبرتهم**،) أي: علمت منهم عدم الوفاء بذلك، فهو عطف مسبب على سبب، يقال بلاء وابتلاء بخير، أو شر، بمعنى امتحنته، خبرت الشيء من باب قتل علمته، واختبرته بمعنى امتحنته، كما في المصباح، كذا مشاه شيخنا.

وقال غيره: وخبرتهم عطف تفسير، وهو واضح، لأن كونه بمعنى علم في خبر لا اختبر، فمعناه امتحن، وفيه مقدر، أي: خبرتهم مع قوّة أجسادهم وطول أعمارهم، فلم أجد لهم صبرًا على ذلك، فكيف حال أمتك؟.

(**قال**) ﷺ: (**فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف عن أمتي**) ما فرضته عليهم من الصلاة، فحذف المفعول للعلم به.

وفي رواية شريك عن أنس، قال، أي: موسى: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع، فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل، كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل؛ أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار، فقال وهو مكانه: يا رب خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا.

(**فحط عني خمسًا**) منها، وأصل معناه تنزيل الحمل، فشبهه بالحمل تشبيهًا مكنيًا، كقوله: ﴿لا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ [البقرة/٢٨٦].

التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال: يا محمد أنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة

وفي رواية ابن صعصعة، وأبي ذر وشريك: فوضع: **(فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسًا، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع،)** أي: أردد الرجوع وأكرره، **(بين ربي وبين موسى،)** أي: بين موضع مناجاتي له تعالى وملاقتي لموسى، **(حتى قال)** تعالى، لما انتهى التخفيف إلى خمس: **(يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة بكل صلاة عشر،)** فكل حسنة بعشر أمثالها، **(فتلك خمسون صلاة)**.

وفي حديث أبي ذر: هن خمس وهن خمسون، لا يبدل القول لديّ، ومر في حديث ابن صعصعة: فوضع عني عشرًا، ومثله لشريك.

وفي رواية أبي ذر: فوضع شطرها، قال ابن المنير: ذكر الشطر أعم من كونه وقع دفعة واحدة، أو في مرار متعددة، وإذا ورد تفصيل وإجمال حمل الإجمال على التفصيل، فلا تعارض.

قال الحافظ: وكذا العشر، فكأنه وضع العشر في دفعتين، والشطر في خمس دفعات، أو المراد بالشطر البعض، وقد حققت رواية ثابت أن التخفيف كان خمسًا، وهي زيادة معتمدة، يتعين حمل باقي الرواية عليها.

وقال الكرماني: الشطر هو النصف، ففي المراجعة الأولى وضع خمسًا وعشرين، وفي الثانية ثلاثة عشر، يعني نصف الخمسة وعشرين بجبر الكسر، وفي الثالثة سبعة، كذا قال، وليس في حديث أبي ذر في المراجعة الثالثة ذكر وضع شيء إلا أن يقال حذف ذلك اختصارًا فيتجه، لكن الجمع بين الروايات يأبى هذا الحمل، فالمعتمد ما تقدم. انتهى.

قال الشامي: ويؤيد رواية ثابت ما رواه ابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي وابن مردويه من حديث لملك بن صعصعة: فحط عني خمسًا، وفيه: فما زلت بين موسى وبين ربي يحط عني خمسًا خمسًا. انتهى.

والظاهر أن هذه رواية شاذة، وإن صح إسنادها، فالثابت في الصحيحين، والنسائي ومسند أحمد من حديث لملك بن صعصعة، فوضع عني عشرًا، وقدم المؤلف لفظه.

(ومن همّ بحسنة،) أي: أراد فعلها مصممًا عليها **(فلم يعملها كتبت له حسنة،)** أي: كتبت له الحسنة التي هم بها ولم يعملها كتابة واحدة، لأن الهم سببها وسبب الخير، **(فإن**

واحد. قال ﷺ: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقلت: لقد راجعتُ ربي حتى استحييت منه.

عملها كتبت له عشرًا،) لأن الحسنة بعشر أمثالها.

(**ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا**،) أي: إذا لم يصمم على الفعل، كما هو مذكور في محله، وفي الفتح استثنى جماعة ممن ذهب إلى عدم مؤاخذة من وقع منه الهم بالمعصية ما يقع في الحرم المكي، ولو لم يصمم، لقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [الحج/٢٥]، ذكره السدي في تفسيره عن مرة ابن مسعود، وأخرجه أحمد من طريقه مرفوعًا، ومنهم من رجح وقفه، (**فإن عملها كتبت سيئة واحدة**،) قال في الفتح: استثنى بعض العلماء وقوع المعصية في الحرم المكي.

قال إسحٰق بن منصور: قلنا لأحمد: هل ورد في شيء من الحديث أن السيئة تكتب بأكثر من واحدة؟، قال: لا، ما سمعت إلا بمكة لتعظيم البلد، والجمهور على التعميم في الأزمنة والأمكنة، لكن قد تتفاوت بالعظم، ولا يرد على ذلك قوله تعالى: ﴿من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب/٣٠]، لأن ذلك ورد تعظيمًا لحق النبي ﷺ، لأن وقوع ذلك من نسائه يقتضي أمرًا زائدًا على الفاحشة، وهو أذاه ﷺ. واستدل به على أن الحفظة لا تكتب المباح للتقييد بالحسنات والسيئات، وأجاب بعض الشراح؛ بأن بعض الأئمة عد المباح من الحسن، وتعقب بأن الكلام فيما يترتب على فعله حسنة، وليس المباح، ولو سمي حسنًا كذلك. نعم قد تكتب حسنة بالنية وليس البحث فيه.

(**قال**) ﷺ: (**فنزلت حتى انتهيت**،) أي: انتهى سيري، فوصلت (**إلى موسى**،) ولم يقل انتهيت قبل هذا، وقال هنا إشارة إلى أنه تمام المراجعة، ولا مراجعة بعده، (**فأخبرته**) بما قال الله، (**فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف**) من الخمس، (**فقلت: لقد راجعت ربي**) مرارًا في سؤال التخفيف، (**حتى استحييت منه**،) زاد في حديث ابن صعصعة: ولكن أرضى وأسلم.

وفي رواية شريك عن أنس: قال ﷺ: «يا موسى قد والله استحييت من ربي، مما اختلفت إليه».

قال ابن المنير: هنا نكتة لطيفة، وهي أنه يحتمل أنه ﷺ تفرس من كون التخفيف وقع خمسًا خمسًا، أنه لو سأل التخفيف بعد أن صارت خمسًا، لكان سائلاً في دفعها، فلذلك استحيا.

قال الحافظ: ودلت مراجعته ﷺ لربه في طلب التخفيف في تلك المرات كلها، أنه لو علم أن الأمر في كل مرة ليس على سبيل الإلزام بخلاف المرة الأخيرة، ففيها ما يشعر بذلك،

وفي رواية النسائي عن أنس: فقيل لي: إنني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، وذكر مراجعته مع موسى، وفيه: فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما. وقال في آخره: خمس بخمسين، فهم بها أنت وأمتك. قال: فعرفت أنها عزمة من الله فرجعت إلى موسى فقال: ارجع، فلم أرجع.

فإن قلت: لم قال موسى عليه السلام لنبينا ﷺ: إن أمتك لا يطيقون ذلك، ولم يقل: إنك وأمتك لا تطيقون ذلك؟

أجيب: بأن العجز مقصور على الأمة لا يتعداهم إلى النبي ﷺ، فهو لما رزقه الله من الكمال يطيق ذلك وأكثر منه، وكيف لا وقد جعلت قرة عينه في

لقوله تعالى: ﴿ما يبدل القول لديّ﴾، ويحتمل أن يكون سبب الاستحياء؛ أن العشرة آخر جمع القلة، وأول جمع الكثرة، فخشي أن يدخل في الإلحاح في السؤال، لكن الإلحاح في الطلب من الله مطلوب، فكأنه خشي من عدم القيام بالشكر، وسيأتي في التوحيد زيادة في هذا ومخالفة. انتهى.

(**وفي رواية النسائي**) من طريق يزيد بن أبي مالك، (**عن أنس، فقيل لي: إنني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة**) كل يوم وليلة، (**فقم بها أنت وأمتك، وذكر مراجعته مع موسى، وفيه: فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما،**) هذا هو الصواب، وما وقع في البيضاوي أنه فرض عليهم خمسون صلاة في اليوم والليلة.

فقال السيوطي: هذا غلط، فلم يفرض على بني إسرائيل خمسون صلاة قط، بل ولا خمس صلوات، ولم تجمع الخمس إلا لهذه الأمة، وإنما فرض على بني إسرائيل صلاتان، فقط كما في الحديث. انتهى.

(**وقال في آخره: خمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك، قال: فعرفت أنها عزمة،**) أي: طلب جازم لا يتغير، وإن سألت (**من الله، فرجعت إلى موسى، فقال: ارجع، فلم أرجع،**) فهذا صريح في أن عدم رجوعه، لأنه فهم أن الأمر للإلزام لا لمجرد الفراسة، (**فإن قلت: لم؟، قال موسى عليه السلام لنبينا ﷺ: إن أمتك لا يطيقون ذلك، ولم يقل إنك وأمتك لا تطيقون،**) أي: ما الحكمة في قصر العجز على الأمة دونه، (**أجيب: بأن العجز مقصور على الأمة لا يتعداهم إلى النبي ﷺ، فهو لما رزقه الله من الكمال يطيق ذلك، وأكثر منه، وكيف لا**)

الصلاة.

قال العارف ابن أبي جمرة: والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع اللّٰه تعالى له ولأمته تلك العبادات في ركعة واحدة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبري والبزار، قال ﷺ: كان موسى أشدهم علي حين مررت، وخيرهم لي حين رجعت.

وفي حديث أبي سعيد: فأقبلت راجعًا فمررت بموسى، ونعم الصاحب كان

يكون ذلك، **(وقد جعلت قرة عينه:)** فرحها وسرورها **(في الصلاة)** ذات الركوع والسجود، لأنها محل المناجاة ومعدن المصافاة، والقول بأن المراد صلاة اللّٰه وملائكته، منع بأن السياق يأباه.

(قال العارف ابن أبي جمرة: والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء، أنه ﷺ لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يعقد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد)، أي: لا يرفع رأسه منه أبدًا، **(فجمع اللّٰه تعالى له ولأمته تلك العبادات)** ليعلمه بما أكرمه به من أن من رآه من عبادة الملائكة جمع له ولأمته **(في ركعة واحدة، يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص)**.

وقال ابن أبي جمرة أيضًا في اختصاص فرضها بليلة الإسراء إشارة إلى عظم شأنها، فلذلك اختص فرضها بكونها بغير واسطة، بل بمراجعات تعددت على ما سبق بيانه.

(وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبري والبزار، قال ﷺ: كان موسى أشدهم عليّ حين مررت،) يشير إلى نحو قوله: فلما تجاوزت بكى، قيل: ما يبكيك؟، قال: لأن غلامًا بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، وغير ذلك مما تقدم في المتن.

(وخيرهم لي حين رجعت) لشفقته على أمتي.

(وفي حديث أبي سعيد) الخدري عند البيهقي وغيره: **(فأقبلت راجعًا، فمررت بموسى، ونعم الصاحب كان لكم،)** لأمره لي بسؤال التخفيف عنكم، كما أفاده بقوله: **(فسألني كم**

لكم، فسألني كم فرض عليك ربك. الحديث.

قال السهيلي: وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة، وإلحاحه على نبيها أن يشفع لها ويسأل التخفيف عنها، فلقوله ـ والله أعلم ـ حين قضي الأمر إليه بجانب الغربي، ورأى صفات أمة محمد ﷺ في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا، اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور وقد تقدم ذكره في خصائص هذه الأمة. قال: فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم من هو منهم. لقوله: اللهم اجعلني منهم، انتهى.

وقال القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلوات يحتمل أن تكون لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد من

فرض عليك ربك.. الحديث،) في المراجعة، والقصد منه قوله: ونعم الصاحب كان لكم.

(قال السهيلي: وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة وإلحاحه على نبيها، أن يشفع لها، ويسأل التخفيف عنها) في الصلاة، **(فلقوله:)** أي: موسى، ونسخه تعالى من جهل النساخ، ولا ذكر لها في الروض، **(والله أعلم حين قضى:)** أوحى **(الأمر إليه)** بالرسالة إلى فرعون وقومه **(بجانب)** الجبل، أو الوادي، أو المكان **(الغربي)** من موسى حين المناجاة.

(ورأى صفات أمة محمد ﷺ في الألواح، وجعل يقول إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا،) مقول القول: **(اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور)** في التفاسير، كما في الروض، زاد المصنف، **(وقد تقدم ذكره في خصائص هذه الأمة)**.

(قال) السهيلي: **(فكان إشفاقه)** أي: حنوه وعطفه **(عليهم واعتناؤه بأمرهم، كما يعتني بالقوم من هو منهم. لقوله: اللهم اجعلني منهم. انتهى.)** أحسن الحافظ تلخيصه بقوله.

وذكر السهيلي أن الحكمة في ذلك أنه رأى في مناجاته صفة أمة محمد، فدعا الله أن يجعله منهم، فكان إشفاقه عليهم كعناية من هو منهم. انتهى.

(وقال القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلوات، يحتمل أن تكون لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها، فثقلت عليهم،) ورد أن بني إسرائيل كلفوا بركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي،

مثل ذلك، ويشير إليه قوله: إني جربت الناس قبلك.

ووقع في كلام بعض أهل الإشارات: لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى عليه السلام أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس، فلما نودي من النادي، اشتاق إلى المنادي، فكان يطوف في بني إسرائيل: من يحملني رسالة إلى ربي، ومراده أن تطول مناجاته مع الحبيب، فلما مر عليه النبي ﷺ ليلة المعراج، ردده في أمر الصلوات ليسعد برؤية حبيب الحبيب.

قيل: وركعتين عند الزوال، فما قاموا بما كلفوا به، **(فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك)**.

قال ابن المنير: أكثر الأمة يغلب عليه التفريط في الصلوات الخمس، خصوصًا النساء، وكثير من المصلين، مفرط في الشروط غير موف بالحقوق، فكان ذلك من آثار فراسة موسى فيهم، لقوله للمصطفى وقد رجع الفرض إلى الخمس: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، ولم يرد ﷺ فراسة موسى، ولكن قال: استحييت، وفي لفظ: أرضى وأسلم.

(ويشير إليه قوله: إني جربت) من التجربة، وفي رواية: خبرت **(الناس قبلك)** قال ابن أبي جمرة فيه: إن التجربة أقوى من المعرفة الكثيرة لقول موسى للمصطفى، أنه عالج الناس قبله وجربهم، وفيه تحكيم العادة، والتنبيه بالأعلى على الأدنى، لأن من سلف من الأمم كانوا أقوى أبدانًا من هذه الأمة، وقد قال موسى: إنه عالجهم على أقل، فما وافقوه. انتهى بحروفه.

زاد في الفتح: وقال غيره: لعل الحكمة من جهة أنه ليس في الأنبياء من له أتباع أكثر من موسى، ولا له كتاب أكبر، ولا أجمع للأحكام من كتابه، فكان من هذه الجهة مضاهيًا للنبي ﷺ، فناسب أن يتمنى أن يكون له مثل ما أنعم به عليه من غير أن يريد زواله عنه، وناسب أن يطلعه على ما وقع له، وينصحه فيما يتعلق به، ويحتمل أن موسى لما وقع له في الابتداء الأسف على نقص حظ أمته بالنسبة لأمة محمد حتى تمنى أن يكون منهم، استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم، والشفقة عليهم، ليزيل ما عساه أن يتوهم عليه، فيما وقع منه في الابتداء.

(ووقع في كلام بعض أهل الإشارات) أي: الصوفية في حكمة ذلك أنه **(لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى عليه السلام أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس)** يأخذ القبس، وهو شعلة في رأس فتيلة، أو عود، **(فاحتبس، فلما نودي من النادي)** إني أنا الله، **(اشتاق إلى المنادي، فكان يطوف في بني إسرائيل)** قائلاً: **(من يحملني رسالة إلى ربي، ومراده أن تطول مناجاته مع الحبيب)** أي: الله، **(فلما مر عليه النبي ﷺ ليلة المعراج)** وعلم أن الله اتخذه حبيبًا، **(ردده في أمر الصلوات ليسعد برؤية حبيب الحبيب)** سواء قيل

وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية، ولم تحصل له البغية، بقي الشوق يقلقه، والأمل يعلله، فلما تحقق أن سيدنا محمدًا ﷺ منح الرؤية، وفتح له باب المزية، أكثر السؤال ليسعد برؤية من قد رأى. كما قيل:

واستنشق الأرواح من نحو أرضكم ... لعلي أراكم أو أرى من يراكم
وأنشد من لاقيت عنكم عساكم ... تجودون لي بالعطف منكم عساكم
فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت ... فيا حبذا إن مت عبد هواكم

وقال آخر:

وإنما السر في موسى يردده ... ليجتلي حسن ليلي حين يشهده

إنه رآه أم لا.

(**وقال آخر**) من الصوفية أيضًا: (**لما سأل موسى عليه السلام الرؤية، ولم تحصل له البغية**) (بكسر الباء وضمها لغة)، أي: الحاجة التي طلبها، (**بقي الشوق يقلقه:**) يزعجه، (**والأمل:**) الرجاء (**يعلله،**) أي: يشغله بما رجاه، فيسهل عليه الأمر، ويتسلى بما يترجاه، (**فلما تحقق أن سيدنا محمدًا ﷺ منح الرؤية**) لله سبحانه، (**وفتح له باب المزية أكثر السؤال،**) أي: قصد بتكرير رجوعه، (**ليسعد برؤية،**) أي: تكرار رؤية (**من قد رأى**).

قال الحافظ: ويحتاج إلى ثبوت تجديد الرؤية في كل مرة. انتهى، أي: فإنها ما ثبتت سوى مرة مع قوة الخلاف، وتعقب بأن محبته لرؤية من رأى لا تتوقف على تجددها، إذ يكفي علمه بأنه رآه مرة واحدة، لعلمه أنه حصل له بها ما لم يحصل لغيره، فيحمله ذلك على محبة رؤيته ومخاطبته، ويكررها، بل مثله يحمل على محبة الاتصال به، بحيث يود أن لا يفارقه لحظة، ويؤيده قوله:

وأشرب الماء ما بي نحوه عطش ... إلا لأن في عيوني سيل واديها

(**كما قيل: واستنشق الأرواح:**) جمع روح، بالفتح، وهو نسيم الريح (**من نحو أرضكم، لعلي أراكم أو أرى من يراكم،**) فكلاهما محبوب، (**وأنشد**) أسأل (**من لاقيت عنكم، عساكم تجودون:**) تسمحون (**لي بالعطف:**) الحنوّ والشفقة (**منكم، عساكم**) تأكيد لفظي للتقوية، وفيه تجريد الفعل بعد عسى من أن، وهو قليل، (**فأنتم حياتي إن حييت، وإن أمت**) بهواكم (**فيا حبذا إن مت عبد هواكم،**) لأنه غاية السعادة.

(**وقال آخر:**)

وإنما السر في موسى يردده ... ليجتلي حسن ليلي حين يشهده

يبدو سناها على وجه الرسول فيا لله در رسول حين أشهده

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مقام القرب، دارت عليه كؤوس الحب، ثم عاد، وهلال ما كذب الفؤاد ما رأى بين عينيه، وبشر فأوحى إلى عبده ما أوحى ملء قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بموسى عليه السلام، قال لسان حاله لنبينا ﷺ.

يا واردًا من أهيل الحي يخبرني عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر
ناشدتك الله يا راوي حديثهم حدث فقد ناب سمعي اليوم عن بصري

فأجاب لسان حال نبينا ﷺ:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها فغدوت معروفًا وكنت منكرًا

فكل قوم يلحظون مذهبهم، وقد علم كل أناس مشربهم، والله تعالى بفضله

يبدو سناها على وجه الرسول فيا لله در رسول حين أشهده

(**وقال آخر**) من الصوفية في حكمة ذلك: (**لما جلس الحبيب**،) المصطفى، (**في مقام القرب**،) أي: الموضع الذي حصلت فيه المناجاة لربه الذي لم يصل إليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل سواه، (**دارت عليه كؤوس الحب**،) حيث قال له: اتخذتك حبيبًا، (**ثم عاد، وهلال**) واحد الأهلة، (**ما كذب الفؤاد ما رأى بين عينيه، وبشر**) بكسر الموحدة وسكون المعجمة، (**فأوحى إلى عبده ما أوحى ملء قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بموسى عليه السلام قال لسان حاله لنبينا ﷺ**:)

يا واردًا من أهيل الحي يخبرني عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر
ناشدتك الله يا راوي حديثهم حدث فقد ناب سمعي اليوم عن بصري

شنف الأسماع، أي: فرحها بخبر الأحباب وسرها، أي: أصحابها بذلك مأخوذ من شنف الجارية، إذا جعل لها شنفًا، وهو ما يعلق في أعلى الأذن.

(**فأجاب لسان حال نبينا ﷺ**،) بقول ابن الفارض:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها فغدوت معروفًا وكنت منكرا

وحاصل هذا أن حكمة ترديده ليعلم ما أوحي إليه، فأشير للجواب؛ بأنه من السر الذي لا يفشى، ثم هي حكم لا تتزاحم، (**فكل قوم يلحظون مذهبهم، وقد علم كل أناس مشربهم**:) موضع شربهم، فلا يشاركهم غيرهم فيه، (**والله تعالى بفضله وإحسانه يوالي انسجام سحائب**

وإحسانه يوالي انسجام سحائب عفوه ورضوانه على العارف الرباني الشيخ أبي عبد الرحمٰن السلمي، فلقد أجاد إذ أفاد بما أفرده من لطائف المعراج حسبما جمعه من كلام أهل الإشارات، بأقوم منهاج.

وقد استدل العلماء بقوله في الحديث انهن خمس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر فتلك خمسون:

عفوه ورضوانه على العارف الرباني الشيخ) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى **(أبي عبد الرحمٰن السلمي)** (بضم السين وفتح اللام) نسبة إلى جد له اسمه سليم الأزدي، النيسابوري، الصوفي، سمع الأصم وغيره، وسأل الدارقطني عن الرجال سؤال عارف بالحديث، وعنه القشيري، والبيهقي والحاكم، ومات قبله بسبع سنين، وكان حافظًا، عالمًا، زاهدًا، ثقة، ولا عبرة بمن قال: كان يضع للصوفية الأحاديث، ولد سنة ثلاثين وثلاثمائة.

قال الذهبي: كان وافر الجلالة وتصانيفه، قيل: نحو ألف، مات ثالث شعبان سنة اثنتي عشرة وأربعمائة بنيسابور، **(فلقد أجاد إذ أفاد بما أفرده من لطائف المعراج حسبما جمعه من كلام أهل الإشارات بأقوم منهاج،)** أي: طريق.

قال ابن أبي جمرة: والحكمة في أن إبراهيم لم يتكلم في طلب التخفيف؛ أن مقام الخلة، إنما هو الرضا والتسليم، والكلام في هذا الشأن ينافي ذلك المقام، وموسى هو الكليم، والكليم أعطى الإدلال والانبساط، ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم، مع أن للمصطفى من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوّة، ورفعة المنزلة، والاتباع في الملة.

وقال غيره: الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة قومه في هذه العبادة بعينها، وأنهم خالفوه وعصوه.

قال القرطبي: وأما قول من قال: إن موسى أول من لاقاه بعد الهبوط، فلا يصح، لأن حديث مٰلك بن صعصعة؛ أنه رآه في السادسة، وإبراهيم في السابعة، أقوى إسنادًا من حديث شريك؛ أنه رأى موسى في السابعة.

قال الحافظ: إذا جمعنا بينهما بأنه لقيه في الصعود في السادسة، وصعد معه إلى السابعة، فلقيه فيها بعد الهبوط، ارتفع الإشكال وبطل الرد.

(وقد استدل العلماء بقوله في الحديث) السابق قريبًا من رواية ثابت، عن أنس، عند مسلم؛ **(أنهن خمس صلوات، كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون)** صلاة، ونحوه حديث أبي ذر: هن خمس وهن خمسون، لا يبدل القول لدي.

على عدم فريضة ما زاد على الصلوات الخمس، كالوتر.

وعلى دخول النسخ قبل الفعل.

قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عز وجل نسخ الخمسين بالخمس قبل أن نصلي؟ ثم تفضل عليهم بأن أكمل لهم الصواب.

وتعقبه ابن المنير فقال: هذا ذكره طوائف من الأصوليين والشراح وغيرهم، وهو مشكل على من أثبت النسخ قبل الفعل كالأشاعرة، أو منعه كالمعتزلة. لكونهم اتفقوا جميعًا على أن النسخ لا يتصور قبل البلاغ. وحديث الإسراء وقع فيه النسخ قبل البلاغ، فهو مشكل عليهم جميعًا. قال وهذه نكتة مبتكرة. انتهى.

فإن أراد قبل البلاغ لكل أحد فممنوع، وإن أراد قبل البلاغ إلى بعض الأمة

وفي رواية شريك: كل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أمّ الكتاب، وهي خمس عليك، أي: وعلى أمتك (**على عدم فريضة ما زاد على الصلوات الخمس، كالوتر**) خلافًا لمن قال به، (**وعلى دخول النسخ قبل الفعل،**) كذا في النسخ، وصوابه على جواز، وفيه سقط، فلفظ فتح الباري: وعلى دخول النسخ في الإنشاءات، ولو كانت مؤكدة خلافًا، فالقوم فيما أكد، وعلى جواز النسخ قبل الفعل.

(**قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عز وجل نسخ الخمسين بالخمس، قبل أن نصلي، ثم تفضل عليهم؛ بأن أكمل لهم الصواب، وتعقبه ابن المنير، فقال: هذا ذكره طوائف من الأصوليين، والشراح وغيرهم، وهو مشكل على من أثبت النسخ قبل الفعل، كالأشاعرة،**) بناء على قولهم بجواز، بل وقوع التكليف بما لا يستطاع، لأن الأفعال كلها مخلوقة للّٰه تعالى، والعبد مطالب بما لا يقدر على إيجاده، ولا يقدر على إحرازه، لقوله: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات/٩٦]، (**أو منعه، كالمعتزلة**) جريًا على قولهم العبد يخلق فعل نفسه، ويوجد طاعة ربه باستطاعته، فلا يتصور التكليف عندهم بما لا يستطاع، فلا يتصور النسخ قبل التمكن من الفعل، (**لكونهم اتفقوا جميعًا على أن النسخ لا يتصور قبل البلاغ**).

قال المصنف: وتعقب بأن الخلاف مأثور، نص عليه ابن دقيق العيد في شرح العمدة وغيره، (**وحديث الإسراء وقع فيه النسخ قبل البلاغ، فهو مشكل عليهم جميعًا**).

(**قال**) ابن المنير: (**وهذه نكتة مبتكرة. انتهى،**) وتعقبه الحافظ، وتبعه المصنف بقوله: (**فإن أراد قبل البلاغ لكل أحد فممنوع،**) لأن ذلك بلغ النبي ﷺ، (**وإن أراد قبل البلاغ إلى بعض، الأمة،**) صوابه إسقاط بعض كما في الفتح، (**فمسلم، لكن قد يقال هو بالنسبة إليهم،**

فمسلَّم، لكن قد يقال: ليس هو بالنسبة إليهم ليس نسخًا، لكن هو نسخ بالنسبة إلى النبي ﷺ لأنه كلف بذلك قطعًا، ثم نسخ بعد أن بلغه وقبل أن يفعله، فالمسألة صحيحة التصور في حقه ﷺ.

ولما رجع ﷺ من سفر الإسراء، مر في بعض طريقه بعير لقريش تحمل طعامًا، فيها جمل يحمل غرارتين: غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت وانصرع ذلك البعير.

ليس نسخًا، لكن هو نسخ بالنسبة إلى النبي ﷺ، لأنه كلف بذلك قطعًا، ثم نسخ بعد أن بلغه، وقبل أن يفعله، فالمسألة صحيحة التصور في حقه ﷺ.) وهذا الاستدراك إنما هو إيضاح لما قبله، لكن التعقب على ابن المنير بهذا فيه نظر، لأنه ذكر في معراجه الجواب بتصور النسخ في حق النبي ﷺ، وقال: هذا جواب ضعيف، بل كان التكليف عامًا لقول موسى: إن أمتك لا تطيق ذلك، وسله التخفيف لأمتك، وتجويز أن التكليف كان عليه خاصة لرواية فرض على خمسين صلاة، لكنه فهم أن الأمة تدخل بعد، وكذا فهم موسى، فراجعه في التخفيف، وكذا كل تكليف يتقدم فيه الرسول على الأمة تقدمًا زمانيًا، لأنه يبلغه عن الله قبل أن يبلغهم منه، ولذا قال: وأنا أوّل المسلمين، فيه نظر، لأنه لو فهم دخولهم دخلوا ضرورة، إذ فهمه صواب قطعًا، فيعود الإشكال، لأنه اختص بالتكليف، ثم التخفيف، ثم كلفت الأمة بالتخفيف لا بالأصل، فلم يدخلوا فيه البتة، فالأحسن الجواب؛ بأنه عام في حقه وحقهم، والتخفيف أيضًا عام، وإنما صح النسخ في حق الأمة، لأن الإسلام يوجب على كل مسلم الدخول في فروعه وشرائعه، فكل من آمن في حياته عليه السلام آمن على أن ثم تكاليف، منها ما نزل مبينًا بكل وجه، وما نزل مجملاً من وجه مبينًا من وجه وما لم ينزل وسينزل، والتزام الإسلام شامل للجميع، فكما يجوز النسخ بعد البلاغ، وفيه نوع إجمال، كذلك يجوز قبل البلاغ، لأنه دخل عليه بالالتزام العام، ولا فرق بين إجمال وإجمال، وأكثر الفرائض إنما وجب مجملاً، ثم بين وقت الحاجة، كالصلاة والزكاة، لم يقترن بأول وجوبها، ذكر أعدادها، ولا أوقاتها، ولا شرائطها. انتهى ملخصًا.

(ولما رجع ﷺ من سفر الإسراء مر في بعض طريقه بعير:) بكسر العين، إبل بأحمالها **(لقريش، تحمل طعامًا، فيها جمل يحمل غرارتين:)** تثنية غرارة، وهي الجوالق (بجيم مضمومة فواو فألف فقاف)، الخرج، **(غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت،)** أي: دار بعضها ببعض من النفرة، **(وانصرع ذلك البعير)** وانكسر، رواه ابن أبي حاتم عن أنس.

(وفي رواية) له أيضًا، عنه: **(ومر بعير)** إبل، **(قد أضلوا بعيرًا،)** أي: واحدًا، وهو ناقة،

وفي رواية: ومر بعير قد أضلوا بعيرًا لهم قد جمعه فلان. قال ﷺ: فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتى محمد ﷺ مكة قبل الصبح وأخبر قومه بما رأى، وقال لهم: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيرًا لهم قد جمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم وعليه مسح أسود وغرارتان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل كما وصف عليه السلام.

وفي رواية للبيهقي: سألوه آية، فأخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا اللّٰه تعالى فحبس

والبعير يقع على الذكر والأنثى **(لهم، قد جمعه فلان،)** أي: أتى به.

قال المجد: الجمع، كالمنع تأليف المفترق، **(قال ﷺ: فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد،)** لأنه سلم عليهم، كما في الرواية، **(ثم أتى محمد)** ﷺ **(مكة قبل الصبح، وأخبر قومه بما رأى، وقال لهم: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا وكذا،)** أي: بالروحاء، كما في حديث أم هانيء، **(وقد أضلوا بعيرًا لهم قد جمعه فلان)** لرجل سماه، فنسي الراوي اسمه، **(وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم)** بضم الدال، كقوله تعالى: ﴿يقدم قومه﴾ [هود/٩٨]، والماضي بفتحتها **(جمل آدم،)** بفتح الهمزة، والمد، وفتح الدال، وأصله أأدم بهمزتين، أبدلت الثانية ألفًا، أي: شديد السواد، والناقة أدماء، كما في الصحاح، **(وعليه مسح أسود وغرارتان)**.

وفي رواية أبي يعلى: قالوا فأخبرنا عن عدتها وما فيها من الرعاة؟، قال: وكنت عن عدتها مشغولاً، ثم قام، فأتى الإبل، فعدها، وعلم ما فيها من الرعاة، ثم أتى قريشًا، فقال: هي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، فكان كما قال **(فلما كان ذلك اليوم)** الذي قال إنهم يأتون فيه، **(أشرف الناس ينظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار، أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل، كما وصف عليه السلام)**.

(وفي رواية للبيهقي) عن يونس بن بكير، وعن إسمعيل السدي **(سألوه آية، فأخبرهم بقدوم العير يوم الاربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا اللّٰه تعالى، فحبس الشمس حتى قدموا، كما وصف،)** وهو مخالف للرواية فوقه، أنها أقبلت قرب نصف النهار، ولا خلف، لأنه مر بعيرين، بل بثلاثة، فكان إحداها تأخرت.

الشمس حتى قدموا كما وصف.

وعن عائشة: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس كانوا آمنوا، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هلم إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: وقد قال ذلك: قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى

وقد روى الطبراني وابن مردويه عن أم هانيء، قالوا: أخبرنا عن عيرنا؟، فقال: أتيت على عير بني فلان بالروحاء، قد ضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، فليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فيها جمل عليه غرارتان، غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذيت العير نفرت، وصرع ذلك البعير وانكسر، ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمهم جمل أورق، عليه مسح أسود، وغرارتان سوداوان، وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية، فاستقبلوا الإبل، فقالوا: هل ضل لكم بعير؟، قالوا: نعم، فسألوا العير الآخر، فقالوا: هل انكسر لكم ناقة حمراء؟، قالوا: نعم، قالوا: فهل كان عندكم قصعة من ماء؟، فقال رجل: أنا والله وضعتها، فما شربها أحد منا، ولا أهريقت في الأرض.

زاد أبو يعلى وابن عساكر: فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد، فأنزل الله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء/٦٠].

(وعن عائشة لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس كانوا آمنوا،) لأنهم استبعدوا وقوع ذلك بالشقاوة التي كتبت عليهم.

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار بإسناد حسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى بي، وأصبحت بمكة مر بي عدو الله أبو جهل، فقال: هل كان من شيء؟، قلت: إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس، قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟، قلت: نعم، قال: فإن دعوت قومك أتحدثهم بذلك؟، قلت: نعم، قال: يا معشر بني كعب بن لؤي، فانقضت إليه المجالس، فقال: حدث قومك بما حدثتني، فحدثهم، فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبًا.

(وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، فقالوا: هلم إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: وقد قال ذلك، قالوا: نعم) وفي رواية ابن إسحٰق، فقال لهم أبو بكر: إنكم لتكذبون عليه، قالوا: بل ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس، **(قال: لئن قال ذلك لقد صدق،)** أي: لئن تحققتم قوله ذلك، فتحققوا أنه قد صدق، لأنكم تعلمون أنه لا يكذب، فأتى باللام، وقد زيادة في تحقق صدقه، **(قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى**

بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي الصديق. رواه الحاكم في المستدرك، وابن إسحٰق.

وزاد ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم، فقال: يا نبي الله صفه لي فإني قد جئته، قال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: فرفع لي المسجد حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، فيقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئًا.

وقول أبي بكر: صفه لي، لم يكن عن شك، فإنه صدقه من أول وهلة، ولكنه أراد إظهار صدقة عليه الصلاة والسلام لقومه، فإنهم كانوا يثقون بأبي بكر، فإذا طابق خبره عليه السلام ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم.

بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك،) وأزال توهم قصر البعد على الأرض بقوله، **(أصدقه في خبر السماء في غدوة)** (بضم الغين) ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، **(أو روحة:)** اسم للوقت من الزوال للمغرب، **(فلذلك سمي الصديق، رواه الحاكم في المستدرك)** من حديث عائشة، **(وابن إسحٰق)** من حديث الحسن البصري مرسلاً.

(وزاد: ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله أحدثت) (بهمزة الاستفهام وتاء الخطاب)، كما هو في ابن إسحٰق، **(هؤلاء)** القوم بـ **(أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟، قال: نعم)** حدثتهم **(فقال: يا نبي الله صفه لي، فإني قد جئته)**.

(قال الحسن) البصري: **(فقال رسول الله ﷺ: فرفع لي المسجد حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، فيقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئًا،)** قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله حتى انتهى، قال ﷺ: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذ سماه الصديق، وأنزل الله: ﴿وما جعلنا الرؤية﴾، الآية، هذا بقيته في ابن إسحٰق.

(وقول أبي بكر: صفه لي، لم يكن عن شك، فإنه صدقه من أول وهلة، ولكنه أراد إظهار صدقه عليه الصلاة والسلام لقومه، فإنهم كانوا يثقون،) بمثلثة من الوثوق **(بأبي بكر، فإذا طابق خبره عليه السلام ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم)**.

وفي رواية البخاري فجلى الله لي بيت المقدس أي كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته.

وفي رواية مسلم: فسألتني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كربًا شديدًا لم أكرب مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به.

فيحتمل أن يكون حمل إلى أن وضع بحيث يراه، ثم أعيد، ففي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه.

وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين.

(**وفي رواية البخاري**) ومسلم، كلاهما عن جابر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لما كذبني قريش قمت في الحجر، (**فجلى**) (بجيم وتخفيف اللام)، ولأبي ذر عن الكشميهني بتشديدها، (**الله لي بيت المقدس،**) فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه، هذا بقيته في البخاري ومسلم، وقوله: فجلى، (**أي: كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته،**) والمسجد في مكانه.

(**وفي رواية مسلم**) عن أبي هريرة، رفعه: لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، (**فسألتني عن أشياء**) من بيت المقدس (**لم أثبتها**)، أي: لم أعرفها حق المعرفة، (**فكربت**) (بضم الكاف وكسر الراء) من الكرب، وهو الغم الذي يأخذ النفس لشدته (**كربًا شديدًا،**) وفي رواية: كربة بضم الكاف وسكون الراء، (**لم أكرب مثله**) بتذكير الضمير عائدًا على معنى كربة على روايتها، وهو الغم والهم، أو الشيء (**قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم،**) أخبرتهم (**به، فيحتمل أن يكون حمل إليّ أن وضع بحيث يراه، ثم أعيد**).

(**ففي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل، فنعته وأنا أنظر إليه**).

قال الحافظ: وهذا يقتضي أنه أزيل من مكانه حتى أحضر إليه، وما ذلك في قدرة الله بعزيز، (**وهذا أبلغ في المعجزة**) من كشفه له عن المسجد، وهو في مكانه، (**ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين**) لسليمان.

وأما ما وقع في حديث أم هانيء عند ابن سعد: فخيل إلي بيت المقدس، وطفقت أخبرهم عن آياته، فإن ثبت احتمل أن يكون المراد مُثِل قريبًا منه، كما قيل في حديث: أريت الجنة والنار ويؤول قوله في حديث ابن عباس: جيء بالمسجد، أي جيء بمثاله.

وفي حديث أم هانيء المذكور: أنهم قالوا له: كم للمسجد من باب؟. قال: ولم أكن عددتها قال: فجعلت أنظر إليه وأعدها بابًا بابًا.

وعند أبي يعلى: إن الذي سأله عن صفة بيت المقدس وهو المطعم بن عدي، والد جبير بن مطعم.

(**وأما ما وقع في حديث أم هانيء عند ابن سعد: فخيل إليّ بيت المقدس، وطفقت**) (بكسر الفاء وسكون القاف) (**أخبرهم عن آياته:**) علاماته، (**فإن ثبت،**) لفظ خيل، زاد الحافظ: ولم يكن مغيرًا من قوله فجلى، (**احتمل أن يكون المراد مثل قريبًا منه، كما قيل في حديث: أريت الجنة والنار، ويؤول قوله في حديث ابن عباس: جيء بالمسجد، أي: جيء بمثاله،**) زاد الحافظ: ويؤيد الاحتمال الأول، أي: تفسير جلي، بكشف حديث شداد بن أوس عند البزار والطبراني، ففيه: ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر، فقال: أين كنت الليلة؟، قلت: إني أتيت بيت المقدس، فقال: إنه مسيرة شهر، فصفه لي، قال: ففتح إليّ شراك، كأني أنظر إليه، لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه.

(**وفي حديث أم هانيء المذكور أنهم قالوا له: كم للمسجد من باب؟، قال: ولم أكن عددتها، قال: فجعلت أنظر إليه وأعدها بابًا بابًا،**) أي: بعد باب.

(**وعند أبي يعلى**) من حديث أم هانيء؛ (**أن الذي سأله**) ﷺ (**عن صفة بيت المقدس هو المطعم بن عدي،**) الميت على كفره، (**والد جبير**) (بضم الجيم) (**ابن مطعم،**) النوفلي، الصحابي الشهير، ولا تنافي؛ فإنه سأله استمحانًا، وأبو بكر إرادة، لأن يصدقه قومه، وقد علم الصديق؛ أنه إن لم يكن أثبته تلك الليلة، فالله يطلعه عليه، ثم لا ينافي إسناد السؤال إلى المطعم رواية من روى أن الكفار قالوا: يا محمد صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه، وكيف هيئته، وكيف قربه من الجبل، فذهب ينعت لهم: بناءه كذا، وهيئته كذا، وقربه من الجبل كذا، فقال القوم: أما النعت، فوالله لقد أصاب لاحتمال أن المطعم هو الذي ابتدأ سؤاله من المشركين، كما أنه الذي تولى كبر التكذيب يومئذ.

روى أبو يعلى وغيره عن أم هانيء: أنه ﷺ لما أخبرهم بالإسراء إلى بيت المقدس

وأشار ابن أبي جمرة: إلى أن الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسري به إلى بيت المقدس. وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقي، فكان ذلك سببًا لقوة إيمان المؤمنين، وزيادة في شقاء من عاند وجحد من الكافرين، والله أعلم.

المقصد السادس

في ما ورد في آي التنزيل من عظيم قدره ورفعة ذكره، وشهادته له بصدق

ضجوا وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدي: كل أمرك قبل اليوم كان أممًا غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل مصعدًا شهرًا، ومنحدرًا شهرًا، تزعم أنك قد أتيته في ليلة، واللات والعزى لا أصدقك، فقال أبو بكر: يا مطعم بئس ما قلت، لابن أخيك جبهته، وكذبته، أنا أشهد أنه صادق.

(وأشار ابن أبي جمرة إلى أن الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند،) الذي يريد إخماد الحق، **(لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، حيث سألوه عن جزئيات)** تتعلق بالإسراء، وبينها بقوله **(من)** سؤالهم عن صفة **(بيت المقدس)** حتى أبوابه عن عدتها **(كانوا رأوها، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسري به إلى بيت المقدس،)** وإن أصروا على التكذيب فلمحض العناد، **(وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقي، فكان ذلك سببًا لقوة إيمان المؤمنين، وزيادة في شقاء من عاند وجحد من الكافرين،)** أصلاً وارتدادًا، وثم حكم أخر، ولا تتزاحم، **(والله أعلم)** بحقيقة الحكمة في ذلك، وقد اقتصر المصنف في الإسراء والمعراج على الزبد التي ذكرها، لأن مرامه الاختصار، وإلا فمعلوم ما فيه من التصانيف المبسوطة التي لو جمعت واختصرت كانت عدة أسفار كبار.

المقصد السادس

(في) بيان **(ما ورد في آي التنزيل من عظيم قدره)** بيان لما، أي: بيان مقداره وشرف رتبته **(ورفعة،)** أي: أعلاه، **(ذكره)** بين الناس بأمرهم بالثناء عليه فيه، وقرن اسمه باسمه محمد رسول الله، وجعل طاعته طاعته، من يطع الرسول فقد أطاع الله، وخطابه بألقاب يا أيها النبي، يا أيها الرسول، **(وشهادته له،)** أي: إخباره، والشهادة خبر قاطع، كما في القاموس **(بصدق نبوته،)**

نبوته، وثبوت بعثته، وقسمه تعالى على تحقيق رسالته، وعلو منصبه الجليل ومكانته، ووجوب طاعته، واتباع سنته، وأخذه تعالى له الميثاق على سائر النبيين فضلاً ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل وغير ذلك.

أي: بوجودها وتحققها في نفسها، لتحقق أنها وحي من الله، والمراد بصدقه عليه السلام في دعواها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا﴾ [البقرة/١١٩]، وقوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة/٦٧]، وقوله: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب/٤٠]، وقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾ [الأحزاب/٤٥]، فجعله شاهدًا على أمته بإبلاغهم الرسالة، وهذا من خصائصه، ومبشرًا لأهل الطاعة، ونذيرًا لأهل المعصية، وداعيًا إلى توحيد الله، وسراجًا منيرًا يهتدى به للحق، **(وثبوت بعثته)** كالدليل على تحقق نبوته، **(وقسمه تعالى على تحقيق رسالته)** بنحو: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ [يس/١]، **(وعلو منصبه:)** حسبه وشرفه **(الجليل)** العظيم، **(ومكانته:)** عظمته، يقال مكن فلان مكانة، بزنة ضخم ضخامة: عظم وارتفع، فهو مكين، أو استقامته، يقال الناس على مكانتهم، أي: على استقامتهم، **(ووجوب طاعته)** بنحو: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ [النساء/٥٩]، **(واتباع سنته)** طريقته بنحو قوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران/٣١]، وقوله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [آل عمران/٣١]، **(وأخذه تعالى له الميثاق على سائر)** أي: جميع **(النبيين فضلاً)** أي: إحسانًا **(ومنة)** أي: إنعامًا، **(ليؤمنن به إن أدركوه، ولينصرنه)** بقوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ [آل عمران/٨١]، **(والتنويه)** أي: الرفع والتعظيم **(به في الكتب السالفة)** بذكر اسمه، ونعته فيها **(كالتوراة والإنجيل)** كما في الصحيح عن عبد الله بن عمر؛ أنه ﷺ موصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾، الحديث في التنزيل عن الإنجيل، ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

وفي نسخ: والتوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام، تنبيهًا على عظم قدرهما حتى كأنهما نوع مغاير لما عطف عليه **(بأنه صاحب الرسالة والتبجيل)** متعلق بقوله، والتنويه به بعد تعلقه بالأول، والمعنى رفع ذكره؛ بأنه صاحب الرسالة، وهذا أظهر من كونه بدلاً منه **(وغير ذلك)**.

تمهيد

اعلم أطلعني الله وإياك على أسرار التنزيل، ومنحنا بلطفه تبصرة تهدينا إلى سواء السبيل، أنه لا سبيل لنا أن نستوعب الآيات الدالة على ذلك، وما فيها من التصريح والإشارة إلى علو محله الرفيع ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه، وكذلك الآيات التي فيها ثناؤه تعالى عليه وإظهاره عظيم شأنه لديه، وقسمه تعالى بحياته، ونداؤه بـ«الرسول» و«النبي» ولم يناد باسمه بخلاف غيره من الأنبياء، فناداهم بأسمائهم إلى غير ذلك مما يشير إلى أنافة قدره العلي عنده، وأنه لا مجد يساوي مجده. ومن تأمل القرءان العظيم وجده طافحًا بتعظيم الله تعالى

تمهيد

(**اعلم**) أمر يصدر به ما يعتنى به من الكلام، (**أطلعني الله وإياك على أسرار التنزيل**،) بمعنى المنزل، وهو القرآن، أو الكتب المنزلة، فيشمل جميعها، (**ومنحنا**:) وهبنا (**بلطفه تبصرة**،) أي: تنويرًا في قلوبنا، وهي رؤية الأشياء بعين البصيرة، بحيث لا يقتصر منها على رؤية ظاهرها، بل تعبر إلى ما يؤول إليه باطنها، كذا في لطائف الأعلام (**تهدينا إلى سواء السبيل**:) الطريق، ومعمول اعلم؛ (**أنه لا سبيل لنا أن نستوعب الآيات الدالة على ذلك، وما فيها من التصريح والإشارة**،) أي: من حيث دلالتها على ذلك، فلا ينافي أن الآيات الدالة محصورة معدودة في أنفسها، بل حروف القرآن كلها محصورة مضبوطة، واحتمال أن المراد بالآيات معناها اللغوي، وهو العلامات الدالة على نبوته وغيرها، مما ثبت له من الكمالات، مدفوع بأن الترجمة فيما ورد في آي التنزيل لا في مطلق العلامات، (**إلى علو محله الرفيع**،) أي: لشريف، (**ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه**،) كقوله: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ [الحجرات/١]، (**وكذلك الآيات التي فينا ثناؤه تعالى عليه، وإظهاره عظيم شأنه لديه**:) عنده، (**وقسمه تعالى بحياته**،) بقوله: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر/٧٢]، اتفق المفسرون على أنه قسم من الله بمدة حياته ﷺ، حكاه عياض، ومراده مفسر، والسلف، فإنه كما قال ابن القيم: لا يعرف بينهم في ذلك نزاع، ولم يوفق الزمخشري في قوله: إنه خطاب من الملائكة للوط، ويأتي إن شاء الله تعالى بسطه عند حكاية المصنف ذلك، (**ونداؤه بالرسول والنبي، ولم يناد باسمه بخلاف غيره من الأنبياء**،) (**فناداهم بأسمائهم**) يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا لوط، يا موسى، يا عيسى، (**إلى غير ذلك مما يشير إلى أنافة**،) أي: زيادة، (**قدره**) من أنافت الدراهم على مائة، زادت عليها (**العلي**) الرفيع (**عنده**) تعالى، (**وأنه لا مجد يساوي مجده**:) شرفه وكرمه في ذاته وأصوله، (**ومن تأمل القرآن العظيم وجده طافحًا**) ممتلئًا، أي:

لنبيه ﷺ. ويرحم الله ابن الخطيب الأندلسي حيث قال:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحًا ... كان القصور فصار كل فصيح

وهذا المقصد ـ أكرمك الله ـ يشتمل على عشرة أنواع:

النوع الأول

في ذكر آيات تتضمن عظم قدره ورفعة ذكره وجليل مرتبته وعلو درجته على الأنبياء وتشريف منزلته

قال الله تعالى: **﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله﴾** [البقرة/٢٥٣].

قال المفسرون: يعني موسى عليه الصلاة والسلام، كلمه بلا واسطة، وليس

دالاً دلالة ظاهرة بكثرة، بمعنى ناطقًا، فلذا عداه بالباء في قوله: (**بتعظيم الله تعالى لنبيه ﷺ، ويرحم الله ابن الخطيب**) أبا عبد الله محمد بن جابر (**الأندلسي، حيث قال: مدحتك آيات الكتاب**) كلها صريحًا، أو استلزامًا بذمها لمخالفه، ودلالتها على إكرامه بنزولها عليه مع اشتمالها على ما فات به غيرها من الكتب السماوية، (**فما عسى، يثني على علياك**) أي: شرفك، (**نظم مديحي**) أي: فأي: شيء يترجى به أن يليق الثناء به على شرفك التام بالنسبة لما أثنى الله عليك، (**وإذا كتاب الله أثنى مفصحًا**) عليك، (**كان القصور**) أي: العجز، (**فصار**): (بضم القاف)، أي: غاية (**كل فصيح**) أنه يعترف عن الإتيان ببعض وصافك، (**وهذا المقصد أكرمك الله**) جملة دعائية (**يشتمل على عشرة أنواع:**)

النوع الأول

في ذكر آيات تتضمن عظم قدره، ورفعة ذكره، وجليل مرتبته، وعلو درجته على الأنبياء، وتشريف منزلته) هي والرتبة متقاربان بمعنى علو القدر، (**قال الله تعالى: ﴿تلك﴾**) مبتدأ (**﴿الرسل﴾**) صفة والخبر (**﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾**) بتخصيصه بمنقبة ليس لغيره (**﴿منهم من كلم الله﴾** [البقرة/٢٥٣]).

(**قال المفسرون**) أي: جمهورهم: (**يعني موسى عليه الصلاة والسلام كلمه بلا واسطة**) وقيل: المصطفى كلمه ليلة المعراج، (**وليس نصًا في اختصاص موسى بالكلام**)

نصًا في اختصاص موسى بالكلام، وقد ثبت أنه تعالى كلم نبينا ﷺ أيضًا كما مر.

فإن قلت: إذا ثبت أنه عليه السلام كلمه ربه بلا واسطة وقام به هذا الوصف، فلمَ لم يشتق له من الكلام اسم الكليم، كما اشتق منه لموسى؟

أجيب: بأن اعتبار المعنى قد يكون لتصحيح الاشتقاق كاسم الفاعل فيطرد، بمعنى أن كل من قام به ذلك الوصف يشتق له منه اسم وجوبًا لملاحظة أن صحة استعماله بالنظر لمبدأ الإشتقاق دون غيره. وقد يكون للترجيح فقط، كالكليم والقارورة فلا يطرد، وحينئذ فلا يلزم في كل من قام به ذلك الوصف أن يشتق له منه اسم، كما حققه القاضي عضد الدين، وهذا ملخصه وتحريره، كما قاله

لأنه إنما قال منهم، فلا يفهم منه؛ أنه لم يكلم غيره، **(وقد ثبت أنه تعالى كلم نبينا أيضًا، كما مر،)** ليلة المعراج.

وقد قال السيوطي: من جملة من كلم من الأنبياء آدم، كما في الحديث، **(فإن قلت**[1]**إذا)** بمعنى حيث **(ثبت أنه عليه السلام كلمه ربه بلا واسطة، وقام به هذا الوصف، فلم لم يشتق له من الكلام اسم الكليم،)** بمعنى المكالم، كالجليس بمعنى المجالس، والأنيس بمعنى المؤانس، والنديم بمعنى المنادم، وهو كثير، **(كما اشتق منه لموسى، أجيب: بأن اعتبار المعنى قد يكون لتصحيح الاشتقاق، كاسم الفاعل)** مثل القائم والضارب، فيطرد بمعنى: أن كل من قام به ذلك الوصف يشتق له منه اسم، **(وجوباً لملاحظة أن صحة استعماله بالنظر لمبدأ الاشتقاق دون غيره، وقد يكون للترجيح فقط، كالكليم والقارورة، فلا يطرد)**، وحاصله مع الإيضاح، كما قال شيخنا: إن المشتق، وهو ما دل على ذات مبهمة، باعتبار حدث معين قد يكون اشتقاقه لما فهم فيه من المصدر الذي اشتق منه ذلك اللفظ، فلاحظ أن صحة استعماله بالنظر لمبدأ الاشتقاق دون غيره، فإذا اشتق على هذا الوجه وجب إطلاقه على كل ما صدق عليه الضارب والقائم، فإن كلاً منهما يصدق على من اتصف بالضرب والقيام، وقد يكون إطلاقه على معنى، وتخصيصه به؛ باعتبار أثر قام به حمل المستعمل على ملاحظته في أصل وضع اللفظ لذلك المعنى، فوضعه، وهذا من الأسماء المشبهة للصفات، وليس منها، والكليم من هذا النوع، فلا يلزم من إطلاقه على موسى لكلام الله إطلاقه على غيره ممن كلمه الله تعالى.

(وحينئذ، فلا يلزم في كل من قام به ذلك الوصف أن يشتق له منه اسم، كما حققه القاضي عضد الدين) عبد الرحمن بن أحمد إلا يجيء المحقق التحرير، يروي تصانيف

المولى سعد الدين التفتازاني.

وقوله: رفع بعضهم درجات يعني محمدًا ﷺ رفعه اللّٰه تعالى من ثلاثة أوجه:

بالذات في المعراج.

وبالسيادة على جميع البشر.

وبالمعجزات لأنه عليه الصلاة والسلام أوتي من المعجزات ما لم يؤت نبي قبله.

قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس، انتهى.

البيضاوي عن زين الدين الهنكي، عنه، وروى عنه محمد بن يوسف الكرماني، شارح البخاري، **(وهذا ملخصه وتحريره، كما قاله)** تلميذه **(المولى سعد الدين التفتازاني:)** بفتح الفوقيتين والزاي وسكون الفاء، نسبة إلى تفتازان: قرية بنواحي نسا، ولعل حكمة عدم إطلاقه على المصطفى مع ظهور دلالته على كلامه؛ أن قومه أنكروا الإسراء أصلاً، فلم يسم كليمًا حذرًا من إنكارهم، إذ سمعوه، وتكلمهم بما لا يليق في حقه، ولا دليل قطعي يرد عليهم، فاقتصر على ما ظهر لهم كالإسراء، فإنه وصف لهم بيت المقدس وغيره، فتحققوا صدقه وإن أنكروه عنادًا.

(وقوله: ورفع بعضهم درجات، يعني محمدًا ﷺ، رفعه اللّٰه تعالى من ثلاثة أوجه بالذات في المعراج،) إلى مقام لم يصل إليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، **(وبالسيادة على جميع البشر،)** لقوله: أنا سيد الناس يوم القيامة، **(وبالمعجزات، لأنه عليه الصلاة والسلام أوتي من المعجزات ما لم يؤت نبي قبله،)** قال عياض: ولأنه بعث إلى الأحمر والأسود، أي: لعموم بعثته.

(قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام) بقوله بعضهم، **(من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس،)** فهو وإن عبر عنه بالبعض المقتضى لإبهامه، معلوم متميز عن سائر من عداه، ومتعين فيه.

قال التفتازاني: في التعبير عنه باللفظ المبهم تنبيه على أنه من الشهرة بحيث لا يذهب الوهم إلى غيره في هذا المعنى، ألا ترى أن التنكير الذي يشعر بالإبهام كثيرًا ما يجعل علمًا على الإعظام والإفخام، فكيف اللفظ الموضوع لذلك. **(انتهى)** كلام الزمخشري، وقد أحسن فيه، لكنه أساء في قوله بعده، ويجوز أن يريد إبراهيم، أو غيره من أولي العزم من الرسل.

وقد بينت هذه الآية وكذا قوله تعالى: **﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾** [الإسراء/٥٥] أن مراتب الأنبياء والرسل متفاوتة، خلافًا للمعتزلة القائلين: بأنه لا فضل لبعضهم على بعض، وفي هاتين الآيتين رد عليهم: وقال قوم: آدم أفضل لحق الأبوة.

وتوقف بعضهم فقال: السكوت أفضل.

والمعتمد ما عليه جماهير السلف والخلف: أن الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض بشهادة هاتين الآيتين وغيرهما.

وقد قال بعض المحققين: لم يصب الزمخشري في تجويزه، أن المراد بالبعض غيره، لأن المستحق للتفضيل على الوجه المذكور هو أفضل الأنبياء بإجماع المسلمين، وتأييده بخبر ابن عباس تذاكرنا فضل الأنبياء، فذكرنا نوحًا، وإبراهيم، وموسى وعيسى، فقال ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يكون خيرًا من يحيى بن زكريا»، مدفوع بأن المراد؛ أن في كل نبي نوع فضيلة تخصه، فلا وجه لتخصيص بعضهم بالامتياز من تلك الجهة، فالمنفي في قوله لا ينبغي...الخ، الخيرية من جميع الوجوه.

(وقد بنيت هذه الآية، وكذا قوله تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾)، بتخصيص كل منهم بفضيلة، كموسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمد بالإسراء، وسليمن بالملك، **(أن مراتب الأنبياء والرسل،)** وفي نسخة: الرسل والأنبياء، أي: الذين ليسوا برسل، أو هو عطف عام على خاص، **(متفاوتة، خلافًا للمعتزلة القائلين؛ بأنه لا فضل لبعضهم على بعض، وفي هاتين الآيتين) ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾** [الإسراء/٥٥]، و﴿لقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾، **(رد عليهم)** على سبيل الصراحة،) وقال قوم: آدم أفضل لحق الأبوة،) وليس بشيء، لأنها بمجردها لا تقتضي فضله عليهم مطلقًا، وكم من فرع فضل أصله لخصوصيات شرف بها على الأصل، بل كثيرًا ما تشرف الأصول بفرعها:

وكم أب قد علا بابن ذوي شرف   كما علا برسول الله عدنان

(وتوقف بعضهم) لتعارض الأدلة عليه، **(فقال: السكوت أفضل)** لعدم القاطع عند ذا البعض، **(والمعتمد ما عليه جماهير السلف والخلف، أن الرسل أفضل من الأنبياء،)** لأن الرسالة تثمر هداية الأمة، والنبوة قاصرة على النبي، كالعلم والعبادة، خلافًا لمن قال: النبي أفضل، لأن النبوة الوحي بمعرفته تعالى وصفاته، فهي متعلقة به من طرفيها، والرسالة: الأمر بالتبليغ، فهي متعلقة به من أحد الطرفين، وأجيب بأنها تستلزم النبوة، فهي مشتملة عليها، لأنها كالرسول، وأخص من النبوة التي هي أعم، كالنبي.

قال بعض أهل العلم ـ فيما حكاه القاضي عياض ـ: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله تعالى به من كرامته واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه، انتهى.

فلا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأبهر وأكثر وأبقى وأقوى، ومنصبه أعلى ودولته أعظم وأوفر وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع

(**وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض بشهادة هاتين الآيتين وغيرهما، قال بعض أهل العلم**) بالكتاب والسنة، (**فيما حكاه القاضي عياض**) في الشفاء: (**والتفضيل المراد لهم هنا،**) عطف على مقدار وعلى ما تقدم، وهنا إشارة لما ذكر قبله (**في الدنيا،**) متعلق بالتفضيل، (**وذلك بثلاثة أحوال،**) وفي نسخة أوجه، (**أن تكون آياته ومعجزاته أظهر،**) وفي نسخة أبهر، أي: أقوى وأغلب من بهر ضوء القمر الكواكب عليها، أو هو بمعنى أظهر (**وأشهر،**) كانشقاق القمر، وانفلاق البحر، وانقلاب العصا حية، (**أو تكون**) بالنصب (**أمته أزكى:**) أتقى وأطهر لبعدهم عن التلبس بما لا يليق، (**وأكثر**) من غيرهم، (**أو يكون في ذاته أفضل،**) بزيادة علمه وخصاله المحمودة، (**وأظهر**) بمعجمة، أي: أشهر، وبمهملة أتقى وأنقى، (**وفضله في ذاته**) ونفسه (**راجع إلى ما خصه الله تعالى به من كرامته،**) أي: إكرام الله له بما آثر، ومناقب عظيمة وهبها له، (**واختصاصه**) بالجر معطوف على مدخول إلى (**من كلام**) بلا واسطة لموسى والمصطفى، وهو بيان لاختصاصه بمعنى ما خصه به، (**أو خلة**) لإبراهيم والمصطفى، (**أو رؤية**) عيانًا لنبينا ﷺ، (**أو ما شاء الله،**) أراده لهم غير ما ذكر (**من ألطافه:**) بفتح الهمزة، أي: عطاياه، (**وتحف**) بفاء، آخره (**ولايته،**) أي: تحف أولاها لهم، هكذا في الشفاء، بالفاء فقط، وفسرها شارحها بما ذكر.

وقال شيخنا: كان المراد بها ما ميز به تعالى ولايته عن ولاية غيره من الخواص والمزايا التي لم تثبت لغيره.

وفي بعض نسخ المصنف: وتحقق ولايته بقافين، أي: ثبوتها بلا ريبة ولا تردد، لكثرة الأدلة المثبتة لها، (**واختصاصه**) بما اختصهم به من قرة أعين لا يعلمها إلا هو. (**انتهى**).

(**فلا مرية**) (بالكسر)، لا شك (**أن آيات نبينا ومعجزاته أظهر وأبهر**) بموحدة، أغلب، (**وأكثر وأبقى**) بالموحدة، (**وأقوى:**) أشد، (**ومنصبه:**) حسبه وشرفه (**أعلى، ودولته أعظم وأوفر، وذاته أفضل وأظهر**) بالمهملة، (**وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من أن تذكر،**)

الأنبياء أشهر من أن تذكر، فدرجته أرفع من درجات المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين. وتأمل حديث الشفاعة في المحشر، وانتهائها إليه، وانفراده هناك بالسؤدد، كما قال ﷺ: أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة. رواه ابن ماجه. وفي حديث أنس عند الترمذي: أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر.

لكن هذا لا يدل على كونه أفضل من آدم، بل من أولاده، فالاستدلال بذلك على مطلق أفضليته عليه السلام على الأنبياء كلهم ضعيف.

فقد جمعت فيه الأحوال الثلاثة وزيادة، (**فدرجته أرفع من درجات المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين،**) إنسًا وملكًا، (**وتأمل حديث الشفاعة،**) إضافة لأدنى ملابسة لذكرها فيه (**في المحشر**) (بفتح الشين وكسرها)، (**وانتهائها إليه**) بعد تنصل رؤساء الأنبياء منها، (**وانفراده هناك بالسؤدد**)، أي: السيادة، (**كما قال ﷺ: أنا سيد ولد،**) يكون جمعًا، وواحدًا، والمراد الأول (**آدم، وأول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة،**) أي: أول من يعجل أحياؤه، مبالغة في إكرامه، وتخصيصًا بتعجيل جزيل إنعامه، (**رواه ابن ماجه**) محمد القزويني.

(**وفي حديث أنس عند الترمذي،**) مرفوعًا: أنا أول الناس خروجًا، إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، و (**أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي،**) إخبار بما منحه من السودد والإكرام، وتحدث بمزيد الفضل والإنعام (**ولا فخر،**) حال مؤكدة، أي أقول ذلك غير مفتخر به فخر تكبر، أتى به دفعًا لتوهم إرادة الافتخار به.

قال القرطبي: إنما قال ذلك، لأنه مما أمر بتبليغه لما يترتب عليه من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حق في نفسه، وليرغب في الدخول في دينه، ويتمسك به من دخل فيه، ولتعظم محبته في قلوب متبعيه، فتكثر أعمالهم وتطيب أحوالهم، ويحصل لهم شرف الدنيا والآخرة، لأن شرف المتبوع متعد لشرف التابع.

(**لكن هذا لا يدل على كونه أفضل من آدم، بل من أولاده، فالاستدلال بذلك على مطلق أفضليته عليه السلام على الأنبياء كلهم ضعيف،**) تبع التفتازاني في شرح العقائد، وقد تعقب بأن المراد سيد جنس الآدميين، فلا يخرج آدم، لأن المراد من ولد آدم كافة البشر، بدليل قوله في حديث أبي هريرة: أنا سيد الناس، وقوله في حديث أبي سعيد: آدم، فمن سواه إلا تحت لوائي، وقد لوح المصنف بعد قليل بمعنى هذا التعقب بقوله، وهذا يدل على أنه أفضل من آدم، وبأن دخول آدم أولوي لأن في ولده من هو أفضل منه، وبأن ذلك من الأسلوب العربي على

واستدل الشيخ سعد الدين التفتازاني لمطلق أفضليته عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران/١١٠] قال: لأنه لا شك أن خيرية الأمم بحسب كمالهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه.

واستدل له الفخر الرازي ـ في المعالم ـ بأنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿أولئك الذين هدا الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام/ ٩٠]، فأمره أن يقتدي بأثرهم، فيكون إتيانه به واجبًا، وإلا فيكون تاركًا للأمر، وإذا

حد ﴿اعملوا آل داود شكرًا﴾ [سبأ/ ١٣]، لدخول داود لزومًا، أو قصدًا، وعبر عنه بذلك لإرادة التنصيص على دخول آله معه.

(**واستدل الشيخ سعد الدين**) مسعود بن عمر بن عبد الله (**التفتازاني**) الشافعي، قال الحافظ في الدرر الكامنة: ولد سنة ست عشرة وسبعمائة، وأخذ عن القطب والعضد، وتقدم في الفنون، واشتهر ذكره وطار صيته، وله تصانيف انتفع بها الناس، مات بسمرقند سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، (**لمطلق أفضليته عليه الصلاة والسلام**) على جميع الأنبياء، (**بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** [آل عمران/١١٠]، **قال: لأنه لا شك أن خيرية الأمم بحسب كمالهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه**،) وهذا إنما ذكره التفتازاني سندًا للإجماع على فضل المصطفى، وتعقب، بأنه لا يصح سندًا له، لأن خيريتهم في الدنيا بزيادة نفعهم، للغير لحديث: «خير الناس أنفعهم للناس»، وهذا هو الظاهر لحديث البخاري، عن أبي هريرة، قال في الناس: ناس يأتون بهم والسلاسل في أعناقهم حتى يدخلون الإسلام، وخيريتهم في الآخرة، بكثرة ثوابه لحديث البخاري: لكم الأجر مرتين، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، والسر في ذلك؛ أنهم صدقوا الأنبياء كلهم بخلاف جميع الأمم، فإنما صدق كل منهم نبيه ومن قبله، كما نبه عليه ﷺ بقوله لهرقل: أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين.

قال الكرماني وغيره: مرة للإيمان بنبيهم، ومرة للإيمان بمحمد ﷺ، والخيرية بأحد هذين المعنيين للأمة لا تدل على أفضلية رسولهم. انتهى، وفيه تأمل.

(**واستدل له الفخر الرازي في المعالم**،) أي: معالم التنزيل، اسم تفسيره؛ (**بأنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة**) في سورة الأنعام، (**ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿أولئك الذين هدا﴾**) هم (**﴿الله، فبهداهم﴾**:) طريقهم التوحيد والصبر، (**﴿اقتده﴾**) (بهاء السكت) وقفًا ووصلاً، وفي قراءة بحذفها وصلاً، (**فأمره أن يقتدي بأثرهم، فيكون إتيانه به واجبًا، وإلا**

أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما كان متفرقًا فيهم، فيكون أفضل منهم. وبأن: دعوته عليه الصلاة والسلام في التوحيد والعبادة وصلت إلى أكثر بلاد العالم بخلاف سائر الأنبياء، فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء. انتهى.

وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا

فيكون تاركًا للأمر،) وهو محال، **(وإذا أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة، فقد اجتمع فيه ما كان متفرقًا فيهم، فيكون أفضل منهم،)** لأن الواحد إذا فعل مثل فعل الجماعة كان أفضل منهم، قيل عليه: لا شك أنه أفضل من كل واحد منهم، ومن الجميع أيضًا، لكن في هذا الدليل خفاء، لأنه لا يلزم من إتيانه بكل ما أتى به كل واحد منهم إلا مساواته للمجموع، لا أفضليته عليهم، وكأنه الداعي للعز بن عبد السلام على قوله: إنه أفضل من كل واحد منهم، لا من جميعهم، فتمالأ جماعة من علماء عصره على تكفيره، فعصمه اللّٰه، بل قد يتوقف في المساواة أيضًا، لأنك لو أنعمت على أربعة فأعطيت واحدًا دينارًا، وآخر دينارين، وآخر ثلاثة، وآخر أربعة، لزاد صاحب الأربعة على كل واحد دون جميع ما لغيره، ولو أعطيته ستة لساواهم، ولو أعطيته عشرة زاد عليهم، فينبغي أن يقال إنه ﷺ ساواهم في العمل، وزاد عليهم، بأنه أعلم منهم باللّٰه، وأكثر من جميعهم خصائص ومعجزات، وهذا التفضيل في القرب والمنزلة، وهو أكثر ثوابًا، وأمته أكثر من جميع الأمم، وأجرهم له إلى يوم القيامة، ولو كانت للناس مساكن بعضها فوق بعض، لكان الذي فوق الأخير أعلى من الجميع، وفي آية تلك الرسل إيماء لهذا، حيث أبهم وعبر برفع الدرجات دون أن يسميه، ويقول إنه أعظم وأفضل. انتهى.

(وبأن دعوته عليه الصلاة والسلام في التوحيد والعبادة، وصلت إلى أكثر بلاد العالم، بخلاف سائر الأنبياء، فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء. انتهى) استدلال الرازي.

(وقد روى الترمذي،) وقال: حسن صحيح، وأحمد وابن ماجه، وصححه الحاكم **(عن أبي سعيد الخدري، قال: قال ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة،)** خصه، لأنه يوم مجموع له الناس، فيظهر سودده لكل أحد عيانًا ووصف نفسه بالسودد، المطلق المفيد، للعموم في المقام الخطابي، فيفيد سيادته على جميع أولاد آدم حتى أولى العزم واحتياجهم إليه، وتخصيص ولد

تحت لوائي.

وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا ـ عند البخاري ـ: أنا سيد الناس يوم القيامة وهذا يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلام ومن كل أولاده بل أفضل من الأنبياء، بل أفضل الخلق كلهم.

وروى البيهقي في فضائل الصحابة، أنه ظهر علي بن أبي طالب من البعد، فقال ﷺ: هذا سيد العرب فقالت عائشة: ألست يا رسول الله بسيد العرب؟ قال: أنا سيد العالمين وهو سيد العرب. وهذا يدل على أنه ﷺ أفضل الأنبياء.

آدم ليس للاحتراز، فهو أفضل حتى من خواص الملائكة بإجماع من يعتد به، **(ولا فخر)** بل إنما قلته شكرًا، كقول سليمان: ﴿علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾، أي: لا أقوله تكبرًا وتعاظمًا على الناس في الدنيا، وإن كان فيه فخرًا الدارين، أولاً افتخر بذلك، بل فخري بمن أعطاني هذه الرتبة، **(وبيدي لواء)** بالكسر والمد، علم **(الحمد)** والعلم في العرصات مقامات لأهل الخير والشر، نصب في كل مقام لكل متبوع لواء، يعرف به قدره، وأعلى تلك المقامات مقام الحمد، ولما كان ﷺ أعظم الخلائق أعطى أعظم الألوية، لواء الحمد ليأوي إليه الأولون والآخرون، فهو حقيقي ولا وجه لحمله على لواء الجمال والكمال، **(ولا فخر)** لي بذلك فخر تكبرًا، ولا فخر بالعطاء، بل بالمعطي، **(وما من نبي)** يومئذ **(آدم، فمن سواه إلا تحت لوائي)**.

قال الطيبي: آدم فمن سواه اعتراض بين النفي والاستثناء، وآدم بالرفع بدل، أو بيان من محله، ومن موصولة، وسواه صلته، وصح، لأنه ظرف، وآثر الفاء التفصيلية في، فمن للترتيب على منوال الأمثل فالأمثل، وبقية هذا الحديث: وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع ولا فخر.

(وفي حديث أبي هريرة، مرفوعًا عند البخاري) ومسلم والترمذي وأحمد: **(أنا سيد الناس يوم القيامة،)** وهل تدرون مم ذلك؟، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فذكر حديث الشفاعة بطوله، **(وهذا)** المذكور من حديثي أبي سعيد وأبي هريرة، **(يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلام ومن كل أولاده، بل أفضل من الأنبياء،)** إضراب انتقالي لدفع توهم، أن المراد بأولاده من عد الأنبياء، **(بل أفضل الخلق كلهم)** لأنه من ناس، إذا تحرك، فشمل الملائكة حتى أمين الوحي بإجماع حتى من المعتزلة، وجهل الزمخشري مذهبه، كما حققه جماعة من المحققين.

(وروى البيهقي في فضائل الصحابة؛ أنه ظهر علي ابن أبي طالب من البعد، فقال ﷺ: هذا سيد العرب، فقالت عائشة: ألست يا رسول الله بسيد العرب؟، قال: أنا سيد

وقد روى هذا الحديث ـ أيضًا ـ الحاكم في صحيحه عن ابن عباس، لكن بلفظ: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب. وقال: إنه صحيح ولم يخرجاه.

وله شاهد من حديث عروة عن عائشة، وساقه من طريق أحمد بن عبيد عن ناصح قال حدثنا الحسين بن علوان ـ وهما ضعيفان ـ عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة بلفظ: ادعوا لي سيد العرب، قالت: فقلت يا رسول الله ألست سيد العرب؟ فقال: وذكره.

وكذا أورده من حديث عمر بن موسي الوجيهي ـ وهو ضعيف أيضًا ـ عن أبي الزبير عن جابر مرفوعًا: ادعوا لي سيد العرب فقالت عائشة: ألست سيد العرب وذكره.

العالمين، وهو سيد العرب، وهذا يدل على أنه ﷺ أفضل الأنبياء) والملائكة، لأن العالم ما سوى الله.

(وقد روى هذا الحديث أيضًا الحاكم في صحيحه) المستدرك من طريق أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، **(عن ابن عباس،)** مرفوعًا، **(لكن بلفظ: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب)**.

(وقال) الحاكم: **(إنه صحيح ولم يخرجاه،)** أي: البخاري ومسلم، مع أن إسناده على شرطهما، **(وله شاهد من حديث عروة)** بن الزبير، **(عن)** خالته **(عائشة، وساقه،)** أي: رواه الحاكم، **(من طريق أحمد بن عبيد بن ناصح،)** أبي جعفر النحوي، يعرف بأبي عصيدة، قيل: إن أبا داود حكى عنه، مات بعد السبعين ومائتين.

(قال: حدثنا الحسين بن علوان، وهما ضعيفان،) لكن اقتصر في التقريب على أن أحمد ابن عبيد، لين الحديث، **(عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة،)** مرفوعًا **(بلفظ: ادعوا لي سيد العرب، قالت)** عائشة: **(فقلت: يا رسول الله ألست سيد العرب؟، فقال: وذكره، وكذا أورده)** الحاكم **(من حديث عمر بن موسى الوجيهي:)** بفتح الواو وكسر الجيم، نسبة إلى وجيه، **(وهو ضعيف أيضًا عن أبي الزبير)** محمد بن مسلم المكي، **(عن جابر، مرفوعًا: ادعوا لي سيد العرب، فقالت عائشة: ألست سيد العرب، وذكره،)** ورواه أبو نعيم في الحلية عن الحسن بن علي، رفعه: ادع سيد العرب، يعني عليًا، فقالت له عائشة: ألست سيد العرب؟، فقال: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب.

قال شيخنا: وكلها ضعيفة. بل جنح الذهبي إلى الحكم على ذلك بالوضع. انتهى.

ولم يقل ﷺ: أنا سيد الناس عجبًا وافتخارًا على من دونه، حاشاه الله من ذلك، وإنما قاله إظهارًا لنعمة الله عليه، وإعلامًا للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه، لتعرف نعمة الله عليهم وعليه. وكذلك العبد إذا لاحظ ما هو فيه من فيض المدد، وشهده من عين المنة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين أنشأ له ذلك في قلبه سحائب النور، فإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه وامتلأ أفقه بها أمطرت عليه وابل الطرب مما هو فيه من لذيذ السرور، فإن لم يصبه وابل فطل، وحينئذ يجري على لسانه الافتخار من غير عجب ولا فخر، بل هو فرح بفضل الله

(قال شيخنا) السخاوي: **(وكلها ضعيفة، بل جنح:)** مال **(الذهبي إلى الحكم على ذلك بالوضع.)** انتهى، ولم يتبين لي ذلك، إذ ليس فيها وضاع ولا كذاب ولا متهم، والحاكم إنما أورد حديث عائشة من الطريقين، وإن كان فيهما ضعف، شاهد الحديث ابن عباس الذي صححه، لأن رواته من رجال الصحيح.

(ولم يقل ﷺ: أنا سيد الناس عجبًا وافتخارًا على من دونه) والفخر ادعاء العظم والمباهاة، **(حاشاه من ذلك)** إذ هو سيد المتواضعين، **(وإنما قاله إظهارًا لنعمة الله عليه)** لقوله: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ [الضحى/١١]، **(وإعلامًا للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه، لتعرف نعمة الله عليهم وعليه)** وليعتقدوا فضله على من سواه.

قال القرطبي: ولأنه مما أمر بتبليغه، لما يترتب عليه من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حق في نفسه، فإن قيل: هذا راجع للاعتقاد، فكيف يحصل القطع به من أخبار الآحاد، قلنا: من سمع شيئًا من هذه الأمور منه ﷺ مشافهة حصل له العلم به، كالصحابة، ومن لم يشافهه حصل له العلم به من طريق التواتر المعنوي، لكثرة أخبار الآحاد به.

(وكذلك العبد) أي: عبد من عباد الله الكاملين، **(إذا لاحظ ما هو فيه من فيض المدد، وشهده من عين المنة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، أنشأ له ذلك في قلبه سحائب النور)** وفي نسخة: السرور والنور أولى، **(فإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه، وامتلأ أفقه بها أمطرت عليه وابل: الطرب مما هو فيه من لذيذ السرور، فإن لم يصبه وابل)** مطر شديد، **(فطل)** مطر خفيف، والمعنى أنه يزكو وينمو، كثر المطر، أو قل، **(وحينئذ يجري على لسانه الافتخار من غير**

وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس/ ٥٨] فالافتخار على ظاهره، والافتقار والإنكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر، وإلى هذا المعنى يشير قول العارف الرباني سيد علي الوفائي في قصيدته التي أولها:

من أنت مولاه حاشا	علاه أن يتلاشى
والله يا روح قلبي	لا مات من بك عاشا
قوم لهم أنت ساقٍ	لا يرجعون عطاشا
لا قص دهر جناحا	له وفاؤك راشا
بك النعيم مقيم	لمن وهبت انتعاشا
ومن بحولك يقوى	لن يضعف الدهر جاشا
عبد له بك عز	فكيف لا يتحاشى
حاشا وفاؤك يرمي	من أنت مولاه حاشا

عجب ولا فخر، بل هو فرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قل بفضل الله ورحمته﴾ (**﴿فبذلك﴾**) الفضل والرحمة، (**﴿فليفرحوا﴾ فالافتخار**) كائن (**على ظاهره**) بحسب اللفظ، (**والافتقار والانكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر، وإلى هذا المعنى يشير قول العارف:**) هو من أشهده الحق نفسه، وظهرت عليه الأحوال والمعرفة حاله، هكذا ذكره الشيخ، فالعالم عنده أعلى مقامًا من العارف خلافًا للأكثرين، وقد قرر ذلك في الفتوحات ومواقع النجوم (**الرباني سيد علي الوفائي في قصيدته التي أولها: من أنت مولاه**) ناصره ومعينه (**حاشا، علاه**) رفعته (**أن يتلاشى:**) يخس بعد رفعته، (**والله يا روح**) حياة (**قلبي، لا مات من بك عاشا،**) بل يحيا حياة طيبة، (**قوم لهم أنت ساق، لا يرجعون عطاشا،**) بل على غاية من الري (**لا قص**) بمهملة ثقيلة (**دهر جناحًا، له وفائك راشا،**) أصلح حاله ونفعه، (**بك النعيم مقيم، لمن وهبت انتعاشًا،**) أي: رفعة وجبرًا وذكرًا حسنًا.

قال المجد: نعشه الله، كمنعه ورفعه، كأنعشه ونعشه، وفلانًا جبره بعد فقره، والميت ذكره ذكرًا حسنًا، (**ومن بحولك**) قوتك (**يقوى، لن يضعف الدهر**) بالنصب (**جاشا،**) أي: نفسًا.

قال المجد: الجأش نفس الإنسان، وقد لا يهمز (**عبد له بك عز**) قوة ومنعة، (**فكيف لا يتحاشى،**) يكرم ويعظم (**حاشا وفاؤك يرمي، من أنت مولاه حاشا،**) أي: تنزيهًا له أن يفعل

فإن قلت: ما الجمع بين هاتين الآيتين، وبين قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة/١٣٦].

ذلك (**فإن قلت: ما الجمع بين**) كل من (**هاتين الآيتين:**) ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ [البقرة/٢٥٣] الآية، و﴿لقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ [الإسراء/٥٥] الآية، فإن كلاً منهما صريح في التفضيل وعدم التفريق في قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ [البقرة/١٣٦] الآية، دال على التسوية، كجملة أحاديث، كما قال، (**وبين قوله تعالى**) خطابًا للمؤمنين: (**﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾**) من القرءان (**﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾**) من الصحف العشر، (**﴿وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب والأسباط﴾**) أولاد يعقوب، (**﴿وما أوتي موسى﴾**) من التوراة، (**﴿وعيسى﴾**) من الإنجيل، (**﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾**) من الكتب والآيات، (**﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾**) فنؤمن ببعض، ونكفر ببعض، كاليهود والنصارى، (**﴿ونحن له مسلمون﴾** [البقرة/١٣٦]، ؟) وأورد أن بين إنما تقع على اثنين، كجلست بين زيد وعمرو، وأحد في الآية مفرد، لأنه بمعنى واحد لا بعينه، فكيف صح دخول بين عليه، وأجيب بأنه باعتبار معطوف حذف لظهوره، أي: بين أحد منهم وبين غيره، وفيه دلالة صريحة على تحقيق عدم التفريق بين كل فرد منهم وبين من عداهم، كائنًا من كان، بخلاف ما لو قيل لا نفرق بينهم، وأجاب الكشاف؛ بأن أحد في معنى الجماعة بحسب الوضع.

قال التفتازاني: لأنه اسم لمن يصلح أن يخاطب، يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، ويشترط أن يكون استعماله مع كلمة كل، أو في كلام غير موجب، وهذا غير الأحد الذي هو أول العدد في مثل: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص/١]، قال: وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرة في سياق النفي على ما سبق إلى كثير من الأوهام، ألا ترى أنه لا يستقيم، لا نفرق بين رسول من الرسل، إلا بتقدير عطف، أي: رسول ورسول، وقال في: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾، من زعم أن معنى الجمع في أحد أنه نكرة في سياق النفي، فقد سها، وإنما معناه ما ذكر في كتب اللغة؛ أنه اسم لمن يصلح أن يخاطب، فحين أضيف بين إليه، أو أعيد ضمير جمع إليه، أو نحو ذلك، فالمراد به جمع من الجنس الذي يدل عليه الكلام، فمعنى: ﴿لا نفرق بين أحد﴾، بين جمع من الرسل، ومعنى: ﴿فما منكم من جماعة﴾، ومعنى: ﴿لستن كأحد﴾ [الأحزاب/٣٢] الآية، كجماعة من جماعات النساء، انتهى.

والحديث الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهودي وقال: أي خبيث، وعلى محمد؟

(**والحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: استب،**) أي: سب (**رجل من المسلمين،**) قال عمرو بن دينار: هو أبو بكر الصديق، أخرجه سفيان بن عيينة في جامعه، وابن أبي الدنيا في كتاب البعث، ويعكر عليه أن في رواية للشيخين من حديث أبي هريرة أيضًا، وأبي سعيد؛ أنه من الأنصار، إلا أن كان المراد، المعنى الأعم، فإن الصديق من أنصاره ﷺ، بل هو رأس من نصره ومقدمهم وسابقهم، قاله الحافظ في الفتح، زاد في المقدمة: أو يحمل، على تعدد القصة، لكن لم يسم من اليهود غير واحد.

(**ورجل من اليهود،**) أي: سب كل منهما الآخر بمعنى غيره، قال الحافظ: لم أقف على اسم هذا اليهودي، وزعم ابن بشكوال أنه فنحاص، وهو (بكسر الفاء وسكون النون ومهملتين)، وعزاه لابن إسحق، والذي ذكره ابن إسحق لفنحاص مع أبي بكر في لطمه إياه قصة أخرى في نزول قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير﴾ [آل عمران/١٨١]، (**فقال اليهودي في قسمه،**) أي: حلفه.

وفي رواية للشيخين عن أبي هريرة، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم وجه اليهودي.

وفي رواية لهما أيضًا: بينما يهودي يعرض سلعته أعطى فيها شيئًا كرهه، فقال: (**لا، والذي اصطفى موسى على العالمين،**) وفي رواية لهما على البشر، فقال ذلك ردًا على المسلم فيما قاله، وأكده بالقسم، (**فرفع المسلم يده**) عند ذلك، أي: سماعه قوله، لما فهمه من عموم لفظ العالمين، أو البشر، فدخل فيه محمد ﷺ، وقد تقرر عند المسلم أنه أفضل، وقد جاء ذلك مبينًا في حديث أبي سعيد أن الضارب قال له: أي خبيث أعلى محمد، فدل على أن لطمه عقوبة له على كذبه عنده، قاله الحافظ. (**فلطم اليهودي،**) وفي رواية لهما: فلطم وجه اليهودي وقال: أتقول هذا ورسول الله بين أظهرنا. وفي رواية للإمام أحمد: فلطم عين اليهودي، وقوله،(**وقال: أي خبيث**) (بفتح الهمزة وسكون الياء) حرف نداء، (**وعلى محمد،**) هذه الجملة أدخلها المصنف في حديث أبي هريرة، وليست منه، فقد أخرجه مسلم في الفضائل، والبخاري في الخصومات، والرقاق، والتوحيد وأحاديث الأنبياء مختصرًا ومطولاً، وليس فيه هذه الجملة، إنما هي عنده في مواضع عن أبي سعيد، قال: بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي

فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ واشتكى على المسلم فقال ﷺ: لا تفضلوني على الأنبياء وفي رواية لا تفضلوا بين الأنبياء.

وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: لا تخيروا بين الأنبياء.

وحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم مرفوعًا ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى.

وحديث أبي هريرة عند الشيخين، من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد

فقال: ضرب وجهي رجل من الأنصار، فقال: ادعوه، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث أعلى محمد ﷺ، فأخذتني غضبة ضربت وجهه، فقال: لا تخيروا بين الأنبياء.. الحديث، وأخرجه مسلم بنحوه.

وقد صرح الحافظ، كما رأيت؛ بأن هذه الجملة من حديث أبي سعيد، **(فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ واشتكى)** ضمنه معنى اعترض، فعده بقوله **(على المسلم)** وهذا نقل بالمعنى، وإلا فلم تقع هذه اللفظة في الصحيحين، لا في حديث أبي هريرة، ولا في حديث أبي سعيد.

ولفظ البخاري في الأشخاص في حديث أبي هريرة: فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ، فأخبر بما كان من أمره وأمر المسلم، وكذلك في أولى روايتيه في أحاديث الأنبياء.

ولفظه في الثانية: يا أبا القسم إن لي ذمة وعهدًا، فما بال فلان لطم وجهي، فقال: لم لطمت وجهه، فذكره، فغضب ﷺ حتى رؤي في وجهه، وكذا أخرجه مسلم في الفضائل باللفظين من طريق، **(فقال ﷺ: لا تفضلوني على الأنبياء)**.

(وفي رواية) لهما: **(لا تفضلوا بين الأنبياء)** وفي رواية: لا تخيروني على موسى، **(وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري)** في التفسير والتوحيد والخصومات، **(ومسلم)** في الفضائل: **(أنه ﷺ قال: لا تخيروا بين الأنبياء)** بأن تقولوا فلان خير من فلان، **(وحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم)** أيضًا في الفضائل، **(مرفوعًا: ما ينبغي)** ما يصح، ولا يجوز **(لعبد)** من عباد الله، **(أن يقول أنا خير من يونس)** يحتمل أن يكون رجوع أنا إلى القائل، وإلى النبي ﷺ.

قال الحافظ في التفسير: والأول أولى، لكنه قال في أحاديث الأنبياء: حديث عبد الله بن جعفر عند الطبراني: لا ينبغي لنبي أن يقول أن.. الخ، يؤيد رجوعها للنبي ﷺ، وللطبراني في

كذب.

أجاب العلماء: بأن قوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ يعني: في

حديث ابن عباس ما ينبغي لأحد، وللطحاوي: أنه سبح اللّه في الظلمات، فأشار إلى جهة الخيرية، انتهى.

(ابن متى) بفتح الميم، والفوقية الثقيلة، وألف مقصورة، وقع في تفسير عبد الرزاق أنه اسم أمه، ورده الحافظ بقوله في بقية هذا الحديث، ونسبه إلى أبيه، ففيه رد على من زعم أنه اسم أمه، وهو محكي عن وهب بن منبه، وذكره الطبري، وتبعه ابن الأثير في الكامل، والذي في الصحيح أصح، وقيل: سبب قوله ونسبه إلى أبيه؛ أنه كان في الأصل يونس ابن فلان، فنسيه الراوي، وكنى عنه بفلان، وذلك سبب نسبته إلى أمه، فقال الذي نسي يونس بن متى، وهي أمه، ثم اعتذر، فقال ونسبه، أي: شيخه إلى أبيه، أي: سماعًا، فنسيته، ولا يخفى بعد هذا التأويل، وتكلفه. انتهى، بل يرده ما في الثعلبي عن عطاء: سألت كعب الأحبار عن متى، فقال: هو أبو يونس، واسم أمه برورة، أي: صديقة بارة قانتة، وهي من ولد هٰرون. انتهى.

فقول السيوطي: التأويل عندي أقوى، وإن استبعده الحافظ، فيه نظر.

قال الحافظ: ولم أقف في شيء من الأخبار على اتصال نسبه، وقد قيل: إنه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس.

(وحديث أبي هريرة عند الشيخين: من قال أنا خير من يونس بن متى، فقد كذب) هذا لفظ البخاري في التفسير مختصرًا بلا واو أوله، فزيادتها في نسخ خطا، ولم يخرجه مسلم بهذا اللفظ.

وقد أحسن السيوطي، فعزاه في الزوائد للبخاري، والترمذي وابن ماجه.

نعم أخرجه مسلم والبخاري في آخر الحديث السابق، بلفظ: ولا أقول إن أحد أفضل من يونس بن متى، ورواه البخاري أيضًا مختصرًا، بلفظ: لا ينبغي للعبد أن يقول: أنا خير من يونس ابن متى.

وفي رواية مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال يعني اللّه،: لا ينبغي لعبد لي، وقال ابن المثنى: لعبدي أن يقول أنا خير من يونس بن متى، ومسلم رواه عن شيوخه ابن أبي شيبة، وابن بشار ومحمد بن المثنى، فلذا بين اختلاف لفظهم، فالأولان بلام، والثالث بدونها، والإضافة لياء المتكلم.

(أجاب العلماء؛ بأن قوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾، يعني في الإيمان، بما

الإيمان بما أنزل إليهم والتصديق بأنهم رسل الله وأنبياؤه، والتسوية بينهم في هذا لا تمنع أن يكون بعضهم أفضل من بعض.

وأجابوا عن الأحاديث بأجوبة.

فقال بعضهم: أن نعتقد أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الجملة. ونكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا، قال ابن ظفر: فإن أراد هذا القائل إنا نكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا فصحيح، وإن أراد أنا لا نذكر في ذلك ما فهمناه من كتاب الله وروي لنا من حديث رسول الله ﷺ فسقيم.

أنزل إليهم، والتصديق بأنهم رسل الله وأنبياؤه،) عطف عام على خاص، على أن الرسول أخص من النبي، ومرادف على تساويهما، وإن كلاً منهما إنسان أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه، أو المعنى التصديق بأن منهم رسلاً وأنبياء ليسوا برسل، **(والتسوية بينهم في هذا)** المذكور من الإيمان بما أنزل...الخ، **(لا تمنع أن يكون بعضهم أفضل من بعض،)** كما هو نص الآيتين بسبب خواص ترجح من قامت به على غيره بالنظر، لتلك الخصوصية.

(وأجابوا عن الأحاديث بأجوبة) سبعة أو ثمانية، **(فقال بعضهم: أن)** مخففة من الثقيلة، **(نعتقد)** بالرفع، أي: إنا نعتقد **(أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الجملة)** وجاز حذف اللام مما دخلت عليه لظهور المراد، كقوله: إن الحق لا يخفى على ذي بصيرة، ولكن عدم الفصل بينها وبين الفعل الغير الناسخ نادر، والمضارع أندر من الماضي، كما في: أن يزينك لنفسك وأن يشينك لهيه، ويحتمل قراءته بفتح الهمزة، **(ونكف:)** نمتنع **(عن الخوض في تفصيل:)** تبيين **(التفضيل بآرائنا،)** لأنه هجوم على عظيم.

(قال ابن ظفر: فإن أراد هذا القائل: إنا نكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا) المجردة عن فهم كتاب، أو سنة، **(فصحيح،)** وبهذا الإيراد إن هذا عين ما قاله ذلك البعض، فكيف يجعله احتمالاً فيه.

(وإن أراد أنا لا نذكر في ذلك ما فهمناه من كتاب الله، وروي لنا من حديث رسول الله ﷺ،) وهو رأى أيضًا، لكن في فهم الدليل من غير أن تكون دلالته عليه قطعية، **(فسقيم،)** أي: ضعيف، لأن الأخبار على غلبة الظن، وما أدى إليه الاجتهاد لا يمتنع، ومحصله أن التفضيل بالرأي: المحض مجمع على منعه، وبالدليل لا وجه لمنعه، وما أحسن اختصار الحافظ لهذا بقوله.

وقال آخر: نفضل من رفع اللّه درجته بخصائص الحظوة والزلفى، ولا نخوض في تفضيل بعضهم على بعض في سياسة المنذرين والصبر على الدين، والنهضة في أداء الرسالة، والحرص على هدى الضلاّل، فإن كلا منهم قد بذل في ذلك وسعه الذي لا يكلفه اللّه تعالى أكثر منه.

وقال الآخر ـ مما ذكره القاضي عياض ـ: إن نهيه عليه السلام عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف، وإن من فضل بلا علم فقد كذب.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وفي هذا نظر. انتهى.

قال العلماء: إنما نهى عن ذلك من يقوله برأيه، لا من يقوله بدليل.

(**وقال آخر: نفضل**،) أي: نعتقد فضل (**من رفع اللّه درجته**:) منزلته (**بخصائص الحظوة**:) بضم الحاء المهملة وكسرها ومعجمة، المحبة ورفع المنزلة، (**والزلفى**:) القربى، مصدر بمعنى التقريب، (**ولا نخوض**:) لا نتكلم (**في تفضيل بعضهم على بعض**،) عبر عن المتكلم بالخوض لما فيه من المشقة بلوم الدنيا، وعقوبة الأخرى.

وفي القاموس: خاض الماء دخله، والغمرات اقتحمها، (**في سياسة**) أمر ونهي (**المنذرين**) بفتح الذال، القوم الذين أرسلوا إليهم وبينوا لهم عواقب الفواحش، (**والصبر على الدين**،) أي: القيام به، وهو هنا ما شرع من الأحكام التي من جملتها: وجوب تبليغ ما أمروا به، ومنع المخالفين لهم، الخارجين عن الطاعة، (**والنهضة**،) أي: السرعة (**في أداء الرسالة، والحرص على هدى الضلال**:) بضم الضاد وشد اللام، جمع ضال، ويجوز فتحها، والتخفيف بتقدير أهل الضلال، والأول أولى، (**فإن كلاً منهم قد بذل في ذلك وسعه الذي لا يكلفه اللّه أكثر منه**)، لأنه ﴿لا يكلف اللّه نفسًا إلا وسعها﴾ [البقرة/٢٨٦].

(**وقال الآخر مما ذكره القاضي عياض**) في الشفاء: (**إن نهيه عليه السلام عن التفضيل كان قبل أن يعلم**،) بالبناء للفاعل، أو المفعول، أي: يعلمه اللّه، (**أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل، إذ يحتاج إلى توقيف**،) أي: إعلام به وأذن فيه، فلا يقدم عليه بالعقل، (**وإن من فضل بلا علم**،) بل بالرأي: المجرد، (**فقد كذب**،) لأنه لا يطابق ما في نفس الأمر، والجملة حالية، أو استئنافية فيه، مقوية لما قبلها.

(**قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وفي هذا**) الذي قاله الجماعة الآخرون (**نظر**.

ولعل وجه النظر من جهة معرفة المتقدم تاريخًا من ذلك. ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن وجه النظر ـ من جهة ـ أن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر، فيبعد أنه لم يعلمه بهذا إلا بعد هذا.

وقال آخر: إنما قاله ﷺ على طريق التواضع ونفي التكبر والعجب.

قال القاضي عياض: وهذا لا يسلم من الاعتراض.

وقيل: لا نفضل بعضهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغض منه.

انتهى. **ولعل وجه النظر من جهة معرفة المتقدم تاريخًا من ذلك**) يعني أنه يتوقف على العلم بتقدم النهي على العلم؛ بأنه سيد ولد آدم ولم يعلم التاريخ، أو فيه مضاف، أي: جهة جهل معرفة...الخ، (**ثم رأيت في تاريخ ابن كثير: أن وجه النظر من جهة، إن هذا من رواية أبي سعيد**) الخدري، (**وأبي هريرة**) الدوسي، (**وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر**) بالمعجمة وراء آخره، على الصواب في المحرم سنة سبع، ونسخة حنين تصحيف، (**فيبعد أنه لم يعلمه**) الله تعالى (**بهذا إلا بعد هذا**،) بل أعلمه فضله قبل ذلك.

قال السبكي: وفي حديث الإسراء ما يدل عليه. انتهى، ومن جملته قول إبراهيم: بهذا فضلكم محمد، (**وقال آخر: إنما قاله ﷺ على طريق التواضع**،) لين الجانب، وخفض الجناح، (**ونفي التكبر**) إظهارًا لعظمة، (**والعجب**:) بضم فسكون، استحسان النفس والمدح لها.

(**قال القاضي عياض: وهذا لا يسلم من الاعتراض**،) لأنه عد الإخبار بخلاف الواقع الذي هو كذب مذموم تواضعًا، قيل: ولأن نفي التكبر والعجب يقتضي ثبوتهما له، وأنه مع ما علم من حاله كيف يتوهم فيه ما لا يتوهم في صالحي أمته، ولا يخفى أنه اعتراض ساقط، فإن التواضع صفة محمودة، وهو من شأنه ﷺ، كذا في شرح الشفاء.

وقال شيخنا: لأنه ﷺ كثيرًا ما يفتخر من باب التحدث بالنعمة، بل المطلوب منه أن يظهر فضله لأمته، ليقوى إيمانهم به، ولئلا يجهلوا مقامه فيضلوا.

(**وقيل**:) مما ذكر عياض أيضًا: (**لا نفضل بعضهم تفضيلاً يؤدي**) بضم التحتية وفتح الهمزة وشد الدال، يجر ويوصل (**إلى تنقيص بعضهم**،) تفعيل من النقص، أي: يقتضي وصفهم بما فيه نقص، (**أو الغض منه**) بفتح الغين والضاد المعجمتين، أي: انتقاصه، كما في القاموس وغيره، فهو مساو لما قبله، ولا يصلح أنه عطف تفسير، لأنه إنما يكون بالواو إلا أن تكون، أو استعملت بمعنى الواو مجازًا، فعوملت معاملتها.

وقد ورد هذا الجواب؛ بأنه إن أريد مطلق النقص، فهذا لا يقوله مسلم، وإن أريد نقص

وقيل: منع التفضيل إنما هو في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها على حد واحد، لا تتفاضل. وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب، وأما النبوة نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخرى زائدة عليها، ولذلك كان منهم رسل وأولو عزم، انتهى، وهذا قريب من القول الثاني.

بعضهم عن بعض في الفضل، فلا معنى لأفعل التفضيل إلا ذلك.

(**وقيل:**) مما ذكره عياض أيضًا: (**منع التفضيل**) بين الأنبياء والرسل، (**إنما هو في حق النبوة والرسالة**) نفسهما لا الأنبياء والرسل، (**فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها**،) أي: النبوة (**على حد واحد**،) فرتبتها وقدرها متحد فيهم، إذ هي شيء واحد، (**لا تتفاضل**،) أي: لا يزيد بعضها على بعض، (**وإنما التفاضل في زيادة الأحوال**،) أي: العوارض الطارئة عليها، (**والخصوص**،) أي: ما خص به بعضهم دون بعض، (**والكرامات**) التي أكرم الله بها بعضهم، (**والرتب**) الدنيوية والأخروية، (**وأما النبوة نفسها فلا تتفاضل**).

قال السنوسي في شرح عقائده: ويدل عليه منع أن يقال لفلان النبي النصيب الأقل من النبوة، ولفلان النصيب الأوفر منها، ونحوه من العبارات التي تقتضي أن النبوة مقولة بالتشكيك، ولا شك أن امتناع ذلك معلوم من الدين بالضرورة بين السلف والخلف، فدل على أن حقيقة النبوة من المتواطىء المستوى إفراده، ولا يلتفت لمن خالف مقتضاه لوضوح فساده.

(**وإنما التفاضل بأمور أخرى زائدة عليها**) ليست من نفس حقيقتها، كما تبين، وفي ذكره ذلك في النبوة دون الرسالة إيماء إلى الفرق بينهما.

(**ولذلك**) المذكور من أن التفاضل لأمر زائد، (**كان منهم رسل وأولو عزم**،) أي: شدة وقوة وتصميم على تنفيذ ما يراد به وبغيره. (**انتهى، وهذا قريب من القول الثاني**،) وليس عينه لاختلاف ملحظهما.

وفي فتح الباري قال العلماء: إنما نهى ﷺ عن ذلك من يقوله برأيه، لا من يقوله بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل، بحيث لا يترك للمفضول فضيلة، فالإمام مثلاً إذا قلنا أنه أفضل من المؤذن لا يستلزم نقص فضيلة المؤذن بالنسبة إلى الأذان، وقيل: النهي إنما هو في حق النبوة نفسها لقوله: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾، ولم ينه عن تفضيل الذوات لقوله: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ [البقرة/٢٥٣].

وقال الحليمي: الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب،

وقال ابن أبي جمرة في حديث يونس: يريد بذلك نفي التكييف والتحديد على ما قاله ابن خطيب الري، لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس، لأن النبي ﷺ أسري به إلى فوق السبع الطباق، ويونس نزل به إلى قعر البحر، وقد قال ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وقال عليه السلام: آدم ومن دونه تحت لوائي، وقد اختص ﷺ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فهذه الفضيلة وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام: لا تفضلوني على يونس بن متى إلا بالنسبة إلى القرب من الله

وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين دينين لم يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الأزراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستندًا إلى مقابلة الفضائل ليحصل الرجحان، فلا يدخل في النهي، ثم قال، أعني في الفتح، في قوله: ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس.

قال العلماء: إنما قاله ﷺ تواضعًا، إن كان قاله بعد أن علم أنه أفضل الخلق، وإن قاله قبل علمه، فلا إشكال.

وقيل: خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة. انتهى، وذكرته برمته لحسن تلخيصه، وإن تكرر بعضه مع ما ذكره المصنف.

(وقال ابن أبي جمرة) بجيم وراء، **(في حديث يونس، يريد بذلك نفي التكييف والتحديد على ما قاله ابن خطيب الري،)** الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي، البكري، الطبرستاني، الرازي، بحر العلوم، ناصر السنة، الورع، الدين، صاحب التصانيف الكثيرة، تفقه على أبيه وغيره، ولد سنة ثلاث، وقيل: أربع وأربعين وخمسمائة، وتوفي بهراة يوم عيد الفطر يوم الاثنين سنة ست وستمائة، مر بعض ترجمته أيضًا، كان أبوه خطيبًا بالري: بفتح الراء وشد التحتية، مدينة مشهورة من أعلام البلاد، كانت أعظم من أصبهان والنسبة إليها بزيادة زاي، **(لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس، لأن النبي ﷺ أسري به إلى فوق السبع الطباق،)** أي: السموت، **(ويونس نزل به إلى قعر البحر، وقد قال ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة،)** خصه، لأنه يوم ظهور ذلك كل الظهور.

(وقال عليه السلام: آدم ومن دونه تحت لوائي،) فالمراد بولد آدم جنس البشر، كما تقرر، فدخل آدم، **(وقد اختص ﷺ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذه الفضيلة وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله عليه الصلاة**

سبحانه والبعد، فمحمد ﷺ وإن أسري به لفوق السبع الطباق واخترق الحجب، ويونس عليه الصلاة والسلام وإن نزل به لقعر البحر فهما بالنسبة إلى القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى على حد واحد. انتهى.

وهو مروي عن الإمام دار الهجرة لملك بن أنس وعزي نحوه لإمام الحرمين.

وقال ابن المنير: إن قلت إن لم يفضل على يونس باعتبار استواء الجهتين بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، فقد فضله باعتبار تفاوت الجهتين في تفضيل الحق فإنه تعالى فضل الملأ الأعلى على الحضيض الأدنى، فكيف لا نفضله عليه

والسلام: «لا تفضلوني على يونس بن متى»، إلا بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه والبعد، فمحمد ﷺ وإن أسري به لفوق السبع الطباق، واخترق الحجب، ويونس عليه الصلاة والسلام؛ وإن نزل به لقعر البحر، فهما بالنسبة إلى القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى على حد واحد. انتهى، وهو مروي عن الإمام دار الهجرة لملك بن أنس،) وهو حمل حسن لا يرد عليه شيء، **(وعزى نحوه لإمام الحرمين،)** أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني.

ذكر القرطبي في التذكرة: أن القاضي أبا بكر بن العربي، قال: أخبرني غير واحد أن إمام الحرمين سئل هل الباري في جهة؟، فقال: لا هو متعال عن ذلك، قيل: ما الدليل عليه، قال: قول النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى»، قيل: ما وجه الدليل منه؟، قال: لا أقول حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها دينًا، فقام رجلان، فقالا: هي علينا، فقال: لا يتبع بها اثنين، لأنه يشق عليه، فقال واحد: هي عليّ، فقال: إن يونس رمى بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت، وصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كما أخبر الله، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر، وارتقى به صعدًا حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله من يونس في ظلمة البحر، فالله سبحانه قريب من عباده، يسمع دعاءهم ولا يخفى عليه حالهم، كيفما تصرفت من غير مسافة بينه وبينهم. انتهى.

(وقال ابن المنير) في معراجه: **(إن قلت: إن لم يفضل)** نبينا ﷺ **(على يونس باعتبار استواء الجهتين بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، فقد فضله باعتبار تفاوت الجهتين في تفضيل الحق)** سبحانه، **(فإنه تعالى فضل الملأ الأعلى،)** أي: السموت **(على الحضيض الأدنى،)** أي: الأرض عند الأكثرين، لأنه لم يعص فيها، ومعصية إبليس لم تكن فيها، أو وقعت نادرة، فلم يلتفت إليها، وقيل: الأرض أفضل، لأنها مستقر الأنبياء ومدفنهم، ونسب للأكثر أيضًا،

الصلاة والسلام على يونس، فإن لم يكن التفضيل بالمكان فهو بالمكانة بلا إشكال.

ثم قال: قلت لم ينه عن مطلق التفضيل، وإنما نهى عن تفضيل مقيد بالمكان يفهم منه القرب المكاني فعلى هذا يحمل جمعًا بين القواعد، انتهى.

واختلف هل البشر أفضل من الملائكة؟

فقال جمهور أهل السنة والجماعة: خواص بني آدم، وهم الأنبياء، أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، والمقربون

وصحح الأول، ومحل الخلاف، كما قال السراج البلقيني: فيما عدا قبور الأنبياء فهي أفضل اتفاقًا.

(فكيف لا نفضله عليه الصلاة والسلام على يونس، فإن لم يكن التفضيل بالمكان، فهو بالمكانة) الرفعة وعلو المنزلة، **(بلا إشكال، ثم قال)** تلو هذا السؤال بلا فاصل **(قلت: لم ينه عن مطلق التفضيل، وإنما نهى عن تفضيل مقيد بالمكان يفهم منه القرب المكاني)** الذي يتعالى الله عنه، **(فعلى هذا يحمل جمعًا بين القواعد. انتهى.)** وهو في معنى ما قال إمام الحرمين ومالك وغيرهما.

(و) قد **(اختلف)** في جواب قول السائل: **(هل البشر أفضل من الملائكة)** أم الملائكة أفضل، ثالثها الوقف واختاره الكيا الهراسي، ومحل الخلاف في غير نبينا ﷺ أما هو فأفضل الخلق إجماعًا، لا يفضل عليه ملك مقرب ولا غيره، كما ذكره الرازي، وابن السبكي، والسراج البلقيني، والزركشي، وما في الكشاف من تفضيل جبريل.

قال بعض المغاربة: جهل الزمخشري مذهبه، فإن المعتزلة مجمعون على تفضيل المصطفى، نعم قيل: إن طائفة منهم خرقوا الإجماع، كالرماني، فتبعهم.

(فقال جمهور أهل السنة والجماعة: خواص بني آدم، وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة،) واختاره الإمام فخر الدين في الأربعين.

وفي المحصل قال ابن المنير: وفضلهم باعتبار الرسالة والنبوة لا باعتبار عموم الأوصاف البشرية بمجردها، وإلا لكان كل البشر أفضل من الملائكة، معاذ الله.

وذكر الإمام فخر الدين: أن الخلاف في التفضيل بمعنى أيهما أكثر ثوابًا على الطاعات، ورد بذلك احتجاج الفلاسفة على تفضيل الملائكة بأنها نورانية علوية، والجسمانية ظلمانية سفلية، وقال: هذا لم يلاق محل النزاع، وبهذا يزول الإشكال في المسألة، **(وهم جبريل**

والكروبيون والروحانيون. وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم ـ قال التفتازاني: بالإجماع بل بالضرورة ـ وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة. فالمسجود له أفضل من الساجد، فإذا ثبت تفضيل الخواص على الخواص لآدم ثبت تفضيل العوام على العوام، فعوام الملائكة خدم عمال الخير، والمخدوم له

وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل) ملك الموت، **(وحملة العرش،)** وهم أربعة، أو ثمانية، تقدم تحريره في المعراج، **(والمقربون والكروبيون)** بفتح الكاف وخفة الراء، كما مر، **(والروحانيون)** بضم الراء وفتحها، أما الضم فلأنهم أرواح ليس معها ماء ولا نار ولا تراب، ومن قال هذا قال: الروح جوهر، ويجوز أن يؤلف الله أرواحًا، فيجسمها ويخلق منها خلقًا ناطقًا عاقلاً، فيكون الروح مخترعًا، والتجسيم بضم النطق والعقل إليه حادثًا من بعد، ويجوز أن أجساد الملائكة على ما هي عليه اليوم مخترعة، كما اخترع عيسى وناقة صالح. وأما الفتح، فبمعنى أنهم ليسوا محصورين في الأبنية والظلل، ولكنهم في فسحة وبساط، وقيل: ملائكة الرحمة روحانيون بفتح الراء، وملائكة العذاب الكروبيون من الكرب، قاله الحليمي والبيهقي.

(وخواص الملائكة،) وهم المذكورون **(أفضل من عوام بني آدم،)** يعني أولياء البشر، وهم من عدا الأنبياء، كما في الحبائك، أي: الصلحاء، كما يأتي.

(قال التفتازاني: بالإجماع، بل بالضرورة،) لعصمتهم جميعهم.

قال السيوطي: لكن رأيت لطائفة من الحنابلة؛ أنهم فضلوا أولياء البشر على خواص الملائكة، وخالفهم ابن عقيل من أئمتهم، وقال: إن ذلك شناعة عظيمة عليهم، **(وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة،)** وهم غير خواصهم في أحد القولين، وجزم به الصفار والنسفي، كلاهما من الحنفية.

وذكر البلقيني: أنه المختار عند الحنفية، ومال إلى بعضه، وهو أنه قد يوجد من أولياء البشر من هو أفضل من غير الخواص من الملائكة، وذهب الأكثرون إلى تفضيل جميع الملائكة على أولياء البشر، وجزم به ابن السبكي في جمع الجوامع، وفي منظومته، فذكر المصنف ثلاث صور استدل لها بقوله:

(فالمسجود له أفضل من الساجد،) وهو الملائكة، أي: أن مجموع البشر أفضل من مجموع الملائكة، كما أشار له بقوله، **(فإذا ثبت تفضيل الخواص،)** وهم الأنبياء، **(على الخواص)** من الملائكة بالسجود **(لآدم، ثبت تفضيل العوام على العوام،)** وهذا صريح في تفضيل المجموع، وأورد الرازي في الأربعين: لم لا يقال السجدة كانت لله وآدم، كالقبلة سلمنا أنها لآدم، لكن لم لا يكون من السجود التواضع والترحيب، سلمنا أنها وضع الجبهة على

فضل على الخادم، ولأن المؤمنين ركب فيهم الهوى والعقل، مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى ولا سبيل للشيطان عليهم.

فالإنسان ـ كما قاله في شرح العقائد ـ يحصل الفوائد والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات، ولا شك أن العبادة وكسب الكمال مع

الأرض، لكنها قضية عرفية، يجوز أن تختلف باختلاف الأزمنة، فلعل عرف ذلك الوقت؛ أن من سلم على غيره وضع جبهته على الأرض، وتسليم الكامل على غيره أمر معتاد، قال: والجواب عن الأسئلة الثلاثة أن ذلك السجود، لو لم يدل على زيادة منصب المسجود له على الساجد لما قال إبليس: أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ، فإنه لم يوجد شيء آخر يصرف هذا الكلام إليه سوى هذا السجود، فدل على اقتضائه ترجيح المسجود له على الساجد.

(فعوام الملائكة خدم عمال الخير،) وهم صلحاء المؤمنين، **(والمخدوم له فضل على الخادم،)** وهذا استدلال للصورة الثالثة، وعطف على، فالمسجود له أفضل من الساجد باعتبار المعنى، أي: فبنو آدم من حيث هم أفضل، لأن هذا النوع مسجود له في الجملة، **(ولأن المؤمنين)** من حيث هم **(ركب فيهم الهوى)** بالقصر، أي: الميل إلى الشيء، ثم استعمل في الميل المذموم نحو: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك﴾، **(والعقل)** عبر به دون الشهوة، وإن كان أظهر في بيان المشقة الحاصلة للمؤمنين في العبادة، لبيان ما حصل به الاشتراك بين الآدمي والبشر، وقد أوضح ذلك الفخر في الأربعين، فقال: الملائكة لهم عقول بلا شهوة، والبهائم لهم شهوة بلا عقل، والآدمي له عقل وشهوة، فإن رجحت شهوته على عقله كان أخس من البهيمة، قال تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ [الأعراف/١٧٩]، فقياسه لو رجح عقله على شهوته وجب أن يكون أفضل من الملك. انتهى.

وذكر نحوه البيهقي، وزاد: ألا ترى من ابتلى من الملائكة بالشهوة كيف وقع في المعصية، وذكر قصة هاروت وماروت، وساقها من ثلاثة طرق، فكان المصنف عبر عن الشهوة بالهوى لتسببه عنها، **(مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى،)** لعدم الشهوة، **(ولا سبيل للشيطان عليهم)** لعصمتهم، فهذه الآفة غير حاصلة للملائكة، **(فالإنسان، كما قاله)** التفتازاني **(في شرح العقائد)** للنسفي، **(يحصل الفوائد والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة، والغضب، وسنوح الحاجات،)** أي: ظهورها وعروضها **(الضرورية)** التي لا بد منها، **(الشاغلة عن اكتساب**

الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الإخلاص فيكون أفضل.

والمراد بعوام بني آدم ـ هنا ـ الصلحاء لا الفسقة، كما نبه عليه العلامة كمال الدين بن أبي شريف المقدسي، قال: ونص عليه البيهقي في الشعب وعبارته: قد تكلم الناس قديمًا وحديثًا في المفاضلة بين الملائكة والبشر، فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من

الكمالات) من علم وعمل، ومع ذلك يحصلهما، **(ولا شك أن العبادة وكسب الكمال مع الشواغل والصوارف،)** أي: الموانع، وهي لازمة للشواغل، وكأنه جمع صارف أو صارفة، أي: أمر صارف، أو خصلة صارفة، لأن فواعل يجمع قياسًا على فاعل وفاعلة، والمسموع صروف كفلس وفلوس على ما في المصباح.

(أشق وأدخل في الإخلاص، فيكون) الإنسان **(أفضل.)** وفي الأربعين: لأن طاعة البشر أشق، لأن الشهوة والغضب والحرص والهوى من أعظم الموانع عن الطاعات، وهذه صفات موجودة في البشر، مفقودة في الملائكة، والفعل مع المانع أشق منه مع غير المانع، ولأن تكاليف الملائكة مبنية على النصوص، قال تعالى: ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ [الأنبياء/٢٧]، وتكاليف البشر بعضها مبني على النصوص، وبعضها على الاستنباط، قال تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ [الحشر/ ٢]، وقال تعالى: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء/٨٣]، والتمسك والاجتهاد والاستنباط في معرفة الشيء أشق من التمسك بالنص، والأشق أفضل نصًا وقياسًا، أما النص، فقوله ﷺ: «أجرك على قدر نصبك»، وحديث: «أفضل العبادات أحمزها»، أي: أشقها، وأما القياس، فلو اشتركت الطاعات السهلة والشاقة في الثواب لخلا تحمل الشاقة، عن الفائدة، وتحمل الضرر الخالي عن الفائدة محظور قطعًا، فكان يجب حرمة الشاقة فلما لم يكن كذلك علم أن الأشق أكثر ثوابًا.

(والمراد بعوام بني آدم هنا) في هذا المبحث **(الصلحاء،)** لا ما اشتهر أنهم مقابل العلماء، وما في الأصول؛ أنهم خلاف المجتهدين **(لا الفسقة،)** جعلهم في مقابلة الصلحاء، يقتضي أن كل من لم يرتكب كبيرة، ولم يصر على صغيرة من صلحاء المؤمنين، وإن لم يصل درجة الأولياء، وهو قد ينافي تعريف الولي بالقائم بحق الله والعباد، لكن من هذه صفته قليل.

(كما نبه عليه العلامة كمال الدين بن أبي شريف المقدسي، قال: ونص عليه البيهقي في الشعب، وعبارته: قد تكلم الناس قديمًا وحديثًا في المفاضلة بين الملائكة والبشر:) الإنسان سمي به لظهور بشرته، يطلق على الإنسان واحده وجمعه، وقد يثنى ويجمع على الإبشار، كما في القاموس، **(فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر)** الذين يدعون الناس

الأولياء من الملائكة. انتهى.

وذهبت المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة. وهو اختيار القاضي أبي بكر بن الباقلاني، وأبي عبد الله الحليمي، وتمسكوا بوجوه:

الأول: أن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالعقل مبرأة عن مبادىء الشرور والآفات كالشهوة والغضب، وعن ظلمات الهيولي والصورة، قوية على الأفعال

إلى الحق، ويبلغونهم ما نزل إليهم، (**أفضل من الرسل من الملائكة**) وهم الذين يتوسطون بين الله وبين الأنبياء، فهم رسل بالمعنى اللغوي، كقوله: ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ [فاطر/١]، أما الاصطلاحي، وهو إنسان حر ذكر، أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه، فلا يكونون رسلاً، إذ لا شيء من الملائكة بإنسان، (**والأولياء من البشر**).

قال السيوطي: وهم من عدا الأنبياء.

(**أفضل من الأولياء من الملائكة**) وهم من عد خواصهم، كما أفاده السيوطي. (**انتهى**) كلام البيهقي.

وإنما يوافق دعواه بتأويل أولياء البشر بالصلحاء الذين لا كبيرة لهم ولا إصرار على صغيرة، لا بما عرفه التفتازاني؛ أنه العارف بالله، وصفاته حسبما يمكنه المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات، (**وذهبت المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة**) أي: أهل السنة، كأبي إسحق الإسفرايني، والحاكم أبي عبد الله، (**إلى تفضيل الملائكة، وهو اختيار القاضي أبي بكر**) محمد بن الطيب (**بن الباقلاني**) بتخفيف اللام والنون، نسبة إلى بيع الباقلاء، (**وأبي عبد الله الحليمي**) واختاره أيضًا الإمام فخر الدين في المعالم، وأبو شامة.

قال البيهقي: وأكثر أصحابنا ذهبوا إلى القول الأول، والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به. انتهى.

(**وتمسكوا بوجوه**) نحو عشرين، اقتصر منها على أربعة: (**الأول:**) وهو أضعفها، (**أن الملائكة أرواح مجردة**).

قال الآمدي: هذا غير مسلم، بل أجسام ذات أرواح، والتفاوت في هذا المفهوم ليس بمسلم، (**كاملة بالعقل**) بمعنى أنها (**مبرأة عن مبادىء الشرور والآفات، كالشهوة والغضب**) والخيال والوهم، (**وعن ظلمات الهيولي**).

قال المجد: القطن، وشبه الأوائل طينة العالم به، أو هو في اصطلاحهم موصوف بما يصف به أهل التوحيد الله تعالى، أنه موجود بلا كمية وكيفية، ولم يقترن به شيء من سمات

العجيبة عالمة بالكوائن ماضيها وآتيها من غير غلط.

والجواب: أن مبنى ذلك على الأصول الفلسفية دون الأصول الإسلامية.

الثاني: أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر يتعلمون ويستفيدون منهم بدليل قوله تعالى: ﴿**علمه شديد القوى**﴾ [النجم/٥] وقوله تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين على قلبك**﴾ [الشعراء/١٩٣] ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم.

والجواب: أن التعليم إنما هو من الله والملائكة إنما هم مبلغون.

الحدث، ثم حلت به الصفة، واعترضت به الأعراض، فحدث منه العالم، (**والصورة**) قالوا: وهذه الصفات هي الحجب القوية عن تجلي نور الله، ولا كمال إلا بحصول ذلك التجلي، ولا نقص إلا بحصول ذلك الحجاب، فلما كان هذا التجلي حاصلاً لهم أبدًا، والأرواح البشرية محجوبة عن ذلك التجلي في أكثر الأوقات، علم أنه لا نسبة لكمالهم إلى كمال البشر، والقول؛ بأن الخدمة مع كثرة العوائق أعلى منها بلا عوائق، كلام خيالي، لأن المقصود من جميع العبادات والطاعات حصول ذلك التجلي، فأي: موضع كان فيه التجلي أكثر، وعن المعاوق أبعد كان فيه الكمال والسعادة أتم، ولذا قال تعالى في الملائكة: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [الأنبياء/ ٢٠]، (**قوية على الأفعال العجيبة**،) لا تستثقل حمل الأثقال، ولا تستصعب نقل الجبال، والرياح تهب بتحريكها، والسحاب تعرض وتزول بتصرفاتها، والزلازل تطوى بقوتها، (**عالمة بالكوائن، ماضيها وآتيها من غير غلط**،) لأنهم ناظرون إلى اللوح المحفوظ أبدًا، فيعلمون ما وجد في الماضي، وما سيوجد في المستقبل، (**والجواب أن مبني ذلك**) الذي احتجوا به (**على الأصول الفلسفية**) إذ هم القائلون؛ بأنهم أرواح مجردة، (**دون الأصول الإسلامية**،) القائلين بأنهم أجسام ذات أرواح، والتفاوت في هذا غير مسلم عندنا.

وأما في باقي الصفات المذكورة، فغير مسلمة على ما عرف من أصولنا، قاله الآمدي.

(**الثاني: أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر**) باتفاق الفريقين، (**يتعلمون ويستفيدون منهم بدليل قوله تعالى: ﴿علمه شديد القوي﴾** [النجم/٥]،) أي: جبريل، (**وقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾** [البقرة/٣١]، **ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم، والجواب أن التعليم إنما هو من الله، والملائكة إنما هم مبلغون**،) فلا يلزم تفضيلهم على الأنبياء، لأن مجرد كونهم وسائط في التبليغ لا يقتضي التفضيل، ألا ترى أن السلطان لو أرسل إلى الوزير مثلاً رسالة مع بعض أتباع السلطان، لا يلزم منه أن الرسول أفضل من الوزير، ولا مساو له، ولا يلزم أيضًا كون المعلم أعلم، كما ادعوه.

قال الآمدي: آدم كان أعلم منهم، لقوله: ﴿وعلم آدم الآسماء كلها﴾، الآيات، والمراد

الثالث: أنه اطرد في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على ذكر الأنبياء، وما ذاك إلا لتقدمهم في الشرف والرتبة.

والجواب: أن ذلك لتقدمهم في الوجود، أو لأن وجودهم أخفى فالإيمان بهم أقوى وبالتقديم أولى.

الرابع: قوله تعالى: ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا للّه ولا الملائكة المقربون**﴾ [النساء/١٧٢]، فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة من عيسى، إذ القياس في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان، ولا يقال: السلطان ولا الوزير. ثم لا

أصحاب الأسماء، وهي المسميات لقوله: ﴿ثم عرضهم﴾، ولو أراد الأسماء لقال: ثم عرضها، كما قاله ثعلب، ولو سلم أنهم أعلم، فإنما يدل على اختصاصهم بالأعلمية، ولا يلزم أن يكونوا أفضل عند اللّه، بمعنى أكثر ثوابًا وأرفع درجة.

(**الثالث: أنه اطرد في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على الأنبياء**،) كقوله: ﴿**كل آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله اللّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾ [الحج/٧٥]، (**وما ذاك إلا لتقدمهم في الشرف والرتبة**،) لأن العرف شاهد بفضيلة المتقدم في الذكر، والأصل تنزيل الشرع عليه، ويدل عليه قول عمر للقائل:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا   لو قدمت الإسلام لأعطيتك

(**والجواب: أن ذلك لتقدمهم في الوجود**،) لا للدلالة على الفضيلة، بدليل أنه تعالى قدم ذكرهم على كتبه، والكتب على الرسل، والكتب إن كانت هي الكلام القديم النفساني، فهي أفضل من الملائكة، وإن كانت العبارات والكتابات الدالة، فالرسل أفضل منها باتفاق، وقد أخر الرسل عنها في الذكر، قاله الآمدي. (**أو لأن وجودهم أخفى**) لعدم رؤيتنا لهم، ولذا استدلوا على وجودهم بالأدلة السمعية، كذكرهم في الكتب السماوية، وأخبار الأنبياء بهم، (**فالإيمان بهم أقوى، وبالتقديم أولى**،) لأن اللّه أثنى على الذين يؤمنون بالغيب، أي: بما غاب عنهم.

(**الرابع: قوله تعالى: ﴿لن يستنكف**،) يتكبر ويأنف (**المسيح**،) الذي زعمتم أنه إله عن (**أن يكون عبداً للّه ولا الملائكة المقربون﴾**) [النساء/١٧٢]، عنده، أن يكونوا عبيد اللّه، (**فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة من**) أي: على (**عيسى، إذ القياس في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: لا يستنكف من هذا الأمر الوزير، ولا السلطان، ولا يقال السلطان ولا الوزير**،) إذ لا يحسن ذلك لاقتضائه زيادته على السلطان، ولا كذلك، فدل

قائل بالفرق بين عيسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

والجواب: أن النصارى استعظموا المسيح بحيث يرتفع من أن يكون عبدًا من عباد اللّٰه، بل ينبغي أن يكون ابنا له، لأنه مجرد لا أب له، وكان يبرىء

على فضل الملائكة على الأنبياء، ثم أجابوا عن قصور الدليل على فضلهم على عيسى، فلا يلزم ذلك على بقية الأنبياء بقولهم، (**ثم لا قائل بالفرق**،) وفي نسخ: بالفصل، بصاد مهملة، أي: التمييز (**بين عيسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام**،) فثبت الدليل بقياس المساواة، لكن قد اعترض الفخر هذا الاستدلال بوجوه، بأن محمدًا أفضل من المسيح، ولا يلزم من فضل الملائكة عليه فضلهم على محمد ﷺ، وبأن قوله: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾، صيغة جمع تتناول الكل، فتفيد أن مجموعهم أفضل من المسيح، لا أن كل واحد أفضل منه، ولأن الواو حرف عطف، فتفيد الجمع المطلق لا الترتيب، فأما المثال المذكور، فليس بحجة، لأن الحكم الكلي لا يثبت بالمثال الجزئي، ثم هو معارض بسائر الأمثلة، كقولك: ما أعانني على هذا الأمر لا عمرو ولا زيد، فلا يفيد فضل المتأخر في الذكر، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت﴾ [المائدة/٢]، فلما اختلفت الأمثلة امتنع التعويل عليها، ثم تحقيق المسألة، إذا قيل هذا العالم لا يستنكف عن خدمته الوزير ولا السلطان، فنحن نعلم بعقولنا أن السلطان أعظم درجة من الوزير، فعرفنا أن الغرض من ذكر الثاني المبالغة، وإنما عرفناها بالعقل، لا بمجرد الترتيب، فلا يمكننا أن نعرف أن المراد في: ﴿ولا الملائكة﴾، ، بيان المبالغة، إلا إذا عرفنا قبل ذلك أن الملائكة أفضل من المسيح، وحينئذ تتوقف صحة الدليل على صحة المطلوب وهو دور.

(**والجواب**) على تقدير أن الآية دالة على أن منصب الملك أعلى من المسيح، لكنها لا تدل على أن تلك الزيادة في جميع المناصب، بل في بعضها، فقولك: لا يستنكف من خدمة هذا العالم الوزير، ولا السلطان، إنما يفيد أن السلطان أكمل منه في بعض الأشياء وهي القدرة والسلطنة، ولا يفيد زيادته على الوزير في العلم والزهد، فإذا ثبت هذا، فنحن نقول بموجبه، وهو أن الملك أفضل من البشر في القدرة والقوة والبطش، فإن جبريل قلع مدائن قوم لوط، والبشر لا يقدر على ذلك، فلم قلتم بفضل الملك على البشر في كثرة الثواب الذي هو محل الخلاف في المسألة، وكثرته إنما تحصل بنهاية التواضع والخضوع، ووصف العبد بذلك لا يلائم صيرورته مستنكفًا عن العبودية للّٰه، بل يناقضها، فامتنع كون المراد من الآية هذا المعنى، أما اتصافه بالقدرة الشديدة، والقوة الكاملة، فمناسب للتمرد وترك العبودية، وذلك (**أن النصارى استعظموا المسيح بحيث يرتفع**،) وفي نسخة: يترفع، أي: يتعالى، (**من أن يكون عبدًا من عباد اللّٰه، بل ينبغي أن يكون ابنًا له**،) كما قال تعالى: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن اللّٰه﴾ [التوبة/٣٠] الآية،

الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، بخلاف سائر العباد من بني آدم، فرد عليهم بأنه لا يستنكف من ذلك المسيح ولا من هو أعلى منه في هذا المعنى وهم الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم، ويقدرون بإذن اللّه تعالى على أفعال أقوى وأصعب وأعجب من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن اللّه تعالى فالترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد وإظهار الآثار القوية لا في مطلق الشرف والكمال، فلا دلالة في الآية على أفضلية الملائكة البتة. انتهى.

(لأنه مجرد لا أب له، و) لأنه **(كان يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، بخلاف سائر العباد من بني آدم، فرد)** اللّه **(عليهم بأنه لا يستنكف من ذلك)**، أي: عبودية اللّه، **(المسيح، ولا من هو أعلى منه في هذا المعنى، وهم الملائكة، الذين لا أب لهم، ولا أم، ويقدرون بإذن اللّه تعالى على أفعال أقوى وأصعب وأعجب من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن اللّه تعالى،)** الذي شاهدتموه من المسيح، **(فالترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد)** من الأب والأم، **(وإظهار الآثار القوية،)** كالشدة والقوة والبطش، **(لا في مطلق الشرف والكمال،)** المؤدي إلى كثرة الثواب، ومزيد الرفعة عند اللّه، **(فلا دلالة في الآية على أفضلية الملائكة البتة. انتهى)** ما أورده من هذا المبحث، وليس المراد انتهى ما في الشعب، لأنه ليس فيها ذلك، وقدم قوله انتهى يعني ما في الشعب قبل قوله وذهبت.

والقول الثالث الوقف، حكاه الكلاباذي عن جمهور الصوفية، قال شارحه القونوي: وهو أسلم الأقوال، والسلامة لا يعد لها شيء، كيف وأدلة الجانبين متجاذبة، وليست المسألة مما كلفنا اللّه تعالى بمعرفة الحكيم فيها، فالصواب تفويض علمها إلى اللّه، واعتقاد أن الفضل لمن فضله اللّه ليس بشرف الجوهر، ليقال الملائكة أفضل، لأن جوهرهم أشرف، فإنهم خلقوا من نور، وخلق البشر من طين، وأصل إبليس وجوهره، وهو النار أشرف وأصفى من جوهر البشر، وما أفاده ذلك فضلاً، ولا بالعمل، ليقال عمل الملائكة أكثر، لأن إبليس أكثر عملاً أيضًا.

وقال في منع الموانع عن والده: المسألة ليست مما يجب اعتقاده ويضر الجهل به، ولو لقي اللّه ساذجًا منها بالكلية، لم يأثم.

قال القاضي تاج الدين: فالناس ثلاثة: رجل عرف أن الأنبياء أفضل واعتقده بالدليل، وآخر جهل المسألة ولم يشتغل بها، وهذان لا ضرر عليهما، وثالث قضى بأن الملك أفضل، وهذا على خطر، وهل من فضل الأنبياء على خطر: فالساذج أسلم منه، أو لأنه لإصابة الحق إن شاء اللّه ناج من الخطر، هذا موضع نظر، والذي كنت أفهمه عن الوالد أن السلامة في السكوت، وأن الدخول في التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على اللّه بلا دليل قاطع دخول في خطر

ثم الملائكة بعضهم أفضل من بعض، وأفضلهم الروح الأمين جبريل، المزكى من رب العالمين، المقول فيه من ذي العزة ﴿**إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين**﴾ [التكوير/٢٠] فوصفه بسبع صفات، وهو أفضل الملائكة الثلاثة ـ الذين هم أفضل الملائكة على الإطلاق ـ وهم: ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل.

عظيم، وحكم في مكان أسنا أهلاً للحكم فيه، وجاءت أحاديث مشيرة إلى عدم الدخول في ذلك، كقوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى»، ونحوه، ولا خلاف أنه أفضل منه، فلعله إشارة إلى أنكم لا تدخلوا في أمر لا يعنيكم، وما للسوقة والدخول بين الملوك، أعني بالسوقة أمثالنا، وبالملوك الأنبياء والملائكة انتهى.

وقد بسط في الحبائك المسألة، (**ثم إن الملائكة بعضهم أفضل من بعض،**) فأعلاهم درجة حملة العرش، الحافون حوله، فأكابرهم كالأربعة، فملائكة الجنة والنار، فالموكلون بيني آدم، فالموكلون بأطراف هذا العالم، كذا ذكر الرازي، (**وأفضلهم الروح الأمين جبريل المزكى**) صفة بمنزلة التعليل، كأنه قال لأنه المزكي (**من رب العالمين، المقول فيه من ذي العزة**) سبحانه (﴿**إنه**﴾) أي: القرآن، (﴿**لقول رسول كريم**﴾) على اللّه، أضيف إليه القرآن بنزوله به، (﴿**ذي قوة**﴾) أي: شديد القوة، (﴿**عند ذي العرش**﴾) أي: اللّه (﴿**مكين**﴾) ذي مكانة (﴿**مطاع ثم**﴾) أي: تطيعه الملائكة في السموات، وثم إما متعلقة بمطاع، أو بقوله: (﴿**أمين**﴾ [التكوير/ ٢٠]) على الوحي، (**فوصفه بسبع صفات**) على ما قاله الزمخشري، وهو ظاهر بجعل عند ذي العرش صفة مستقلة لا متعلقة بما قبلها ولا بما بعدها، وعدها الرازي ستة، فجعلها متعلقة بقوله: ﴿**ذي قوة**﴾، (**وهو أفضل الملائكة الثلاثة الذين هم أفضل الملائكة على الإطلاق، وهم: ميكئيل، وإسرافيل، وعزرائيل،**) كما قال كعب الأحبار: جبريل أفضل الملائكة، نقله النعماني، وكأن هذا لم يصح عند السيوطي، فقد قال في الحبائك: سئلت هل الأفضل جبريل، أو إسرافيل، والجواب: لم أقف على نقل في ذلك لأحد من العلماء والآثار متعارضة، فحديث الطبراني عن ابن عباس، مرفوعًا: ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل، وأثر وهب أنّ أدنى الملائكة من اللّه جبريل، ثم ميكئيل، يدل على تفضيل جبريل. وحديث ابن مسعود، مرفوعًا: أن أقرب الخلق من اللّه إسرافيل، صاحب الصور، جبريل عن يمينه، وميكئيل عن يساره.

وحديث عائشة، مرفوعًا: إسرافيل ملك اللّه، ليس دونه شيء، وأثر كعب أن أقرب الملائكة إلى اللّه إسرافيل، وأثر الهذلي ليس شيء من الخلق أقرب إلى اللّه من إسرافيل.

وحديث ابن أبي جبلة: أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل، وأثر ابن سابط: يدبر أمر الدنيا

وكذلك الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء والرسل، كما تقدم.

وأول الأنبياء آدم وآخرهم نبينا محمد ﷺ.

فأما نبوة آدم فبالكتاب الدال على أنه قد أمر ونهي، مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي آخر، فهو بالوحي لا غير، وكذا السنة والإجماع، فإنكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفرًا.

أربعة: جبريل، وميكئيل، وملك الموت، وإسرافيل، إلى أن قال: وأما إسرافيل، فأمين الله بينه وبينهم، أي: وبين الثلاثة، وأثر خالد بن أبي عمران وإسرافيل بمنزلة الحاجب، كل ذلك يدل على تفضيل إسرافيل انتهى.

(**وكذلك الرسل أفضل من الأنبياء،**) الذين ليسوا برسل لزيادتهم بالرسالة، والأنبياء بعضهم أفضل، كما قال تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾.[الإسراء/٥٥].

قال الإمام الرازي: أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وأن محمدًا أفضل الكل، (**وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض**) بنص الآية، (**ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء والرسل،**) نصًا وإجماعًا، (**كما تقدم**) قريبًا، ويليه إبراهيم، كما نقل بعضهم عليه الإجماع، وفي الصحيح: خير البرية إبراهيم، خص منه المصطفى، فبقي على عمومه، كذا في النقاية.

وقال التفتازاني في شرح المقاصد: اختلف في الأفضل بعد المصطفى، فقيل: آدم لكونه أبا البشر، وقيل: نوح لطول عبادته ومجاهدته، وقيل: إبراهيم لزيادة توكله واطمئنانه، وقيل: موسى لكونه كليم الله ونجيه، وقيل: عيسى لكونه روح الله وصفيه. انتهى.

وجزم ابن كثير في تاريخه؛ بأن إبراهيم أفضل بعد محمد ﷺ وعليهم.

(**وأول الأنبياء آدم**) أي: والرسل أيضًا، فالصحيح أنه مرسل إلى بنيه، كما دل عليه حديث أبي ذر، (**وآخرهم نبينا ﷺ، فأما نبوة آدم فبالكتاب الدال على أنه قد أمر**) بنحو: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ [البقرة/٣٥]، (**ونهي**) بنحو: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾، (**مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي آخر، فهو بالوحي لا غير، وكذا السنة**) دلت على نبوته، كحديث أبي ذر الآتي، (**والإجماع**) من الأمة عليها، (**فإنكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفرًا**) لمخالفة الإجماع والنص.

وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في تفسيره، قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، قال: قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير، قال قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم، قال ﷺ: يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ ـ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ـ، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر،

(**وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في تفسيره**،) وعبد بن حميد، والحاكم في المستدرك، وابن عساكر، والحكيم الترمذي في النوادر.

(**قال**) أبو ذر: (**قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟، قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، قال: قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟، قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر**،) هم (**جم**،) أي: جمع (**غفير**،) أي: كثير، (**قال: قلت: يا رسول الله من كان أولهم**،) أي: الرسل، (**قال: آدم، قال ﷺ: يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث**) ابنه (**ونوح وخنوخ**،) بفتح المعجمة، وضم النون، وسكون الواو، ثم معجمة، بوزن ثمود عند الأكثر، وقيل بزيادة ألف في أوّله، وسكون المعجمة الأولى، وقيل: كذلك، لكن بحذف الواو، وقيل: كذلك، لكن بدل الخاء الأولى هاء، وقيل: كالثاني، لكن بدل المعجمة مهملة، (**وهو إدريس**) سرياني، وقيل: عربي مشتق من الدراسة، لكثرة درسه الصحف، ولا يمنع الحديث كون لفظ إدريس عربيًا، إذا ثبت أن له اسمين، (**وهو أول من خط بالقلم**،) وذكر ابن إسحق؛ أن له أوليات كثيرة، منها أنه أول من خاط الثياب، ذكره كله الحافظ، (**وأربعة من العرب: هود**) بن عبد الله بن رباح بن حرث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وسماه في التنزيل أخا عاد، لكونه من قبيلتهم، لا من جهة أخوة الدين، هذا هو الراجح في نسبه، وأما ابن هشام، فقال اسمه عابر بن أرفخشد بن سام، (**وصالح**) ابن عبيد بن أسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام، (**وشعيب**) بن سليل بن يشجن بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم، وقيل: شعيب بن صفور بن عنقاء بن ثابت بن مدين، وقول ابن إسحق: يشجن بن لاوى بن يعقوب لا يثبت، (**ونبيك**) محمد ﷺ (**يا أبا ذر**،) ففي هذا الحديث؛ أن شعيبًا من العرب العاربة، وقيل: إنه من بني عنزة بن أسد، ففي حديث سلمة بن سعيد العنزي؛ أنه قدم على النبي ﷺ، فانتسب إلى عنزة، فقال: نعم الحي عنزة، مبغي عليهم، منصورون، رهط شعيب، وأختان موسى، أخرجه الطبراني، وفي أسانيده مجاهيل.

(**وأول نبي من بني إسرائيل موسى**)، قد يستشكل هذا، بقوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من

وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك يا أبا ذر. وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان في كتابه «الأنواع والتقاسيم» وقد وسعه بالصحيح.

وخالفه ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام.

قال الحافظ بن كثير: ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، والله أعلم.

وروى أبو يعلى عن أنس مرفوعًا: كان من خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى ابن مريم، ثم كنت أنا والذين نص الله تعالى على أسمائهم في القرآن: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم، ولوط وإسمٰعيل وإسحٰق، ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب، وموسى وهٰرون ويونس، وداود وسليمٰن

قبل بالبينات﴾ [غافر/٣٤]، سواء قلنا إنه ابن يعقوب، أو ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، وكلاهما قبل موسى، وهما من بني إسرائيل، الذي هو يعقوب، إلا أن يقال المعنى أول نبي أمر جميع من يأتي من أنبيائهم بعده بإتباع شرعه والدعاء إليه.

(وآخرهم عيسى، وأول النبيين) على الإطلاق **(آدم، وآخرهم نبيك يا أبا ذر. (وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم)** محمد **(بن حبان)** بكسر المهملة وشد الموحدة، **(في كتابه الأنواع والتقاسيم، وقد وسعه بالصحيح،)** وكذا صححه الحاكم، **(وخالفه ابن الجوزي، فذكره في الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام)** الغساني.

(قال الحافظ ابن كثير: ولا شك أنه قد تكلم فيه،) أي: إبراهيم، **(غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث،)** فقال أبو حاتم: إنه غير ثقة، وكذبه أبو زرعة الرازي، **(والله أعلم)** بصحته في نفس الأمر وعدمها.

(وروى أبو يعلى) وأبو نعيم في الحلية بسند ضعيف، **(عن أنس، مرفوعًا: كان من خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي،)** لا يعارض ما قبله بفرض صحتهما، لأن الأخبار بالأقل لا ينافي الأكثر لدخوله فيه، ولعله أوحي إليه بهذا، فأخبر به، ثم بالأول، وما ينطق عن الهوى، **(ثم كان عيسى ابن مريم، ثم كنت أنا والذين نص الله على أسمائهم في القرآن: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسمٰعيل وإسحٰق)** ولدا إبراهيم، **(ويعقوب)** بن إسحٰق، **(ويوسف)** بن يعقوب، وكذا حفيده يوسف بن أفرايم بن يوسف في قوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾، في أحد القولين، والثاني: أنه ابن يعقوب، وحكى النقاش والماوردي؛

وإلياس واليسع، وزكريا ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾.

روى ابن جرير من حديث أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: أتاني جبريل

أنه رسول من الجن بعث إليهم، قال السيوطي: وهو غريب جدًا، (**وأيوب**).

قال ابن إسحٰق: والصحيح أنه من بني إسرائيل، ولم يصح في نسبه شيء إلا أن اسم أبيه أبيض.

وقال ابن جرير: هو أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحٰق.

وحكى ابن عساكر: أن أمه بنت لوط، وأن أباه آمن بإبراهيم، فعلى هذا كان قبل موسى.

وقال ابن جرير: كان بعد شعيب.

وقال ابن أبي خيثمة: بعد سليمٰن ابتلى وهو ابن سبعين سنة سبع وسنين، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: ثلاث سنين.

وروى الطبراني: أن مدة عمره ثلاث وتسعون سنة.

(**وشعيب، وموسى، وهٰرون**) أخوه: شقيقه، وقيل: لأمه، وقيل: لأبيه، حكاهما الكرماني في عجائبه، (**ويونس، وداود، وسليمٰن**) ابنه، (**وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى**) ولده، (**وعيسى**) ابن مريم، (**وكذا ذو الكفل**) نبي، (**عند كثير من المفسرين**،) وقيل: هو ابن أيوب في المستدرك.

عن وهب: بعث الله بعد أيوب ابنه بشرًا نبيًا، وسماه ذا الكفل، وأمره بالدعاء إلى توحيده، وكان مقيمًا بالشام عمره حتى مات، وعمره خمس وستون سنة، وكفل مائة نبي، فروا إليه من القتل، وتكفل بصيام جميع النهار، وقيام جميع الليل، وأن يقضي بين الناس، ولا يغضب، فوفى بذلك، وقيل: هو إلياس، وقيل: يوشع، وقيل: زكريا، وقيل: اليسع، وإن له اسمين، وقيل: اسمه ذو الكفل، وقيل: لم يكن نبيًا، بل رجلاً صالحًا يتكفل بأمور فيوفي بها، (**والله أعلم**) بذلك.

ومن جملة المختلف في نبوته لقمان وذو القرنين، وكذا الخضر، لكن لم يفصح باسمه في القرآن.

(**قال الله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾** [الانشراح/٤]،) واستأنف بيانيًا، فقال: (**روى ابن جرير**) محمد الطبري، الحافظ، أحد الأعلام في تفسيره، وأبو يعلى، والطبراني (**من حديث أبي سعيد**) الخدري (**أن رسول الله ﷺ قال: أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك**،) المحسن إلي

فقال: إن ربي وربك يقول: تدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: اللَّه أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي. وذكره الطبراني، وصححه ابن حبان.

وإليك، بجليل التربية، المزكي لي ولك بجميل التزكية، وإضافة رب للتشريف، فكما تفيده إضافة العبد إليه تعالى تشريفه، فكذا إضافته إليه تعالى تفيده، بل ذلك أقوى إفادة له، (**يقول:**) زاد في رواية لك تنبيهًا على كمال العناية، ومزيدًا لوجاهة عنده والرعاية، (**تدري**) استفهام حذفت أداته تخفيفًا لكثرة وقوعها فيه، وفي رواية: أتدري بإثباتها، وهو غير حقيقي لاستحالته على علام الغيوب، بل تقريري ليقر بعدم علمه، فيعلمه من لدنه، أي: أتدري جواب (**كيف**) أي: على أي: حال، ومعنى (**رفعت ذكرك**) وكيف في محل نصب حال من المفعول على القاعدة المشهورة، إن وقعت بعد كلام تام فحال، وإلا فخبر، وليست منصوبة بتدري، لأن لها الصدر، فتدري معلق عن الجملة بعده، كقوله:

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وزعم أن كيف خرجت عن الاستفهام، أي: أتدري كيفية الرفع، وهذا من الانبساط مع المحبوب لأجل زيادة التوجه والانتظار، نكتة أعجمية مع أن لفظ كيفية لم تسمع من العرب، كما صرح به أهل اللغة.

(**قلت:**) وفي رواية: فقلت: (**اللَّه أعلم**) وكان هذا إخبار من جبريل عما وقع من المخاطبة بينه وبين اللَّه قبل نزوله، واللَّه عالم بأنه يجيب برد العلم إليه، فكأنه قال: إذا أجابك، فقل، (**قال: إذا ذكرت**) (بضم التاء، والضمير للَّه) (**ذكرت**) (بفتحها) خطاب للمصطفى، والفعل مجهول فيهما.

وفي رواية: لا أذكر إلا ذكرت (**معي**) بصيغة الحصر، وأي: رفع أعظم من ذلك، وأفادت هذه الرواية الثانية؛ أن الحصر هو المراد في الأولى، أي: إذا ذكرت، فاللائق أو المطلوب أن تذكر معي، فمن لم يذكرك ترك المطلوب، وفيه رد العلم إلى اللَّه، ورد على من كرهه مطلقًا، أو عقب ختم نحو الدرس، ولا إيهام فيه خلافًا لزاعمه، بل هو في غاية التفويض المطلوب، وقد قال تعالى: ﴿اللَّه أعلم حيث يجعل رسالاته﴾[الانعام/١٢٤]، وقال علي: ما أبردها على كبدي، إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول اللَّه أعلم، ولا يعارضه ما في البخاري؛ أن عمر سأل الصحب عن سورة النصر، فقالوا: اللَّه أعلم، فغضب، وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، لأنه فيمن جعل الجواب به ذريعة إلى عدم إخباره عما سئل عنه، وهو يعلم، وفي المعالم أنه ﷺ سأل جبريل عن الآية، فقال: قال اللَّه، فكأنه بعد السؤال جاء وقال: ﴿إن ربي...﴾...الخ، وقوله: قال اللَّه، نقل بالمعنى، هكذا قال بعض المحققين، ثم قد وقع في بعض نسخ الشفاء: اللَّه ورسوله أعلم،

وروينا عن الإمام الشافعي قال: أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح: معناه لا أذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأشهد أن محمدًا رسول اللّٰه، قال الإمام الشافعي يعني ـ واللّٰه أعلم ـ ذكره عند الإيمان باللّٰه، والأذان، قال: ويحتمل أن يكون المراد ذكره عند تلاوة القرءان وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية انتهى.

وقيل: رفعه بالنبوة. قاله يحيى بن آدم الكوفي.

فإن صحت رواية، فالمراد به جبريل، لأنه من رسل الملائكة، يرسل بالوحي للأنبياء والرسل، وتفضيله عليه في خصوص هذا العلم، لأنه علمه قبل أن يبلغه إليه.

(وذكره) أي: رواه أيضًا (الطبراني) سليمٰن بن أحمد، وإسناده حسن، وفي نسخة الطبري: ولا فائدة فيها، إذ هو ابن جرير الذي نسبه له أولاً، (وصححه ابن حبان) وكذا صححه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة.

(وروينا عن الإمام الشافعي، قال: أخبرنا ابن عيينة) سفيٰن، (عن) عبد اللّٰه (بن أبي نجيح) بفتح النون وكسر الجيم وحاء مهملة، يسار المكي، أبي يسار الثقفي، مولاهم، ثقة، من رجال الجميع، ورمي بالقدر، وربما دلس، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة أو بعدها، (معناه) أي: ورفعنا لك ذكرك، (لا أذكر) مجهول المتكلم، (إلا ذكرت) مجهول المخاطب (معي) في قول (أشهد أن لا إله إلا اللّٰه، وأشهد أن محمدًا رسول اللّٰه) وفي التفسير بهذا إشارة إلى أن الحصر هو المراد بما قبله.

(قال الإمام الشافعي، يعني واللّٰه أعلم، ذكره عند الإيمان) باللّٰه تعالى، (وفي الأذان) كما أشار له ابن أبي نجيح، فلا يرد على الحصر، أن الكافر كثيرًا ما يذكر اللّٰه وحده، بل والمؤمن كثيرًا ما يقول: لا إله إلا اللّٰه مقتصرًا عليها، وكثيرًا ما يذكر اللّٰه، ولا يطلب ذكره ﷺ، كسمع اللّٰه لمن حمده، ربنا لك الحمد، والتسمية في الوضوء والأكل والشرب.

(قال) الشافعي: (ويحتمل أن يكون المراد ذكره عند تلاوة القرآن، وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية) بأن يتذكر في نفسه؛ أن فعلها والكف عن ضده سببه تبليغ النبي ﷺ الثواب الحاصل للمطيع، والعقاب الحاصل للعاصي، فيصلي عليه جزاء لتبليغه، وتحمل أعباء الرسالة. (انتهى) قول الشافعي.

(وقيل) معناه: (رفعه بالنبوة) الخاصة، وهي رسالته إلى جميع الخلائق، وبقاء شرعه إلى يوم الدين، وكونها رحمة للعالمين، فلا يرد أن وصف النبوة شاركه فيه الأنبياء، فلا يكون مرفوعًا بها عليهم، أو المراد بها سبقه بالنبوة جميع الأنبياء، وكونه أول الأنبياء في الخلق، أو على من

وعن ابن عطاء: جعلتك ذكرًا من ذكري. فمن ذكرك ذكرني، وعنه أيضًا: جعلت تمام الإيمان بذكري معك.

وعن جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية.

في عصره، والفضل للمتقدم، (**قاله يحيى بن آدم**) بن سليمان، (**الكوفي**) أبو زكريا، مولى بني أمية، ثقة، حافظ، فاضل، روى عنه أحمد وغيره، وروى له الستة، ومات سنة ثلاث ومائتين.

(**وعن ابن عطاء**) بلا إضافة، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء البغدادي، الزاهد، الآدمي: (بفتحتين) نسبة إلى بيع الأدم، له لسان في فهم القرآن، يختص به صحب الجنيد وغيره، ومات سنة تسع أو إحدى عشرة وثلاثمائة.

(**جعلتك**) أي: ذكرك (**ذكرًا من ذكري**) أو جعلت ذاتك مبالغة حتى كان من رأى ذاته ذكر اللَّه، أو المعنى كان ذكرك عين ذكرى، لعدم انفكاكه عنه غالبًا، أو هو مثله في التقرب به والأجر، أو هو معدود من أفراده، لأن كل مطيع للَّه ذاكره، (**فمن ذكرك ذكرني**) الفاء تفسيرية، أو تفريعية، (**وعنه أيضًا: جعلت تمام الإيمان بذكري معك**) وفي نسخة من الشفاء: بذكرك معي، وهذه واضحة، والأولى مخالفة لقاعدة أن مع تدخل على المتبوع غالبًا، وقد تجيء لمطلق المصاحبة، كما هنا، أي: جعلته يحصل بذكر اللَّه مصحوبًا بذكره عليه السلام، بأن يأتي بالشهادتين على الوجه المعروف، وجعله تمام الإيمان، إما لأن الإيمان عنده تصديق القلب واللسان، كما هو قول لأهل السنة، وأما من يقول مجرد التصديق، فباعتبار أنه لا يعتد به بدونه، ولا تترتب عليه الأحكام، ما لم يأت به لسانًا.

(**وعن جعفر بن محمد**) الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، (**الصادق**) صفة لجعفر لصدقه في مقاله أبي عبد اللَّه الهاشمي، فقيه، إمام، صدوق، روى له مسلم، وأصحاب السنن، ومات سنة ثمان وأربعين ومائة، (**لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية**) صيغة مصدر من الرب، والياء للمصدرية، فلا بد معها من تاء التأنيث، يعني لا يعترف أحد برسالتك إلا بعد أن يعترف بربوبية اللَّه ووحدانيته، لوجوب معرفة اللَّه عقلاً قبل ذلك، لئلا يلزم الدور، كما ذهب إليه الماتريدية، أو سمعًا، كما ذهب إليه غيرهم، وقيل: المراد أو أراد ذلك، أو عبر بالماضي عن المضارع مبالغة في تحقق وقوعه، ولا يشكل الأول بعدم مقارنة الحال للعامل، لتقدم الإيمان باللَّه، أو إرادته على الإيمان بالرسول، وأما التلفظ بما يدل على ذلك، فذكره عقبه بلا فاصل بعده، مقارنًا عرفًا، ومثله يكفي عند النحاة، فلا حاجة لجعل الحال مقدرة، ودعوى عدم اختصاصه ﷺ بذلك مدفوعة، بأن هذه المقارنة في الأذان، والإقامة، والخطب، والصلاة والإيمان، وهذا كله مختص بهذه الأمة، فتختص المقارنة على هذه الصفة

قال البيضاوي: وأي رفع مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، انتهى، يشير إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء/٨٠]، ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة/٦٢]، ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾، ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ [آل عمران/١٣٢].

وقول قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله انتهى.

بنبيها لاختصاصها به، دون من عداه من الأمم والرسل، وهذا في غاية الظهور.

(**قال البيضاوي: وأي: رفع مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته،**) وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة، وخاطبه بالألقاب، وإنما زاد ذلك ليكون أيها ما قبل إيضاح، فيفيد المبالغة. (**انتهى**) كلام البيضاوي بما زدته، فاقتصر المصنف على حاجته منه هنا لأجل شرحه بقوله.

(**يشير**) البيضاوي (**إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾** [النساء/٨٠]،) فجعل طاعته طاعته، (**﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾**) أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين، ولأن الكلام في إيذاء الرسول وإرضائه، أو لأن التقدير، والله أحق أن يرضوه والرسول، كذلك قاله في الأنوار.

(**﴿ومن يطع الله ورسوله﴾** فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾ [الأحزاب/٧١]، (**﴿وأطيعوا الله والرسول﴾** [آل عمران/١٣٢]،) لأنه بمعنى: ﴿وأطيعوا الرسول﴾، فجمع بينهما بواو العطف المشركة، ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه عليه الصلاة والسلام، قاله عياض، واعترض بأنه لا مانع أن يقال أطع الله، والقاضي كقوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء/٥٩] الآية، حتى قال بعض: إنه وهم، وما أظن أحدًا منعه، وأجيب بأنه أراد أنه منهي عنه تنزيهًا وأد بالورود الحديث، بما يدل على رعاية الأدب في اللفظ، وترك ما يوهم خلافه، وأطلق نفي الجواز اعتمادًا على تصريح الخطابي وغيره بالكراهة، ولا دلالة في آية: ﴿وأولي الأمر﴾، لاحتمال الجواز بالتبعية، ولذا لم يكرر أطيعوا مرة أخرى، كما لم تكرر اللام في عامتهم في حديث: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

(و) يشير إلى (**قول قتادة**) بن دعامة، عند ابن أبي حاتم، والبيهقي، (**رفع الله ذكره**) ﷺ (**في الدنيا والآخرة، فليس خطيب**) يخطب على جهة الكمال، وفي الحديث: «كل خطبة ليس فيها شهادة، فهي كاليد الجذماء»، (**ولا متشهد،**) أي: آت بكلمة الشهادة في غير الخطبة والصلاة، (**ولا صاحب صلاة،**) المراد بها الفرد الكامل المتبادر، فلا ترد صلاة الجنازة، (**إلا**

فهو مذكور معه في الشهادة والتشهد، ومقرون ذكره بذكره في القرءان والخطب والآذان، ويؤذن باسمه في موقف القيامة.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رفعه: لما نزل آدم عليه السلام بالهند استوحش فنزل له جبريل عليه السلام فنادى بالأذان: اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر مرتين، أشهد أن لا إله إلا اللّٰه مرتين، أشهد أن محمدًا رسول اللّٰه مرتين، الحديث.

يقول) مستثنى من أعم الأحوال، أي: ليس في حال من الأحوال إلا قائلاً: **(أشهد أن لا إله إلا اللّٰه، وأن محمدًا رسول اللّٰه. انتهى)** قول قتادة.

وأورد أن أمر الآخرة لا يعلم بالمقايسة، فرفع ذكره في الدنيا لا يستلزم رفعه في الآخرة، وأجيب؛ بأنه أخذه من إطلاق الآية، والحديث: ورفع ذكره في الدنيا عنوان رفعه في الأخرى، ووجه التفريع، أن من رفع ذكره في الدارين حقيق بأن يشهد له بذلك، فهو بيان لبعض الأحوال التي تفعل في الدنيا، وليس فيها شيء من أحوال الآخرة، وإن شمله قوله في الدنيا والآخرة لما ذكره ولغيره، فيندرج فيه ما يفعل في الآخرة، **(فهو مذكور معه،)** تفريع على قول قتادة، **(في الشهادة،)** دخولاً في الإيمان، وثناء عليه بعده، **(والتشهد،)** لأن الشهادة من جملة ألفاظه الواردة فيه، سواء كان بلفظ حديث ابن مسعود: أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا عبده ورسوله، أو بلفظ حديث غيره: وأن محمدًا رسول اللّٰه، **(ومقرون ذكره بذكره في القرآن،)** أي: مصاحب له، فالمقارنة المصاحبة، كما قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

(والخطب) الشرعية الكاملة، **(والأذان، ويؤذن باسمه في موقف القيامة)** إظهار الرفعة قدرة في ذلك الموطن.

روى ابن زنجويه عن كثير بن مرة الحضرمي، مرفوعًا: يبعث بلال على ناقة من نوق الجنة، ينادي على ظهرها بالأذان، فإذا سمعت الأنبياء وأممها، أشهد أن لا إله إلا اللّٰه، وأن محمدًا رسول اللّٰه، قالوا: ونحن نشهد على ذلك.

(وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن أبي هريرة، رفعه: لما نزل آدم عليه السلام بالهند، استوحش:) حصل له وحشة لانفراده، **(فنزل له جبريل عليه السلام، فنادى بالأذان: اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر، مرتين، أشهد أن لا إله إلا اللّٰه، مرتين، أشهد أن محمدًا رسول اللّٰه، مرتين.. الحديث،)** ورواه أيضًا الحاكم وابن عساكر، وحكمة ذلك التنويه باسمه في عهد آدم، ومصاحبته لاسم اللّٰه، وأن الأذان ينفع المستوحش الحزين.

وكتب اسمه الشريف على العرش،وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر.

وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعًا: لما عرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت إسمي فيها مكتوبًا: محمد رسول الله.

وفي الحلية عن ابن عباس رفعه: ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها لا إله لا الله محمد رسول الله.

وأخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعًا: كان نقش خاتم سليمن بن داود عليهما السلام لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعزاه الحافظ ابن رجب في كتاب

وقد روى الديلمي عن علي: رآني رسول الله ﷺ حزينًا، فقال: يا ابن أبي طالب ما لي أراك حزينًا، فمر بعض أهلك يؤذن في أذنك، فإنه دواء للهم، فجربته فوجدته كذلك،وقال كل من رواته: جربته، فوجدته كذلك.

(**وكتب اسمه الشريف على العرش،**) أي: على ساقه، كما قدمه في الأسماء، أي: قوائمه.

ولابن عدي: لما عرج بي، رأيت مكتوبًا على ساق العرش: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أيدته بعلي.

(**وعلى كل سماء،**) أي: السموات السبع، (**وعلى الجنان وما فيها**) من قصور وغرف، وعلى نحور الحور العين، وورق شجرة طوبى، وسدرة المنتهى، وأطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، (**رواه ابن عساكر**) عن كعب الأحبار، وهو من الإسرائيليات، وقيل: إنه موضوع، وقدمه في الأسماء والمعجزات، وأعاده هنا لبيان رفع الذكر.

(**وأخرج البزار عن ابن عمر، مرفوعًا: لما عرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي فيها مكتوبًا محمد رسول الله،**) وكتب مع أنه مشهور في السموات بأحمد أكثر ليحصل به الرد ممن علم ذلك على منكري رسالته، وإنما يعرف بينهم بمحمد دون أسمائه.

(**وفي الحلية عن ابن عباس، رفعه: ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها،**) أي: الورقة، (**لا إله إلا الله، محمد رسول الله،**) وكل من هذين شاهد وبيان لقوله في حديث كعب: على كل سماء وعلى الجنان.

(**وأخرج الطبراني من حديث جابر، مرفوعًا: كان نقش خاتم سليمن بن داود عليهما السلام: لا إله إلا الله، محمد رسول الله**).

ويروى عن عبادة بن الصامت، مرفوعًا عند الطبراني أيضًا: أن فص خاتم سليمن بن داود

أحكام الخواتيم لجزء أبي علي الخالدي، وقال: إنه باطل موضوع.

وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى، كما قال حسان:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وسماه من أسمائه الحسنى بنحو سبعين اسمًا، كما بينت ذلك في أسمائه صلوات اللّه وسلامه عليه، وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، فقال تعالى: **﴿إن اللّه وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا﴾** [الأحزاب/٥٦] فأخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر

كان سماويًا، ألقى إليه، فوضعه في أصبعه، وكان نقشه: أنا اللّه لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي، **(وعزاه،)** أي: نسبه **(الحافظ ابن رجب)** عبد الرحمٰن **(في كتاب أحكام الخواتيم لجزء أبي علي الخالدي، وقال: إنه باطل موضوع،)** وتعقب بأنه شديد الضعف لا موضوع، **(وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى، كما قال حسان)** بن ثابت، **(وشق)** بالبناء للفاعل، عطفًا على قوله قبل:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه

أي: أخذ **(له)** اسمًا، حروفه **(من اسمه ليجله،)** ليعظمه

(فذو العرش محمود، وهذا محمد، وسماه من أسمائه الحسنى بنحو سبعين اسمًا، كما بينت ذلك في أسمائه صلوات اللّه وسلامه عليه،) من المقصد الثاني، **(وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة)** والتسليم **(عليه،)** من جملة ما رفع به ذكره، **(فقال تعالى: ﴿إن اللّه وملائكته يصلون﴾،)** اختلف المفسرون وغيرهم في أن الواو عائدة على اللّه تعالى وملائكته، أو على ملائكته فقط، وخبر الجلالة محذوف، أي: أن اللّه يصلي وملائكته يصلون، فأجازه بعضهم، ومنعه آخرون لعلة التشريك، حكاه عياض، أي: التسوية بين اللّه وملائكته في لفظ واحد، وهو ضمير الواو لما فيه من عدم رعاية التعظيم **(﴿على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا﴾** [الأحزاب/٥٦]،) خصه بالتأكيد وتنوين التعظيم، أي: تسليمًا، عظيمًا، تعريضًا لمن لم يسلم، أو لأن المراد تسليمًا لا كتسليم غيره من الأمة، والصلاة لا يشاركه فيها الأمة، فيفهم منها في نفسها التعظيم بلا تأكيد، أو لأن التسليم لم يثبت للّه والملائكة، فهو في معرض المساهلة في الجملة، **(فأخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى؛ بأنه يثني عليه عند ملائكته المقربين، وأن الملائكة تصلي**

العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، فيجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا.

وكتبه نبيًا وآدم بين الروح والجسد، وختم به النبوة والرسالة، وأعلن بذكره الكريم في الأولين والآخرين، ونوه بقدره الرفيع حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به المصاقع على المنابر، وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر، ونشر ذكره في الآفاق شرقًا وغربًا، بحرًا

عليه، ثم أمر العالم السفلي،) أي: المؤمنين، **(بالصلاة والتسليم عليه،)** وكل ذلك إبانة لفضله، ورفعًا لذكره، **(فيجتمع الثناء عليه من أهل العالمين:)** بفتح اللام والميم، تثنية العالم **(العلوي، و)** العالم **(السفلي جميعًا،)** وقد أورد على هذا؛ أن المؤمنين شاركوه في ذلك، قال تعالى: ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته**﴾ [الأحزاب/٤٣] الآية، ومثله كثير في الأحاديث، كحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»، وأجيب؛ بأن الآية الأولى نزلت أولاً من غير مزاحم فيها، مع التأكيد بأن والاسمية، وتمييزه بمجموع ما ذكر، فبان بها فضله، ورفعه على غيره.

وقد أخرج عبد بن حميد عن مجاهد، قال: لما نزلت: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾، قال أبو بكر: يا رسول الله ما أنزل الله عليك خيرًا إلا أشركنا فيه، فنزلت: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾.

وقال الإمام الرازي: صلاة الملائكة على المؤمنين بطريق التبعية لصلاته تعالى عليهم، فتأخر ذكرها، وصلاتهم على النبي ﷺ بطريق الأصالة، ففيها تفضيله على غيره، كما إذ قيل يدخل فلان وفلان، فإنه يدل على تقديم الأول، بخلاف فلان وفلان يدخلان. انتهى، ولا يرد بأن الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب، لأن ملحظه؛ أن التقديم الذكري يشعر بالاهتمام، والتقديم لا من حيث الواو.

(وكتبه نبيًا وآدم بين الروح والجسد،) كما مر مبسوطًا في المقصد الأول، **(وختم به النبوة والرسالة،)** فلا نبي بعده، ولا رسول، **(وأعلن بذكره الكريم،)** أي: أظهره **(في الأولين والآخرين، ونوّه:)** رفع **(بقدره الرفيع:)** العالي، **(حين أخذ الميثاق على جميع النبيين،)** كما قال: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ [آل عمران/٨١]، **(وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به المصاقع:)** بالصاد المهملة والقاف، الخطباء الفصحاء البلغاء، جمع مصقع بكسر الميم، **(على المنابر،)** جمع منبر من النبر، وهو الارتفاع، **(وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر:)** جمع محبرة بفتح الميم والباء، أو فتحها وضم الباء، أو كسرها وفتح الباء، لأنه آلة،

وبرًا، حتى في السموات السبع وعند المستوى وصريف الأقلام، والعرش والكرسي، وسائر الملائكة المقربين من الكروبين والروحانيين والعلويين والسفليين، وجعله في قلوب المؤمنين بحيث يستطيبون ذكره فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم.

وإذا ذكرتم أميل كأنني من طيب ذكركم سقيت الراحا

كأنه تعالى يقول: أملأ الوجود كله من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم يتمسكون في الفريضة بأمري، وفي السنة بأمرك، وجعلت طاعتي طاعتك، وبيعتي بيعتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك،

أجودها الأولى، (ونشر ذكره في الآفاق:) النواحي (شرقًا وغربًا، بحرًا وبرًا، حتى في السموات السبع، وعند المستوى، وصريف الأقلام:) تصويتها، (والعرش، والكرسي، وسائر:) بمعنى جميع (الملائكة المقربين من الكروبين،) بالتخفيف، سادة الملائكة، (والروحانيين) (بفتح الراء وضمها)، (والعلويين،) أي: الملازمين للسموات، (والسفليين) من عداهم، كالموكلين بحفظ بني آدم ومصالحهم، (وجعله في قلوب المؤمنين بحيث يستطيبون ذكره،) ويتلذذون به، (فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم:) أجسادهم، وأنشد لغيره قوله:

(وإذا ذكرتم أميل كأنني من طيب ذكركم سقيت الراحا)

قال المجد: الراح: الخمر، كالرياح (بالفتح) والارتياح؛ (كأنه تعالى يقول: أملأ الوجود كله،) علويه وسفليه، (من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويصلون عليك، ويحفظون سنتك،) وقد قال: «إلا أني أوتيت الكتاب»، ومثله معه، الحديث رواه أحمد وأبو داود، (بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة) مما سنه، كتكبيرة الإحرام معها رفع اليدين، والفاتحة معها السورة، وهكذا (فهم يتمسكون في الفريضة بأمري، وفي السنة بأمرك،) لأنه من أمري، (وجعلت طاعتي طاعتك) في نحو قولي: «من يطع الرسول فقد أطاع اللّه»، (وبيعتي بيعتك)، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللّه، وأتى بهما على القلب للمبالغة، (فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك،) على اختلاف القراءات الواردة عنك متواترة وغيرها، ويوجهون ما قد يخفى من جهة اللسان بأوجه متعددة، أو وجه هؤلاء هم القراء.

(والمفسرون يفسرون معاني فرقانك،) بما ورد عنك، وعن أصحابك، وتابعيهم، وما

والوعاظ يبلغون بليغ وعظك، والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك ويسلمون عليك من وراء الباب، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق أبد الآبدين، والحمد لله رب العالمين.

وقال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى﴾ [طه/١ - ٢].

اعلم أن للمفسرين في قولين، أحدهما: أنها من حروف التهجي، والثاني أنها كلمة مفيدة.

وعلى القول الأول: قيل معناها، يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل: «الطاء» في الحساب بتسعة والهاء بخمسة، فالجملة أربعة عشرة، ومعناها: يا أيها البدر، وهذه الأقوال لا يعتمد عليها إذ هي، كما قال المحققون،

استنبطوه من اللغة، واستخرجوه من علوم البلاغة، **(والوعاظ)** المذكورون، **(يبلغون بليغ وعظك،)** من إضافة الصفة للموصوف، أي: وعظك البليغ، **(والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك، ويسلمون عليك من وراء الباب)** أدبًا واحتشامًا، **(ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق أبد الآبدين، والحمد لله رب العالمين)** على ذلك الفضل العظيم.

(وقال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه/١ ــ ٢]) من الشقاء والتعب، أو الشقاوة على ما يأتي.

(اعلم أن للمفسرين في قولين أحدهما: أنها) أي: هذه اللفظة، وإلا فهي حرفان، **(من)** أسماء **(حروف التهجي والثاني: أنها كلمة مفيدة،)** أي: مركبة، لا مقطعة، من أسماء حروف التهجي.

(وعلى القول الأول، قيل: معناها) الذي أريد بها، **(يا مطمع،)** بزنة مقعد **(الشفاعة للأمة،)** أي: يا من هو محل تطمعها في الشفاعة لها، **(ويا هادي الخلق إلى الملة،)** يحتمل أن الاسم مركب من مجموع النداءين، وأن كل واحد منهما مسمى لمجموع الطاء والهاء، ومقتضى قول عياض، وقيل: هي حروف مقطعة لمعان الأول، فالطاء للأول، والهاء للثاني.

(وقيل: الطاء في الحساب بتسعة، والهاء بخمسة، فالجملة أربعة عشر، ومعناها: يا أيها البدر،) ذكره معرفًا باللام، إشارة إلى أنه الكامل المنير، السالم من العوارض، **(وهذه الأقوال)** استعمل الجمع في اثنين، لأن الذي قدمه بناء على أنهما أقله، فهو حقيقة، أو مجاز من استعمال الكل في البعض، بناء على أن أقله ثلاثة **(لا يعتمد عليها، إذ هي، كما قال**

من بدع التفسير، ومثلها قول الواسطي، فيما حكاه القاضي عياض في «الشفاء»، أراد: يا طاهر يا هادي.

وأما على قول من قال: إنها كلمة مفيدة، ففيه وجهان: أحدهما، أن معناه: يا رجل، وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة. قال سعيد بن جبير: بلسان النبطية، وقال قتادة: بلسان السريانية، وقال عكرمة بلسان الحبشة. وقال البيضاوي: إن صح أن معناه: يا رجل فلعل أصله: يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، انتهى.

قال الكلبي: لو قلت في «عَكّ» يا رجل، لم يجبك حتى تقول: طه.

المحققون من بدع) بكسر، فسكون، أي: غريب **(التفسير،)** الذي لا سند له سوى هذا التوهم العقلي.

وفي نسخة المفسرين: والمعنى واحد، وتجوز قراءته بفتح الدال، جمع بدعة، اسم من الابتداع، وهو الاستخراج والأحداث بلا أصل.

(ومثلها قول الواسطي) أبي بكر محمد بن موسى، الإمام العارف، من كبار أتباع الجنيد، **(فيما حكاه القاضي عياض في الشفاء: أراد يا طاهر، ويا هادي،)** فالطاء من طاهر، والهاء من هادي، وقيل: الطاء قول القراءة، والهاء هيئاتها، وقيل: طوبى والهاوية، وقيل: قسم بطوله وهدايته عليه السلام، وهي أيضًا من البدع، وقيل: طه اسم من أسمائه ﷺ، وقيل: من أسماء الله، حكاهما عياض والمصنف في المقصد الثاني، قائلاً: المعتمد أنها من أسماء الحروف.

(وأما على قول من قال إنها كلمة مفيدة، ففيه وجهان: (أحدهما: أن معناه يا رجل،) أي: معناه رجل، وحرف النداء مقدر معه، **(وهو مروي عن ابن عباس)** عند البيهقي، **(والحسن)** البصري، **(ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعكرمة،)** والكل من التابعين المفسرين.

(قال سعيد بن جبير بلسان النبطية،) أي: المنسوبة إلى النبط، قوم كانوا ينزلون سواد العراق، **(وقال قتادة بلسان السريانية، وقال عكرمة: بلسان الحبشة)**، ولا يشكل عليهم قوله تعالى: ﴿قرآنًا عربيًا﴾ [يوسف/٢]، لأن المراد عربي الأسلوب، لا الكلمات، أو هو اسم للجملة، وهي كثيرة، فلا يخرجه لاشتماله على كلمات قليلة غير عربية، كقسطاس وسجين عن كونه عربيًا، ولا أنه نزل بمكة والمدينة وبينهما، لأنه لا يلزم من نزوله بها؛ أن جميعه بلغته لجواز اشتهار تلك اللغة في تلك الأماكن، **(وقال البيضاوي: إن صح أن معناه يا رجل، فلعل أصله يا هذا، فتصرفوا فيه بالقلب)** للياء طاء، **(والاختصار)**، أي: الاقتصار على الهاء من هذا. **(انتهى)**.

(قال الكلبي: لو قلت في عك) بفتح العين وشد الكاف، قال الجوهري: هو عك بن

وقال السدي: معنى طه يا فلان.

وقال الزمخشري: لعل «عكًا» تصرفوا في «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون «الياء» «طاء» فقالوا: في «يا طا» واختصروا هذا فاقتصروا على «ها»، وأثر الصيغة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طه في خلائقكم لا قدس اللّه أخلاق الملاعين

انتهى.

عدنان، أخو معد، وهم اليوم باليمن، **(يا رجل لم يجبك حتى تقول طه،)** لأنها لغتهم، ولا يعلمون لفظ يا رجل.

(وقال السدي) بضم السين وشد الدال: **(معنى طه، يا فلان)** كناية عن اسم الإنسان دون قصد واحد بعينه، نحو: رأيت زيدًا، فقلت له يا فلان افعل كذا، بخلاف يا رجل، القصد به يا هذا، لذكره من بني آدم.

(وقال الزمخشري: لعل عكًا تصرفوا في يا هذا، كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء،) الأحسن أن يقول ياء بلا أل، لأن الكلمة المركبة من حرفين فصاعدًا، إنما ينطق بلفظها، لا بحروف هجائها، والياء إنما هي اسم لأحد حروف التهجي.

(فقالوا في يا طا،) أي: ذكروا بدل لفظ يا لفظ طا، ففي للبدل، وكذا في الكشاف بني، ويقع في بعض نسخ المصنف بإسقاط في على حذف مضاف، أي: بدل يا طا.

(واختصروا) لفظ **(هذا)** بحذف الذال، **(فاقتصروا على ها)** مضمومة إلى طا، فصار طه بالقصر، لأن أسماء حروف التهجي ما لم تلها العوامل، موقوفة، خالية عن الإعراب، لفقد موجبه، لكنها قابلة إياه، معرضة له، إذ لم تناسب مبني الأصل، ولذا قيل ق و ص مجموعًا فيهما بين الساكنين، ولم يعامل معاملة أين وما ولا، قاله في الأنوار.

(وأثر الصيغة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به) وهو: **(إن السفاهة طه)**، أي: يا رجل **(في خلائقكم،)** أي: طبائعكم، **(لا قدس اللّه أخلاق الملاعين:)** جمع ملعون، أي: مطرود، كما في القاموس وغيره.

وقول بعض: سموا ملاعين، لأنهم يلعنون الناس كثيرًا، لا يناسب اللغة، ولم يذكر المجد أن أخلاق من جموع خليقة، فيحتمل أنه جمع خلق، كعنق وأعناق، فيكون هجاهم أولاً بأن طبيعتهم مجبولة على السفاهة، ثم دعا على خلقهم.

(انتهى) كلام الزمخشري.

قال في البحر: وكان قد قدم أن «طه» في لغة «عك» في معنى يا رجل، ثم تخوض وتجرّ على «عك» بما لا يقوله نحوي، وهو أنهم قلبوا «الياء» «طاء» وهذا لا يوجد في لسان العرب قلب «الياء» التي للنداء «طاء» وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرار «ها» التي للتنبيه، انتهى.

وقيل: معناه يا إنسان.

وقرىء طه بإسكان الهاء، على أنه أمر له ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه.

فقد روي أنه ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معًا، وأن الأصل «طاء» فقلبت همزته هاء، كما قالوا «هياك» في:

ورده البيضاوي، فقال: الاستشهاد بالبيت ضعيف، لجواز أن يكون قسمًا، كقولهم: ﴿حم لا ينصرون﴾، انتهى، أي: أن السفاهة وحق طه، أو وقسمي طه، كقوله ﷺ ليلة الخندق: «إن لقيتم الليلة، فقولوا حم لا ينصرون»، رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي والحاكم، وصححه عن البراء بن عازب.

(قال) أبو حيان **(في البحر)** تفسيره الكبير: **(وكان)** الزمخشري، **(قد قدم أن طه في لغة عك في معنى يا رجل، ثم تخوض،)** تكلف الخوض بمبالغته بما تكلفه، **(وتجرأ)** أسرع بالهجوم بلا توقف **(على عك، بما لا يقوله نحوي، وهو أنهم قلبوا الياء طاء، وهذا لا يوجد في لسان،)** أي: لغة **(العرب قلب الياء التي للنداء طاء، وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرار،)** أي: إبقاء **(ها التي للتنبيه،)** كذا في النسخ الصحيحة، وهو ما في النهر، فما في بعض النسخ، وأقرت تصحيف. **(انتهى)**.

(وقيل: معناه يا إنسان،) حكاه عياض وغيره، فإن صحت هذه التفاسير، فهو مشترك، والوجه الثاني أنها كلمة دالة على الطلب، **(و)** يدل عليه؛ أنه **(قرىء)** شاذًا **(طه،)** وبه قرأ الحسن البصري، **(بإسكان الهاء، على أنه أمر له ﷺ؛ بأن يطأ الأرض بقدميه، فقد روي أنه ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه،)** للاستراحة من طول القيام، **(فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معًا)** حتى لا يتعب، فيحتاج للاستراحة.

أخرج عبد بن حميد، عن الربيع بن أنس، قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل، ورفع الأخرى، فأنزل الله: ﴿طه﴾.

وأخرج ابن مردويه عن علي، قال: لما نزل على النبي ﷺ: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً﴾ [المزمل/١، ٢]، قام الليل كله، حتى تورمت قدماه، فجعل يرفع رجلاً ويضع أخرى، فهبط

إياك، و«هرقت» في: أرقت. ويجوز أن يكون الأصل من وطأ على ترك الهمزة، فيكون أصله «طا» يا رجل ثم أثبت الهاء فيه للوقف. وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل «طه»: طاها، والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية عن الأرض. لكن يرد ذلك: كتبها على صورة الحرف.

وأما قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى﴾، فذكروا في سبب نزولها أقوالاً:

أحدها: أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي قالوا لرسول اللّه ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك، فقال ﷺ: بل بعثت رحمة للعالمين، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية ردًا عليهم، وتعريفًا له ﷺ بأن دين الإسلام

عليه جبريل، فقال: طه، طا الأرض بقدميك يا محمد، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معًا، **(وأن الأصل طاء، فقلبت همزته هاء، كما قالوا هياك)** بكسر الهاء **(في إياك، وهرقت في أرقت، ويجوز أن يكون الأصل من وطأ على ترك الهمزة)**.

قال الطيبي: بأن قلبت ألفًا،وبني الأمر عليه، وإذا بني عليه، **(فيكون أصله طا يا رجل، ثم أثبت الهاء فيه للوقف،)** أي: السكت، فصار طه، **(وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل طه طاها، والألف مبدلة من الهمزة، والهاء كناية عن الأرض،)** أي: الضمير راجع إليها، لعلمها من قرينة الحال، والضمير يسمى كناية عند النحاة، ويحتمل أنه أراد أن الهاء وحدها ضمير، كما عليه بعض النحاة، أو أن ها اسم لحرف مأخوذ من ها اسم للضمير، فهي كناية اصطلاحية عنه، لا أنه ضمير، **(لكن يرد ذلك،)** كما قال البيضاوي: **(كتبهما على صورة الحرف،)** وتعقب بأن رسم المصحف غير قياسي، كما رسم المؤمنون بأن ألف في الإمام.

(وأما قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، فذكروا في سبب نزولها أقوالاً،) منها ما تقدم.

وأخرج البزار عن علي، قال: كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه، يقوم على كل رجل، حتى نزلت: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

(أحدها:) ما عند ابن مردويه، بمعناه عن ابن عباس؛ **(أن أبا جهل،)** فرعون الأمة، **(والوليد ابن المغيرة، ومطعم بن عدي، قالوا لرسول اللّه ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك،)** ومرادهم ضد السعادة، **(فقال ﷺ: بل بعثت رحمةً للعالمين،)** فكيف أشقى أنا، **(فأنزل اللّه تعالى هذه، ردًا عليهم وتعريفًا له ﷺ بأن دين الإسلام والقرآن هو،)** أي: المذكور **(السلم،)**

والقرءان هو السلّم إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وثانيها: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل: أبق على نفسك، فإن لها عليك حقًا. أي ما أنزلنا عليك القرءان لتنتهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة.

وروي أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام. وقال بعضهم: كان يسهر طول الليل.

وتعقب: بأنه بعيد، لأنه ﷺ إن فعل شيئًا من ذلك فلا بد أن يكون فعله بأمر الله تعالى، فإذا فعله عن أمره فهو من باب السعادة لا من باب الشقاء.

وثالثها: قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد، لا تشق نفسك، ولا تعذبها

فلا يرد أن القياس هما السلم (**إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها،**) وأي. شقاوة مثل الخلود في جهنم.

(**وثانيها: أنه**) كما رواه ابن مردويه عن علي، بمعناه أنه (ﷺ) لما نزل عليه: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا﴾، (**صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل:**) بأمر الله (**ابق على نفسك، فإن لها عليك حقًا، أي: ما أنزلنا عليك القرآن لتنتهك:**) تتعب وتؤلم (**نفسك بالعبادة**) الزائدة، (**وتذيقها المشقة العظيمة،**) بالسهر وقيام الليل، (**وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة،**) السهلة التي لا تعب فيها، (**وروي أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام،**) مبالغة في امتثال الأمر.

(**وقال بعضهم: كان يسهر طول الليل،**) في ابتداء أمره، حتى أمر بالتخفيف، (**وتعقب بأنه بعيد، لأنه ﷺ إن فعل شيئًا من ذلك، فلا بد أن يكون فعله بأمر الله تعالى،**) وهذا ممنوع، لأنه فعل ذلك لتحقق مدلول ما أمر به من قيام الليل على الوجه الأتم، لا للأمر به بخصوصه، ويمنع تعقبه أيضًا بقوله؛ (**فإذا فعله عن أمره، فهو من باب السعادة لا من باب الشقاء،**) بل هو التباس، إذ الرد على أنه من باب الشقاء، بمعنى إتعاب النفس على هذا، لا ينافي أن الإتعاب المذكور للسعادة، وإنما يقال من باب السعادة، لا الشقاء على الوجه الذي قبله في الرد على أبي جهل ومن معه، هكذا أملاني شيخنا.

(**وثالثها: قال بعضهم:**) ظاهره أنه سبب لنزول الآية، لقوله أولاً: ذكروا في سبب نزولها أقوالاً ولا كذلك، فإنما هذا فهم في الشقاء، إذ السبب لا يكون احتمالاً، بل نقل مجرد، وقد

بالأسف على كفر هؤلاء، فإنما أنزلنا عليك القرءان لتذكر به من آمن، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك كفره، فما عليك إلا البلاغ وهذا كقوله تعالى: ﴿**لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين**﴾ ﴿**ولا يحزنك كفرهم**﴾.

ورابعها: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، وفي ذلك الوقت كان ﷺ مقهورًا مع أعدائه، فكأنه تعالى قال: لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة، بل يعلو أمرك ويظهر قدرك، فإنا ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى أي لتبقى شقيًا، بل تصير معظمًا مكرمًا، زاده الله تعالى تعظيمًا وتكريمًا.

قال: (**يحتمل أن يكون المراد لا تشق نفسك ولا تعذبها بالأسف:**) الحزن والحسرة (**على كفر هؤلاء،**) فهو كقوله: لا تذهب نفسك عليهم حسرات، (**فإنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر:**) تعظ (**به من آمن فمن آمن وأصلح،**) عمل الصالحات من الفرائض وغيرها، (**فلنفسه،**) لأن ثمرته عائدة عليه، وإن كان للنبي أجره أيضًا، (**ومن كفر فلا يحزنك كفره،**) لا تهتم لكفره، (**فما عليك إلا البلاغ،**) وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، (**وهذا كقوله تعالى: ﴿لعلك باخع﴾**) قاتل (**﴿نفسك﴾**) ولعل الإشفاق، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها (**﴿أن لا يكونوا مؤمنين﴾،**) لئلا يؤمنوا أو خيفة أن لا يؤمنوا، وكقوله: (**﴿ولا يحزنك كفرهم﴾.**)

(**ورابعها:**) وهو من نمط الثالث لا سبب النزول، كما يوهمه المصنف، (**أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، وفي ذلك الوقت كان ﷺ مقهورًا مع أعدائه**) الكفار، (**فكأنه تعالى قال: لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة،**) التي هي قهر الأعداء، (**بل يعلو أمرك ويظهر قدرك، فإنا ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، أي: لتبقى شقيًا،**) متعبًا مقهورًا، والشقاء شائع بمعنى التعب، ومنه أشقى من رائض المهر، أي: أن معالجة المهارة شقاوة لما فيها من التعب، (**بل تصير معظمًا مكرمًا، زاده الله تعالى تعظيمًا وتكريمًا،**) كما إلى هذا الإشارة بقوله: ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ [طه/٣]، أي: لكن تذكيرًا لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالأنوار، أو لمن علم الله أنه يخشى بالتخويف، فإنه المنتفع به، ومن خشي صار المصطفى لديه معظمًا مكرمًا، كما وقع ذلك للصحابة حتى كانوا عنده، كأنما على رؤوسهم الطير، ولا يحدون النظر إليه، وكان أحب إليهم من أنفسهم.

قال البيضاوي: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، خبر طه إن جعلت مبتدأ على أنه مؤول بالسورة، والقرآن فيه واقع موقع العائد، وجواب إن جعلت مقسمًا به، ومنادى له إن جعلت نداء، واستئناف إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدأ، أو طائفة من الحروف محكية.

وقال اللَّه تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [الكوثر/١] السورة.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: في هذه السورة كثير من الفوائد، منها: أنها كالمتممة لما قبلها من السور، وذلك لأن اللَّه تعالى جعل سورة والضحى في مدح نبينا ﷺ، وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته وهي قوله: ﴿**ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك**

قال تبعًا للكشاف: وانتصاب إلا تذكرة على الاستثناء المنقطع، ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل لتشقى لاختلاف الجنسين، يعني أن نصب تذكرة نصبة صحيحة ليست بعارضة، والنصبة التي في لتشقى بعد نزع الخافض عارضة كما قال أبو حيان، ولا يجوز أن يكون مفعولاً له لأنزلنا، فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين، وقيل: هو مصدر في موضع الحال من الكاف، أو القرآن، أو مفعول له، على أن لتشقى متعلق بمحذوف هو صفة للقرآن، أي: ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه.

(**وقال اللَّه تعالى:** ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر/١])، أكده مع ضمير العظمة، إيماء إلى عظمة المعطي والمعطى، وتشويقًا ونفيًا للشبهة فيه (**السورة**).

((**قال الإمام فخر الدين**) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، الطبرستاني، الرازي، (**ابن الخطيب**) بالري، مر بعض ترجمته غير مرة، (**في هذه السورة كثير من الفوائد، منها: أنها كالمتممة لما قبلها من السور**)، المتعلقة به ﷺ، وليس القصد بها بيان الأحكام، فلا يرد أن ما ذكره دليلاً على ذلك بعض السور لا جميعها، على أنه، كما قال شيخنا في التقرير: لم تظهر زيادة الكوثر على تفسيره بما هو أعم من النهر على قوله: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ [الضحى/٥]، فإنه شامل لما شمله الكوثر، أو أشمل، (**وذلك لأن اللَّه تعالى أنزل**،) وفي نسخة: جعل، (**سورة والضحى في مدح نبينا ﷺ وتفصيل أحواله**،) أي: جنسها، فلا ينافي في أن ما ذكره في هذه السورة مشتمل على جميعها لزومًا، (**فذكر في أولها**،) أي: أحواله (**ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته**،) أي: ترتبط بها، وتترتب عليها كالثمرة لها، وليس المراد التعلق النحوي، ولا المعنوي، المقتضي لكون هذه من معنى النبوة، إذ ليست من معناها، (**وهي قوله:** ﴿**ما ودعك**﴾) أي: تركك (﴿**ربك وما قلى**﴾،) أبغضك، حذف مفعوله اختصارًا للعلم به، وللجري على نهج الفواصل، ولئلا يخاطبه بالبغض، وإن كان منفيًا، أو ليعم نفسه وأصحابه وأمته.

روى الشيخان وغيرهما عن جندب بن عبد اللَّه، قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة، أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل اللَّه: ﴿والضحى والليل

....

إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾ [الضحى/١].

وروى سعيد بن منصور والفريابي، عن جندب، قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فقال المشركون: قد ودع محمد، فنزلت، وهذه المرأة هي العوراء أم جميل أخت أبي سفيٰن بن حرب.

روى الحاكم برجال ثقات عن زيد بن أرقم، قال: مكث ﷺ أيامًا لا ينزل عليه، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك، فأنزل اللَّه: ﴿والضحى...﴾ الآيات.

وفي الصحيح أيضًا، عن جندب: قالت امرأة: يا رسول اللَّه ما أرى صاحبك إلا أبطأ عنك، فنزلت: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾.

قال الحافظ: هي زوجته خديجة، كما في المستدرك أيضًا، وأعلام النبوة لأبي داود، وأحكام القرآن للقاضي إسمٰعيل، وتفسير ابن مردويه من حديث خديجة نفسها، فخاطبته كل واحدة منهما بما يليق بها.

وروي سنيد في تفسيره: أن قائل ذلك عائشة، وهو باطل، لأنها لم تكن إذ ذاك زوجة.

وأخرج ابن جرير عن عبد اللَّه بن شداد أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك، فنزلت.

وأخرج أيضًا عن عكرمة: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فجزع جزعًا شديدًا، فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما ترى من جزعك، فنزلت وكلاهما مرسل، رجاله ثقات.

قال الحافظ: والذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل قالته شماتة، وخديجة قالته توجعًا.

وروى ابن أبي شيبة والطبراني بسند فيه من لا يعرف عن خولة خادم رسول اللَّه ﷺ أن جروًا دخل بيته تحت السرير، فمات، فمكث ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول اللَّه، جبريل لا يأتيني، فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأوهيت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل اللَّه: ﴿والضحى﴾، إلى قوله: ﴿فترضى﴾.

قال الحافظ: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح.

(﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾) لأنها باقية، خالصة من الشوائب، وهذه فانية، مشوبة بالمضار، واللام للابتداء مؤكدة، أو جواب قسم، ففيه تعظيم آخر، أي: كما أعطاك في الدنيا

فترضى﴾ ثم ختمها كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا، وهي قوله تعالى: **﴿ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالاً﴾** أي عن علم الحكم والأحكام **﴿فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾**. ثم ذكر في سورة **﴿ألم نشرح﴾** أنه تعالى

يعطيك في الآخرة ما هو أعلى وأكثر، فلا تبال بما قالوه، فهو وعد فيه تسلية بعد ما نفى عنه ما يكره، فهو تحلية بعد تخلية، وقيل: المعنى لنهاية أمرك خير من بدايته، فإنه لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال، (**ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾**) [الضحى/٥]، وعد شامل لما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر، وإعلاء الدين، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواه واللام للتأكيد، وقول الزمخشري، وتبعه البيضاوي: اللام للابتداء، دخل على الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير، ولأنت سوف، رده ابن الحاجب وغيره، بأن فيه تكلفين، وهما تقدير محذوف، وخلع اللام عن معنى الحال، لئلا يجتمع دليلان حال، واستقبال قال: وليست للقسم، لأنها إنما تدخل على المضارع مؤكدًا بالنون.

قال ابن هشام: وهو ممنوع، بل تارة تجب اللام وتمتنع النون، وذلك مع الفعلين كالآية، ومع تقدم المعمول بين اللام والفعل نحو: ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾، ومع كون الفعل للحال نحو: ﴿لا أقسم﴾، وتارة يمنعان، وذلك مع الفعل المنفي نحو تالله تفتؤ، وتارة يحبان نحو وتالله لأكيدن، (**ثم ختمها**) أي: الأحوال المتعلقة بنبوته، (**كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا**) من حيث النبوة، لكن تعلق الثلاثة الأول بالنبوة من حيث كونها حاصلة بها، والثلاثة الثانية بمعنى: أن سببها إكرامه بالنبوة وإن كان أولاها حصل قبل النبوة، والاثنان بعد النبوة، ولو أسقط كذلك، فإن التنبيه على تعلقها بالنبوة، (**وهي قوله تعالى: ﴿ألم يجدك﴾**) من الوجود بمعنى العلم، و(**﴿يتيمًا﴾**) مفعوله الثاني، أو المصادفة ويتيمًا حال، أي: لا أب لك، وقيل لا مثل لك، (**﴿فآوى﴾**) بأن ضمك إلى عمك أبي طالب، (**﴿ووجدك ضالاً﴾، أي: عن علم الحكم**) (بكسر ففتح) جمع حكمة، أي: معرفة العلل والأسباب، فقوله: (**والأحكام**) عطف مسبب على سبب، وليس الحكم مفرد الأحكام، لأنه يصير ما بعده مرادفًا، ولا ينافي ذلك أن بعض الأحكام تعبدي، لأنه بالنسبة لنا، أما هو ﷺ، فكان عارفًا بالعلة (**﴿فهدى﴾**،) أي: هداك إلى معرفتها، وهذا أحد تفاسير في الآية، كما يأتي للمصنف، (**﴿ووجدك عائلاً﴾**) ذا عيال (**﴿فأغنى﴾**) [الانشراح/٨]، بما حصل لك من ربح التجارة، كذا قصره البيضاوي، ولم يجعله شاملاً لذلك، ولغيره من مبدئه إلى نهاية ما حصل له، أو يقصره على ما حصل له من الغنائم والفتوحات، لأن ربح التجارة حصل به أصل الغنى، وما بعده حصل به الزيادة بعد اطمئنان النفس بالأول، فكانت النعمة في الحقيقة هي الربح، لأنها التي حصل بها دفع الحاجة، هذا ولم يذكر

شرفه عليه الصلاة والسلام بثلاثة أشياء وهي: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق، ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي عناءك الثقيل ﴿الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾ وهكذا سورة سورة، حتى قال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أي أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها

المصنف من أحواله بقية السورة، مع أنها خطاب له لعدم دلالتها على مدحه صريحًا، إذ ليست أوصافًا قائمة به يمدحه بتعدادها، ولا صفات كمالية قائمة به، ولا على تعداد النعم التي أنعم بها عليه، وإنما هي أمر له ونهي، وكلاهما لا يعد من النعم الصريحة، وإن ترتب عليه الامتثال بفعل المأمور وترك المنهي، وهما من أعظم النعم، ولا يرد، قوله أولاً جعل سورة والضحى في مدح نبينا، لأن المراد معظمها، أو كلها، ولكن ما تركه هنا مستلزم للكمال، لأن كونه منهيًا مأمورًا مقتض لامتثاله، وهو كمال استلزامًا لا صراحة.

(ثم ذكر في سورة: ﴿ألم نشرح﴾، أنه تعالى شرفه عليه الصلاة والسلام بثلاثة أشياء، وهي: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾،) استفهم عن الشرح على وجه الإنكار مبالغة في إثبات الشرح، فكأنه قيل: شرحنا، ولذا عطف عليه، ووضعنا اعتبارًا للمعنى، قاله الكشاف.

قال الطيبي: أي: أنكر عدم الشرح، فإذا أنكره ثبت، لأن الهمزة للإنكار، ولم نفي إذا دخل عليه النفي عاد إثباتًا، ولا يجوز جعل الهمزة للتقرير. انتهى، أي: لأن التقرير سؤال مجرد، إذ هو حمل المخاطب على الاعتراف بأمر استقر عنده ثبوته، أو نفيه، فلا يحسن، عطف ووضعنا عليه، (أي: ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق،) فالمراد به ما يرجع إلى المعرفة والطاعة، فكأنه قيل: ألم نفتح ونوسع صدرك بالإيمان والنبوة، والعلم والحكمة، وبه جزم البغوي، وتقدم غير ذلك.

(﴿ووضعنا عنك وزرك﴾، أي: عناءك) (بفتح المهملة والمد)، أي: خضوعك (الثقيل) القوي الذي كنت فيه قبل ظهور أمرك، أو المشقة التي كنت فيها بمعاداة الكفار لك، فوضعنا ذلك بإظهارك عليهم بقتل من قتل، وهداية من اهتدى، فالعناء يكون بمعنى الخضوع، وبمعنى المشقة، (﴿الذي أنقض ظهرك﴾): أثقله، ويأتي للمصنف في النوع العاشر معنى الآية (﴿ورفعنا لك ذكرك﴾،) مر الكلام عليه، (وهكذا سورة سورة حتى قال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، أي: أعطيناك هذه المناقب:) جمع منقبة (بفتح الميم) الفعل الكريم، كما في المصباح.

وفي المختار بوزن المتربة ضد المثلثة. انتهى، فالقاف مفتوحة، فقراءته بكسرها على هذا خطأ، (المتكاثرة، التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها) بأسرها، أو

أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها. وإذ أنعمنا عليك بهذه النعم فاشتغل بطاعتنا ولا تبال بقولهم.

ثم إن الاشتغال بالعبادة إما أن يكون بالنفس وهو قوله: ﴿**فصلِ لربك**﴾، وإما بالمال وهو قوله: ﴿**وانحر**﴾.

وتأمل قوله: ﴿**إنا أعطيناك**﴾ كيف ذكره بلفظ الماضي، ولم يقل: سنعطيك، ليدل على أن الإعطاء حصل في الزمان الماضي، قال ﷺ: كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد. ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزًا مرعي الجانب أشرف ممن سيصير كذلك، كأنه تعالى يقول: يا محمد قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا يا أيها العبد الكريم، إنا لم نعطك هذا الفضل العظيم لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساننا من غير موجب.

بجوانبها: جمع حذفور، كعصفور، كما في القاموس، **(وإذ)** تعليلية **(أنعمنا عليك بهذه النعم)**.

وفي نسخة: وإذا للظرفية المجردة، والفاء في **(فاشتغل بطاعتنا)** زائدة على النسختين، والتعليل أظهر، **(ولا تبال بقولهم:)** ساحر، كاهن، مجنون، وغير ذلك، **(ثم إن الاشتغال بالعبادة إما أن يكون بالنفس، وهو قوله: ﴿فصل لربك﴾،)** أمر بالصلاة مطلقًا، أو التهجد، وكان الظاهر، فأشكر، فعدل عنه، لأن مثل هذه النعمة العظيمة ينبغي أن يكون شكرها كذلك، وأعظم ذلك العبادة، وأعظمها الصلاة، **(وإما بالمال، وهو قوله: ﴿وانحر﴾،)** أمر بتقريب البدن، لأن النحر يختص بها وفي غيرها، يقال: ذبح، **(وتأمل قوله: ﴿إنا أعطيناك﴾، كيف ذكره بلفظ الماضي، ولم يقل سنعطيك،)** بلفظ المضارع، **(ليدل)** صلة ذكره، **(على أن الإعطاء حصل في الزمان الماضي)**، كما **(قال عليه الصلاة والسلام: كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد)**، رواه أحمد والبخاري في التاريخ وغيرهما، ومر الكلام عليه أول الكتاب.

(ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزًا، مرعي الجانب، أشرف ممن سيصير، كذلك كأنه تعالى يقول: يا محمد قد هيأنا:) يسرنا وسهلنا **(أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا،)** استفهام تفخيم وتعظيم، أي: فاعتقد من الكمالات التي تحصل لك بعد وجودك ما شئت، فإنها لا نهاية لها.

(يا أيها العبد الكريم إنا لم نعطك هذا الفضل العظيم) المعبر عنه بالكوثر، **(لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساننا من غير موجب،)** مرتب على ما قبل الاستفهام،

واختلف المفسرون في تفسير الكوثر على وجوه.

منها: أنه نهر في الجنة، وهذا هو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف، روى أنس أن رسول اللّه ﷺ قال بينما أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه مسك إذفر رواه البخاري.

أي: هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، لا لأجل طاعتك المتأخرة، بل فضلاً، وليس مرتبًا على الاستفهام لئلا يكون فيه بعض تناف.

(**واختلف المفسرون في تفسير الكوثر على وجوه**،) وصلت إلى نحو عشرين قولاً، (**منها: أنه نهر في الجنة، وهذا هو المشهور المستفيض عند السلف والخلف**،) ودليله أنه (**روى أنس**) بن لملك؛ (**أن رسول اللّه ﷺ قال: بينما**) (بالميم) (**أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر**،) وللترمذي: إذ عرض لي نهر، أي: ظهر، وللبخاري في التفسير عن أنس، قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: أتيت على نهر، (**حافتاه:**) (بحاء مهملة وخفة الفاء) جانباه، لأنه ليس أخدودًا، أي: شقًا مستطيلاً في الأرض، يجري فيه الماء حتى يكون له حافتان، ولكنه سائل على وجه أرض الجنة، ومعلوم أنه ليس عامًا في جميعها، فما جاوز ما انتهى سيلانه إليه هو جانبه.

روى أبو نعيم والضياء عن أنس، قال: قال ﷺ: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض، لا واللّه إنها لسائحة على وجه الأرض»، (**قباب:**) (بكسر القاف وخفة الموحدة) جمع قبة، وللترمذي: حافتاه فيهما لؤلؤ مثل القباب، فالمراد في جانبيه مثل قباب (**الدر المجوّف:**) (بفتح الواو مشددة) صفة للدر، وهو كبار اللؤلؤ حقيقة، وتجويز أنه مثله في الحسن والنضارة، خلاف الظاهر بلا داعية، (**قلت: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك**،) وعطف على مقدر، أي: فنظرت له، (**فإذا طينه مسك**،) إذ المفاجأة إنما تترتب على النظر لا على أعطاك ربك، ويدل له رواية الترمذي عن أنس، قال، أي: المصطفى: ثم ضرب، أي: جبرئل، بيده إلى طينه، فاستخرج مسكًا، أي: إظهار الشرف المنعم به، وسماه طينًا جريًا على العادة في كون مقر الماء طينًا، كما قال الدلجي وغيره، فلا بد من تقدير في قوله طينه مسك، ليصح الحمل، وهو هنا في المبتدأ، أي: فإذا مادة ما تحت مائه مسك، ولا يقدر في الخبر، أي: مثل مسك، لأنه خلاف الظاهر من الأحاديث؛ أنه يجري على المسك، ولا يعارضه حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاصي، ومجراه على الدر والياقوت، لأنهما فوق طينه الذي هو مسك، كما أن الأنهار تجري على طين وحصى، فهذا حصاه جواهر وطينه مسك، (**أذفر:**) (بمعجمة

وقيل: الكوثر أولاده، فإن هذه السورة إنما نزلت ردًا على من عابه عليه الصلاة والسلام بعدم الأولاد، وعلى هذا فالمعنى: أنه يعطيه نسلاً يبقون على ممر الزمان. فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يتفق ذلك لنبي من الأنبياء غيره.

وقيل: الكوثر خير الكثير. وقيل: النبوة، وهي من الخير الكثير.

ساكنة)، أي: شديد الرائحة الطيبة، ويطلق أيضًا على الكريهة، وليس بمراد هنا، وأما بمهملة، فخاص بالمثنثة، (**رواه البخاري**) في الرقاق بهذا اللفظ، عن شيخيه أبي الوليد هشام بن عبد الملك، وهدبة بن خالد، كلاهما عن همام، عن قتادة، عن أنس، ثم قال في آخر طينه، أي: بالنون، أو طيبه، أي: بموحدة شك هدبة، أي: ولم يشك أبو الوليد أنه بالنون.

قال الحافظ وغيره: وهو المعتمد، ففي البعث للبيهقي من طريق عبد الله بن مسلم، عن أنس بلفظ: ترابه مسك، ورواه في التفسير إلى قوله هذا الكوثر، وأخرجه مسلم أيضًا، كما قدم في المعراج والترمذي.

(**وقيل: الكوثر: أولاده**) من فاطمة، لأن عقبه إنما هو منها، ويؤيده قوله الآتي: ﴿فانظر كم قتل من أهل البيت﴾، (**فإن هذه السورة إنما نزلت ردًا على من عابه عليه الصلاة والسلام بعدم**) أي: بفقد (**الأولاد**) كالعاصي بن وائل، قال: لما مات القسم، لقد أصبح محمد أبتر، فنزل: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، عوضًا عن مصيبتك بالقسم، رواه يونس في زيادات المغازي.

ولابن جرير عن شمر بن عطية: كان عقبة بن أبي معيط يقول: لا يبقى لمحمد ولد وهو أبتر، فأنزل الله فيه: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾.

وللطبراني بسند ضعيف عن أبي أيوب: لما مات إبراهيم مشى المشركون بعضهم إلى بعض، فقالوا: إن هذا الصابىء قد بتر الليلة، فأنزل الله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، إلى آخر السورة، فإن صح هذا كله، فقد تعدد السبب، والنزول بمكة والمدينة، إذ موت إبراهيم بها.

(**وعلى هذا، فالمعنى أنه**) تعالى (**يعطيه**) ﷺ (**نسلاً يبقون على ممر الزمان**)، فهو من وضع الماضي موضع المستقبل، (**فانظر كم قتل من أهل البيت**) مع الحسين وبعده، (**ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يتفق ذلك لنبي من الأنبياء غيره**) مثل هذا.

(**وقيل: الكوثر: الخير الكثير**) الذي أعطاه الله إياه، قاله ابن عباس، رواه البخاري وغيره، فهو وصف مبالغة في المفرط الكثرة، فيشمل النبوة والقرآن والخلق الحسن العظيم، وكثرة الأتباع، والعلم، والشفاعة، والمقام المحمود وغيرها، مما أنعم به عليه، لكن أورد عليه أن أراد

وقيل: علماء أمته، وقيل الإسلام، ولا ريب أنهما من الخير الكثير، فالعلماء ورثة الأنبياء، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وأما «علماء أمتي كأنبياء بني

ابن عباس بهذا بيان ما وضع له لغة، أو بيان معنى عام خص في الآية، فلا كلام فيه، وإن أراد تفسير الآية، فالنص النبوي جاء بخلافه، كما مر ويأتي.

(**وقيل: النبوة وهي من الخير الكثير**) الذي أعطيه، (**وقيل: علماء أمته**) وجعل البيضاوي مجموع أولاده والأتباع العلماء ولا واحد العلة، قول آخر لم يذكره المصنف.

(**وقيل: الإسلام ولا ريب**) لا شك (**أنهما**) أي: الإسلام والعلماء (**من الخير الكثير**) الذي فسر به ابن عباس الكوثر، فلا يقصر عليهما ولا على النبوة ولا غيرها، بل يعم شرف الدارين، (**فالعلماء ورثة الأنبياء**) لأن الميراث ينتقل للأقرب، وأقرب الذين فازوا بالحسنيين العلم والعمل، وحازوا الفضيلتين الكمال والتكميل، ولا رتبة فوق رتبة النبوة، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة، ولذا اشتغلت الملائكة وغيرهم من المخلوقات بالاستغفار والدعاء لهم إلى يوم القيامة.

وروى ابن عدي وأبو نعيم والديلمي عن علي، رفعه: العلماء مصابيح الأرض، وخلفاء الأنبياء، وورثتي وورثة الأنبياء، قال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [فاطر/ ٣٢].

قال الكشاف: ما سماهم ورثة الأنبياء، إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله.

وقال الغزالي: لا يكون العالم وارثًا إلا إذا طلع على جميع معاني الشريعة، حتى لا يكون بينه وبينه إلا درجة النبوة، وهي الفارق بين الوارث والموروث، إذ هو الذي حصل له المال واشتغل بتحصيله، واقتدر عليه، والوارث هو الذي لم يحصله، لكن انتقل إليه وتلقاه عنه. انتهى.

(**كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي**) وابن ماجه والبيهقي، كلهم عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وأن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»، صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكناني، وضعفه الترمذي وغيره بالاضطراب في سنده.

قال السخاوي: لكن له شواهد يتقوى بها، ولذا قال شيخنا: له طرق يعرف بها أن

إسرائيل» فقال الحافظ ابن حجر، ومن قبله الدميري والزركشي، أنه لا أصل له. نعم روى أبو نعيم في فضل العالم العفيف بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد.

وقيل: الكوثر كثرة الأتباع والأشياع.

وعن بعضهم: المراد بالكوثر العلم، وحمله عليه أولى لوجوه: أحدها أن العلم هو الخير الكثير، والثاني: إما أن يحمل الكوثر على نعم الآخرة أو على نعم الدنيا، قال: والأول غير جائز لأنه قال: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾، والجنة سيعطيها لا

للحديث أصلاً، وقد أخرجه الديلمي عن البراء بن عازب، رفعه: «العلماء ورثة الأنبياء، يحبهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا»، وأورده أيضًا بلا سند عن أنس، مرفوعًا: «العلماء ورثة الأنبياء، وإنما العالم من عمل بعلمه».

(وأما) خبر **(علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل،)** فإنهم كانوا يدعون إلى شريعة موسى من غير أن يأتوا بشرع مجدد، وكذا علماء هذه الأمة يدعون إلى الشريعة المحمدية.

(فقال الحافظ ابن حجر، ومن قبله الدميري والزركشي: أنه لا أصل له).

زاد بعضهم: ولا يعرف في كتابه معتبر.

وسئل عنه الحافظ العراقي، فقال: لا أصل له، ولا إسناد بهذا اللفظ، ويغنى عنه العلماء ورثة الأنبياء، وهو حديث صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو، مرفوعًا: أكرموا حملة القرآن، فمن أكرمهم فقد أكرمني، ومن أكرمني فقد أكرم الله، ألا فلا تنقصوا حملة القرآن حقوقهم، فإنهم من الله بمكان، كاد حملة القرآن أن يكونوا أنبياء إلا أنه لا يوحى إليهم، رواه الديلمي، وقال: إنه غريب جدًا.

قال السخاوي: وفيه من لا يعرف، وأحسبه غير صحيح.

(نعم، روى أبو نعيم في) كتاب **(فضل العالم العفيف بسند ضعيف، عن ابن عباس، رفعه: أقرب الناس من درجة النبوّة أهل العلم والجهاد،)** لأنهم لما قاموا مقام الأنبياء في الأمرين استحقوا أن يكونوا أقرب الناس من درجتهم.

(وقيل: الكوثر: كثرة الأتباع والأشياع) (بمعجمة وتحتية عطف) مساو، **(وعن بعضهم: المراد بالكوثر العلم، وحمله عليه أولى لوجوه،)** أي: ثلاثة:

(أحدها: أن العلم هو الخير الكثير) الذي يتفرع عنه سعادة الدارين.

(و) الوجه **(الثاني: إما أن يحمل الكوثر على نعم الآخرة، أوعلى نعم الدنيا، قال)** ذلك البعض: **(والأول غير جائز،)** إن حمل على حقيقة اللفظ، **(لأنه قال: ﴿إنا أعطيناك**

أنه أعطاها، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة، فوجب حمل اللفظ على العلم، والثالث: أنه لما قال ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ قال عقبة: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ والشيء الذي يتقدم على العبادة هو المعرفة، ولأن «الفاء» في قوله فصلِ للتعقيب، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم.

وقيل: الكوثر الخلق الحسن، كما قال ﷺ في حديث: ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة. رواه الطبراني. وعن ابن عباس: جميع نعم الله تعالى على نبيه ﷺ.

وبالجملة: فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي، فوجب حملها على الكل، ولذا روي أن سعيد بن جبير لما روى هذا القول

الكوثر﴾،) بصيغة الماضي، (**والجنة سيعطيها لا أنه أعطاها، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا**،) إبقاء للفظ أعطينا على حقيقته، (**وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا، هو العلم والنبوّة، فوجب حمل اللفظ على العلم**،) كأنه قصره عليه مع اشتراكه مع النبوّة في أنهما أشرف ما وصل إليه، لأن العلم مترتب عليها، فكأنه المقصود بالوحي، وثمراته كثيرة بخلاف النبوّة، فخاصة به عليه الصلاة والسلام.

(و) الوجه (**الثالث: أنه لما قال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، قال عقبه: ﴿فصل لربك وانحر﴾، والشيء الذي يتقدم على العبادة هو المعرفة**،) أي: العلم بالأحكام، فيفيد أنه المراد، (**ولأن الفاء في قوله فصل، للتعقيب، ومعلوم أن الموجب**،) أي: السبب المقتضي (**للعبادة ليس إلا العلم**،) فيفيد أنه المراد، لكن هذا كله استنباط عقلي لا يلاقي تفسيره ﷺ بأنه نهر في الجنة.

(**وقيل: الكوثر: الخلق الحسن**،) لأن به سعادة الدارين، (**كما قال ﷺ في حديث: ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة، رواه الطبراني**،) والبزار، (**وعن ابن عباس**:) أن الكوثر (**جميع نعم الله تعالى على نبيه ﷺ**،) فشمل النبوّة والعلم، وجميع ما مر وغيره من النعم التي لم تذكر.

(**وبالجملة، فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي، فوجب حملها على الكل، ولذا روي أن سعيد بن جبير لما روى هذا القول**،) إن الكوثر

عن ابن عباس قال له بعضهم: إن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللّٰه إياه.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: قال بعض العلماء: ظاهر قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه اللّٰه تعالى في الدنيا من النبوة والقرءان والذكر العظيم

جميع النعم، (**عن ابن عباس**،) لكن الذي رواه البخاري من طريق أبي بشر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه اللّٰه إياه.

قال أبو بشر: فقلت لسعيد: إن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللّٰه إياه، (**قال له بعضهم**،) هو أبو بشر جعفر بن أبي وحشية، واسمه إياس: (**إنَّ ناسًا**،) وفي رواية: أُناسًا (بضم الهمزة)، وسمي منهم أبو إسحٰق السبيعي وقتادة (**يزعمون**،) يقولون، (**أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللّٰه إياه**،) لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير، فلا تنافي، لكن صرح ﷺ؛ بأنه نهر في الجنة، كما في مسلم، ويأتي، وكما مر عن الصحيحين في حديث المعراج؛ أن جبريل قال له: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك.

وفي الصحيح عن أبي عبيدة بن عبد اللّٰه بن مسعود؛ أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾، قالت: نهر أعطيه نبيكم في الجنة، شاطئاه عليه در مجوّف، آنيته كعدد النجوم، فأي معدل عن هذا على أنه قد ورد عن ابن عباس تفسيره بالنهر، فكأن بلغه عن المصطفى، فرجع عن الاستنباط.

أخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾، قال: هو نهر في الجنة، عمقه سبعون ألف فرسخ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، شاطئاه من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، خص اللّٰه به نبيه قبل الأنبياء، وما ذكر في عمقه لا يخالفه ما رواه ابن أبي الدنيا.

عنه أيضًا أنه سئل: ما أنهار الجنة، أفي أخدود؟، قال: لا، ولكنها تجري على أرضها، لا تفيض ههنا ولا ههنا، لأنه أجيب؛ بأن المراد أنها ليست في أخدود، كالجداول ومجاري الأنهار في الأرض، بل سائحة على وجه الأرض مع عظمها وارتفاع حافاتها، فلا ينافي ما ذكر في عمقها.

(**قال الإمام فخر الدين بن الخطيب**) الرازي: (**قال بعض العلماء: ظاهر قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر، فيجب أن يكون الأقرب**

والنصر على الأعداء. وأما الحوض وسائر ما أعدَّه اللَّه له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال: إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد اللَّه فهو كالواقع، إلا أن الحقيقة ما قدمناه، لأن ذلك وإن أعدَّ له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه الكوثر في حال نزول هذه السورة بمكة، ويحتمل أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بشيء يصح أن يقال: أعطاه ذلك الشيء، مع أن الصبي في ذلك الحال ليس أهلاً للتصرف. انتهى.

وقد روينا في صحيح مسلم من حديث أنس بينما رسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا ما يضحكك أضحك اللَّه

حمله على ما آتاه اللَّه تعالى في الدنيا من النبوة، والقرآن، والذكر العظيم، والنصر على الأعداء،) والآيات البينات.

(وأما الحوض) الذي له في القيامة، وهو أحد ما قيل في تفسير الكوثر، كما في الشفاء، **(وسائر ما أعده اللَّه له من الثواب)** في الآخرة، **(فهو وإن جاز أن يقال إنه داخل فيه، لأن ما ثبت بحكم وعد اللَّه، فهو كالواقع،)** لأنه لا يخلف وعده، وجوازه لا يوجب الحمل عليه، ولا يرجحه، لأنه إذا حمل عليه بخصوصه، أو على ما يشمله كان مجازًا، وإذا حمل على ما أعطيه في الدنيا فقط كان حقيقة، وهي مقدمة على المجاز ما أمكنت، حيث لا مانع، وقد علم أن المانع تفسيره ﷺ؛ بأنه نهر في الجنة، **(إلا أن الحقيقة ما قدمناه،)** في قوله: فيجب أن يكون الأقرب.. الخ، لأن ما أعطاه في الدنيا ثبت إعطاؤه له بالعقل، فاستعمال الإعطاء حقيقة فيه، بخلاف أمور الآخرة، **(لأن ذلك وإن أعد له، فلا يصح أن يقال على الحقيقة، أنه أعطاه الكوثر في حال نزول هذه السورة بمكة)**، وإنما يصح أن يقال ذلك على المجاز، إما لأنها ستعطي، أو لأنه تعالى قدر في علمه أنها له، فعبر عنها بأعطينا.

(ويحتمل أن يجاب عنه؛ بأن من أقر لولده الصغير بشيء، يصح أن يقال أعطاه ذلك الشيء، مع أن الصبي في ذلك الحال ليس أهلاً للتصرف. انتهى.)

وعليه يحمل أعطى على ما أعطاه من أمور الدنيا والآخرة، ولا يكون مجازًا، لأن من وهب شيئًا لولده الصغير، وقبله له صار ملكًا حقيقيًا للصغير، فما هنا كذلك.

(وقد روينا في صحيح مسلم،) وسنن أبي داود والنسائي، **(من حديث أنس: بينما)** (بالميم) **(رسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا،)** أي: بيننا، وأظهر زائدة، **(إذ أغفى إغفاءة،)** أي: نام نومة خفيفة، **(ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما يضحكك، أضحك اللَّه سنك يا رسول اللَّه،)** قال

سنك، يا رسول الله؟ قال: نزلت على سورة آنفًا فقرأ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك.

الأبي: عبروا بالضحك عن التبسم لوضوح البسم منه ﷺ، فعبروا عنه بالضحك، (**قال: نزلت عليّ سورة آنفًا**،) أي: قريبًا، (**فقرأ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر﴾**، فهم منه فاهمون أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة، لأن رؤيا الأنبياء وحي.

قال في الإتقان: والأشبه أن القرآن كله نزل يقظة، وأجاب الرافعي؛ بأنه خطر له في النوم سورة الكوثر، المنزلة في اليقظة، أو عرض عليه الكوثر الذي نزلت فيه السورة، فقرأها عليهم، وفسره لهم، أو الإغفاء ليست نومًا، بل هي البرحاء التي كانت تعتريه عند الوحي.

قال في الإتقان: والأخير أصح من الأول، لأن قوله: أنزل عليّ آنفًا، يدفع كونها نزلت قبل ذلك.

(**ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر**) داخل الجنة، كما رآه المصطفى ليلة المعراج، كما مر في حديث أنس في الصحيح، (**وعدنيه ربي**) بقوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، (**عليه خير كثير**،) منه قوله سابقًا: حافتاه قباب الدر، وطينه مسك أذفر، (**وهو حوض**،) أي: نهر في الجنة، يسيل في حوض، (**ترد عليه أمتي يوم القيامة**،) وفي رواية لأحمد: ويفتح نهر الكوثر إلى الحوض.

وفي مسلم عن أبي ذر: أن الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة، قال المصنف: ويطلق على الحوض كوثر، لكونه يمد منه.

وقال الحافظ: وهذا النهر هو الذي يصب في الحوض، فهو مادة الحوض، كما جاء صريحًا في البخاري، (**آنيته عدد النجوم**،) ولأحمد من رواية الحسن، عن أنس: أكثر من عدد نجوم السماء.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمرو: وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبدًا، (**فيختلج**) (بضم التحتية، وسكون المعجمة، وفتح الفوقية، واللام، وبالجيم مبني للمفعول)، أي: يجتذب ويقتطع (**العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي**،) فلم أخرج منهم، (**فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك**) من الردة عن الإسلام والمعاصي، فيمنعون من الحوض

وهذا تفسير صريح منه ﷺ بأن المراد بالكوثر ـ هنا ـ الحوض، فالمصير إليه أولى، وهذا هو المشهور كما تقدم.

فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة وشرفه بهذه الخصال العميمة، وحباه بما أفاضه عليه من نعمه الجسيمة.

وقد جرت عادة اللّٰه تعالى مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أن يناديهم بأسمائهم الأعلام نحو: **﴿يا آدم اسكن﴾** [البقرة/٣٥] **﴿يا نوح اهبط﴾** [هود/٤٨] **﴿يا موسى إني أنا اللّٰه﴾** [القصص/٣٠]، **﴿يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك﴾**

حتى يطهروا من ذنوبهم، وأحضر المرتدون) زيادة لتنكيلهم، وحسرتهم، **(وهذا تفسير صريح منه ﷺ بأن المراد بالكوثر هنا الحوض،)** أي: النهر الذي يصب في الحوض بدليل قوله نهر، **(فالمصير إليه أولى،)** أي: أحق وأوجب.

وقول الشارح: أي: من حيث الاعتبار، فلا ينافي ما قدمه من أنه واجب فيه، أنه لم يقدم ذلك، إنما قدم الوجوب في تفسيره بغير ذلك، **(وهذا هو المشهور، كما تقدم)** في قوله: إنه نهر في الجنة، وهذا هو المشهور المستفيض عند السلف والخلف، وهذا صريح في تأويل قوله الكوثر: الحوض بما قلناه، لأنه الذي قدمه.

وقد قيل: إن المراد به الحوض الذي في القيامة على ظاهر الحديث، فلا تأويل، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات الكثيرة، وقيل: المعرفة، أي: العلوم اللدنية التي أفاضها عليه بلا واسطة، فكأنها كوثر، وقيل: تخفيفات الشريعة، وقيل: كثرة الأمة، ومغايرته لكثرة الأتباع بحمله على أصحابه لكثرتهم على اتباع غيره عن المرسلين جدًا، وقيل: رفعة الذكر، وقيل: الدعوات المجابات له، وقيل: كلمة التوحيد لا إله إلا اللّٰه، محمد رسول اللّٰه، وقيل: الخمس صلوات التي خصت بها أمته، فهذه عشرة، والمصنف حكى عشرة، فتلك عشرون أصحها الأول.

(فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة، وشرفه بهذه الخصال العميمة، وحباه) بموحدة **(بما أفاضه عليه من نعمه:)** جمع نعمة، **(الجسيمة، وقد جرت عادة اللّٰه تعالى مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، أن يناديهم بأسمائهم الأعلام نحو: ﴿يا آدم اسكن)** أنت وزجك الجنة﴾، وبدأ به، لأنه أبو البشر المقدم عليهم، **(﴿يا نوح اهبط)** بسلام﴾، وكذا يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا **(﴿يا موسى إني أنا اللّٰه﴾، ﴿يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك﴾،)** ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾، ﴿يا زكريا إنا نبشرك بيحيى﴾، ﴿خذ الكتاب﴾.

[المائدة/١١٠]، وأما نبينا محمد ﷺ فناداه بالوصف الشريف من الإنباء والإرسال فقال: يا أيها النبي، يا أيها الرسول. ولله در القائل:

ودعا جميع الرسل كلاً باسمه ودعاك وحدك بالرسول وبالنبي

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا عبيده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه

(**وأما نبينا محمد ﷺ، فناداه بالوصف الشريف من الإنباء والإرسال**،) الدال على التعظيم والملاطفة لمنزلته عنده، (**فقال: يا أيها النبي، يا أيها الرسول**،) يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، فلم يذكر باسمه في النداء تعظيمًا، وذكر في الخبر، كقوله: ﴿وما محمد إلا رسول﴾، ﴿محمد رسول الله﴾، ﴿ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، لأنه ورد مورد التعيين والإعلام؛ بأن صاحب هذا الاسم هو الرسول، وقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب/٢١] الآية، لما لم يورد هذا المورد لم يذكر اسمه.

(**ولله درّ القائل**:

(**ودعا جميع الرسل كلاً باسمه ودعاك وحدك بالرسول وبالنبي**)

دعا: نادى، ومراد المصنف خطاب الله تعالى له في القرآن باسمه، فلا يرد عليه، كما توهم خطابه بقوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ [القصص/٥٦] الآية، وقوله: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى/٥٢] الآية، وقوله في المحشر: ارفع رأسك وقل تسمع يا محمد ولم يقل: يا أيها النبي، أو يا أيها الرسول، وإن قيل حكمته أنه أخصر، ففيه سرعة إجابته، وتطويل الكلام لا يناسب مقام الاذن في الشفاعة، وقد سرى هذا التشريف ببركته إلى أمته.

ففي الخصائص: إن الله شرفهم بخطابهم في القرآن، بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، وخاطب الأمم السالفة بيا أيها المساكين.

(**قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا**،) نادى (**عبيده بأفضل ما أوجد لهم**،) أعطاهم، (**من الأوصاف العلية، والأخلاق السنية**،) بمعنى العلية فحسنه اختلاف اللفظ، (**ودعا آخرين**،) وفي نسخة: غيرهم (**بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف، ولا بخلق**) (بضمتين) (**من الأخلاق**،) دل دعاؤه لذلك البعض على (**أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم**،)

العلم، وهذا معلوم بالعرف: أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه. انتهى.

وانظر ما في نحو قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ [البقرة/٣٠] من ذكر «الرب» تعالى وإضافته إليه ﷺ، وما في ذلك من التنبيه على شرفه واختصاصه وخطابه، وما في ذلك من الإشارة اللطيفة، وهي أن المقبل عليه بالخطاب، له الحظ الأعظم، والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه.

ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعله أفضل أنبيائه، أمَّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي دار تكليفه وجزائه.

وبالجملة: فقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته، وتعظيم

فالمقدر جواب، إذا لأن لفظ أن الفرد لا يقع جوابًا لإذا، وجملة إذا من الشرط والجواب خبر أن السيد.. الخ.

(**وهذا معلوم بالعرف؛ أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه. انتهى.**) إذ العدول عن الاسم العلم يقتضي ذلك عرفًا، ولذا قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا﴾ [النور/٦٣].

(**وانظر**) نظر تأمل وتدبر في المعاني المستنبطة من الألفاظ، (**ما في نحو قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة/٣٠] الآية، من ذكر الرب تعالى،**) المشعر بمزيد الرأفة (**وإضافته**،) أي: رب، (**إليه ﷺ**،) بقوله: ربك، (**وما في ذلك من التنبيه على شرفه**) بإضافته إليه، (**واختصاصه وخطابه، وما في ذلك من الإشارة اللطيفة، وهي أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها،**) وهي هنا خلافة الله في الأرض، فلا ريب أن له النصيب الأوفى منها، (**إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه، ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه**) الخلق إلى ذلك: ﴿إني رسول الله إليكم جميعًا﴾ [الأعراف/١٥٨] (**وجعله أفضل أنبيائه**)، بدليل أنه (**أمَّ بهم ليلة إسرائه**)، بتقديم جبريل له، والحق في الإمامة للأفضل، (**وجعل آدم فمن دونه**،) أي: فمن بعده، (**يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي دار تكليفه**) الدنيا (**وجزائه**) الآخرة، (**وبالجملة فقد**

قدره، وعلو منصبه، ورفعة ذكره ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم، ويكفي إخباره تعالى بالعفو عنه ملاطفة قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿**عفا الله عنك، لم أذنت لهم**﴾ [التوبة/٤٣]، وتقديم ذكره على الأنبياء تعظيمًا له، مع تأخره عنهم في الزمان في قوله تعالى: ﴿**ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم**﴾ [الأحزاب/٧]. وإخباره بتمني أهل النار طاعته في قوله تعالى: ﴿**يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول**﴾ [الأحزاب/٦٦]، وهذا بحر لا ينفد وقطر لا يعد.

تضمن الكتاب العزيز) القوي الغالب، (**من التصريح بجليل رتبته وتعظيم قدره،**) أي: رتبته وشرفه، (**وعلو منصبه،**) بزنة مسجد العلو والرفعة، كما في المصباح كغيره، (**ورفعة ذكره ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم،**) أي: أعلاها، (**ويكفي إخباره تعالى بالعفو عنه ملاطفة،**) معاملة وشفقة، والمفاعلة مجازية لتنزيل استحقاقه بمنزلة فعله، أو هي لأصل الفعل بلا مشاركة، (**قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾**) [التوبة/ ٤٣] فقدم عفا الله عنك، دعامة تقصد بها الملاطفة، إذ هو خبر معناه: لا عهدة عليك، وليس المعنى أن الإذن ذنب يتعلق به العقوبة، لأن مسامحته لهم مع أذاهم إسقاط للحظوظ، فهو عتب بلطف، لا ملامة فيه، أي: قد بلغت في الامتثال والاحتمال الغاية، وزدت في طاعة الله ومحبته، والرفق بالبر والفاجر ما أجحف بك، فهو من عتب الحبيب في حيفه على نفسه، وتخفيف لا تعنيف، ومدح لا قدح، ويأتي بسط هذا إن شاء الله.

(و) يكفي في ذلك أيضًا (**تقديم ذكره على الأنبياء تعظيمًا له،**) إذ التقديم يعطيه، (**مع تأخره عنهم في الوجود في قوله تعالى**): ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** (**ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم**﴾**،**) قيل معناه: تبليغ الرسالة وتصديق بعضهم بعضًا، وقيل: أن يعلنوا بنبوة المصطفى، ويعلن هو بأنه لا نبي بعده، ففيها تفضيل له من وجوه، منها: أنه ذكر النبيين جملة، ثم خص بالذكر بعضهم تشريفًا لهم، وقدمه ﷺ عليهم تشريفًا على تشريف، وهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم في قول، **وإخباره بتمني أهل النار طاعته في قوله تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا،**) للتنبيه، (**ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول**﴾ [**الأحزاب/٦٦**]، **وهذا بحر لا ينفد،**) (بفتح الفاء: لا يفرغ (**وقطر**) (بفتح القاف وسكون الطاء)، أي: مطر (**لا يعد**) لكثرته، أو (بضم القاف)، أي: إقليم لا يمكن عد نواحيه وبلاده لكثرتها، جوزهما شيخنا في التقرير، واقتصر في الحاشية على الفتح، لأنه أظهر والله أعلم.

النوع الثاني
في أخذ الله تعالى له الميثاق على النبيين فضلا ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه

قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ الآية [آل عمران/٨١].

أخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه، من لدن آدم إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضًا، قاله الحسن وطاوس وقتادة.

(النوع الثاني:)

(في أخذ الله تعالى له الميثاق على النبيين،) عداه بعلى، إشارة إلى أنه ألزمهم به، وعداه فيما يأتي بمن، إشارة إلى أنهم التزموه (فضلاً،) أي: إحسانًا (ومنة،) أي: إنعامًا، (ليؤمنن به إن أدركوه، ولينصرنه) على عدوه، (قال الله تعالى: ﴿وإذ﴾،) أي: حين متعلق بمقدر، أي: اذكر، وقيل: بأقررتم وإن أخر عنه (﴿أخذ الله ميثاق النبيين﴾) عهدهم كلهم، أو مع أممهم وأنبياء بني إسرائيل (﴿لما﴾) (بفتح اللام للابتداء)، أو توكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق، وكسرها متعلقة بأخذ، وما موصولة على الوجهين، أي: للذي (﴿آتيتكم﴾) إياه، وفي قراءة: آتيناكم، (﴿من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾) من الكتاب والحكمة، وتنوين رسول، وإبهامه للتعظيم، والمراد محمد ﷺ، أو للتعميم على القولين الآتيين للمصنف، (﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران/٨١]،) جواب القسم إن أدركتموه، وأممهم تبع لهم في ذلك.

((أخبر تعالى) في الأزل، كما حكاه المصنف أول الكتاب، (أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه،) صفة نبي، ولا يرد أنه قاصر على الرسل، مع أن المتبادر العموم، لجواز أن معناه: أوحى إليه، والبعث يطلق على الإيحاء، (من لدن آدم إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضًا) على نبوته، ومعناه، كما في البغوي: أنه أخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده، وينصره إن أدركه وأن يأمر قومه بنصره، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد. انتهى. فليس معنى هذا القول يصدق بعضهم بعضًا على نبوة المصطفى، وأنهم من أتباعه ومؤمنون به كما توهم، إذ لو كان كذلك ما صح قول المصنف الآتي: أن ذا القول لا يخالف قول علي وابن عباس، إذ هو عينه على ذا الفهم، (قاله الحسن) البصري، (وطاوس)

وقيل معناه: أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم، واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم.

وعن علي بن أبي طالب وابن عباس: ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ -وهو حي- ليؤمنن به ولينصرنه. وما قاله قتادة والحسن وطاوس لا يضاد ما قاله علي وابن عباس، ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه.

وقيل معناه: أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه، واحتج له بأن الذين

اليماني، (وقتادة) السدوسي، الثلاثة من التابعين.

(**وقيل معناه: أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم، واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم،**) لأنهم تبع لهم، فهو من الاستغناء بذكر الملزوم عن لازمه، ولا يراد أنه خاص بالرسل، لأنهم هم الذين لهم أمم، أما النبيون فلا أمم لهم، لجواز أن يراد بأممهم الأناس الموجودون في زمانهم، وأطلق عليهم أممهم من حيث وجودهم في زمانهم، وإن لم يرسلوا إليهم، فالنبي وإن لم يأمر بشرع، يجب عليه أن يخبر بنبوته، لئلا يحتقر ولا يمتنع عليه الوعظ ونحوه، ومنه أخباره للناس بالإيمان بمحمد إذا جاء، أو الأنبياء.

(**وعن علي بن أبي طالب،**) عند ابن جرير وغيره، (**وابن عباس**) عند ابن جرير وابن عساكر، ووقع للزركشي، وابن كثير، والحافظ في الفتح في كتاب الأنبياء: أنهم عزوه لصحيح البخاري.

قال الشامي: ولم أظفر به، فيه (**ما بعث الله نبيًا من الأنبياء،**) وفي رواية: لم يبعث الله نبيًا من آدم، فمن بعده، (**إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ، وهو،**) أي: ذلك النبي (**حي ليؤمنن به ولينصرنه،**) ويأخذ العهد بذلك على قومه، هذا بقية المروي عن علي وابن عباس، كما تقدم، ثم هو موقوف لفظًا، مرفوع حكمًا، لأنه إخبار عن غيب، فلا مجال للرأي: فيه، ويحتمل أنهما قالاه فهمًا للآية، والظاهر الأول، ولذا اقتصرت عليه أول الكتاب، (**وما قاله قتادة والحسن وطاوس،**) من أن المعنى أخذ على كل نبي أن يؤمن بمن بعده (**لا يضاد،**) لا يخالف (**ما قاله علي وابن عباس، ولا ينفيه، بل يستلزمه،**) لأنه إذا صدق بعضهم بعضًا، لزم أن يكونوا مأمورين بالإيمان بالمصطفى ونصره، (**ويقتضيه**) عطف تفسير.

(**وقيل معناه: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم، بأنه إذا بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه،**) وعلى هذا، فإضافة الميثاق إلى النبيين إضافته للفاعل، والمعنى وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم، قاله البيضاوي.

أخذ اللّه الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه، وكان الأنبياء عند مبعث محمد ﷺ من جملة الأموات، والميت لا يكون مكلفًا، فتعين أن يكون الميثاق مأخوذًا على الأمم. قالوا: ويؤكد هذا، أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء، وإنما يليق بالأمم.

وأجاب الفخر الرازي: بأن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ. ونظيره قوله تعالى ﴿**لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾ [الزمر/٦٥]، وقد علم اللّه تعالى أنه لا يشرك قط، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض، وقال تعالى: ﴿**ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين**﴾ [الحاقة/٤٦] وقال في

(**واحتج له بأن الذين أخذ اللّه الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه، وكان الأنبياء عند مبعث محمد ﷺ من جملة الأموات،**) لا يرد عيسى وإدريس على حياتهما، والخضر على حياته ونبوته، لأن الحكم للأكثر، (**والميت لا يكون مكلفًا، فتعين أن يكون الميثاق مأخوذًا على الأمم، قالوا: ويؤكد،**) أي: يقوى (**هذا**) القول؛ (**أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق، أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين،**) بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ [آل عمران/٨٢]، (**وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء،**) أي: لا يجوز عليهم، (**وإنما يليق بالأمم،**) لجوازه عليهم.

(**وأجاب الفخر الرازي،**) وفي نسخة: وأجاب القفال، والظاهر فسادها، وفي أخرى: وأجيب، (**بأن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ،**) كما قال: ﴿لو كان موسى حيًا ما وسعه﴾، إلا إتباعي، (**ونظيره قوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر/٦٥]، وقد علم اللّه تعالى؛ أنه لا يشرك قط، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض،**) والمراد به تهييج الرسل، وإقناط الكفرة، والإشعار على حكم الأمة، والخطاب باعتبار كل واحد.

(**وقال تعالى: ﴿ولو تقول﴾،**) النبي، (**﴿علينا بعض الأقاويل﴾،**) بأن قال علينا ما لم نقله، سمي الافتراء تقولاً، لأنه قول متكلف، والأقوال المفتراة أقاويل، تحقيرًا لها، كأنها جمع أفعولة من القول، كأضاحيك، (**﴿لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾**) [الحاقة/٤٤]، أي: نياط قلبه بضرب عنقه، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك ممن يغضبون عليه، وهو أن

الملائكة: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء/ ٢٩]، مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ [الأنبياء/٢٧] وبأنهم ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ [النحل/٥٠]، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير. وإذا نزلت هذه الآية على أن الله أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد لو كانوا في الأحياء، وأنهم لو تركوا ذلك لصاروا في جملة الفاسقين، فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجبًا على أممهم من باب أولى. فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المقصود.

وقال السبكي في هذه الآية: إنه عليه الصلاة والسلام على تقدير مجيئهم في زمانه يكون مرسلاً إليهم. فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق، من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله عليه الصلاة والسلام: وبعثت إلى الناس كافة لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم

يأخذ القتال بيمينه، ويكفحه بالسيف، ويضرب جيده، وقيل: اليمين بمعنى القوة، قاله البيضاوي.

(وقال في الملائكة: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه﴾) أي: الله، أي: غيره، (﴿فذلك نجزيه جهنم﴾)، كذلك، كما جزيناه نجزي الظالمين، (مع أنه تعالى أخبر عنهم؛ بأنهم ﴿لا يسبقونه بالقول﴾،) لا يأتون بقولهم إلا بعد قوله، (وبأنهم ﴿يخافون﴾،) أي: الملائكة حال من ضمير يستكبرون، (﴿ربهم من فوقهم﴾) حال من هم، أي: عاليًا عليهم بالقهر، (فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير، وإذا نزلت هذه الآية:) ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾، (على أن الله أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد، لو كانوا في الأحياء، وأنهم لو تركوا ذلك) فرضًا وتقديرًا، (لصاروا في جملة الفاسقين،) حاشاهم، (فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجبًا على أممهم من باب أولى،) لأنه إذا أمر المتبوع بذلك، فكيف بالتابع، (فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المقصود،) بالتعظيم له، لشموله للأمم بالأخروية، بخلاف حمله على الأمم.

(وقال السبكي) الكبير في رسالة صغيرة، سماها التعظيم والمنة في: ﴿لیؤمنن به ولينصرنه﴾ [آل عمران/٨١]، (في هذه الآية،) أفادت (إنه عليه الصلاة والسلام على تقدير مجيئهم،) أي: النبيين (في زمانه، يكون مرسلاً إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته) مع بقاء الأنبياء على نبوتهم، (ويكون قوله عليه الصلاة والسلام،) في حديث رواه الشيخان وغيرهما: (وبعثت

القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضًا، وإنما أخذ المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه المقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم.

وفي أخذ المواثيق ـ وهي في معنى الاستحلاف، ولذلك دخلت «لام» القسم في لتؤمنن به ولتنصرنه ـ لطيفة: وهي كأنها أيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء، ولعل أيمان الخلفاء أخذت من هنا.

فانظر هذا التعظيم العظيم للنبي ﷺ من ربه تعالى، فإذا عرف هذا فالنبي ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه،

إلى الناس كافة،) قومي وغيرهم من العرب والعجم، **(لا يختص به الناس،)** الكائنون **(من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضًا،)** وذكر نحوه البارزي في توثيق عرا الإيمان، وادعى بعض أن ما ذكره السبكي غريب، لا يوافقه عليه من يعتد به، والجمهور على أن المراد بالكافة ناس زمنه، فمن بعدهم إلى يوم القيامة، ودفعه شيخنا لما ذكرته له بأنه لا ينافي كلام الجمهور، إلا إذا أريد التبليغ بالفعل، أما إذا أريد بالبعث اتصافه بكونهم مأمورين في الأزل؛ بأن يتبعوه إذا وجد، كما هو صريح كلامه، فلا يخالفه واحد فضلاً عن الجمهور.

(وإنما أخذ المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه المقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم،) مع بقائهم على النبوة والرسالة، ولذا لما أثنى على ربه في المعراج، قال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد، **(وفي أخذ المواثيق)** خبر مقدم، **(وهي في معنى الاستحلاف)** (بحاء مهملة)، أي: طلب اليمين، قال ذلك، لأن الميثاق لغة العهد، **(ولذلك دخلت لام)** جواب **(القسم في ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾،)** وجواب الشرط محذوف إن جعلت ما بمعنى الشرط، وقرىء بفتح اللام، أما على قراءة لما بكسرها، وجعل ما مصدرية، فهو جواب القسم في: ﴿وإذ أخذ الله..﴾، الخ.

(لطيفة) مبتدأ مؤخر، **(وهي كأنها إيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء)** على الناس بالطاعة، **(ولعل إيمان الخلفاء أخذت من هنا، فانظر)** نظر تدبر وتأمل، **(هذا التعظيم العظيم للنبي ﷺ من ربه تعالى، فإذا عرف هذا، فالنبي ﷺ نبي الأنبياء،)** أي: مبعوث إليهم لأخذ الميثاق عليهم بإيمانهم به، أن أدركوه، والمراد بالنبوة هنا الرسالة، أي: أنه رسول إلى جميع الأنبياء، أي: أوحى إليه بتبليغهم عن الله تعالى حتى لو اجتمع بواحد منهم في زمانه كان مرسلاً إليه، مع بقائه على رسالته ونبوته، **(ولهذا ظهر ذلك في الآخرة،)** أي: كونه نبي الأنبياء، **(جميع الأنبياء،)** بالرفع بدل من ذلك، أو بيان له **(تحت لوائه،)** كما قال في أحاديث، **(و)** ظهر **(في**

وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته عليه السلام عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل لهم في حياتهم، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه. وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل، فههنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من جهة ذات النبي الشريفة، وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتي عيسى عليه السلام في آخر الزمان على شريعته، وهو نبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحدًا من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبي، وإنما يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ بالقرءان والسنة، وكل ما فيهما من أمر ونهي، فهو متعلق

الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم) إمامًا، **(ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى،)** وباقي الأنبياء والمرسلين، **(وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته عليه السلام عليهم ورسالته إليهم، معنى حاصل لهم في حياتهم، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه، وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل،)** وهو ذاته ﷺ من حيث قابلة للرسالة؛ بأن يوحى إليها، **(وتوقفه على أهلية الفاعل،)** وهو أمر بالتبليغ، لأنه يفعل ما أمر به من تبليغ ما أمر به، ويأمر وينهي، وهي ذاته، فتطلق عليها محلاً وفاعلاً باعتبارين، **(فههنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من جهة ذات النبي الشريفة، وإنما هو من جهة وجود العصر:)** الزمن **(المشتمل عليه، فلو وجد في عصرهم، لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتي عيسى في آخر الزمان على شريعته،)** أي: نبينا، بمعنى أنه مأمور بالعمل بها، لكونه مأمورًا بأتباعه، **(وهو نبي كريم على حاله لا كما يظن بعض الناس؛ أنه يأتي واحدًا من هذه الأمة،)** ليس متصفًا بنبوته، وحذف هذه الصفة تأدبًا، قال السيوطي: وسبب هذا الظن تخيله ذهاب صفة النبوة منه، وهو فاسد، لأنه لا يذهب أبدًا ولا بعد موته.

(نعم، هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من إتباعه للنبي، وإنما يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ بالقرآن والسنة،) وأخذه لها من النبي ﷺ بلا واسطة، لأنه اجتمع به غير مرة، فلا مانع أنه تلقى منه أحكام شريعته، المخالفة لشرع الإنجيل، لعلمه بأنه ينزل في أمته، ويحكم فيهم بشرعه، وإلى هذا أشار جماعة من العلماء، أو يتلقاها عنه، إذا نزل، لأنه يجتمع به في

به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبي كريم على حاله لم ينقص منه شيء.

وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو في زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبي ﷺ نبي عليهم ورسول إلى جميعهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم. وتتفق مع شرائعهم في الأصول، لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع، إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو لا نسخ ولا تخصيص بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة هذه الشريعة، والأحكام تختلف باختلاف

الأرض، كما صرح به في أحاديث، فلا مانع أن يأخذ عنه ما احتاج إليه من أحكام شرعه، ذكره السيوطي، وتقدم له مزيد في خصائص الأمة.

(**وكل ما فيهما من أمر ونهي، فهو متعلق به، كما يتعلق بسائر الأمة،**) من حيث كونه مأمورًا بهما كغيره، وفي نسخة: لا، كما يتعلق بلا النافية، أي: لأن تعلقه به قطعي من حيث إنه إذا اجتهد في أخذ شيء منهما كان قطعيًا مطابقًا للواقع، بخلاف أخذ غيره من الأمة، فظني قد لا يصيب فيه، (**وهو نبي كريم على حاله، لم ينقص منه شيء،**) إذ النبوة لا تذهب بالموت، فكيف بمن هو حي، (**وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه، أو في زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم، كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبي ﷺ نبي عليهم، ورسول إلى جميعهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم،**) لكونها للأنبياء والأمم جميعًا، بخلاف غيره، فكل إلى أمته.

(**وتتفق مع شرائعهم في الأصول، لأنها لا تختلف،**) كما قال تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ [الشورى/١٣]، وقال ﷺ في حديث: «والأنبياء أولاد علاّت، أمهاتهم شيء ودينهم واحد» رواه الشيخان، وعلات بفتح المهملة وشد اللام وفوقية، أي: ضرائر من رجل واحد.

(**وتقدم شريعته فيما عساه**) يختلف، أو (**يقع الاختلاف فيه من الفروع، إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو لا نسخ ولا تخصيص، بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة هذه الشريعة**) التي جاء بها عليه السلام.

الأشخاص والأوقات، وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيا عنا.

أحدهما: قوله ﷺ: بعثت إلى الناس كافة، كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد، كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده الشريف

(**والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات،**) كعادم الماء لمرض أو سفر فرضه التيمم، واعترض بأن النصوص العقلية والنقلية ناطقان بخلافه، كقوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ [النساء/١٦٣]، وما في معناها من الآيات، والأنبياء مع تعظيمهم له، ومحبتهم ليسوا مكلفين بأحكام شرعه، وإلا لم يكونوا أصحاب شرع، فالمحبة والتعظيم معنى، والتعبد بشرعه معنى آخر، ولا عبرة بظنهما أمرًا واحدًا، وقوله: ﴿لتؤمنن به﴾، دون بشرعه، مناد عليه، فما تبجح به السبكي واستحسنه هو ومن بعده لا وجه له عند من له أدنى بصيرة نقادة، وكيف يتأتى ما قاله مع قوله تعالى: ﴿أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا﴾ [النحل/١٢٣]، فإنه عكسه، وقد طلب موسى أن يكون من أمته، فأجابه الله بقوله: استقدمت واستأخر، ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال. انتهى، وتعسفه لا يخفى، فإن قوله ذلك من جملة مدخول لو في قوله: لو بعث في زمان عيسى أو موسى إلى آخره، فسقط جميع ما قاله، ومن أقوى تعسفه قوله: ليسوا مكلفين بأحكام شرعه، فإنه لم يدع تكليفهم به، بل إن شعائرهم على تقدير وجوده في أزمانهم شرع له فيهم.

(**وبهذا بان:**) ظهر واتضح (**لنا معنى حديثين كانا خفيا،**) أي: بعد إدراكهما (**عنا، أحدهما قوله ﷺ: بعثت إلى الناس كافة، كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه جميع الناس أولهم وآخرهم.**

(**والثاني قوله ﷺ: كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد،**) رواه أحمد والبخاري في التاريخ، وأبو نعيم وغيرهم: (**كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك**) على ما شرحناه، يعني بقوله أولاً أنه قد جاء أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد يكون قوله كنت نبيًا، إشارة إلى روحه وحقيقة من الحقائق، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفته، وإنما يعلمها خالقها، ومن أمده بنور إلهي، ويؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء، فحقيقته ﷺ قد تكون من حين خلق آدم، أتاها ذلك الوصف، بأن يكون خلقها متهيئة لذلك، وإفاضة عليها من ذلك الوقت، فصار نبيًا، فحقيقته موجودة من ذلك الوقت، وإن تأخر جسده المتصف بها، إلى أن قال: فقد علم أن من فسره بعلم الله؛ بأنه سيصير نبيًا لم يصل إلى هذا المعنى، لأن علمه

وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه لا بالنسبة إليه ولا إليهم، لو تأهلوا قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف فههنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل، وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذي يخاطبهم بلسانه.

وهذا كما يوكل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفؤًا، فالتوكيل صحيح وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل التوقف أي توقف التصرف على وجود الكف، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح في صحة الوكالة وأهلية التوكيل، انتهى.

محيط بجميع الأشياء، ووصفه ﷺ بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يعلم منه أمر ثابت له في ذلك الوقت، ولو كان المراد مجرد العلم لم تكن له خصوصية؛ بأنه نبي وآدم بين الروح والجسد، لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم في ذلك الوقت وقبله، فلا بد من خصوصية له لأجلها، أخبر بهذا الخبر ليعرف قدره عند الله. انتهى.

(وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده الشريف وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم، وتأهلهم لسماع كلامه، لا بالنسبة إليه، ولا إليهم، لو تأهلوا قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف، فههنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل، وهو المبعوث إليهم، وقبولهم سماع الخطاب، والجسد الشريف الذي يخاطبهم بلسانه، وهذا كما يوكل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفؤًا، فالتوكيل صحيح، وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل التوقف، أي: توقف التصرف،) الأظهر في التعبير بقوله، والتصرف متوقف، **(على وجود الكفء، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح في صحة الوكالة وأهلية التوكيل،)** وهذا المثال ظاهر في حديث: «بعثت إلى الناس كافة». **(انتهى،)** كلام السبكي في رسالته، وهي نحو ورقتين، كما ذكر المصنف سواء بسواء، فمن كتب على قوله والأوقات، إلى هنا انتهى كلام السيوطي، لم يقف على رسالته فرجم بالغيب، والله تعالى أعلم

النوع الثالث

في وصفه تعالى له بالشهادة وشهادته له بالرسالة

قال اللّه تعالى حكاية عن إبراهيم وإسمعيل ـ عليهما السلام ـ عند بناء البيت الحرام: ﴿**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**﴾ [البقرة/ ١٢٧ـ ١٢٩].

فاستجاب اللّه دعاءهما، وبعث في أهل مكة منهم رسولاً بهذه الصفة من

(النوع الثالث:)

(**في**) بيان ما يدل على (**وصفه تعالى له**) ﷺ، (**بالشهادة**) على وحدانية اللّه وغيرها، مما يأتي في: ﴿إنا أرسلناك شاهدًا﴾ [الأحزاب/٤٥]، (**وشهادته**) تعالى (**له بالرسالة**،) أي: إخباره بذلك، فالشهادة خبر قاطع، كما في القاموس وغيره.

(**قال اللّه تعالى حكاية عن إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام**،) أي: ما وقع منهما من الألفاظ الحادثة، المنزلة على المصطفى، وإيجادها متأخر عن بعثته، فلا يرد أن كلامه تعالى قديم سابق على قولهما، فكيف يكون حكاية لما قالاه (**عند**) تمام (**بناء البيت**،) إذ الدعاء إنما كان بعد أن فرغا من بنائه (**الحرام**) أي: الكعبة، إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل، (﴿**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع**﴾) للقول، (﴿**العليم**﴾) بالفعل، (﴿**ربنا واجعلنا مسلمين**﴾،) منقادين (﴿**لك، و**﴾) اجعل (﴿**من ذريتنا**﴾) أولادنا (﴿**أمة**﴾) جماعة (﴿**مسلمة لك**﴾،) ومن للتبعيض، وأتى به لتقدم قوله له: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة/١٢٤] الآية، (﴿**وأرنا**﴾) علمنا (﴿**مناسكنا**﴾) شرائع عبادتنا، أو حجنا، (﴿**وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم**﴾،) سألاه التوبة مع عصمتهما تواضعًا وتعليمًا لذريتهما، (﴿**ربنا وابعث فيهم**﴾،) أي: أهل البيت، (﴿**رسولاً منهم**﴾،) من أنفسهم (﴿**يتلو عليهم آياتك**﴾) القرآن، (﴿**ويعلمهم الكتاب**﴾) القرآن (﴿**والحكمة**﴾) ما فيه من الأحكام، (﴿**ويزكيهم**﴾،) يطهرهم من الشرك (﴿**إنك أنت العزيز**﴾،) الغالب (﴿**الحكيم**﴾) في صنعه، (**فاستجاب اللّه دعاءهما**،) بقولهما: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾، (**وبعث في أهل مكة منهم رسولاً بهذه الصفة من ولد إسمعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء**،) أفاد أن المبتدىء بالدعاء إبراهيم، فوافقه إسمعيل، فلذا خص إبراهيم في الخبر الآتي، لكونه المبتدىء به، وزعم أن الدعاء كان من إبراهيم وضم إليه إسمعيل لمشاركته له في الدعاء، بتأمينه عليه أو غيره فاسد، لأن التأمين من خصوصية هذه الأمة،

ولد إسمٰعيل الذي دعا مع أبيه إبرٰهيم عليهما السلام بهذا الدعاء.

فإن قلت: من أين علم أن الرسول هنا المراد به محمد ﷺ؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة.

الثاني: قوله عليه الصلاة والسلام: أنا دعوة أبي إبرٰهيم، وبشارة عيسى، قالوا: وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى هي ما ذكر في سورة الصف من قوله تعالى: ﴿**ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾ [الصف/٦].

الثالث: إن إبرٰهيم إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين كانوا بها وبما

كما مر في الخصائص، قال ﷺ: «وأعطيت آمين، ولم يعطها أحد ممن كان قبلكم إلا أن يكون الله أعطاها نبيه هٰرون، فإن موسى كان يدعو الله ويؤمن هٰرون»، رواه ابن مردويه وغيره.

(**فإن قلت: من أين علم أن الرسول هنا، المراد به محمد ﷺ، فالجواب من وجوه**) ثلاثة.

(**أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة**) قوية.

(**الثاني: قوله عليه الصلاة والسلام**) في حديث أخرجه الطيالسي والحارث والديلمي وابن عساكر: (**أنا دعوة أبي إبرٰهيم،**) أي: صاحب دعوته، إذ لا يصح الإخبار بالمصدر، (**وبشارة**) أخي (**عيسى،**) وفي رواية ابن عساكر: وكان آخر من بشر بي عيسى بن مريم، وفائدة إخبار المصطفى بذلك بعد علمه ثبوت وقوعه، مقدرًا له ذلك في الأزل، التنويه بشرفه وكونه مطلوب الوجود، تاليًا للآيات، معلمًا للكتاب والحكمة، مطهرًا للناس من الشرك، معروفًا عند جميع الأنبياء، (**قالوا**) ليس مراده التبري، بل الحكاية عن كل العلماء، (**وأراد بالدعوة هذه الآية،**) وخصه، لأنه المبتدىء كما مر، (**وبشارة عيسى هي**) هكذا في النسخ الصحيحة خبر بشارة، وفي نسخة سقيمة وهي بزيادة واو، ولا يحسن عطف بشارة على قوله هذه الآية، لأن المعنى عليه يصير حاصله أراد ببشارة عيسى، ولا يخفى ما فيه (**ما ذكر في سورة الصف من قوله تعالى: ﴿ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾** [الصف/٦]،) سماه به، لأنه مسمى به في الإنجيل، ولأنه أبلغ من محمد، بشر عيسى قومه بذلك، ليؤمنوا به عند مجيئه، أو ليكون معجزة لعيسى عند ظهوره.

(**الثالث: أن إبرٰهيم إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين كانوا بها وبما حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة**) من ذرية إبرٰهيم وإسمٰعيل، (**إلا محمدًا ﷺ،**) فتعين أنه المراد،

حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة إلا محمدًا ﷺ. وقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعث النبي منهم على هذه الصفة فقال: ﴿**لقد منَّ الله على المؤمنين بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب**﴾ الآية، [آل عمران/١٦٤]، فليس لله تعالى منة على المؤمنين أعظم من إرسال محمدًا ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم، لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله تعالى الذي رضيه لعباده.

وقوله: ﴿**من أنفسهم**﴾ يعني أنه بشر مثلهم، وإنما امتاز عليهم بالوحي.

وقرىء في الشواذ من أنفسهم ـ بفتح الفاء ـ يعني من أشرافهم، لأنه من بني

(**وقد امتن الله تعالى**،) وفي نسخة: من، وهما بمعنى أنعم مطلقًا، أو على من لا يطلب، ويكون بمعنى تعداد النعم (**على المؤمنين، ببعث النبي منهم على هذه الصفة، فقال: ﴿لقد منّ**﴾ أنعم (﴿**الله على المؤمنين**﴾،) ولا يحمد المن إلا من الله تعالى، لأنه بمنه يذكر العبد، فيبعثه على الشكر، فيثيبه، ومن الخلق قبيح مطلقًا، ولذا قال لنبيه: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [المدثر/٦]، فالمن إذًا حرام عليه، مكروه لغيره، وقيل بحرمته أيضًا، (﴿**بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾) من جنسهم يعرفون حاله، وأنه ما قرأ ولا درس، وقد جاءه العلم دفعة، فقص سير الأولين والآخرين على ما هي عليه، فيعلم العاقل أنه أمر خارق من عند الخالق، كل ذلك إبلاغ في ظهور حجته ووضوح معجزته، فكيف يليق أن يجعل المقتضى مانعًا، فليحدون ويجحدون، قاله ابن المنير في تفسيره.

(﴿**يتلو عليهم آياته**﴾) القرآن (﴿**ويزكيهم**﴾)، يطهرهم من الذنوب، (﴿**ويعلمهم الكتاب**﴾ القرآن، بالنصب، أي: اقرأ أو اذكر، (**فليس لله تعالى منة على المؤمنين أعظم من إرسال محمد ﷺ يهدي إلى الحق**:) الإسلام، أو العقائد، (**وإلى طريق مستقيم**) من الشرائع، (**وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم، لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله تعالى**:) أحكامه وفرائضه، (**الذي رضيه**:) اختاره (**لعباده**،) كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾ [المائدة/٣] الآية، (**وقوله: ﴿من أنفسهم﴾، يعني أنه بشر مثلهم، وإنما امتاز عليهم بالوحي**،) لا ملك ولا أعجمي، (**وقرىء في الشواذ: من أنفسهم (بفتح الفاء)، يعني من أشرافهم**،) وإذا كان من أشرفهم كان منهم ضرورة، (**ولأنه من بني هاشم وبنو هاشم، أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم**،) وقد مر تفاصيل ذلك في المقصد الأول، وكذا

هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم.

ثم قيل: لفظ المؤمنون عام، ومعناه خاص في العرب، لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به أكثر، فالنعمة عليهم أعظم.

فإن قلت: هل العلم بكونه ﷺ بشرًا، ومن العرب، شرط في صحة الإيمان، وهو من فروض الكفاية.

أجاب الشيخ ولي الدين بن العراقي: أنه شرط في صحة الإيمان. قال: فلو قال شخص: أؤمن برسالة محمد ﷺ إلى جميع الخلق، ولكن لا أدري هل هو من البشر أو من الملائكة، أو من الجن، أو لا أدري أو هو من العرب أو العجم،

قريء، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ الآية، (بفتح الفاء)، كما مر أيضًا.

(**ثم قيل: لفظ المؤمنون عام، ومعناه خاص في العرب،**) لأن المراد المؤمنين منهم، وفي الظرفية تسمح، إذًا التخصيص إنما هو بكون المؤمنين من العرب، لا بكون المؤمنين فيهم، ولو من غيرهم، ويمكن تعلق في العرب بمقدر، كالدليل معناه خاصًا، أي: وإنما كان مخصوصًا بالعرب، لأن بعثه فيهم، ويحتمل تعلقه بمعناه تجوزًا لا حقيقة، إذ العموم والخصوص من عوارض الألفاظ دون المعنى، (**لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده**) (بفتحات)، أي: له عليه ولادة، إما بكونه جدة، أو جدًا.

وفي البغوي قيل: أراد العرب، لأنه ليس حي منهم إلا وله فيهم نسب إلا بني تغلب، دليله هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، وقيل: أراد جميع المؤمنين، ومعنى قوله من أنفسهم بالإيمان، والشفقة بالنسب، دليله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾، (**وخص المؤمنين بالذكر**) مع أن نعمة البعثة عامة، (**لأنهم هم المنتفعون به أكثر، فالنعمة عليهم أعظم**)، فلا ينافي قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأحزاب/٤٥]، (**فإن قلت: هل العلم بكونه ﷺ بشرًا، ومن العرب شرط في صحة الإيمان، وهو من فروض الكفاية**) على الأبوين مثلاً، فإذا علم أحدهما ولده المميز ذلك سقط طلبه عن الآخر.

(**أجاب الشيخ ولي الدين**) أحمد (**بن**) عبد الرحيم (**العراقي**)، الحافظ، ابن الحافظ: (**أنه شرط في صحة الإيمان، قال: فلو قال شخص أؤمن برسالة محمد ﷺ إلى جميع الخلق، ولكن لا أدري هل هو من البشر، أو من الملائكة، أو من الجن، أو لا أدري، أو هو من العرب، أو العجم، فلا شك في كفره لتكذيبه القرآن،**) لقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في

فلا شك في كفره لتكذيبه القرءان وجحده ما تلقته قرون الإسلام خلفًا عن سلف، وصار معلومًا بالضرورة عند الخاص والعام، ولا أعلم في ذلك خلافًا. فلو كان غبيًا لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإن جحده بعد ذلك حكمنا بكفره. انتهى.

فإن قلت: هل هو عليه الصلاة والسلام باق على رسالته إلى الآن؟

أجاب أبو المعين النسفي: بأن الأشعري قال: إنه عليه الصلاة والسلام الآن

الأميين رسولاً منهم﴾ [الجمعة/٢]، وقال تعالى: ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ [هود/٣١]، **(وجحده ما تلقته قرون الإسلام خلفًا عن سلف، وصار معلومًا بالضرورة عند الخاص والعام، ولا أعلم في ذلك خلافًا، فلو كان غبيًا:)** (بمعجمة فموحدة) جاهلاً قليل الفطنة، **(لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإن جحده،)** أي: المعلوم بالضرورة، **(بعد ذلك حكمنا بكفره،)** لأن إنكاره كفر، أما إنكاره أليس ضروريًا، فليس كفرًا، ولو جحده بعد التعليم على ما اقتضاه شراح البهجة لشيخ الإسلام زكريا. **(انتهى)** جواب الولي.

وتعقيبه بعض شراح مسلم بقول الحليمي في منهاجه الإيمان به ﷺ، أي: التصديق بأنه رسول إلى الأنس والجن إلى قيام الساعة، يتضمن الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، فلذا اكتفي به في المقارنة للإيمان بالله تعالى، ومن آمن به ﷺ، وقال: لا أدري أكان بشرًا، أم ملكًا، أم جنيًا، لم يضره ذلك إن كان ممن لم يسمع شيئًا من أخباره سوى أنه رسول الله، كما لو يعلم أنه كان شابًا، أو شيخًا مكيًا، أو عراقيًا، أو عجميًا، لأن شيئًا من ذلك لا ينافي الرسالة، لإمكان اجتماعهما، بخلاف ما لو قال آمنت بالله، ولا أدري أجسم هو أم لا؟، لأن الجسم لا يمكن أن يكون إلهًا، فتبين بذلك أن معرفته ﷺ ليست شرطًا في صحة ابتداء الإيمان، وإنما هي واجبة بعد ذلك لأجل أن لا يقع في شيء مما ينقص مقامه الشريف، فليتأمل. انتهى.

(فإن قلت: هل هو عليه الصلاة والسلام باق على رسالته إلى الآن،) بعد الموت إلى الأبد؟.

(أجاب أبو المعين) ميمون بن محمد بن سعيد بن مكحول **(النسفي)** الحنفي، صاحب التبصرة، في علم الكلام والتمهيد لقواعد التوحيد وغيرهما، وهو غير صاحب الكنز عبد الله بن أحمد، وغير صاحب التفسير عمر بن محمد، وغير صاحب العقائد البرهان محمد بن محمد، وكلهم حنفيون من نسف: (بفتح النون والمهملة وبالفاء) مدينة بما وراء النهر، **(بأن الأشعري قال: إنه عليه الصلاة والسلام الآن في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى،)** قضيته أن وصفه بأنه رسول

في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى.

وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية بعد موته عليه الصلاة والسلام حقيقة، كما يبقى وصف الإيمان للمؤمن بعد موته، لأن المتصف بالنبوة والرسالة، والإيمان هو الروح وهي باقية لا تتغير بموت البدن بإجماع انتهى.

وتعقب: بأن الأنبياء أحياء في قبورهم، فوصف النبوة باق للجسد والروح معًا.

وقال القشيري: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أو بلغ عني، وكلامه تعالى قديم، فهو عليه الصلاة والسلام قبل أن يوجد كان رسولاً. وفي حال كونه وإلى الأبد رسولاً، لبقاء الكلام وقدمه، واستحالة البطلان على الإرسال الذي هو

انقطع بموته، لكن بقاء حكمها نزل منزلة بقائها، فهي باقية حكمًا لا حقيقة.

(**وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية**) كل منهما، أو لاتحادهما في صفة الإيحاء، فكأنهما شيء واحد، أو بناء على اتحادهما، فلا يرد أن الأولى للمطابقة باقيتان، (**بعد موته عليه الصلاة والسلام حقيقة، كما يبقى وصف الإيمان للمؤمن بعد موته، لأن المتصف بالنبوة والرسالة والإيمان هو الروح، وهي باقية لا تتغير بموت البدن بإجماع. انتهى**).

(**وتعقب**) هذا التعليل، (**بأن الأنبياء أحياء في قبورهم**،) كما صرحت به الأحاديث، (**فوصف النبوة باق للجسد والروح معًا**،) أي: الاتصاف بالنبوة مع الرسالة، وإن انقطع العمل بشرائعهم سوى شريعة نبينا ﷺ.

(**وقال القشيري: كلام الله تعالى**) النفسي، الأزلي، لا الألفاظ الدالة عليه، (**لمن اصطفاه أرسلتك، أو بلغ عني، وكلامه تعالى قديم، فهو عليه الصلاة والسلام قبل أن يوجد كان رسولاً**،) بقوله: ﴿أرسلتك﴾، أو بلغ عني، (**وفي حال كونه**) أي: وجوده خارجًا بعد تكوينه وإيجاده رسولاً، وإن تأخر الأمر بالتبليغ إلى بعد الوحي، وتقدم تقريبه، بأن من أقر لولده الصغير بشيء يصح أن يقال أعطاه ذلك الشيء، مع أن الصبي في هذا الحال ليس أهلاً للتصرف، وفي نسخة: وفي حال موته، وعليها يكون ساكتًا عن حال وجوده للعلم به، (**وإلى الأبد رسولاً لبقاء الكلام، وقدمه، واستحالة البطلان على الإرسال الذي هو كلام الله تعالى**،) وهذا ظاهر على ما هو الراجح من أن كلامه تعالى الأزلي، يتنوع حقيقة إلى أمر ونهي، وخبر واستخبار وغير ذلك.

كلام الله تعالى.

ونقل السبكي في طبقاته، عن ابن فورك أنه قال إنه عليه السلام حي في قبره، رسول الله أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز.

وقال تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** [الجمعة/٢].

والمراد بالأميين: العرب، تنبيهًا لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين، لا كتاب لهم، وليس عندهم شيء من آثار النبوة، كما كان عند أهل

(ونقل السبكي في طبقاته عن ابن فورك،) (بضم فسكون) **(أنه عليه السلام حي في قبره، رسول الله أبد الآباد،)** أي: في جميع الأزمنة، الصادق بما بعد موته إلى قيام الساعة، **(على الحقيقة لا المجاز،)** لحياته في قبره، يصلي فيه بأذان وإقامة.

قال ابن عقيل الحنبلي: ويضاجع أزواجه ويستمتع بهن أكمل من الدنيا، وحلف ذلك، وهو ظاهر ولا مانع منه.

(وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾) نسبًا محمدًا ﷺ، **(﴿يتلو عليهم آياته﴾،)** القرآن، **(﴿ويزكيهم﴾)** يطهرهم من الشرك، **(﴿ويعلمهم الكتاب﴾)** القرآن **(﴿والحكمة﴾)** ما فيه من الأحكام، **(﴿وإن﴾)** مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: وإنهم **(﴿كانوا من قبل﴾)** قبل مجيئه **(﴿لفي ضلال مبين﴾)** بيّن.

(والمراد بالأميين العرب،) سموا بذلك، لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون، وكانت الكتابة معدومة فيهم إلا نادرًا لا حكم له، ثم أطلق على من كتب منهم، ومن لم يكتب تغليبًا، والأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ الخط، وإن قرأ ما حفظه بالسماع من غيره، وقيل: الذي يقرأ ولا يكتب.

(تنبيهًا لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين، لا كتاب لهم، وليس عندهم شيء من آثار النبوة،) لا يرد أنه كان عندهم بقايا من شرع إبراهيم، كالحج والغسل من الجنابة، لأنهم لما اشتغلوا عنها بعبادة الأصنام، وغيروا البقايا عن وجهها، كأنها لم تكن عندهم، **(كما كان عند أهل الكتاب)** بقايا قليلة، **(فمنّ الله عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضل الأمم،)** أي: الذين آمنوا منهم.

الكتاب، فمنَّ الله عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضل الأمم.

وفي كونه عليه الصلاة والسلام منهم فائدتان:

إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضًا أميًا كأمته المبعوث إليهم، لم يقرأ كتابًا قط ولم يخطه بيمينه، كما قال تعالى: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك**﴾ [العنكبوت/٤٨]، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم، بل لم يزل أميًا بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين، وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق الأرض ونظارها أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه، وفي هذا برهان عظيم على صدقه.

(**وفي كونه عليه الصلاة والسلام منهم فائدتان: إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضًا أميًا، كأمته المبعوث إليهم، لم يقرأ كتابًا قط، ولم يخطه:**) يكتبه (**بيمينه، كما قال تعالى:** ﴿**وما كنت تتلو**﴾،) تقرأ (﴿**من قبله**﴾) أي: الكتاب المذكور في قوله: ﴿وكذلك أنزلنا عليك الكتاب﴾ [العنكبوت/٤٧] الآية، أي: القرآن، (﴿**من كتاب ولا تخطه بيمينك**﴾) [العنكبوت/٤٨]، الجارحة التي يكتب بها، وذكرها زيادة تصوير لما نفى عنه من الكتابة، (**ولا خرج عن ديار قومه،**) عطف على قوله لم يقرأ، أي: خروجًا يقتضي تعلم شيء من غيره، كما أفاده قوله، (**فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم،**) فلا يرد خروجه مع عمه، وفي تجارة خديجة، لأنه لم يقم فيهما إقامة تقتضي التعلم منهم، (**بل لم يزل أميًا بين أمة:**) طائفة (**أمية**) لا تقرأ ولا تكتب، كيوم ولدتها أمهاتها على جبلتها، وتطرف من قال:

من أعجب الأشياء إني امرؤ عمي خالي وأبي أمي

(**لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم جاء بعد ذلك،**) أي: حضرا، وظهرا، وبعث (**بهذا الكتاب المبين**) اسم فاعل من أبان، بمعنى البين الواضح، أو بمعنى المظهر للشرائع وما فيها، والموضح لها، (**وهذه الشريعة الباهرة،**) الغالبة، الفاضلة على غيرها من الشرائع، (**وهذا الدين القيم**) هو أبلغ من المستقيم، باعتبار الوزن، لأنه صفة مشبهة تدل على الثبوت والدوام، والمستقيم أبلغ باعتبار صيغته الدالة على الطلب، فكأنه نفسه الذي يطلب قوامه، (**الذي اعترف حذاق الأرض ونظارها، أنه لم يقرع،**) أي: يصل (**العالم ناموس،**) رسول صاحب سر يبلغهم ما جاء به عن الله (**أعظم منه، وفي هذا برهان عظيم على صدقه،**) وامتنان وثناء عظيم.

(**الفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم، وهم الأميون، خصوصًا أهل مكة**

الفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم وهم الأميون، خصوصًا أهل مكة، يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفًا بذلك، وأنه لم يكذب قط، فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل؟ هذا هو الباطل. ولهذا سأل هرقل عن هذه الأوصاف واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

يعرفون نسبه وشرفه وصدقه، وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفًا بذلك، وأنه لم يكذب قط، فكيف كان يدع،) أي: يترك (**الكذب على الناس، ثم يفتري،)** يقول (**الكذب على الله عز وجل)** من تلقاء نفسه، (**هذا هو الباطل،)** والاستفهام إنكاري، (**ولهذا سأل هرقل)** (بكسر الهاء وفتح الراء، وإسكان القاف على المشهور) لا ينصرف للعلمية والعجمة.

وحكى الجوهري وغيره: سكون الراء وكسر القاف (**عن هذه الأوصاف، واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة،)** فقال: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله، إلى أن قال: وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا، فسيملك موضع قدمي هاتين.

(**وقد قال الله تعالى خطابًا له،)** خطاب شفقة وتسلية ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذين يقولون﴾، (**﴿فإنهم لا يكذبونك)** ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ [الأنعام/٣٣]، واستشكل ظاهره، لأن كذب القول يستلزم كذب قائله إلا أن يكون ناقلاً غير ملتزم للصحة، والنبي ﷺ إنما ذكره على أنه حق من عند الله، وأجيب بأن المراد ليس قصدهم تكذيبك، لأنك عندهم موسوم بالصدق، وإنما يقصدون تكذيبي والجحود بآياتي، أو لا يعتقدونك كاذبًا، وإنما ينسبون الكذب، لما جئت به عنادًا، أو لا يقولون عادتك الكذب لكننا ننكر النبوة، فلا يلزم أن تكون كذابًا، أو أنك غير متعمد للكذب، بل تخيلت أمرًا باطلاً، فالتكذيب المنفي بالنسبة لافتعاله وتعمده، فلا يكون عيبًا، قيل: وهذا أحسن التأويلات، وقيل: لا يخصونك بالتكذيب، وقيل: لا يكذبونك في السر ونقل ابن الجوزي عن قتادة: لا يكذبونك بحجة، بل بهتانًا وعنادًا.

وقال عياض: ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ، من تسليته تعالى له ﷺ وإلطافه في القول؛ بأن قرر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذبين له، معترفين بصدقه قولاً واعتقادًا، وكانوا يسمونه قبل النبوة الأمين، فدفع عنه بهذا التقرير ارتماض نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم

وقد قال اللَّه تعالى خطابًا له: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ [الأنعام/٣٣]. ويروى أن رجلاً قال: واللَّه يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب.

وروى أن المشركين كانوا إذا رأوه عليه السلام قالوا: إنه لنبي.

وعن علي: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت

لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فحاشاه من لو صم، وطوقهم بالمعاندة، بتكذيب الآيات حقيقة الظلم، إذ الجحد إنما يكون ممن علم الشيء، ثم أنكره، كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا﴾، [النمل/١٤]. انتهى.

(**ويروى أن رجلاً**) هو الحارث بن عامر بن نوفل، كما عند النسائي، عن ابن عباس.

وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: أن أناسًا من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن نتبعك تتخطفنا الناس، فنزلت: ﴿**وقالوا إن نتبع الهدى**﴾، فلعل الحارث هو المبتدي، (**قال: واللَّه يا محمد ما كذبتنا قط، فنتهمك اليوم، ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية،**) ظاهره أن المراد؛ فإنهم لا يكذبونك، وقد علم من رواية النسائي وابن جرير، أنها: ﴿**وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا**﴾ [القصص/٥٧]، (**رواه أبو صالح،**) مشهور بكنيته، واسمه ميزان البصري، مقبول من أواسط التابعين، خرج له الترمذي (**عن ابن عباس**) رضي اللَّه عنهما.

(**وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر**) بن نوفل بن عبد مناف: ووقع في الأنوار تسمية أبيه عثمن، وهو خلاف الروايات؛ أنه عامر، (**يكذب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمد من أهل الكذب،**) ووقع في الأنوار؛ أنه أتى النبي ﷺ، فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب، وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا، فرد اللَّه عليهم بقوله: ﴿**أو لم نمكن لهم حرمًا آمنًا**﴾ [القصص/٥٧].

(**وروي أن المشركين كانوا إذا رأوه عليه السلام، قالوا: إنه لنبي،**) ويتعللون بالأنفة عن اتباعه حتى لا يكونوا تابعين، ويأبى اللَّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

(**و**) روى الترمذي والحاكم (**عن علي، قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به،**) وفي نسخة مصححة من الشفاء: ما جئت بدون الباء، (**فأنزل اللَّه تعالى،**)

به، فأنزل الله تعالى الآية.

والمعنى: أنهم ينكرونه مع العلم بصحته. إذ الجحد لغة هو الإنكار مع العلم.

فإن قلت: فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿**ولقد كذبت رسل من قبلك**﴾ الآية [الأنعام/٣٤].

أجيب: بأنه على طريق الجحد، وهو يختلف باختلاف أحوالهم في الجهل، فمنهم من وقع منه ذلك لجهله، فحيث علم آمن، ومنهم من علم وأنكر كفرًا وعنادًا كأبي جهل. فيكون المراد بقوله: ﴿**فإنهم لا يكذبوك**﴾، قومًا مخصوصين منهم لا

لفظ روايتهما، فأنزل الله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾، (**والمعنى أنهم ينكرونه مع العلم بصحته، إذ الجحد لغة،**) كما صرح به الجوهري والمجد وغيرهما، (**هو الإنكار مع العلم**)، فهو محض عناد وبغي، (**فإن قلت: فما الجمع بين هذا**) ﴿**فإنهم لا يكذبوك**﴾، (**وبين قوله تعالى**) تلو هذه الآية: (﴿**ولقد كذبت رسل من قبلك**﴾)، فإن مفادها أنهم كذبوا؛ لأنها تسلية له، إذ قوله: ﴿فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ [الأنعام/٣٤]، معناه: فاصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا بإهلاك من كذبك، كما أهلكنا من كذب الرسل من قبلك، ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين، أي: ما فيه تسلية لك، قيل: كان الأولى المعارضة بقوله تعالى ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ [فاطر/٤] الآية، لصراحتها في التكذيب دون هذه، ورده شيخنا تقريرًا؛ بأن ما سلكه المصنف أولى، لأن هذه الآية صرح فيها بالقضية الشرطية، فلا تستلزم التكذيب بالفعل بخلاف، ولقد كذبت تستلزمه.

(**أجيب بأنه**) أي: التكذيب الصادر منهم (**على طريق الجحد**) لعلمهم بصدقه، وكذبوه عنادًا واستكبارًا عن الاتباع، فهم مصدقون في نفس الأمر، وإن كذبوا ظاهرًا، (**وهو يختلف باختلاف أحوالهم في الجهل، فمنهم من وقع منه ذلك لجهله**) لا جحدًا، (**فحيث علم آمن، ومنهم من علم وأنكر كفرًا وعنادًا، كأبي جهل، فيكون المراد بقوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ قومًا مخصوصين منهم**) وهم الذين كذبوا جهلاً، ثم آمنوا، أو المكذبون عنادًا، إذ هم مصدقون باطنًا، (**لا كلهم، وحينئذ فلا تعارض**) بين الآيتين. وفي الشفاء: من قرأ لا يكذبونك بالتخفيف، معناه لا يجدونك كاذبًا.

وقال الفراء والكسائي: لا يقولون إنك كاذب، وقيل: لا يحتجون على كذبك ولا يثبتونه،

كلهم، وحينئذٍ فلا تعارض.

وروي أن أبا جهل لقيه النبي ﷺ في بعض فجاج مكة فصافحه فقيل له: أتصافحه؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعًا لبني عبد مناف؟ فأنزل الله الآية، رواه ابن أبي حاتم.

والقرءان كله مملوء بالآيات الدالة على صدق هذا الرسول الكريم، وتحقيق رسالته، وكيف يليق بكمال الله تعالى أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته ويرفع شأنه، ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة

ومن قرأ بالتشديد، فمعناه لا ينسبونك إلى الكذب، وقيل: لا يعتقدون كذبك. انتهى، ومر له مزيد.

(وروي؛ أن أبا جهل لقيه النبي ﷺ في بعض فجاج مكة، فصافحه، فقيل له: أتصافحه) وأنت تعاديه، **(فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعًا لبني عبد مناف، فأنزل الله الآية:)** ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾، والجمع بين هذا وحديث علي؛ أنه صافحه وقال له: إنا لا نكذبك...الخ، وقال لسائله: والله إني...الخ، **(رواه ابن أبي حاتم)**.

ونقل البغوي وغيره عن السدي، قال التقى الأخنس بن شريق: وأسلم بعد ذلك وأبو جهل، فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟، فإنه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجابة، والندوة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش، فأنزل الله هذه الآية، وفي الشفاء: روي أن النبي ﷺ لما كذبه قومه حزن، فجاءه جبريل، فقال: ما يحزنك، قال: كذبني قومي، فقال: إنهم يعلمون أنك صادق، فأنزل الله هذه الآية، قال السيوطي: لم أجد هذا.

(والقرآن كله مملوء بالآيات الدالة على صدق هذا الرسول الكريم وتحقيق رسالته:) ثبوتها، **(وكيف)** استفهام إنكاري على من ينسب الكذب للنبي، أي: لا **(يليق بكمال الله تعالى أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب،)** مع قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾ [الأنعام/٢١]، **(ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك، ويؤيده،)** ويقويه، **(ويعلي كلمته، ويرفع شأنه:)** أمره، **(ويجيب دعوته،)** أي: جنسها، **(ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة:)** ألفاظ متقاربة، **(ما يضعف عنه قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه، مفترٍ، ساعٍ في الأرض بالفساد، ومعلوم أن شهادته،)** اطلاعه

ما يضعف عنه قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه، مفترٍ ساعٍ في الأرض بالفساد.

ومعلوم أن شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء، ومن ظن ذلك به وجوزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته إن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرءان كله مملوء من هذه الطريق، وهذه طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرءان رأيته ينادي على ذلك ويبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿**ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم**

(**سبحانه على كل شيء،**) كما قال: ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾ [سبأ/٤٧]، (**وقدرته على كل شيء، وحكمته، وعزته، وكماله المقدس،**) المطهر عما لا يليق به، (**يأبى ذلك كل الإباء:**) أشد الامتناع، (**ومن ظن ذلك به، وجوزه عليه، فهو من أبعد الخلق عن معرفته إن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة وصفة المشيئة،**) أي: أن جميع الناس يدركون كثيرًا من صفاته ويقرون بها، ومن حق من عرف شيئًا منها أن يعترف بما ظهر له من الأدلة باتصافه ﷺ بجميع صفات الكمال اللائقة بالأنبياء.

(**والقرآن كله مملوء من هذه الطريق، وهذه طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة الذين يستدلون بالله،**) أي: بذاته وصفاته، (**على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله،**) وليس الحكم مقصورًا على الذات من غير اعتبار، صفة زائدة عليها، كما تقول المعتزلة، (**وإذا تدبرت القرآن،**) أي: تأملت معانيه وتبصرت ما فيه، (**رأيته ينادي على ذلك، ويبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله تعالى،**) يتفكر به في حقائقه، فالمنتفع بالقرآن، المتأهل لأمره ونهيه هو الجامع بين الحفظ والفهم، وإتعاب النفس في تأمل ألفاظه ومعانيه.

(**قال تعالى: ﴿ولو تقول﴾**) الرسول الكريم (**﴿علينا بعض الأقاويل﴾؛**) بأن قال عنا ما لم نقله، (**﴿لأخذنا﴾**) لنلنا (**﴿منه﴾**) عقابًا (**﴿باليمين﴾**) بالقوة والقدرة، (**﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾**) نياط القلب، وهو عرق متصل به إذا انقطع مات صاحبه، (**﴿فما منكم من أحد﴾**) هو اسم ما، ومن زائدة لتأكيد النفي، ومنكم حال من أحد، وهو في الأصل نعت له، فلما قدم عليه أعرب حالاً (**﴿عنه حاجزين﴾**) [الحاقة/٤٤]، مانعين، خبر ما، وجمع، لأن أحدًا في سياق النفي، بمعنى

لقطعنا من الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة/٤٧]، أفتراه سبحانه وتعالى يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقرَّ من تقول عليه بعض الأقاويل، بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سننه في المتقولين عليه.

وقال تعالى: **﴿أم يقولون افترى على الله كذبًا فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾** [الشورى/٢٤] ههنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبرًا جازمًا غير معلق أنه يمحو الباطل ويحق الحق.

وقال تعالى: **﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر**

الجمع وضمير عنه للنبي، أي: لا مانع لنا عنه من حيث العقاب، (**أفتراه سبحانه وتعالى يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقرَّ من تقول عليه بعض الأقاويل،**) ثم يقر من يكذب عليه، لا (**بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سننه**) عادته (**في المتقولين عليه،**) فذلك دليل على صدقه ﷺ.

(**وقال تعالى: ﴿أم﴾**) بمعنى بل، (**﴿يقولون افترى على الله كذبًا﴾**،) بنسبة القرآن إلى الله، (**﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾** [الشورى/٢٤]، **ههنا انتهى جواب الشرط،**) وهو فإن يشأ الله، والقصد به كما في البيضاوي استبعاد الافتراء عن مثله بالإشعار على أنه إنما يجتريء عليه من كان مختومًا على قلبه، جاهلاً بربه، وأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا، وكأنه قال إن يشأ الله خذلانك تجتريء بالافترا عليه، وقيل: يختم على قلبك، يمسك القرآن والوحي عنه، أو يربط عليه بالصبر عليه، فلا يشق عليه إذا هم انتهى.

(**ثم أخبر خبرًا جازمًا غير معلق، أنه يمحو الباطل ويحق الحق**) بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ [الشورى/٢٤]، فهو كما في البيضاوي استئناف لنفي الافتراء عما يقول؛ بأنه لو كان مفترى لمحقه، إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه، أو بقضائه لا مرد له.

(**وقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾**،) أي: ما عظموه حق عظمته، أو ما عرفوه حق معرفته، (**﴿إذ قالوا﴾**) للنبي ﷺ، وقد خاصموه في القرآن، (**﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾**) [الأنعام/٩٢].

قال ابن عباس: قائل ذلك اليهود، وقال مجاهد: مشركو قريش، وقال السدي: فنحاص اليهودي، وقال سعيد بن جبير: لملك بن الصيف، أخرجهما ابن أبي حاتم، (**فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق**) في

من شيء﴾ [الأنعام/٩١]، فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه، ويؤيده ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟

وهذا في القرءان كثير يستدل تعالى بكماله المقدس وأوصافه وجلاله على صدق رسوله، وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: **﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل**

الرحمة والإنعام على العباد، فإن الوحي والبعث من عظائم رحمته وجلائل نعمته، أو ما قدروه في السخط على الكفار، وشدة البطش بهم حين جسروا على هذه المقالة.

(**فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه، ويؤيده ويظهر على يديه الآيات والأدلة، وهذا،**) أي: تعظيمه ﷺ بالآيات الدالة على كماله (**في القرآن كثير،**) وذلك لأنه (**يستدل**) بزيادة السين والتاء، أي: يدل (**تعالى**) خلقه (**بكماله المقدس، وأوصافه، وجلاله على صدق رسوله،**) فيما جاء به، (**وعلى وعده ووعيده،**) مثلاً قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ [البقرة/٢١]، دل بكونه خالقًا للناس، منعمًا عليهم، بجعل الأرض فراشًا، والسماء بنا...الخ، على أن من قدر على ابتداء هذه الأحوال لا يعجز عن بعثهم بعد فناء أجسادهم، ومن لازم ذلك صدق الرسول في أخباره عن اللّه بالبعث والإعادة، (**ويدعو عباده إلى ذلك،**) أي: تصديقه فيما جاء عليه الصلاة والسلام، أو الإشارة راجعة للصدق بتقرير مضاف، أي: إلى اعتقاد صدق رسوله.

(**وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله،**) مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، وهم الذين قالوا: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ [الرعد/٧]، فرد عليهم بقوله: ﴿قل إنما الآيات عند اللّه وإنما أنا نذير مبين (**أو لم يكفهم﴾**) فيما طلبوا (**﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب﴾**) القرآن (**﴿يتلى عليهم﴾،**) فهو آية مستمرة لا انقضاء لها، بخلاف ما ذكر من الآيات، (**﴿إن في ذلك﴾**) الكتاب (**﴿لرحمة﴾**) لنعمة عظيمة (**﴿وذكرى﴾**) عظة (**﴿لقوم يؤمنون﴾**) [العنكبوت/٥١] الآية، لمن همه الإيمان دون التعنت.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي عن يحيى بن جعدة، قال: جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال ﷺ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء بهم نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره» إلى غيرهم، فنزلت: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا﴾، (**﴿قل كفى باللّه بيني وبينكم شهيدًا﴾**) بصدقي، وقد صدقني بالمعجزات، أو بتبليغ

كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ [العنكبوت/ ٥١- ٥٢]، فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله يكفي من كل آية، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله تعالى، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثم قال: **﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا يعلم ما في السموات والأرض﴾** فإذا كان سبحانه عالمًا بجميع الأشياء كانت شهادته أعظم شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام محيط بالمشهود به، وهو سبحانه وتعالى يذكر علمه عند شهادته وقدرته، وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه، وأمره ورحمته عند ذكر إرسال رسله، وحلمه عند ذنوب عباده. فتأمل ورود

ما أرسلت به إليكم، ونصحي، ومقابلتكم إياي بالتكذيب والتعنت (**﴿يعلم ما في السموات والأرض،﴾**) فلا يخفى عليه حالي وحالكم **﴿والذين آمنوا بالباطل﴾**، وهو ما يعبد من دون الله (**﴿وكفروا بالله﴾**) منكم (**﴿أولئك هم الخاسرون﴾**) [العنكبوت/٥٢]،) في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

(**فأخبر سبحانه؛ أن الكتاب الذي أنزله يكفي من**) أي: بدل، (**كل آية**) لانقضائها بخلافه، (**ففيه الحجة، والدلالة على أنه من الله تعالى، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب**) بقوله: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾، (**ثم قال: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا يعلم ما في السموات والأرض﴾، فإذا كان سبحانه عالمًا بجميع الأشياء،**) المعبر عنها بما في السموات والأرض (**كانت شهادته أعظم شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به،**) بخلاف شهادة غيره، فليس لها هذا الوصف، إذ قد يخفى عليه ما يمنعه من الشهادة بما شاهده لو علمه، (**وهو سبحانه وتعالى، يذكر علمه عند شهادته،**) فهذا حكمة قوله: ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾، بعد قوله: ﴿شهيدًا﴾، مع أنه مقطوع، محقق الحصول عند كل أحد.

(**و**) يذكر (**قدرته وملكه عند مجازاته،**) لإفادته أنه لا يعجزه شيء، (**وحكمته عند خلقه، وأمره ورحمته عند ذكر إرسال رسله، وحلمه عند ذنوب عباده**) تنبيهًا لهم على التوبة، وأن لا يقنطوا، (**فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب،**) يظهر لك من أسرارها العجب العجاب، وحاصله أن من عادته تعالى إذا ذكر أمرًا تقصر عن إدراكه العقول، ذكر أنه إنما أخبر عنه بعلم تام وقدرة كاملة، فليس إخباره عن شيء،

أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب.

وقال تعالى: **﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى اللَّه بإذنه وسراجًا منيرًا﴾** [الأحزاب/٤٦].

كإخبار بعض البشر عما شاهده، لأنه قد يخفى عليه ما يمنعه الشهادة لو علمه، أو من المجازاة عليه.

(**وقال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى اللَّه بإذنه﴾** [الفتح/٨]،) تيسيره أطلق له، لأنه من أسبابه، وقيد به إشارة إلى أنه أمر صعب، لا يتأتى إلا بمعونته تعالى، قاله البيضاوي وغيره.

وقال العز بن عبد السلام في مجاز القرآن: إذنه مشيئته وإرادته، لأن الغالب في الإذن أن لا يقع إلا بمشيئة، واعتبار الملازمة الغالبة تصحيح المجاز، أو بأمر التكوين، فإن الأمر يلازمه مشيئة الآمر غالبًا.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فهزموهم بإذن اللَّه﴾ بأمره [البقرة/٢٥١]، وقوله: ﴿كن﴾، وهو من مجاز التمثيل، شبه سهولة الأشياء في قدرته بسهولة هذه الكلمة على الناطق بها، تفهيمًا لسرعة نفوذ مشيئته وقدرته فيما يريده، ويعبر بالإذن عن التيسير والتسهيل، كقوله تعالى: ﴿واللَّه يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾ [البقرة/٢٢١]، أي: بتيسيره وتسهيله، إذ لا يحسن أن يقال دعوته بإذني، ولا قمت وقعدت بإذني، ولذا قال الزمخشري: يجوز أن يراد بالإذن هنا الأمر، أي: يدعوكم إلى الجنة والمغفرة، بأمره إياكم بطاعته، وكلاهما من مجاز الملازمة. انتهى.

(**﴿وسراجًا﴾**) أحوال مقدرة (**﴿منيرًا﴾**) قال عياض: جمع اللَّه له في هذه الآية ضروبًا من رتب الأثرة، وجملة أوصاف من المدحة، فجعله شاهدًا على أمته، بإبلاغهم الرسالة، وهي من خصائصه، ومبشرًا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيته، وداعيًا إلى اللَّه بإذنه إلى توحيده وعبادته، وسراجًا منيرًا يهتدى به إلى الحق.

وقال ابن عطية: هذه أرجى آية في القرآن، لأنه أمره بتبشير المؤمنين بالفضل الكبير، وقد فسره في آية أخرى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ [الشورى/٢٢] الآية، (**أي: شاهدًا على الوحدانية،**) أي: اتصافه تعالى؛ بأنه واحد أحد، لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولم يقيد الشهادة، فشملت الشهادة بها في الدنيا والآخرة.

وفي البيضاوي: شاهدًا على من بعثت إليهم، بتصديقهم وتكذيبهم، ونجاتهم وضلالهم،

أي شاهدًا على الوحدانية، وشاهدًا في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط، وشاهدًا في الآخرة بأحوال الدنيا، وبالطاعة وبالمعصية والصلاح والفساد، وشاهدًا على الخلق يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿**ويكون الرسول**

وكذا تقدم عن عياض؛ فجعلا ذلك صلة الشهادة، وجعلا صلة داعيًا إلى الإقرار بالله وتوحيده، وما يجب الإيمان به من صفاته، وهو خلاف ما ذكر المصنف.

(**وشاهدًا في الدنيا بأحوال الآخرة**) أي: بما يكون فيها ذاتًا، أو صفة، (**من الجنة والنار، والميزان والصراط، وشاهدًا في الآخرة بأحوال الدنيا، و**) ذلك بأن يشهد للمطيع (**بالطاعة، و**) على العاصي، (**بالمعصية**) فهو بيان للمراد بالشهادة، (**والصلاح**) الواقع من المطيع، (**والفساد**) من العاصي، وعلمه ﷺ بذلك، لأن أعمال أمته تعرض عليه، كما ثبت في الحديث، واستشكل مع حديث الصحيح: ليذاد رجال عن حوضي، كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم، فيقال إنهم بدلوا وغيروا بعدك، فأقول سحقًا سحقًا.

وفي رواية: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، وأجيب بأنها إنما تعرض عليه عرضًا مجملاً، فيقال: عملت أمتك شرًا عملت أمتك خيرًا، أو أنها تعرض عليه دون تعيين عاملها، قاله الأبي.

(**وشاهدًا على الخلق يوم القيامة**) بإبلاغ أنبيائهم وتزكية أمته، (**كما قال تعالى:**) ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس **(ويكون الرسول عليكم شهيدًا**﴾ **الآية**.

روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد، مرفوعًا: يجيء نوح وأمته، فيقول الله: هل بلغت؟، فيقول: نعم، أي: رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟، فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك، فيقول: محمد وأمته، وهو قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس﴾، والوسط العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم.

وروى أحمد والنسائي وابن ماجه، عن أبي سعيد، رفعه: يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك، فيقال له: هل بلغت قومك؟، فيقول: نعم، فيدعي قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟، فيقولون: لا، فيقال له: من يشهد لك؟، فيقول: محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟، فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟، فيقولون: جاء نبينا، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا وصدقناه، فذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ [البقرة/١٤٣].

عليكم شهيدًا﴾ [البقرة/١٤٣].

كأنه تعالى يقول: يا أيها المشرَّف من قبلنا، إنا أرسلناك شاهدًا بوحدانيتنا ومشاهدًا كمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا، وتنذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعيًا الخلق إلينا، وسراجًا يستضاء بك، وشمسًا تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وخدمك وقدمك، فبشر بفضلنا وطولنا عليهم وإحساننا لديهم.

ولما كان الله تعالى قد جعله عليه الصلاة والسلام شاهدًا على الوحدانية، والشاهد لا يكون مدعيًا، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوحدانية مدعيًا

قال البيضاوي: وهذه الشهادة وإن كانت لهم، لكن لما كان الرسول كالرقيب المؤتمن على أمته عدي بعلى، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم يكون الرسول شهيدًا عليهم، وطالبهم بالبينة، وهو أعلم إقامة للحجة على المنكرين. انتهى، ولإظهار فضل هذه الأمة على رؤوس الأشهاد.

قال أبو الحسن القابسي: أبان الله فضل نبينا وفضل أمته بهذه الآية، وفي قوله: ﴿وفي هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ [الحج/٧٨]، وكذلك قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ [النساء/٤١] الآية.

(**كأنه تعالى يقول: يا أيها المشرف،**) (بالفاء) بالنبوّة (**من قبلنا إنا أرسلناك شاهدًا بوحدانيتنا، ومشاهدًا كمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا، وتنذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا،**) وهي المعاصي، (**وداعيًا الخلق إلينا،**) أي: إلى ما يجب إلينا، (**وسراجًا يستضاء بك**) من ظلمات الجهل، ويقتبس من نورك أنوار البصائر، (**وشمسًا تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصلَ إلينا إلا من أتبعك وخدمك وقدمك**) على جميع الخلق، بأن علم كمالك الذي تتميز به على غيرك، وأذن له، (**فبشر**) يا أيها المشرف من قبلنا، المؤمنين (**بفضلنا:**) أنعامنا عاجلاً وآجلاً، (**وطولنا،**) أي: إحساننا (**عليهم**) بترك عقابهم، فتغاير العطف، لكن يصير (**وإحساننا لديهم**) تفسيريًا، وفي نسخة: فبشره بضمير عائد على لفظ من، وحذفه أولى.

(**ولما كان الله تعالى قد جعله عليه الصلاة والسلام شاهدًا على الوحدانية، والشاهد لا يكون مدعيًا، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوحدانية مدعيًا لها، لأن المدعي من يقول شيئًا على خلاف الظاهر، والوحدانية أظهر من الشمس، والنبي ﷺ كان ادعى النبوّة**) قبل نزول هذه الآية، حيث أخبر أن الله بعثه، ولم يعرف بها قبل الدعوة، فأتى بخلاف

لها، لأن المدعي من يقول شيئًا على خلاف الظاهر، والوحدانية أظهر من الشمس، والنبي ﷺ كان ادعى النبوة، فجعل اللّه تعالى شاهدًا له في مجازاة كونه شاهدًا له تعالى فقال سبحانه: ﴿واللّه يشهد إنك لرسوله﴾ [المنافقون/١]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً، قل كفى باللّه شهيدًا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد/٤٣]، فاستشهد على رسالته بشهادة اللّه

ظاهر حاله قبل، **(فجعل)** جواب لما أدخل عليه الفاء، **(اللّه تعالى شاهدًا له في مجازاة كونه شاهدًا له تعالى، فقال سبحانه: ﴿واللّه يشهد﴾)** التلاوة، يعلم **(أنك لرسوله﴾)** ولا يصح أن يشهد تفسير ليعلم، لأن علم الشيء لا يستلزم الشهادة به، لكن في القاموس شهد اللّه أنه لا إله إلا هو، أي: علم اللّه، أو قال، أو كتب، **(ومن هذا قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا﴾)** قيل: هم رؤساء اليهود، **(﴿لست مرسلاً، قل كفى باللّه شهيدًا بيني وبينكم﴾،)** فإنه أظهر من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها، **(﴿ومن عنده علم﴾)** مرتفع بالظرف، لاعتماده على الموصول، أو مبتدأ، والظرف خبره **(﴿الكتاب﴾)** القرآن ([الرعد/٤٣]) ، وما ألف عليه من النظم المعجز، أو علم التوراة، وهو ابن سلام وأضرابه.

قال سعيد بن جبير: هو جبريل، وقال عكرمة: هو عبد اللّه بن سلام، رواهما ابن أبي حاتم، وقال ابن عباس: هم اليهود والنصارى، وقال قتادة: كنا نتحدث أن منهم ابن سلام، وسلمان الفارسي، وتميما الداري، أخرجهما ابن جرير، وقيل: المراد علم اللوح المحفوظ، وهو اللّه.

قال الطيبي: فيلزم عطف الشيء على نفسه، فأول الزمخشري وغيره اسم الذات بما يعطيه من معنى استحقاق العبادة، لكونه جامعًا لمعاني الأسماء، فقال: **﴿كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم ما في اللوح إلا هو شهيدًا بيننا﴾**، فيخزي الكاذب منا، ويؤيده قراءة من قرأ ومن عنده بالكسر خبر، والمبتدأ علم.

قال الأزهري: لا يكون إلهًا حتى يكون معبودًا وخالقًا ورازقًا ومدبرًا، فأتى بالموصول ليتوافق المعطوف والمعطوف عليه.

(فاستشهد على رسالته بشهادة اللّه له،) وأمره بقول ذلك، إذ لا يجحد باطنًا، **(وكذلك قوله تعالى)** حين قالت قريش: يا محمد لقد سألنا عنك أهل الكتاب، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا ما يشهد لك أنك رسول اللّه، فنزلت على ما قال الكلبي، وتبعه البغوي وغيره.

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير، عن ابن عباس: أن ثلاثة من اليهود جاءوا، فقالوا: يا محمد

له. وكذلك قوله تعالى: ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم**﴾ [الأنعام/١٩]، وقوله تعالى: ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا**﴾ [النساء/١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿**والله يعلم إنك لرسوله**﴾ [المنافقون/١]، وقوله: ﴿**محمد رسول الله**﴾ [الفتح/

ما نعلم مع الله إلهًا غيره، فقال: لا إله إلا الله بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعوا، فأنزل الله في قولهم: (﴿**قل أي شيء**﴾) أي: موجود (﴿**أكبر شهادة**﴾)، تمييز محوّل عن المبتدأ، (﴿**قل الله شهيد بيني وبينكم**﴾ [**الأنعام/٩**]، على صدقي، فهو الجواب، لأنه تعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة.

قال الطيبي: فهو من أسلوب الحكيم، يعني فشهادته معلومة لا كلام فيها، وإنما الكلام في أنه شاهد لي عليكم، مبين لدعواي، وإذا ثبت أنه شهيد له، لزم أن أكبر شيء شهادة شهيد له.

ونحوه قول التفتازاني، كأنه قيل: معلوم أن الله هو الأكبر شهادة، ولكن الأنسب بالمقام هو الإخبار بأن الله شهيد لي، لينتج مع قولنا الله أكبر شهادة أن الأكبر شهادة شهيد لي.

قال أبو حبان: هذا الوجه أرجح مما قدمه الزمخشري؛ أن المعنى قل الله أكبر شهادة، ثم ابتدأ شهيد، أي: هو لأن فيه إضمارًا وآخرًا، والأول لا إضمار فيه مع صحة معناه.

(**وقوله تعالى**) روى ابن إسحٰق عن ابن عباس: دخل جماعة من اليهود على النبي ﷺ، فقال لهم: إنيّ والله أعلم أنكم تعلمون أني رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله: (﴿**لكن الله يشهد**﴾) يبين نبوتك (﴿**بما أنزل إليك**﴾) من القرآن المعجز، (﴿**أنزله**﴾) ملتبسًا (﴿**بعلمه**﴾) أي: عالمًا به، أو فيه علمه، (﴿**والملائكة يشهدون**﴾) أيضًا لك، (﴿**وكفى بالله شهيدًا**﴾ [النساء/١٦٦]،) على ذلك.

قال البيضاوي: استدرك على مفهوم ما قبله، وكأنه لما تعنتوا عليه بسؤال كتاب ينزل عليهم من السماء، واحتج عليهم بقوله: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ [النساء/١٦٣]، قال: إنهم لا يشهدون، ولكن الله يشهد، أو أنهم أنكروه، ولكن الله يثبت، ويقرره بما أنزل إليك من القرآن، المعجز، الدال على نبوّتك.

روى ابن جرير عن ابن عباس لما نزل: ﴿**إنا أوحينا إليك**﴾ قالوا: ما نشهد لك، فنزلت، (**وقوله تعالى**: ﴿**والله يعلم إنك لرسوله**﴾ [المنافقون/١]، فلا يضرك قول المنافقين ذلك بألسنتهم، مخالفًا لما في قلوبهم، (**وقوله**: ﴿**محمد رسول الله**﴾ [الفتح/٢٩]،) جملة مبينة للمشهود به، ويجوز أن يكون رسول الله صفة، ومحمد خبر محذوف، أو مبتدأ، والذين معه معطوف عليه، وخبرهما أشداء على الكفار رحماء بينهم، كما في الأنوار.

٢٩]، فهذا كله معه تعالى شهادة لرسوله قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم بكونه سبحانه شاهدًا لرسوله.

وقال تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا**﴾ [الفتح/٢٨].

فيظهر ظهورين: ظهورًا بالحجة والبيان، وظهورًا بالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصورًا.

ومن شهادته تعالى أيضًا ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم، واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن الله فطر القلوب على قبول الحق

(**فهذا كله معه تعالى شهادة لرسوله ﷺ، قد أظهرها وبينها وبين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر**) (بسكون الذال وتضم) للاتباع، أي: منع الأشياء التي تكون سببًا لطلب ما يزيل اللوم عن الفاعل (**بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، بكونه سبحانه شاهدًا لرسوله**) ﷺ.

(**وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾**) ملتبسًا به، أو بسببه، ولأجله، (**﴿ودين الحق﴾**) الإسلام، (**﴿ليظهره﴾**) ليعليه (**﴿على﴾**) جنس (**﴿الدين كله﴾**) بنسخ ما كان حقًا، وإظهار فساد ما كان باطلاً، وتسليط المسلمين على أهله، إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه تأكيد لما وعده من الفتح، (**﴿وكفى بالله شهيدًا﴾**[الفتح/٢٨] **الآية**) على أن ما وعده كائن، أو على نبوته بإظهار المعجزات، أو على أنك مرسل، كما قال محمد رسول الله، (**فيظهر ظهورين: ظهورًا بالحجة والبيان**،) بحيث لا يستطيع المعاند ردهما، بل يخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب والافتراء والمباهتة والرضا بالدنية، كقولهم: ﴿**قلوبنا غلف**﴾ [البقرة/٨٨] الآية، وفي أكنة مما تدعون إليه وغير ذلك، (**وظهورًا بالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصورًا**،) كما قال: ﴿هو الذي أيدك بنصره لينصرك الله نصرًا عزيزًا﴾ [الفتح/٣].

(**ومن شهادته تعالى أيضًا ما أودعه في قلوب عباده، من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه**) سبحانه، (**ووحيه**) إلى أنبيائه، (**فإن الله فطر**) خلق (**القلوب**) مشملة (**على قبول الحق، والانقياد له، والطمأنينة، والسكون إليه، ومحبته وفطرها على**) أعاد العامل تنبيهًا على أن كلاً من قبول الحق، و (**بغض الكذب والباطل**:) مقصود بالذات (**والنفور

والانقياد له، والطمأنينة والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الحق سبحانه إلى تدبر القرءان، فإن كل من تدبره أوجب له علمًا ضروريًا ويقينًا جازمًا أنه حق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرءان أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد/٢٤]، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرءان، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًا كسائر الأمور الوجدانية كاللذة والألم أنه من عند الله، تكلم به حقًا، وبلغه رسوله جبريل إلى رسوله محمد ﷺ. فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. انتهى ملخصًا من مدارج السالكين.

وقال تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا**﴾ [الأعراف/

عنه، وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة:) (بالكسر) الخلقة (**على حالها لما آثرت:)** قدمت (**على الحق سواه، ولما سكنت:)** اطمأنت (**إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره، ولهذا ندب:)** دعا (**الحق سبحانه إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له علمًا ضروريًا، ويقينًا جازمًا أنه حق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾**) يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصي، (﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد/٢٤]،) لا يصل إليها ذكر، ولا ينكشف لها أمر، وقيل: أم منقطعة، والهمزة للتقرير ونكر قلوب، لأن المراد قلوب بعض منهم، أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة، أو لفرط جهالتها، كأنها مبهمة منكورة، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أقفال مناسبة لها، مختصة بها لا تجانس الأقفال المعهودة، وقرىء أقفالها على المصدر، قاله البيضاوي.

(**فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًا، كسائر الأمور الوجدانية.)** (بكسر الواو)، (**كاللذة والألم، إنه من عند الله، كلم به حقًا، وبلغه رسوله جبريل إلى رسوله محمد ﷺ، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. انتهى ملخصًا من مدارج السالكين)** للعلامة ابن القيم في شرح منازل السائلين لشيخ الإسلام الهروي، (**وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا﴾** [الأعراف/١٥٨]،) حال من الضمير في إليكم.

١٥٨].

ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقلين.

وقالت العيسوية من اليهود وهم أتباع عيسى الأصفهاني: إن محمدًا صادق مبعوث إلى العرب، غير مبعوث إلى بني إسرائيل.

ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية، لأن قوله: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب يتناول كل الناس، ثم قال: ﴿إني رسول الله إليكم جميعًا﴾ وهذا يقتضي كونه مبعوثًا إلى جميع الناس.

وأيضًا: فلأنا نعلم بالتواتر أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى الثقلين. فإما أن

قال المفتي: لما حكى ما في الكتابين من نعوته ﷺ، وشرف من يتبعه من أهلهما ونيلهم لسعادة الدارين، أمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم، بل شاملة لكل من تبعه كائنًا من كان، ببيان عموم رسالته للثقلين مع اختصاص سائر الرسل بأقوامهم، وإرسال موسى إلى فرعون، وملئه بالآيات التسع، إنما كان لأمرهم بعبادة رب العالمين، وترك العظمة التي كان يدعيها الطاغية، ويقبلها منه الفئة الباغية، وإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر، وأما العمل بأحكام التوراة، فمختص ببني إسرائيل. انتهى.

(**ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقلين**) الإنس والجن، سيما بذلك لثقلهما على الأرض، أو لرزانة رأيهم وقدرهم، أو لأنهما مثقلان بالتكليف، ووجه الدلالة أن الناس وإن غلب استعماله في الإنس، لكنه اسم للإنس والجن، لأنه مشتق من ناس ينوس، إذا تحرك، فيطلق عليهما وبهما، فسر في صدور الناس.

(**وقالت العيسوية من اليهود، وهم أتباع عيسى،**) المنقول لغيره أبي عيسى (**الأصفهاني،**) زاد في نسخة: النصراني، ولا ينافيها قوله أولاً من اليهود، لجواز أنه كان نصرانيًا، ثم تهوّد، فتبعته تلك الطائفة: (**إن محمدًا صادق مبعوث إلى العرب، غير مبعوث إلى بني إسرائيل، ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية، لأن قوله: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب**) عام (**يتناول كل الناس**) العرب، وبني إسرائيل وغيرهم، فتخصيصه بالعرب من أين، (**ثم قال**) بأمر الله تعالى قل: ﴿يا أيها الناس (**إني رسول الله إليكم جميعًا**)﴾، **وهذا يقتضي كونه مبعوثًا إلى جميع الناس،**) اقتضاء ظاهرًا، لا سيما مع قوله جميعًا، فهو قريب من الصريح.

(**وأيضًا**) دليل ثان في الرد على العيسوية: (**فلأنا نعلم بالتواتر أنه كان يدعي،**) أي: يذكر، (**أنه مبعوث إلى الثقلين، فإما أن نقول أنه كان رسولاً حقًا، أو ما كان كذلك**) من

نقول إنه كان رسولاً حقًا، أو ما كان كذلك، فإن كان رسولاً حقًا امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقًا في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى جميع الثقلين، وجب كونه صادقًا، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثًا إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل.

وإذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا**﴾ من الناس من يقول إنه عام دخله التخصيص، ومنهم من أنكر ذلك.

أما الأولون فقالوا: دخله التخصيص من وجهين:

الأول: أنه رسول إلى الناس إذا كانوا من جملة المكلفين، فإذا لم يكونوا من جملة المكلفين لم يكن رسولاً إليهم، وذلك لأنه عليه السلام قال: «رفع القلم

إرخاء العنان للخصم للزوم الحجة له، (**فإن كان رسولاً حقًا**) كما اعترفت به أيها الخصم، (**امتنع الكذب عليه**) لاستحالته على الرسول، (**ووجب الجزم بكونه صادقًا في كل ما يدعيه**) ومنه أنه رسول إلى بني إسرائيل، (**فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية**) لما يقل بصريحها، لاحتمال أن أل فيها للجنس، ولكن يمنعه، أو يبعد التأكيد بقوله جميعًا؛ (**أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى جميع الثقلين، وجب كونه صادقًا، وذلك يبطل قول من يقول؛ إنه كان مبعوثًا إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل**) وعبر بيدعي، لأن الادعاء قول يخالف الظاهر، كما قدمه، وهذا وإن طابق الواقع بحسب نفس الأمر، لكنه مخالف للظاهر، فلذا أتى بالأدلة والبراهين لإثبات رسالته.

(**وإذا ثبت هذا، فنقول قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا﴾، من الناس من يقول إنه عام دخله التخصيص، ومنهم من أنكر ذلك**).

(**أما الأولون**) ترك عديله إما لظهوره، أي: وأما المنكرون، فقالوا: هو باق على عمومه، والتكليف، ووصول خبر الرسالة ليس شرطًا في الرسالة، وإنما هو شرط في المؤاخذة بما بلغه.

(**فقالوا: دخله التخصيص من وجهين: الأول: أنه رسول الله إلى الناس، إذا كانوا من جملة المكلفين**) لا مجانين وصبيانًا، (**فإذا لم يكونوا من جملة المكلفين لم يكن رسولاً إليهم، وذلك لأنه عليه السلام قال**) كما رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، عن علي وعمر: أن رسول الله ﷺ قال: (**رفع القلم عن ثلاث**) كناية عن عدم التكليف، لأنه يلزم منه الكناية، وعبر برفع إشعارًا؛ بأن التكليف لازم لبني آدم، لا ينفك

عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق».

والثاني: أنه رسول الله إلى كل من وصله خبر وجوده، وخبر معجزاته وشرائعه، حتى يمكنه عند ذلك متابعته. أما لو قدرنا حصول قوم في طرف من أطراف الأرض لم يبلغهم خبره وخبر معجزاته وشرائعه حتى لا يمكنهم عند ذلك متابعته فلا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

عنهم إلا عن ثلاثة، (**عن الصبي**) الطفل، ولو مراهقًا (**حتى يبلغ**،) وفي رواية: حتى يكبر، وأخرى: حتى يشب، وأخرى: حتى يحتلم.

قال السبكي: ليس في روايتي حتى يكبر، وحتى يبلغ من البيان ما في رواية حتى يحتلم، فالتمسك بها لبيانها أولى، لأن حتى يبلغ مطلق، وحتى يحتلم مقيد، فيحمل عليه، فإن الاحتمال بلوغ قطعًا، وعدم بلوغ السن ليس ببلوغ قطعًا، (**وعن النائم حتى يستيقظ**) من نومه، (**وعن المجنون**،) زاد في رواية: المغلوب على عقله (**حتى يفيق**،) وفي رواية: حتى يبرأ، أي: بالإفاقة، وفي أخرى: حتى يعقل، وفي أخرى: وعن المبتلى حتى يبرأ، أي: المبتلى بداء الجنون.

قال ابن حبان: والمراد برفع القلم ترك كتابة الشر عليهم دون الخير.

قال الزين العراقي: وهو ظاهر في الصبي دون المجنون والنائم، لأنهما في حيز من ليس قابلاً لصحة العبادة منهم لزوال الشعور، فالمرفوع عن الصبي قلم المؤاخذة، لا قلم الثواب، لقوله ﷺ للمرأة لما سألته: «ألهذا حج؟، قال: نعم»، واختلف في تصرف الصبي، فصححه أبو حنيفة ومالك بإذن وليه مراعاة للتميز، وأبطله الشافعي مراعاة للتكليف.

(**والثاني: أنه رسول الله إلى كل من وصله خبر وجوده، وخبر معجزاته وشرائعه حتى يمكنه عند ذلك متابعته. أما لو قدرنا**)، قد يشعر بعدم وجوده والمصرح به في الفروع والأصول، خلافه (**حصول قوم في طرف من أطراف الأرض لم يبلغهم خبره، وخبر معجزاته وشرائعه حتى لا يمكنهم عند ذلك متابعته، فلا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته**،) ويكونون من الناجين في الآخرة لعذرهم بعدم بلوغ الدعوة، ولكن لا يصلى عليهم، لأنه إنما يصلى على المحقق إسلامه، ولا يجوز لعنهم، لأنهم لعدم تكذيبهم في معنى المسلم، كما قال الغزالي: أنه التحقيق لا مسلم، كما عبر به بعض، أو على الفطرة، كما عبر به آخر، واختار السبكي التعبير بناج.

(**وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: والذي نفسي بيده**) أقسم تقوية للحكم، (**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة**) التي وجد فيهم إلى قيام الساعة، (**ولا يهودي، ولا**

«والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذين أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم. ومفهومه: أن من لم يسمع به ولم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، على ما تقرر في الأصول أنه لا حكم قبل الشرع على الصحيح. وفي هذا الحديث نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ.

وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من

نصراني،) عطف خاص على عام، لإفادة عموم بعثته، (**ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**) الخالدين فيها، (**رواه مسلم**) وأحمد.

(**ومفهومه أن من لم يسمع به، ولم تبلغه دعوة الإسلام، فهو معذور**،) فيكون ناجيًا (**على ما تقرر في الأصول أنه لا حكم قبل الشرع على الصحيح**،) لقوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، ولأن الغافل لا يكلف، لقوله تعالى: ﴿ذلك إن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾، ثم اختلف هل نجاة من لم تبلغه الدعوة ودخوله الجنة غير متوقفة على الامتحان، أو متوقفة عليه، لورود أحاديث كثيرة؛ بأنهم يمتحنون يوم القيامة ببعث رسول إليهم أن ادخلوا النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها سحب إليها.

(**وفي هذا الحديث نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ**) لجعله من لم يؤمن برسالته من أهل النار، وإنما يكون كذلك بموته كافرًا، وكفره يستدعي نسخ الشريعة التي هو متمسك بها، والله أعلم.

(**وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب﴾**) اليهود والنصارى (**﴿قد جاءكم رسولنا﴾**) محمد ﷺ (**﴿يبين لكم﴾** الدين﴾، وحذف لظهوره ﴿أو ما كنتم من الكتاب﴾، كآية الرجم، وصفته ﷺ، وحذف لتقدم ذكره، ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى يبذل لكم البيان، والجملة في موضع الحال، أي: جاءكم رسولنا مبينًا (**﴿على فترة من الرسل﴾**،) متعلق بجاء، أي: على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، فتعلق على فترة بجاءكم تعلق الظرفية، كقوله: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمن﴾ [البقرة/١٠٢] الآية، وقيل: إنه حال من ضمير لكم (**﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾**،) كراهة أن تقولوا ذلك، وتعتذروا به، فهو في موقع المفعول له، (**﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾**) متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا بما جاءنا بأن تقولوا ذلك، قاله الكشاف.

قال التفتازاني: أي: بمحذوف تفصح عنه الفاء، وتفيد بيان سببه، كالتي تذكر بعد الأوامر

الرسل، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة/١٩].

خاطب الله تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدًا خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول. بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال تعالى: **﴿على فترة من الرسل﴾** أي من بعد مدة متطاولة، ما بين إرساله وعيسى ابن مريم.

وقد اختلفوا في مقدار هذه المدة، فقال النهدي وقتادة في رواية عنه:

والنواهي بيانًا لسبب الطلب، لكن كمال حسنها وفصاحتها أن تكون مبنية على التقدير، منبئة عن المحذوف، بخلاف قولك: أعبد ربك، فالعبادة حق له، ولكون مبنى الفاء الفصيحة على الحذف اللازم، بحيث لو ذكر لم يكن بتلك الفصاحة، تختلف العبارة في تقدير المحذوف، فتارة أمرًا أو نهيًا، كما في هذه الآية، وتارة شرطًا، كقوله: ﴿فهذا يوم البعث﴾ [الروم/٥٦]، وتارة معطوفًا عليه، كقوله: فانفجرت (**﴿والله على كل شيء قدير﴾** [المائدة/١٩]،) فيقدر على الإرسال تترًا، كما فعل بين موسى وعيسى إذا كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وعلى الإرسال على الفترة، كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، (**خاطب الله تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدًا خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول،**) بيان لخاتم النبيين، (**بل هو المعقب لجميعهم،**) أي: الجائي بعدهم، (**ولهذا قال تعالى: ﴿على فترة من الرسل﴾، أي: من بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم،**) والفترة لغة من فتر الشيء إذا سكنت حدته، سميت المدة التي بين الأنبياء فترة، الفتور الدواعي في العمل بتلك الشرائع.

(**وقد اختلفوا في مقدار هذه المدة، فقال النهدي،**) (بفتح النون وإسكان الهاء) أبو عثمان عبد الرحمن بن مل (بلام ثقيلة، والميم مثلثة)، مشهور بكنيته، من كبار التابعين، مخضرم، ثقة، عابد، روى له الجميع، مات سنة خمس وتسعين، وقيل بعدها، وعاش مائة وثلاثين سنة، وقيل أكثر، (**وقتادة**) بن دعامة الأكمة، التابعي، المشهور (**في رواية عنه ستمائة سنة، ورواه البخاري**) من حديث أبي عثمان النهدي (**عن سلمان الفارسي،**) قال: فترة بين عيسى ومحمد ستمائة سنة.

قال الحافظ: أي: المدة التي لم يبعث فيها رسول من الله، ولا يمتنع أن ينبأ فيها نبي يدعو إلى شريعة الرسول الأخير.

ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: أنها خمسمائة وستون سنة، وقال الضحاك: أربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة، وعن الشعبي ـ فيما ذكره ابن عساكر ـ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: والمشهور أنها ستمائة سنة، قال: وكانت هي الفترة بين عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد آخر النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «أنا أولى الناس

(**وعن قتادة: أنها خمسمائة وستون سنة،**) أخرجه عبد الرزاق بن معمر عنه، لكن لم يقل وستون سنة، كما في الفتح، قال: وعن الكلبي: خمسمائة وأربعون، (**وقال الضحاك: أربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة. وعن الشعبي**) عامر بن شراحيل، (**فيما ذكره ابن عساكر،**) عنه: (**تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة**).

((**قال الحافظ عماد الدين بن كثير: والمشهور أنها ستمائة سنة،**) خلافًا لنقل ابن الجوزي الاتفاق على ذلك، فإنه تعقب بوجود الخلاف، (**قال: وكانت هي الفترة بين عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد آخر النبيين من بني آدم**) بيان للواقع، (**على الإطلاق، كما في البخاري**) في أحاديث الأنبياء، وكذا مسلم، كلاهما (**من حديث أبي هريرة، مرفوعًا**) بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**أنا أولى الناس بابن مريم**).

وفي رواية للبخاري: بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ولفظ مسلم: في الأولى والآخرة، قال الحافظ: أي: أخصهم به، وأقربهم إليه، لأنه بشر بأنه يأتي من بعده، فالأولوية من جهة قرب العهد، كما أنه أولى الناس بإبراهيم من جهة قوة الاقتداء، زاد السيوطي: ولأنه أبوه ودعا به، وأشبه الناس به خلقًا وملة. انتهى.

وقول الكرماني: التوفيق بين الحديث، وبين قوله تعالى: ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي**﴾ [الأعراف/٦٨]، إن هذا الحديث وارد في كونه ﷺ متبوعًا، والآية واردة في كونه تابعًا، رده الحافظ؛ بأن مساق الحديث كمساق الآية، فلا دليل على هذه التفرقة، والحق أنه لا منافاة ليحتاج إلى الجمع، فهو أولى بكل منهما من جهة، وأسقط المصنف من هذه الرواية عند البخاري ومسلم، والأنبياء أولاد علاّت، (**لأنه ليس بيني وبينه نبي،**) لم تقع لفظه، لأنه في الصحيحين، ولذا قال السيوطي: ليس.. الخ، بيان لجهة الأولوية.

وقال الحافظ: قوله: ليس بيني وبينه نبي، هذا أورده كالشاهد لقوله إنه أقرب الناس إليه، وتبعه المصنف.

وفي رواية لهما: والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، والعلات: (بفتح

بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي» وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القاضي وغيره.

والمقصود: أن الله بعث محمدًا على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم والنفع به أعم.

وفي حديث عند الإمام أحمد مرفوعًا: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب» فكان

المهملة) الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة، ثم أخرى، كأنه عل منها بعدما كان ناهلاً من الأخرى، والعلل الشرب بعد الشرب، وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى، فقوله أمهاتهم الخ، من باب التفسير كقوله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعًا إذا مسه الشر جزوعًا وإذا مسه الخير منوعًا﴾ [المعارج/١٩]، ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد، وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل: المراد أن أزمنتهم مختلفة.

(وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي، يقال له خالد بن سنان) العبسي، **(كما حكاه القاضي)** عياض، وفي نسخة: القضاعي **(وغيره)**.

وفي فتح الباري: استدل به على أنه لم يبعث بعد عيسى أحد إلا نبينا ﷺ، وفيه نظر، لأنه ورد أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية، المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا من أتباع عيسى، وإن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين وكانا بعد عيسى، والجواب أن هذا الحديث يضعف ما ورد من ذلك، فإنه صحيح بلا تردد، وفي غيره مقال، أو المراد أنه لم يبعث بعد عيسى نبي بشريعة مستقلة، وإنما بعث بعده بتقرير شريعة عيسى.

(والمقصود أن الله بعث محمدًا على فترة من الرسل، وطموس:) مصدر طمس، محى ودرس **(من السبل،)** أي: ذهاب الشرائع وعدم العلم بشيء منها، **(وتغير الأديان،)** بتحريف ما يدل عليها وتبديله، **(وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان:)** جمع صليب للنصارى، **(فكانت النعمة به أتم، والنفع به أعم)**.

(وفي حديث عند الإمام أحمد، مرفوعًا: إن الله نظر إلى أهل الأرض) نظر غضب، **(فمقتهم،)** أبغضهم أشد البغض، لقبح ما ارتكبوه، والمراد من هذا ونحوه غايته **(عجمهم)** (بفتحتين)، وفي لغة بضم فسكون، خلاف العرب، **(وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل)** فلم يمقتهم لتمسكهم بالحق. **(وفي لفظ مسلم: من أهل الكتاب،)** بدل قوله من بني إسرائيل، ومعناهما واحدًا، **(فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمدًا**

الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث اللّٰه محمدًا ﷺ فهدى به الخلائق، وأخرجهم اللّٰه به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء، صلوات اللّٰه وسلامه عليه.

وقال تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** [التوبة/١٢٨].

ﷺ، **فهدى به الخلائق وأخرجهم اللّٰه به من الظلمات)** الكفر **(إلى النور:)** الإيمان **(وتركهم على المحجة)** (بفتح الميم) **(البيضاء،)** أي: الطريقة الواضحة بنيانه لهم الحق من الباطل، **(والشريعة الغراء، صلوات اللّٰه وسلامه عليه)**.

قال الإمام الرازي: كان العالم مملوء من الكفر والضلال، أما اليهود، فكانوا في المذاهب الباطلة من التشبيه والافتراء على الأنبياء وتحريف التوراة، وأما النصارى، فقالوا بالتثليث، والابن والأب والحلول والاتحاد، وأما المجوس، فأثبتوا الهين، وأما العرب، فانهمكوا في عبادة الأصنام والفساد في الأرض، فلما بعث ﷺ انقلبت الدنيا من الباطل إلى الحق، ومن الظلمة إلى النور، وانطلقت الألسنة بتوحيد اللّٰه، فاستنارت العقول بمعرفة اللّٰه، ورجع الخلق من حب الدنيا إلى حب المولى. انتهى.

(وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾) (بضم الفاء)، في قراءة الجمهور، أي: منكم، وقرىء شاذًا (بفتح الفاء) أي: من خياركم وأشرفكم.

وأخرج ابن مردويه عن أنس، قال: قرأ النبي ﷺ: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ (بفتح الفاء)، وقال: «أنا أنفسكم نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح»، **(عزيز)** شديد **(عليه ما عنتم، حريص عليكم)** أن تهتدوا **(بالمؤمنين، رؤوف)** شديد الرحمة **(رحيم،)** يريد لهم الخير والرأفة مع الرحمة حيث وقعت مقدمة لا للفاصلة، كما قال البيضاوي ومن تبعه لوقوعه كذلك في غير الفواصل.

قال تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ [الحديد/٢٧]، بل لأن أصل معنى الرأفة التلطف والشفقة، كما صرح به القرطبي في شرح الأسماء، فقال: قال اللّٰه تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه﴾ الآية، حيث ذكر الوصفان، قدم الرؤوف على الرحيم في الذكر، وسببه أن الرحمة في الشاهد إنما تحصل بمعنى المرحوم من فاقته وضعفه وحاجته، والرأفة تطلق عندنا على ما يحصل الرحمة من شفقة على المرحوم.

وقال المشايخ: الرؤوف المتعطف، والذي جاد بلطفه ومن بعطفه. انتهى، **(أي: عزيز عليه عنتكم، أي: إثمكم بالشرك والمعاصي)** بيان للمراد بالعنت، وإلا فهو لغة المشقة

أي: عزيز عليه عنتكم، أي إثمكم بالشرك والمعاصي. قال الحسن: عزيز عليه أن تدخلوا النار، حريص عليكم أن تدخلوا الجنة، ومن حرصه ﷺ علينا أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا، وفهمنا إياه على قدر منزلته، بل على قدر منزلتنا، وإلى هذا أشار صاحب البردة بقوله:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصًا علينا فلم نرتب ولم نهم

أي لم نتحير ولم نشك فيما ألقاه إلينا. وقال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** [الأنبياء/١٠٧]، ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم.

ومن حرصه عليه السلام على هدايتنا أنه كان كثيرًا ما يضرب المثل بالمحسوس ليحصل الفهم، وهذه سنة القرءان، ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من

والخطأ، **(قال الحسن)** البصري: **(عزيز عليه أن تدخلوا النار،)** من عزا إذا صعب وشق، قال الشاعر:

يعز علينا أن نفارق من نهوى

(حريص عليكم أن تدخلوا الجنة،) والحرص فرط الشدة، أو الشح على الشيء أن يضيع، والمراد هنا شدة الطلب لما يريده ويحبه، **(ومن حرصه ﷺ علينا)** على الرفق بنا **(أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا، و)** يريد **(فهمنا إياه على قدر منزلته)** بأن يأتي بالألفاظ المتناهية في البلاغة والقرابة خشية عدم فهمنا للمراد منهما، **(بل على قدر منزلتنا)** بالألفاظ المتداولة بين الناس، وإن نزلت في الرتبة عن غيرها ليسهل فهمها علينا، ويتضح المراد منها.

(وإلى هذا أشار صاحب البردة بقوله: لم يمتحنا،) لم يبتلنا **(بما،)** أي: بخطاب، **(تعيا العقول،)** أي: تقصر عن فهمه لغموضه، فلا نهتدي إلى المراد **(به، حرصًا علينا)** أن لا نضل، **(فلم نرتب ولم نهم، أي: لم نتحير)** تفسير لنرتب، **(ولم نشك فيما ألقاه إلينا)** بل تحققناه لسهولته، **(وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة﴾)** أي: للرحمة، **(﴿للعالمين﴾)** [الأنبياء/١٠٧]، الإنس والجن وغيرهم، **(ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم،)** بل هو عقاب.

(ومن حرصه عليه السلام على هدايتنا أنه كان كثيرًا ما يضرب المثل بالمحسوس، ليحصل الفهم) كقوله: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير من أن يكون لك حمر النعم».

(وهذه سنة القرآن،) عادته المستمرة أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما، **(ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من ذلك العجب العجاب،)** البالغ فيما يتعجب منه، لاشتماله على الأشياء البالغة في زيادة البيان والإيضاح والرفق بالمؤمنين، **(ولما ساوى سبحانه وتعالى بين الناس،)**

ذلك العجب العجاب، ولما ساوى اللّٰه سبحانه وتعالى بين الناس في حرص رسوله عليه السلام على إسلامهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم.

وقال: ﴿من أنفسكم﴾ ولم يقل: من أرواحكم، فقيل يحتمل أن يكون مراده: أنه منا بجسده المنفس، لا بروحه المقدس، ويرحم اللّٰه القائل:

إذا رمت مدح المصطفى شغفًا به	تبلد ذهني هيبة لمقامه
فأقطع ليلي ساهر الجفن مطرقًا	هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال فيه اللّٰه جل جلاله	رؤف رحيم في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز	بمختلفيه نثره ونظامه

مؤمنهم وكافرهم، (في حرص رسوله عليه السلام على إسلامهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم،) المستفادة من التقديم، كأنه قيل بالمؤمنين لا بغيرهم.

(وقال: ﴿من أنفسكم﴾ ولم يقل من أرواحكم، فقيل: يحتمل أن يكون مراده) على مغايرة النفس للروح؛ (أنه منا بجسده المنفس،) (بالتشديد) للمبالغة، أي: المكرم، ولرعاية (لا بروحه المقدس،) المطهر، وإن كان أصل المنفس (بالتخفيف)، (ويرحم اللّٰه القائل: إذا رمت:) قصدت (مدح المصطفى شغفًا:) ولوعًا (به،) ومحبة له (تبلد) من البلادة: عدم الذكاء والفطنة، أي: انكسرت حدة (ذهني،) وبرد عن الأوصاف اللائقة بمقامه.

وفي نسخة: تبدد، أي: تفرق، (هيبة لمقامه،) لأني أرى الأوصاف قاصرة عنه، فيعلوني الخجل عند إرادة مدحه، (فأقطع ليلي ساهر الجفن،) أي: جنسه (مطرقًا) (بكسر الراء وفتحها) (هوى) القصر، أي: ميلاً، (فيه أحلى من لذيذ منامه،) إذ السهر في هوى المحبوب ألذ، (إذا قال فيه اللّٰه جل جلاله: رؤوف رحيم،) وهما من أسمائه (في سياق كلامه،) ومعنى إذا الظرفية المجردة لا الشرط، لأن القول تحقق من اللّٰه، فلا يليق جعله مستقبلاً، ويجوز أن إذا منون، أي: لأجل هذا، (فمن ذا يجاري:) يأتي بما يشابه (الوحي) بثنائه على المصطفى نثرًا، أو نظمًا، (والوحي معجز بمختلفيه،) (بالفاء متعلق بيجاري) (نثره ونظامه،) أي: نظمه، والمعنى أن الوحي معجز للكلام نثرًا كان، أو نظمًا، فلا يمكن مشابهته لأحد.

(تنبيه): إيقاظ وتبيين، (وأما قول القاضي عياض بعد ذكره الآية) ﴿لقد جاءكم﴾ في الشفاء، بما لفظه: أعلم اللّٰه تعالى المؤمنين، أو العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس على اختلاف المفسرين من المواجه بهذا الخطاب؛ أنه بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يعرفونه ويتحققون مكانته، ويعلمون صدقه وأمانته، ولا يتهمونه بالكذب، وترك النصيحة لهم لكونه منهم،

تنبيه: وأما قول القاضي عياض بعد ذكره الآية:

«ثم وصفه بعدُ بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم، ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضربهم في دنياهم وأخراهم،

وأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة، أو قرابة، وكونه من أنفسهم وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح، (**ثم وصفه بعد**،) أي: بعد الإعلام المذكور، (**بأوصاف حميدة**،) أي: محمودة عند الله والناس، أو حامدة على التجوز في النسبة، (**وأثنى عليه بمحامد**:) جمع محمدة (**كثيرة**،) والثناء بها، لا يغاير الوصف بصفات حميدة، ولا يعاب مثله في مقام الخطابة، مع أنه لما كانت أوصاف جمع قلة، عقبه بجمع الكثرة دفعًا للإيهام، والأول مطابق لظاهر الآية، والثاني لما تضمنته مما لا يحصى، (**من حرصه**) بيان لما قبله من الأوصاف وما بعده، أي: من فرط شدته (**على هدايتهم**،) أي: دلالتهم، والمراد طلب تأثيرها لا مجردها، (**ورشدهم**،) أي: صلاحهم ظاهرًا وباطنًا، ليغاير الهداية، كما يقتضيه ظاهر العطف، فلا يفسر بضد الغي، لأنه الهداية، (**وإسلامهم**) مغاير لما قبله، فلذا عطف بالواو، وجعل ذلك كله متعلق الحرص، لدلالة السياق عليه ولقوله: ﴿إن تحرص على هداهم﴾ [النحل/٣٧]، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، والحرص لا يتعلق بالذوات، فإن قيل: لم قدم عياض هذه الصفة، وهي حريص عليكم مع تأخرها في الآية، أجيب: بأنه لما كانت العزة منشأ لحرصه قدمت في الآية على وفق الواقع لبيان حاله في ابتداء أمره، فلما حكاه عياض بيانًا لمحامده، قدم المقصود بالذات الذي هو الحمد، أو لأن المقام مقام مدح، وهو في الحرص أتم وأكمل، وسياق الآية للامتنان، وهو كونه يعز عليه حالهم، فأشار إلى تفاوت المقامين، ولا يرد أن المنة في الحرص أتم، لأن مسلك الآية على الترقي، وما هنا بخلافه للتفنن.

(**وشدة ما يعنتهم**،) روي بسكون العين وخفة النون من الإعنات، قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾، وروي بفتح العين وتثقيل النون، وهما لغتان، أعنت وعنت، بمعنى المشقة والوقوع فيها، ويجيء بمعنى الإثم والفساد والهلاك.

(**ويضربهم**) (بفتح الياء وضم الضاد)، وروي بضم الياء وكسر الضاد، مضارع أضر، لأنه يقال: ضره وأضر به، ومعناهما أوقعه في الضرر، (**في دنياهم وأخراهم**،) الدنيا تقال في مقابل آخره، وأخرى، كما عبر به، (**وعزته عليه**) عطف تفسير على شدة، كقوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني﴾ [يوسف/٨٦]، وكان المناسب لعطف التفسير تأخير الأشهر الأظهر، فيقول عزته وشدته، لكنه عكس للمبادرة، للمراد حتى يسلم السامع من عنت الانتظار، ولا حاجة لجعل الشدة غير العزة للتنازع في عليه، فإن التفسير لا ينافي التنازع، وبقية كلام عياض: ورأفته ورحمته

وعزته عليه ..».

فهو وإن كان المقصد منه صحيحًا، ففي ظاهره شيء، لأنه يوهم أن قوله «وشدة ما يعنتهم» معطوف على متعلق المصدر الذي هو «الحرص» فيكون مخفوضًا به.

ومما يقوي هذا التوهم قوة إعطاء الكلام، أن الضمير الأول من قوله «وعزته عليه» عائد على النبي ﷺ، والضمير الثاني عائد على اللّه تعالى، فلا تبقى «الشدة» إلا أن تكون معطوفة على متعلق المصدر. ولا يخفى ما في هذا.

وقد تأوله بعض العلماء على حذف مضاف أي: وكراهة شدة ما يعنتهم، ونحو ذك من المضافات.

والأولى ـ أو الصواب، إن شاء اللّه تعالى ـ أن تكون «الشدة» معطوفة على

بمؤمنيهم.

(**فهو وإن كان المقصد منه صحيحًا، ففي ظاهره شيء، لأنه يوهم أن قوله وشدة ما يعنتهم، معطوف على متعلق المصدر الذي هو الحرص،**) بيان للمصدر، ومتعلقه قوله على هدايتهم، (**فيكون مخفوضًا به،**) فيصير المعنى من حرصه على شدة ما يعنتهم، وهذا فاسد.

(**ومما يقوي هذا التوهم قوة إعطاء الكلام؛ أن الضمير الأول من قوله: وعزته عليه عائد على النبي ﷺ، والضمير الثاني عائد على اللّه تعالى، فلا تبقى الشدة إلا أن تكون معطوفة على متعلق المصدر،**) أي: قوله على هدايتهم، (**ولا يخفى ما في هذا**) من الفساد الموهم خلاف المراد، (**وقد تأوله بعض العلماء على حذف مضاف**) مجرور، معطوف على الحرص المجرور بمن، (**أي: وكراهة شدة ما يعنتهم، ونحو ذلك من المضافات**) المصححة للمراد.

قال في النسيم: لا حاجة إلى تقدير، لأن معنى شدته عليه إنه صعب شاق عليه، فيراد به أنه مكروه تأباه نفسه، فالمعنى من حرصه على هدايتهم، ومن كراهته لما يضرهم، وصاحب المواهب لم يخف عليه العطف، ولكن أوقعه التقدير فيما وقع فيه. انتهى.

وكأنه لم ير بقية الكلام وهو قوله: (**والأولى**) من تأويله على حذف مضاف، (**أو الصواب**) على إبقائه على ظاهره، (**إن شاء اللّه تعالى أن تكون الشدة معطوفة على نفس المصدر الذي هو الحرص،**) وكان هذا أولى من تقدير المضاف لما فيه من الاحتياج لتقدير الأصل عدمه، (**ويكون قوله عزته معطوفًا على وشدة، والضمير فيه راجع إلى الموصول،**)

نفس المصدر الذي هو «الحرص» ويكون قوله «وعزته» معطوفًا على «وشدة» والضمير فيه راجع إلى الموصول وهو «ما» في قوله «ما يعنتهم» والهاء الثانية في «عليه» عائدة على النبي ﷺ. انتهى.

وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء/١٠٧].

يجوز أن يكون «رحمة» مفعولاً له، أي لأجل الرحمة، ويجوز أن ينصب على الحال مبالغة في أن جعله نفس الرحمة، وإما على حذف مضاف أي: ذا رحمة، أو بمعنى: راحم. قاله السمين.

قال أبو بكر بن طاهر ـ فيما حكاه القاضي عياض ـ: زين الله تعالى

وهو ما في قوله ما يعنتهم) أي: الذي، **(والهاء الثانية في عليه عائدة على النبي ﷺ. انتهى)**.

والمعنى وصفه وأثنى عليه بمحامد من شدة الذي يعنتهم وعزة الذي يعنتهم على المصطفى.

(وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾، يجوز أن يكون) قوله **(رحمة مفعولاً له أي: لأجل الرحمة)**، وللعالمين متعلق به، أي: إلا لترحم بك العالمين، بهدايتك إياهم لسعادة الدارين.

وفي الصحيح قيل: يا رسول الله ادع على المشركين؟، فقال: «إني لم أبعث لعانًا إنما بعثت رحمة»، **(ويجوز أن ينصب على الحال)** من الكاف **(مبالغة في أن جعله نفس الرحمة، وإما على حذف مضاف، أي: ذا رحمة،)** وليس للعالمين متعلقًا بأرسلنا، لأن ما قبل إلا لا يعمل فيما بعدها إلا في الاستثناء المفرغ نحو: ما مررت إلا بزيد، والمعنى إلا لأرحم العالمين بالبناء للفاعل، لا للمفعول كما زعم، **(أو بمعنى راحم)** اسم فاعل، **(قاله السمين)** الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، النحوي، نزيل القاهرة، مات سنة ست وخمسين وسبعمائة، له إعراب القرآن، وأيضًا تفسير كبير في عدة أجزاء.

(قال أبو بكر بن طاهر) بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافري، الشاطبي، كما جزم به البرهان الحلبي في المقتفى والشمني وغيرهما، **(فيما حكاه القاضي عياض)** في الشفاء، **(زين الله تعالى محمدًا ﷺ بزينة الرحمة،)** استعارة مكنية، بجعلها كالحلة والخلعة البهية والزينة: ما يتزين به لباسًا وغيره، وإضافته للرحمة بيانية، أو من إضافة الأعم للأخص، كلجين الماء، وقيل: الزينة هنا اللباس، أي: ألبسه الله رحمة رحمانية شاملة له، وفيه إشارة إلى أنها منة من الله بها

محمدًا ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، انتهى.

وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب أهلك الله من كذبه. ومحمد ﷺ أخّر من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة.

عليه، غير الحلية البشرية، **(فكان كونه)** أي: وجوده، فهي تامة لا خبر لها، وتقدير من ربنا قبيح، **(رحمة)** خبر فكان، والفاء فيه للتفسير والتفصيل، **(وجميع شمائله:)** جمع شمال (بالكسر).

قال الأزهري: الشمال خلقة الرجل، أي: خلقه، وجمعه شمائل، ورجل كريم الشمائل، أي: في أخلاقه ومخالطته. انتهى، فعطف، **(وصفاته رحمة)** عام على خاص، إذ لم يخصص الصفات بالظاهرة، والشمائل بخلافها.

وقال شراح الشفاء: صفاته تشمل غضبه وظاهر مرآه، لأنه لا يغضب لنفسه، وإنما يغضب لله، وغضبه للإصلاح، وهو رحمة في ذاته، وأما مرآه الحسن، فإنه لمحبته والتصديق به، ألا ترى أن عبد الله بن سلام لما رآه آمن به، وقال: لما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، **(فمن أصابه شيء من رحمته)** أي: اهتدى بهدايته، لأن من يهتد، كمن لم تصبه الرحمة، كما أن من شرب الماء ولم يرو، كأنه لم يشرب، **(فهو الناجي،)** أي: السالم، **(في الدارين)** الدنيا والآخرة **(من كل مكروه)** يصيب من لم يهتد في الدنيا، كقتل وسبي وأخذ جزية، وفي الآخرة العذاب المخلد، وأما أسقام الدنيا وآلامها التي تصيب المؤمن فلا تعد مكروهة بعد العلم بما فيها من تكفير السيئات ونيل الحسنات، **(والواصل فيهما إلى كل محبوب،)** أما في الآخرة، فغني عن البيان، وأما في الدنيا، فإن كان ذا غنى ونعمة فظاهر، وإلا فالمؤمن العاقل إذا صبر وقام بوظائف العبودية في دنيا سريعة الزوال كان ما أصابه من المكروه لإيصاله للنعم الأخروية محبوبًا عنده. **(انتهى)** كلام ابن طاهر.

(وقال ابن عباس:رحمة للبر،) أي: المؤمن **(والفاجر،)** أي: الكافر، **(لأن كل نبي:)** من سبق **(إذا كذب)** (بشد الذال) مبني للمجهول، **(أهلك الله من كذبه، ومحمد ﷺ أخر من كذبه إلى الموت، أو إلى القيامة،)** فتأخير عذاب الدنيا عنهم بنحو الاستئصال والخسف والمسخ والعذاب النازل من السماء رحمة، فلا يرد عليه من قتل من الكفار في غزوات المصطفى، **(وأما من صدقه،)** أي: آمن به، **(فله الرحمة في الدنيا والآخرة،)** وإن عذاب

وقال السمرقندي: رحمة للعالمين يعني: الجن والإنس.

وقيل: لجميع الخلق للمؤمنين رحمة بالهداية، ورحمة للمنافقين بالأمان من القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب لما بعد الموت.

العاصي فمآله إلى الجنة مع خفة عذابه عن الكفار بمراحل، بل لا مشابهة.

وعن ابن عباس أيضًا عند الطبري وغيره: هو رحمة للمؤمنين والكافرين، إذ عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم الكاذبة.

(وقال) أبو الليث **(السمرقندي)** نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الفقيه، الحنفي، الإمام المشهور، له التصانيف، كالتفسير، والنوازل، وخزانة الفتاوى، وتنبيه الغافلين، والبستان، توفي سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، منسوب إلى سمرقند، مدينة بفارس بما وراء النهر.

قال التلمساني المصحح في النسخ، بفتح السين والراء وسكون الميم، والمعروف فتح الميم وسكون الراء، وتبع قول المجد إسكان الميم وفتح الراء، لحن، وفيه نظر، وهو معرب شمركند، وشمر اسم رجل، وكندة بمعنى قرية **(رحمة للعالمين، يعني الجن والإنس)** تفسير للآية بجنس العقلاء من الثقلين، بقرينة جمع المذكر السالم، وإن كان جمع عالم، وهو كل ما يعلم به الصانع من العقلاء وغيرهم، فالمفرد أعم من جمعه، فخص ثم جمع بجعله صفة أو ملحقًا بها، لأن فاعل بالفتح اسم آلة، كالخاتم والقالب، وقيل: غلب العقلاء، أو جعل اسمًا لذي العلم من الثقلين، أو هما والملك، أو الإنس.

(وقيل: لجميع الخلق) مقابل لما اختاره.

قال الشريف الجرجاني: يطلق على كل جنس لا فرد، فهو للقدر المشترك بين الأجناس، فيصح إطلاقه على كل جنس وعلى مجموعها، وإذا عرف بلام الاستغراق شمل كل فرد من جنس، كالأقاويل، فمن فسره بجميع الخلق، فعلى الأصل، ومن فسره بالإنس والجن فعلى بعض الوجوه، أو خصه، لأنه ﷺ مبعوث إليهما، ومن فسره بالمؤمن والكافر أراد أنه يشملهما، لا أن معناه ذلك. انتهى.

وأخذ في بيان ما به تكون الرحمة على مختاره، فقال **(للمؤمنين)** بدل من للعالمين، أو متعلق بمقدر، أي: أرسله، وعلى الأول، وهو الظاهر هو بيان لمختاره، وعلى الثاني يصلح لهما، وفي نسخة للمؤمن بالإفراد، **(رحمة بالهداية)** الزائدة على هداية الإيمان، أو لمن قدر إيمانه، **(ورحمة للمنافقين)**.

وفي نسخة: للمنافق بالإفراد على إرادة الجنس، **(بالأمان من القتل،)** مطلقًا بخلاف الكافر، فإنما يأمن بجزية، أو أمان، **(ورحمة للكافرين)**.

فذاته عليه السلام رحمة تعم المؤمن والكافر كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال/٣٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا رحمة مهداة» رواه الديلمي والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة.

وقال بعض العارفين: الأنبياء كلهم خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، ولقد أحسن القائل:

غنيمة عمر الكون بهجة عيشه سرور حياة الروح فائدة الدهر
هو النعمة العظمى هو الرحمة التي تجلى بها الرحمٰن في السر والجهر

فبيانه عليه السلام ونصحه رحمة، ودعاؤه واستغفاره رحمة، فرزِقَ ذلك منْ

وفي نسخة بالإفراد، (بتأخير العذاب لما بعد الموت،) وأما عذاب الدنيا بالقحط وغيره، فلا يختص بطائفة، أو المراد الاستئصال والمسخ والخسف والزنديق، سواء أدخل في المنافق، أو الكافر عذابه مؤخر أيضًا، فالظاهر اشتراكهما فيه، وتمييز المنافق بإجراء أحكام الإسلام عليه ظاهرًا، أو يقال أراد في كل قسم ذكر رحمة مخصوصة من غير تخصيص، (**فذاته عليه السلام رحمة تعم المؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾**) [الأنفال/٣٣]، لأن العذاب إذا نزل عم، ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها.

(**وقال عليه الصلاة والسلام: إنما أنا رحمة مهداة:**) (بضم الميم) معطاة من الله بلا عوض، (**رواه الديلمي والبيهقي في الشعب**) للإيمان (**من حديث أبي هريرة،**) ورواه الحاكم، وصححه على شرطهما، وأقره الذهبي، ومر شرحه في الأسماء الشريفة.

(**وقال بعض العارفين: الأنبياء كلهم خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة،**) أعلاها وأجلها.

(**ولقد أحسن القائل:**)

(**غنيمة عمر الكون بهجة عيشه سرور حياة الروح فائدة الدهر**)

(**هو النعمة العظمى هو الرحمة التي تجلى بها الرحمٰن في السر والجهر**).

ومعنى البيتين ظاهر، (**فبيانه،**) أي: ظهوره أو تبيينه (**عليه السلام ونصحه رحمة،**) أي: كل واحد منهما، (**ودعاؤه واستغفاره**) كل منهما (**رحمة،**) سواء في حياته وبعد مماته، كما قال ﷺ: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، أما حياتي فأبين لكم السنن وأشرع لكم الشرائع، وأما موتي، فإن أعمالكم تعرض عليّ، فما رأيت منها حسنًا حمدت الله، وما رأيت منها سيئًا استغفرت الله لكم» رواه البزار وغيره بسند جيد.

قبله، وحرمه من رده.

فإن قلت: كيف كان رحمة، وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند، ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف اللّٰه تعالى: الرحمٰن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة، وقال تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركًا﴾ [ق/٩] ثم قد يكون سببًا للفساد.

وثانيهما: أن كل نبي من الأنبياء قبل نبينا إذا كذبه قومه أهلك اللّٰه المكذبين بالخسف والمسخ والغرق، وقد أخر اللّٰه عذاب من كذب نبينا إلى

(**فرزق ذلك من قبله**) بأن آمن به، وإن عاصيًا، (**وحرمه من رده**) فلم يؤمن به نسأل اللّٰه الثبات على الإيمان، (**فإن قلت: كيف كان رحمة، وقد جاء بالسيف؟**) قال تعالى: ﴿**جاهد الكفار**﴾ [التوبة/٧٣]، أي: بالسيف، (**واستباحة الأموال**) بالغنائم التي لم تحل لأحد قبله، ومنها استرقاق الذراري والنسائي، (**فالجواب من وجهين**):

(**أحدهما: أنه إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر**) فعذابه إنما جاء من نفسه، كعين جرت فانتفع بها قوم وكسل آخرون، فهي رحمة لهما، وهو ﷺ لم يرد ضررًا لأحد، وقد اجتهد في نفع كل أحد، وإيصال تلك الرحمة إليه، ولكن من يضلل اللّٰه فما له من هاد.

(**ومن أوصاف اللّٰه تعالى الرحمٰن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة**) ولا تنافي بين الوصفين، فكذا لا تنافي بين بعثه بالسيف وكونه رحمة، (**وقال تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماء﴾**) مطرًا (**﴿مباركًا﴾**) [ق/٩]، كثير البركة والمنافع، (**ثم قد يكون سببًا للفساد**) بإهلاك الزرع وغيره، والقصد أنه لا مانع من وصف الشيء بالشيء، وضده لاختلاف من يقع عليه الأمران.

(**وثانيهما: أن كل نبي من الأنبياء قبل نبينا، إذا كذبه قومه أهلك اللّٰه المكذبين بالخسف**) كقارون، (**والمسخ**) قردة، كأصحاب أيلة بدعاء داود، وخنازير، كأصحاب المائدة بدعاء عيسى، قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ [المائدة/٧١]، (**والغرق**) كقوم نوح وفرعون وقومه، وبالريح العاصف فيها حصباء، كقوم لوط، وبالصيحة، كثمود، قال تعالى: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا﴾ [العنكبوت/٤٠] (**وقد أخر اللّٰه عذاب من كذب نبينا إلى الموت، أو إلى يوم القيامة**) فتأخيره رحمة، لأنه لم يجمع

الموت، أو إلى يوم القيامة.

لا يقال: إنه تعالى قال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم﴾ [التوبة/ ١٤]، وقال تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين﴾ [الأحزاب/٧٣]، لأنا نقول: تخصيص العام لا يقدح فيه.

وفي «الشفاء» للقاضي عياض: وحكى أنه ﷺ قال لجبريل: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت، لثناء الله تعالى عليَّ بقوله: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ [التكوير/٢٠]. انتهى.

وذكر السمرقندي في تفسيره بلفظ: وذكر أن النبي ﷺ قال لجبريل يقول

عليهم عذابين، كالأمم السابقة، (**لا يقال إنه تعالى قال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله﴾** بقتلهم **﴿بأيديكم ويخزهم﴾**)، أي: يذلهم بالأسر والقهر، (**وقال تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين﴾** والمنافقات، والمشركين، والمشركات﴾ [الأحزاب/٧٣]، (**لأنا نقول تخصيص العام**) وهو العالمين من رحمة للعالمين ببعض إفراده، وهو المنافق والمشرك، (**لا يقدح فيه**) لأنه يكفي في عمومه صدقه على غير ما خصص به.

(**وفي الشفاء للقاضي عياض: وحُكي**) بالبناء للمجهول كما قال البرهان؛ (**أنه ﷺ قال لجبريل: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟**) فيه إشارة إلى أنه مرحوم مقرب، وإنما السؤال عن رحمة نالته من رحمة المصطفى، كما أفاده اسم الإشارة، (**قال: نعم، كنت أخشى العاقبة**) أي: سوءها، أو المراد بالعاقبة السيئة بجعل التعريف للعهد بقرينة الخشية، فإنها بمعنى الخوف، وإنما يكون في المكروه، والعاقبة ما يعقب الشيء، ويحصل منه خيرًا كان أو شرًا، (**فأمنت**) (بفتح الهمزة المقصورة، وكسر الميم الخفيفة، مبني للفاعل من الأمن ضد الخوف)، وضبطه(بضم الهمزة مبني للمفعول)، خلاف المشهور، ثم إن كان بشد الميم، فظاهر، وإن كان بتخفيفها، فركيك جدًا، لأنه إن كان من ضد الخيانة، فلا يناسب المقام، أو من الأمن، فكذلك، لأن مفعوله الثاني من المعاني، لا الذوات، فيحتاج لتقدير وحذف، أي: أمنت سوء عاقبتي، ولا داعي له، (**لثناء الله تعالى عليَّ، بقوله**): ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ (**ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾**)،عند الله في علمه، أو في حكمه وقضائه، لأن ثناءه يقتضي رضاه وقبوله، وهو لا يرضى، ويقبل الأمن، كان مرحومًا مقربًا، فلما علم ذلك من القرآن الذي هو رحمة نازلة بالمصطفى، اطمأن خاطره وأمن سوء الخاتمة. (**انتهى**).

نقل عياض: قال السيوطي: ولم أجده مخرجًا في شيء من كتب الحديث.

(**وذكر السمرقندي في تفسيره بلفظ، وذكر أن النبي ﷺ قال لجبريل: يقول الله**

الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك، لثناء الله تعالى عليَّ في قوله: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾. [التكوير/٢١].

وهذا يقتضي أن محمدًا ﷺ أفضل من جبريل، وهو الذي عليه الجمهور، خلافًا لمن زعم أن جبريل أفضل واستدل: بأن الله وصف جبريل بسبعة أوصاف من أوصاف الكمال في قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش

تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، فهل أصابك من هذه الرحمة شيء؟، قال: نعم كنت أخشى عاقبة هذا الأمر،) أي: خاتمته، (فآمنت بك لثناء الله تعالى عليّ في قوله: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾) [التكوير/٢١]، ولا يعارض هذا ما روي أن جبريل أتى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟، قال: وما لي لا أبكي، فوالله ما جفت لي عين منذ خلق الله النار، مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها، أخرجه أحمد في الزهد عن أبي عمران الجوني بلاغًا.

وأخرج أبو الشيخ عن عبد العزيز بن أبي داود، قال: نظر الله إلى جبريل وميكائيل، وهما يبكيان، فقال الله: ما يبكيكما وقد علمتما أني لا أجور، قالا: يا رب إنا لا نأمن مكرك، قال: هكذا فافعلا، فإنه لا يأمن مكري إلا كل خاسر لأنه كلما زاد القرب زاد الخوف، فالمقرب لا يزال خائفًا ممن يهابه، أو لأنه من عظمة الله تعالى قد يذهل عن الأمان.

(وهذا يقتضي أن محمدًا ﷺ أفضل من جبريل، وهو الذي عليه الجمهور،) بل حكى الرازي عليه الإجماع، وكذا ابن السبكي والبلقيني والزركشي، وقال: إنهم استثنوه من الخلاف في التفضيل بين النبي والملك، (خلافًا لمن زعم،) وهو الزمخشري في الكشاف، (أن جبريل أفضل،) وقد قال بعض علماء المغاربة: جهل الزمخشري مذهبه، فإن المعتزلة مجمعون على أنه أفضل من جبريل.

نعم قيل: إن طائفة منهم خرقوا الإجماع، كالرماني، فتبعهم الكشاف جهلاً.

(واستدل بأن الله وصف جبريل بسبعة أوصاف من أوصاف الكمال في قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾،) أي: جامع لأنواع الخير، ففيه شهادة له بعلو، الرتبة وليس المراد كريم عند مرسله، كما قيل به في ﴿ألقي إليّ كتاب كريم﴾ وإن أجيز هنا للاستغناء عنه بعند ذي العرش، (﴿ذي قوة﴾) على تبليغ ما حمله من الوحي، وعلى اقتلاع المدائن والجبال، وإهلاك صيحته كل من سمعها، وهبوطه إلى الأرض، وصعوده في طرفة عين إلى غير ذلك، (﴿عند ذي العرش﴾) صفة مستقلة عنده، لأنه عدها سبعًا، لا متعلقة بما قبله، ولا بما بعده، وإلا فهي ستة،

مكين مطاع ثم أمين﴾، ووصف محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾.

ولو كان محمد ﷺ مساويًا لجبريل في صفات الفضل أو مقاربًا له لكان وصف محمدًا بمثل ذلك.

وأجيب بأنا متفقون على أن لمحمد ﷺ فضائل أخرى سوى ما ذكر في هذه الآية، وعدم ذكر اللّٰه تعالى لتلك الفضائل هنا لا يدل على عدمها بالإجماع، وإذا ثبت أن لمحمد ﷺ فضائل أخر زائدة فيكون أفضل من جبريل.

وبالجملة: فإفراد أحد الشخصين بالوصف لا يدل ألبتة على انتفاء تلك الأوصاف عن الثاني، وإذا ثبت بالدليل القرءاني أنه ﷺ رحمة للعالمين، والملائكة من جملة العالمين، وجب أن يكون أفضل منهم، واللّٰه أعلم.

وقد عدها الرازي ستة، فعلقها بما قبلها، (﴿**مكين**﴾،) أي: متمكن المنزلة عند ربه، رفيع المحل عنده، (﴿**مطاع ثم**﴾،) أي: في السماء (﴿**أمين**﴾) على الوحي، (**ووصف محمدًا ﷺ، بقوله: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾**،) كما تبهته الكفرة، (**ولو كان محمد ﷺ مساويًا لجبريل في صفات الفضل، أو مقاربًا له لكان وصف محمدًا بمثل ذلك**).

قال البيضاوي: وهو استدلال ضعيف، إذ المقصود منه نفي قولهم، إنما يعلمه بشر أفترى على اللّٰه كذبًا، أم به جنة، لا تعداد فضلهما والموازنة بينهما.

(**وأجيب: بأنا متفقون على أن لمحمد ﷺ فضائل أخرى**،) القرآن طافح بها: ﴿**إن كنتم تحبون اللّٰه فاتبعوني يحببكم اللّٰه**﴾ [آل عمران/٣١]، ﴿**أن تطيعوه تهتدوا**﴾ [النور/٥٤]، ﴿**قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم**﴾ [النساء/١٧٠]، ﴿**لقد كان لكم في رسول اللّٰه أسوة حسنة**﴾ [الأحزاب/٢٢] إلى غير ذلك، (**سوى ما ذكر في هذه الآية، وعدم ذكر اللّٰه تعالى لتلك الفضائل هنا لا يدل على عدمها بالإجماع**) لأنه، لم يقصد المفاضلة بينهما، (**وإذا ثبت أن لمحمد ﷺ فضائل أخرى زائدة**) على هذه السبع التي تشبث بها جاهل المعتزلة، (**فيكون أفضل من جبريل**،) وهو إجماع حتى من المعتزلة أيضًا، كما مر.

(**وبالجملة، فإفراد أحد الشخصين بالوصف لا يدل البتة**) بقطع الهمزة (**على انتفاء تلك الأوصاف عن الثاني**،) بل هو موصوف بها ضرورة؛ أنه لا يصح نفيها عنه، (**وإذا ثبت بالدليل القرآني؛ أنه ﷺ رحمة للعالمين، والملائكة من جملة العالمين، وجب أن يكون أفضل منهم**) حتى جبريل، (**واللّٰه أعلم**،) ولهذا ونحوه حذر جماعة من أكابر العلماء، كالسبكي من قراءة الكشاف.

وقال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب/٤٠].

وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس، كما قدمنا ذلك في أسمائه الشريفة من المقصد الثاني.

وبذلك وردت الأحاديث عنه ﷺ:

فروى الإمام أحمد من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: مثلي في النبيين كمثل رجل بنى دارًا، فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل

(وقال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾).

قال ابن عطية: أذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم، من تزوج رسول الله ﷺ زوجة دعية زيد بن حارثة، لأنهم كانوا استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفى القرآن تلك البنوّة، وأعلم أنه عليه السلام ما كان أبًا أحد من المعاصرين له حقيقة، ولم يقصد بهذه الآية أنه لم يكن له ولد، فيحتاج إلى الاحتجاج في أمر بنيه بأنهم كانوا ماتوا، ولا في الحسن والحسين إلى أنهما ابنا بنته، ومن احتج بذلك تأول معنى البنوّة على غير ما قصد بها، (﴿ولكن رسول الله﴾،) وقرىء بالرفع، أي: هو، وقرأ عاصم وأبو عمرو ونافع، بالنصب عطفًا على أبًا، ولكن بالتخفيف، وقرأت فرقة، لكن بالتشديد، ورسول اسمها، والخبر محذوف، (﴿وخاتم النبيين﴾) (بكسر التاء) قراءة الجمهور، بمعنى أنه ختمهم، أي: جاء آخرهم، وقرأ عاصم بفتح التاء، أي: أنهم ختموا به، فهو كالخاتم والطابع لهم.

(وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بطريق الأولى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوّة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس،) فليس كل نبي رسولاً، (كما قدمنا ذلك في أسمائه الشريفة من المقصد الثاني، وبذلك وردت الأحاديث عنه ﷺ).

(فروى الإمام أحمد) بن حنبل (من حديث أبي بن كعب) الأنصاري الخزرجي، سيد القراء، من فضلاء الصحابة: (أن النبي ﷺ قال: مثلي،) مبتدأ (في النبيين،) متعلق به، وفي حديث جابر: ومثل الأنبياء، بالعطف والخبر، (كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة) (بفتح اللام وكسر الموحدة ونون)، ويجوز كسر اللام وسكون الموحدة: قطعة طين تعجن، وتعد للبناء من غير إحراق، فإن أحرقت، فهي آجرة (لم يضعها، فجعل الناس يطوفون

الناس يطوفون بالبنيان ويتعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة ورواه الترمذي عن بندار عن أبي عامر العقدي، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي حديث أنس بن مالك مرفوعًا: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي». رواه الترمذي وغيره.

وفي حديث جابر مرفوعًا: مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، وأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم السلام. رواه أبو داود الطيالسي،

بالبنيان ويتعجبون،) بفوقية بعد التحتية، (**منه**،) أي: من حسنه وكماله، (**ويقولون**) وددنا (**لو تم موضع هذه اللبنة**،) فلو للتمني، فلا جواب لها، أو جوابهما محذوف لعلمه من المذكور، أي: أتم حسنها وكمالها، (**فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة**)، وفي رواية أحمد عن أبي هريرة: ألا وضعت ههنا لبنة، فيتم بنيانك.

(**ورواه الترمذي عن بندار**) (بضم الموحدة وإسكان النون ودال مهملة فألف فراء بلا نقط) لقب محمد بن بشار بن عثمان العبدي، البصري أبي بكر، ثقة، روى عنه الأئمة الستة وابن خزيمة وغيرهم، مات سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وله خمس وثمانون سنة، (**عن أبي عامر**) عبد الملك بن عمرو القيسي، (**العقدي**) (بفتح المهملة والقاف) ثقة، مات سنة أربع، أو خمس ومائتين، روى له الجميع.

(**وقال**) الترمذي: (**حديث حسن صحيح**) عن أبي بن كعب.

(**وفي حديث أنس بن مالك، مرفوعًا: أن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي**،) قيل: ومن لا نبي بعده، يكون أشفق على أمته، كوالد ليس له غير ولد، (**رواه الترمذي وغيره**،) كالإمام أحمد، والحاكم بإسناد صحيح.

(**وفي حديث جابر، مرفوعًا**) قال: قال النبي ﷺ: (**مثلي**،) مبتدأ، (**ومثل الأنبياء**) عطف عليه، (**كمثل رجل**) خبر، (**بنى دارًا فأكملها وأحسنها**،) وفي رواية همام عن أبي هريرة عند مسلم، كمثل رجل ابتنى بيوتًا فأحسنها وأجملها وأكملها، (**إلا موضع لبنة**،) من زاوية من زواياها، (**فكان من دخلها فنظر، قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة**).

وفي رواية الشيخين: فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع هذه اللبنة.

وكذا البخاري ومسلم بنحوه.

وفي حديث أبي سعيد الخدري: فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة. رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة.

وفي رواية همام: ألا وضعت ههنا لبنة، فيتم بنيانك، قال ﷺ: **(فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء)** ولمسلم: جئتم، فختمت الأنبياء، **(عليهم السلام)**.

وفي حديث أبي هريرة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين، **(رواه أبو داود)** سليمٰن بن داود ابن الجارود، **(الطيالسي:)** (بفتح الطاء والتحتانية) نسبة إلى الطيالسة المعروفة، البصري، الثقة، الحافظ، المصنف، مات سنة أربع، وقيل: ثلاث ومائتين، روى له مسلم والأربعة، **(وكذا البخاري ومسلم، بنحوه)** عن جابر، وأخرجاه أيضًا من حديث أبي هريرة، وسياقه أتم، وقدمه المصنف في الخصائص.

(وفي حديث أبي سعيد الخدري: فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة، رواه مسلم،) فيه شيء، لأن مسلمًا لم يسق لفظه، بل أحال به على حديث أبي هريرة الذي رواه من ثلاثة طرق، فقال: حدثنا ابن أبي شيبة وأبو كريب، قالا: حدثنا أبو معٰوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل النبيين»، فذكر نحوه هذا لفظ مسلم، وقد علمت ثبوتها في حديث أبي هريرة، وأورد أن المشبه به واحد، والمشبه جماعة، فكيف صح التشبيه، وأجيب بأنه جعل الأنبياء كرجل واحد، لأنه لا يتم ما أراد من التشبيه إلا باعتبار الكل، وكذا الدار لا تتم إلا باجتماع البنيان، وبأنه من باب التشبيه التمثيلي، وهو أن يوجد وصف من أوصاف المشبه، ويشبه بمثله من أحوال المشبه به، فكأنه شبه الأنبياء وما بعثوا به من إرشاد الناس ببيت أسست قواعده ورفع بنيانه، وبقي منه موضع يتم به صلاح ذلك البيت، وزعم ابن العربي؛ أن اللبنة المشار إليها كانت في أس الدار المذكورة، وأنها لولا وضعها لانقضت تلك الدار، قال: وبهذا يتم المراد من التشبيه المذكور.

قال الحافظ: وهذا إن كان منقولاً فحسن، وإلا فليس بلازم.

نعم ظاهر السياق أن اللبنة في مكان يظهر عدم الكمال في الدار بفقدها.

وفي رواية مسلم: إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فظهر أن المراد أنها مكملة محسنة، وإلا لاستلزم أن يكون الأمر بدونها ناقصًا، وليس كذلك، فإن شريعة كل نبي بالنسبة إليه كاملة، فالمراد هنا النظر إلى الأكمل بالنسبة إلى الشريعة المحمدية مع ما مضى من الشرائع الكاملة، وفي الحديث ضرب الأمثال للتقريب للإفهام.

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: وأرسلت إلى الخلق كافةً وختم بي النبيون.

فمن تشريف الله تعالى له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيفي له، وقد أخبر الله في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال، ولو تحذلق وتشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكلها محال وضلالة

(**وفي حديث أبي هريرة عند مسلم**) عن النبي ﷺ: فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وجعلت لي الأرض مسجدًا وظهورًا، (**وأرسلت إلى الخلق كافة**) إرساله عامة محيطة بهم، لأنها إذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم، (**وختم بي النبيون**) أي: أغلق باب الوحي والرسالة وسد لكمال الدين، وتصحيح الحجة، فلا نبي بعده، ومر الحديث في الخصائص.

(**فمن تشريف الله تعالى له ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيفي**) المائل عن الباطل للحق (**له، وقد أخبر الله تعالى في كتابه ورسوله في السنة المتواترة عنه؛ أنه لا نبي بعده، ليعلموا**) أي: المخبرون، (**أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذاب:**) كثير الكذب، (**أفاك**) كذاب مبالغ فيه، (**دجال**) كذاب، قال ثعلب: الدجال: هو المموه، يقال: سيف مدجل، إذا طلي مذهب.

وقال ابن دريد: كل شيء غطيته فقد دجلته، واشتقاق الدجال من هذا، لأنه يغطي الأرض بالجمع الكثير، (**ضال**) لم يهتد، فالألفاظ الأربعة متقاربة، وقد علم ﷺ بذلك، وأخبر به.

ففي الصحيحين، مرفوعًا: لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون، كذابون، قريبًا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، (**ولو تحذلق**): (بفوقية فمهملة فمعجمة) أظهر الحذق، وادعى أكثر مما عنده، ومثله حذلق بلا تاء، (**وتشعبذ**:) (بالذال المعجمة بعد الموحدة)، أتى بما يرى الإنسان منه ما لا حقيقة له، كالسحر، ويقال له أيضًا شعوذ: (بالواو) بدل الموحدة، (**وأتى بأنواع السحر**).

قال ابن فارس: وهو إخراج الباطل في صورة الحق، ويقال هو الخديعة، وسحره بكلامه، استمالة برقته وحسن ترتيبه.

وقال الإمام فخر الدين: هو في عرف الشرع كل أمر يخفى سببه، ويتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع.

قال تعالى: ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ [طه/٦٦] ، وإذا أطلق ذم فاعله.

عند أولي الألباب.

ولا يقدح في هذا نزول عيسى ابن مريم عليه السلام بعده، لأنه إذا نزل من السماء كان على دين نبينا محمد ﷺ ومنهاجه، مع أن المراد: أنه آخر من نبيء.

قال ابن حبان: من ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو إلى أن الولي أفضل من النبي فهو زنديق يجب قتله والله أعلم.

النوع الرابع
في التنويه به ﷺ في الكتب السالفة
كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل

قال الله تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل﴾** [الأعراف/١٥٧].

(والطلاسم، والنيرنجيات) (بكسر النون وإسكان التحتية وفتح الراء فنون ساكنة فجيم فتحتية فألف ففوقية).

قال المجد: النيرنج (بالكسر) أخذ كالسحر، وليس به، **(فكلها محال)** باطل، **(وضلالة)** زوال عن الحق، **(عند أولي الألباب:)** العقول، **(ولا يقدح في هذا نزول عيسى ابن مريم عليه السلام بعده، لأنه إذا نزل من السماء كان على دين نبينا محمد)** ﷺ، **(ومنهاجه:)** طريقه في شرعه، فهو واحد من أمته، **(مع)** أنه لا يرد هذا أصلاً، إذ **(أن المراد أنه آخر من نبيء)** وأرسل، فلا يضر وجود واحد بعد، أو أكثر ممن نبيء، أو أرسل قبله.

(قال ابن حبان: من ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو إلى أن الولي أفضل من النبي فهو زنديق يجب قتله) لتكذيب القرآن، وخاتم النبيين، **(والله أعلم.)**

(النوع الرابع في التنويه به:)

أي: التعظيم ورفعة شأنه (ﷺ) بذكره **(في الكتب السالفة، كالتوراة والإنجيل؛ بأنه صاحب الرسالة والتبجيل،)** متعلق بقوله في التنويه، أي: رفع ذكره بأنه صاحب، وهذا أظهر من كونه بدلاً منه.

(قال الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل﴾،) باسمه وصفته، بحيث لا يشكون أنه هو، ولذا عدل عن يجدون اسمه أو وصفه مكتوبًا، فتضمن ذلك إخباره تعالى بذكره في الكتابين قبل وجوده، تعظيمًا له وحثًا على

وهذا يدل على أنه لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول مقاله، فلما قال لهم عليه السلام هذا دل على أن ذلك النعت كان مذكورًا في التوراة والإنجيل. وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

لكن أهل الكتاب كما قال اللّه تعالى: ﴿**يكتمون الحق وهم يعلمون**﴾ [البقرة/١٤٦]، و﴿**يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾ [المائدة/١٣]، وإلا فهم ـ قاتلهم اللّه ـ قد عرفوا محمدًا ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه عندهم مكتوبًا في التوراة والإنجيل، لكن حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور اللّه بأفواههم، ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

اتباعه إذا وجد.

روى أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه، قال: كان في بني إسرائيل رجل عصى اللّه مائتي سنة، ثم مات فأخذوه، فألقوه على مزبلة، فأوحىٰ اللّه إلى موسىٰ أن أخرج فصلِ عليه، قال: يا رب بنو إسرائيل يشهدون أنه عصاك مائتي سنة، فأوحىٰ اللّه إليه، هكذا كان إلا أنه كان كلما نشر التوراة ونظر إلى اسم محمد ﷺ قبله، ووضعه على عينيه، وصلى عليه، فشكرت له ذلك، وغفرت له وزوجته سبعين حوراء، (**وهذا يدل علىٰ أنه لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات**) لهم عن اتباعه، (**والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله،**) بل في الزيادة، (**و**) لا فيما (**ينفر الناس عن قبول مقاله،**) فكيف بأرجح الخلق عقلاً، (**فلما قال لهم عليه السلام: هذا**) المذكور من كتابة اسمه، وصفه بالنبي الأمي، (**دل على أن ذلك النعت،**) أي: الوصف الذي وصف لهم به نفسه (**كان مذكورًا في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته، لكن أهل الكتاب، كما قال اللّه تعالىٰ:** ﴿**يكتمون الحق**﴾) نعت محمد ﷺ (﴿**وهم يعلمون**﴾) أنه الحق، (﴿**ويحرفون**﴾) يبدلون (﴿**الكلم**﴾) الذي في التوراة من نعت محمد وغيره، (﴿**عن مواضعه**﴾) التي وضعه اللّه عليها، (**وإلا فهم قاتلهم اللّه قد عرفوا محمدًا ﷺ، كما عرفوا أبناءهم،**) كما قال تعالىٰ: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ [البقرة/١٤٦].

قال عبد اللّه بن سلام رضي اللّه عنه: لقد عرفته ﷺ حين رأيته، كما أعرف ابني، ومعرفتي لمحمد أشد، (**ووجدوه عندهم مكتوبًا في التوراة والإنجيل، لكن حرفوهما وبدلوهما،**) عطف تفسير (**ليطفئوا نور اللّه بأفواههم:**) بأقوالهم، (**ويأبىٰ اللّه إلا أن يتم نوره:**) يظهره (**ولو كره الكافرون**) ذلك، (**فدلائل نبوة نبينا في كتابيهما بعد تحريفهما طافحة،**)

فدلائل نبوة نبينا في كتابيهما ـ بعد تحريفهما ـ طافحة، وأعلام شرائعه ورسالته فيهما لائحة، وكيف يغني عنهم إنكارهم، وهذا اسم النبي بالسريانية «مشفح»، فمشفح، محمد بغير شك، واعتباره أنهم يقولون «شفحا لاها» إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد، شفحا، فمشفح: محمد، ولأن الصفات التي أقروا بها هي وفاق لأحواله وزمانه، ومخرجه ومبعثه وشريعته ﷺ، فليدلونا على من هذه الصفات له، ومن خرجت له الأمم من بين يديه، وانقادت له

أي: ظاهرة، مالئة لكتابيهما من طفح الإناء امتلأ **(وأعلام شرائعه ورسالته فيهما لائحة)**، فالباقي بعد التحريف كافٍ في بيان صدقه وإظهاره رسالته عليه السلام، **(وكيف يغني عنهم إنكارهم، وهذا اسم النبي بالسريانية،)** كما جزم به عياض وغيره.

(مشفح) بضم الميم وشين معجمة وفاء شديدة مفتوحتين، ثم حاء مهملة، مرفوع في النسخ الصحيحة، وفي كثيرها مشفحًا، بالنصب على الحال، أي: جاء حال كونه مشفحًا أو بتقدير يرى مشفحًا، لكن قال الدلجي: مشفح ممنوع الصرف للعلمية والعجمة.

وبالفاء جزم ابن دحية، وقال: أنه بوزن محمد، ومعناه: وروى، كما قال المصنف بالقاف، وبه جزم الشمني والدلجي، وقال: القاف مفتوحة أو مكسورة، واقتصر المجد على الفتح، فقال: مشقح، كمعظم.

قال الحافظ البرهان: لا أعرف صحته ولا معناه، أي: سواء كان بالفاء أو بالقاف، وقال الدلجي: لا أعرف له معنى، ولعل مرادهما لا يعرفان هل معناه شافع، أو صاحب الحوض، أو اللواء، أو نحو ذلك، فلا ينافي قول عياض وابن دحية وغيرهما.

وتبعهم المصنف بقوله: **(فمشفح محمد بغير شك،)** أي: معناه محمد، وهو ثابت في كتبهم بهذا الوصف، **(واعتباره)** أي: دليله؛ **(أنهم يقولون «شفحا لاها»، إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد،)** أي: معناه في لغتهم **(شفحا، فمشفح محمد،)** وقد يقال لا يلزم من التعبير عن الحمد لله بشفحا لاها أن مشفح اسم لمحمد، لجواز أن يراد به اسم آخر، كمحمود أو ممدوح ونحوه.

إلا أن يقال وجه الملازمة أنه إذا ثبت أن الحمد معناه الشفح، كان مصدرًا واسم المفعول المأخوذ من الحمد مصدرًا، هو محمد، فيكون مشفح بمعنى محمد، **(ولأن الصفات التي أقروا بها،)** أي: بورودها في كتبهم **(هي وفاق،)** أي: مطابقة **(لأحواله وزمانه ومخرجه ومبعثه وشريعته ﷺ،)** فإن أنكروا أنه هو، **(فليدلونا على من هذه الصفات له)** قائمة به، فالعطف على مقدر، وحيث عجزوا ثبت المطلوب، أن من قامت به هذه الصفات هو النبي ﷺ.

واستجابت لدعوته. ومن صاحب الجمل الذي هلكت بابل وأصنامها به؟

إذ لو لم نأت بهذه الأنباء والقصص من كتبهم، لم يك فيما أودع اللّه عز وجل القرءان دليل على ذلك؟ وفي تركهم جحد ذلك وإنكاره ـ وهو يقرعهم به ـ دليل على اعترافهم له؟ فإنه يقول: الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل. ويقول حكاية عن المسيح: **﴿إني رسول اللّه إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾** [الصف/٦]. ويقول: **﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾** [آل عمران/٧١]، ويقول: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** [البقرة/١٤٦]، وكانوا يقولون لمخالفيهم

ولزمتهم الحجة، **(ومن خرجت له الأمم،)** أي: جاءت له طائعة مذعنة **(من بين يديه،)** وقوله: **(وانقادت له واستجابت:)** أجابت **(لدعوته،)** بيان للمراد به، **(ومن صاحب الجمل الذي هلكت بابل:)** بلد في سواد العراق، ينسب إليه السحر والخمر، **(وأصنامها به إذ،)** وفي نسخة على أنا **(لو لم نأتِ بهذه الأنباء:)** الأخبار **(والقصص من كتبهم،)** وجواب لو قوله: **(لم يكِ فيما أودع اللّه عزّ وجلّ القرءان دليل على ذلك،)** وفي نسخ: ألم يكِ بهمزة الاستفهام الإنكاري، وعليها، فجواب لو محذوف، أي: لا يضرنا ذلك، أو كنا في غنية عنه، لكن حذف الهمزة أولىٰ، لأن ذكرها لا يحصل المقصود من إلزامهم الحجة.

وقد يقال: بل يحصله بضميمة قوله، **(وفي تركهم جحد ذلك وإنكاره)** بالنصب، **(وهو يقرعهم):** يثربهم ويوبخهم **(به دليل على اعترافهم له، فإنه يقول الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل،)** باسمه وصفته، **(ويقول حكاية عن المسيح)**، ﴿وإذا قال عيسىٰ ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول اللّه إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا﴾) في حال تصديقي لما تقدمني من التوراة، وبتذكيري **(﴿برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾)** والعامل في الحالين ما في الرسول من معنى الإرسال لا الجار، لأنه لغو إذ هو صلة للرسول، فلا يعمل، قاله البيضاوي، **(ويقول: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون﴾)** تخلطون **(﴿الحق بالباطل﴾)** بالتحريف والتزوير، **(﴿وتكتمون الحق﴾،)** أي: نعت النبي ﷺ **(﴿وأنتم تعلمون﴾)** أنه حق، **(ويقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾،)** أي: محمدًا عليه السلام، **(﴿كما يعرفون أبناءهم﴾)** بنعته في كتبهم.

قال ابن سلام: بل معرفتي لمحمد أشد، **(وكانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: هذا**

عند القتال: هذا نبي قد أظل مولده، ويذكرون من صفته ما يجدون في كتابهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسدًا وخوفًا على الرياسة.

ويحتمل أنهم كانوا يظنون أنه من بني إسرائيل، فلما بعثه اللّٰه من العرب، من نسل إسمٰعيل عظم ذلك عليهم، وأظهروا التكذيب، فلعنة اللّٰه على الكافرين.

وقد كان ﷺ يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج، ثم يحيل ذلك على ما عندهم وما في أيديهم، ويقول من علامة نبوتي وصدقي أنكم تجدونني عندكم مكتوبًا وهم لا يجدونه كما ذكر؟! أوليس ذلك مما يزيدهم عنه بعد استفهام انكاري، وقد كان غنيًا أن يدعوهم بما ينفرهم، وأن يستميلهم بما يوحشهم. وقد أسلم من أسلم من علمائهم كعبد اللّٰه بن سلام،

نبي قد أظل،) أي: قرب **(مولده، ويذكرون من صفته ما يجدون في كتابهم).**

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول اللّٰه ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه اللّٰه من العرب كفروا به وجحدوا، ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء، وداود بن سلمة: يا معشر يهود اتقوا اللّٰه وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا نبي نعرفه، وما هو الذي كنا نذكر لكم، فأنزل اللّٰه ﴿ولما جاءهم كتاب من عند اللّٰه مصدق لما معهم﴾، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، **(فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسدًا وخوفًا على الرياسة،)** وجواب لما الأولى دل عليه جواب الثانية، **(ويحتمل أنهم كانوا يظنون أنه من بني إسرائيل، فلما بعثه اللّٰه من العرب من نسل إسمٰعيل، عظم:)** شق **(ذلك عليهم وأظهروا التكذيب)** بغيًا أن ينزل اللّٰه من فضله على من يشاء من عباده، **(فلعنة اللّٰه على الكافرين)**، أي: عليهم، وأتى بالمظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فاللام للعهد، ويجوز أنها للجنس، ويدخلون فيه دخولاً أوليًا، لأن الكلام فيهم، **(وقد كان ﷺ يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج، ثم يحيل ذلك على ما عندهم، وما في أيديهم، ويقول: من علامة نبوتي وصدقي أنكم تجدونني عندكم مكتوبًا)** باسمي وصفتي، **(وهم لا يجدونه كما ذكر)** في كتبهم، **(أو ليس ذلك مما يزيدهم عنه بعد استفهام إنكاري، وقد كان غنيًا)** عن **(أن يدعوهم بما ينفرهم)** عن اتباعه، **(و)** عن **(أن يستميلهم بما يوحشهم).**

(وقد أسلم من أسلم من علمائهم، كعبد اللّٰه بن سلام،) بالتخفيف، الإسرائيلي أبي

وتميم الداري، وكعب، وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوى.

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد اللّٰه بن سلام عن أبيه عن جده عبد اللّٰه بن سلام: أنه لما سمع بمخرج النبي ﷺ بمكة، خرج فلقيه، فقال له النبي ﷺ: أنت ابن سلام عالم أهل يثرب؟ قال نعم: قال: ناشدتك باللّٰه الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد

يوسف حليف بني الخزرج، قيل كان اسمه الحصين، فسماه النبي ﷺ عبد اللّٰه، له أحاديث وفضل، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، (**وتميم**) بن أوس بن خارجة (**الداري**،) أبي رقية بقاف مصغر، صحابي مشهور سكن بيت المقدس بعد عثمان، مات سنة أربعين، (**وكعب**) بن مانع الحميري، المعروف بكعب الأحبار، كان يهوديًا من أحبارهم، من أهل اليمن، وأدرك الزمن النبوي، قيل: وأسلم فيه، وقيل: في خلافة أبي بكر، وقيل: عمر، وهو الراجح، وسكن الشام، ومات في خلافة عثمان، وقد زاد على المائة، وفي نسخة: وكم أسلم، ومعناها التكثير، لكن الثلاثة الذين ذكرهم قليل، فالمراد أن المسلمين من علمائهم كثير، لكن ليسوا من أضراب ابن سلام، فلم يذكرهم، واقتصر على عظمائهم، (**وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوي**،) واعترفوا بثبوتها في كتبهم، (**وقد روىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق**،) والطبراني وأبو نعيم في الدلائل، كلهم (**من طريق محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد اللّٰه بن سلام**،) صدوق، من السادسة، ومنهم من زاد بين حمزة ويوسف محمدًا، روى له ابن ماجه (**عن أبيه**) حمزة بن يوسف، ويقال أن يوسف جده، واسم أبيه محمد، مقبول من السابعة.

روىٰ له ابن ماجه، كما في التقريب (**عن جده**) يوسف بن عبد اللّٰه بن سلام الإسرائيلي، المدني، أبي يعقوب، صحابي صغير.

وقد ذكره العجلي في ثقات التابعين، وقوله (**عبد اللّٰه بن سلام 'أنه**) يقتضي أن المراد جده الأعلى فيكون منقطعًا لأنه لم يدركه.

وفي رواية الطبراني وأبي نعيم، عن أبيه: أن عبد اللّٰه بن سلام، وهو منقطع أيضًا، (**لما سمع بمخرج النبي ﷺ بمكة، خرج فلقيه**،) ولأبي نعيم والطبراني: أنه قال لأخبار يهود: إني أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم عهدًا، فانطلق إلى رسول اللّٰه وهو بمكة، فوافاه بمنى والناس حوله، فقام مع النبي، (**فقال له النبي ﷺ**) لما نظر إليه: (**أنت**) عبد اللّٰه (**بن سلام، عالم أهل يثرب**،) فهو من معجزاته حيث أخبره بذلك بمجرد رؤيته له، (**قال: نعم، قال ﷺ**:) إذن، فدنا منه كما في الطبراني وأبي نعيم، فقال: (**ناشدتك باللّٰه الذي أنزل التوراة على موسىٰ، هل تجد صفتي في كتاب اللّٰه**) التوراة، وفي رواية: أنشدك باللّٰه، أما تجدوني في التوراة رسول اللّٰه

صفتي في كتاب اللّه؟ قال: انسب ربك يا محمد، فارتج النبي ﷺ فقال له جبريل: ﴿**قل هو اللّه أحد اللّه الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**﴾ [الإخلاص/١ - ٤]، فقال له ابن سلام: أشهد أنك رسول اللّه ، وإن اللّه مظهرك ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب اللّه: ﴿**يا أيها النبي إنا**

(**قال: انسب ربك يا محمد**) وفي رواية أنعت لنا ربك (**فارتج**) بالبناء للمفعول ومخففًا، أي: لم ينطق (**النبي ﷺ**) بجواب، ويقال: ارتج بهمزة وصل وتثقيل الجيم، وبعضهم يمنعها، وربما قيل ارتتج، وزان اقتتل بالبناء للمفعول أيضًا، كما في المصباح.

وفي رواية: فارتعد ﷺ حتى خر مغشيًا عليه، (**فقال له جبريل: ﴿قل هو اللّه أحد﴾**) خبر ثانٍ (﴿**اللّه الصمد**﴾) المقصود في الحوائج على الدوام، أو الذي لا جوف له، كما للطبراني عن بريدة، وبه قال كثير من المفسرين، قال ابن عطية: كأنه بمعنى المصمت.

وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل ولا يشرب، وفي هذا التفسير كله نظر، لأن الجسم في غاية البعد عن صفات اللّه تعالىٰ، فما الذي تعطينا هذه العبارات، قال: والصمد في كلام العرب السيد الذي يصمد إليه في الأمور ويستقل بها، وأنشدوا:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد   بعمرو بن مسعود بالسيد الصمد

وبهذا نفسر هذه الآية، لأن اللّه موجود الموجودات، وإليه بصمد، وبه قوامها، ولا غنى بنفسه إلا هو تبارك وتعالى. انتهى.

(﴿**لم يلد**﴾،) لأنه لم يجانس، ولم يفتقر إلى ما يعينه، أو يخلف عنه، لامتناع الحاجة والفناء عليه، (﴿**ولم يولد**﴾،) لأنه لا يفتقر إلى شيء، ولا يسبقه عدم، (﴿**ولم يكن له كفوًا أحد**﴾،) مكافئًا ومماثلاً، فله متعلق بكفوًا قدم عليه، لأنه محط القصد بالنفي، وأخر أحد، وهو اسم يكن عن خبرها رعاية للفاصلة، (**فقال له ابن سلام: أشهد أنك رسول اللّه، وأن اللّه مظهرك ومظهر دينك على الأديان**) كلها، بإبطال باطلها، ونسخ حقها.

وفي رواية الطبراني وأبي نعيم؛ فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأنك رسول اللّه، ثم انصرف إلى المدينة، وكتم إسلامه، وقضية هذا؛ أنه أسلم بمكة قبل الهجرة، لكن هذا حديث ضعيف، متكلم فيه، معارض بما في البخاري؛ أن النبي ﷺ لما هاجر أتاه ابن سلام، وقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فسأله، وأجابه النبي ﷺ عن مسائله، فقال: أشهد أنك رسول اللّه.

الحديث، وفيه قد علمت اليهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فسلهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، وأنه سألهم عنه، فاعترفوا بما قال: فلما قال لهم إني أسلمت

أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس

كذبوه، وقالوا فيه ما ليس فيه، ومن ثم لم يعرج الحافظ على رواية ابن عساكر ومن معه، هذه بل جزم في الفتح والإصابة؛ بأنه أسلم أول ما دخل النبي ﷺ المدينة، وغلط من قال: أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بعامين.

وقد أخرج أحمد وأصحاب السنن عن عبد اللّه بن سلام، قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس لقدومه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فسمعته يقول: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام...الحديث، ومحال على من أسلم قبل ذلك أن يشك بعد ذلك، وأنه يسأله امتحانًا ليعلم، أهو نبي أم لا؟، وقد اختلف في أن سورة الإخلاص مكية أو مدنية، وأخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة، عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل اللّه ﴿قل هو اللّه أحد﴾ إلى آخرها.

وأخرج الطبراني وابن جرير، مثله من حديث جابر، فاستدل به على أنها مكية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل اللّه ﴿قل هو اللّه أحد﴾، وروى ابن جرير عن قتادة، وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله، فاستدل بهذا على أنها مدنية، ولابن جرير عن أبي العالية، قال: قال قادة الأحزاب: انسب لنا ربك، فأتاه جبريل بهذه السورة، قال في اللباب: وهذا يبين المراد بالمشركين في حديث أبي، فتكون السورة مدنية، كما دل عليه حديث ابن عباس، وينتفي التعارض بين الحديثين، لكن روى أبو الشيخ في العظمة، عن أنس، أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القسم خلق اللّه الملائكة من نور الحجاب، وآدم من حمأ مسنون، وإبليس من لهب النار والسماء من دخان، والأرض من زبد الماء، فأخبرنا عن ربك، فلم يجبهم فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قل هو اللّه أحد﴾ انتهى.

نعم بقية الحديث ثابتة عن ابن سلام، علقها البخاري تلو حديث ابن عمر، والآتي، وأخرجها الدارمي، ويعقوب بن سفين، والطبراني، وهي قوله: (**وإني لأجد صفتك في كتاب اللّه**) يعني التوراة، ففي رواية الجماعة عنه: إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرءان (﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا**﴾) على أمتك بما يفعلون لهم وعليهم، مقبولاً عند اللّه، (﴿**ومبشرًا**﴾) لمن أجابك بالثواب (﴿**ونذيرًا**﴾،) مخوفًا لمن عصاك بالعذاب، (**أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل**،) أي: على اللّه، لقناعته باليسير من الرزق، واعتماده على اللّه في السر والجهر، والصبر على انتظار الفرج، والأخذ بمحاسن الأخلاق، واليقين بتمام وعد اللّه، فتوكل على اللّه، فسماه اللّه المتوكل، (**ليس بفظ**) سيء الخلق جاف.

وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، إذ لو جرى على نسق الأول، لقال لست بفظ

بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء، حتى يقولوا لا إله إلا اللّه، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا.

وقوله: «ليس بفظ ولا غليظ» موافق لقوله تعالى:(**﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾** [آل عمران/١٥٩] ولا

(**ولا غليظ:**) قاسي القلب، (**ولا سخاب**) (بسين مهملة وخاء معجمة ثقيلة)، لغة أثبتها الفراء وغيره بالصاد، أشهر من السين، بل ضعفها الخليل، أي: لا يرفع صوته على الناس لسوء خلقه، ولا يكثر الصياح عليهم (**في الأسواق،**) بل يلين جانبه ويرفق بهم، وفيه ذم أهل السوق، الذين يكونون بالصفة المذمومة من صخب ولغط، وزيادة مدحه لما يبيعونه، وذم لما يشترونه، والإيمان الحانثة، ولذا كانت شر البقاع لما يغلب على أهلها من هذه الأحوال المذمومة، وقيد بالأسواق، والمراد نفيه عنه مطلقًا، لأنه إذا انتفى في المحل المعتاد فيه، انتفى في غيره بالطريق الأولى، وهو أبلغ وأفصح من الإطلاق، لأنه نفي بدليل نحو قوله: لا ترى الضب بها ينجحر، فهو من نفي المقيد دون قيده، (**ولا يجزي بالسيئة مثلها،**) أي: السيئة، (**ولكن يعفو ويصفح،**) يعرض ما لم تنتهك حرمات اللّه، (**ولن يقبضه:**) يميته (**اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء،**) ملة إبراهيم، فإنها اعوجت في الفترة، فزيدت، ونقصت، وغيرت عن استقامتها، وأميلت بعد قوامها، وما زالت كذلك حتى أقامها ﷺ بنفي الشرك وإثبات التوحيد، كما قال: (**حتى يقولوا لا إله إلا اللّه،**) أي: ومحمد رسول اللّه، فالمراد كلمة التوحيد.

هكذا فسر شراح الحديث قاطبة: الملة العوجاء بملة إبراهيم، وكذا ابن الأثير في النهاية، قائلاً: إن العرب كانوا يزعمون أنهم على ملته، وأبعد من قال؛ أنها الملة التي رآها خارجة عن الحق، فأزال اعوجاجها، وإن لم تنسب إلى إبراهيم، كملة اليهود والنصارى، فانهم حرفوا وبدلوا، ولم يتركوا ما نسخ من شرعهم، فجاهدهم حتى اهتدى من اهتدى، وقتل من قتل، (**ويفتح به**) بالنبي.

وفي رواية البخاري بها، أي: بكلمة التوحيد (**أعينًا عميًا**) (بضم العين وسكون الميم صفة لا عين، أي: عن الحق، (**وآذانًا صمًا**) عن استماع الحق، (**وقلوبًا غلفًا**) (بضم المعجمة وسكون اللام صفة قلوبًا جمع أغلف، أي: مغطى ومغشى، (**وقوله ليس بفظ ولا غليظ، موافق لقوله تعالى ﴿فبما**) زائدة، أي: فبـ **﴿برحمة من اللّه لنت لهم﴾،**) أي: سهلت أخلاقك حيث خالفوك (**﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب﴾:**) جافيًا، فأغلظت لهم (**﴿لانفضوا﴾**) تفرقوا (**﴿من حولك﴾**

يعارض قوله: ﴿واغلظ عليهم﴾ [التوبة/٧٣] لأن النفي محمول على طبعه الكريم الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة إلى المؤمنين والأمر بالنسبة إلى الكفار والمنافقين كما هو مصرح به في نفس الآية.

و«قلوبًا غلفًا»: أي مغشاة مغطاة، واحدها: أغلف، ومنه غلاف السيف وغيره.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم الدرداء ـ أو امرأة أبي الدرداء ـ قالت: قلت لكعب، كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: كنا نجده موصوفًا فيها: محمد رسول الله اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في

[آل عمران/١٥٩] (ولا يعارض) هذا (قوله) تعالىٰ: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ (واغلظ عليهم﴾) [التوبة/٧٣]، (لأن النفي محمول على طبعه الكريم الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة) لنفسه، على خلاف ما طبع عليه، (أو النفي بالنسبة إلى المؤمنين، والأمر بالنسبة إلى الكفار والمنافقين، كما هو مصرح به في نفس الآية،) ذكر الجوابين الحافظ والثاني، كما قاله شيخنا أظهر لموافقة الآية، وإن كان الأول من حيث عمومه شاملاً لعصاة المؤمنين إذا فعلوا منكرًا، ولا سيما إذا ظهر منهم التصميم عليه، (وقلوبًا غلفًا، أي: مغشاة مغطاة، واحدها أغلف، ومنه غلاف السيف وغيره،) والمعنى: أن قلوبهم كانت محجوبة عن الهداية، فأزال ﷺ حجابها وكشف غطاءها.

(وأخرج البيهقي وأبو نعيم، عن أم الدرداء، أو امرأة أبي الدرداء) شك من الراوي في اللفظ الذي قاله شيخه، وإن اتحد المعنى، ولأبي الدرداء زوجتان، تكنى كل منهما بذلك، إحداهما الكبرى واسمها خيرة بنت أبي حدود، صحابية، من فضلاء النساء وعقلائهن، وذوات الرأي: منهن، مع العبادة والنسك، ماتت قبل زوجها بالشام في خلافة عثمٰن، والثانية الصغرى اسمها هجيمة أو جهيمة، ثقة، فقيهة، ماتت سنة إحدىٰ وثمانين، وهي التي روى لها أصحاب الكتب الستة، لا صحبة لها ولا رؤية، وذكر في الإصابة للكبرى حديثين، سمعتهما من النبي ﷺ، وكل منهما يحتمل أنها التي (قالت: قلت لكعب) بن مانع الحميري، المعروف بكعب الأحبار: (كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟، قال: كنا نجده موصوفًا فيها محمد رسول الله،) كما في القرآن، (اسمه المتوكل:) الذي يكل أمره إلى الله، فإذا أمره بشيء نهض بلا جزع، وفي التنزيل: وتوكل على الله، وتوكل على الحي الذي لا يموت، (ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق) التي هي محل السخب وارتفاع الأصوات، ففي

الأسواق، وأعطي المفاتيح، ليبصر اللّه به أعينًا عورًا، ويسمع به آذانًا صمًا، ويقيم به ألسنة معوجة، حتى يشهدوا أن لا إله اللّه وحده لا شريك له، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف.

وفي البخاري: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول اللّه ﷺ قال: أجل، واللّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرءان: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾،

غيرها أولى، (**وأعطي المفاتيح ليبصر اللّه به أعينًا عورًا**) وهو الفاقد إحدى عينيه، ولكون الفتح والأبصار مجازًا عن الهداية، عبر تارة بعميًا، وأخرى بعورًا: جمع أعور، صفة أعينًا، (**ويسمع به آذانًا صمًا**) عن سماع الحق، (**ويقيم به ألسنة معوجة:**) جمع لسان (**حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه، وحده لا شريك له،**) أي: ومحمد رسول اللّه، ففيه اكتفاء نحو سرابيل تقيكم الحر، أي: والبرد (**يعين المظلوم**) على الظالم، (**ويمنعه من أن يستضعف؛**) بأن ينصره، بحيث يصير فيه قوة تحمله على أن يدفع عن نفسه، (**وفي البخاري**) في البيوع، ثم في تفسير الفتح، (**عن عطاء بن يسار**) الهلالي، أبي محمد المدني، مولىٰ ميمونة.

ثقة، فاضل، صاحب مواعظ وعبادة، مات سنة أربع وتسعين، وقيل بعدها، روى له الستة، (**قال: لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاصي،**) الصحابي ابن الصحابي رضي اللّه عنهما، (**فقلت: أخبرني عن صفة رسول اللّه ﷺ،**) أي: في التوراة بدليل الجواب، فإن السؤال يعاد في الجواب صراحة، أو ضمنًا، وهو من القواعد الأصولية، (**قال**) عبد اللّه: (**أجل**) (بفتح الهمزة والجيم، وباللام حرف جواب كنعم)، فيكون تصديقًا للمخبر، وإعلامًا للمستخبر، ووعدًا للطالب، فيقع بعد نحو قام زيد، ونحو أقام زيد، واضرب زيدًا فيكون بعد الخبر، وبعد الاستفهام والطلب.

وقيل يختص بالخبر، وهو قول الزمخشري وابن لملك، وقيد المالقي الخبر بالمثبت، والطلب بغير النهي.

وفي القاموس: أجل كنعم، إلا أنه أحسن منه في التصديق، ونعم أحسن منه في الاستفهام، وهذا قاله الأخفش، كما في المغني، وغيره قال الطيبي: أجل في الحديث جوابًا للأمر على تأويل: قرأت التوراة هل وجدت صفة رسول اللّه فيها، فأخبرني، قال: أجل (**واللّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن،**) أكده بمؤكدات الخلف باللّه، والجملة الإسمية، ودخول أن عليها، ودخول لام التأكيد على الخبر، وإنما سأله عما في التوراة، لأنه كان يحفظها.

وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا

وقد روىٰ البزار من حديث ابن لهيعة، عن وهب: أن عبد اللّه بن عمرو بن العاصي رأى في المنام في إحدى يديه عسلاً، وفي الأخرى سمنًا، وهو يلعقهما، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: له تقرأ الكتابين التوراة والقرآن، فكان يقرؤهما، فالنهي عن قراءتها ليس على إطلاقه لوقوعه في الزمن النبوي لكثير من الصحابة بلا إنكار، فهو مقيد بمن لم يميز المنسوخ والمحرف منها، ويضيع وقته في الاشتغال بها، أما غيره فلا يمنع، بل قد يطب لإلزامهم فيما أنكروه منها.

وقد أخرج الدارمي ويعقوب بن سفيٰن في تاريخه، والطبراني عن عطاء بن يسار عن ابن سلام مثله، وعلقه البخاري، قال الحافظ: ولا مانع أن يكون عطاء حمله عن كل منهما، فقد أخرجه ابن سعد عن زيد بن أسلم، قال: بلغنا أن عبد اللّه بن سلام، كان يقول إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (﴿**يا أيها النبي**﴾) بدل من بعض، أو بيان له (﴿**إنا أرسلناك شاهدًا**﴾) لأمتك المؤمنين بتصديقهم، وعلى الكافرين بتكذيبهم، وانتصاب شاهدًا على الحال المقدر من الكاف أو من الفاعل أي: مقدرًا أو مقدرين شهادتك على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم، أي: مقبولاً عند اللّه لهم وعليهم، أو شاهدًا للرسل قبله بالبلاغ (﴿**ومبشرًا**﴾) للمؤمنين (﴿**ونذيرًا**﴾،) للكافرين، أو مبشرًا للمطيعين بالجنة، ونذيرًا للعصاة بالنار، (**وحرزًا**) بكسر المهملة، وإسكان الراء، ثم زاي، أي: حصنًا (**للأميين**،) أي: للعرب، لأن أكثرهم لا يقرؤن ولا يكتبون، يتحصنون به عن غوائل الدهر، أو سطوة العجم وتغلبهم، فخصهم لذلك أولاً رسالة بين أظهرهم، أو لشرفهم، أو من مطلق العذاب ما دام فيهم، وما كان اللّه ليعذبهم وأنت فيهم، أو من عذاب الاستئصال، فلا يرد أن دعوته عامة، وجعله نفسه حرزًا، مبالغة لحفظه لهم في الدارين، (**أنت عبدي**) الكامل في العبودية (**ورسولي**،) فقدم العبودية لشرفها، فإن له بها مزيد اختصاص، ولذا اقتصر عليها في الإسراء وإنزال الكتاب، وليست بالمعنى العام الذي يتصف به كل مخلوق، بل بالخاص الذي رضيه له حتى أطلعه على حظائر قدسه، وجعله رسولاً مبلغًا عنه، وكفاه جميع مؤناته، فقال: أليس اللّه بكاف عبده، فإن الملك لا يرضى بوقوف عبده بباب غيره، واحتياجه لسواه، وإهانة أحد له، فإنه هو الذي يؤدبه، كما قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي، فلذا قال: (**سميتك المتوكل**،) دون جعلتك أو وصفتك، المنادى بشدة توكله الذي صيره علمًا له، ففيه أشعار بشدة توكله، الساري في أمته ﷺ، وخطابه بما في التوراة خطاب للحاضر في العلم، وبالماضي في أرسلناك لتحققه، أو حكاية لما يقال في المستقبل، أو لاستحضار الآتي، وعبر بما يعبر به عنه في الآتي: (**ليس بفظ**:) سيىء الخلق، جاف، (**ولا غليظ**:) قاسي القلب،

سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بإن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا

بل ملته سمحة، ولا ينافيه وقوع الغلظة اللائقة أو الواجبة أحيانًا، لأنها لا تنافي حسن الخلق، أو المراد نفيهما، بحسب الخلقة أو في غير محلهما، وقول النسوة لعمر: أنت أفظ أغلظ من رسول الله ﷺ، ليس القصد به التفضيل، بل أصل الفعل، أو من قبيل العسل أحلى من الخل، أي: غلظتك يا عمر أشد من رقته ﷺ، واختاره في المصابيح، ثم يحتمل أن تكون هذه آية أخرى في التوراة، لبيان صفته، وأن تكون حالاً من المتوكل، أو من الكاف في سميتك، ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة حتى لا يواجهه بمثله، وإن كان منفيًا، **(ولا سخاب)** بشد الخاء بعد السين، ويقال: بالصاد، وهو أفصح، وادعى بعض أنه روى بهما، أي: لا يرفع صوته على الناس لسوء خلقه ولا يكثر الصياح عليهم **(في الأسواق،)** بل يلين جانبه ويرفق بهم، وهو من نفي المقيد بدون قيده، ففيه دخوله ﷺ الأسواق تواضعًا وتركًا لعادة الجبارين من الملوك، وردًا لقول الكفرة: ما لهذا الرسول، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويحتمل أنه من نفي القيد والمقيد معًا، كما قال الطيبي: المراد نفي السخابية وكونه في الأسواق.

انتهى على معنى نفي اعتياد دخوله في الأسواق، كأرباب الدنيا، بل إنما يدخلها لحاجة، فلا يشكل ما قاله بأنه خلاف الواقع والمبالغة للنسبة، كخياط أو بذي سخب، كما في: وما ربك بظلام في أحد الوجوه أو على بابها، لثبوت أصل الخسب له في محله، كخطبة وتلبية ونحوهما، **(ولا يدفع،)** هكذا الرواية في البخاري في المحلين، فنسخة: ولا يجزي تصحيف **(بالسيئة السيئة،)** هو كقوله تعالى: ﴿إدفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ [المؤمنون/٩٦]، وخلقه القرآن.

وقد قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى/٤٠]، ولذا قال: **(ولكن يعفو:)** يمحو ويزيل السيئة من ظاهره وخاطره، **(ويغفر:)** يستر السيئة، ولا يلزم منه إزالتها، أو يعفو تارة، ويستر أخرى، فلا يفضح، فيقول في خطبته: ما بال أقوام يفعلون كذا، أو هما متساويان، فالثاني تأكيد، ونقل القرطبي عن بعضهم؛ أن الغفر ستر، لا يقع معه عقاب ولا عتاب، والعفو إنما يكون بعد عقاب أو عتاب، فإن استعمل في غيره، فهو مجاز.

وفي نسخة: ويصفح، **(ولن يقبضه:)** يميته **(الله،)** وأصله أخذ المال واستيفاؤه، أطلق على الموت بتشبيه الحياة والروح بالمال، كما قيل:

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس   عليه من الإنفاق في غير واجب

أو هو من استعمال المقيد في المطلق، ثم شاع حتى صار حقيقة فيه، **(حتى يقيم به**

صمًا وقلوبًا غلفًا.

وعند ابن إسحٰق: ولا صخب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال

الملة العوجاء،) ملة إبراهيم التي غيرتها العرب عن استقامتها، لأنهم ذرية إسمٰعيل بن إبراهيم، وكانوا يزعمون؛ أنهم على ملته الحنيفية، والحنيف من يوحد اللّه تعالىٰ ويعبده، لأن الحنف في اللغة الاستقامة، قاله ابن الأثير **(بأن يقولوا،)** أي: أهلها: **(لا إله إلا اللّه،)** اقتصر عليها، وجعلها إقامة الملة، لأن العوج الواقع عموده الشرك وعبادة الأصنام، يستقيم بها، أو أنهم يأتون بكلمة التوحيد التي هي عبارة عن لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، لأن الكلمتين صارتا كالكلمة الواحدة، أو اكتفاء، كسرابيل تقيكم الحر، **(ويفتح به،)** أي: بالنبي، كذا وقع بتذكير الضمير هنا تبعًا للشفاء مع عز، وكليهما للبخاري، والذي فيه في الموضعين بها، أي: كلمة التوحيد **(أعينًا عميًا)** (بضم فسكون).

وفي رواية القابسي: أعين عمي بالإضافة، ولا تنافي بين هذا وبين قوله: وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم، لأنه دل إيلاء الفاعل المعنوي، حرف النفي على أن الكلام في الفاعل، وذلك أنه تعالىٰ نزله لحرصه على إيمانهم منزلة من يدعي استقلاله بالهداية، فقال له: أنت لست بمستقل بها، بل إنك لتهدي إلى صراط مستقيم بإذن اللّه وتيسيره، وعلى هذا، فيفتح معطوف على يقيم، أي: يقيم اللّه بواسطته الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا اللّه، ويفتح بواسطة هذه الكلمة أعينًا عميًا، **(وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا)** (بضم وسكون).

وفي رواية أبي ذر: ويفتح بها أعين عمي، وآذان صم، وقلوب غلف (بضم أوله مبني للمفعول، ورفع أعين وآذان وقلوب على النيابة).

(وعند) محمد **(بن إسحٰق** بن يسار: بدل قوله ولا سخاب **(ولا صخب)** (بكسر الخاء). صفة مشبهة تفيد المبالغة، باعتبار إفادة الثبوت هكذا في عدة نسخ صحيحة، موافقة لما عند ابن إسحٰق والشفاء عنه، فلا عبرة بنسخ ولا صخاب **(في الأسواق،)** وعنده زيادة هي، **(ولا متزين)** بزاي منقوطة من الزينة.

وروى بدال من الدين، وروى متزي بلا نون من الزي، والهيئة **(بالفحش:)** القبح وزنا ومعنى فعلاً كان أو قولاً، أي: لا يتجمل، أو لا يتدين، أو لا يتلبس به، ولا يرد أن ظاهره يوهم أنه قد يأتي به غير متجاوز، أو غير متزين به، لأنه لا مفهوم له لحرية، على عادة أرباب الفحش في المباهاة به، أو هو استعارة تهكمية، أو التزين بمعنى الاتصاف تجريدًا، أو المراد: لا يرى الفحش زينة، فهي مكنية، وهذا من آياته، لأنه نشأ بين قوم يتزينون بالفواحش، كالقتل والزنا والطواف عراة، فأتى بما يخالف عادتهم، **(ولا قوال)** فعال صيغة مبالغة، أي: كثيرًا لقول **(للخنا:)** (بمعجمة

للخنا، أسدده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته،

ونون مقصورة) قبيح الكلام، وهذا مع ما قبله يفيد أنه لا يصدر عنه ﷺ شيء منه قليل ولا كثير، لأن الفحش بمعناه، أو فعال للنسبة، كتمًا رأى ليس بذي قول للخنا، ولما ذكر صفات التخلية، بقوله: ليس بفظ، إلى هنا ذكر صفات التحلية بطريق وعد من لا يخلف وعده، مستأنفًا لمقصد أعلى مما قبله، ولذا لم يعطفه، أو في جواب سؤال هو، فما تفعل به بعد أن صنته عن النقائص، فقال: **(أسدده)** أوفقه للسداد، وهو الصواب، واقصد من القول والعمل **(بكل جميل)** حسن صورة كان، أو معنى يليق به، **(وأهب)** (بفتحتين) أعطي **(له كل خلق)** (بضمتين وتسكن اللام) السجية والطبيعة، **(كريم)** عزيز نفيس، **(ثم اجعل)** مضارع المتكلم، وهو الله **(السكينة)** (بالفتح والتخفيف) الوقار والطمأنينة، وفيها لغة بالكسر والتشديد، حكاها في المشارق، وبها قرىء شذا **(لباسه،)** أي: ما يظهر عليه من الخشوع والتثبت، فشبه المعقول بالمحسوس تقريبًا للفهم، ومبدأ هذا الوقار يلوح للقلب في مراقبته، فلذا قال تعالى: ﴿أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ [الفتح/٤]، فلكل وجهة، (و) اجعل **(البر)** الطاعة والإحسان، أي: زيادته، والخير والرحمة **(شعاره:)** لباسه الذي يلي جسده، سمي به لأنه لابس شعره وبدنه، ويقابله الدثار، وهو ما يتغطى به، ولما كانت السكينة ظاهرة فيه ﷺ في سائر أحواله، ويراها كل أحد، برًا وفاجرًا، جعلها لباسًا، والبر والخير والرحمة، وإن لازمه أيضًا وعم أحواله إنما يقف عليه المؤمنون ببصائرهم، جعله شعارًا، فانظر حسن موقعه مع ما قبله وما بعده أيضًا، وهو **(والتقوى ضميره،)** لأن الضمير ما يضمر في القلب وينوي في الخاطر، بحيث لا ينسى، فتأمل كيف انتقل من الظاهر للخفي، ثم الأخفى مع ما فيه من شبه اللف والنشر مع الأمور السلبية والتقوى ما بقي العذاب في الآخرة، ولها مراتب: أولها التبري عن الكفر، والثاني: التنزه عن كل ما يؤثم، والثالث: التنزه عما يشغل السر عن الله، وبهذا علم التئامها مع الضمير **(والحكمة:)** كل كلام جامع لما يرشد إلى الحق، فيشمل المواعظ والأمثال لانتفاع الناس بها، وتطلق على القرآن والعلوم الشرعية، والقضاء بالعدل، وبه فسر ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، **(معقوله)** مصدرًا واسم مفعول، فالمراد إنها تعقله وإدراكه، أو ما يعقله، كله حكم ومواعظ وعلوم نافعة؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، (و اجعل **(الصدق والوفاء طبيعته،)** أي: إن الله جبله أنه لا ينطلق بغير ما وافق الواقع، وإذا عاقد أحدًا أو عدلاً يخلفه، **(والعفو والمعروف)** ما يعرفه ويألفه العقلاء.

وأحمد، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة،

ولذا قيل المعروف كاسمه (**خلقه**) وفي المصباح: المعروف الخير والرفق والإحسان، ومنه قولهم: من كان آمرًا بالمعروف فليأمر بالمعروف، أي: من أمر بخير فليأمر برفق، (**والعدل:**) القصد في الأمر ضد الجور (**سيرته:**) طريقته الحميدة.

وفي التنزيل: ﴿إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل/ ٩٠]، قال ابن عطية: العدل فعل كل مفروض من العقائد والعبادة، وإداء الأمانات، والإنصاف والإحسان فعل المندوب.

وفي البغوي: العدل بين العبد وربه إيثار حقه على حظ نفسه، واجتناب الزواجر، وامتثال الأوامر، وبينه وبين نفسه منعها عما فيه هلاكها والتصبر، وبينه وبين غيره بذل النصيحة وترك الخيانة، وإنصافهم من نفسه، والصبر على أذاهم، وجعل العدل سيرته ﷺ، لا ينافي أن يكون الإحسان سيرته في محل يليق به، ولا أن يكون العفو طبيعة له أيضًا لمصلحة تليق بالمقام، (**والحق شريعته،**) بنصبهما عطف على مفعول اجعل، كما هو في نسخ الشفاء الصحيحة المقروءة، لا برفعهما لاقتضاء تعريف الطرفين الحصر، فيفهم أن شرائع غيره باطلة، وليس كذلك، وأن وجه؛ بأن المراد الحق الكامل الذي لا ينسخ، أو في زمانه لا غيرها لنسخها بشريعته وبغير ذلك، لأن هذا إنما يحتاج إليه لو ثبت رواية.

(**والهدى إمامه**) (بكسر الهمزة)، كما ضبطه الحافظ البرهان، أي: مقتداه ومتبعه، وهو كناية عن ملازمته له وعدم انفكاكه عنه، ويجوز أن يراد بالإمام الطريق، كما قيل في قوله: وإنهما لبامام مبين، وضبطه بعضهم (بفتح الهمز)، بمعنى قدام، فالمراد بطريق الكناية؛ أنه ملاحظ له، كما يقال: في ضده أنه ظهري وخلف ظهري، والهدى الدلالة بلطف، ولذا اختصت بالخير، وقيل: تعريفه للعهد، أي: هدى الأنبياء، لقوله أولئك الذين هدى اللّه، فبهداهم اقتده، أي: ما اتفقوا عليه من التوحيد والأصول للفروع، (**والإسلام ملته،**) بنصبهما على الصحيح، أي: أنه اسم لملته، أي: دينه خاصة دون الأمم على أحد القولين، وعلى الآخر بالعموم، لكل دين حق، فالمراد الكامل ليكون من خصائصه التي تميز بها عن غيره وكماله بنسخ غيره، وكونه سمحًا بين اللين والشدة، وغير ذلك.

وفي التنزيل: هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا، (**و**اجعل (**أحمد**) اسمه، وبه سماه في الكتب قبل وجوده، ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، ولما ذكر صفاته الموصوف بها في نفسه، ذكر صفاته التي لوحظ فيها غيره، جوابًا لسؤال: هل تنفع بهذا الطاهر المطهر، الكامل في نفسه غيره؟، فقال: (**أهدى**) (بفتح الهمز) مضارع هدى (**به**) بسببه، أو هديه (**بعد الضلالة،**) بمعنى الضلال سلوك غير الطريق الموصلة، وقيل: إنما فصله لعلو رتبة الهداية، سواء

وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير

كانت الإيصال أو الدلالة الموصلة، وفيه تقوية لمدحه السابق، والمراد الهداية إلى ما به النجاة، وإلى ما به يكمل الناجي، فلذا قال: **(واعلم)** (بضم الهمزة وشد اللام)، كما في المقتفي **(به بعد الجهالة)** (بفتح الجيم مصدر)، كالجهل ضد العلم، وهو الاعتقاد الذي لا يطابق الواقع، **(وأرفع به بعد الخمالة)** (بفتح الخاء المعجمة والميم)، أي: الخفاء، وادعى بعض أنه لا يقال خمالة، بل خمولة.

وفي الصحاح: الخامل: الساقط الذي لا نباهة له، وقد خمل يخمل خمولاً.

وفي الجمهرة: رجل خامل الذكر بين الخمول والخمولة، وهو ضد النبيه والنابه.

وفي القاموس: خمل ذكره وصوته خمولاً: خفي، وأخمله الله، فهو خامل، ساقط، لا نباهة له، جمعه خمل محركة.

وأجيب بأن ثبوت الخمالة في هذا الحديث الصحيح شاهد لصحتها، وإن كانت على غير قياس، أو لمشاكلة الضلالة والازدواج معها، والمراد برفعه جعل الدين والتوحيد بعد ما ترك في الفترة، لغلبة الجهل مشهورًا شائعًا، فهو مجاز، كقوله: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الانشراح/٤]، **(وأسمي)**: روى (بضم الهمزة وفتح السين والتشديد)، وبه ضبطه في المقتفي، وروى بضم الهمزة وسكون السين **(به)** بسببه **(بعد النكرة)** (بضم فسكون وبفتح فكسر)، خلاف المعرفة، وتطلق بمعنى المجهول، أي: أعرف الناس بسببه، أو بما أوحيه إليه الناس المجهولين، أو أعرفهم ما جهلوه من التوحيد، أو أعرف الناس ما لم يعرفوه من الأنبياء وقصصهم، والأولى التعميم، كما قيل: **(وأكثر)** (بضم الهمزة وسكون الكاف وكسر المثلثة مخففة وبفتح الكاف وشد المثلثة يتعدى بالهمزة والتضعيف)، **(به بعد القلة)** أي: أكثر به الأرزاق مطلقًا، أو على من اتبعه، أو أكثر أمته بعد قلتها، أو بعد عدمها، لورود القلة بمعنى العدم، لكنه بعيد هنا، أو المراد قواعد الملة بعد اعوجاجها، فأعاد منها ما نقص بكلمة التوحيد، وهو تكلف مستغنى عنه لتقدم معناه، **(وأغني)**: أعطي الغني **(به بعد العيلة)** (بفتح فسكون): الفقر، أي: ما كانوا عليه في الابتداء، ففتح لهم الفتوحات والممالك، وأحل لهم الغنائم، **(وأجمع به)** الناس **(بعد الفرقة:)** الافتراق، وتنافر القلوب، والعداوة المؤدية للحروب وترك الديار، كما كان بين الأوس والخزرج من الحروب قبل الإسلام، فلما جاء الله به ألف بين قلوبهم، وسل أحقادهم وضغائنهم، وصيرهم أخوة، **(وأؤلف:)** أجمع **(به بين قلوب مختلفة،)** وذلك يستلزم التأليف بين الذوات، وكونه بسبب المصطفى، لأنه السبب الظاهري، والمؤلف الحقيقي هو الله، فلا ينافي إسناد التأليف إليه

أمة أخرجت للناس.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قدم الجارود فأسلم وقال: والذي بعثك

سبحانه في قوله تعالىٰ: ﴿واذكروا نعمة اللّٰه عليكم إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا﴾ [آل عمران/١٠٣] ، **(وأهواء:)** جمع هوى، وهو ميل النفس لما تحبه وتشتهيه **(متشتتة:)** متفرقة، أي: اجعل مهويهم واحدًا، متفقًا محمودًا، وإن غلب إطلاقه على المذموم، كما قال: ولئن اتبعت أهواءهم، **(وأمم:)** جمع أمة، فرقة من الناس **(متفرقة)** بتقديم التاء على الفاء من التفرق، وبتقديم الفاء على التاء من الافتراق روايتان: يعني أن كل أمة كانت على دين واعتقاد وطريقة، منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم يهودي ونصراني، ومنهم غير ذلك، فنسخ اللّٰه بشرعه ﷺ جميع الشرائع، وجعل الدين دينًا واحدًا قيمًا، من حاد عنه هلك وشقي في الدارين، وإن حمل قوله وأجمع به بعد الفرقة على جميع العقائد والملل على التوحيد، أو الأعم كان ما بعده عطف تفسير له، **(وأجعل أمته:)** الذين أجابوه **(خير أمة أخرجت:)** أوجدت وخلقت أو أخرجت من العدم **(للناس)**.

وفي التنزيل: ﴿كنتم خير أمة﴾، أي: أنه تعالىٰ قضي بذلك وقدره أزلا، وفي عالم الذر، وقيل: المراد كنتم مذكورين في الأمم الذين قبلكم، موصوفين بذلك لخيرية نبيكم ودينكم، أو لما بينه، بقوله: تأمرون...الخ.

ومر الكلام فيه، **(وأخرج البيهقي عن ابن عباس، قال: قدم الجارود)** بن المعلىٰ، ويقال: ابن عمرو بن المعلى العبدي أبو المنذر، ويقال: أبو غثان، بمعجمة ومثلثة على الأصح، ويقال: (بمهملة وموحدة)، اسمه بشر بن خنش (بمهملة ونون مفتوحتين، ثم معجمة)، وقيل: مطرف، وقيل: غير ذلك لقب الجارود، لأنه غزا بكر بن وائل، فاستأصلهم، قال الشاعر:

فدسناهم بالخيل من كل جانب كما جرد الجارود بكر بن وائل

وحكى ابن السكن: أن سبب تلقيبه بذلك أن إبل عبد القيس جربت، وبقيت للجارود بقية من إبله، فتوجه بها إلى قديد بن سنان وهم أخواله، فجربت إبل أخواله، فقال: الناس جردهم بشر، فلقب الجارود، **(فأسلم)**.

قال ابن إسحٰق: وكان نصرانيًا وحسن إسلامه، وكان صلبًا على دينه، قال في الإصابة: قدم الجارود سنة عشر في وفد عبد القيس الأخير، وسر النبي ﷺ بإسلامه.

روى الطبراني عن أنس: لما قدم الجارود وافدًا على رسول اللّٰه ﷺ، فرح به وقربه وأدناه، وروى الطبراني أيضًا عن الجارود، قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: إن لي دينًا، فلي إن تركت ديني ودخلت في دينك أن لا يعذبني اللّٰه، قال: نعم، **(وقال)** الجارود: **(والذي بعثك بالحق**

بالحق لقد وجدت صفتك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول.

وأخرج ابن سعد قال: لما أمر إبراهيم الخليل بإخراج هاجر حمل على البراق، فكان لا يمر إبراهيم بأرض عذبة سهلة إلا قال: أنزل ههنا يا جبريل، فيقول: لا، حتى أتى مكة فقال جبريل: انزل يا إبراهيم، قال: حيث لا ضرع ولا زرع؟ قال: نعم ههنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم به الكلمة العليا.

لقد وجدت صفتك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول) عيسى ابن مريم، وقتل الجارود بأرض فارس بعقبة الطير، فصار يقال لها: عقبة الجارود، وذلك سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر، وقيل: قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن، وقيل: بقي إلى خلافة عثمان، قال أبو عمر: من محاسن شعره:

شهدت بأن الله حق وشاء بي	ثبات فؤادي بالشهادة والنهض
فأبلغ رسول الله عني رسالة	بأني حنيف حيث كنت من الأرض
فإن لا تكن داري سرت بي فيكم	فإني بكم عند الإقامة والخفض
واجعل نفسي عند كل ملمة	لكم خصة من دون عرضكم عرضي

وابنه المنذر كان من رؤساء عبد القيس بالبصرة، مدحه الأعشى وغيره، وحفيده الحكم هو الذي يقول فيه الأعشى:

يا حكم بن المنذر بن الجارود	سرادق المجد عليك ممدود
أنت الجواد ابن الجواد المحمود	نبت في الجود وفي بيت الجود

والعود قد ينبت في أصل العود

قال: وكان الحجاج يحسد الحكم على هذه الأبيات، **(وأخرج ابن سعد، قال: لما أمر إبراهيم الخليل بإخراج هاجر،)** بالهاء، ويقال: بالألف والجيم من أرض الشام حين غارت منها سارة زوجه، **(حمل على البراق، فكان لا يمر إبراهيم بأرض عذبة،)** أي: عذب ماؤها، **(سهلة)** لينة، يمكن زرعها، **(إلا قال: إنزل)** (بصيغة المضارع وحذف همزة الاستفهام)، أي: أنزل **(ههنا يا جبريل، فيقول: لا،)** ولم يزل كذلك **(حتى أتى مكة،)** فالغاية لمقدر، **(فقال جبريل: إنزل يا إبراهيم، قال: حيث لا ضرع)** (بفتح الضاد وسكون الراء)، وهو لذات الظلف، كالثدي للمرأة، **(ولا زرع،)** قال ذلك تعجبًا من أمره له، بنزوله في موضع قفر، أي: كيف أنزل في أرض لا أنيس بها، ولا ما يتأتى به المعيشة، **(قال)** جبريل: **(نعم: ههنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك)** إسمعيل، **(الذي تتم به الكلمة العليا،)** وهي كلمة الله، وفي ذلك تسلية له وترغيب بنزول تلك

وفي التوراة ـ مما اختاروه بعد الحذف والتحريف والتبديل، مما ذكره ابن ظفر في «البشر» وابن قتيبة في «أعلام النبوة» ـ: تجلى اللّه من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران.

فسينا هو الجبل الذي كلم اللّه فيه موسى.

و«ساعير» هو الجبل الذي كلم اللّه فيه عيسى، فظهرت فيه نبوته.

وجبال «فاران» وهو اسم عبراني ـ وليست ألفه الأولى همزة ـ هي جبال بني هاشم التي كان رسول اللّه ﷺ يتحنث في أحدها وفيه فاتحة الوحي، وهو أحد ثلاثة جبال، أحدها: أبو قبيس، والمقابل له قعيقعان إلى بطن الوادي، والثالث:

الأرض، (**وفي التوراة مما اختاروه،**) أي: العلماء (**بعد الحذف والتحريف والتبديل،**) الواقع من اليهود، يحرفون الكلم عن مواضعه، (**مما ذكره**) العلامة محمد (**بن ظفر**) (بفتح الظاء المعجمة والفاء) (**في**) كتاب (**البشر**) (بكسر ففتح) بخير البشر (بفتحتين)، (**وابن قتيبة في**) كتاب (**أعلام النبوة تجلى:**) ظهر (**اللّه من سينا،**) بالقصر جبل بالشام.

كذا في القاموس: (**وأشرق**) (بالقاف) (**من ساعير**).

قال ابن ظفر: كناية عن ظهور أنوار كلامه، (**واستعلن من جبال فاران**) (بفاء فألف فراء فألف فنون).

قال ابن ظفر: أي: ظهر أمره وكتابه وتوحيده وحمده، وما شرعه رسوله من الأذان والتلبية، (**فسينا هو الجبل الذي كلم اللّه فيه موسىٰ،**) واصطفاه وأرسله، (**وساعير هو الجبل الذي كلم اللّه فيه عيسىٰ،**) بمعنى أنزل عليه الإنجيل ونبأه فيه، كما يأتي عن ابن قتيبة، لا أنه كلمه فيه، ككلامه لموسىٰ في الجبل، كما يوهمه هذا الكلام وعبارة البشر، وساعير جبل بالشام، منه ظهرت نبوة المسيح، وإليه يشير قوله: (**فظهرت فيه نبوته، وجبال فاران،**) الإضافة من إضافة الكل إلى الجزء، كأن هذه الجبال اشتهرت بذلك، وإلا فلا معنى للإضافة هنا، مع أن فاران أحدها، (**وهو اسم عبراني**) (بكسر العين المهملة) نسبة إلى العبرانية، وهي لغة اليهود، (**وليست ألفه الأولىٰ،**) التالية للفاء (**همزة، هي جبال بني هاشم التي كان رسول اللّه ﷺ يتحنث**) (بفتح التحتية والفوقية والحاء المهملة والنون الثقيلة ثم مثلثة، يتعبد الليالي ذوات العدد (**في أحدها، وفيه فاتحة الوحي:**) ابتداء إنزاله عليه، فهو جبل حراء، (**وهو أحد ثلاثة جبال، أحدها أبو قبيس**) (بضم القاف وفتح الباء) (**والمقابل له قعيقعان:**) (بقافين بعد كل عين مهملة، وبعد الأولى تحتية، آخره نون بعد ألف) بصيغة التصغير، جبل يشرف على الحرم من جهة

الشرقي فاران، ومنفتحه الذي يلي قعيقعان إلى بطن الوادي، وهو شعب بني هاشم، وفيه مولده ﷺ على أحد الأقوال.

قال ابن قتيبة: وليس بهذا غموض، لأن تجلي الله من سينا، إنزاله التوراة على موسى بطور سيناء، ويجب أن يكون إشراقه من «ساعير» إنزاله على المسيح الإنجيل، وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الخليل، بقرية تدعى ناصرة، وباسمها تسمى من اتبعه نصارى، فكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله على المسيح الإنجيل فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران إنزاله القرءان على محمد ﷺ، وهي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب في

الغرب (**إلى بطن الوادي، والثالث: الشرقي فاران،**) المعروف بحراء، (**ومنفتحه**) بميم فنون ففاء ففوقية فمهملة فهاء، أي: المحل الذي يصعد منه إليه، ويهبط (**الذي يلي قعيقعان إلى بطن الوادي، وهو شعب بني هاشم، وفيه مولده ﷺ على أحد الأقوال،**) والثاني: بردم بني جمح بمكة، والثالث: بزقاق المدكك بمكة، والرابع: وهو شاذ، أنه ولد بعسفان، والصحيح الذي عليه الجمهور؛ أنه ولد بمكة، واختلف في عين المحل على الأقوال الثلاثة، (**قال ابن قتيبة: وليس بهذا غموض**) (بمعجمتين أوله وآخره)، أي: خفاء، (**لأن تجلي الله من سينا إنزاله التوراة على موسىٰ بطور سينا،**) قال: في الأنوار جبل موسىٰ بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، وقد يقال له طور سينين، ولا يخلو أن يكون الطور اسمًا للجبل، وسينا اسم بقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علم له، كامرىء القيس، ومنع صرفه للتعريف والعجمة، أو التأنيث على تأويل البقعة لا للألف، لأنه فيعال، كديماس من السنا بالمد، وهو الرفعة، وبالقصر، وهو النور، (**ويجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله على المسيح الإنجيل، وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الخليل**) إبراهيم، (**بقرية تدعى:**) تسمى (**ناصرة،**) وبها ولد على ما في البشر، (**باسمها تسمى من اتبعه نصارى:**) جمع نصران، كندامي: جمع ندمان، (**فكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله على المسيح**) الإنجيل والنبوة، (**فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وهي جبال مكة**) الثلاثة المتقدمة، (**وليس بين المسلمين وأهل الكتاب في ذلك اختلاف في أن فاران هي مكة**) بدل من قوله في ذلك لبيان اسم الإشارة، لكن هذا يخالف ما قدمه أن فاران ليس مكة، بل جبل من جبالها إلا أن يقال هو اسم للجبل، وسميت مكة باسمه لقربها منه، وفي البشر، وفاران هي مكة، لا يخالف في ذلك أحد من أهل الكتاب، وفي التوراة: وربي، أي: إسمٰعيل في برية فاران، فمكة هي منشأ

ذلك اختلاف في أن فاران هي مكة.

وإن أدعي أنها غير مكة قلنا: أليس في التوراة: إن اللّٰه أسكن هاجر وإسمٰعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن اللّٰه منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح، أوليس «استعلن» و«علن» بمعنى واحد، وهو ما ظهر وانكشف. فهل تعلمون دينًا ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه.

وفي التوراة أيضًا ـ مما ذكره ابن ظفر ـ خطابًا لموسى، والمراد به الذين اختارهم لميقات ربه الذين أخذتهم الرجفة خصوصًا، ثم بني إسرائيل عمومًا: واللّٰه ربك يقيم نبيًا من إخوتك، فاستمع له كالذي سمعت ربك في حوريت يوم الاجتماع حين قلت لا أعود أسمع صوت اللّٰه ربي لئلا أموت، فقال اللّٰه تعالى:

إسمٰعيل وحيث ربي، وفي جبال فاران أوحى اللّٰه إلى محمد ﷺ، (**وإن ادعى**،) عن معاند (**إنها غير مكة، قلنا: أليس في التوراة إن اللّٰه أسكن هاجر وإسمٰعيل فاران**،) فإن قالوا: بلى، طلبنا منهم تعيين ذلك المحل، (**وقلنا**) لهم: (**دلونا على الموضع الذي استعلن اللّٰه**،) أي: أظهر النبوة (**منه، واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح**) ابن مريم، (**أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد**،) وسين الأول للتأكيد، (**وهو ما ظهر وانكشف، فهل تعلمون دينًا ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه**،) أي: انتشر واتسع، وبهذا غاير: ظهر، (**وفي التوراة أيضًا مما ذكره ابن ظفر**) في الصنف الذي لا ينكر أهل الكتاب مجيئه في التوراة، (**خطابًا لموسىٰ، والمراد به**،) أي: الخطاب، (**الذين اختارهم**) موسىٰ ممن لم يعبد العجل (**لميقات ربه**) بأمره، أي: للوقت الذي وعده بإتيانهم فيه ليعتذروا من عبادة أصحابهم العجل، (**الذين أخذتهم الرجفة**:) الزلزلة الشديدة.

قال ابن عباس: لأنهم لم يزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، قال: وهم غير الذين سألوا الرؤية وأخذتهم الصاعقة (**خصوصًا، ثم**) خاطب (**بني إسرائيل عمومًا، واللّٰه ربك يقيم نبيًا من أخوتك، فاستمع له**) ما يخاطبه قومه تعنتًا، كما قال تعالىٰ إخبارًا عنهم: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا اللّٰه أو تأتينا آية﴾ [البقرة/١١٨] ، أي: هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا أنك رسوله، أو تأتينا آية حجة على صدقه، والأول استكبار، والثاني جحود، كما في الأنوار، فهو تسلية لموسىٰ عليه السلام، (**كالذي سمعت ربك في حوريث**) (بحاء مهملة أوله وفوقية آخره).

قال في القاموس: موضع ولا نظير لها، أي: لهذه الكلمة (**يوم الاجتماع حين قلت لا أعود**

نعم ما قالوا، وسأقيم لهم نبيًا مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه لهم كل شيء أمرته به، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فإني أنتقم منه.

قال: وفي هذا الكلام أدلة على نبوة محمد ﷺ:

فقوله: «نبيًا من إخوتهم»، وموسى وقومه من بني إسحٰق، وإخوتهم من بني إسمٰعيل، ولو كان هذا النبي الموعود به من بني إسحٰق لكان من أنفسهم لا من إخوتهم.

وأما قوله: «نبيًا مثلك» وقد قال في التوراة: لا يقوم في بني إسرائيل أحد مثل موسى، وفي ترجمة أخرى: مثل موسى لا يقوم في بني إسرائيل أبدًا. فذهبت اليهود إلى أن هذا النبي الموعود به هو يوشع بن نون، وذلك باطل، لأن يوشع لم يكن كفؤًا لموسى عليه السلام، بل كان خادمًا له في حياته، ومؤكدًا لدعوته بعد

أسمع صوت الله ربي لئلا أموت، فقال الله تعالىٰ: نعم، ما قالوا، وسأقيم لهم نبيًا مثلك من أخوتهم واجعل كلامي في فمه، لهم كل شيء أمرته).

وفي نسخة: آمره (**به، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي، فإني أنتقم منه**) وجوز شيخنا في التقرير، أن يكون هذا من باب، ﴿وإذ أخذ اللّٰه ميثاق النبيين﴾، أي: استمع له إذا وجد وأنت حي، كسماعك لربك، وهذا بعيد جدًا، ولذا لم يذكره في الشرح.

(**قال**) ابن ظفر: (**وفي هذا الكلام أدلة على نبوة محمد ﷺ**) من ثلاثة أوجه بينها، فقال: (**فقوله**) لفظه منها قوله: (**نبيًا من أخوتهم، وموسىٰ وقومه من بني إسحٰق، وإخوتهم من بني إسمٰعيل، ولو كان هذا النبي الموعود به من بني إسحٰق لكان من أنفسهم لا من أخوتهم**،) كما قال عزّ وجلّ إخبارًا بدعوة إبراهيم لولد إسمٰعيل: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾، وكما قال سبحانه مخاطبًا للعرب ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾، هذا تركه المصنف من كلام ابن ظفر، (**وأما**) لفظه، ومنها (**قوله: نبيًا مثلك، وقد قال في التوراة: لا يقوم في بني إسرائيل أحد مثل موسىٰ**) من أنفسهم، فلا ينافي إنه قام فيهم مثل موسىٰ، بل أجل، وهو محمد عليه السلام لعموم دعوته، لأنه من بني إسمٰعيل أخوتهم لا من أنفسهم، فلا خلف بين هذا وقول التوراة السابق، وسأقيم لهم نبيًا مثلك.

(**وفي ترجمة أخرى مثل موسىٰ لا يقوم في بني إسرائيل أبدًا**،) من أنفسهم، (**فذهبت اليهود إلى أن هذا النبي الموعود به هو يوشع بن نون، وذلك باطل، لأن يوشع لم يكن كفؤًا لموسىٰ عليه السلام، بل كان خادمًا له في حياته، ومؤكدًا لدعوته**،) وداعيًا إليها (**بعد**

وفاته، فتعين أن يكون المراد به محمدًا ﷺ فإنه كفؤ موسى لأنه يماثله في نصب الدعوة، والتحدي بالمعجزة، وشرع الأحكام، وإجراء النسخ على الشرائع السالفة.

وقوله تعالى: «اجعل كلامي في فمه» فإنه واضح في أن المقصود به محمد ﷺ لأن معناه أوحي إليه بكلامي، فينطق به على نحو ما سمعه، ولا أنزل صحفًا ولا ألواحًا لأنه أمي، لا يحسن أن يقرأ المكتوب.

وفي الإنجيل ـ مما ذكره ابن طغر بك في «الدر المنتظم» قال يوحنا في إنجيله عن المسيح أنه قال: أنا أطلب لكم من الأب أن يعطيكم «فار قليط» آخر يثبت

وفاته، فتعين أن يكون المراد به محمدًا ﷺ، فإنه كفؤ موسىٰ، لأنه يماثله في نصب الدعوة، والتحدي بالمعجزة وشرع الأحكام،) أي: إظهارها والمجيء بها، وإن كان أصلها من اللّه، **(وإجراء النسخ على الشرائع السالفة و)** منها **(قوله تعالىٰ: «أجعل كلامي في فمه»، فإنه واضح في أن المقصود به محمد ﷺ، لأن معناه أوحي إليه بكلامي، فينطق به على نحو)** زائدة لم تقع في ابن ظفر، إنما قال على **(ما سمعه، ولا أنزل عليه صحفًا ولا ألواحًا)** كما أنزلت عليك يا موسىٰ، **(لأنه، أمي: لا يحسن أن يقرأ المكتوب)** مدة حياته.

وبقية كلام ابن ظفر، وقوله: أيما رجل لم يطع من تكلم باسمي، فإني أنتقم منه، دليل على كذب اليهود في قولهم إن اللّه أمرنا بمعصية كل نبي دعانا إلى دين يتضمن نسخًا لبعض ما شرعه موسىٰ، هكذا مع قطعنا أنهم يكتمون الحق وهم يعلمون، وأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، فإن أهل الكتابين عرفوا محمدًا ﷺ، كما عرفوا أبناءهم، وجدوه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وإنما يذكر ما أظهروه، ورضوا التفسير له بما حكيناه عن تراجمهم، بلفظهم الذي اختاروه وأثبتوه في كتبهم، ليكون ذلك أقطع لعذرهم، وأحسم لروغانهم، وقد صح أنه ﷺ أتى اليهود، فقال: أخرجوا إلى أعلمكم، فأخرجوا إليه عبد اللّه بن صوريا الأعور، فقال له ﷺ: أنشدك اللّه الذي أطعم أسباطكم المنّ والسلوى، وظلل عليهم الغمام، أتعلم أني رسول اللّه، فقال ابن صوريًا: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون من هذا ما أعرف، وإن نعتك لبين عندهم، ولكن القوم حسدوك لأنك عربي، قال: فأسلم، قال: إني أكره خلاف قومي، وعسىٰ أن يسلموا فأسلم. انتهى.

(وفي الإنجيل مما ذكره ابن طغر بك) (بضم الطاء المهملة وسكون المعجمة وضم الراء وفتح الموحدة)، ثم كاف علم مركب من طغرو بك الإمام، العلامة، المحدث سيف الدين عمر بن أيوب الحميري، التركماني، الدمشقي، الحنفي **(في)** كتاب **(الدر المنتظم)** في مولد النبي ﷺ، **(قال يوحنا في إنجيله:)** أضافه إليه، لأن عيسىٰ لم تظهر دعوته في عصره، وإنما

معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه.

وهو عند ابن ظفر بلفظ: إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكم «فار قليط» آخر يكون معكم الدهر كله.

قال: فهذا تصريح بأن اللّٰه تعالى سيبعث إليهم من يقوم مقامه، وينوب عنه في تبليغ رسالة ربه وسياسة خلقه منا به، وتكون شريعته باقية مخلفة أبدًا، فهل هذا إلا محمد ﷺ؟ انتهى.

ولم يذكر فصول «الفارقليط» ـ كما أفاده ابن طغر بك ـ سوى يوحنا، دون غيره من نقلة الإنجيل.

وقد اختلف النصارى في تفسير «الفارقليط».

فقيل هو: الحامد، وقيل: هو المخلص.

أخذ الإنجيل عنه أربعة من الحواريين متى ويوحنا وقيسر ولوقا، فتكلم كل واحد من هؤلاء بعبارة لملاءمة الذين تبعوا دعاءهم، ولذا اختلفت الأناجيل الأربعة اختلافًا شديدًا، قاله في المنتقى (عن المسيح أنه قال: أنا أطلب لكم من الأب أن يعطيكم فارقليط).

قال المصنف في المقصد الثاني: وأما البارقليط والفارقليط (بالموحدة وبالفاء بدلها وفتح الراء والقاف وبسكون الراء مع فتح القاف) وبفتح الراء مع سكون القاف وبكسر الراء وسكون القاف غير منصرف للعلمية والعجمة، (آخر يثبت معكم إلى الأبد:) آخر الدهر، ببقاء دينه إلى القيامة، (روح الحق،) أضافه إليه ليميز روحه عن سائر المخلوقات بما خصه اللّٰه به من الكمالات، (الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه،) وإن أراد بعضهم ذلك، (وهو عند ابن ظفر) في البشر (بلفظ،) ومما ترجموه في الإنجيل؛ أن عيسىٰ قال (إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي،) أي: ربي، كما يأتي (فيعطيكم فارقليط آخر، يكون معكم الدهر كله،) ببقاء شريعته إلى انقضاء الدهر.

(قال) ابن ظفر: (فهذا تصريح بأن اللّٰه سيبعث إليهم من يقوم مقامه،) أي: عيسىٰ، (وينوب عنه في تبليغ رسالة ربه وسياسة خلقه منا به، وتكون شريعته باقية مخلدة أبدًا) إلى يوم القيامة، كما هو مفاد قوله الدهر كله، (فهل هذا إلا محمد ﷺ) صاحب النبوة الخاتمة. (انتهى، ولم يذكر فصول،) أي: أنواع المسائل التي ذكر فيها (الفارقليط، كما أفاده ابن طغر بك سوى يوحنا دون غيره، من نقلة الإنجيل) ومن حفظ حجة.

(وقد اختلف النصارىٰ في تفسير الفارقليط،) قال ابن ظفر: والذي صح عندي من ذلك عنهم؛ أنه الحكيم الذي يعرف السر، (فقيل: هو الحامد، وقيل: هو المخلص) (بشد اللام

فإن وافقناهم على أنه المخلص أفضى بنا الأمر إلى أن المخلص رسول يأتي لخلاص العالم، وذلك من غرضنا، لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر، ويشهد له قول المسيح في الإنجيل: إني جئت لخلاص العالم، فإذا ثبت أن المسيح هو الذي وصف نفسه بأنه مخلص العالم، وهو الذي سأل الأب أن يعطيهم «فارقليط» آخر، ففي مقتضى اللفظ ما يدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي فارقليط آخر.

وإن تنزلنا معهم على القول بأنه: الحامد، فأي لفظ أقرب إلى أحمد ومحمد من هذا؟

قال ابن ظفر: وفي الإنجيل ـ مما ترجموه ـ ما يدل على أن الفارقليط: الرسول، فإنه قال: إن هذا الكلام الذي يسمعونه ليس هو لي، بل الأب الذي أرسلني بهذا الكلام لكم، وأما «البارقليط» روح القدس الذي يرسله أبي باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلته لكم.

فهل بعد هذا بيان؟ أليس هذا صريحًا في أن «الفارقليط» رسول يرسله اللّه

اسم فاعل)، (فإن وافقناهم على أنه المخلص، أفضى بنا الأمر إلى أن المخلص رسول يأتي لخلاص العالم) من الهلاك، بإخراجهم من الكفر إلى الإيمان، (وذلك من غرضنا، لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر، ويشهد له قول المسيح في الإنجيل إني جئت لخلاص العالم، فإذا ثبت أن المسيح هو الذي وصف نفسه؛ بأنه مخلص العالم؛ وهو الذي سأل الأب أن يعطيهم فارقليط آخر، ففي مقتضى اللفظ ما يدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي فارقليط آخر،) وهو محمد ﷺ، (وإن) (بكسر فسكون شرطية) (تنزلنا معهم،) ووافقناهم (على القول؛ بأنه الحامد،) وجواب الشرط هو: (فأي: لفظ أقرب إلى أحمد ومحمد من هذا) الذي هو الحامد.

(قال ابن ظفر) محمد في البشر: (وفي الإنجيل مما ترجموه ما يدل على أن الفارقليط الرسول، فإنه قال: إن هذا الكلام الذي يسمعونه ليس هو لي، بل الأب،) أي: الرب (الذي أرسلني بهذا الكلام لكم،) لفظ ابن ظفر: كلمكم بهذا وأنا معكم، (وأما البارقليط روح القدس، الذي يرسله أبي باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم) (بالتثقيل) (كل ما قلته لكم،) لفظه جميع ما أقول لكم، فهذا يفهم منه أن الفارقليط الرسول، (فهل بعد هذا بيان، أليس هذا صريحًا في أن الفارقليط رسول يرسله اللّه تعالىٰ، وهو روح

تعالى، وهو روح القدس، وهو يصدق بالمسيح، ويظهر اسمه أنه رسول حق من اللّه، وليس بإله، وهو يعلم الخلق كل شيء، ويذكرهم كل ما قاله المسيح عليه السلام، وكل ما أمرهم به من توحيد اللّه.

وأما قوله «أبي» فهذه اللفظة مبدلة محرفة. وليست منكرة الاستعمال عند أهل الكتابين، إشارة إلى الرب سبحانه وتعالى، لأنها عندهم لفظة تعظيم، يخاطب بها المتعلم معلمه الذي يستمد منه العلم. ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالآباء الروحانية، ولم تزل بنو إسرائيل وبنو عيصو يقولون نحن أبناء اللّه بسوء فهمهم عن اللّه تعالى.

وأما قوله «يرسله أبي باسمي» فهو إشارة إلى شهادة المصطفى له بالصدق والرسالة، وما تضمنه القرءان من مدحه عما افتري في أمره.

القدس وهو يصدق) بشد الدال المكسورة **(بالمسيح ويظهر اسمه أنه رسول حق من الله)** وعبده **(وليس بإله)**، كما زعموا فضلوا، **(وهو يعلم الخلق كل شيء ويذكرهم كل ما)** أي: شيء **(قاله)** لهم **(المسيح عليه السلام، وكل ما أمرهم به)** المسيح **(من توحيد اللّه)** بنحو قوله: ﴿أعبدوا اللّه ربي وربكم إنه من يشرك باللّه فقد حرم اللّه عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة/٧٢]، فهل جاء بهذا إلا محمد ﷺ.

(وأما قوله أبي، فهذه اللفظة مبدلة محرفة، و)مع ذلك **(ليست منكرة الاستعمال عند أهل الكتابين،)** يقولها المتكلم **(إشارة إلى الرب سبحانه وتعالىٰ، لأنها عندهم لفظة تعظيم، يخاطب بها المتعلم معلمه الذي يستمد منه العلم،)** وهو شيخه، **(ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالآباء الروحانية)** (بضم الراء)، **(ولم تزل بنو إسرائيل،)** يعقوب **(وبنو)** أخيه **(عيصو)** (بكسر العين المهملة وإسكان الياء ومهملة) **(يقولون نحن أبناء اللّه بسوء فهمهم عن اللّه تعالىٰ)**.

زاد ابن ظفر: واختلال بصائرهم في التلقي عن أنبيائه، وقد قرأت في التوراة مما أساؤوا الترجمة عنه، فنظر الرب وسخط حين أغضبه بنوه وبناته، وقال: سأعرض بوجهي عنهم، وأنظر إلى ما يصير عاقبتهم، لأنهم خلف أعوج، أبناء ليس لهم إيمان.

(وأما قوله: يرسله أبي باسمي، فهو إشارة إلى شهادة المصطفى له) لعيسىٰ، **(بالصدق والرسالة، وما تضمنه القرآن من مدحه،)** وتنزيهه **(عما افترى في أمره،)** لفظ ابن ظفر: عما افتراه في أمره اليهود، وعبارة المصنف أشمل.

وفي ترجمة أخرى للإنجيل، أنه قال: «الفارقليط» إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ما يسمع يكلمهم به، ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث.

وهو عند ابن طغر بك بلفظ: فإذا جاء روح الحق، ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع من الله، ويخبرهم بما يأتي، وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم.

فقوله «ليس ينطق من عنده» وفي الرواية الأخرى: «ولا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع» أي: من الله الذي أرسله، وهذا كما قال تعالى في صفته ﷺ: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم/٣].

وقوله: «وهو يمجدني» فلم يمجده حق تمجيده إلا محمد ﷺ، لأنه وصفه بأنه رسول الله، وبرأه وبرأ أمه -عليهما السلام- مما نسب إليهما، وأمر أمته بذلك.

قال ابن ظفر: فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق، وتحريف الكلم

(وفي ترجمة أخرى للإنجيل أنه قال: الفارقليط إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه،) واستأنف قوله (ما،) أي: الذي (يسمع) من ربه بواسطة الوحي في أغلب الأحوال هو الذي (يكلمهم به ويسوسهم،) يدبرهم ويقوم بأمرهم (بالحق، ويخبرهم بالحوادث) والغيوب التي كانت وتكون إلى يوم القيامة، (وهو عند ابن طغر بك، بلفظ: فإذا جاء روح الحق ليس ينطق من عنده،) بجر الظرف بمن، (بل يتكلم بكل ما يسمع،) أي: يسمعه (من الله) بالوحي، (ويخبرهم بما يأتي وهو يمجدني، لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم، فقوله: ليس ينطق من عنده) مبتدأ وعطف عليه قوله.

(وفي الرواية الأخرى) التي فوق هذه، (ولا يقول من تلقاء نفسه، بل يتكلم بكل ما يسمع من الله الذي أرسله، وهذا كما قال تعالى) في القرآن (في صفته ﷺ ﴿وما ينطق عن الهوى﴾،) هوى نفسه (﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾) جملة معترضة لبيان أن ما في الإنجيل موافق للقرآن وعطف على المبتدأ أيضًا، فقال: (وقوله وهو يمجدني،) وحذف الخبر، وهو دليل على أن المقول فيه ذلك هو محمد ﷺ، وعلل هذا الخبر المقدر، بقوله: (فلم يمجده حق تمجيده إلا) بمعنى غير (محمد ﷺ، لأنه وصفه بأنه رسول الله، وبرأه وبرأ أمه) مريم (عليهما السلام مما نسب إليهما، وأمر أمته بذلك).

قال ابن ظفر:) محمد في البشر، (فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق

عن مواضعه، وبيع الدين بالثمن البخس، ومن ذا الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب إلا محمد ﷺ، ولله در أبي محمد عبد الله الشقراطسي حيث قال في قصيدته المشهورة:

توراة موسى أتت عنه فصدقها إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
أخبار أحبار تلك الكتب قد وردت عما رأوا ورووا في الأعصر الأول

ويعجبني قول العارف الرباني أبي عبد الله بن النعمان حيث قال:

هذا النبي محمد جاءت له توراة موسى للأنام تبشر
وكذاك إنجيل المسيح موافق ذكرًا لأحمد معرب ومذكر

ويرحم الله ابن جابر محمدًا حيث قال:

لمبعثه في كل جيل علامة على ما جلته الكتب من أمره الجلي
فجاء به إنجيل عيسى بآخر كما قد مضت توراة موسى بأول

وتحريف الكلم عن مواضعه، وبيع الدين بالثمن البخس) من عرض الدنيا، وانتصابهم أربابًا من دون الله، **(ومن ذا الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب إلا محمد ﷺ)** فوقعت كما قال، وما لم يقع لا بدّ من وقوعه، كما قال: **(ولله در أبي محمد عبد الله الشقراطسي، حيث قال في قصيدته)** اللامية **(المشهورة)**.

(توراة موسىٰ أتت عنه فصدقها إنجيل عيسىٰ بحق غير مفتعل
أخبار أحبار تلك الكتب قد وردت عما رأوا ورووا في الأعصر الأول

(ويعجبني قول العارف الرباني أبي عبد الله بن النعمان، حيث قال:

هذا النبي محمد جاءت له توراة موسىٰ للأنام تبشر
وكذاك إنجيل المسيح موافق ذكرًا لأحمد معرب ومذكر

ويرحم الله ابن جابر محمدًا حيث قال:

لمبعثه في كل جيل علامة على ما جلته الكتب من أمره الجلى
فجاء به إنجيل عيسىٰ بآخر كما قد مضت توراة موسىٰ بأول)

. والأبيات الستة غنية عن الشرح، وقد اعترض على المصنف وغيره ممن أكثر النقل عن التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب المنسوخة، فالاشتغال بها ينافي الغرض من نسخها، وقد حرم الفقهاء قراءتها والنظر فيها، وأنها محرفة مبدلة، ثم اختلفوا هل التحريف بالزيادة والنقص أو بتأويلها وتفسيرها بغير المراد منها، وأجيب؛ أنه لا مانع من قراءتها للعارف الفطن لمعرفة

وفي الدلائل للبيهقي عن الحاكم ـ بسند لا بأس به ـ عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر الحديث، وأنه أرسل إليهم ليلاً، قال: فدخلنا عليه، فدعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح واستخرج حريرة سوداء، فنشرها فإذا فيها صورة حمراء، وإذا رجل ضخم العينين عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا آدم عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر

النبي ﷺ فيها، ولا لزامهم بما أنكروه وكيف يحرم لمثل هذا.

وقد قال تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ [المائدة/٤٣] ، ووقع في أحاديث النقل عنها وقال التجاني في شرح الشفاء: إذا وجد فيها ما يقوم النظر على عدم تبديله، وأفاد النظر فيه مقصدًا شرعيًا، فلا يبعد أن يباح النظر فيه والاشتغال به.

(**وفي الدلائل للبيهقي عن**) شيخه (**الحاكم**) أبي عبد الله، المشهور (**بسند لا بأس به عن أبي أمامة الباهلي،**) صدى بالتصغير ابن عجلان، الصحابي، المشهور، سكن الشام ومات بها سنة ست وثمانين، (**عن هشام بن العاصي الأموي**) (بضم الهمزة) نسبة إلى أمية على القياس، وبفتحها على خلافه، وهو الأشهر عندهم، تقدم مرارًا، (**قال: بعثت أنا ورجل آخر**) من قريش، كما في نفس رواية البيهقي، أي: في زمن الصديق (**إلى هرقل**) (بكسر الهاء وإسكان الراء وفتح القاف) على المشهور (**صاحب الروم لدعوه إلى الإسلام، فذكر الحديث**) وهو فنزلنا على جبلة فدعوناه إلى الإسلام فإذا عليه ثياب سود، فسألناه عن ذلك، قال: حلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام، فقلنا له: والله لنأخذن مجلسك هذا، ولنأخذن ملك الملك الاعظم، أخبرنا بهذا نبينا، قال: لستم بهم، ثم ذكر قصة دخولهم على هرقل، (**وأنه أرسل إليهم ليلاً،**) واستخلى بهم، (**قال: فدخلنا عليه، فدعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار، عليها أبواب، ففتح واستخرج،**) أي: أخرج (**حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا رجل،**) أي: وإذا تلك الصورة صورة رجل، (**ضخم العينين، عظيم الأليتين، لم أرَ مثل طول عنقه، وإذا له ضفيرتان:**) (بالضاد المعجمة) خصلتان من الشعر، (**أحسن ما خلق الله تعالى، قال: أتعرفون هذا؟، قلنا: لا، قال: هذا آدم عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر،**)

وأخرج حريرة فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا فيها ـ واللّٰه ـ رسول اللّٰه ﷺ، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول اللّٰه ونبينا، واللّٰه إنه قام قائمًا ثم جلس وقال: إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما واللّٰه إنه لآخر البيوت، ولكن عجلته لكم لأنظر ما عندكم. الحديث، وفيه ذكر صور الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى وسليمان وغيرهم. قال: فقلنا له: من أين لك هذه الصور؟ فقال: إن آدم سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال.

فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أحمر العينين، ضخم الهامة،) عظيم الرأس، **(حسن اللحية، فقال: أتعرفون هذا؟، قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر وأخرج حريرة، فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا فيها واللّٰه رسول اللّٰه ﷺ، فقال: أتعرفون هذا؟،)** أسقط من رواية البيهقي، فبكينا و **(قلنا: نعم. محمد رسول اللّٰه ونبينا، واللّٰه إنه،)** أي: هرقل **(قام قائمًا، ثم جلس)** تعظيمًا لصورته، **(وقال: إنه لهو، قلنا نعم، إنه لهو، كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة:)** مدة من الزمن **(ينظر إليها، ثم قال: أما)** بالفتح والتخفيف، **(واللّٰه إنه لآخر البيوت، ولكن عجلته لكم، لأنظر ما عندكم)** من العلم بنبيكم **(الحديث، وفيه ذكر صور الأنبياء إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وسليمان وغيرهم).**

(قال: فقلنا له: من أين لك هذه الصور؟، فقال: إن آدم، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم،) إجابة لسؤاله، **(فكان في خزانة آدم،)** أي: ذلك المنزل من صورهم مع صورة آدم **(عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس، فدفعها إلى دانيال)** النبي عليه السلام، ثم تنقلت إلى أن وصلت إلى هرقل.

وفي بقية خبر البيهقي: ثم قال هرقل: لو طابت نفسي بالخروج من ملكي لوددت أني كنت عبدًا لأميركم حتى أموت، قال: فلما رجعنا حدثنا أبا بكر، فبكى، ثم قال: لو أراد اللّٰه به خيرًا لفعل، ثم قال: أخبرنا رسول اللّٰه ﷺ أنهم واليهود يعرفون نعت رسول اللّٰه ﷺ.

قال في الإصابة: وقد تقدم في ترجمة عدي بن كعب نحو هذه القصة، لكن فيها أنه هشام بن العاصي السهمي، فاللّٰه أعلم، وقال فيما تقدم: لا أعرف نسب عدي بن كعب، روى المعافى في الجليس عن عبادة بن الصامت، قال: بعثني أبو بكر ومعي عمرو بن العاصي وأخوه هشام بن العاصي وعدي بن كعب ونعيم بن عبد اللّٰه إلى ملك الروم، فدخلنا على جبلة، فذكر قصة طويلة نحو ورقتين، وإسناده ضعيف.

وفي زبور داود عليه السلام، من مزمور أربعة وأربعين: فاضت النغمة من شفتيك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار سيفك، فإن شرائعك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرون تحتك.

فهذا المزمور ينوه بمحمد ﷺ، فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله، وهو الكتاب الذي أنزل عليه والسنة التي سنها.

وفي قوله: «تقلد سيفك أيها الجبار» دلالة على أنه النبي العربي، إذ ليس يتقلد السيف أمة من الأمم إلا العرب، وكلهم يتقلدونها على عواتقهم.

وقد أخرجها البيهقي عن هشام بن العاصي الأموي، (**وفي زبور داود عليه السلام من مزمور:**) مفرد مزامير، كمزمار (**أربعة وأربعين،**) أي: المتمم لها، وهي ما كان يتغنى به من الزبور وضروب الدعاء، (**فاضت النغمة من شفتيك، من أجل هذا باركك،**) أي: جعلك (**الله**) مباركًا، وفي ابن ظفر، عن الزبور مخاطبًا المصطفى لتنزيله منزلة الموجود، لتحققه عنده: فاضت الرحمة على شفتيك من أجل ذلك أبارك عليك (**إلى الأبد تقلد**) أمر (**أيها الجبار**) من أسمائه ﷺ، لجبره الخلق على الحق وصرفهم عن الكفر، أو لإصلاحه أمته بالهداية والتعليم، أو لقهر أعدائه، أو لعلو منزلته على الخلق وعظيم خطره، ونفى تعالى عنه جبرية التكبر، فقال: وما أنت عليهم بجبار (**سيفك،**) أي: إجعل حمائله على عاتقك، واجعله كالقلادة، وفيه إشارة إلى أنه سيؤمر بالجهاد، (**فإن شرائعك:**) جمع شريعة (**وسنّتك**).

كذا في النسخ، والذي قدمه المصنف في الأسماء، ومثله في الشفاء، وابن ظفر وابن دحية؛ فإن ناموسك وشرائعك، والمراد بالناموس الوحي النازل عليك، ويحتمل أن شرائع عطف تفسير، ولذا وحد الخبر في قوله: (**مقرونة بهيبة يمينك،**) أي: بالخوف من سيفك، فكنى عنه بذلك، أو تجوز باليمين عما فيه، (**وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرون تحتك،**) بالمعجمة من الخرور، وهو السقوط، أي: يخضعون ويذلون لك، (**فهذا المزمور ينوه:**) يرفع (**بمحمد ﷺ، فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله، وهو الكتاب الذي أنزل عليه،**) أي: القرآن (**والسنّة التي سنها،**) إذ لا ينطق عن الهوى.

(**وفي قوله: تقلد سيفك أيها الجبار دلالة على أنه النبي العربي، إذ ليس يتقلد السيف أمة من الأمم إلا العرب، وكلهم يتقلدونها على عواتقهم،**) بخلاف غيرهم، فيجعلونها في أوساطهم.

وفي قوله «فإن شرائعك وسنتك» نص صريح على أنه صاحب شريعة وسنة، وأنها تقوم بسيفه.

و«الجبار» الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق ويصرفهم عن الكفر جبرًا.

وعن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب القديمة، قال اللّٰه تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي، لأنزلنَّ على جبال العرب نورًا يملأ ما بين المشرق والمغرب، ولأخرجن من ولد إسمٰعيل نبيًا عربيًا أميًا يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي ربًا، وبه رسولاً، ويكفرون بملل آبائهم ويفرون منها، قال موسى: سبحانك وتقدمت أسماؤك، ولقد كرمت هذا النبي وشرفته، قال اللّٰه: يا موسى، إني أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة، وأظهر دعوته على كل دعوة، وأذل من خالف شريعته، وبالعدل زينته، وللقسط أخرجته، وعزتي لأستنقذن به أممًا

(وفي قوله: فإن شرائعك وسنّتك نص صريح على أنه صاحب شريعة وسنّة، وأنها تقوم بسيفه) قهرًا على من خالف، **(والجبار الذي يجبر الخلق، بالسيف على الحق)** وهو التوحيد، **(ويصرفهم عن الكفر،)** وهو ما خالف الإيمان والتوحيد، **(جبرًا)** عليهم، كما قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّٰه، **(وعن وهب بن منبه)** (بضم الميم وفتح النون وكسر الموحدة الثقيلة)، ابن كامل اليماني، أبي عبد اللّٰه الأبناري (بفتح الهمزة وسكون الباء بعدها نون)، تابعي، ثقة، رواه له الشيخان وغيرهما، مات سنة بضع عشرة ومائة، **(قال: قرأت في بعض الكتب القديمة، قال اللّٰه تبارك وتعالىٰ: وعزتي وجلالي لأنزلن على جبال العرب.)** أهل مكة وما حولها **(نورًا يملأ ما بين المشرق والمغرب، ولأخرجن من ولد إسمٰعيل)** بن إبرٰهيم **(نبيًا)** رسولاً، **(عربيًا أميًا،)** لا يقرأ ولا يكتب، **(يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي ربًا وبه رسولاً، ويكفرون بملل)** (بلامين: جمع ملة) **(آبائهم، ويفرون منها)** من الفرار، أي: يهربون.

(قال موسىٰ) بن عمران عليه السلام: **(سبحانك،)** تنزيهًا لك عما لا يليق بك، **(وتقدمت أسماؤك، ولقد كرمت:)** فضلت **(هذا النبي وشرفته)** على من سواه، **(قال اللّٰه: يا موسىٰ إني أنتقم من عدوه:)** الكفار **(في الدنيا،)** بالقتل والأسر، والإجلاء والقحط، والسنين وغير ذلك، **(و)** في **(الآخرة)** بالعذاب المخلد، **(وأظهر دعوته على كل دعوة،)** وسلطانه ومن اتبعه على البر والبحر، وأخرج لهم من كنوز الأرض، هذا تركه المصنف من البشر قبل قوله: **(وأذل من خالف شريعته،)** ولو كان له سلطان، فهو أبدًا ذليل، خائف من سطوة الإسلام وعزه، **(وبالعدل:)** الإنصاف **(زينته وللقسط،)** أي: العدل **(أخرجته،)** فلا يحكم ولا يأمر إلا به، **(وعزتي لأستنقذن**

من النار، فتحت الدنيا بإبراهيم وأختمتها بمحمد، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل في شريعته فهو من اللّٰه بريء. ذكره ابن ظفر وغيره.

النوع الخامس

في آيات تتضمن اقسامه تعالى على تحقيق رسالته وثبوت ما اوحى إليه من آياته وعلو رتبته الرفيعة ومكانته

وهذا النوع ـ أعزك اللّٰه ـ لخصت أكثره من كتاب أقسام القرءان للإمام العلامة ابن

به أمنًا من النار، فتحت الدنيا بإبراهيم، وختمتها بمحمد،) مثل كتابه الذي يجيء به، فاعقلوه يا بني إسرائيل، كمثل السقاء المملوء لبنًا، يمخض فيخرج زبدًا، بكتابه أختم الكتب، وبشريعته أختم الشرائع، هذا أسقطه المصنف من كتاب البشر قبل قوله: (فمن أدركه ولم يؤمن:) يصدق (به) باطنًا، (ولم يدخل في شريعته) ظاهرًا، (فهو من اللّٰه بريء).

(ذكره ابن ظفر) في البشر (وغيره،) وبقيته: أجعل أمته يبنون في مشارق الأرض ومغاربها مساجد، إذا ذكر اسمي فيها ذكر اسم ذلك النبي معي، لا يزول ذكره من الدنيا حتى تزول.

(النوع الخامس:

في آيات تتضمن اقسامه تعالىٰ على تحقيق رسالته:) ثبوتها (وثبوت ما أوحى إليه،) مستفاد من سابقه، لأنه متى تحققت رسالته قطع بصدقه في كل ما يقول، وقد أخبر؛ بأن القرآن من اللّٰه، فيكون حقًا، لكنه أراد التنبيه على أنه أقسم عليه بخصوصه اعتناء بشأنه، وسئل ما معنى القسم منه سبحانه مع أن القصد به تحقيق الخبر وتوكيده، فإن كان لأجل المؤمن، فهو مصدق بمجرد الأخبار بلا قسم، وإن كان للكافر، فلا يفيد فيه، وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت توكيد أمر، وأجاب القشيري؛ بأن اللّٰه أقسم لكمال الحجة وتوكيدها، لأن الحاكم يفصل إما بالشهادة وإما بالقسم، فذكر اللّٰه تعالىٰ في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة، فقال: ﴿شهد اللّٰه..﴾، وقال: قل أي: وربي إنه لحق، (من آياته) القرآن، وهو الظاهر من استدلاله عليه، بقوله الآتي: إنه لقرآن كريم ويحتمل ما هو أعم، ودليله ﴿والنجم﴾ إلى قوله: ﴿إن هو إلا وحي﴾، (وعلو،) أي: ارتفاع (رتبته:) منزلته (الرفيعة:) العلية الشريفة، فهو من الوصف بالمساوي حسنه اختلاف اللفظ، وهو سائغ شائع، كقوله تعالىٰ: ﴿صلوات من ربهم ورحمة﴾ [البقرة/١٥٧]، (ومكانته،) أي: مرتبته المعنوية، وهي الرفعة فهو عطف تفسير والمكان معروف إذ زيدت فيه الهاء أريد به المرتبة المعنوية كالمنزل والمنزلة، (وهذا النوع أعزك اللّٰه) جملة معترضة دعائية، (لخصت أكثره من

القيم، مع زيادات من فرائد الفوائد.

فاعلم أن اللّه تعالى أقسم بأمور على أمور، وإنما أقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وبآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته.

ثم تعالى تارة يذكر جواب القسم وهو الغالب وتارة يحذفه. وتارة يقسم على أن القرءان حق. وتارة على أن الرسول حق. وتارة على أن الجزاء والوعد

كتاب أقسام القرآن للإمام العلامة ابن القيم) محمد بن أبي بكر، **(مع زيادات من فرائد)** أي: نفائس **(الفوائد)** وغرائبها، وهي الجواهر النفيسة، فهي من إضافة الصفة للموصوف، أي: الفوائد النفيسة، كالجواهر أو حقيقية.

وإذا أردت ذلك، **(فاعلم أن اللّه تعالىٰ أقسم بأمور على أمور، وإنما أقسم بنفسه)** أي: بالألفاظ الدالة على ذاته، **(الموصوفة بصفاته)** وذلك في سبعة مواضع من القرآن ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ [يونس/٥٣] ، وقوله: ﴿قل بلى وربي﴾ [التغابن/٧] ،﴿فوربك لنحشرنهم﴾ [مريم/٦٨] ،﴿فوربك لنسألنهم﴾ [الحجر/٩٢] ، ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ [النساء/٦٥] ،﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ [الذاريات/٢٣] ، ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ [المعارج/٤٠] .

والباقي كله أقسم بمخلوقاته، كما قال: **(و)** أقسم **(بآياته المستلزمة لذاته وصفاته)** لدلالة، إلا آيات على الصانع، وأورد: كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير اللّه أجيب؛ بأن المراد بنحو، قوله: والقلم ورب القلم.

وكذا الباقي، وبأن العرب كانت تعظم هذه الأشياء، أو تقسم بها، فنزل القرآن على ما تعرفه، وبأن الأقسام إنما يكون بما يعظمه المقسم ويجله، وهو فوقه واللّه تعالىٰ ليس فوقه شيء، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته، لأنها تدل على بارىء وصانع، **(وأقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه)** أي: ذلك البعض **(من عظيم آياته)** من إضافة الصفة للموصوف.

قال ابن القيم: والقسم إما على جملة خبرية، وهو الغالب، كقوله: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾، وأما على جملة طلبية، كقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾، مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق المقسم به والمقسم عليه، ويراد بالمقسم توكيده وتحقيقه، **(ثم تعالىٰ تارة يذكر جواب القسم، وهو الغالب، وتارة يحذفه، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على أن الجزاء والوعد)** بالخير، **(والوعيد)** بالشر **(حق)**.

والوعيد حق.

فالأول: كقوله تعالى: **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرءان كريم في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون﴾** [الواقعة/٧٥/ ٧٩].

والثاني: كقوله تعالى: **﴿يس والقرءان الحكيم إنك لمن المرسلين على صراطٍ مستقيم﴾** [يس/١ - ٣].

والثالث: كقوله: **﴿والذاريات ذروا﴾** [الذاريات/١٠]، إلى قوله: **﴿وإن الدين لواقع﴾**.

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، فمتى ثبت أن الرسول حق، ثبت أن القرءان حق، وثبت المعاد، ومتى ثبت أن القرءان حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به.

(**فالأول**،) وهو أن القرآن حق، (**كقوله تعالىٰ: ﴿فلا أقسم﴾**) بزيادة لا (**﴿بمواقع النجوم﴾**،) بمساقطها لغروبها، (**﴿وإنه﴾**،) أي: القسم بها (**﴿لقسم لو تعلمون عظيم﴾**،) أي: لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم، (**﴿إنه﴾**،) أي: المتلو عليكم (**﴿لقرآن كريم﴾**،) النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسن مرضى في جنسه (**﴿في كتاب﴾**) مكتوب (**﴿مكنون﴾**) مصون، وهو المصحف، (**﴿لا يمسه﴾**) خبر بمعنى النهي (**﴿إلا المطهرون﴾**) [الواقعة/٧٥]، أي: الذين طهروا أنفسهم من الأحداث، ويأتي بسط هذا.

(**والثاني، كقوله تعالىٰ: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾**) المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني (**﴿إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾**) [يس/١]، أي: طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى، والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار لست مرسلاً.

(**والثالث، كقوله: ﴿والذاريات﴾**) الرياح تذر والتراب وغيره (**﴿ذروا﴾** [الذاريات/١] الآية، إلى قوله: **﴿وإن الدين﴾**) الجزاء بعد الحساب (**﴿لواقع﴾**) [الذاريات/٦] الآية، لا محالة، (**وهذه الأمور الثلاثة**) القرآن والرسول والمعاد، المعبر عنه أولاً بالجزاء والوعد والوعيد (**متلازمة، فمتى ثبت أن الرسول حق ثبت أن القرآن حق**،) لأن الرسول أخبر بأنه من عند الله، ومحال على الرسول الكذب، (**وثبت المعاد**:) الرجوع يوم القيامة الذي أخبر به، (**ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق، ثبت صدق الرسول الذي جاء به**،) لاستحالة خلاف صدقه مع حقيتهما، (**وفي هذا النوع خمسة فصول:**

وفي هذا النوع خمسة فصول.

الفصل الأول

في قسمه تعالى على ما خصه به من الخلق العظيم وحباه من الفضل العميم

قال اللّه تعالى: **﴿ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرًا غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم﴾** [القلم/ ١- ٤].

﴿ن﴾ من أسماء الحروف كـ **﴿الم﴾** و **﴿المص﴾** و **﴿ق﴾**.

واختلف فيها، فقيل هي أسماء للقرءان، وقيل: أسماء للسور.

وقيل: أسماء للّه، ويدل عليه أن عليًا رضي اللّه عنه كان يقول:

(الفصل الأول)

في قسمه تعالىٰ على ما خصه به من الخلق العظيم وحباه،) بموحدة أعطاه بلا أجر، فلم يحتج إلى أن يقول به، ولا إلى تبيينه، وأما قوله: **(من الفضل العميم،)** فبيان لما المستفادة من العطف، **(قال اللّه تعالىٰ: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾)**.

قال ابن عطية: معناه يكتبون سطورًا، فإن أراد الملائكة، فهو كتب الأعمال وما يوزن به، وإن أراد بني آدم، فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها، **(﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾،)** أي: انتفى الجنون عنك بسبب إنعام ربك عليك بالنبوة وغيرها، وهذا رد لقولهم: إنه مجنون، **(﴿وإن لك لأجرًا﴾)** ثوابًا **(﴿غير ممنون﴾)** منقطع، **(﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾)** [القلم/١] الآية، أتى بعلى إشارة لاستعلائه عليه، لكونه مجبولاً عليه بغير تكلف، **(﴿ن﴾ من أسماء الحروف كـ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿ق﴾، واختلف فيها، فقيل هي أسماء للقرآن)** قاله مجاهد: رواه ابن جرير وقتادة، ورواه عبد بن حميد، أي: أن فاتحة كل سورة ابتدأت بنحو هذه الأحرف اسم للقرآن بتمامه ولذا أخبر عنها بالكتاب في قوله: الىر، كتاب أنزلناه، والقرآن في قوله: ﴿آلر، تلك آيات الكتاب وقرءان مبين﴾ [الحجر/١].

(وقيل أسماء للسور،) وهو قول أكثر المتكلمين، واختيار الخليل وسيبويه، قاله الإمام الرازي، وقد نقض هذا القول بأمور أحسنها أن أسماء السور توقيفية، ولم يرد مرفوعًا ولا موقوفًا عن أحد من الصحابة، ولا التابعين أن هذه أسماء للسور، فوجب إلغاء هذا القول ونقضه الرازي؛ بأنها لو كانت أسماء لها لوجب اشتهارها بها، وقد اشتهرت بغيرها، كسورة البقرة وآل عمران، **(وقيل أسماء للّه،)** قاله ابن عباس.

يا ﴿كهيعص﴾ [مريم/١]، يا ﴿حم عسق﴾ [الشورى/١، ٢]، كما قيل، ولعله أراد يا منزلهما.

وقيل: إنه سر استأثر اللّٰه بعلمه، وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين اللّٰه ورسوله، لم يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب من اللّٰه بما لا يفيد.

أخرجه ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي، بإسناد صحيح، (**ويدل عليه؛ أن عليًا رضي اللّٰه عنه كان يقول: يا ﴿كهيعص﴾ يا ﴿حم عسق﴾**).

أخرجه ابن ماجه في تفسيره عن فاطمة بنت علي بن أبي طالب إنها سمعته يقول: يا كهيعص إغفر لي، (**كما قيل:**) إن قول علي ذلك يدل على أنها أسماء اللّٰه، (**ولعله أراد يا منزلهما**،) كما قال البيضاوي، فلا يدل على ذلك، قال السيوطي: يرده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله: (﴿**كهيعص**﴾)؛ أن معناه يا من يجير ولا يجار عليه، ومثله ما أخرجه عن أشهب، قال: سألت مالكًا أينبغي لأحد أن يسمى بيس، قال: لا، يقول اللّٰه: (﴿**يس والقرءان الحكيم**﴾،) يقول هذا اسمي تسميت به.

وكذا حديث: إن أتيتم الليلة، فقولوا: حم ولا ينصرون، (**وقيل: إنه سر**،) أي: أمر خفي (**استأثر اللّٰه بعلمه**).

أخرجه أبو الشيخ وابن المنذر عن داود بن أبي هند، قال: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور، فقال: يا داود إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فواتحه، فدعها وسل عما بدا لك.

(**وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة**،) فحكاه الثعلبي وغيره عن أبي بكر وعلي وكثير، وحكاه السمرقندي عن عمر وعثمٰن وابن مسعود، ونقله الرازي عن ابن عباس (**ما يقرب منه**).

وحكاه القرطبي عن الثوري والربيع بن خيثمة وابن الأنباري وأبي حاتم وجماعة من المحدثين، وأختاره ومال إليه الرازي، (**ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين اللّٰه ورسوله لم يقصد بها إفهام غيره**،) لا أنه أمر انفرد بعلمه تعالى، كما قد يقتضيه لفظ استأثر، (**إذ يبعد الخطاب من اللّٰه**) لرسوله (**بما لا يفيد**،) وهذه عبارة البيضاوي في أول البقرة وما ترجاه، جزم به العلم السخاوي، فقال: المروي عن الصدر الأول في التهجي أنها أسرار بين اللّٰه وبين نبيه صلوات اللّٰه عليه، وقد يجري بين المحترمين كلمات معميات، تشير إلى سر بينهما، وتفيد تحريض الحاضرين على استماع ما بعد ذلك، وهذا معنى على قول السلف: حروف التهجي ابتلاء لتصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين، هذا وهي أعلام توقظ من رقدة الغفلة بنصح التعليم، وتنشط

وهل المراد بقوله هنا: ﴿ن﴾ اسم الحوت، وهل المراد به الجنس أو اليهموت وهو الذي عليه الأرض.

وقيل: المراد به الدواة وهو مروي عن ابن عباس، ويكون هذا قسمًا بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتارة بالكتابة.

قيل: إن «نون» لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به اللَّه. رواه معٰوية بن قرة مرفوعًا.

في إلقاء السمع على شهود القلب للتعظيم. انتهى.

(**وهل المراد بقوله هنا** (**﴿ن﴾ اسم الحوت**) أو غيره فيه خلاف، فحذف عديل هل لعلمه من قوله الآتي، وقيل: المراد الدواة، (و) على القول بأنه الحوت (**هل المراد به الجنس،**) يعني، أي: حوت كان (**أو اليهموت، وهو الذي عليه الأرض،**) وبهذا علم سقوط دعوى زيادة هل الثانية.

(**وقيل/المراد به الدواة،**) علله البيضاوي؛ بأن بعض الحيتان يستخرج منه شيء أشد سوادًا من الحبر يكتب به، (**وهو مروي عن ابن عباس**) وقتادة والضحاك.

قال ابن عطية: فهذا إما أن يكون لغة لبعض العرب أو تكون لفظة أعجمية عربت، وقال الشاعر:

إذا ما الشوق برح بي إليهم ألقت النون بالدمع السجوم

فمن قال إنه اسم الحوت جعل القلم الذي خلقه اللّه وأمره بكتب الكائنات، وجعل ضمير يسطرون للملائكة، ومن قال اسم للدواة جعل القلم هذا المتعارف بين الناس، ونصر ذلك ابن عباس، وجعل الضمير في يسطرون للناس، (**ويكون هذا قسمًا بالدواة والقلم**) الذي يكتب به، (**فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق، وتارة بالكتابة،**) وفي ابن عطية، فجاء القسم على هذا بمجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان وفطنة الفطنة ونعمة من اللّه عامة. انتهى.

(**قيل: إن نون،**) بالفتح بلا تنوين اسم أن، أو بالسكون على الحكاية، وقرىء ن بالفتح والكسر، كص (**لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به اللّه، رواه معٰوية بن قرة**) (بضم القاف وشد الراء) ابن إياس بن هلال المزني أبو إياس البصري، التابعي، الثقة، من رجال الجميع، مات سنة ثلاث عشرة ومائة، وهو ابن ست وسبعين سنة، (**مرفوعًا،**) مرسلاً، (و على المروي عن

وأقسم اللَّه تعالى بالكتاب وآلته هو القلم الذي هو إحد آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به بمصالح العباد في المعاش والمعاد، وأقام به في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظًا تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيبًا يبرىء بإذن باريه من أنواع الألم على تنزيه نبيه ورسوله محمد المحمود في كل أقواله وأفعاله مما عمصته أعداؤه الكفرة به، وتكذيبهم له بقوله

ابن عباس؛ أن المراد به الدواة، فقد (**أقسم تعالىٰ بالكتاب،**) أي: بمجموع أمر الكتاب، كما مر عن ابن عطية، وهو الدواة (**وآلته**) أي: الكتاب بمعنى المكتوب (**هو القلم،**) وأبعد من قال، أي: في قوله: ﴿حم والكتاب المبين﴾ [الزخرف/١]، وفي قوله: ﴿يس والقرءان الحكيم﴾، لأن بقية السياق ترده، وأقواه قوله على تنزيه نبيه بقوله: ما أنت (**الذي هو أحد آياته،**) هذا لا يظهر على قوله السابق بالدواة والقلم...الخ.

نعم هو ظاهر على أنه الذي خط في اللوح، لكن قد علمت أن ابن عطية إنما فرعه على أن ن اسم للحوت، وإن من قال: اسم للدواة جعل القلم هذا المتعارف، (**وأول مخلوقاته**) في أحد القولين، والأصح أن للعرش خلق قبله، كما مر، (**الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي،**) أي: بالقلم لا بالمعنى السابق الذي كتب به الوحي بين يدي النبي ﷺ، ففيه استخدام، ويحتمل رجوعه إليه بالمعنى الأول على ضرب من المجاز، بأن يراد بالوحي الموحى، أي: كتب به الموحى، ويؤيد الاستخدام قوله، (**وقيد به الدين،**) أي: حفظه بكتابة ما يدل عليه، (**وأثبت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش**) والمعاد، فإن هذه كلها صفات للقلم الذي يخط به الناس، لا سيما قوله، (**وأقام به في الناس أبلغ خطيب**) بكتابه ما حصل للخطيب به الرفعة على غيره، واتصافه بقوله، (**وأفصحه وأنفعه لهم، وأنصحه وواعظًا، تشفي مواعظه القلوب من السقم**)، وبالجملة فقد لفق المصنف بين القولين في القلم، (**وطبيبًا يبرىء**) بضم التحتية وبالهمز من أبرىء اللَّه من المرض (**بإذن باريه**)، أي: الذي يبري القلم للكتابة به، والياء أصلية أو منقلبة عن واو، لأن في المصباح بريت القلم بريًا من باب رمي، فهو مبري، وبروته لغة (**من أنواع الألم**،) أي: المرض، وذكر صلة قوله: وأقسم (**على تنزيه نبيه ورسوله محمد المحمود،**) الممدوح (**في كل أقواله وأفعاله،**) وهو من أسمائه ﷺ (**مما عمصته**) (بفتح العين المعجمة وكسر الميم وفتحها وفتح الصاد مهملة ومعجمة): احتقرته وعابته (**أعداؤه الكفرة**).

وقال ابن حبيب في غريب الموطأ: الغمص، بضاد معجمة تصغير النعمة وتحقيرها،

تعالى: ﴿**ما أنت بنعمة ربك بمجنون**﴾ [القلم/٢].

وكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة عن معارضته، وكلّت عن مماثلته، وعرّفهم عن الحق بما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألباء، وتلاشت في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائعة مختارة، فهو الذي يكمل عقولها كما تكمل الطفل برضاع الثدي.

ثم أخبر تعالى عن كمال شريعة نبيه في دنياه وآخرته فقال: ﴿**وإن لك لأجرًا غير ممنون**﴾ أي: ثوابًا غير منقطع، بل هو دائم، ونكر الأجر للتعظيم، أي

وبصاد مهملة إذا صغر الناس وازدرى بهم، واستحسن هذا الفرق بعد أن قال أنهما سواء، الآية، (**وتكذيبهم له**) بالجر، عطف على ما، أي: نزهه عن تكذيبهم له، وهو واقع (**بقوله تعالىٰ**: (﴿**ما أنت بنعمة ربك بمجنون**﴾،) لأن معنى الآية بسبب أنه تعالىٰ أنعم عليك بكمال العقل والمعرفة، فأفادت تنزيهه عن الكذب، وأن تكذيبهم له كلا تكذيب لعدم الاعتداد به مع قيام الدليل على خلافه، (**وكيف يرمى بالجنون**،) استفهام إنكاري، وهو أن يكون ما بعد أداته غير واقع، ومدعيه كاذبًا، (**من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة**،) أي: جميعًا (**عن معارضته، وكلت**:) أعيت وعجزت (**عن مماثلته، وعرفهم عن الحق**) سبحانه (**بما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت**): انقادت (**له عقول العقلاء**)، ولم تستعص عليه، (**وخضعت**): ذلت (**له ألباب**): جمع لب، بزنة قفل وأقفال (**الألباء**:) جمع لبيب، بزنة أشحاء وشحيح، أي: عقول وأصحاب العقول الراجحة، (**وتلاشت**،) أي: خست حتى صارت بمنزلة العدم (**في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان**)، عطف خاص على عام لأنه انقياد بلا استعصاء، بخلاف مطلق الانقياد، فقد يكون معه استعصاء، (**طائعة مختارة، فهو الذي يكمل**) (بشد الميم المكسورة) (**عقولها كما تكمل الطفل برضاع الثدي، ثم**). بعد أن نزهه وبرأه، (**أخبر تعالىٰ عن كمال شريعة نبيه في دنياه وآخرته**،) لفظ الشفاء، ثم أعلمه سبحانه، بما له عنده من نعيم دائم وثواب غير منقطع، لا يأخذه العد، ولا يمن به عليه، (**فقال**،) بالفاء لتفرعه على ما قبله من الأخبار، أو تفصيل له في الجملة، ﴿**وإن لك لأجرًا غير ممنون**﴾، وعطفه أولاً بثم، إشارة إلى بعد ما بين الأمرين، تعبه السريع الانقطاع، ونعيمه الدائم، الواقع في مقابلة تكذيبهم له، والأجر المضاف على عمله، وصبره على طعنهم ورميهم بما لا يليق، ففيه تسلية له ﷺ، كأنه قيل: لا تحزن، فقد تبين كذبهم بداهة، فلا نقص يعود عليك مما قالوه، فلك نعيم مؤبد في مقابلته،

أجرًا عظيمًا لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى عليه بما منحه فقال: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾** وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرءان» ومن ثم قال ابن عباس وغيره: أي على دين عظيم، وسمى الدين خلقًا لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية. وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقًا حسنة هي

ولصبر على الشدائد والمقاساة في التبليغ، ففيه تثبيت وتخصيص، **(أي: ثوابًا)** تفسير لأجرًا **(غير منقطع، بل هو دائم)** تفسير قوله ﴿غير ممنون﴾.

وفي ابن عطية اختلف في معنى ممنون، فأكثر المفسرين أنه الواهن المنقطع، وقيل: ضعيف، وقيل: غير ممنون عليك، أي: لا يكدره من به، وقال مجاهد: معناه غير مضر ولا محسوب، أي: بغير حساب. انتهى.

(ونكر الأجر للتعظيم، أي: أجرًا عظيمًا، لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير) المتعارف للناس، أي: يقصر عن أدائه لكثرته، وأتى بتأكيدات أربع للاهتمام والتقرير والإنكار وزيادته، فأكد المجموع بالمجموع، أو هي موزعة على ما ذكروا، إن لم يكن ﷺ منكرًا، لأنه قد يراعي حال السامع، كما في التعريض، **(ثم أثنى عليه)** مدحه **(بما منحه:)** أعطاه من مواهبه السنّية، **(فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾)** [القلم/٤] الآية، مؤكدًا بأن مع القسم واللام واسمية الجملة تتميمًا للتعظيم، **(وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: كان)** أحسن الناس خلقًا كان **(خلقه القرآن؛)** يرضي لرضاه، ويغضب لغضبه، لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ثم قالت: ﴿إقرأ قد أفلح المؤمنون﴾، إلى العشر، فقرأ السائل، فقالت: هكذا كان خلقه ﷺ.

أخرجه ابن أبي شيبة وغيره مطولاً، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود، عنها بلفظ: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه، **(ومن ثم قال ابن عباس وغيره:)** تفسيرًا لقوله على خلق، **(أي: على دين عظيم وسمي الدين خلقًا، لأن الخلق)** الحسن **(هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية،)** صالحة نامية، **(وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل:)** الإنصاف **(والحكمة،)** وهي تحقيق العلم واتقان العمل، وتطلق على أمور، **(والمصلحة)** التي يقتضيها، **(وأقوال مطابقة للحق)** لا كذب فيها أصلاً، **(تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات،**

أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها. وهذه كانت أخلاقه ﷺ المقتبسة من القرءان، فكان كلامه مطابقًا للقرءان تفصيلاً وتبيينًا، وعلومه علوم القرءان، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندبه إليه القرءان، وإعراضه وتركه لما منع القرءان، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته فيما كرهه، فيه ومحبته فيما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، فترجمت أم المؤمنين عائشة لكمال معرفتها بالقرءان وبالرسول، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: «كان خلقه القرءان»، وفهم السائل عنها هذا المعنى فاكتفى به واشتفى.

ولما وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم قال: ﴿فستبصر ويبصرون، بأيكم

فتكتسب النفس بها أخلاقًا حسنة، هي أزكى:) أنمى **(الأخلاق وأشرفها وأفضلها،)** عطف تفسير، وهذا كله بيان للمراد بالخلق الحسن في استعمالهم، وهي آثار تترتب عليه، إذ الخلق الطبيعة، وهذه الكمالات ليست نفس الطبيعة، وتكون حسنة وقبيحة.

قال ابن الأثير: الخلق (بضم اللام وسكونها) الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافه، ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، **(وهذه)** الأخلاق الحميدة **(كانت أخلاقه ﷺ المقتبسة،)** أي: المأخوذة **(من القرءان فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلاً وتبيينًا،)** تفسيري، **(وعلومه علوم القرآن،** و كانت **(إرادته وأعماله ما أوجبه،)** طلبه طلبًا جازمًا، **(وندبه)** طلبه طلبًا غير جازم **(إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع القرآن)** منه، **(ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته فيما كرهه)** بخفة الراء، ليناسب قوله بعد أحبه **(فيه ومحبته فيما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، فترجمت أم المؤمنين عائشة، لكمال معرفتها بالقرءان وبالرسول، وحسن)** فعل ماضٍ عطف على فترجمت **(تعبيرها،)** أو هو بضم الحاء وسكون السين والجر عطف على لكمال والأول أظهر **(عن هذا كله، بقولها: كان خلقه القرآن، وفهم السائل عنها هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى)** من داء الجهل، بمعنى أنه زال ما كان عنده من التوقف الحامل على السؤال، حتى كأنه برىء من دائه، ومر مزيد لشرح هذا في الفصل الثاني من المقصد الثالث.

(ولما وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم، قال) مسليًا له عما قالوه في حقه بما وعده من عقابهم وتوعدهم: **(﴿فستبصر ويبصرون﴾)**. [القلم/٥].

المفتون﴾ أي فسترى يا محمد وسيرى المشركون كيف عاقبة أمرك، فإنك تصير معظمًا في القلوب، ويصيرون أذلاء مغلوبين وتستولي عليهم بالقتل والنهب.

الفصـل الثانـي

في قسمه تعالـى علـى ما انعم به علـيه واظهره من قدره العلـي لديه

قال اللّه: **﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلـى﴾** السورة [الضحى/ ١- ٣].

قال أبو عثمان المازني: هنا تم الكلام، واستأنف قوله: (**﴿بأيكم المفتون﴾**) [القلم/٦]. الآية.

قال الأخفش: بل هو عامل في الجملة المستفهم عنها في معناها، أي: أيكم الذي فتن بالجنون والباء زائدة، قاله قتادة وأبو عبيدة معمر.

وقال الحسن والضحاك: المفتون بمعنى الفتنة، فالمعنى بأيكم الجنون، على أن المفتون مصدر كالمعقول، أي: العقل.

وقيل: المعنى بأي: الفريقين منكم المجنون، أبفريق المؤمنين أو بفريق الكافرين أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهذا معنى قول الأخفش: المعنى بأيكم فتنة المفتون.

قال ابن عطية: وهذا قول حسن، قليل التكلف، (**أي: فسترى يا محمد، وسيرى المشركون كيف عاقبة أمرك، فإنك تصير معظمًا في القلوب، ويصيرون أذلاء**:) جمع ذليل، (**مغلوبين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب**،) تفسير لقوله: **﴿فستبصر ويبصرون﴾**.

(الفصل الثاني)

(**في قسمه تعالىٰ على ما أنعم به عليه**)، الأظهر على إنعامه، كما عبر به قريبًا، لأن ما فعله اللّه مع رسوله هو حقيقة الأنعام وما قام به ﷺ هو المنعم به إلا أن يقال أنه من حيث صدوره عن اللّه تعالىٰ فيساوي ما بعده، (**وأظهره من قدره العلي لديه**) عنده.

(**قال اللّه تعالى: ﴿والضحى * والليل إذا سجى﴾**) [الضحى/١]، معناه سكن واستقر ليلاً تامًا، وقيل: معناه أقبل، وقيل: أدبر وأقبل، والأول أصح، يقال: بحر ساج، أي: ساكن، ومنه قول الأعشى:

وما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم ... وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

وطرف ساج إذا كان ساكنًا غير مضطرب النظر، قاله ابن عطية، والمراد سكون الأصوات

أقسم اللّٰه تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

أو أصحابه ﴿ما ودعك﴾ قرأ الجمهور بشد الدال من التوديع، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام، بتخفيف الدال بمعنى تركك.

وكذا قرأ مقاتل وابن أبي عيلة، وفي الحديث: لينتهن قوم عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن اللّٰه على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين، أخرجه مسلم وغيره، ولينتهن (بضم الياء التحتية وفتح الفوقية والهاء)، ليدل على واو الضمير المحذوفة، إذ أصله لينتهونن، وفي الحديث أيضًا: شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره، وقال الشاعر:

فكان ما قدموا لأنفسهم أعظم نفعًا من الذي ودعوا

فلا عبرة بزعم النحاة؛ أن العرب أماتت ماضي يدع، ومصدره واسم الفاعل استغناء بترك، لوروده عن سيد الفصحاء قراءة وحديثًا للماضي، ومصدرًا في الحديث الصحيح، وفي شعر العرب، وما هذا سبيله يجوز القول بقلة استعماله، ولا يجوز القول بالإماتة.

وقال الطيبي يحمل كلام النحاة على قلة استعماله مع صحته قياسًا، لكن قال السيوطي: روى الطبراني الحديث بإسناد حسن، بلفظ: لينتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة، لا يأتونها، أو ليطبعن اللّٰه على قلوبهم، فعلم أن الرواية الأولى من تغيير الرواة، لا من لفظ النبوة اهـ، الآية، فإن سلم له ذلك، فكيف يصنع في القراءة والبيت العربي، مع أن أصل هذا الكلام التابع فيه لأبي حيان، مردود بأنه يرفع الوثوق بالحديث أصلاً، إذ كل لفظة يحتمل أنها من تغيير الرواة، فالوجه الجمع بأن يكون ﷺ نطق باللفظين، ويؤيده اختلاف المخرج (﴿ربك وما قلى﴾،) أي: ما أبغضك، **(السورة)** بالنصب بتقدير إقرأ أو أذكر، **(أقسم اللّٰه تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له،)** أي: توقيره واللطف به، **(وإعطائه ما يرضيه)** في الدارين، **(وذلك متضمن لتصديقه له)** في دعواه: الرسالة، **(فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد)** جميعًا من قوله، والآخرة خير بناء على أن المراد بها القيامة.

قال ابن عطية: يحتمل أن يريد الدنيا والآخرة، وهذا تأويل ابن إسحٰق وغيره، ويحتمل أن يريد حالته في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها، فوعده اللّٰه على هذا التأويل بالنصر والظهور. انتهى.

وأقسم اللّٰه تعالى بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته ووحدانيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وفسر بعضهم ـ كما حكاه الإمام فخر الدين ـ الضحى بوجهه ﷺ والليل بشعره، وقال: ولا استبعاد فيه.

وتأمل مطابقة هذا القسم فيه، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة

وقيل أحوالك الآتية خير من السابقة في الدارين، (**وأقسم اللّٰه تعالىٰ بآيتين عظيمتين من آياته**)، كما قال: ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ [فصلت/٣٧]، (**دالتين على ربوبيته ووحدانيته وحكمته ورحمته**،) بيان لكونهما من الآيات، (**وهما الليل**،) بقوله: ﴿والليل إذا سجى﴾ والنهار، بقوله: ﴿والضحى﴾ ففسره بقول قتادة الضحى هنا النهار، وكله وأيد بقوله أن يأتيهم بإسناد ضحى في مقابلة بياتاً، وهو مجاز، إذ الضحى ارتفاع الضوء وكماله وبه فسر مجاهد، فخصه لأن النهار يقوي فيه، أو كلم اللّٰه موسىٰ فيه، وألقي السحرة سجدًا، (**وفسر بعضهم كما حكاه الإمام فخر الدين الضحىٰ بوجهه** ﷺ، **والليل بشعره**،) وعليه فمعنى ﴿إذا سجى﴾ اشتد سواده، وظهر بزوال غبار نحو السفر عنه، ففيه استعارة.

(**وقال**) الرازي: (**ولا استبعاد فيه**،) لأن وجهه ﷺ كان شديد النور، بحيث يقع نوره على الجدر إذا قابلها، وكأن الشمس تجري في وجهه، وكان شعره شديد السواد، فلا يبعد إطلاق الضحى والليل عليهما، لكن حيث كان ذلك مجازًا احتاج إلى قرينة تصرف معناهما عن الحقيقة، إلا أن يقال: إن قائل ذلك استند إلى قرينة حالية وقت نزول الآية، (**وتأمل مطابقة هذا القسم فيه وهو نور الضحى**،) مشعر بأنه آثره لشدة ضوئه، فهو إشارة للقول الآخر (**الذي يوافي**،) يأتي (**بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه**،) أي: أتاه (**بعد احتباسه عنه**) مدة خمسة عشر يومًا لما قال: أخبركم غدًا، ولم يقل إن شاء اللّٰه حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: قد قلاه ربه وتركه، قاله ابن عباس عند ابن إسحٰق، وقال مجاهد: إثنا عشر، وقال التيمي وابن عطية: وإنما أبطى عليه ثلاثة أيام، وقيل أربعة، وقيل أربعين، (**حتى قال أعداؤه**) المشركون: (**ودع محمدًا ربه**،) والصحيح في سبب نزولها ما في الصحيحين وغيرهما، عن جندب بن عبد اللّٰه، قال اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل اللّٰه تعالىٰ: ﴿والضحى والليل إذا سجىٰ ما ودعك ربك وما قلى﴾ وهذه المرأة هي العوراء بنت حرب امرأة أبي لهب، رواه الحاكم برجال ثقات، عن زيد بن أرقم، وفي الصحيح أيضًا عن جندب، قالت امرأة: يا رسول اللّٰه ما أرى صاحبك إلا أبطأ

احتباسه واحتجابه.

وأيضًا فإن الذي اقتضته رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم لا يتركهم في ظلمة الغي والجهل بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم بالمقسم عليه.

وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي في معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع: الترك، والقلى: البغض،

عنك فنزلت: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾، قال الحافظ: هي زوجته خديجة، كما في المستدرك وغيره، فخاطبته كل واحدة منهما بما يليق بها، والعوراء قالته شماتة، وخديجة توجعًا، وقصة إبطاء الوحي بسبب الجر ومشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ، مردود بما في الصحيح، وتقدم لهذا مزيد قريبًا، (**فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي، ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه**،) فهذه مناسبة بين القسم والمقسم عليه، (**وأيضًا**) مناسبة أخرى، (**فإن الذي اقتضته رحمته**،) الذي امتن بها في قوله: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه﴾ [القصص/٧٣]، (**أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا**) إلى يوم القيامة، (**بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم**،) كما قال: ولتبتغوا من فضله، (**لا يتركهم في ظلمة الغي والجهل، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم**، **فتأمل حسن ارتباط القسم بالمقسم عليه**) بكل من المناسبتين، (**وتأمل هذه الجزالة**) العظمة والحسن، (**والرونق**) الحسن، فهو مساوٍ حسنه اختلاف اللفظ.

ولذا قال: (**الذي على هذه الألفاظ**) اقتصارًا على وصف الرونق المساوي لما قبله معنى، حتى كأنهما اسم واحد، (**والجلالة**:) العظمة (**التي في معانيها**) لكثرتها مع وجازة لفظها، (**ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه**،) أي: قطعه قطع المودع، وقرىء بالتخفيف، أي: تركك كما في الأنوار، (**أو قلاه**) أبغضه، (**فالتوديع الترك**،) لعله بيان المراد من الآية إذ الترك معنى الوداع مخففًا، وأما بالتثقيل، فتشييع المسافر، كما في اللغة، ولذا غاير البيضاوي في تفسير القراءتين كما رأيت، لكن في النسيم الوداع له معنيان في اللغة الترك وتشييع المسافر، وكلهم فسروه بالترك، ولما رأوا صيغة التفعيل تفيد زيادة المعنى، والمبالغة فيه تقتضي الانقطاع التام، قالوا: المبالغة في النفي لا في المنفي، أو النفي القيد، والمقيد ويجوز أن يفسر بتشييع المسافر

أي: ما تركك منذ اعتنى بك، وما أبغضك منذ أحبك، وحذف «الكاف» من «قلى» اكتفاء بكاف ودعك، ولأن رءوس الآيات بالياء فأوجب اتفاق الفواصل حذفها.

وهذا يعم كل أحواله، وإن كان حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة هي خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقربه به عينه وتفرح به نفسه،

على طريق الاستعارة، ففيه إيماء إلى أن اللّه تعالىٰ لم يتركه أصلاً، فإنه معه أينما كان، وإنما الترك لو تصور من جانبه ظاهر مع دلالته بهذا المعنى على الرجوع والتوديع، إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده، وإليه أشار الجرجاني، بقوله:

إذا رأيت الوداع فاصبر ولا يهمنك البعاد

وانتظر العود عن قريب فإن قلب الوداع عادوا

فقوله: ﴿وما قلى﴾، مؤكد له، وهذا لم أرَ من ذكره مع غاية لطفه، **(والقلى)** (بكسر القاف والقصر)، وقد يمد **(البغض،)** مصدر قلي بوزن رمى، **(أي: ما تركك منذ اعتنى بك،)** وهو من أول أمره تفسير ما ودعك، **(وما أبغضك منذ أحبك،)** تفسير للقلا، وفي الشفاء، أي: ما تركك وما أبغضك وقيل ما أهملك بعد أن اصطفاك وزعم شارحه أن المشهور الثاني واختار الأول لمناسبته لما قبله، والإهمال عدم التقيد مع الترك، فهو ترك مخصوص **(وحذف الكاف من قلى اكتفاء بكاف ودعك)** فهو اختصار للعلم به، **(ولأن رؤس الآي بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذفها،)** ولئلا يخاطبه بالبغض، وإن كان منفيًا، أو ليطعمه وأصحابه وأمته، واستحسن، **(وهذا يعم كل أحواله، وأن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها،)** إذ كأنه قيل: ما ودعك لبغض، وسترى منزلتك، ففيه إفادة الترقي في الأحوال في الدنيا، **(كما أن الدار الآخرة هي خير له مما قبلها،)** كما قال: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾، واللام للابتداء مؤكدة، أو جواب قسم، ففيه تعظيم آخر، أي: كما أعطاك في الدنيا يعطيك في الآخرة مما هو أعلى وأكثر، فلا تبال بما قالوه، فهو وعد فيه تسلية بعدما نفي عنه ما يكره، فهو تحلية بعد تخلية، **(ثم وعده)** بقوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾، **(بما تقر)** (بفتح القاف الفوقية) **(به عينه،)** أي: تسكن (وبتحتية أوله وشدة القاف مكسورة ونصب عينه)، يقال: قرت العين وأقر اللّه العين.

قال في فتح الباري: قرة العين يعبر بها عن المسرة ورؤية ما يحبه الإنسان ويوافقه، لأن عينه قرت، أي: سكنت حركاتها عن التلفت لحصول غرضها، فلا تتشوف لشيء آخر، فكأنه مأخوذ من القرار، وقيل: معناه أنام اللّه عينك، وهو يرجع إلى هذا، وقيل: بل هو مأخوذ من القر، وهو البرد، أي: أن عينه باردة لسروره ولذا قيل: دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، ومن ثم

ويشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى. وهذا يعم ما يعطيه من القرءان والهدى والنصر والظفر بأعدائه يوم بدر وفتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجًا، والغلبة على بني قريظة والنضير، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وما قذف في قلوب أعدائه من الرعب، ونشر الدعوة، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه

قيل في ضده: أسخن اللّه عينه، **(وتفرح)** (بفتح الراء مع فتح أوله فوقية وبضمه تحتية مع كسر الراء) **(به نفسه:)** يسرها ويرضيها، والفرح لذة القلب بنيل ما يشتهي ويتعدى (بالهمزة والتضعيف)، **(ويشرح به صدره:)** يوسعه ويملؤه نورًا، **(وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن)** النازل عليه بعد هذه الآية، **(والهدى والنصر:)** العون والتقوية، **(والظفر بأعدائه،)** يقال: ظفر بعدوه، وأظفرته به وأظفرته عليه، بمعنى وأصله الفوز والفلاح **(يوم بدر)** بقتل سبعين وأسر سبعين، **(وفتح مكة،)** وحل القتال له فيها ساعة من نهار، وصار أعظم أهلها عليه أحوجهم إليه، **(ودخول الناس في الدين،)** دين اللّه **(أفواجًا:)** جماعات، بعدما كان يدخل فيه واحدًا بعد واحد، وذلك بعد فتح مكة، جاءه العرب من أقطار الأرض طائعين، **(والغلبة على بني قريظة،)** بقتل رجالهم وسبي ذريتهم ونسائهم، **(والنضير،)** بإجلائهم وجعلها خالصة له، **(وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب،)** وفي غيرها، كبعث زيد والأمراء إلى موتة من أرض الشام، وبعث أسامة ابنه بعد ذلك إلى محل قتل أبيه، فخرج بعد الوفاة النبوية، فنصره الله وقتل قاتل أبيه، فاقتصر على العرب لكثرتها فيها، **(وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن،)** ففتح في أيام الصديق بصرى ودمشق وبلاد حوران وما والاها، ثم في أيام عمر البلاد الشامية كلها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى، وفر إلى أقصى مملكته، وفر هرقل إلى القسطنطينية، ثم في زمن عثمان مدائن العراق وخراسان والأهواز، وبلاد المغرب كلها، ومن المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، ومزق ملكه بالكلة، ثم امتدت الفتوحات بعده إلى الروم وغيرها، ولم تزل تجدد إلى الآن وللّه الحمد، وقد فتح ﷺ المدينة بالقرآن، وخيبر ومكة والبحرين وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكاملها وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل والمقوقس وملوك عمان، والنجاشي الذي ملك بعد أصحمة، **(وما قذف في قلوب أعدائه من الرعب)** مسيرة شهر من كل جهة، لأنه لم يكن بينه وبين أعدائه أكثر من شهر، **(ونشر الدعوة،)** تفرقها وعمومها للخلق، **(ورفع ذكره،)** فلا يذكر اللّه إلا ويذكر معه ﷺ، **(وإعلاء كلمته)** على كل كلام، فهذا كله مما أعطاه له في الدنيا، **(وما يعطيه بعد مماته)** من الرحمات النازلات على قبره، والرضوان الذي لا يتناهى لدوام ترقياته ومضاعفة أعماله

في موقف القيامة من الشفاعة والمقام المحمود، وما يعطيه في الجنة من الوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر.

وقال ابن عباس: يعطيه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابها المسك وفيها ما يليق بها.

وبالجملة: فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه عليه الصلاة والسلام كل ما يرضيه.

وأما ما يفتريه الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهو من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه

فيه، فإنه حي يصلي في قبره بأذان وإقامة، وله ثواب أعمال أمته مضاعفًا، **(وما يعطيه في موقف القيامة من الشفاعة،)** أي: جنسها، فيشمل الشفاعات الخاصة به كلها، **(والمقام المحمود)** هو مقام الشفاعة العظمى، الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، أو كل مقام يتضمن كرامة محمودة، وعلى هذا يكون بمعنى ما قبله، **(وما يعطيه في الجنة، من الوسيلة)** أعلى منزلة في الجنة فقوله ﴿**والدرجة الرفيعة**﴾، عطف تفسير، **(والكوثر)** نهر في الجنة، أعطانيه ربي، كما صح عنه ﷺ، فلا معدل عنه.

(وقال ابن عباس:) في تفسير هذه الآية **(يعطيه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابها المسك، وفيها ما يليق بها)** من الأزواج والخدم.

رواه ابن جرير وغيره، ومثله لا يقال إلا عن توقيف، فهو في حكم المرفوع، وهذا تفصيل بعض ما أعطاه، **(وبالجملة فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه عليه الصلاة والسلام كل ما يرضيه)** مما لا يعلمه على الحقيقة إلا هو، **(وأما ما يفتريه،)** بفاء من الافتراء، أي: الكذب، أو بالغين المعجمة، وبعد الراء موحدة من الغرور، وهذا أولى وإن كان ظاهر سياقه الأول، **(الجهال من أنه لا يرضى، وواحد من أمته في النار،)** روى الديلمي في الفردوس عن علي، قال: لما نزلت قال ﷺ: إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية موقوفًا على علي، قال: في قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾، قال: ليس في القرآن أرجى منها، ولا يرضى ﷺ أن يدخل أحد من أمته النار، وقوله ولا يرضى موقوف لفظًا، مرفوع حكمًا، إذ لا مدخل للرأي: فيه، **(أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار،)** كما روى عن علي موقوفًا، وحكمه الرفع، كما علم، **(فهو من غرور الشيطان،)** أي: خداعه **(لهم ولعبه بهم،)** حيث حملهم على الافتراء، أو على الغرور بما لم

صلوات الله عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه وتعالى يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله ﷺ حدًا يشفع فيهم ـ كما يأتي إن شاء الله تعالى في المقصد الأخير ـ ورسوله عليه السلام أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن تدخل أحدًا من أمتي النار أو تدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له ورضيه.

يفهموا معناه، (**فإنه صلوات الله عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالىٰ**) إذ رضاه تابع لرضاه، (**وهو سبحانه وتعالىٰ يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة**) المسلمين، (**ثم يحد**) (بضم الحاء) (**لرسوله ﷺ حدًا،**) أي: يقدر له جماعة، ويميزهم عن غيرهم، (**يشفع فيهم كما يأتي إن شاء الله تعالى في المقصد الأخير،**) فلا يدع أحدًا منهم، ولا يزيد على من أذن له في الشفاعة فيه، (**ورسوله عليه السلام أعرف به وبحقه من أن يقول لا أرضى أن تدخل أحدًا من أمتي النار، أو تدعه فيها،**) هذا ظاهر جدًا في أنه أراد أنه من الافتراء الكذب لا الغرور، (**بل ربه تبارك وتعالىٰ يأذن له، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له ورضيه،**) ومقام الرضا بما يريده الله، والتسليم مقام عظيم للسالكين، فكيف لا يكون لسيد المرسلين.

وقد رد العلامة الشريف الصفوي في شرح الشفاء، وتبعه في النسيم على المصنف، التابع لابن القيم بأنه جراءة وسوء أدب، والوجه توجيه الحديث لوروده بطرق وإن ضعفت، ولا يبعد أن يكون عذاب العصاة غير مرضي لله تعالىٰ، فلا يرضى به رسوله أيضًا لأن رضاه على وفق رضا ربه، والرضا بالمقضي قد يكون مذمومًا، فإذا لم يرض بعصيانهم ودخولهم النار، بعدهم رضا ربه به يدخلهم الله الجنة، ولو بالآخرة للوعد به، والرضا بفعل الله إنما يجب من حيث أنه فعل المولى الحكيم لا من حيث هو في ذاته، والمنفي في الحديث الثاني، فهو لا يرضى بدخول أحد من أمته النار من حيث هو في ذاته، لا من حيث أنه مراد الله، فلا إشكال أو الرضا مجاز عن ترك الطلب، أي: لا أترك طلب العفو وواحد من أمتي في النار، ولا يلزم منه عدم الرضا حقيقة، وكم طلب ﷺ لأمته أمورًا، وهو في مقام الرضا دائمًا، وإذا وعد بالرضا فلا بدّ من إدخالهم الجنة لا ترك الطلب، فافهمه فإنه دقيق، فلا ينبغي أن يجترىء أحد على إبطال الروايات بأوهام الشبهات، وهذا محصل ما في شرح المواقف من أن للكفر نسبة إلى الله، باعتبار فاعليته له وإيجاده، ونسبة إلى العبد، باعتبار محليته واتصافه به، وإنكاره باعتبار النسبة الثانية، والرضا باعتبار النسبة الأولى.

ثم ذكره سبحانه بنعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ وذهب بعضهم إلى أن معنى اليتيم من قولهم: درة يتيمة، أي: ألم يجدك

وقال بعض الشراح: يجوز أن المراد نفي الرضا بالدخول على وجه الخلود، وإنما قال: أن يدخل دون أن يخلد، قصد الإرادة نفي الرضا بالخلود على نهج المبالغة والاستدلال، أو أن المراد: ولا يرضى أن يعصي الله أحد من أمته، فعبر بالمسبب عن السبب إلا أن السياق يأباه انتهى.

أو لا يرضى دخولهم النار دخولاً يشدد عليهم العذاب، بل يكون خفيفًا، لا تسود وجوههم، ولا تزرق أعينهم، كما وردت به الأحاديث، فهو تعذيب كتأديب الحشمة، بل قال ﷺ: إنما حر جهنم على أمتي كحر الحمام.

أخرجه الطبراني، برجال ثقات عن الصديق، وللدارقطني في الأفراد عن ابن عباس، رفعه: أن حظ أمتي من النار، طول بلائها تحت التراب.

وفي تفسير السبكي: أطلقت الأمة وجوب الرضا بالقضاء، وشاع على ألسنة العلماء والعوام، وورد مرفوعًا: يقول الله: من لم يرض بقضائي، فليطلب ربًا سواي، وفي شامل إمام الحرمين، لم يثبت عندنا وجوب الرضا بالقضاء، فإن الإنسان إذا اعترته الآلام، واكتنفته الأسقام، لا يجب عليه في الدين أن يطمئن إليها ويرضى بها، ولا عليه أن يكرهها ويبدي قلقًا منها، يقول: لا ينطوي على اعتراض، قال: والخبر من الآحاد، لا تقوم به الحجة في القطعيات، ثم يعارضه استعادة النبي ﷺ من قضاء السوء. انتهى.

(**ثم ذكره**) بشد الكاف، أي: جعله (**سبحانه**) متذكرًا (**بنعمه عليه،**) أي: ذكره بتفصيلها أو تفضيلها بالضاد، وإن كان ذاكرًا لها، وكيف ينسى مثله، وقد قام حتى تورمت قدماه، وقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا.

وقال بعض الشراح: المراد إعلامه بما أنعم به عليه، أو لاشتغاله بتذكير النعم العظيمة المتجددة، أو النعم كلها على الإجمال، قد يغفل عن تفصيلها، أو التذكير بمعنى الوعظ، لئلا يغفل، نحو: فذكر بالقرآن (**من إيوائه**) إلى عمه أبي طالب، حتى كان عنده أعز من بنيه (**بعد يتمه،**) بموت أبيه وأمه حبلى به على الصحيح، وقيل: بعد أن ولد بقليل، (**فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾،**) من الوجود، بمعنى العلم (**﴿يَتِيمًا﴾**) مفعوله الثاني، أو المصادفة، ويتيمًا حال (**﴿فَآوَى﴾،**) بالمد وقرىء بالقصر بمعنى، رحم تقول أويت فلانًا، أي: رحمته، قاله ابن عطية، وقيل: معنى الآية أواه الله إلى نفسه، ولم يحوجه لحماية أحد وإيوائه، وهو بمعنى قول جعفر الصادق: يتم ﷺ لئلا يكون عليه حق لمخلوق، (**وذهب بعضهم إلى أن معنى اليتيم**) عديم

واحدًا في أرض قريش عديم النظير فآواك إليه وأغناك بعد الفقر.

ثم أمره سبحانه وتعالى أن يقابل هذه النعم الثلاثة بما يليق بها من الشكر فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فإن من شكر النعمة التحدث بها. وقيل المراد بالنعمة النبوة، والتحدث بها: تبليغها.

النظير (**من قولهم درة يتيمة،**) أي: لا نظير لها، وتسمى فريدة أيضًا لانفرادها عن نظائرها، (**أي: ألم يجدك واحدًا في أرض قريش،**) بل في جميع الخلق، (**عديم النظير، فآواك إليه**) لانتفاء من يكافئك أو يدانيك، بحيث تركن إليه.

قال التجاني: وهذا قول ضعيف، حكاه صاحب المشرع الروي، وجعله في الكشاف من بدع التفاسير، (**وأغناك بعد الفقر**).

قال ابن عطية: قال: مجاهد معناه بما أعطاك من الرزق، وقيل: فقير إليه، فأغناك به، والجمهور: على أنه فقر المال، لمعنى فيه ﷺ، أنه أغناه بالقناعة والصبر وحببا إليه، وقيل بالكفاف لتصرفه في مال خديجة، ولم يكن كثير المال، ورفعه الله عن ذلك، وقال: ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنه غنى النفس، (**ثم أمره سبحانه وتعالى أن يقابل هذه النعم الثلاث**) التي لم يشر المصنف إلى وسطاها، لأنه سيتكلم عليه في إزالة الشبهات (**بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم،**) بقوله: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾، في مقابلة﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾، (**وأن ينهر السائل،**) بقوله:﴿وأما السائل فلا تنهر﴾، معناه أن يرده ردًا جميلاً أما بعطاء أو بقول حسن، (**وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فإن من شكر النعمة التحدث بها،**) وبإظهار الملابس والمطاعم والمراكب ونحوها، فلذا أتى بمن التبعيضية.

وفي ابن عطية قوله: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ بإزاء، أي: مقابل ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾، على قول أبي الدرداء، والحسن وغيرهما.

إن السائل هنا السائل عن العلم والدين، بإزاء قوله: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾، وقوله: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، ومن قال السائل هو سائل المال، المحتاج، جعلها بإزاء ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾، وجعل ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ بإزاء ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾، (**وقيل المراد بالنعمة النبوة والتحدث،**) بالجر عطفًا على النعمة، أي: والمراد بالتحدث (**بها تبليغها**) للناس، وهذا قول مجاهد والكلبي.

وقال آخرون: بل هو عام في جميع النعم، وكان بعض الصالحين يقول: لقد أعطاني الله كذا، وصليت البارحة كذا، وذكرت الله كذا، فقيل له: مثلك لا يقول هذا، فقال: إن الله يقول: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، وأنتم تقولون: لا تحدث، وقال ﷺ: التحدث بالنعمة شكر، وقال: من أسديت إليه يدًا فذكرها، فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها، ذكره ابن عطية.

الفصل الثالث

في قسمه تعالى على تصديقه عليه الصلاة والسلام فيما اتى به من وحيه وكتابه وتنزيهه عن الهوى في خطابه

قال اللّه تعالى: ﴿والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم/ ١- ٣].

أقسم تعالى بالنجم على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي.

(الفصل الثالث)

في قسمه تعالى على تصديقه عليه الصلاة والسلام فيما أتى به من وحيه(مصدر بمعنى اسم المفعول)، فقوله: (**وكتابه**) خاص على عام، (**وتنزيهه عن الهوى في خطابه**) أي: نطقه، (**قال اللّه تعالى**: (﴿**والنجم إذا هوى**﴾)) أقسم اللّه تعالى بهذا المخلوق تشريفًا له وتنبيهًا للاعتبار به، حتى تؤل العبرة إلى معرفة اللّه تعالى، وقيل: المعنى: ورب النجم، وفيه قلق مع لفظ الآية (﴿**ما ضل صاحبكم وما غوى**﴾) والضلال يكون بلا قصد وألغي كأنه شيء يكتسبه ويريده (﴿**وما ينطق**﴾) صاحبكم (﴿**عن الهوى**﴾) [النجم/١]، أي: بهواه وشهوته، وقيل: ما ينطق القرآن المنزل عن هوى وشهوة، ونسب النطق إليه من حيث أنه يفهم منه الأمور، كما قال تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية/٢٩]، وأسند النطق إليه وإن لم يتقدم له ذكر لدلالة المعنى عليه.

ذكره ابن عطية: (**أقسم تعالى بالنجم على تنزيه رسوله، وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه**) الكفار (**من الضلال والغي**،) فنفى عنه أن يكون ضل في هذه السبيل التي أسلكه إياها.

قال الرازي والنسفي: أكثر المفسرين أن لا فرق بين الضلال والغي، وبعضهم قال: الضلال في مقابلة الهدى، والغي في مقابلة الرشد.

قال تعالى: ﴿**وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا**﴾، وتحقيق الفرق؛ أن الضلال أعم استعمالاً في الوضع، تقول: ضل بعيري ورحلي، ولا تقول: غوى، والمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا مستقيمًا، والغواية أن لا يكون إلى المقصد طريق مستقيم، ويدل عليه؛ أنه يقال للمؤمن الذي ليس على طريق السداد سفيه غير رشيد، ولا يقال: ضال. فالضال كالكافر، والغاوي كالفاسق، وكأنه تعالى قال: ﴿ما ضل﴾، أي: ما كفر، ولا أقل من ذلك فما فسق، ويؤيده ﴿فإن آنستم منهم رشدًا﴾، إذ يقال:

واختلف المفسرون في المراد بالنجم بأقاويل معروفة.

منها: «النجم» على ظاهره، وتكون «أل» لتعريف العهد في قول، ولتعريف الجنس في آخر، وهي النجوم التي يهتدي بها. فقيل: الثريا إذا سقطت وغابت، وهو مروي عن ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية. والعرب إذا أطلقت النجم تريد بها الثريا. وعن ابن عباس في رواية عكرمة: النجوم التي ترمى بها

الضلال كالعدم، والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة، ويحتمل أن معنى ما ضل ما جن، فإن المجنون ضال، وعلى هذا، فهو كقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾، وقيل: معنى ما غوى: ما خاب لما طلب، قال:

فمن يلق خيرًا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائمًا

أي: من خاب في طلبه لامه الناس، فيجوز أن هذا إخبار عما بعد الوحي، وأن يكون إخبارًا عن أحواله على التعميم، أي: كان أبدًا موحدًا لله تعالى، وهو الصحيح.

(**واختلف المفسرون في المراد بالنجم بأقاويل معروفة:**) جمع أقوال، جمع قول، فهو جمع الجمع، عبر به للدلالة على كثرتها، والباء متعلقة بالمفسرين، أو بمقدر من جنسه، لأنه يقال: فسره بكذا، فيتعدى بالباء، وهو وإن كان بعيدًا أظهر من تقدير اختلافًا مصحوبًا بأقاويل (**منها النجم على ظاهره،**) سمي الكوكب نجمًا لطلوعه، وكل طالع نجم، يقال: نجم السن والقرن والنبت، إذا طلع قاله ابن عادل والقرطبي، وزاد: ونجم فلان ببلد كذا.

إذا خرج على السلطان، (**وتكون أل لتعريف العهد في قول:**) والمعهود الثريا أو غيرها، كما يأتي، (**ولتعريف الجنس في آخر، وهي النجوم التي يهتدى بها**) في ظلمات البر والبحر، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة، قائلاً: بأنه من إطلاق الواحد على الجمع، ونقله ابن عطية والماوردي عن الحسن، ونقله غيرهما عن مجاهد، وبه رد قول ابن جرير، هذا التأويل له وجه، ولكن لا أعلم أحدًا من أهل التأويل قاله، (**فقيل: الثريا**) بالمثلثة تفريع على أن أل للعهد، (**إذا سقطت وغابت،**) تفسير لهوى، وهويها مغيبها، (**وهو مروي عن ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة،**) سالم مولى بني العباس، سكن حمص، وأرسل عن ابن عباس، ولم يره، صدوق، قد يخطىء، مات سنة ثلاث وأربعين ومائة، (**وعطية**) بن سعد العوفي، الكوفي، صدوق، يخطىء كثيرًا، وكان شيعيًا مدلسًا، مات سنة إحدى عشرة ومائة، (**والعرب إذا أطلقت النجم تريد بها الثريا،**) قال الشاعر:

طلع النجم عشاء فابتغى الراعي الكساء

وفي الحديث: ما طلع نجم قط، وفي الأرض من العاهة شيء إلا ارتفع، رواه أحمد وأراد

الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا قول الحسن، وعن السدي الزهرة، وعن الحسن أيضًا النجوم إذا سقطت يوم القيامة.

وقيل المراد به النبت الذي لا ساق له، و«هوى» أي سقط على الأرض.

وقيل: القرءان، رواه الكلبي عن ابن عباس، لأنه نزل نجومًا على رسول الله ﷺ وهو قول مجاهد ومقاتل والضحاك.

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: هو محمد ﷺ «إذا هوى» أي نزل من السماء ليلة المعراج.

الثريا، واختار هذا القول ابن جرير والزمخشري، وقال السمين: إنه الصحيح، لأن هذا صار علمًا بالغلبة، وقال عمر بن أبي ربيعة:

أحسن النجم في السماء الثريا والثريا في الأرض زين النساء

(**وعن ابن عباس في رواية عكرمة** بن عبد الله البربري، أراد (**النجوم التي ترمى بها الشياطين، إذا سقطت في آثارها،**) لأن الهوى السقوط من علو، قاله الراغب (**عند استراق السمع وهذا قول الحسن**)، البصري، وهو تفريع على أن أل جنسية، (**وعن السدي**) (بضم السين وشد الدال المهملتين) إسمٰعيل بن عبد الرحمٰن الكوفي، صدوق، يهم، مات سنة سبع وعشرين ومائة، (**الزهرة:**) بزنة رطبة نجم في السماء الثالثة.

وكذا قال سفيٰن الثوري: على أن أل عهدية، (**وعن الحسن**) البصري (**أيضًا: النجوم إذا سقطت يوم القيامة،**) فهو بمعنى قوله: وإذا الكواكب انتثرت على إنها جنسية.

وقيل: المراد الشعري على أنها عهدية، (**وقيل: المراد به النبت الذي لا ساق له،**) ومنه: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ الآية، (**وهوى، أي: سقط على الأرض،**) وهذا قول الأخفش، (**وقيل: القرآن، رواه الكلبي**) محمد بن السائب، (**عن ابن عباس؛ لأنه نزل نجومًا،**) أي: أجزاء مقدرة في أوقات، قاله ابن عطية، وفي ابن القيم، أربع آيات وثلاث آيات، والسورة (**على رسول الله ﷺ**) في ثلاث وعشرين سنة، أو عشرين (بالفاء) مدة الفترة، (**وهو قول مجاهد ومقاتل والضحاك،**) وهوى بمعنى نزل.

وفي هذا القول بعد وتحامل على اللغة، قاله ابن عطية، (**وقال جعفر**) الصادق، لصدقه في مقاله (**بن محمد**) الباقري، لبقره العلم، (**ابن علي**) زين العابدين (**بن الحسين**) السبطه (**هو محمد ﷺ، إذا هوى، أي: نزل من السماء ليلة المعراج.**)

قال النعماني: ويعجبني هذا التفسير لملاءمته من وجوه، فإنه ﷺ نجم هداية، خصوصًا

وأظهر الأقوال ـ كما قاله ابن القيم ـ أنها النجوم التي ترمى بها الشياطين، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها اللّٰه تعالى آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين. على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصدًا بين يدي الوحي، حرسًا له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرءان عند نزوله: بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هويًا، ولا عهد في القرءان بذلك، فيحمل هذا اللفظ عليه.

لما هدى إليه من فرض الصلاة تلك الليلة، وقد علمت منزلة الصلاة من الدين، ومنها أنه أضاء في السماء والأرض، ومنها التشبيه بسرعة السير، ومنها أنه كان ليلاً، وهو وقت ظهور النجم، فهو لا يخفي على ذي بصر، وأما أرباب البصائر، فلا يمترون، كالصديق رضي اللّٰه عنه، وعن جعفر أيضًا أنه قلب محمد ﷺ، كما في الشفاء، أي: لإشراقه بالأنوار الإلهية، وهو منبعها ومنبع الهداية، وإن كان فيه خفاء، وأبعد منه أنه الصحابة، لحديث: أصحابي كالنجوم، حكاه التجاني، وهو يهم موتهم، (**وأظهر الأقوال، كما قاله ابن القيم؛ أنها النجوم التي ترمى بها الشياطين،**) لأنها تبعد الشياطين عن أهل السماء، والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض، فناسب أن يقسم برجمها عند البعثة، (**ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية، الظاهرة، المشاهدة**) بالبصر، (**التي نصبها اللّٰه تعالى آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين**) السمع، فيزيدون فيه، فيكون ما زادوه باطلاً، (**على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه**) (عطف مساوٍ)، (**بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصدًا،**) أي: رصدًا له (**بين يدي الوحي،**) يمنعهم عن استماعه (**حرسًا له،**) منهم عطف تفسير لرصدًا، (**وعلى هذا، فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور،**) لأن المقسم به هو النجم الذي قصد بسقوطه حفظ الوحي، والمقسم عليه هو نفس الوحي، (**وفي المقسم به دليل على المقسم عليه،**) فإن النجوم التي ترمى بها الشياطين آيات من آيات اللّٰه، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله، بها ظهر دينه وشرعه، وأسماؤه وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة حرسًا لهذه النجوم الهاوية، هذا أسقطه من ابن القيم قبل قوله مبينًا لخفاء ما عدا القول الذي استظهره، (**وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هويًا**) (بضم الهاء وفتحها)، (**ولا عهد في القرآن بذلك،**) أي: تسميته بالنجم، (**فيحمل**) بالنصب (**هذا اللفظ**

وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت.

وليس بالبين أيضًا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمخاطبين ولاسيما منكرو البعث، فإنه تعالى إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، ثم إنه بين المقسم به والمقسم عليه من المناسبة ما لا يخفى.

فإن قلنا إن المراد النجوم التي للاهتداء فالمناسبة ظاهرة، وإن قلنا إن المراد الثريا فلأنه أظهر النجوم عند الرائي، لأنه لا يشتبه بغيره في السماء، وهو ظاهر لكل أحد، والنبي ﷺ تميز عن الكل بما منح من الآيات البينات، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت من المغرب قرب أوان الخريف فتقل الأمراض، والنبي ﷺ لما ظهر قل الشرك والأمراض القلبية.

عليه،) بل قال ابن عطّي: إنه تحامل عليّ اللغة مع بعده، **(وليس بالبين)** أيضًا **(تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت،)** لأنه تخصيص بلا مخصص، لكن فيه أن العرب إذا أطلقت النجم، تعني الثريا والقرآن، وأراد بلغتهم، فهو وجه التخصيص، **(وليس بالبين أيضًا القسم بالنجوم عند انتشارها:)** تساقطها متفرقة **(يوم القيامة، بل هذا مما يقسم الرب عليه،)** لا به، **(ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمخاطبين، ولا سيما منكرو البعث، فإنه تعالى إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه،)** فيذكر الدليل لمن هو بصدد الإنكار.

قال ابن كثير: وهذا القول له اتجاه، **(ثم إنه بين المقسم به والمقسم عليه من المناسبة ما لا يخفى،)** كلام مستأنف غرضه، به توجيه الأقوال التي أسلفها، وإن استظهر واحدًا منها واستبعد غيره، **(فإن قلنا: أن المراد النجوم التي للاهتداء، فالمناسبة ظاهرة،)** لأنه يهتدى بها في معرفة الطرقات وغيرها.

وبالمصطفى من ظلمات الجهل ومعرفة الحق من الباطل، فأقسم بها لما بينهما من المناسبة والمشابهة، قاله الرازي: **(وإن قلنا أن المراد الثريا، فلأنه أظهر النجوم عند الرائي، لأنه)** لكونه له علامة **(لا يشتبه بغيره في السماء، وهو ظاهر لكل أحد، والنبي ﷺ تميز عن الكل بما منح،)** أي: أعطي **(من الآيات البينات،)** فأقسم به، **(ولأن الثريا إذا ظهرت من)** جهة **(المشرق)** وقت الفجر، **(حان،)** أي: قرب **(إدراك الثمار،)** أي: طيبها، **(وإذا ظهرت من المغرب قرب أوان الخريف، فتقل الأمراض)**، معناه إنها تظهر بعيد الغروب، بحيث يكون ابتداء ظهورها بين المغرب والعشاء، وتستمر ظاهرة إلى الفجر، **(والنبي ﷺ لما ظهر قل**

وإن قلنا إن المراد بها القرءان فهو استدلال بمعجزته ﷺ على صدقه وبراءته، وأنه ما ضل ولا غوى، وإن قلنا المراد به النبات، فالنبات به نبات القوى الجسمانية وصلاحها، والقوى العقلية أولى بالصلاح، وذلك بالرسل وإيضاح السبل.

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم﴾ ولم يقل: محمد، تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرًا واحدًا قط، وقد نبه تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ [المؤمنون/ ٦٩].

ثم نزه نطق رسوله ﷺ عن أن يصدر عن هوى فقال تعالى: ﴿وما ينطق

الشرك والأمراض القلبية،) وأدركت الثمار الحكمية، والحكمية هذا بقية المناسبة التي أبداها الإمام الرازي، (**وإن قلنا: أن المراد بها القرآن، فهواستدلال بمعجزته ﷺ على صدقه وبراءته، وأنه ما ضل ولا غوى**).

زاد الرازي: فهو كقوله: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾، (**وإن قلنا: المراد به النبات فالنبات به نبات، القوى الجسمانية،**) أي: المتعلقة بالجسم (بكسر الجيم)، وهو كل شخص مدرك، وقال أبو زيد: الجسم الجسد، (**و**) به (**صلاحها والقوى العقلية،**) وهي الصفة التي يميز بها الإنسان الحسن من القبيح، (**أولى:**) أحق (**بالصلاح، وذلك بالرسل وإيضاح السبل،**) وبعد أن أبدى الرازي هذه المناسبات، قال: ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التي في السماء، لأنه أظهر عند السامع، وقوله: إذا هوى دال عليه، ثم بعده القرآن لما فيه من الظهور، ثم الثريا، (**وتأمل كيف، قال الله تعالى: ﴿ما بضل صاحبكم﴾ ولم يقل محمد، تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم؛ بأنه صاحبهم**) الذي نشأ بين ظهرانيهم، (**وهم أعلم الخلق به، وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب، ولا غي، ولا ضلال، ولا ينقمون**) (بكسر القاف وفتحها)، لا يعيبون (**عليه أمرًا واحدًا قط، وقد نبه تعالىٰ على هذا المعنى، بقوله عزّ وجلّ: ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾**) [المؤمنون/٦٨] الآية، (**﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾**) بالأمانة والصدق وحسن الخلق، وكمال العلم مع عدم التعلم، والاستفهام للتقرير بالحق من صدق النبي، ومجيء الرسل للأمم الماضية، ومعرفة رسولهم بما ذكر، فهم له، منكرون دعواه لأحد هذه الوجوه، إذ لا وجه له غيرها، فإن إنكار الشيء قطعًا أو ظنًّا إنما يتجه إذا ظهر امتناعه بحسب النوع، أو الشخص، أو بحسب ما يدل عليه أقصى ما يمكن، فلم يوجد، (**ثم نزه نطق رسوله ﷺ عن أن يصدر عن هوى،**) بالقصر المحبة في

عن الهوى﴾ ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فيتضمن هو الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

الأصل، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في ميل مذموم، نحو: اتبع هواه.

قال الرازي: وأحسن ما يقال في تفسيره أنه المحبة، لكن من النفس الأمارة، وحروفه تدل على الدنو والنزول والسقوط، ومنه الهاوية، فالنفس إذا كانت دنية، وتركت المعالي، وتعلقت بالسفاسف، فقد هوت، فاختص الهوى بالنفس الإشارة بالسوء.

قال الشعبي: إنما سمي هوى، لأنه يهوى بصاحبه، (**فقال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾**،) وهذا ترتيب في غاية الحسن، عبر أولاً بالماضي، وهنا بالآتي، أي: ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون، وما غوى حين اختلي بنفسه، وما ينطق عن الهوى الآن حين أرسل إليكم وجعل شاهدًا عليكم، فلم يكن أولاً ضالاً غاويًا، وصار الآن منقذًا من الضلال ومرشدًا وهاديًا، (**ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ**) من نفي نطقه به، (**فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى وإذا لم يصدر عن هوى، فكيف ينطق به، فيتضمن هو،**) أي: نفي صدوره عن الهوى (**الأمرين،**) بالنصب مفعول (**نفي الهوى،**) بالنصب أيضًا بدل مفصل من مجمل، أو الرفع بتقدير، وهما نفي، ولا يصح جره بدلاً من الأمرين، لأنهما منفيان لا نفيان (**عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره،**) أي: محله الذي يصدر عنه هو (**الهدى والرشاد، لا الغي والضلال**) فعن على بابها.

قال النحاس: وهو أولى، أي: ما يخرج نطقه عن رأيه بدليل إن هو...الخ، وقيل: بمعنى الباء، أي: ما ينطق بالهوى، وما يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إنه تقوّل القرآن من تلقاء نفسه.

قال: ابن القيم نفى الله عن رسوله الضلال المنافي للهدى، والغي المنافي للرشاد، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له ﷺ بأنه على الهدى والرشد، فالهدى في علمه، والرشد في عمله، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وصلاحه، إلى أن قال: فالناس أقسام، ضال في علمه، غاوٍ في قصده وعمله، وهو لا شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل، ومهتدي في عمله، وهؤلاء هم الأمة العصبية، ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به، وضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر، ومهتدٍ في علمه، راشد في قصده، وهم ورثة

ثم قال تعالى: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من جعل الضمير عائدًا إلى القرءان، فإنه نطقه بالقرءان والسنة، وإن كليهما وحي يوحي، قال اللّٰه تعالى: ﴿وأنزل اللّٰه عليك الكتاب والحكمة﴾ [النساء/١١٣] وهما القرءان والسنة. وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول اللّٰه ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرءان يعلمه إياها.

الأنبياء، وإن كانوا أقل عددًا، فهم الأكثرون عند اللّٰه قدرًا، وصفوته من خلقه، **(ثم قال تعالى: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾)** [النجم/٤].

قال الرازي: هذا تكملة للبيان، لأنه لما قيل ﴿وما ينطق عن الهوى﴾، كان قائلاً قال: فعماذا ينطق، أعن الدليل والاجتهاد؟، فقال: لا إنما ينطق عن اللّٰه بالوحي، وهذا أبلغ مما لو قيل هو وحي يوحى، وكلمة إن استعملت مكان ما للنفي، كما استعملت ما للشرط مكان أن، **(فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: مـا نطقه إلا وحي يوحى)** صفة لنفي المجان، أي: هو وحي حقيقة، لا مجرد تسمية، كقولك: هذا قول يقال، قاله في اللباب، **(وهذا أحسن من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن)** ووجه إلا حسنية، بقوله: **(فإن نطقه بالقرآن والسنّة، وأن كليهما وحي يوحى،)** أي: لإفادته أن السنّة من الوحي، بخلاف عوده على القرآن، فلا يفيد ذلك، **(قال اللّٰه تعالى: ﴿وأنزل اللّٰه عليك الكتاب والحكمة﴾ الآية، وهما القرآن والسنّة،)** تفسير الحكمة في أحد الأقوال، ومنه أخذ منع اجتهاده. وأجيب بأنه إذا اجتهد وافق الواقع، ولا يقع منه خطأ، ويقر عليه، وينبه على أنه حق، فصار بمنزلة الوحي، **(وذكر الأوزاعي)** عبد الرحمٰن بن عمرو، والفقيه، الثقة، الجليل، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة، **(عن حسان بن عطية،)** المحاربي، مولاهم الدمشقي، ثقة، فقيه، عابد، مات بعد العشرين ومائة، **(قال: كان جبريل ينزل على رسول اللّٰه ﷺ بالسنّة، كما ينزل عليه بالقرآن، يعلمه إياها).**

أخرجه الدارمي بإسناد صحيح عنه وهو مرسل، لأن حسان بن عطية من صغار التابعين، وله شواهد كثيرة، منها: ما أخرجه أحمد عن أبي أمامة رفعه: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي مثل الحيين ربيعة ومضر»، فقال رجل: يا رسول اللّٰه، وما ربيعة من مضر؟، فقال: «إنما أقول ما أقول»، وإسناده حسن.

وروى أبو داود وابن حبان، مرفوعًا: إلا أني أوتيت الكتاب وما يعدله، فرب شبعان على أريكته يحدث بحديثي، فيقول بيننا وبينكم كتاب اللّٰه، ما كان فيه من حلال استحللناه، وما

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرءان بما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشياطين معلمي الضلال والغواية فقال: **﴿علمه شديد القوى﴾** وهو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم. فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه لم يحصل للنبي ﷺ به فضيلة ظاهرة. وهذا نظير قوله تعالى: **﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾** [التكوير/٢٠] كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه. وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه كذلك. وفي حديث الإسراء مزيد لما ذكرته هنا، والله الموفق والمعين.

وقال تعالى: **﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾** إلى قوله: **﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾** [التكوير/١٥].

كان فيه من حرام حرمناه، ألا وإنما حرمه رسول الله مثل ما حرم الله، **(ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن بما يعلم)** (بضم الياء وكسر اللام)؛ **(أنه مضاد لأوصاف الشياطين معلمي الضلال والغواية)** (بفتح الغين، وفي لغة بكسرها)، على ما في المصباح، ونفاها في القاموس، **(فقال: علمه،)** أي: صاحبكم **(شديد القوى)** وهو جبريل، **أي: قواه العلمية والعملية، كلها شديدة، ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم، فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه، لم يحصل للنبي ﷺ به فضيلة ظاهرة،)** وأيضًا فقيه الوثوق، بقول جبريل، لأن قوة الإدراك شرط في الوثوق بقول القائل، وكذا قوة الحفظ والأمانة، فقال: ذلك ليجمع هذه الشروط، **(وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾)** [التكوير/٢٠] الآية، **(كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى)** قريبًا، **(ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده)** ﷺ **(لما رأته:)** أبصرته **(عيناه، وأن القلب)** المعبر عنه بالفؤاد **(صدق العين، وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه كذلك، وفي حديث الإسراء مزيد لما ذكرته هنا، والله الموفق والمعين،)** لا غيره.

(وقال تعالى: (﴿فلا أقسم بالخنس الجوار﴾) بدون ياء لجميع القراء إلا يعقوب، فأثبتها **(﴿الكنس﴾)** [التكوير/١٥] الآية، **(إلى قوله)**: **(﴿وما هو﴾)** أي: القرآن **(﴿بقول شيطان رجيم﴾)**،

أي: لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم.

أو: فاقسم، و«لا» مزيدة للتأكيد، وهذا قول أكثر المفسرين بدليل قوله تعالى: ﴿**وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾.

قال الزمخشري: والوجه أن يقال هي للنفي، أي أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظامًا له، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي بإقسامي به كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك.

أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم في أحوالها الثلاثة: في طلوعها وجريانها وغروبها، وبانصرام الليل وبإقبال النهار عقيبه من غير فصل، فذكر سبحانه حالة

مرجوم بالكواكب واللعنة، وغير ذلك نفي لقول قريش: إن محمدًا كاهن، (**أي: لا أقسم، إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم**،) فلا ليست بزائدة عند كثير من المفسرين، لأن الأصل عدم الزيادة، (**أو فأقسم، ولا مزيدة للتأكيد**) والتقوية، (**وهذا قول أكثر المفسرين**،) وهو أنسب بالمقام، وبما عقد له الفصل، (**بدليل قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾**) [الواقعة/ ٧٦] الآية، إذ الآيتان في بيان شأن القرآن، فهما متوافقتان في المعنى.

(**قال الزمخشري: والوجه**،) أي: المتجه (**أن يقال هي للنفي**) لا زائدة، (**أي: أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظامًا له، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي بأقسامي به كلا إعظام**،) ولم أوهم اللفظ ما ليس بمراد دفعه، بقوله: (**يعني أنه يستأهل**،) أي: يستحق (**فوق ذلك**،) وفي ابن عطية: لا إما زائدة، وأما رد لقول قريش: ساحر كاهن ونحوه، وتكذيبهم نبوته ﷺ، ثم ابتدأ ما بعده، (**أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم في أحوالها الثلاثة في طلوعها**،) المفهوم من الخنس، لأنها الكواكب التي تظهر ليلاً، (**وجريانها**) في سيرها، بقوله: الجوار، (**وغروبها**) المفهوم من قوله: الكنس، أي: السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس من كنس الوحش، إذا دخل كناسه، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر، كما في الأنوار، وفي ابن عطية جمهور المفسرين أن الجوار الدراري السبعة: الشمس، والقمر، وزحل، وعطارد، والمريخ، والزهرة، والمشتري.

وقال علي ابن أبي طالب: المراد الخمسة دون الشمس والقمر، وذلك لأن هذه الخمسة تخنس في جريانها، أي: تتقهقر وترجع فيما ترى العين، وهي جوار في السماء، وهي تكنس في أبراجها، أي: تستتر.

وقال علي أيضًا، والحسن وقتادة: المراد النجوم كلها، لأنها تخنس وتكنس بالنهار حتى

ضعف هذا وإدباره، وحالة قوة هذا وإقباله، يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته أن القرءان قول رسول كريم، وهو هنا جبريل، لأنه ذكر صفته قطعًا بعد ذلك بما يعنيه به.

تختفي.

وقال ابن مسعود، والنخعي، وجابر بن زيد، وجماعة: المراد بالخنس الجوار الكنس: بقر الوحش، لأنها تفعل هذه الأفعال في كناسها، وهي المواضع التي تأوي إليها من الشجر والغيران ونحوه.

وقال ابن عباس والحسن أيضًا والضحاك: هي الظباء، وذهب هؤلاء في الخنس إلى أنه صفة لازمة، لأنه يلزمها الخنس، وكذا في بقر الوحش أيضًا. انتهى.

(وبانصرام الليل،) أي: ذهابه المفهوم من قوله إذا عسعس، **(وبإقبال النهار عقيبه)** (بالياء لغة) في عقب **(من غير فصل،)** المفهوم من قوله: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ [التكوير/١٨].

قال ابن عطية: عسعس الليل في اللغة إذا كان غير مستحكم الظلام، فقال الحسن: ذلك وقت إقباله، وبه وقع القسم، وقال زيد بن أسلم، وابن عباس، وعلي، ومجاهد، وقتادة: ذلك عند إدباره، وبه وقع القسم، ويرجح هذا قوله بعد ﴿والصبح إذا تنفس﴾، فكأنهما حالان، ويشهد له قول علقمة:

حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقال المبرد: أقسم بإقبال الليل وإدباره معًا، قال الخليل: يقال عسعس الليل، وسعسع إذا أقبل وأدبر وتنفس الصبح، استطاروا تسع ضوؤه، قال علوان بن قيس:

وليل دجوجي تنفس فجره لهم بعد ما خالوه لن يتنفسا

(فذكر سبحانه حالة ضعف هذا)، أي: الليل **(وإدباره)** من حيث أنه لا يهتدى فيه إلى المصالح الدنيوية، وليس محلاً للسعي والتردد، **(وحالة قوة هذا)**، أي: الصبح، **(وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه،فكلما تنفس)**، أي: زاد نوره **(هرب الليل وأدبر بين يديه)**، وفي تنفسه قولان: أحدهما: أن في إقبال الصبح روحًا ونسيمًا، فجعل ذلك نفسًا على المجاز الثاني؛ أنه شبه الليل بالمكروب، المحزون، فإذا جعل له التنفس وجد راحة، فكأنه يخلص من الحزن، فعبر عنه بالتنفس، فهو استعارة لطيفة، كما في الخازن، **(وذلك من آياته ودلائل ربوبيته)** ولذا أقسم به **(أن القرآن قول)** معمول أقسم، تفسير للضمير في ﴿إنه لقول (**رسول كريم**)﴾،) وقول بمعنى مقول، ورسول بمعنى مرسل.

قال ابن عطية: وكريم صفة تقتضي وقع المرام، **(وهو هنا جبريل)** عند جمهور المتأولين.

وأما «الرسول الكريم» في سورة «الحاقة» فهو محمد ﷺ. فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما إضافة تبليغ، لا إضافة إنشاء من عندهما، ولفظ «الرسول» يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، فهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدًا ﷺ، فجبريل تلقاه عن اللّٰه، ومحمد ﷺ تلقاه عن جبريل.

وقد وصف اللّٰه تعالى رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم يعطي أفضل العطايا، وهي العلم والمعرفة والهدى والبر والإرشاد، وهذا غاية الكرم.

وذي قوة، كما قال في النجم: ﴿علمه شديد القوى﴾ فيمتنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، وروي أنه رفع قريات قوم

وقال آخرون هو محمد ﷺ في الآية كلها، والأول أصح، (**لأنه ذكر صفته قطعًا بعد ذلك بما يعنيه به**) على وجه لا يحتمل أن المراد غيره، (**وأما الرسول الكريم في سورة الحاقة، فهو محمد ﷺ**) لا جبريل، لأنه قال: ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾، ولا بقول كاهن والمشركون ما كانوا يصفون جبريل بالشعر والكهانة على ما يأتي، (**فأضافه**) أي: القول (**إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما**) غير حقيقية، بل (**إضافة تبليغ، لا إضافة إنشاء من عندهما، ولفظ الرسول يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله**).

(**فهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدًا ﷺ، فجبريل تلقاه عن اللّٰه**) تلقيًا روحانيًا (بضم الراء)، لا يكيف، (**ومحمد ﷺ تلقاه عن جبريل، وقد وصف اللّٰه تعالى رسوله الملكي في هذه السورة**) أي: التكوير؛ (**بأنه كريم، يعطي أفضل العطايا، وهي العلم والمعرفة والهدى والبر والإرشاد، هذا غاية الكرم**) نهايته التي ما بعدها غاية، (**وذي قوة، كما قال في النجم** (﴿**علمه**﴾) أي: صاحبكم (﴿**شديد القوى**﴾) [النجم/٥] الآية،العلمية والعملية، (**فيمتنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه**) أي: من القول بأن يريدوا منع جبريل من إيصاله إلى الرسول، أو منع الرسول من تبليغه للخلق، (**وأن يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه**) شيئًا، ولو قل بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

(**وروي**) مما يدل على قوته (**أنه رفع قريات**) (بفتح الراء جمع تصحيح لقرية، بسكون الراء قياسًا)، لأن ما كان إسمًا يجمع على فعلات (بالفتح)، كجفنة وجفنات، وما كان صفة يجمع بالسكون، كصعبة وصعبات، والمتبادر من المصباح إنها اسم، لأنه قال: القرية كل مكان

لوط على قوادم جناحه حتى سمع أهل السماء نباح كلابها وأصوات بنيها.

﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ أي: متمكن المنزلة، وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف والتعظيم.

مطاع، في ملائكة اللّه تعالى المقربين، يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، ثم أمين على وحي اللّه ورسالته، فقد عصمه اللّه من الخيانة والزلل.

اتصلت به الأبنية واتخذ قرارًا، ويقع على المدن وغيرها، والجمع قرى على غير قياس، أي: جمع التكسير، والتصحيح قريات (**قوم لوط على قوادم جناحه**،) وهي أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح الواحدة، قادمة، كما في القاموس (**حتى سمع أهل السماء نباح كلابها**) (بضم النون) أصواتها (**وأصوات بنيها**،) وصياح ديكتها، ثم قلبها عليهم.

روى ابن عساكر عن معْوية، قال: قال رسول اللّه ﷺ لجبريل: ما أحسن ما أثنى عليك ربك ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾، ما كانت قوتك وما كانت أمانتك، قال: أما قوتي فإني بعثت إلى مدائن قوم لوط، وهي أربع مدائن، وفي كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل، سوى الذراري، فحملتها من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهن، فقلبتهن، وأما أمانتي، فلم أومر بشيء فعدوته إلى غيره.

وقال: محمد بن السائب الكلبي: من قوة جبريل أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الماء الأسود، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها، ومن قوته أيضًا أنه أبصر إبليس يكلم عيسى ابن مريم على بعض عقاب الأرض المقدسة، فنفخه بجناحه نفخة ألقاه بأقصى جبل الهند، ومن قوته أيضًا: صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم، فأصبحوا جاثمين خامدين، ومن قوته أيضًا: هبوطه من السماء على الأنبياء، وصعوده في أسرع من طرفة عين ﴿**ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾ **الآية**، اختلف في تعلق عند ذي العرش، فقيل: متعلق بما قبله، وقيل: متعلق بمكين، (**أي: متمكن المنزلة**،) أي: عظيم مبجل، رفيع المقدار عنده، (**وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف والتعظيم**،) لاستحالة الحقيقة في اللّه تعالى، (**مطاع في ملائكة اللّه تعالى المقربين، يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، ثم**) بفتح المثلثة وشد الميم، اسم إشارة للمكان بمعنى هناك، أي: في السماء، كما دل عليه قوله عند ذي العرش، وإشارة البعيد والمقام، ونحوه قول الكشاف: مطاع عند ذي العرش في ملائكته، ويجوز تعلقه بقوله: (**أمين**،) أو بهما (**على وحي اللّه ورسالته**،) وخصه بذلك، لأن المقام يقتضيه، وهو مؤتمن عليه وعلى غيره.

ولذا فسر بمقبول القول، مصدق فيما يقول: (**فقد عصمه اللّه من الخيانة والزلل، فهذه**

فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرءان، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علوًا وجلالة، فقد تولى الله تزكيته بنفسه، ثم نزه رسوله البشري وزكاه مما يقول فيه أعداؤه فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه الصلاة والسلام، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر، خلافًا لقوم؛ حقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في العيان، وهذا مما خالفوا فيه جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل، ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقريره لرؤية ربه تبارك وتعالى، فإن رؤيته عليه الصلاة والسلام لجبريل هي

خمس صفات،) بناءً على أن العندية والمكان ليسا بصفتين حقيقيتين، فلم يعدهما هنا، ولحظ الزمخشري أن كلا منهما دال على صفة كمال، فعدها سبعًا، وتبعه المصنف في موضعين تقدمًا، وعدها الرازي ستة، فجعل قوله: عند ذي العرش، متعلقًا بقوله: ذي قوة، (**تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علوًا وجلالة، فقد تولى الله تزكيته بنفسه**) أي: ذاته، وفي إطلاق النفس على الله تعالى مقال، (**ثم نزه رسوله البشرى وزكاه مما يقول فيه أعداؤه**) الكفرة، (**فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾**) [التكوير/٢٢]، (**وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه**) استكبارًا وعنادًا، (**فهم يعلمون**) تحقيقًا (**أنهم كاذبون**،) وإنما حملهم عليه البغي والعناد، (**ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه الصلاة والسلام**)، بقوله: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾، قال ابن عطية: ضمير رآه لجبريل، وهذه الرؤية كانت بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض، وقيل: هي رؤيته عند سدرة المنتهى في الإسراء، وسمي ذلك الموضع أفقًا تجوزًا وقد كانت لرسول الله ﷺ رؤية ثالثة بالمدينة، وليست هذه ووصفه بالمبين، لأنه روى أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس، قاله قتادة، وأيضًا فكل أفق فهو في غاية البيان، (**وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يرى بالعيان**) بكسر العين (**ويدرك بالبصر خلافًا لقوم حقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في العيان وهذا مما خالفوا فيه جميع الرسل واتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل، ولهذا كان تقرير**) إثبات وبيان (**رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقريره لرؤية ربه تبارك وتعالى، فإن رؤيته عليه الصلاة والسلام لجبريل هي أصل الإيمان**،

أصل الإيمان لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعًا، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب سبحانه وتعالى أعظم من رؤية جبريل، فإن النبوة لا تتوقف عليها البتة.

ثم نزه سبحانه وتعالى رسوليه كليهما صلى اللّه عليهما وسلم، أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: **﴿وما هو على الغيب بضنين﴾** فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: إذاعتها من غير كتمان وأدائها وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان.

لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعًا،) لجحده ما انبنى عليه الإيمان، **(وأما رؤيته لربه تعالى، فغايتها أن تكون مسألة نزاع،)** خلاف بين العلماء من الصحابة، فمن بعدهم **(لا يكفر جاحدها بالاتفاق، وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، فنحن إلى تقرير)** إثبات **(رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب سبحانه وتعالى أعظم من رؤية جبريل، فإن النبوة لا تتوقف عليها ألبتة)**، بقطع الهمزة، وقد ضعف أيضًا كون ضمير رآه للّه تعالى؛ بأنه قول غريب، لم ينقل عن أحد ممن يعتمد عليه، ويأباه كل الاباء قوله: ﴿بالأفق المبين﴾، سواء كان نواحي السماء، أو حيث تطلع الشمس، إذ لم يقل أحد أنه رأى ربه بالأفق، وأجيب بأن رؤيته بالأفق كاستوى على العرش، والمراد بالأفق الذي فوق السماء السابعة، أو المراد به المنزلة العالية، كما أشار إليه الإمام الرازي.

وقولهم: لم يقل به أحد يرده أنه روى عن ابن مسعود، **(ثم نزه سبحانه وتعالى رسوليه كليهما ﷺ، أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم،)** إذ يلزم من نفيه عن أحدهما صريحًا نفيه عن الآخر، لأنه تلقاه منه أو عنه **(عما يضاد،)** يخالف **(مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة)** (بكسر المعجمة وشد النون)، **(والبخل)** تفسير، **(والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾،)** أي: ما غاب عن الحس الذي أخبر به، أو ما هو وسائر الأنبياء على أخبار الغيب، فيشمل الذات والصفات والقرآن ويستدل به على غيره أو المراد ما غاب عن علمكم فيشمل أخباره عن المشاهد، والغائب **(فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: إذاعتها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان،)**

والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما ـ وهي قراءة الضاد ـ تنزهه عن البخل، فإن الضنين: البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن: بخلت به أبخل ومعناه، وقال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل اللّه، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا: القرءان بالوحي.

قال الفراء: يقول تعالى: يأتيه غيب من السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم.

وهذا معنى حسن جدًا، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولاسيما عمن لا يعرف قدره، ومع هذا فالرسول ﷺ لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانًا.

إذ لو فرض زيادة أو نقص أو كتم ما حصل المقصود، **(والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما، وهي قراءة الضاد)** قراءة نافع وعاصم وحمزة وابن عامر، **(تنزهه عن البخل، فإن الضنين البخيل، يقال: ضننت به أضن)** (بفتح الضاد)، **(بوزن بخلت به أبخل، ومعناه)** عطف على بوزن فبابه فرح.

زاد المصباح: وفي لغة من باب ضرب، **(وقال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل اللّه،)** بل يبلغه، **(وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم،)** وهو قريب من تفسير ابن عباس، أو أعم إن خص ما أنزل بالقرآن، **(وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن بالوحي)**.

(قال الفراء:) يحيى بن زياد بن عبد اللّه الأسدي، أبو زكريا الكوفي، نزيل بغداد النحوي المشهور. مات سنة سبع ومائتين، قيل له الفراء، لأنه كان يفري الكلام، وهو صدوق في الحديث، علق عنه البخاري، **(يقول تعالى: ﴿يأتيه غيب من السماء وهو منفوس﴾،)** أي: مرغوب **(فيه، فلا يضن)** (بفتح الضاد وتكسر)، لا يبخل **(به عليكم، وهذا معنى حسن جدًا، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ومع هذا فالرسول ﷺ لا يبخل عليكم بالوحي، الذي هو أنفس شيء وأجله)**.

(وقال أبو علي) الحسن بن أحمد **(الفارسي،)** الإمام المشهور، المتوفي سنة سبع وسبعين وثلثمائة: **(المعنى: يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به، ويظهره ولا يكتمه، كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه، حتى يأخذ عليه حلوانًا)** بضم فسكون عطاء اسم من حلوته أحلوه.

وأما قراءة من قرأ بظنين بالظاء فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيدًا بمعنى اتهمته وليس هو من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين، والمعنى: وما هذا الرسول على القرءان بمتهم، بل هو أمين فيه لا يزيد فيه ولا ينقص منه.

وهذا يدل على أن الضمير فيه يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ ثم قال: وما هو: أي وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل فنفى سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كله، وزكى سند القرءان أعظم تزكية. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم﴾ [الحاقة/٣٨]. أقسم تعالى بالأشياء، ما يبصر منها وما لا يبصر، وهذا أعم قسم وقع في القرءان، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما

(**وأما قراءة من قرأ بظنين، بالظاء**) كأبي عمرو، والكسائي، وابن كثير، (**فمعناه المتهم، يقال: ظننت زيدًا بمعنى اتهمته،**) فيتعدى إلى مفعول واحد، (**وليس هو من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين،**) كظننت زيدًا قائمًا، (**والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم،**) فالنفي فيه، كالنفي في لا ريب فيه، (**بل هو أمين فيه، لا يزيد فيه ولا ينقص منه، وهذا يدل على أن الضمير فيه،**) أي: قوله هو (**يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي**) جبريل (**بالأمانة، ثم قال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾،**) يعني محمدًا بإجماع، (**ثم قال: وما هو؟، أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل**) على القراءتين.

ورجح أبو عبيدة قراءة الظاء مشالة بأن قريشًا لم تبخل محمدًا ﷺ، وإنما كذبته، (**فنفى سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم تزكية،**) فلا يطلب بعد تزكية الله تزكية، لأنها أعظمها، (**والله يقول الحق،**) ماله حقيقة عينية مطابقة له الآية، (**وهو يهدي السبيل**) سبيل الحق، (**وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون﴾،**) تشاهدون بالبصر (**﴿وما لا تبصرون﴾**) المغيبات (**﴿إنه لقول رسول كريم﴾**) [الحاقة/٣١]، (**أقسم تعالى**) تصريح بأن لا زائدة للتأكيد، قيل: نافية، أي: لا أقسم بذلك، وإن كان يستحق أن يقسم به لوضوح الأمر عن الاحتياج إلى قسم واستغنائه عن التحقيق بالقسم، وقيل: فلا رد لما تقدم من أقوال الكفار، واستأنف أقسم وقرأ الحسن، فلا قسم بلام القسم (**بالأشياء، ما يبصر منها وما لا يبصر، وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما**)

لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي واللوح والقلم، وكل مخلوق، وذلك كله من آيات قدرته وربوبيته، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله الله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى وهو كلامه تعالى، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إنه القرءان حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره «نفسه» ومبدأ خلقه

لا يرى،) دخل فيه الخالق وصفاته تعالى، كما في الخازن وغيره.

(ويدخل في ذلك الملائكة كلهم، والجن والإنس، والعرش والكرسي، واللوح والقلم وكل مخلوق،) وحيث شمل ذلك كله، فالحمل عليه أولى من الحمل على بعضه، فقيل: الدنيا والآخرة، أو ما على ظهر الأرض وبطنها، أو الأجساد، والأرواح، أو الإنس والجن، أو الخلق والخالق، أو النعم الظاهرة والباطنة، أو ما أظهره الله من مكنون غيبه، واللوح والقلم، وجميع خلقه، وما لا تبصرون ما استأثر بعلمه، فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه، **(وذلك كله من آيات قدرته وربوبيته، ففي ضمن هذا القسم؛ أن كل ما يرى وما لا يرى آية، ودليل على صدق رسوله ﷺ،)** قد يتوقف فيه بأن كثيرًا من المخلوقات ليس فيه دلالة على ذلك، كذات السماء مثلاً، اللهم إلا أن يقال الأقسام بها دليل عظمتها وكمالها، ففيها دلالة على صدق المصطفى من حيث الأخبار عن الله أنه إنما خلق السموٰت وغيرها لأجله ﷺ، أو أن الأقسام بكل واحدة منها من حيث تعلق الأقسام به يثبت صدقه فيما جاء به، **(وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى، وهو كلامه تعالىٰ لا كلام شاعر ولا مجنون، ولا كاهن،)** كما زعموا، **(وأنه حق ثابت، كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال،)** أي: ونظير ذلك قوله **(تعالىٰ: (﴿فورب السماء، والأرض إنه﴾،)** أي: ما توعدونه **(﴿لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾)** [الذاريات/٢٣]، برفع مثل صفة، وما زائدة، وبفتح اللام مركبة مع ما المعنى مثل نطقكم في حقيته، أي: معلوميته عندكم ضرورة صدوره عنكم، فوجه التنظير بهذه الآية، أنه أقسم برب السماء والأرض على أن ما توعدوه حق، كما أن نطقكم الذي تأتون به حق لا تشكون فيه، **(فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إنه،)** أي: **(القرآن)** الذي رجع إليه ضمير إنه لقول رسول كريم **(حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود،)** فلا وجه للإنكار، **(ويكفي الإنسان من،)** كذا في بعض النسخ الصحيحة من التي للبدل، وهو الصواب

ونشأته وما يشاهده من أحواله ظاهرًا وباطنًا، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لا تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله ﷺ، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه وافترى لما أقره ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته يأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه، وأضل عباده واستباح دماء

الواقع في أصله ابن القيم، وفي غالب النسخ مع، ولا معنى لها، إذ المعنى بدل (**جميع ما يبصره وما لا يبصره نفسه**)، كما قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات/٢١]، أي: وفي أنفسكم أيضًا آيات من مبدأ خلقكم لي، منتهاه وما في تركيب خلقكم من العجائب، أفلا تبصرون ذلك فتستدلون به على صانعه وقدرته (**ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهده من أحواله ظاهرًا وباطنًا**،) إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير تدل ذاته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة، كما في البيضاوي، (**ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب**).

كذا في نسخ صحيحة متعددة، وهو الذي في أصله ابن القيم خلاف ما في بعضها أبين دلالة الرب، فإنه خطأ نشأ عن سقط (**وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان**،) أي: طلاقة الوجه والتلطف بالضعفاء وحسن السيرة مع المؤمنين (**قلبه**،) من إضافة المسبب إلى السبب، أي: لم تخالط البشاشة الناشئة عن الإيمان قلبه أو شبه الإيمان بإنسان حسن الأخلاق، كامل التودد والصداقة لإخوانه، وأثبت له ما هو من خواصه، وهو البشاشة تخييلاً، (**ثم**) بعد أن أثبت بالقسم أنه قول رسول كريم، ونفى عنه أقوال الكفرة، بقوله: ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين﴾، (**أقام سبحانه البرهان**:) الدليل (**القاطع على صدق رسوله ﷺ، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله**،) بقوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾، قال الكشاف: سمي الافتراء تقولاً، لأنه قول متكلف، والأقوال المفتراة أقاويل تحقيرًا لها، كأنها جمع أفعولة من القول، كالأضاحيك، (**وأنه لو تقول عليه وافترى**،) عطف تفسير (**لما أقره، ولعاجله بالإهلاك**،) أي: عجل إهلاكه، (**فإن كمال علمه وقدرته وحكمته يأبى أن يقر من تقول عليه**) ما لم يقل، (**وافترى عليه وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه، وحريمهم**) نساءهم (**وأموالهم، فكيف يليق بأحكم الحاكمين**

من كذبه وحريمهم وأموالهم، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك، بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بهم، بسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم قائلاً إن الله أمرني بذلك، وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين أن يفعل ذلك.

والمراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ ـ كما قدمته ـ لأنه لما قال: **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** ذكره بعده **﴿أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن﴾**، والمشركون ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة.

وأقدر القادرين أن يقر على ذلك،) لا فهو استفهام بمعنى النفي، (بل) إضراب انتقالي لا إبطالي، **(كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بهم،)** أي: المكذبين له **(بسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلاً: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟)** استفهام بمعنى النفي أيضًا، أي: لا يكون ذلك، (بل) للإضراب الانتقالي أيضًا، **(كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره)** على ما فعله فيهم من سفك دمهم وغيره، **(وبالآيات)** المعجزات، **(المستلزمة لصدقه، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية)** علامة ومعجزة **(على انفرادها، مصدقة له، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان،)** أي: افتراء الكذب، **(أن يجوز على أحكم الحاكمين أن يفعل ذلك.)** ففي ذلك كله أبين الدلالة على صدقه ﷺ، **(والمراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ)** في قول جماعة من أهل التفسير، **(كما قدمته)** في الآية التي قبل هذه، وأضيف إليه لأنه بلغه، وقال جماعة منهم: هو جبريل، والأول أصح، **(لأنه لما قال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾، ذكر بعده ﴿إنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن﴾، والمشركون ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة)**، وأجيب بأنه يصح إرادة جبريل من حيث أن المشركين كانوا يصفون القول نفسه بأنه شعر وكهانة وإن لم يلحظوا قائله.

قيل ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية،والتذكير مع نفي الكاهنية، لأن عدم مشابهة القرآن

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرءان كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة/ ٧٥- ٧٧].

الشعر لا ينكره إلا معاند، بخلاف مباينة الكهانة، فتتوقف على تذكر أحواله ﷺ ومعاني القرآن النافية لطريقة الكهنة، ومعاني أقوالهم وأنت خبير بأن ذلك أيضًا مما يتوقف على قائل قطعًا.

كذا في بعض التفاسير والله أعلم، (**ومن ذلك قوله تعالى**: (﴿**فلا أقسم**﴾) قيل: لا زائدة، والمعنى: فأقسم، وزيادتها في بعض المواضع معروفة، نحو: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾، فهي مؤكدة تعطي في القسم مبالغة ما، وهي كاستفتاح كلام، مشبهة في القسم إلا في سائر الكلام، القسم وغيره، ومنه قوله فلا، وأبى أعدائها لا إخوانها، المعنى: وأبى أعدائها، وله نظائر، وقرأ الحسن: فلا أقسم، بلا ألف، أي: فلا أنا أقسم، وقال سعيد بن جبير وبعض النحاة، نافية كأنه، قال: لا صحة لما يقوله الكفرة، ثم ابتدأ أقسم (﴿**بمواقع**﴾) بالجمع قراءة الجمهور، وقرأ عمرو ابن مسعود، وابن عباس، وأهل الكوفة وحمزة والكسائي، بموقع، بالإفراد مرادًا به الجمع، ونظيره كثير، ومنه أن أنكر الأصوات لصوت الحمير، جمع من حيث أن لكل حمار صوتًا مختصًا، وأفرد من حيث أن الأصوات كلها نوع (﴿**النجوم**﴾).

قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم: هي نجوم القرآن التي نزلت على النبي ﷺ، وذلك لأنه نزل في ليلة القدر إلى سماء الدنيا، وقيل: إلى البيت المعمور جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك على المصطفى نجومًا مقطعة في عشرين سنة.

قال ابن عطية: ويؤيده عود الضمير في أنه إلى القرآن، فإنه لم يتقدم ذكره إلا على هذا التأويل، ومن قال بغيره، قال: الضمير عائد على القرآن، وإن لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح الحق، كقوله: حتى توارت وكل من عليها.

وقال جمهور المفسرين النجوم هنا الكواكب المعروفة واختلف في مواقعها، فقال مجاهد وأبو عبيدة: مواقعها عند غروبها وطلوعها.

وقال قتادة: مواضعها من السماء. وقيل: مواضعها عند الانقضاض أثر الجن.

وقال الحسن: مواقعها عند الانكدار يوم القيامة. انتهى، وهو ظاهر في أن للإضافة على بابها، وأن الأقسام إنما هو بمواقعها لا بذواتها، وتجويز أنه من إضافة الصفة للموصوف، أي: بالنجوم حين سقوطها خلاف الأصل، وظاهر اللفظ، وكلام المفسرين: (﴿**وإنه لقسم**﴾) تأكيد للأمر وتقييد من المقسم به لا اعتراض، بل معنى قصد التتميم به، وإنما الاعتراض (﴿**لو تعلمون**﴾)، وقيل: أنه اعتراض، وأن لو تعلمون اعتراض في اعتراض، والتحرير ما ذكرناه، قاله ابن عطية: (﴿**عظيم**﴾) أي: لو كنتم تعلمون، أي: من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم، (﴿**إنه**﴾) أي: المتلو عليكم (﴿**لقرءان كريم**﴾) هو الذي وقع القسم عليه، ووصفه بالكرم إثباتًا

فقيل المراد بـ«الكتاب» اللوح المحفوظ.

قال ابن القيم: والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿**في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة**﴾ [عبس/ ١٣- ١٦]، قال مُلك: أحسن ما سمعت في هذه أنها مثل الذي في «عبس»، قال: ومن المفسرين من قال: إن المراد أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لأن الآية سيقت تنزيهًا للقرءان أن تتنزل به الشياطين، وأن محله لا تصل إليه، كما قال تعالى: ﴿**وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون**﴾ [الشعراء/٢١٠] وأيضًا: فإن قوله: ﴿**لا يمسُّه**﴾ بالرفع، فهذا خبر لفظًا ومعنى، ولو كان

لصفة المدح له، ودفعًا لصفات الحطيطة عنه، (﴿**في كتاب**﴾) مكتوب (﴿**مكنون**﴾) مصون (﴿**لا يمسه إلا المطهرون**﴾ **الآية**)، تنزيل من رب العالمين.

واختلف في الكتاب بعد الاتفاق على أن المكنون المصون، كما قال ابن عطية: (**فقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ**).

(**قال ابن القيم: والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله:**) كلا إنها تذكرة، فمن شاء ذكره، (﴿**في صحف**﴾) خبر ثانٍ، لأنها وما قبله اعتراض (﴿**مكرمة**﴾) عند الله، (﴿**مرفوعة**﴾) في السماء، (﴿**مطهرة**﴾) منزهة عن مس الشياطين، (﴿**بأيدي سفرة**﴾) كتبه، ينسخونها من اللوح المحفوظ، (﴿**كرام بررة**﴾) مطيعين لله وهم الملائكة.

(**قال مُلك**) الإمام: (**أحسن ما سمعت في هذه**) الآية في كتاب مكنون، (**إنها مثل الذي في**) صورة عبس، استدلال لما صححه.

(**قال**) ابن القيم: (**ومن المفسرين من قال: إن المراد أن المصحف لا يمسه إلا طاهر**) من الحدث، (**والأول أرجح**) عند غيره، يعني اللوح المحفوظ، إذ هو الأول في كلامه، ولا يخالفه قوله في الثاني؛ أنه الصحيح، لأنه عند نفسه، ويؤيد ذلك قول ابن القيم الخامس، أي: من التراجيح؛ أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا، فقوله: ﴿لقرآن، كريم في كتاب مكنون﴾، كقوله: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ الآية، (**لأن الآية سيقت تنزيهًا للقرآن، أن تتنزل به الشياطين، وأن محله لا تصل إليه، كما قال تعالى: ﴿وما تنزلت به﴾**) بالقرآن (﴿**الشياطين، وما ينبغي**﴾) بصلح (﴿**لهم**﴾) أن ينزلوا به، (﴿**وما يستطيعون**﴾) ذلك، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، فترجح كون المراد ما بأيدي الملائكة.

(**وأيضًا فإن قوله ﴿لا يمسه﴾ بالرفع، فهذا خبر لفظًا ومعنى، ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا،**

نهيًا لكان مفتوحًا. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي، انتهى ملخصًا.

وهذا الذي قاله ابن القيم قد تمسك به جماعة منهم داود بن علي بأنه يجوز مس المصحف للمحدث.

وأجاب ابن الرفعة في «الكفاية» عن أدلتهم المزخرفة فقال ما نصه: القرءان لا يصح مسه، فعلم أن المراد به الكتاب الذي هو أقرب المذكورين، ولا يتوجه النهي إلى اللوح المحفوظ لأنه غير منزل، ومسه غير ممكن، ولا يمكن أن يكون

ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي)، فقال: إنه خبر بمعنى النهي، وضمة السين ضمة إعراب، وقيل: هو نهي، وضمة السين ضمة بناء لا إعراب، **(والأصل في الخبر، والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي،)** بل الموجب موجود، وهو اجتماع النفي والإثبات.. **(انتهى)**. ما أراد نقله من كلام ابن القيم حال كونه **(ملخصًا،)** بمعنى محذوفًا منه ما لم يرد نقله، وإلا فهو قد ذكر كلامًا طويلاً، من جملته عشرة أوجه في ترجيح أنه الذي بأيدي الملائكة، منها الوجهان المذكوران في المصنف، **(وهذا الذي قاله ابن القيم قد تمسك به جماعة، منهم: داود بن علي** بن خلف، الحافظ، المجتهد، أبو سليمٰن الأصفهاني، البغدادي، فقيه أهل الظاهر، ولد سنة اثنتين ومائتين، وأخذ عن إسحٰق وأبي ثور، وسمع القعنبي، وحدث عنه ابنه محمد وزكريا الساجي، وصنف التصانيف، وكان بصيرًا بالحديث صحيحه وسقيمه، إمامًا، ورعًا، ناسكًا، زاهدًا، كان في مجلسه أربعمائة طيلسان، مات في رمضان سنة ثمانين ومائتين، **(بأنه يجوز مس المصحف للمحدث،)** لأن الآية لم ترد فيه إنما وردت في اللوح، أو الذي بأيدي الملائكة، لكن ولو قلنا بذلك لا دلالة فيها على جواز مس المصحف للمحدث، إذ هو مسكوت عنه.

(وأجاب ابن الرفعة في الكفاية) شرح التنبيه للشيخ أبي إسحٰق الشيرازي، كتاب واسع كبير، **(عن أدلتهم المزخرفة،)** أي: المزينة بما يروجها، **(فقال ما نصه القرآن لا يصح مسه،)** وإنما يمكن مس النقوش الدالة عليه، **(فعلم أن المراد به الكتاب الذي هو أقرب المذكورين،)** وهما القرآن الكريم والكتاب المكنون، **(ولا يتوجه النهي إلى اللوح المحفوظ،)** ولا إلى صحف الملائكة، **(لأنه غير منزل، ومسه غير ممكن، ولا يمكن أن يكون المراد بالمطهرون**

المراد بالمطهرون الملائكة، لأنه قد نفى وأثبت وكأنه قال: يمسه المطهرون ولا يمسه غير المطهرين، والسماء ليس فيها غير مطهر بالإجماع، فعلم أنه أراد: بالمطهرين الآدميين، ويبين ذلك ما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال في كتاب عمرو بن حزم المروي في الدارقطني وغيره: «ولا تمس القرءان إلا وأنت على طهر» ثم قال، فإن قيل: قد قال الواحدي أن أكثر أهل التفسير على أن المراد اللوح المحفوظ، وأن المطهرين الملائكة، ثم لو صح ما قلتم لم يكن فيها دليل لأن قوله: لا يمسه بضم السين، ليس نهيًا عن المراد ولو كان نهيًا لكان بفتح السين، فهو إذًا خبر.

قلنا: أما قول أكثر المفسرين فهو معارض بقول الباقين، والمرجع إلى الدليل.

الملائكة، لأنه قد نفى) بقوله: لا يمسه، **(وأثبت)** بقوله: إلا المطهرون، **(وكأنه قال: يمسه المطهرون، ولا يمسه غير المطهرين، والسماء ليس فيها غير مطهر بالإجماع،)** فحمله على الملائكة يلزم منه انقسامهم لمطهر وغيره، وهو خلاف الإجماع، **(فعلم)** بذلك، **(أنه أراد بالمطهرين الآدميين)**.

وتعين أنه أراد بكتاب المصحف، **(ويبين ذلك)** ويزيده وضوحًا **(ما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال في كتاب عمرو)** (بفتح العين) **(ابن حزم)** بن زيد بن لوذان الأنصاري، يكنى أبا الضحاك، شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبي ﷺ على نجران، وروى عنه كتابًا، كتبه له فيه الفرائض والزكاة والديات وغير ذلك، وعنه ابنه محمد وجماعة، قال أبو نعيم: مات في خلافة عمر، وكذا قال إبراهيم بن المنذر، ويقال: بعد الخمسين قال في الإصابة: وهو أشبه بالصواب، ففي مسند أبي يعلى برجال ثقات؛ إنه كلم معوية في أمر بيعته ليزيد بكلام قوي، وفي الطبراني وغيره أنه روى لمعوية ولعمرو بن العاصي حديث: يقتل عمارًا الفئة الباغية.

(المروي في الدارقطني وغيره،) كأبي داود، والنسائي، وابن حبان، والدارمي: **(ولا تمس القرآن إلا وأنت على طهر،)** فهذا نص صريح في المطلوب، وإن احتملت الآية، **(ثم قال)** ابن الرفعة: **(فإن قيل: قد قال: الواحدي: إن أكثر أهل التفسير على أن المراد اللوح المحفوظ، وأن المطهرين الملائكة، ثم لو صح ما قلتم)** إن المراد المصحف، والمطهرون بنو آدم، **(لم يكن فيها دليل)** على حرمة مسه للمحدث، **(لأن قوله: لا يمسه بضم السين، ليس نهيًا عن المراد، ولو كان نهيًا لكان بفتح السين، فهو إذا خبر)** لا دلالة فيه على الحرمة، **(قلنا: أما قول أكثر المفسرين، فهو معارض بقول الباقين، والمرجع إلى الدليل،)**

وأما كون المراد بالآية الخبر، فجوابه: أنا نقول: اللفظ لفظ الخبر ومعناه النهي، وهو كثير في القرءان، قال اللّٰه تعالى: ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ [البقرة/ ٢٢٣]، ﴿والمطلقات يتربصن﴾ [البقرة/٢٢٨]. انتهى.

وأجاب العلامة البساطي في شرحه لمختصر الشيخ خليل: بأن يمسه مجزوم، وضم السين لأجل الضمير، كما صرح به جماعة، وقالوا: إنه مذهب البصريين، ومنهم ابن الحاجب في «شافيته» انتهى.

وقد ذكر هذا العلامة شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود الحلبي الشهير بـ«السمين»، مع زيادة إيضاح وفوائد فقال في «لا» هذه وجهان، الثاني: أنها ناهية، والفعل بعدها مجزوم، لأنه لو فكَّ عن الإدغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ [آل عمران/١٧٤] ولكنه أدغم، ولما أدغم

وهو إنما دل على أن المراد المصحف، فلا نظر إلى كثرة القائلين بخلافه، **(وأما كون المراد بالآية الخبر، فجوابه: أنا نقول/ اللفظ لفظ الخبر، ومعناه النهي،)** وهو أبلغ في النهي من النهي الصريح، **(وهو كثير في القرآن)**.

وكذا السنّة، **(قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿لا تضار والدة بولدها﴾،)** بسببه؛ بأن تكره على إرضاعه إذا امتنعت، فلفظه خبر، ومعناه النهي، **(﴿والمطلقات يتربصن﴾)** [البقرة/٢٣٣]، إذ معناه لتتربص المطلقات، ولا تبادر بالنكاح قبل انقضاء الإقراء. **(انتهى)** كلام ابن الرفعة.

(وأجاب العلامة البساطي) قاضي القضاة المالكية شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمٰن، شيخ الإسلام، ولد سنة ستين وسبعمائة، وبرز في الفنون، ودرس في الشيخونية وغيرها، وصنف تصانيف، ومات في رمضان، سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، **(في شرحه لمختصر الشيخ خليل)** ابن إسحٰق، العلم الشهير في الآفاق، **(بأن يمسه مجزوم، وضم السين لأجل الضمير، كما صرح به جماعة وقالوا: إنه مذهب البصريين ومنهم،)** أي: الجماعة **(ابن الحاجب في شافيته. انتهى،)** كلام البساطي.

(وقد ذكر هذا العلامة شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود الحلبي، الشهير بالسمين،) صاحب إعراب القرآن، وله أيضًا تفسير كبير، تقدم بعض ترجمته **(مع زيادة إيضاح وفوائد، فقال: في لا هذه)** في لا يمسه **(وجهان:)** الأول: إنها نافية، **(الثاني: أنها ناهية، والفعل بعدها مجزوم، لأنه لو فك عن الإدغام لظهر ذلك)** الجزم **(فيه، كقوله تعالىٰ: ﴿لم يمسسهم سوء﴾)** [آل عمران/١٧٤]، حيث ظهر الجزم فيه بفك الإدغام، **(ولكنه أدغم)** في

حرك آخره بالضم لأجل «هاء» ضمير المذكر الغائب، ولم يحفظ سيبويه في هذا إلا الضم. وفي الحديث إنا لم نردُّه عليك إلا أنا حرم وإن كان القياس جواز فتحه تخفيفًا. قال: وبهذا الذي ذكرته يظهر فساد رد من رد بأنه لو كان نهيًا لكان يقال: لا يمسَّه بالفتح، لأنه خفي عليه جواز ضم ما قبل الهاء في هذا النحو، لاسيما على رأي سيبويه فإنه لا يجيز غيره. والله أعلم.

لا يمسه، **(ولما أدغم حرك آخره بالضم لأجل هاء ضمير المذكر الغائب، ولم يحفظ سيبويه في هذا إلا الضم)**.

(وفي الحديث) الذي أخرجه الشيخان وغيرهما، عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا، وهو بالأبواء أو بودان، فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه، قال: **(أنا)** (بكسر الهمزة) **(لم نردُّه عليك)** لعلة من العلل، **(إلا أنا)** (بفتح الهمزة) **(حرم)** (بضم الحاء والراء)، أي: محرمون.

زاد في رواية للنسائي: لا نأكل الصيد، قال المصنف: نرده (بفتح الدال) رواية المحدثين، وذكره ثعلب في الفصيح، لكن قال المحققون من النحاة: أنه غلط، والصواب: ضم الدال، كآخر المضاعف من كل مضاعف مجزوم اتصل به ضمير المذكر مراعاة للواو التي توجبها ضمة الهاء بعدها لخفاء الهاء، فكان ما قبلها ولي الواو، ولا يكون ما قبل الواو إلا مضمومًا، كما فتحوها مع المؤنث، نحو: نردها مراعاة للألف، وجوز الكسر أيضًا، وهو أضعفها، ففيها ثلاثة أوجه، وللحموي والكشميهني: لم نردده بفك الإدغام، فالدال الأولى مضمومة، والثانية مجزومة، وهو واضح. انتهى، **(وإن كان القياس جواز فتحه تخفيفًا،)** وبه جاءت الرواية، فهي صحيحة للتخفيف، وليست بغلط.

(قال) السمين: **(وبهذا الذي ذكرته يظهر فساد رد من رد؛ بأنه لو كان نهيًا لكان يقال: لا يمسه بالفتح، لأنه خفي عليه جواز ضم ما قبل الهاء في هذا النحو)** أي: ما في هذا ونحوه من آخر كل مضاعف مجزوم اتصل به ضمير المذكر، **(لا سيما على رأي: سيبويه، فإنه لا يجيز غيره،)** بقي أن ابن عطية قال: القول بأن لا يمسه نهي قول فيه ضعف، لأنه إذا كان خبرًا، فهو في موضع الصفة، وقوله: تنزيل صفة أيضًا، فإذا جعلناه نهيًا جاء بمعنى أجنبي معترض بين الصفات، وذلك لا يحسن في وصف الكلام، فتدبر وفي مصحف ابن مسعود: ما يمسه، وهو مما يقوي ما رجحته من الخبر، الذي معناه حقه وقدره؛ أن لا يمسه إلا طاهر. انتهى.

وأجاب شيخنا لما ذكرته له؛ بأن تضعيفه بما ذكر إنما هو في سياق قصد به كله معنى واحد، أما إذا قصد به معنيان أو أكثر، فلا يضر ما قاله، **(والله أعلم)** بما أراد.

الفصل الرابع
في قسمه تعالى على تحقيق رسالته

قال اللّه تعالى: ﴿يس * والقرءان الحكيم﴾ [يس/١ - ٢].

اعلم أن كل سورة بدأ اللّه تعالى فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرءان إلا «ن».

ثم إن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أمورًا تدل على أنها غير خالية عن الحكمة، لكن علم الإنسان لا يصل إليها إلا إن كشف اللّه له سر ذلك.

واختلف المفسرون في معنى يس على أقوال:

أحدها: أنه يا إنسان، بلغة طيء، وهذا قول ابن عباس والحسن وعكرمة

(الفصل الرابع)

(**في قسمه تعالى على تحقيق**،) أي: إثبات (**رسالته**) ﷺ، (**قال اللّه تعالى**: (﴿**يس**﴾،) أمال حمزة والكسائي الياء غير مفرطين، والجمهور يفتحونها، ونافع وسط في ذلك (﴿**والقرآن الحكيم**﴾)، المحكم فعيل بمعنى مفعل، أي: أحكم في مواعظه وأوامره ونواهيه، ويحتمل أنه بناءً فاعل، أي: ذي الحكمة، أو الحكيم صاحبه، (**اعلم أن كل سورة بدأ اللّه تعالى فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر**،) كقوله: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ [ص/١] الآية، وينبغي أن المراد به ما يعم لفظه وما تضمن معناه، نحو ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا﴾ [العنكبوت/١]، ﴿والم غلبت الروم﴾ [الروم/١]، ونحوهما.

(**أو الكتاب**) ﴿الم ذلك الكتاب﴾ [السجدة/١]، (**أو القرآن**) أو هما ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرءان مبين﴾ [الحجر/١، ٢] (**إلا**) سورة (**ن**) فليس في أوائلها ذلك صريحًا لكن تقدم من جملة الأقوال إن مبني يسطرون، يكتبون القرآن وغيره، فعليه تكون ﴿ن﴾ كغيرها، (**ثم إن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أمورًا تدل على إنها غير خالية عن الحكمة، لكن علم الإنسان لا يصل إليها إلا أن كشف اللّه له سر ذلك**) بأن يطلعه عليه، وهذا بناءً على أنه أريد بها ما خفي لا ما استأثر اللّه بعلمه، إذ لا يطلع عليه أحدًا.

(**واختلف المفسرون في معنى ﴿يس﴾ على أقوال أحدها: أنه يا إنسان بلغة طيىء** لأنهم يقولون يا إيسان، بمعنى يا إنسان، ويجمعونه على إيا سين، فهذا منه، وقالت فرقة: قوله يا حرف نداء، والسين مقامة مقام إنسان انتزع منه حرف، فأقيم مقامه، قاله ابن عطية، (**وهو قول ابن عباس**) عند ابن أبي حاتم، والثعلبي، (**والحسن**) البصري، (**وعكرمة**) البربري، (**والضحاك**،

والضحاك وسعيد بن جبير، وقيل: بلغة الحبشة، وقيل: بلغة كلب، وحكى الكلبي أنها بالسريانية.

قال الإمام فخر الدين: وتقريره هو أن تصغير إنسان: أنيسين، وكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال يس، وعلى هذا فيكون الخطاب مع محمد ﷺ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ [يس/٣].

وتعقبه أبو حيان: بأن الذي نقل عن العرب في تصغير إنسان: أنيسيان ـ بياء بعدها ألف ـ فدل على أن أصله: إنسيان، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها، ولا نعلم أنهم قالوا في تصغيره أنيسين، وعلى تقدير أنه يصغر كذلك فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم لأنه منادى مقبل عليه، ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حق النبوة. انتهى.

وسعيد بن جبير، وقيل بلغة الحبشة:) حكي عن ابن عباس أيضًا، ومقاتل، **(وقيل: بلغة كلب، وحكي الكلبي)** محمد بن السائب؛ **(أنها بالسريانية)**.

(قال الإمام فخر الدين) الرازي: **(وتقريره،)** أي: هذا المقول؛ إن معناه يا إنسان بأي: لغة مما ذكر، **(هو أن تصغير إنسان أنيسين، وكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز)** لكثرة النداء به، **(وقال: (﴿يس﴾، وعلى هذا،)** أي: يا إنسان بسائر ما قيل فيه، **(فيكون الخطاب مع محمد ﷺ،)** ويؤيده حديث: لي عند ربي عشرة أسماء، وعد منها (﴿طه﴾ و (﴿يس﴾، **(ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين﴾،)** لأنه خطاب له ﷺ بلا نزاع، فيقوي قول يس كذلك، وتبع الزمخشري الإمام على هذا.

(وتعقبه أبو حيان بأن الذي نقل عن العرب في تصغير إنسان أنيسيان، بياء) بعد السين، و **(بعدها ألف، فدل على أن أصله إنسيان، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها،)** فيعرف به كما يعرف بالجمع، **(ولا نعلم أنهم قالوا في تصغيره: أنيسين، وعلى تقدير أنه يصغر كذلك)** ورودًا عن العرب، **(فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم، لأنه منادى، مقبل عليه)** فكان قياسه ضم النون، وقرأه الجمهور بسكون النون وإظهارها، وإن كانت النون الساكنة تخفي مع الحروف، وإنما هي مع الانفصال، وحق هذه الحروف المقطعة أن تظهر، وقرأ عاصم وابن عامر بخلاف، عنهما (﴿يس والقرآن﴾)، بإدغام النون، في الواو، وقرئ بنصب النون وبضمها، **(ومع ذلك)** وجه ثالث **(فلا يجوز، لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حق النبوة. انتهى)** كلام أبي حيان، واعتراضه الأول معارض بنقل الرازي.

قال الشيخ شهاب الدين السمين: وهذا الاعتراض الأخير صحيح، فقد نصوا على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعًا، ولذلك يحكى أن ابن قتيبة لما قال في «المهيمن» إنه مصغر من «مؤمن» والأصل: مؤيمن، فأبدلت الهمزة هاء، قيل له: هذا يقرب من الكفر، فليتق اللّٰه قائله، انتهى.

وقيل معنى يس: يا محمد، قاله ابن الحنفية والضحاك.

وتبعه الزمخشري والبيضاوي، والمثبت مقدم على النافي، ولا يرد بقوله المنقول عن العرب، لأنه باعتبار علمه، وجواب الثاني؛ أنه ينوي ضمه، كما في الأسماء المبنية على الكسر، كسيبويه، فنطق به بالسكون، مع أنه منادى نظرًا إلى أنه لما كان بصورة الحرف أبقى على ما يلفظ به الحرف.

(قال الشيخ شهاب الدين السمين: وهذا الاعتراض الأخير) الثالث **(صحيح فقد نصوا على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعًا)**، كأسماء اللّٰه تعالى وأنبيائه، لإيهامه التحقير، وإن جاء للتعظيم في قوله دويهية، لأنه إنما جاء فيما يجوز تصغيره تلطفًا منهم، كما قيل:

ما قلت حبيبي من التحقير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

وأجاب شيخنا عنه بأن التصغير يراد لغير التحقير، كالشفقة والمحبة، فيحمل اللفظ عليه، سيما مع وجود القرينة الدالة على ذلك، وقد يرد بأنه إنما ورد لغيره فيما يجوز تصغيره، إلا أن يقال: المنع إنما هو إذا وقع من غير اللّٰه، أما منه بقصد الملاطفة ونحوها، فلا يمتنع، لكن يرد بأنه ليس نصًا منه تعالىٰ على ذلك، إنما هو على هذا التفسير، وليس بمتعين خصوصًا والمذاهب المنصور في أسماء الحروف، التي في أوائل السور؛ أنها مما استأثر اللّٰه بعلمه، **(ولذلك يحكى أن)** عبد اللّٰه بن مسلم **(بن قتيبة)** الدينوري **(لما قال في المهيمن:)** بكسر الميم الثانية وفتحها، أي: المراقب **(أنه مصغر من مؤمن، والأصل مؤيمن، فأبدلت الهمزة هاء)** كراهة اجتماع همزتين في كلمة، لأن أصله مؤمن، وقلبت الأولى هاء لاتحاد مخرجهما، **(قيل له: هذا يقرب من الكفر،)** لأن أسماء اللّٰه وما في معناها من الأسماء العظيمة لا يناسبها التصغير، لأنه ينافي التعظيم، **(فليتق اللّٰه قائله. انتهى)**.

ومع ذلك، فهو تكلف لا حاجة إليه مع سماع أبنية يلتحق بها، والياء أصلية لا مبدلة، **(وقيل: معنى يس يا محمد،)** لأنه وضع له ابتداء، أو بواسطة، **(قاله ابن الحنفية)** محمد بن علي بن أبي طالب، الهاشمي أبو القسم المدني، ثقة، روى له الجميع، اشتهر بأمه، مات بعد الثمانين، **(والضحاك)** بن مزاحم، **(وقيل: يا رجل، قاله أبو العالية)** رفيع بن مهران التابعي.

وقيل: يا رجل، قاله أبو العالية.

وقيل: هو اسم من أسماء القرءان، قاله قتادة.

وعن أبي بكر الوراق: يا سيد البشر.

وعن جعفر الصادق: أنه أراد يا سيد، مخاطبة للنبي ﷺ وفيه من مزيد

(وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة) وقيل: من أسماء السور، وهما من الأقوال المشتركة في أوائل جميع السور، (وعن أبي بكر الوراق) محمود بن الحسن: (يا سيد البشر، وعن جعفر الصادق،) لصدقه في مقاله بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ (أنه أراد: يا سيد، مخاطبة للنبي ﷺ) ،بفتح الطاء منصوب بدل مما قبله، أو مصدر فعل مقدر أي: خاطبه به مخاطبة مخصوصة به، قيل: فعلى هذا، فهو اكتفاء ببعض الكلمة عن باقيها، وهو مذهب للعرب، حكاه سيبويه وغيره، يقولون: ألاتا، بمعنى تفعل، فيقول: بلى فاأي: أفعل، فيكتفون عن الكلمة ببعض حروفها.

وفي الحديث: كفي بالسيف شاأي: شاهدًا.

وقال التجاني: التحقيق أنهم يكتفون ببعض حروف الكلمة، معبرين باسم بعض حروفها، كقولهم قلت لها: قفي، فقالت: ﴿ق﴾، أي: وقفت، فيحتمل ﴿يس﴾، أن يكون عبر عنه بإسمين من أسماء حروفه لا بمسماه، كما قال الرازي: وإن كانت العرب قد تكتفي ببعض الكلمة، كقوله: كانت مناها بأرض لا يبلغها، أي: مناياها، وقوله: درس المنا بمتالع فأبان، أي: المنازل، ونظائره كثيرة.

وفي بديع الاكتفاء للنواحي، قال علماء البديع: الاكتفاء أن يدل موجود الكلام على محذوفه، وهذا الحد صادق على نحو: ﴿واسأل القرية﴾، على أحد القولين فيه، ثم قسمه إلى الاكتفاء بكلمة نحو: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ الآية، أي: والبرد، وإلى الاكتفاء ببعض الكلمة، وهذا الثاني مما اخترعه المتأخرون من أهل البديع، وأكثر منه الشعراء المتأخرون، والتزموا فيه التورية، كقول الدماميني:

يقول مصاحبي والروض زاه ... وقد بسط الربيع بساط زهر

تعال نباكر الروض المفدى ... وقم نسعى إلى روض ونسر

أي: نسرين، وقول الحافظ ابن حجر:

دع يا عذول رقي الملام فمذ سرى ... عني الحبيب فنيت دام له البقا

والطرف مذ فقد الرقاد بكى مما ... يحكي الغمام فليس يهدي بالرقا

أي: الرقاد، واستشكل بأنه لا يجوز الترخيم في غير المنادى لمخالفة القياس، فكيف يؤ

تمجيده وتعظيمه ما لا يخفى.

وعن طلحة عن ابن عباس: أنه قسم أقسم اللّٰه به، وهو من أسمائه.

وعن كعب: أقسم اللّٰه به قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بألفي عام: يا محمد إنك لمن المرسلين.

ثم قال: ﴿**إنك لمن المرسلين**﴾ وهو رد على الكفار حيث قالوا: ﴿**لست مرسلا**﴾ [الرعد/٤٣] فأقسم اللّٰه باسمه وكتابه: إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده

محسنًا مع إخلاله بالفصاحة، فلا يخرج القرآن عليه وإن كان فيه تورية، اللهم إلا أن يقولوا: إنه مقيس مغتفر في الشعر، وما في القرآن ليس منه، بل من ذكر حرف من كلمة إيماء إلى بقيتها لا من الترخيم، وهو ما أشار إليه المفسرون، (**وفيه من مزيد تمجيده:**) إعزازه وتشريفه، (**وتعظيمه:**) إجلاله (**ما لا يخفى**) لوصفه بالسيادة، المفيدة للعموم في المقام الخطابي، فيفيد تفوقه على من سواه، لأنه ﷺ واسطه كل خير.

(و)روى ابن جرير، (**عن طلحة، عن ابن عباس أنه**) أي: ﴿**يس**﴾ (**قسم**) بمعنى مقسم به أو جعله قسمًا لتضمنه له أو مبالغة (**أقسم اللّٰه به، وهو من أسمائه،**) أي: اللّٰه تعالىٰ، (**وعن كعب**) بن مانع، المعروف بكعب الأحبار ﴿**يس**﴾ قسم (**أقسم اللّٰه به قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بألفي عام،**) أي: بمقدار ألفي عام، إذ قبل خلقهما لا أعوام، لأن الزمان مقدار حركة الفلك، أو المراد مجرد الكثرة، أو عدم النهاية مجازًا، أو باعتبار أن الفلك الأعظم، وهو العرش مخلوق قبلهما، لقوله تعالىٰ: ﴿وكان عرشه على الماء﴾، ونظر في هذا؛ بأن مجرد تقدم العرش لا يقتضي تقدم الزمان بالمعنى المتعارف، واستشكل أيضًا؛ بأن كلام اللّٰه قديم، فلا قبلية فيه ولا بعدية، وخلقهما محدث.

وأجيب بأن المراد إبرازه في اللوح المحفوظ، المكتوب فيه جميع الكائنات، أو أنه أطلع عليه ملائكته قبلهما بهذا المقدار، وهو مناسب هنا لإفادة إظهار علم قدره في الملأ الأعلى، ومثل هذا ورد كثيرًا في الحديث، فتضعيف ما هنا بمجرد الإيراد، وأنه إن صح ترك علمه إلى اللّٰه، إذ مثله لا يقال، بالرأي: لا يسمع، فالتضعيف إنما هو من جهة الإسناد، (**يا محمد إنك لمن المرسلين،**) بيان للمخاطب، وليس تفسيرًا، ليس لأنه لا يناسب إن اللّٰه أقسم به.

ولذا ذكر جواب القسم توضيحًا لمراده، وليس مراده أنه جواب مقدر للقسم بيس حتى يلزم عليه اجتماع قسمين من غير عطف على جواب، وقد أباه النحاة، كما في الكشاف، وقال: إن العرب تكرهه، (**ثم قال:** ﴿**والقرآن الحكيم (إنك لمن المرسلين**﴾، **وهو رد على الكفار، حيث قالوا**) للنبي ﷺ (﴿**لست مرسلا**﴾، **فأقسم اللّٰه باسمه وكتابه إنه لمن المرسلين بوحيه**

وعلى طريق مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق.

قال النقاش: لم يقسم اللّه تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له صلى اللّه عليه وسلم.

الفصل الخامس
في قسمه تعالى بمدة حياته ﷺ وعصره وبلده

إلى عباده،) بكسر إن لتقدير القول، والحكاية بالمعنى، أي: قائلاً إنه ولذا لم يقل إنك **(وعلى طريق مستقيم من إيمانه)** بيان للطريق وأن المراد بها التوحيد، أو هي تعليلية وزاد الواو إشارة إلى أنه خبر ثانٍ، مقصود، مقسم عليه، لا متعلق بالمرسلين، أي: من أرسل على هذه الطريقة، فالقسم على أمرين، كما قال قبله؛ أن الإرسال على أمرين: رسالته والشهادة بهدايته، لا على أمر واحد، هو أنه ﷺ رسول مهدي على طريقة مستقيمة، ولا حال كما قيل، لأنه قريب من هذا، وإن كان جعله قيدًا ينافي القصد، لأن هذا أوضح وأتم في المدح، **(أي: طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق)** (بفتح همزة)، أي: وسكون الياء مخففة، تفسير، للطريق المستقيم وهذا أعم من الإيمان، فهو تفسير ثانٍ، وشد الياء على أن معناه طريق، وأي طريق، لأنه لا اعوجاج ولا عدول... الخ.

تفسير لعدم الاعوجاج مخالف للرواية، والظاهر، وإن جاز، **(قال النقاش)** الحافظ أبو بكر محمد بن الحسن بن أحمد الموصلي، البغدادي، المقرى، المفسر، ضعيف في الحديث، وحاله في القراءات، أمثل وأثنى عليه أبو عمرو الداني، وزعم الجعبري أن المضعف له غالط، وتقدم قبل هذا بعض ترجمته، **(لم يقسم اللّه تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة،)** أي: بسببها، أو الباء، بمعنى على **(في كتابه الا له ﷺ،)** كما في هذه الآية، وإن دلت على أن غيره مرسل أيضًا، لكن المقسم عليه بالقصد الذاتي رسالته عليه الصلاة والسلام، ولم يقل رسول أو مرسل، وهو أخصر لتثبيت رسالته؛ وأنه عريق فيها على نهج قوله: ﴿كانت من القانتين﴾، لأن فلانًا من العلماء، أبلغ من العالم، أي: لم يذكر هذا القسم في القرآن لغيره، تشريفًا له وتعظيمًا، ولشدة إنكار قومه لرسالته، فلذا أكد بتأكيدات.

(الفصل الخامس)

(في قسمه تعالى،) بمعنى الأقسام، وهو الإتيان بالقسم، ويكون بمعنى المقسم به، والمراد الأول **(بمدة حياته)** ﷺ فيه تسمح، إذ القسم إنما وقع بنفس الحياة، ولا يصح أن تكون الإضافة بيانية، لأن المدة ليست نفس الحياة، وأجاب شيخنا؛ بأنه من إضافة الصفة للموصوف، أي:

قال اللَّه تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر/٧٢].

العَمر والعُمر واحد، ولكنه في القسم يفتح لكثرة الاستعمال، فإذا أقسموا قالوا: لعمرك القسم.

قال النحويون: ارتفع قوله لعمرك بالابتداء، والخبر محذوف، والمعنى: قسمي، فحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه، وباب القسم يحذف منه الفعل نحو: تاللَّه لأفعلن، والمعنى: أحلف باللَّه، فتحذف «أحلف» لعلم المخاطب بأنه حالف.

قال الزجاجي: من قال: لعمر اللَّه كأنه حلف ببقاء اللَّه فيحذف أحلف،

بحياته، القائمين به في الزمن الذي كان فيه، أو ببقائه حقيقة، أو حكمًا، فشمل هذا الزمن (**وعصره وبلده**،) قدم العصر لأن المواهب الحاصلة وأنواع الاهتداء إنما نشأت عن عصره، لا عن خصوص البلد، ولأن زيادة تشريف البلد إنما حصلت في عصره، فالاعتناء به أهم، وأخره في الترتيب رعاية لترتيب المصحف، إذ سورة البلد مقدمة على العصر، فزعم بعض أن الصواب تقديم البلد على العصر، لتقدمه عليه في الترتيب ساقط، وأيضًا الواو لا تقتضي ترتيبًا ولا شرفًا، فلا يقال في مثله الصواب، بل ولا الأنسب.

(**قال اللَّه تعالىٰ**: (﴿**لعمرك إنهم**﴾،) أي: قوم لوط (﴿**لفي سكرتهم**﴾) غفلتهم، وغلبة الهوى والشهوة عليهم، حتى صاروا سكارى، لا يميزون الخطأ من الصواب (﴿**يعمهون**﴾) [الحجر/٧٢]، يتحيرون لعمي بصائرهم، (**العمر**) (بالفتح)، (**والعمر**) (بالضم) (**واحد، ولكنه في القسم يفتح**،) أي: يلزم الفتح، وإلا حسن لو عبر به (**لكثرة الاستعمال**،) علة للفتح، أي: بمعنى أن الكثرة يطلب لها التخفيف، والفتح خفيف، فخصوه بالقسم وإن استعمل في غيره قليلاً، والضم أكثر، (**فإذا أقسموا قالوا لعمرك**) لأفعلن، ومنه الآية، وقوله: (**القسم**) خبر مبتدأ محذوف، أي: هو القسم، أو منصوب لجعله مقدرًا، وليس من جملة اليمين، والأظهر لو استغنى عنه، بقوله: (**قال النحويون: ارتفع قوله**: (﴿**لعمرك**﴾، **بالابتداء، والخبر محذوف، والمعنى قسمي**،) فسد جواب القسم مسد الخبر، (**فحذف الخبر، لأن في الكلام دليلاً عليه**) لسد جواب القسم مسده، (**وباب القسم يحذف منه الفعل نحو تاللَّه لأفعلن، والمعنى أحلف باللَّه، فتحذف أحلف لعلم المخاطب بأنه حالف**) من ذكر القسم.

(**قال الزجاجي**:) (بفتح الزاي وشد الجيم) أبو القٰسم عبد الرحمٰن بن إسحٰق، صاحب الجمل والأمالي وغير ذلك، مات بطبرية سنة تسع وثلاثين، وقيل: سنة أربعين وثلاثمائة، نسبة

ومن ثم قال المالكية والحنفية: تنعقد بها اليمين، لأن بقاء الله من صفات ذاته. وعن ملك: لا يعجبني الحلف بذلك. وقال الإمام الشافعي وإسحٰق: لا يكون يمينًا إلا بالنية، وعن أحمد كالمذهبين، والراجح عند الشافعي.

واختلف فيمن المخاطب في الآية على قولين:

أحدهما: أن الملائكة قالت للوط عليه السلام ـ لما وعظ قومه وقال: هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ـ: ﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾، أي يتحيرون، فكيف يعقلون قولك، ويلتفتون إلى نصيحتك؟!

والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم بحياته، وفي هذا

إلى شيخه الزجاج إبراهيم بن محمد البغدادي: (**من قال لعمر الله، كأنه حلف ببقاء الله، فيحذف أحلف**،) جواب سؤال، حاصله الحلف بالعمر، ظاهر في غيره تعالىٰ، لأن الحياة القائمة به صفة لها غاية يعبر عنها عدة العمر، وأما هو سبحانه، فهو حي أزلاً وأبدًا، لا يقال في مدة حياته إنها مقدرة بمدة حلف بها، فأجاب بصرف العمر في حقه تعالىٰ للبقاء، وهو صفة له لا نهاية لها، (**ومن ثم قال المالكية والحنفية: تنعقد بها اليمين، لأن بقاء الله من صفات ذاته**) الثمانية، المنظومة في قوله:

حياة وعلم قدرة وإرادة وسمع وأبصار كلام مع البقا

(**وعن ملك**) رواية: (**لا يعجبني الحلف بذلك**،) لظاهر حديث من كان حالفًا، فليحلف بالله، (**وقال الإمام: الشافعي وإسحٰق**) بن راهويه: (**لا يكون يمينًا إلا بالنية**،) لاستعمال الحياة في غيره كثيرًا، ورد بأنه مضاف لله تعالى، وتعقب هذا شيخنا؛ بأن صريح متن البهجة وشرحها أن صفاته تعالى تنعقد بها اليمين، نوى بها اليمين أو أطلق، (**وعن أحمد**) روايتان (**كالمذهبين، والراجح عند الشافعي**) تنعقدان نواها، (**واختلف فيمن المخاطب في الآية على قولين:**)

(**أحدهما: أن الملائكة قالت للوط عليه السلام لما وعظ**،) ذكر وخوف (**قومه، وقال: هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين**) ما تريدون من قضاء الشهوة، فتزوجوهن، (﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾، **أي: يتحيرون**) لعمي بصائرهم، والعمه في البصيرة، والعمى في البصر، (**فكيف يعقلون قولك ويلتفتون إلى نصيحتك**،) وقدم الكشاف ذا القول، لأنه المناسب عنده للسياق.

(**والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالىٰ أقسم بحياته**،) وقدمه البيضاوي.

وقال عياض: اتفق عليه أهل التفسير، ومراده أهله الذين هم أهله، وهم مفسرو السلف.

تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض.

قال ابن عباس: ما خلق الله، وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم

قال ابن القيم: أكثر المفسرين عن السلف والخلف، بل لا يعرف في السلف، فيه نزاع أن هذا قسم من الله بحياة رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره، ولم يوفق الزمخشري لذلك، فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط؛ وأنه من قول الملائكة له، فقال: هو على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط: لعمرك إنهم لفي سكرتهم، وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف الطيب، لا أهل التعطيل والاعتزال. انتهى.

فما أوهمه المصنف من تساوي القولين مخالف لكلام أصله، إلا أن يقال لما رأى قوله: وليس في اللفظ...الخ.

اقتصر على مجرد حكايتهما بلا ترجيح، لكن قد علم إضراب أصله، بقوله: بل ظاهر اللفظ، الخ، وعليه، فقيل: ضمير أنهم لقريش، والجملة اعتراض، كما في البيضاوي.

وقال التجاني: أنه بعيد لانقطاع الآية به عما بعدها وما قبلها، **(وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه،)** أي: منزلة وقدر **(عريض،)** مجاز بمعنى عظيم، كدعاء عريض.

قال البيضاوي: أي: كبير مستعار مما له عرض متسع للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطول، لأنه أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه، كذلك فما ظنك بطوله.

(قال ابن عباس: ما خلق) أوجد **(الله، وما ذرأ، وما برأ)** (بالهمز) فيهما، وذكرهما للتأكيد، لأنهما بمعنى، وقد يفرق بينهما بالاعتبار، بأن يكون ذرأ من الذرية، وبرأ بمعنى صور، أي: لم يوجد **(نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ،)** أشرف منه ذاتًا ونسبًا وصورة، ومثل هذه العبارة تفيد عدم المساواة عرفًا، **(وما سمعت الله أقسم،)** أي: ما علمت من إطلاق السبب على مسببه

وقيل: إنه هنا من النواسخ الداخلة على المبتدأ والخبر على أن المفعول الأول مصدر الخبر المضاف إلى المبتدأ، وإليه ذهب الرضى وغيره في فعل السماع الداخل على الذوات، كسمعت زيدًا يقول كذا، بشرط كون الخبر مما يسمع، والتقدير ما سمعت أقسام الله **(بحياة أحد،)** والجملة مبينة للمقدر، لكن فيه؛ أنهم شرطوا كون السماع بلا واسطة **(غيره،)** بالجر صفة أحدًا وبدل منه، وبالنصب على الاستثناء، قيل وهو أحسن للصراحة في أنه أقسم بالنبي، ولم يقسم بغيره، بخلاف الخفض، فإنما يفيد أنه لم يقسم بغيره، وليس فيه أنه أقسم به ولا وجه له،

يعمهون﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون. «رواه ابن جرير.

ومراده بقوله: «سمعت اللّه»؛ سمعت كلامه المتلو في الكتب المنزلة.

ورواه البغوي في تفسيره بلفظ: وما أقسم اللّه بحياة أحد إلا بحياته ﷺ، وما أقسم بحياة أحد غيره، وذلك يدل على أنه أكرم خلق اللّه على اللّه، وعلى هذا فيكون قسمه تعالى بحياة محمد ﷺ كلامًا معترضًا في قصة لوط.

وقال القرطبي: وإذا أقسم اللّه بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا: أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته.

فإنه يفيدهما على الوجهين بقرينة السياق، وتلاوة الآية، (**قال اللّه تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، يقول وحياتك، وعمرك، وبقائك في الدنيا**) وفي الشفاء معناه: وبقائك يا محمد، وقيل: وعيشك، وقيل: وحياتك (**إنهم لفي سكرتهم يعمهون، رواه**) محمد (**بن جرير**) الحافظ، الشهير، (**ومراده بقوله: سمعت اللّه، سمعت كلامه المتلو في الكتب المنزلة**) وعلى لسان نبيه.

(**ورواه البغوي في تفسيره**) من طريق أبي الجوزاء، عن ابن عباس، (**بلفظ: وما أقسم اللّه بحياة أحد إلا بحياته ﷺ، وما أقسم بحياة أحد غيره**) أتى به مع استفادته مما قبله، لاشتماله على النفي والاستثناء، فكأنه قال: أقسم بحياته لا بحياة غيره، لأن دلالته على النفي بالمفهوم، وبعض الأئمة، كالحنفية يجعله مسكوتًا عنه، فنفي ذلك بالتصريح به، (**وذلك يدل على أنه أكرم خلق اللّه على اللّه**) وذلك بإجماع، والكرم صفة جامعة لكل خير وإن خصه العرف الطارىء الآن بالجود، فليس بمراد هنا وحده، (**وعلى هذا فيكون قسمه تعالى بحياة محمد ﷺ كلامًا معترضًا في قصة لوط**) تسلية للمصطفى عن أذية قومه له، وهو واضح بجعل ضمير «إنهم» لقريش، أما على أنه لقوم لوط، فلا يظهر جعله اعتراضًا، إذ هو من جملة ما يتعلق بقوم لوط.

نعم. لا يمنع ذلك أن القسم بحياة المصطفى، فغايته أنه تأكيد لحيرة قوم لوط وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية، أو لتشبيه الماضي بالحال.

(**وقال القرطبي: وإذا أقسم اللّه بحياة نبيه، فإنما أراد بيان التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته**)، ولا دلالة فيه على ذلك، فإنما المراد التعظيم، واللّه تعالى له أن يقسم بما شاء، ﴿والشمس وضحاها﴾، ﴿والضحى والليل﴾، والمقرر في مذهب القرطبي قولان مشهوران:

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: فيمن أقسم بالنبي ﷺ تنعقد يمينه وتجب الكفارة بالحنث، واحتج أحمد بكونه ﷺ أحد ركني الشهادة.

قال ابن خويز منداد واستدل من جوز الحلف به عليه الصلاة والسلام بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ أن يحلفوا به ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه وقال له: احلف لي بحق صاحب هذا القبر، أو بحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ.

وقال تعالى: ﴿**لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد**﴾ الآية [البلد: ١/٢].

فذهب الأكثرون إلى حرمة الحلف بالنبي والكعبة، وكل معظم شرعًا، وشهره بهرام في شامله، والأقلون إلى كراهة الحلف بذلك، وشهره التاج الفاكهاني.

وحجة كل قوله ﷺ: فمن كان حالفًا، فليحلف بالله، أو ليصمت، رواه الشيخان، ومحل الخلاف: إذا كان الحالف صادقًا وإلا حرم اتفاقًا، بل ربما يكون بالنبي كفرًا.

(**وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: فيمن أقسم بالنبي ﷺ تنعقد يمينه، وتجب الكفارة بالحنث،**) ومذهب لملك والشافعي، والجمهور لا تنعقد ولا كفارة، (**واحتج أحمد بكونه ﷺأحد ركني الشهادة،**) ولا حجة فيه، إذ لا يلزم من ذلك انعقاد اليمين به، بل ولا جواز الحلف به، لا سيما مع النهي الصريح عنه ﷺ.

(**قال**) أبو بكر محمد بن أحمد، المعروف بأنه (**ابن خويز منداد**) (بضم الخاء وكسر الزاي، وفتح الميم، وسكون النون ودالين بينهما ألف)، ويقال: خواز منداد، تفقه على الأبهري وله كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وكتاب في أحكام القرآن وعنده شواذ، عن لملك، وله اختيارات مخالفة للمذهب، ولم يكن بالجيد النظر، ولا قوي الفقه.

قال الباجي: لم أسمع له في علماء العراق ذكرًا، وكان يجانب الكلام، وينافر أهله حتى يؤدي ذلك إلى منافرة المتكلمين من أهل السنّة، ويحكم على جميعهم بأنهم من أهل الأهواء، قاله في الديباج، (**واستدل من جوز الحلف به عليه الصلاة والسلام؛ بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ، أن يحلفوا به،**) وهذا بفرض تسليمه لا دلالة فيه على الجواز، إذ المختلف فيه لا يجب إنكاره، (**حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا، إذا جاء**) من يريد التحليف (**صاحبه**) الذي يريد تحليفه، (**وقال له: إحلف**) لي (**بحق صاحب هذا القبر، أو بحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ،**) كان ذلك عنده غاية في تغليظ اليمين.

(**وقال تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد﴾**) [البلد/١ - ٢]، من إقامة الظاهر

أقسم تعالى بالبلد الأمين، ؛وهو، مكة أم القرى وهو بلده عليه الصلاة والسلام، وقيده بحلوله فيه إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله. قاله البيضاوي.

ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو فيما قيل: إبراهيم وإسماعيل، وما ولد: محمد ﷺ، وعلى هذا تتضمن السورة الإقسام به في موضعين، وقيل: المراد به

مقام المضمر، فلم يقل به استعظامًا لحلوله فيه، (الآية) أتلها. (أقسم تعالى بالبلد الأمين)، فلا زائدة لإفادة التأكيد والتحسين، وإن كان حذفها لا يغير أصل المعنى، فاندفع قول الإمام الرازي: إنه مانع من الانتظام، وموهم جعل الإثبات نفيًا، ويلزمه عدم الاعتماد على القرآن، مع أن لا تأتي زائدة مع القسم كثيرًا، وقد تزاد في غيره أيضًا.

وقد ذهب بعض المفسرين والنحاة إلى أنه لا يصلق على مثله زائد، بل يقال صلة تأدبًا، وهو حسن، ويحتمل كلام المصنف أنه حمل، لا على أنها واقعة جواب قسم مقدر، أي: ولله لأنا أقسم ويؤيده القراءة الشاذة: لا أقسم، بلام الابتداء، (وهو مكة أم القرى، وهو بلده عليه الصلاة والسلام، وقيده بحلوله فيه إظهارًا لمزيد فضله) فالمعنى أقسم به، والحال إنك مقيم به لشرفك وعظمتك عندي، (وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله) وفيه إيماء إلى أن القسم بقوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾، لكونه فيه، فلا تنافي بين الآيتين، فإذا كان فيه، فهو حقيق بالأقسام به، كما قيل:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

(قاله البيضاوي) غير مقتصر عليه، بل حكى بعده ما يأتي لمصنف، لكنه لم ينقله عنه لوجوده في كلام من تقدمه، (ثم أقسم بالوالد وما ولد،) آثر ما على من لمعنى التعجب، كقوله: والله أعلم بما وضعت، أو لأن كثيرًا من النحاة زوجوه، أو لتأويله بالمبهم، أي: الولد الكامل، الذي لا يدرك كنه ذاته، أو لاطراده فيما قصد به المعنى الوصفي، كالمولود هنا نظرًا للصفة، فإنها ليست من جنس العقلاء، قال في حواشي الكشاف: التفرقة بين من وما إنما هي إذا أريد الذات، وأما إذا أريد الوصف، فيجوز ذهابًا إلى الوصف، وقد خفي هذا على بعض الأفاضل، (وهو فيما قيل: إبراهيم وإسماعيل وما ولد محمد ﷺ، وعلى هذا تتضمن السورة الأقسام به في موضعين:) أحدهما: في البلد التي هي محله فإن القسم بمكانه قسم به ﷺ، أبلغ من القسم بذاته وحياته.

والثاني: قوله: وما ولد، وزعم أنه لما أقسم بوالده، وهو في أصله، فكأنه أقسم به في غاية البعد، اللهم إلا أن يقال لما قصد تعظيمه بالقسم بوالده، كأنه أقسم بصفة من صفاته، وهي

آدم وذريته، وهو قول الجمهور من المفسرين.

وإنما أقسم تعالى بهم لأنهم أعجب خلق اللّٰه على وجه الأرض لما فيهم من البيان والنظر واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى اللّٰه تعالى والأنصار لدينه، وكل ما في الأرض من مخلوق خلق لأجلهم، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

شرف حسبه.

(**وقيل: المراد به**) أي: بوالد (**آدم و**) بما ولد: (**ذريته، وهو قول الجمهور من المفسرين:**) فما ولد عام شامل لجميع أولاده، لا يختص بفرد منهم، فالقسم على هذا بنوع الإنسان، (**وإنما أقسم تعالى بهم**) وإن كان فيهم فسقة وكفار للتعليل المذكور بقوله، (**لأنهم أعجب خلق اللّٰه على وجه الأرض**) إذ خلقهم في أحسن تقويم، (**لما فيهم من البيان:**) النطق المبين عن المقاصد (**والنظر:**) الاستدلال، (**واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء**) أريد بهم ما يشمل المرسلين (**والدعاة:**) جمع داعٍ، كالعلماء والأولياء والصلحاء، فالكل يدعون (**إلى اللّٰه تعالىٰ والأنصار لدينه**) بالسيف والحجة، (**وكل ما في الأرض من مخلوق خلق لأجلهم**) كما قال تعالىٰ: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾ [البقرة/٢٩].

(**وعلى هذا، فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان**) آدم، خصه لشرفه وكونه أصلهم، (**فمرجع البلاد إلى مكة**) لأنها أمها، (**ومرجع العباد إلى آدم**) لأنه أصلهم، ولو قال: ومرجع غير بني آدم إليهم، وفسر أصل السكان بآدم وذريته، كان أوفق بتفسير الولد والوالد؛ بأنهم آدم وذريته، ثم ظاهر هذا التفسير: ولو كان فيهم فسقة وكفار، من حيث تعليله بما ذكر ولا ضير فيه.

وفي الخازن: أقسم بآدم، وبالأنبياء والصالحين من ذريته، لأن الكافر وإن كان في ذريته، فلا حرمة له حتى يقسم به. انتهى.

وفيه نظر، لأن الإقسام لم يلاحظ فيه الحرمة فقط، بل كونه أعجب الخلق على الأرض، كيف وقد قال ابن عباس: الوالد والولد هنا على العموم، فهي أسماء جنس، يدخل فيها جميع الحيوان.

وقال ابن عباس وابن جبير وعكرمة: والد معناه كل من ولد وانسل، وما ولد لم يبق منه إلا العاقر، الذي لم يلد البتة.

وقيل: المراد نوح وجميع ولده، وقيل: إبراهيم وجميع ولده، حكى ذلك ابن عطية وغيره، وقيل: الوالد محمد ﷺ، الحديث: إنما أنا لكم بمنزلة الوالد والولد، أمته أو ذريته، (**وقوله**) تعالى:

وقوله ﴿وأنت حل﴾ هو من الحلول، ضد الظعن، فيتضمن إقسامه تعالى ببلده المشتمل على عبده ورسوله، فهو خير البقاع واشتمل على خير العباد، فقد جعل الله تعالى بيته هدى للناس، ونبيه ﷺ إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: المعنى وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين الذي يأمن فيه الطير والوحش، وقد استحل فيه قومك حرمتك. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد.

وعن قتادة: وأنت حل أي لست بآثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت.

(**﴿وأنت حل﴾، هو من الحلول**،) الإقامة (**ضد الظعن**،) أي: الارتحال، وهو أحد مصادر حل، وفي الأخبار به المذاهب الثلاثة، إما أن يؤول بالمشتق، أو بتقدير مضاف، أي: ذو حل أو مبالغة، كزيد عدل.

وفي القاموس: حل المكان، وبه يحل ويحل حلاً وحلولاً، وحللاً محركة نادر نزل به، (**فيتضمن أقسامه تعالىٰ ببلده المشتمل على عبده ورسوله، فهو خير البقاع**) حتى المدينة، أو إلا المدينة، الخلاف الشهير، (**واشتمل على خير العباد**) بالإجماع، (**فقد جعل الله تعالى بيته**) الكعبة (**هدى للناس، ونبيه ﷺ إمامًا**،) قدوة (**وهاديًا لهم**) إلى صراط مستقيم، (**وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه**).

وفي الشفاء: قيل: لا أقسم به إذا لم تكن فيه، أي: بعد خروجك منه، حكاه مكي، وقيل: لا زائدة، أي: أقسم به، وأنت به يا محمد حلال، أو حل لك ما فعلته فيه على التفسيرين.

(**وقيل: المعنى وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش**،) تفسير الأمين، فهو إسناد مجازي، كعيشة راضية، (**وقد استحل فيه قومك حرمتك**،) وفيه تثبيت له وتعجيب مما جرى عليه، وإشارة إلى علة عدم القسم، فسقط الاعتراض بأن الحال يقتضي عدم القسم بعد الخروج، فيتنافيان.

وهذا كما قال ابن عطية يتجه على أنه قسم، وعلى نفيه، أي: لا أقسم ببلد أنت ساكنه على أذى هؤلاء وكفرهم، (**وهذا مروي**) عند الثعلبي وغيره، (**عن شرحبيل**) (بضم الشين المعجمة وفتح الراء وسكون المهملة) (**ابن سعد**) المدني، مولى الأنصار، تابعي، صدوق، اختلط بآخره، مات سنة ثلاث وعشرين ومائة، وقد قارب المائة.

روى له أبو داود وابن ماجه، (**وعن قتادة**) بن دعامة الأكمه، المفسر، التابعي: (**وأنت**

وذلك أن اللّه تعالى يفتح عليه مكة وأهلها، وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء، فقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وغيره، وحرم دار أبي سفيٰن.

فإن قلت: هذه السورة مكية، ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ إخبار عن الحال، والواقعة التي ذكرت في آخر مدة هجرته إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين؟.

أجيب: بأنه قد يكون اللفظ للحال، والمعنى مستقبل، كقوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر/ ٣٠].

حل، أي: **لست بآثم**) بالمد لأن حل له معانٍ ضد الحرمة والإقامة بالمكان، والاسم منهما حل بالكسر، وحلال بمعنى جائز ومقيم، (**وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت، وذلك أن اللّه تعالى**) وعده بأنه (**يفتح عليه مكة وأهلها**،) أي: ويعطيه أهلها، (**وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء، فقتل**،) أي: أمر بقتل (**ابن خطل**) (بفتح المعجمة والمهملة) هلال، أو عبد اللّه، (**وهو متعلق بأستار الكعبة**، و قتل (**غيره**) كما تقدم في فتح مكة، (**وحرم دار أبي سفيٰن**) صخر بن حرب، أي: جعل لها حرمة؛ بأن أعطي الأمان من دخلها، بقوله: من دخل دار أبي سفيٰن فهو آمن، أو حرم قتل من دخلها، وعلى هذا، ففي الآية تسلية له ﷺ، أي: إن أخرجوك منها، فستعود لها، وتفعل فيها ما تريد، وتثبيت ووعد بالنصر، والأول على أنه قسم، والثاني على انتفائه، أو كل منهما جار على التفسيرين.

وقيل: المعنى وأنت حلال، أي: غير محرم بها، إشارة إلى دخولها يوم الفتح حلالاً، (**فإن قلت: هذه السورة مكية**) عند جمهور المفسرين، وبالغ النسفي، فحكي عليه الاتفاق، وينقضه قول ابن عطية.

وقال قوم: هي مدنية (**﴿وأنت حل بهذا البلد﴾، إخبار عن الحال، و**) عن (**الواقعة**) بالجر عطفًا)، ويحتمل الرفع، أي: والحال الواقعة (**التي ذكرت في آخر مدة هجرته إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين**) المتنافيين بحسب الظاهر.

(**أجيب بأنه قد يكون اللفظ للحال، والمعنى**) بالحال (**مستقبل، كقوله تعالىٰ: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾**،) أي: ستموت ويموتون، فلا شماتة بالموت، فأطلق الحال، وأراد الاستقبال، لكن استشكل هذا؛ بأنه يلزمه اختلاف زمني الحال، وعاملها إلا أن يقال الجملة معترضة لا حالية، فتضمن وعدًا فيه مبالغة، بتنزيل المستقبل المحقق منزلة الحال لا الماضي، كما يدل له قول عياض، أو حل لك ما فعلت فيه.

وعلى كل حال فهذا متضمن للقسم ببلد رسول اللّه ﷺ، ولا يخفى ما فيه من زيادة التعظيم، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، لقد بلغ من فضيلتك عند اللّه أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء، ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾**.

وقال تعالى: **﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾** [العصر/١].

(وعلى كل حال، فهذا متضمن للقسم ببلد رسول اللّه ﷺ) بجعل لا زائدة، **(ولا يخفى ما فيه من زيادة التعظيم)** حيث أقسم ببلده، بقيد كونه فيه دفعًا لتوهم أن المكان أشرف، أو أن شرفه مكتسب منه.

(وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال للنبي ﷺ) وأقره عليه: **(بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، لقد بلغ من فضيلتك عند اللّه أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء)** في قوله: ﴿لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، وهذا إن صح دليل لقول الجمهور؛ أنه قسم بالمصطفى لا بلوط، لأن عمر قاله للنبي ﷺ وأقره عليه، فهو نص في محل النزاع: **(ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك، فقال: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾)** ففيه إشارة إلى أن هذا القسم أدخل في تعظيمه من القسم بذاته وبحياته.

قال عياض: في الشفاء: والمراد بالبلد عند هؤلاء مكة.

وقال الواسطي: أي: يحلف بهذا البلد الذي شرفته الآية، بمكانك فيه حيًا وبركتك ميتًا، يعني المدينة، والأول أصح، لأن السورة مكية، وما بعده يصححه قوله: ﴿حل بهذا البلد﴾، ونحوه قول ابن عطاء في تفسير قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾. قال: أمنها اللّه لمقامه فيها وكونه بها، فإن كونه أمان حيث كان. انتهى.

لكن تعقبه الدلجي وغيره بأن القائل لا يسلم أن السورة مكية، والبلد عنده في الموضعين المدينة، والإشارة فيهما لها، وحل بمعنى حال مقيم، فكيف يقام عليه الدليل بما لا يسلمه.

(وقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان﴾) اسم جنس **(﴿لفي خسر﴾)** [العصر/١]، نقصان وسوء حال، وذلك بين غاية البيان في الكافر، لأنه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، وأما المؤمن وإن كان في خسر في دنياه، في هرمه وما يقاسيه من شقاء هذه الدار، فذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة، وربحه الذي لا يفنى، ومن كان في مدة عمره في التوصي بالحق والصبر، والعمل بحسب الوصاة، فلا خسر معه، وقد جمع له الخير كله، وقرأ علي: والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان، وفي مصحف عبد اللّه: والعصر لقد خلقنا الإنسان،

اختلف في تفسير العصر على أقوال:

فقيل: هو الدهر، لأنه مشتمل على الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم وغير ذلك.

وقيل: ذكر العصر الذي بمضيه ينقضى عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك عين الخسران، ولله در القائل.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

وعن علي: لفي خسر، وأنه فيه إلى آخر الدهر ﴿إلا الذين﴾، وقرأ عاصم والأعرج ﴿لفي خسر﴾ بضم السين، وقرأ سلام أبو المنذر: ﴿والعصر﴾، بكسر الصاد ﴿والصبر﴾، بكسر الباء، وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة، وعن أبي عمرو ﴿بالصبر﴾، بكسر الباء إشمامًا، وهذا أيضًا لا يكون إلا في الوقف، قاله ابن عطية رحمه الله، (**اختلف في تفسير العصر على أقوال، فقيل:**) عن ابن عباس: (**هو الدهر،**) يقال فيه: عصر، وعصر (بضم العين والصاد).

قال امرؤ القيس: وهل يعمن من كان في العصر الخالي، (**لأنه مشتمل على الأعاجيب**) المختلفة، (**لأنه يحصل فيه السراء**) (بالفتح والمد) الخير والفضل، (**والضراء**) (بفتح المعجمة والمد) نقيض السراء، (**والصحة**) في البدن حالة طبيعية، تجري أفعاله معها على المجرى الطبيعي، واستعيرت للمعاني، كصحة الصلاة إذا أسقطت القضاء، وصح العقد إذا ترتب عليه أثره، وصح إذا طابق الواقع، (**والسقم**) (بضم فسكون مصدر سقم) كقرب، (وبفتحتين مصدر سقم كفرح طال مرضه) (**وغير ذلك**).

(**وقيل: ذكر العصر**) مبني للمجهول إشارة إلى قول آخر في العصر، أي: قال بعضهم: المراد بالعصر هنا هو (**الذي بمضيه،**) أي: انقضائه (**ينقضي عمرك**) أيها الإنسان، (**فإذا لم يكن في مقابلته كسب**) للطاعات (**صار ذلك عين الخسران، ولله در القائل:**)

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

يعني أنه لا فرح بانقضاء الأيام حقيقة وإن كانت في شدة، لأنها نقص من أجل الإنسان، وقال قتادة: العصر العشي، وقال أبي بن كعب: سألت النبي ﷺ عن العصر، فقال: أقسم ربك بآخر النهار، وقيل: اليوم والليل، ومنه قول حميد:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

أي: قصدا، وقيل: بكرة وعشية، وهما الإبرادان وقال مقاتل: العصر الصلاة الوسطى، أقسم بها، حكاه ابن عطية.

وفي تفسير الإمام فخر الدين والبيضاوي وغيرهما: أنه تعالى أقسم بزمان الرسول ﷺ. قال الإمام الرازي: واحتجوا له بقوله ﷺ: إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من الفجر إلى الظهر بقيراط، فعملت اليهود، ثم قال من يعمل لي من الظهر إلى العصر بقيراط، فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى المغرب بقيراطين فعملتم، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجرًا، فقال الله تعالى: وهل

(وفي تفسير الإمام فخر الدين الرازي، والبيضاوي وغيرهما؛ أنه تعالىٰ أقسم بزمان الرسول ﷺ،) وهذا الموافق للترجمة؛ أنه أقسم بمدة حياته وعصره وبلده.

(قال الإمام الرازي: واحتجوا له،) أي: لهذا القول، **(بقوله ﷺ: إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم)** من اليهودي والنصارى، والمثل في الأصل بمعنى النظير، ثم استعمل لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن، وفيها غرابة لإرادة زيادة التوضيح والتقرير، فإنه أوقع في القلب، وأقمع للخصم، ليرى المتخيل محققًا والمعقول محسوسًا ولذا أكثر الله في كتابه الأمثال وفشت في كلام الأنبياء والمعنى مثلكم مع نبيكم، ومثل من قبلكم مع أنبيائكم **(مثل رجل استأجر أجراء)** (بضم الهمزة وفتح الراء جمع أجير).

وفي رواية كرجل استأجر عمالاً: جمع عامل، **(فقال: من يعمل من الفجر إلى الظهر بقيراط)**.

زاد في رواية: قيراط، فذكره مرتين ليدل على تقسيم القراريط على جميعهم، لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته، كما يقال: أقسم هذا المال على بني فلان درهمًا درهمًا: كما في الفتح: **(فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من الظهر إلى العصر بقيراط،)** قيراط بالتكرير أيضًا، كما في رواية، وهو نصف دانق، والمراد هنا النصيب، **(فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من العصر إلى المغرب بقيراطين، فعملتم)** أيتها الأمة المحمدية، **(فغضبت اليهود والنصارى،)** أي: الكفار منهم، **(وقالوا: نحن أكثر عملاً،)** لأن الوقت من الفجر إلى الظهر أكثر من وقت العصر إلى الغروب، وتمسك به بعض الحنفية؛ على أن وقت العصر من مصير ظل كل شيء مثليه، لأنه لو كان من مصير مثله لكان مساويًا لوقت الظهر.

وقد قالوا: نحن أكثر عملاً، فدل على أنه دون وقت الظهر، وأجيب بمنع المساواة، وذلك معروف عند علماء هذا الفن أن مدة بين الظهر والعصر أطول من مدة بين العصر والمغرب، وما نقله بعض الحنابلة من الإجماع، على أن وقت العصر ربع النهار محمول على التقريب، إذا فرعنا على أن وقت العصر مصير الظل مثله، كما قال الجمهور، وأما على قول الحنفية؛ فالذي من

نقصتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجرًا. رواه البخاري.

قالوا: فهذا الحديث دل على أن العصر هو عصره ﷺ الذي هو فيه،

الظهر إلى العصر أطول قطعًا، وعلى التنزل لا يلزم من التمثيل والتشبيه التسوية من كل جهة؛ وبأن الخبر إذا ورد في معنى مقصود، لا يؤخذ منه المعارضة، لما ورد في ذلك المعنى بعينه مقصودًا في أمر آخر؛ وبأنه ليس في الخبر، نص على أن كلا من الطائفتين أكثر عملاً، لصدق أن كلهم مجتمعين أكثر عملاً من المسلمين، وباحتمال أنه أطلق ذلك تغليبًا، وباحتمال أن ذلك قول اليهود خاصة، فيندفع الاعتراض من أصله، كما جزم به بعضهم، وتكون نسبة ذلك للجميع في الظاهر غير مرادة، بل هو عموم أريد به الخصوص وبأنه لا يلزم من كونهم أكثر عملاً أن يكونوا أكثر زمنًا، لاحتمال أن عمل زمنهم أشق، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ [البقرة/٢٨٦]، ومما يؤيده أن المراد كثرة العمل وقلته، لا بالنسبة إلى طول الزمن وقصره، اتفاق أهل الأخبار على أن المدة التي بين عيسى ونبينا دون المدة التي بين نبينا وقيام الساعة، لأن جمهور أهل الأخبار قالوا: مدة الفترة بين عيسى ونبينا ستمائة سنة، وثبت ذلك في البخاري عن سلمٰن وقيل: إنها دون ذلك حتى قال بعضهم: إنها مائة وخمس وعشرون سنة ومدة المسلمين بالمشاهدة أكثر من ذلك، فلو تمسكنا بأن المراد التمثيل بطول الزمانين وقصرهما، للزم أن وقت العصر أطول من وقت الظهر، ولا قائل به، فدل على أن المراد كثرة العمل وقلته، كما قاله في الفتح: **وأقل أجرًا، فقال الله تعالىٰ:وهل نقصتكم من أجركم)** الآية، الذي شرطه لكم شيئًا.

وفي رواية: هل ظلمتكم من حقكم (**شيئًا، قالوا: لا**،) لم تنقصنا شيئًا، وإنما لم يكن ظلمًا، لأنه تعالىٰ شرط معهم شرطًا، وقبلوا أن يعملوا به، (**قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء**) من عبادي.

قال الطيبي: ما ذكر من المقاولة والمكالمة، لعله تخييل وتصوير، ولم يكن حقيقة، لأنه لم يكن ثمة هذه الأمة، اللهم إلا أن يحمل ذلك على حصوله عند إخراج الذر، فيكون حقيقة.

قال ﷺ: (**فكنتم أقل عملاً وأكثر أجرًا**) ممن كان قبلكم، (**رواه البخاري**) من حديث ابن عمر في الصلاة، والإجارة وفضل القرآن، وفي ذكر بني إسرائيل، وفي التوحيد، بألفاظ متقاربة ليس في محل منها بهذا اللفظ، وإنما هو لفظ مسلم.

وأخرجه البخاري، بنحوه من حديث أبي موسىٰ، لكن ظاهر سياقهما أنهما قضيتان، وحاول بعضهم الجمع بينهما، فتعسف كما في الفتح، (**قالوا: فهذا الحديث دل على أن**

فيكون على هذا أقسم تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالى: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾، وبعمره في قوله: لعمرك، الآية، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم الظرف فكيف حال المظروف، قال: ووجه القسم كأنه تعالى قال: ما أعظم خسرانهم إذا أعرضوا عنك. انتهى.

النوع السادس

في وصفه تعالى له عليه الصلاة والسلام بالنور والسراج المنير

اعلم أن اللّه تعالى قد وصف رسوله ﷺ بـ «النور» في قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين﴾ [المائدة/١٥]، وقيل: المراد القرءان.

العصر هو عصره ﷺ، الذي هو فيه، **فيكون على هذا أقسم اللّه تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالىٰ: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾**،) سواء قلنا؛ أنه مكة أو المدينة، إذ كل مكانه، (**وبعمره في قوله: ﴿لعمرك﴾، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب**:) ثبت، وحق (**تعظيم الظرف**) بالأقسام به، (**فكيف حال المظروف**) استفهام تعجيب.

(**قال**) الرازي: (**ووجه القسم كأنه تعالىٰ قال**:) ﴿**ما أعظم خسرانهم إذ أعرضوا عنك**﴾ انتهى كلام الرازي وهو وجيه.

النوع السادس:

(**في وصفه تعالىٰ له عليه الصلاة والسلام بالنور والسراج**:) المصباح، جمعه سرج، ككتاب وكتب (**المنير**) وصف به للتأكيد، أو لأن بعض السرج لا يضيء إذا رق فتيله وقل زيته، وقد قيل ثلاثة تضني: رسول بطيء وسراج لا يضيء ومائدة ينتظر إليها من يجيء، (**اعلم أن اللّه تعالىٰ قد وصف رسوله ﷺ بالنور**،) أي: أخبر عنه بأنه نور (**في قوله تعالىٰ**: ﴿**قد جاءكم**﴾) الخطاب لأهل الكتاب في قوله: يا أهل الكتاب وهو شامل للتوراة والإنجيل، وكانوا يخفون ما فيها من صفات النبي ﷺ (﴿**من اللّه نور**﴾) هو محمد ﷺ (﴿**وكتاب مبين**﴾ قرآن بيّن ظاهر.

(**وقيل المراد**) بالنور (**القرآن**،) وعليه فالعطف للتفسير، وقوله: يهدي به اللّه في موقعه، وعلى الأول أفرده مع تغايرهما وعطفهما بالواو لرجوعه لهما معًا باعتبار المذكور، أو لأنهما معًا كالشيء الواحد وهداية أحدهما عين هداية الآخر، فإن خلقه القرآن، وما أفاده المصنف من ترجيح الأول هو الصحيح، فقد اقتصر عليه الجلال، وقد التزم الاقتصار على أرجح الأقوال، وبه جزم عياض في محل وساوى بينهما في آخر، وتبعه المصنف في الأسماء الشريفة، وفسر النور

وصفه عليه الصلاة والسلام أيضًا بـ«السراج المنير» في قوله تعالى: **﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا * وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾** [الأحزاب/٤٦].

والمراد: كونه هاديًا مبينًا كالسراج الذي يري الطريق ويبين الهدى والرشاد، فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس، وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، فكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية، وكذلك وصف الله تعالى الشمس بأنها سراج حيث قال: **﴿وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا﴾** [الفرقان/٦١].

أيضًا بالإسلام، **(وصفه عليه الصلاة والسلام أيضًا بالسراج المنير في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا﴾)** على من أرسلت إليهم (**﴿ومبشرًا﴾**) من صدقك بالجنة، (**﴿ونذيرًا﴾**) منذرًا من كذبك بالنار، (**﴿وداعيًا إلى الله﴾**) إلى طاعته (**﴿بإذنه﴾**) أي: أمره فهو على ظاهره، لأن أمره إذن له أو المراد به الإرادة، فإنه كثيرًا ما يتجوز به عنها وعن الأمر، كما في مجاز القرآن لابن عبد السلام، وفسر أيضًا بتوفيقه وتيسيره (**﴿وسراجًا منيرا﴾**) [الأحزاب/٤٦]، يستضاء به من ظلمات الجهالة، ويقتبس من نوره أنوار البصائر، **(والمراد كونه هاديًا مبينًا كالسراج يرى الطريق،)** أي: يكون سببًا في إراءتها، فالإسناد مجازي **(ويبين الهدى والرشاد)** الصلاح، وهو خلاف الغي والضلال، وهو إصابة الصواب، **(فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس)** لأنه يفرق بين الحق والباطل والشمس إنما يتبين بها ما يدرك بحاسة البصر من الألوان ونحوها فهو تفريع على قوله يبين الهدى، **(وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، فكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها، فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر،)** أي: لجميع **(الأنفس البشرية،)** ولم يقل ولا تستفيد من غيرها، كما قال في الشمس، لأنه ﷺ يستفيد الوحي من جبريل، ولذا وقع تشبيهه بالسراج، لأنه في غاية الوضوح والبلاغة، لأنه يستضيء من الوحي ويضيء للناس بما أتاهم به، ففيه من البلاغة ما ليس في قوله شمسًا وقمرًا.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: قال علمائنا سمي سراجًا، لأن السراج الواحد يؤخذ منه السرج الكثيرة ولا ينقص من ضوئه شيء، وكذلك سرج الطاعات أخذت من سراجه ﷺ ولم ينقص من أجره شيء **(وكذلك وصف الله تعالىٰ الشمس بأنها سراج، حيث قال: ﴿وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرا﴾)** [الفرقان/٦١]، وفي قراءة سرجًا بالجمع، أي: نيرات وخص القمر

وكما وصف اللّٰه تعالى ورسوله بأنه نور، وصف نفسه المقدسة بذلك فقال: ﴿اللّٰه نور السمٰوات والأرض﴾ [النور/٣٥]، فليس فيهما إلا اللّٰه، ونوره المقدس هو سر الوجود والحياة والجمال والكمال، وهو الذي أشرق على العالم فأشرق على العوالم الروحانية، وهم الملائكة، فصارت سرجًا منيرة، يستمد منها من دونها بوجود اللّٰه، ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية، ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم، فليس في الوجود إلا نور اللّٰه الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه.

والنور في الأصل: كيفية يدركها الباصر أولاً، وبواسطتها سائر المبصرات،

منها بالذكر لنوع فضيلة، (**وكما وصف اللّٰه تعالىٰ رسوله بأنه نور وصف نفسه المقدسة، بذلك فقال: ﴿اللّٰه نور السمٰوات والأرض﴾**) [النور/٣٥].

قال ابن عباس وغيره: أي: هادي أهلهما، قال الرازي: في شرح الأسماء وهو حسن، إلا أن تفسيره به في الأسماء التسعة والتسعين لا يجوز، لأنه يصير محض تكرار، وأجيب: بجواز أن الهادي أعم، كما قالوه في الرؤوف الرحيم، أو يعتبر به هداية بالغة إلى حد لا يتناهى، فتحصل به المغايرة في الجملة، كالرحمٰن الرحيم، فلا وجه لقوله لا يجوز، لأن له نظائر في الأسماء، وفي حواشي الكشاف معنى نور السمٰوات والأرض هادي العالمين، مبين ما يهتدون به ويتخلصون من ظلمات الكفر والضلال بوحي منزل ونبي مرسل، (**فليس فيهما إلا اللّٰه ونوره المقدس**،) أي: المراد به (**هو سر الوجود**،) أي: إيجاده العالم (**والحياة والجمال والكمال**،) وفي الأنوار أصل الظهور هو الوجود، كما أن أصل الخفاء هو العدم واللّٰه موجود بذاته، موجد لما عداه، (**وهو الذي أشرق على العالم**) كله، وهو ما سوى اللّٰه، لكن وقع ذلك الإشراق على وجوه متنوعة، (**فأشرق على العوالم**) (بكسر اللام) جمع عالم (**الروحانية**) (بضم الراء)، فهو من عطف المفصل على المجمل نحو توضأ فغسل وجهه، (**وهم الملائكة، فصارت سرجًا**) (بضمتين) (**منيرة يستمد**) (بفتح أوله) (**منها من دونها**) (فاعل) (**بوجود اللّٰه، ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية، ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم**،) أي: جوانبها: جمع جسم، (**فليس في الوجود إلا نور اللّٰه الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه**) (بضم الراء وفتحها)، وعطفه على ما قبله كالمسبب على السبب، فالاستعداد هو الأسباب التي يكون اجتماعها فيه سببًا لحصول المعرفة وقبول ما يلقي إليه، ورحب التلقي قوة قبوله لما يلقي إليه وحسن استماعه له، (**والنور في الأصل**) عند الحكماء لا اللغة، فإنه الضوء وأصله من نار ينور إذا نفر ومنه نوار للظبية وبه سميت المرأة فوضع للضوء لانتشاره أو لإزالته الظلام فكأنه

كالكيفية الفائضة من النيرين ـ الشمس والقمر ـ على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على اللّٰه إلا بتقدير مضاف، كقولك: زيد كرم، بمعني: ذو كرم، أو بمعنى منور السمٰوات والأرض، فإنه تعالى نورهما بالكواكب، وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم، لأنهم يهتدون به في الأمور، ويؤيد هذا التأويل قراءة علي بن أبي طالب وزيد بن علي وغيرهما نوَّر فعلاً ماضيًا، والأرضَ بالنصب.

وقوله تعالى: ﴿مثل نوره﴾ أي: مثل هداه سبحانه وتعالى.

وأضاف النور السمٰوات والأرض، إما دلالة على سعة إشراقه، وفشو إضاءته حتى تضيء له السمٰوات والأرض، وإما لإرادة أهل السمٰوات والأرض، أنهم

ينفر منه (كيفية،) أي: صفة، لكن لفظ كيفية لم يسمع من العرب، كما صرح به أهل اللغة (يدركها الباصر أولاً، و) يدرك (بواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين الشمس والقمر على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما.

وبعضهم زعم أنه أجرام صغار تنفصل من المضيء وتتصل بالمستضيء، (وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على اللّٰه) لاستحالته إذ هو عرض أو جسم، وكلاهما محال عليه (إلا بتقدير مضاف، كقولك زيد كرم بمعنى ذو كرم،) فمعنى اللّٰه نور، أي: ذو نور، (أو بمعنى منور السمٰوات والأرض،) فهو من إطلاق المصدر وإرادة اسم الفاعل، (فإنه تعالىٰ نورهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء،) وذلك مأخوذ (من قولهم للرئيس الفائق في التدبير،) وهو فعل الأمر عن فكر وروية، (نور القوم، لأنهم يهتدون به في الأمور، ويؤيد هذا التأويل قراءة علي بن أبي طالب زيد بن علي) بن الحسين بن علي (وغيرهما نوَّر فعلاً ماضيًا) مفتوح النون، والواو ومشددة، (والأرض بالنصب) مفعول.

وادعى الغزالي أنه حقيقة لأن النور معناه الظاهر بنفسه المظهر لغيره، وهو ميل لقول الإشراقيين، قال: شارح حكمة الإشراق اللّٰه نور السمٰوات والأرض، لا بمعنى منورهما على ما يقوله بعض المفسرين هربًا من إطلاق اسم النور عليه، بمعنى أنه محض النور البحث، وأن سائر الأنوار تشرق من نوره، كذا قال، (وقوله تعالىٰ: ﴿مثل نوره﴾) [النور/٣٥]، أي: مثل هداه سبحانه وتعالىٰ.

وفسره البيضاوي بالصفة العجيبة، (وأضاف النور إلى السمٰوات والأرض، إما دلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له، السمٰوات والأرض، وإما لإرادة أهل السمٰوات

يستضيئون به.

وعن مقاتل: أي مثل الإيمان في قلب محمد ﷺ كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صدر عبد الله، والزجاجة نظير جسد محمد ﷺ، والمصباح نظير الإيمان والنبوة في قلب محمد ﷺ.

وعن غيره: المشكاة نظير إبرٰهيم، والزجاجة نظير إسمٰعيل عليهما، والمصباح جسد محمد ﷺ، والشجرة: النبوة والرسالة.

وعن أبي سعيد الخراز: المشكاة: جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعل الله في قلب محمد ﷺ.

والأرض) وأضاف النور إليهم لأجل **(أنهم يستضيئون به،)** والإضافة تجيء لأدنى ملابسة.

(وعن مقاتل، أي: مثل الإيمان في قلب محمد ﷺ، كمشكاة:) كوة غير نافذة، والكوة بفتح الكاف وضمها اسم ما لا ينفذ، قيل: معربة من الحبشية، وقيل: هي القنديل، وقيل: موضع الفتيلة منه، وقيل: معلاقة، **(فيها مصباح:)** قنديل أو الفتيلة، مأخوذ من الصباح أو الصباحة، **(فالمشكاة نظير صدر).**

كذا في جميع النسخ والأولى صلب **(عبد الله والزجاجة)** مثلثة الزاي، والضم أعرفها وأفصحها، **(نظير جسد محمد ﷺ، والمصباح نظير الإيمان والنبوة في قلب محمد ﷺ وعن غيره،)** أي: غير مقاتل، **(المشكاة نظير إبرٰهيم، والزجاجة نظير إسمٰعيل عليهما السلام، والمصباح جسد محمد ﷺ، والشجرة النبوة والرسالة)** التي يتوقد منها المصباح، ونحوه قول من قال: المشكاة أبدان آبائه، والزجاجة أصلابهم، والمصباح نوره المستودع فيهم، **(وعن أبي سعيد الخراز)** إبرٰهيم، وقيل: أحمد بن عيسى البغدادي، قال الخطيب: كان أحد المشهورين بالورع والمراقبة وحسن الرعاية، وحدث يسيرًا صحب السقطي وذا النون وغيرهما.

قال الجنيد: لو طالبنا الله بتحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا، أقام كذا كذا سنة، ما فاته ذكر الحق تعالىٰ بين الخرزتين.

وقال السلمي: الخراز، إمام القوم في كل فن من علومهم وأحسنهم كلهم ما خلا الجنيد، فإنه الإمام لذلك، فإن جماعة يقولون الخراز قمر الصوفية، فأفاد أن أمثلهم مطلقًا الجنيد، فهو الشمس، والخراز القمر، مات سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل: غير ذلك: **(المشكاة جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعل الله في قلب محمد ﷺ).**

وعن كعب وابن جبير: النور الثاني هنا محمد ﷺ.

وعن سهل بن عبد اللّه: مثل نور نبوة محمد إذ كان مستودعًا في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا وكذا، وأراد بالمصباح قلبه وبالزجاج صدره، أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة.

توقد من شجرة مباركة، أي من نور إبراهيم، وضرب المثل بالشجرة المباركة.

(**وعن كعب**) بن ماتع، بفوقية، المعروف بكعب الأحبار، (**وابن جبير**) سعيد أحد الأعلام، (**النور الثاني هنا**) في قوله: مثل نوره (**محمد ﷺ**) بطريق المجاز الأول هو اللّه، أضيف لجميع مخلوقاته للتعميم، والثاني مضاف للّه تعالىٰ للتشريف والتعظيم، والثالث في قوله ﴿يهدي اللّه لنوره من يشاء﴾ إضافته، كلجين الماء أتى به بيانًا للتشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة، فالمعنى أنه نور عم نوره جميع مخلوقاته، وخص نبيه ﷺ بأوفر اسم منه، فسماه باسمه وألبسه حليه، كما ألبسه الرأفة والرحمة.

(**وعن سهل بن عبد اللّه**) بن يونس بن عيسىٰ التستري، بفوقيتين أولهما مضمومة، وفتح الثانية بينهما مهملة ساكنة، مدينة معروفة، الصالح المشهور، الذي لم يسمع الدهر بمثله علمًا وورعًا، وله كرامات، مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقيل غير ذلك: (**مثل نور نبوة محمد إذ كان مستودعًا**) (بفتح الدال) (**في الأصلاب**،) أي: أصلاب آبائه، وضمير كان راجع لنور أو لمحمد نفسه، ورجح بأنه كان في صلب آبائه لا نوره، ورد بأن نوره كان ظاهرًا في جباههم من آدم لأبيه عبد اللّه، كالقمر ليلة البدر، والمستودع في الأصلاب مادة جسمه، والنور تابع لتلك المادة، (**كمشكاة صفتها كذا وكذا**،) كناية عن قوله فيها مصباح...الخ، فإنها استعملت كذلك، أي: صفة نوره كصفة نور مشكاة، فيها مصباح (**وأراد بالمصباح قلبه وبالزجاجة صدره**) والمشكاة جسده الشريف، (**أي: كأنه**،) أي: صدره الشريف (**كوكب دري**،) أي: مضيء (بضم الدال وكسرها، وفتحها مع الهمزة، وبدونها مشدد الياء)، قيل: أنه منسوب إلى الدر لحسنه وصفاته (**لما فيه**،) أي: الصدر (**من الإيمان والحكمة**،) وجعل ذلك في الصدر بواسطة القلب، ولا يبعد عود الضمير للقلب والحكمة العلم النافع.

وقيل: المراد بها هنا النبوة، كقوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾ [النحل/١٢٥]، (**توقد**) المصباح بالماضي، وفي قراءة بمضارع أوقد مبنياً للمفعول بالتحتانية، وفي أخرى بالفوقانية، أي: الزجاجة (**من شجرة مباركة، أي: من نور إبراهيم**،) لأن النسب شبيه بالشجرة، وإبراهيم جده ﷺ، وهو دعوته، (**وضرب المثل**،) وهو كلام شبه مضربه بمورده، وضربه ذكره

وقوله تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ أي تكاد نبوة محمد ﷺ تبين للناس قبل كلامه، حكى هذا الأخير القاضي أبو الفضل اليحصبي والفخر الرازي، لكنه عن كعب الأحبار.

وعن الضحاك: يكاد محمد يتكلم بالحكمة قبل الوحي. قال عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تنبيك بالخبر

كذلك بمعنى نباته (**بالشجرة المباركة**) على استعارة التمثيلية، لأنه شبه ظهور نبوته المتصلة بأبيه إبراهيم، وشبه المتصل به بمصباح أضاء بزيت من شجرة مباركة، واقتصر على أجزاء التمثيل لظهور ما فيه، وفائدة التمثيل كما في الكشاف إبراز المعقول في هيئة المحسوس ليتضح ويرسخ في الأذهان، ولذا كثر في الأحاديث والكتب الإلهية.

(**وقوله تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾**) [النور/٣٥]، ولو لم تمسسه نار، (**أي: تكاد نبوة محمد ﷺ تبين**) مضارع بأن أي: اتضح (**للناس قبل كلامه.**) أي: تكليمه ودعواه النبوة وتحديه كذا الزيت والكلام يأتي مصدرًا بمعنى التكليم، كقوله: فإن كلاميها شفاء لما بيا، أو المراد ما يتكلم به فيقدر مضاف، أي: قبل إيراد كلامه الذي يتكلم به، وقيل: أن يوحى إليه، (**حكي هذا الأخير**) من قوله.

وعن سهل (**القاضي أبو الفضل**) عياض (**اليحصبي**) (بفتح التحتية وسكون المهملة وتثليث الصاد مهملة)، نسبة إلى يحصب بن لملك أبي قبيلة باليمن، (**والفخر الرازي، لكنه**) أي: الرازي، إنما حكاه (**عن كعب الأحبار**) لا عن سهل بن عبد الله، فإن صح النقلان فيكونان معًا، قالاه، وفي شرح الشفاء للتجاني؛ أنه تأويل بعيد عن ظاهر القرآن، والصحيح ما عليه جمهور المفسرين أنه تعالى ضرب هذا مثلاً لنوره، وتمثالاً لقصور أفهام الخلق، إذ لولاه ما عرف الله، قال: وما أشبه هذا بتأويل الفضل قول الفرزدق:

أخذنا بأطراف السماء عليكم   لنا قراها والنجوم الطوالع

لما سأله الرشيد عنه، فقال: أراد بالقمرين إبراهيم ومحمد ﷺ عليهما، وبالنجوم الطوالع أنت وآباءك، فقال له الرشيد: أحسنت. انتهى.

(**وعن الضحاك: يكاد محمد يتكلم بالحكمة:**) العلم النافع (**قبل الوحي**) به إليه، (**قال عبد الله بن رواحة**) الخزرجي الأمير الشهيد بمؤتة:

(**لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تنبيك بالخبر**)

لكن التفسير الأول في هذه الآية هو المختار، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ [النور/٣٤]. فإذا كان المراد بقوله ﴿مثل نوره﴾ أي مثل هداه كان مطابقًا لما قبله.

النوع السابع

في آيات تتضمن وجوب طاعته واتباع سنته

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ [الأنفال/٢٠].

وقال: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ [آل عمران/١٣٢].

وقال نفطويه: يكاد ذريتها يضيء، هذا مثل ضربه الله لنبيه، يقول: يكاد نظره يدل على نبوته، وإن لم يتل قرءانًا، كما قال ابن رواحة: وذكر هذا البيت، (**لكن التفسير الأول في هذه الآية هو المختار، لأنه تعالىٰ ذكر قبل هذه الآية ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾**) [النور/٤٦] الآية، بفتح الياء وكسرها في هذه السورة، بين فيها ما ذكر أو بينته، (**فإذا كان المراد بقوله: ﴿مثل نوره﴾**) [النور/٣٥]، أي: **مثل هداه كان مطابقًا لما قبله**) بخلافه على ما بعده من التفاسير، فلا يطابق ما قبله ونحن في غنية عن ذلك، فقد سماه الله نورًا في قوله: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة/١٥] وسماه سراجًا منيرًا في آية الأحزاب كما أشار إلى ذلك عياض بذكر هاتين الآيتين بعد آية النور، وبعض تلك التفاسير والله أعلم.

النوع السابع

(**في**) ذكر (**آيات تتضمن**،) أي: تدل لا التضمن المنطقي (**وجوب طاعته**،) أي: الانقياد له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فطاعة اسم مصدر أطاعه إذا انقاد له فيما أمر به قولاً أو فعلاً إذا كان الأمر بصيغة أفعل، وأما مادة، أمر فتحتمل الوجوب والندب، فتكون طاعته في المندوب مندوبة، فوجوبه على هذا الانقياد إلى أمره ولو مندوبًا والعمل به، فقوله: (**واتباع سنّته**) بالجر عطفًا على طاعته، والنصب على وجوب من عطف الخاص على العام.

(**قال الله تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾**) [الأنفال/٢٠]، قال عطاء: باتباع الكتاب والسنّة، رواه ابن أبي حاتم، وقدم طاعة الله تمهيدًا لوجوب طاعة رسوله، وإشارة إلى أن طاعته تعالىٰ بطاعة رسوله، وهما شيء واحد، ولذا أفرد الضمير في قوله: ﴿ولا تولوا عنه﴾ [الأنفال/ ٢٠].

(**وقال: ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾**) الآية، أتبع الوعيد، بقوله: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ [آل عمران/١٣١]، بالوعد بقوله: (**﴿لعلكم ترحمون﴾**) [آل عمران/١٣٢] الآية،

وقال تعالى: ﴿قل أطيعوا اللّه والرسول فإن تولوا فإن اللّه لا يحب الكافرين﴾ [آل عمران/٣٢].

قال القاضي عياض: فجعل طاعته طاعة رسوله، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب.

وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع اللّه﴾ [النساء/٨٠].

يعني: من أطاع الرسول لكونه رسولاً مبلغًا إلى الخلق أحكام اللّه فهو في

ترهيبًا عن المخالفة وترغيبًا في الطاعة، ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل على عزة المطلوب، وأن العبد دائر بين الرجاء والخوف.

(**وقال تعالى: ﴿قل أطيعوا اللّه والرسول﴾**) فيما يأمركم به من التوحيد، (**﴿فإن تولوا﴾**) أعرضوا عن الطاعات، (**﴿فإن اللّه لا يحب الكافرين﴾**) [آل عمران/٣٢]، من إقامة الظاهر مقام المضمر، أي: لا يحبهم، بمعنى أنه يعاقبهم.

(**قال القاضي عياض: فجعل طاعته طاعة رسوله**) تشبيه بليغ، وجعل عينه ادعاء، فلا ينافي الآية، لأن الشرط والجزاء متغايران نظرًا لما في نفس الأمر، ولكل مقام مقال، والأولى تأخير هذا عن الآتية، لأنها التي صرح فيها بأن طاعته طاعته، ولفظ عياض: وجعل طاعته طاعته وموافقته موافقته فقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع اللّه﴾ [النساء/٨٠]، (**وقرن طاعته بطاعته**) في قوله: ﴿أطيعوا اللّه ورسوله﴾، ونحوه مما أمر فيه بطاعة اللّه ورسوله معًا، (**ووعد على ذلك بجزيل**) أي: عظيم أو كثير (**الثواب**) بنحو قوله: ﴿لعلكم ترحمون﴾، (**وأوعد على مخالفته بسوء العقاب**) أي: أشده، (**وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع اللّه﴾**).

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: من أحبني فقد أحب اللّه، ومن أطاعني فقد أطاع اللّه. فقال المنافقون: لقد قارف الشرك، وهو ينهي عنه ما يريد إلا أن نتخذه ربًا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم، فنزلت.

كذا في الكشاف، قال الحافظ ولي الدين العراقي في حواشيه، لم أقف عليه، هكذا ونقله السيوطي عن البيضاوي ولم يزد عليه، (**يعني من أطاع الرسول لكونه رسولاً مبلغًا**)، علة غائية، أي: وغاية أمر الرسول كونه مبلغًا، (**إلى الخلق أحكام اللّه**) لأنه لا ينطق عن الهوى، فلا مفهوم لهذه العبارة، (**فهو في الحقيقة ما أطاع إلا اللّه**) أي: هو مبلغ حقيقة، والآمر هو اللّه، كما في الكشاف قال الطيبي: هذا التعليل يفيده لفظ الرسول، لأنه من وضع المظهر موضع

الحقيقة ما أطاع إلا اللَّه، وذلك في الحقيقة لا يكون إلا بتوفيق اللَّه. **﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا﴾** فإن من أعماه اللَّه عن الرشد وأضله عن الطريق فإن أحدًا من خلق لا يقدر على إرشاده.

وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الرسول معصوم في جميع الأوامر والنواهي، وفي كل ما يبلغه عن اللَّه، لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة للَّه، وأيضًا وجب أن يكون معصومًا في جميع أحواله، لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله: **﴿واتبعوه﴾** [الأعراف/١٥٨]. والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وأفعاله إلا ما خصه الدليل طاعة له، وانقياد لحكم اللَّه تعالى.

المضمر للإشعار بعلية إيجاب الطاعة له، ويدل عليه السياق، وهو قوله: ﴿ومن تولى﴾ وكان مقتضى الظاهر، ومن تولى فقد عصى اللّه في مقابلة قوله فقد أطاع اللّه، فوضع ذلك موضعه ليدل على المبالغة، **(وذلك)** المذكور من الطاعة **(في الحقيقة لا يكون إلا بتوفيق اللّه)** إذ لو أخذ له ما أطاع رسوله، **(﴿ومن تولى﴾)** أعرض عن طاعته فلا يهمنك **(﴿فما أرسلناك عليهم حفيظًا﴾)** [النساء/٨٠] الآية، حافظًا لأعمالهم، بل نذيرًا وإلينا أمرهم فنجازيهم، وهذا، قبل الأمر بالقتال، كما في الجلال فأشار إلى أن جواب الشرط محذوف، والمذكور دليل عليه، وهذا أحد وجهين، الثاني: إنه المذكور باعتبار ما دل عليه، **(فإن من أعماه اللّه عن الرشد وأضله عن الطريق)** المستقيم، **(فإن أحدًا من خلق اللّه لا يقدر على إرشاده)** جواب الشرط، وجملة الشرط وجوابه علة لكونه ما جعل عليهم حفيظًا في أعمالهم، بحيث يلجئهم للطاعة، ويمنعهم عن العصيان، وأشار إلى تحقق ذلك وعدم احتمال خلافه، بالتأكيد بأن، **(وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الرسول معصوم في جميع الأوامر والنواهي وفي كل ما يبلغه عن اللّه، لأنه لو أخطأ في شيء منها)** وأقر عليه، فأمر به أو نهى عنه، ولم يكن كذلك في نفس الأمر، **(لم تكن طاعته طاعة للّه)** بل مخالف لأمره أو نهيه **(وأيضًا وجب أن يكون معصومًا في جميع أحواله، لأنه تعالىٰ أمر بمتابعته)** الأنسب أن يقول باتباعه ليطابق دليله **(في قوله: ﴿واتبعوه﴾)** لكنه أشار إلى أن المفاعلة قد ترد لأصل الفعل، فقال: **(والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير)** ومنه المتابعة في علوم الحديث، **(فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وأفعاله)** وجودًا أو عدمًا، **(إلا ما خصه الدليل)** به **(طاعة له)** بالآية منطوقًا ومفهومًا، لأن مفهوم من يطع الرسول، من عصاه فقد عصى اللّه، **(وانقياد لحكم اللّه تعالىٰ)** عطف تفسير.

وقال تعالى: **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾** الآية [النساء/٦٩].

وهذا عام في المطيعين لله تعالى من أصحاب الرسول ومن بعدهم، وعام في المعية في هذه الدار، وإن فاتت فيها معية الأبدان.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ كان

(**وقال تعالىٰ: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾**) فيما أمرا به، (**﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين﴾**:) أفاضل أصحاب الأنبياء لمبالغتهم في الصدق والتصديق، (**﴿والشهداء﴾**) القتلى في سبيل الله (**﴿والصالحين﴾**) [النساء/٦٩] الآية، غير من ذكر (**الآية**،) أي: ﴿وحسن أولئك رفيقًا﴾.

أي: رفقاء في الجنة؛ بأن يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم، وإن كان مقرهم في درجات عالية بالنسبة إلى غيرهم.

قال البيضاوي: قسمهم أربعة أقسام: باعتبار منازلهم في العلم والعمل، وهم الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل، المجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل، ثم صديقون صعدت نفوسهم تارة إلى مراقي النظر في الحجج والآيات، وأخرى إلى معارج القدس بالرياضة والتصفية، حتى اطلعوا على ما لم يطلع عليه غيرهم، ثم شهداء بذلوا نفوسهم في إعلاء كلمة الله وإظهار الحق، ثم صالحون صرفوا أعمارهم في طاعته، وأموالهم في مرضاته. انتهى.

(**وهذا عام في المطيعين لله تعالىٰ من أصحاب الرسول ومن بعدهم، وعام في المعية في هذه الدار**) الدنيا لعموم اللفظ، (**وإن فاتت فيها معية الأبدان**،) وذلك فيمن آمن في زمنه ﷺ ولم يره، ومن آمن بعده إلى يوم القيامة بقيد الطاعة، (**وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن ثوبان**) بفتح المثلثة والموحدة، ابن بجدد بضم الموحدة وسكون الجيم، وضم الدال المهملة الأولى، وقيل: ابن جحدر، بفتح الجيم وسكون الحاء المهملة، (**مولى رسول الله ﷺ**،) قال في الإصابة: يقال إنه من العرب من حكم ابن سعد بن حمير، وقيل: من السراة، اشتراه ثم أعتقه، فخدمه إلى أن مات، ثم تحول إلى الرملة، ثم حمص، ومات بها سنة أربع وخمسين، قاله: ابن سعد وغيره.

وروى ابن السكن، عن يوسف بن عبد الحميد، حدثني ثوبان أن رسول الله ﷺ دعا لأهله، فقلت: أنا من أهل البيت، فقال: في الثالثة نعم، ما لم تقم على باب سدة، أو تأتي أميرًا فتسأله.

وروى أبو داود، عن أبي العالية عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: من يتكفل لي أن

شديد الحب لرسول اللّٰه ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه يومًا وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله رسول اللّٰه ﷺ عن حاله فقال: يا رسول اللّٰه، ما بي وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة بحيث لا أراك هناك، لأني إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين. وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذٍ لا أراك أبدًا، فنزلت هذه الآية.

وذكر ابن أبي حاتم الضحى عن مسروق، قال أصحاب محمد: يا رسول اللّٰه

لا يسأل الناس وأتكفل له بالجنة، فقال ثوبان: أنا، وكان لا يسأل أحدًا شيئًا، **(كان شديد الحب لرسول اللّٰه ﷺ، قليل الصبر عنه)** ولذا ألزمه حضرًا وسفرًا، **(فأتاه يومًا وقد تغير وجهه ونحل جسمه)** بفتح الحال، وفي لغة بكسرها، وأخرى بضمها مبنيًا للفاعل، فهو لازم، أي: قام بجسمه المرض، ويعدىء، بالهمزة، فيقال: أنحله المرض.

وفي القاموس: نحل، كمنع وعلم ونصر وكرم نحولاً ذهب من مرض أو سفر، **(فسأله رسول اللّٰه ﷺ عن حاله، فقال: يا رسول اللّٰه ما بي وجع)** حصل به نحولي، وتغير وجهي، **(غير أني إذا لم أرك اشتقتك،)** ضمنه معنى طلب فعداه بنفسه، وإلا فاشتاق، إنما يتعدى بحرف الجر، وبالتضعيف على أن المنقول في غيره عن ثوبان اشتقت إليك، **(واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة،)** أي: فكرت في أمرها، **(بحيث)** الذي في غيره: فخفت **(لا أراك هناك،)** لأنه ظهر لي بالفكر، أما عدم رؤياك بالمرة أو قلتها، **(لأني إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين،)** فتتعذر رؤيتي لك أو تقل، **(وإن أنا لم أدخل الجنة، فحينئذٍ لا أراك أبدًا، فنزلت هذه الآية)**.

قال الشيخ ولي الدين: هذا ذكره الثعلبي في تفسيره بلا إسناد ولا راوٍ، وحكاه الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي.

وروى الطبراني في معجمه الصغير عن عائشة، وابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن الشعبي، وابن جرير عن سعيد بن جبير، كل منهم يحكي عن رجل، فذكر مثل قصة ثوبان ونزول الآية فيه. انتهى.

فإن ثبت، فالرجل المبهم ثوبان، وذكر ابن ظفر عن مقاتل بن سليمٰن أن المبهم عبد اللّٰه بن زيد بن عبد ربه الأنصاري، فإن ثبتا، فلعلهما معًا ذكرًا ذلك والعلم للّٰه، **(وذكر)** أي: روى **(ابن أبي حاتم)** الحافظ، ابن الحافظ عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي، **(عن أبي الضحى)** مسلم بن صبيح، بالتصغير الهمداني، الكوفي، العطار، مشهور بكنيته، تابعي، ثقة، فاضل، من رجال الجميع، مات سنة مائة، **(عن مسروق)** بن الأجدع بن لملك الهمداني،

ما ينبغي لنا أن نفارقك، فإنك لو قدْ متَّ لرفعت فوقنا ولم نرك، فأنزل اللّه الآية.

وذكر عن عكرمة مرسلاً، قال: أتى فتى صغير السن لرسول اللّه فقال: يا نبي اللّه، إن لنا منك نظرة في الدنيا ويوم القيامة لا نراك لأنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل اللّه هذه الآية فقال له رسول اللّه ﷺ: أنت معي في الجنة.

فيها أيضًا روايات أخر ستأتي إن شاء اللّه تعالى في مقصد محبته عليه الصلاة والسلام.

لكن قال المحققون: لا ننكر صحة هذه الروايات، إلا أن سبب نزول هذه

الوداعي، أبي عائشة الكوفي، ثقة فقيه، عابد مخضرم، مات سنة اثنتين، ويقال: سنة ثلاث وستين، من رجال الجميع، قال: (**قال أصحاب محمد ﷺ: يا رسول اللّه ما ينبغي لنا أن نفارقك**) اعتذارًا عن كثرة ملازمتهم له، المقتضية للملال عادة، (**فإنك لو قدْ**) (بفتح فسكون (**مت**) بضم الميم)، ضبطه بعض العلماء الموثوق بهم، وتجويز ضم القاف وشد الدال مكسورة وسكون الميم، أي: قدمت علينا، أي: سبقتنا تحاشيًا عن خطابه، بلفظ مت أدبًا، وأنه أولى خلاف المتبادر، (**لرفعت فوقنا ولم، نرك، فأنزل اللّه:**) ﴿ومن يطع اللّه والرسول﴾ (**الآية**،) وفي هذا إن قائلي ذلك جمع كثير لقوله أصحاب محمد، (**وذكر**) بالبناء للفاعل، أي: ابن أبي حاتم أيضًا بسنده، (**عن عكرمة**) مولى ابن عباس (**مرسلاً، قال: أتى فتى**،) أي: (**صغير السن لرسول اللّه ﷺ، فقال: يا نبي اللّه إن لنا منك نظرة في الدنيا**،) أي: إنا نراك ونتمتع برؤيتك فيها، وعبر بالوحدة لقصر المدة، (**ويوم القيامة لا نراك لأنك في الجنة، في الدرجات العلى، فأنزل اللّه هذه الآية**،) وللطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به، عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول اللّه إنك لأحب إليّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت إنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ومن يطع اللّه والرسول﴾، (**فقال له رسول اللّه ﷺ: أنت معي في الجنة**) إن شاء اللّه، كما هو بقية رواية عكرمة.

وأخرج ابن جرير نحوه من مرسل سعيد بن المسيب ومسروق والربيع وقتادة والسدي، (**وفيها أيضًا روايات أخر**) بنحوها (**ستأتي إن شاء اللّه تعالى في مقصد محبته عليه الصلاة والسلام**) وهو السابع التالي لهذا.

(**لكن قال المحققون: لا ننكر صحة هذه الروايات الا أن، سبب نزول هذه الآية**

الآية يجب أن يكون شيئًا أعظم من ذلك، وهو الحث على الطاعة والترغيب فيها، فإنا نعلم أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، فهذه الآية عامة في حق جميع المكلفين، وهو أن كل من أطاع اللّه وأطاع الرسول فقد فاز بالدرجات العالية والمراتب الشريفة عنده تعالى.

ثم إن ظاهر قوله تعالى: ﴿**ومن يطع اللّه والرسول**﴾ أنه يكتفي بالطاعة الواحدة، لأن اللفظ الدال على الصفة يكفي في جانب الثبوت حصول ذلك المسمى مرة واحدة، لكن لا بد أن يحمل على غير ظاهره، وأن تحمل الطاعة على فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات، إذ لو حملناه على الطاعة الواحدة لدخل فيه الكفار والفساق، لأنهم قد يأتون بالطاعة الواحدة.

قال الرازي: قد ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقب الصفة مشرع بكون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، وإذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿من

يجب أن يكون شيئًا أعظم من ذلك،) أي: أنه لا ينحصر في تسلية المحبين له والتخفيف عنهم، بل يشمل ذلك وغيره، (**وهو الحث على الطاعة والترغيب فيها، فإنا نعلم أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ،**) أي: لا يكون قاصرًا عليه خلافًا لزاعمه، (**فهذه الآية عامة في حق جميع المكلفين،**) خصهم لوقوع الثواب بعد الأمر المستفاد من قوله: ﴿من يطع﴾، إذ لا طاعة فرع الأمر أو النهي، وكلاهما خاص بالمكلف، إذ لا خطاب يتعلق بفعل غيره، وصحة عبادة الصبي وإثابته عليها لا لأمره بها، بل ليعتادها، فلا يتركها إن شاء اللّه ذلك، (**وهو**) أي: الأمر الأعظم، (**أن كل من أطاع اللّه وأطاع الرسول فقد فاز:**) ظفر (**بالدرجات العالية، والمراتب:**) المنازل (**الشريفة عنده تعالىٰ، ثم إن ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿ومن يطع اللّه والرسول﴾، أنه يكتفي بالطاعة الواحدة، لأن اللفظ الدال على الصفة يكفي في جانب الثبوت حصول ذلك المسمى مرة واحدة،**) فإذا قيل صلِ مثلاً برىء من عهدة الطلب بصلاة واحدة، لأن الأمر بالشيء لا يقتضي فورًا ولا تكرارًا، أو خرج بالثبوت النهي، فامتثاله إنما يحصل بترك جميع المنهيات، (**لكن لا بدّ أن يحمل على غير ظاهره، وأن تحمل الطاعة على فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات، إذ لو حملناه على الطاعة الواحدة لدخل فيه الكفار والفساق، لأنهم قد يأتون بالطاعة الواحدة،**) وذلك غير مراد، فوجب حمله على غير ظاهره.

(**قال الرازي**) الإمام فخر الدين: (**قد ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقب الصفة،**) كقوله هنا: فأولئك مع الذين...الخ، بعد قوله: ومن يطع (**مشرع بكون ذلك الحكم،**

يطع الله﴾ أي في كونه إلهًا، وطاعة الله في كونه إلهًا هي معرفته والإقرار بجلاله وعزته وكبريائه وصمديته، فصارت هذه الآية تنبيهًا على أمرين عظيمين من أحوال المعاد.

فالأول: أن منشأ جميع السعادات يوم القيامة إشراف الروح بأنوار معرفة الله، فكل من كانت هذه الأنوار في قلبه أكثر، وصفاؤها أقوى كان إلى السعادة أقرب، وإلى الفوز بالنجاة أوصل.

والثاني: أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة وعد أهل الطاعة بالأجر العظيم والثواب الجسيم، ثم ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز، فهذا هو المراد من هذه المعية وقد ثبت

معللاً بذلك الوصف، وإذا،) أي: حيث **(ثبت هذا)** وتقرر في الأصول، **(فنقول قوله: من يطع الله﴾، أي: في كونه إلهًا، وطاعة الله في كونه إلهًا هي معرفته)** بالآية الدالة عليه، **(والإقرار)** الاعتراف **(بجلاله)**: عظمته **(وعزته)**: غلبته **(وكبريائه)**: عظمته.

قال تعالى: (﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾، (وصمديته:) احتياج الخلق إليه على الدوام، **(فصارت هذه الآية تنبيهًا،)** أي: منبهة **(على أمرين عظيمين من أحوال المعاد، فالأول أن منشأ جميع السعادات يوم القيامة إشراق الروح بأنوار معرفة الله)** المؤدية إلى الإيمان به وطاعة أمره، **(فكل من كانت هذه الأنوار في قلبه أكثر، وصفاؤها أقوى كان إلى السعادة أقرب وإلى الفوز بالنجاة أوصل:)** أكثر وصولاً، **(والثاني: إن الله تعالى ذكر في الآية السابقة)** على هذه الآية، **(وعد)** مصدر **(أهل الطاعة بالأجر العظيم والثواب الجسيم).**

وفي نسخة الجزيل، بقوله: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم وأشد تثبيتًا، وإذا لآتيناهم الآية، **(ثم ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز)** بدلالة النصوص الكثيرة، فالمراد كونهم في لاجنة **(بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم**

وصح بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضًا، وإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على ذلك، فهذا هو المراد من هذه المعية، وقد ثبت وصح عنه ﷺ أنه قال: المرء مع من أحب، وثبت أيضًا أنه قال: إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا نزلتم منزلاً إلا وهم معكم حبسهم

بعضًا، وإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على ذلك)، إذ لو عجزوا عنه لتحسروا، ولا حسرة في الجنة، (**فهذا هو المراد من هذه المعية**،) لا المساواة في المنزلة، (**وقد ثبت وصح**) أتى به ليبين أن مراده بالثبوت الصحة للخلاف في علوم الحديث: هل لفظ ثبت يختص بالصحيح أو يشمل الحسن؟ قال السيوطي:

وهل يخص بالصحيح الثابت أو يشمل الحسن نزاع ثابت

وزعم أن الثبوت لا يستلزم الصحة، لجواز أنه مع ثبوته ضعيف، أو حسن عقلي، لم يقله أحد (**عنه ﷺ؛ أنه قال:**) كما أخرجه الشيخان من حديث أنس وابن مسعود وأبي موسى: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: كيف تقول في رجل أحب قومًا ولما يلحق بهم، فقال ﷺ: (**المرء مع من أحب**،) زاد الترمذي من حديث أنس: وله ما اكتسب، وفي لفظ قال رجل: يا رسول الله متى قيام الساعة؟، قال: إنها قائمة، فما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير إلا أني أحب الله ورسوله، قال: فأنت مع من أحببت ولك ما اكتسبت؟، قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام ما فرحوا به، فقيل: المراد من أحب قومًا بإخلاص فهو في زمرتهم، وإن لم يعمل عملهم، لثبوت التقارب مع قلوبهم، وقيل: بشرط عمله بمثله أعمالهم، لحديث: من أحب قومًا على عملهم لثبوت التقارب مع قلوبهم، وقيل: بشرط عمله بمثله أعمالهم، لحديث: من أحب قومًا على أعمالهم حشر معهم يوم القيامة.

وروى العسكري عن الحسن: لا تغتر يا ابن آدم، بقوله: أنت مع من أحببت، فمن أحب قومًا اتبع آثارهم، واعلم أنك لن تلحق بالأخيار حتى تتبع آثارهم، وحتى تأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتمسي على مناهجهم، حرصًا على أن تكون منهم.

وقال ابن العربي: يريد ﷺ المرء مع من أحب في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالطاعة والأدب الشرعي، وفي الآخرة بالمعاينة والقرب الشهودي، فمن لم يتحقق بهذا وادعى المحبة، فهو كاذب، (**وثبت أيضًا**) في البخاري، عن أنس؛ (**أنه**) ﷺ (**قال**) حين رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة: (**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا نزلتم منزلاً**،) وفي رواية: ولا قطعتم واديًا (**إلا وهم معكم**) بالقلوب والنيات، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟، قال: وهم بالمدينة،

العذر، فالمعية والصحبة الحقيقية إنما هي بالسر والروح لا بمجرد البدن، فهي بالقلب لا بالقالب، ولهذا كان النجاشي معه ﷺ وهو أقرب الناس إليه، وهو بين النصارى بأرض الحبشة، وعبد الله بن أبي من أبعد الخلق عنه، وهو معه بالمسجد، وذلك أن العبد إذا أراد بقلبه أمرًا من طاعة أو معصية أو شخص من الأشخاص فهو بإرادته ومحبته معه لا يفارقه، فالأرواح تكون يوم القيامة مع الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وبينها وبينهم من المسافة الزمانية والمكانية بعد عظيم.

وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [آل عمران/٣١].

وهذه الآية الشريفة تسمى: آية المحبة، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة

(حبسهم العذر) عن الغزو معكم، (فالمعية والصحبة الحقيقية إنما هي بالسر والروح) وفي شرحه للبخاري بالسير بالروح، (لا بمجرد البدن، فهي بالقلب لا بالقالب) ونية المؤمن خير من عمله، فتأمل هؤلاء كيف بلغت بهم نيتهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم، وهم على فرشهم في بيوتهم، فالمسابقة إلى الله تعالى وإلى الدرجات العوالي بالنيات والهمم، لا بمجرد الأعمال، (ولهذا كان النجاشي) (بفتح النون والجيم) أصحمة ملك الحبشة (معه ﷺ، وهو من أقرب الناس إليه، وهو) أي: النجاشي (بين النصارى بأرض الحبشة وعبد الله بن أبي) ابن سلول رأس المنافقين، (من أبعد الخلق عنه، وهو معه بالمسجد) النبوي، لكونه معه قالبًا لا قلبًا، (وذلك أن العبد إذا أراد بقلبه أمرًا من طاعة أو معصية، أو) أراد أمرًا من (شخص من الأشخاص، فهو بإرادته ومحبته معه لا يفارقه) إذ كل مهتم بشيء منجذب إليه بطبعه شاء أو أبى، وكل امرىء يصبوا إلى مناسبة، رضا أم سخط، فالنفوس العلية تنجذب بذاتها وهمها وعملها إلى أعلى، والنفوس الدنية تنجذب بذاتها إلى أسفل، ومن أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل، فلينظر أين هو، ومع من هو في هذا العالم، فإن الروح إذا فارقت البدن تكون مع الرفيق الذي كانت تنجذب إليه، (فالأرواح) الخلية كلها (تكون يوم القيامة) وفي الدنيا (مع الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وبينها وبينهم من المسافة الزمانية) بتأخر وجودها عن وجودهم، (والمكانية) بطول المسافة (بعد عظيم) في الزمان والمكان، ولا يكون ذلك مانعًا من المعية في الدارين، والله أعلم.

(وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾) أي: يثبكم (﴿ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾) [آل عمران/٣١]، (وهذه الآية الشريفة تسمى آية المحبة،)

اللّه فأنزل اللّه آية المحبة ﴿قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني﴾ وقال: ﴿يحببكم اللّه﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة لكم حاصلة، ومحبته لكم منتفية، فجعل سبحانه اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام مشروطًا بمحبتهم للّه، وشرطًا لمحبة اللّه لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود تحقق شرطه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم للّه لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة اللّه لهم، فيستحيل حينئذ ثبوت محبتهم للّه وثبوت محبة اللّه لهم بدون متابعة لرسوله ﷺ ودل على

بدليل أنه (**قال بعض السلف**،) زعم أنه الحسن البصري، لقوله: قال أقوام على عهد نبينا: واللّه يا محمد إنا لنحب ربنا، فأنزل اللّه الآية.

رواه ابن المنذر، وليس فيه، فأنزل آية المحبة، فلا يصح أنه المراد (**ادعى قوم محبة اللّه**،) قيل: هم وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حبًا للّه.

رواه ابن إسحٰق، وابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير، وقيل: هم اليهود لما قالوا: نحن أبناء اللّه وأحباؤه، وقيل: قريش لما قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى اللّه زلفىٰ، وبه جزم الجلال.

وروى ابن جرير، وابن المنذر عن الحسن مرسلاً؛ أنهم أقوام زعموا على عهد نبينا حب اللّه، فأمروا أن يجعلوا لقولهم تصديقًا من العمل، (**فأنزل اللّه آية المحبة: ﴿قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني﴾، وقال: ﴿يحببكم اللّه﴾**،) بالجزم في جواب الطلب، والراجح فيه أنه في جواب شرط مقدر تقديره هنا: ﴿إن اتبعتموني يحببكم اللّه﴾، (**إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها أو فائدتها**،) أي: باتباع الرسول، فإن اتباعه علامة على حبه للّه تعالى، وثمرة محبة اللّه للعبد مغفرته له، كما أفاده قوله: (**فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل**) (بكسر السين)، أي: اللّه تعالىٰ نبيه ليبلغ الخلق (**لكم**،) متعلق بمحبة، (**فما**) مصدرية ظرفية (**لم تحصل المتابعة**،) أي: مدة انتفاء حصولها، (**فلا محبة لكم حاصلة**) منكم للّه، (**ومحبته لكم منتفية**،) أي: لا يحبكم بمعنى: لا يثيبكم، (**فجعل سبحانه اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام مشروطًا بمحبتهم للّه، وشرطًا لمحبة اللّه لهم ووجود المشروط ممتنع بدون وجود تحقق شرطه**،) وهو اتباع الرسول، (**فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة**،) لأنها مشروطة بمتابعة رسوله، (**فانتفاء محبتهم للّه لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة اللّه لهم فيستحيل حينئذٍ ثبوت محبتهم للّه وثبوت محبة اللّه لهم بدون**

أن متابعة الرسول هي حب اللّٰه ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون اللّٰه ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يكون شيء أحب إليه من اللّٰه ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه التبة ولا يهديه اللّٰه، قال تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم**

متابعة لرسول اللّٰه ﷺ) لاستحالة وجود المشروط بدون شرطه (**ودل**) جعله اتباع الرسول مشروطًا بمحبتهم (**على أن متابعة الرسول هي حب اللّٰه ورسوله، وطاعة أمره**) أي: علامة عليه، أو جعلها نفس المحبة مبالغة، (**ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون اللّٰه ورسوله أحب إليه مما سواهما**) كما في الحديث (**فلا يكون شيء أحب إليه من اللّٰه ورسوله**).

قال الطيبي: فسر المتكلمون محبة العبد للّٰه؛ بأنها محبة طاعته أو ثوابه وإحسانه، وأما العارفون، فقالوا: العبد يحب اللّٰه لذاته، وأما حب طاعته وثوابه فدرجة نازلة، والقول الأول ضعيف، وذلك لا يمكن أن يقال في كل شيء، أنه إنما كان محبوبًا لأجل معنى آخر، فلا بدّ من الانتهاء إلى شيء يكون محبوبًا لذاته، فكما يعلم أن اللذة محبوبة لذاتها، كذلك يعلم أن الكمال محبوب لذاته، وأكمل الكمالات للّٰه تعالىٰ، فيقتضي كونه محبوبًا لذاته من ذاته.

قال صاحب الفرائد: وهذا أبلغ أنواع الحب، فعلى هذا حب العبد للّٰه حقيقة، بل المحبة الحقيقية مستحقة للّٰه، إذ كل ما يحب من المخلوقات، فإنما يحب لخصوص أثر من آثار وجوده، وفي الأحياء الحب ميل الطبع إلى الشيء المستلذ، فإن قوي سمي عشقًا، ولا يظن قصره على مدركات الحواس الخمس، حتى يقال: إن اللّٰه تعالىٰ لا يدرك بها ولا يتمثل في الخيال، فلا يحب، لأنه ﷺ سمى الصلاة قرة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس للحواس الخمس فيها حظ، والبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكًا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فيكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية، التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة، فلا ينكر إذن حب اللّٰه إلا من قعد به القصور في درجة البهائم. انتهى.

وأما محبة اللّٰه للمتبعين، فهي رضاه عنهم، وإثابتهم، وكشف الحجب عن قلوبهم، والتجاوز عما فرط منهم، كما أشار إليه بقوله: ﴿**واللّٰه غفور رحيم**﴾ الآية، وعبر عن ذلك بالمحبة استعارة أو مشاكلة لاستحالة المعنى الحقيقي عليه، (**ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما، فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه البتة، ولا يهديه اللّٰه**) واستدل على هذا، بقوله:

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة/٢٤]، فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم أو رجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحد منهم على معاملة الله ورسوله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بما ليس هو عليه. انتهى ملخصًا من كتاب «المدارج»، وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته عليه الصلاة والسلام.

وقال تعالى: **﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته**

(**قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم﴾**) أقرباؤكم، وفي قراءة وعشيراتكم، (**﴿وأموال اقترفتموها اكتسبتموها، وتجارة تخشون كسادها عدم﴾**) نفاقها، (**﴿ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله﴾**،) فقعدتم لأجله عن الهجرة والجهاد، (**﴿فتربصوا﴾**:) انتظروا (**﴿حتى يأتي الله بأمره﴾**:) تهديد لهم، (**﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**) [التوبة/٢٤].

(**فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء**) غلب العقلاء على غيرهم، وسمي من اقترن بالعاقل باسمه تجوز الآن أحدًا إنما يستعمل في العاقل (**على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم، أو رجاءه والتوكل**:) الاعتماد (**عليه على خوف الله ورجائه، والتوكل عليه، أو معاملة أحد منهم على معاملة الله ورسوله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه**) أنهما أحب، (**فهو كذب منه، وإخبار بما ليس هو عليه**) عطف تفسير، وفيه إشارة إلى أن محبة غيرهما، المنهي عنها هي المحبة الاختيارية دون الطبيعية، فإنها لا تدخل تحت التكليف. (**انتهى ملخصًا من كتاب المدارج**،) أي: مدارج السالكين لابن القيم إلى منازل السائرين لشيخ الإسلام الأنصاري الهروي، (**وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته عليه الصلاة والسلام**.

فذكر الحديث وتكلم عليه مبسوطًا هناك، (**وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي**

واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف/١٥٨].

أي إلى الصراط المستقيم، فجعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين، الإيمان بالرسول واتباعه، تنبيهًا على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة، فكل ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام يجب علينا اتباعه إلا ما خصه الدليل.

وقال تعالى: **﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾** [التغابن/٨] يعني القرءان، فالإيمان به ﷺ واجب متعين على كل أحد، لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه، قال الله تعالى: **﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرًا﴾** [الفتح/١٣] أي ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو من الكافرين، وإنا أعتدنا للكافرين سعيرًا.

وقال تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾**.

الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾) القرآن، (**﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾**) [الأعراف/١٥٨] الآية، ترشدون، (**أي: إلى الصراط المستقيم**) صراط الله، (**فجعل رجاء الاهتداء**) من العباد، لأن صيغ الرجاء الواقعة في القرآن مصروفة إلى العباد، يعني أن المؤمن يرجو أنه من المهتدين، (**أثر**) عقب (**الأمرين الإيمان بالرسول واتباعه تنبيهًا على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة، فكل ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام**) من قول أو فعل أو غيرهما (**يجب علينا اتباعه، إلا ما خصه الدليل**) به، فلا يجب، بل يحرم تارة، كالزيادة على أربع، وتارة يكره كالوصال.

(**وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾** [التغابن/٨]، **يعني القرآن،**) سماه نورًا، لأنه بإعجازه ظاهر بنفسه، مظهر لغيره مما فيه شرحه وبيانه، فيستضاء به من ظلمات الجهل، ويقتبس منه أنوار الهداية والفضل، (**فالإيمان به ﷺ واجب متعين على كل واحد لا يتم إيمان إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه،**) لاستحالة وجود إيمان أو إسلام بدون ذلك شرعًا.

(**قال الله تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا﴾:**) أعددنا وهيأنا (**﴿للكافرين سعيرًا﴾**) [الفتح/١٣]، نارًا شديدة، (**أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فهو من الكافرين، وإنا اعتدنا للكافرين سعيرًا،**) إشارة إلى أن جواب الشرط محذوف، والمذكور علة له، لأن الاعتاد لا يترتب على عدم الإيمان بهما، بل الكفر وجزاؤه السعير، (**وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾**) [النساء/٦٥].

معناه: فوربك، كقوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ و«لا» مزيدة للتأكيد لمعنى القسم، كما في ﴿لئلا يعلم﴾، ولا يؤمنون جواب.

أقسم اللّٰه تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع أموره، ويرضى بجميع ما حكم به، وينقاد له ظاهرًا وباطنًا، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»، وهذا يدل على

روى الشيخان وأصحاب السنن عن عبد اللّٰه بن الزبير، قال: خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة، فقال ﷺ: إسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك واستوعي للزبير حقه وكان أشار إليهما بأمر، لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فيّ، نزلت في ذلك ﴿فلا وربك﴾...الخ.

(**معناه: فوربك، كقوله تعالىٰ: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾**) [الحجر/٩٢] الآية، (**ولا مزيدة للتأكيد لمعنى القسم، كما في ﴿لئلا يعلم﴾**) [الحديد/٢٩] الآية، أهل الكتاب أي: ليعلم لا لتظاهر لا في قوله لا يؤمنون، لأنها تزاد أيضًا في الإثبات، كقوله: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ [البلد/١]، قاله في الكشاف.

قال التفتازاني: إن قيل: لا يجوز أن تكون مزيدة لمظاهرة، لا في لا يؤمنون، ومعاونتها والتنبيه من أول الأمر على أن المقسم به نفي، فالجواب أن مجيئها قبل القسم، سواء كان الجواب، نفيًا أو إثباتًا، يدل على أنها لتأكيد القسم، لا لمظاهرة النفي في الجواب، وذلك لأن الأصل إجراء المحتمل على المحقق، والمشكوك على المقطوع، واتحاد منهج اللفظ على اتحاد منهج المعنى، وترك التصرف في الحرف، وبهذا يندفع اعتراض صاحب التقريب، بجواز أن يكون في النفي لمظاهرة النفي، وفي المثبت لتأكيد معنى القسم، وتجويز أنه في النفي لتأكيده، وفي الإثبات لتأكيده ليس على ما ينبغي. انتهى.

(**ولا يؤمنون جواب**) للقسم، (**أقسم اللّٰه تعالى بنفسه الكريمة المقدسة؛ أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع أموره،**) لأنه عبر بما شجر وما من صيغ العموم، (**ويرضى بجميع ما حكم به،**) بقوله: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت﴾ الآية، (**وينقاد له ظاهرًا وباطنًا، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها،**) هذا المقصود.

وذكر الموافق للتعميم، (**كما ورد في الحديث: والذي نفسي بيده،**) قسم كان ﷺ يقسم به كثيرًا، (**لا يؤمن أحدكم**) إيماناً كاملاً، ونفي اسم الشيء بمعنى الكمال مستفيض في كلامهم، فالمراد نفي بلوغ حقيقته ونهايته، وخصوا بالخطاب، لأنهم الموجودون حينئذٍ والحكم

أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمنًا، وعلى أنه لا بد من حصول الرضى بحكمه في القلب، وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به عليه الصلاة والسلام هو الحق والصدق، فلا بد من الانقياد باطنًا وظاهرًا، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء اللّٰه تعالى في مقصد محبته عليه الصلاة والسلام.

ثم إن ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره.

وقوله: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت﴾ مشعر بذلك، لأنه متى خطر بقلبه قياس يقتضي ضد مدلول النص فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين اللّٰه تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ويسلم إلى النص تسليمًا كليًا، قاله الإمام فخر الدين.

عام، **(حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به)** الهوى بالقصر ما يهواه العبد ويحبه ويميل إليه، فحقيقته شهوة النفس، وهو ميلها لملائمها، ويستعمل في عرف الشرع في الميل إلى خلاف الحق، كقوله: ولا تتبع الهوى فيضلك، **(وهذا)** الحديث **(يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمنًا)** أصلاً، بل كافرًا إن اعتقد بطلانه، أو أنه ليس من اللّه، أما إن اعتقد حقيته وتألم منه في نفسه لمشقته فمؤمن ناقص، **(وعلى أنه لا بدّ من حصول الرضا بحكمه في القلب، وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به عليه الصلاة والسلام هو الحق والصدق، فلا بدّ من الانقياد باطنًا وظاهرًا.**

ذكر هذا وإن تقدم معناه قريبًا، لأنه شرح للحديث، فمراده أنه دل على ما دلت عليه الآية، **(وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء اللّه تعالىٰ في مقصد محبته عليه الصلاة والسلام،)** وهو السابع، **(ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس،)** سواء كان جليًا أو خفيًا، كما أجازه الرازي، وقيل: المنع في الخفي لضعفه بخلاف الجلي، **(لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه)** بالخفض، **(وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره، وقوله: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا﴾:)** ضيقًا أو شكًا **(﴿مما قضيت﴾)** به **(مشعر بذلك، لأنه متى خطر بقلبه قياس يقتضي ضد مدلول النص، فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين اللّه تعالىٰ؛ أنه لا يكمل إيمانه إلاّ بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ويسلم إلى النص)**: ينقاد لحكمه **(تسليمًا كليًا)** من غير معارضة، **(قاله الإمام فخر الدين)** الرازي بعدما كان يقول

وجوز غيره تخصيص الكتاب والسنة بالقياس، وبه صرح العلامة التاج بن السبكي في جمع الجوامع.

النوع الثامن
فيما تتضمن الأدب معه ﷺ

قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي اللّه ورسوله﴾ [الحجرات/١].

بالجواز، **(وجوز غيره تخصيص الكتاب والسنّة بالقياس)** المستند إلى نص خاص ولو خبر واحد، سواء كان القياس جليًا أو خفيًا على المختار، **(وبه صرح العلامة التاج)** عبد الوهاب **(بن)** علي **(السبكي في جمع الجوامع)** في مبحث التخيص، وأجاب شيخنا في التقرير عن استدلال الرازي بهذه الآية؛ بأنا لا نسلم أن معارضته بالقياس حرج كما ادعى، وإنما هو تردد في فهمه: هل هو موافق أم لا.

النوع الثامن

(فيما) موصول أو نكرة موصوف، أي: الآيات التي تتضمن، أو في آيات **(تتضمن،)** أي: تدل، أو تستلزم لا خصوص دلالة التضمن الاصطلاحية **(الأدب،)** بحذف مضاف، أي: طلب الأدب **(معه ﷺ)** في جميع، الأقوال والأفعال.

(قال اللّه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي اللّه ورسوله﴾) [الحجرات/١] الآية، وجه تضمنها الأدب، النهي عن الشيء أمر بضده، وهو طلب التأخر وهو أدب.

روى البخاري عن ابن الزبير: قدم ركب من تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي اللّه ورسوله﴾ الآية، حتى انقضت الآية.

وروى ابن المنذر عن الحسن: أن ناسًا ذبحوا قبله ﷺ يوم النحر، فأمرهم أن يعيدوا ونزلت الآية.

وأخرج الطبراني عن عائشة: أن ناسًا كانوا يتقدمون الشهر، فيصومون، فنزلت.

وأخرج ابن جرير عن قتادة، قال: ذكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون لو أنزل في كذا، فنزلت، ولا شك أن الأصح الأول لأنه مروى البخاري، ويحتمل تعدد الأسباب.

وقد قال الرازي: الأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل، ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات

فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما أمر اللَّه بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول اللَّه ﷺ بشيء، حتى يقضيه اللَّه على لسانه.

وتقدم واستبداد بالأمر، وإقدام على فعل غير ضروري بلا مشاورة، (**فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه،**) أي: عنده، سواء كان تجاهه، أو عن يمينه، أو يساره، أو خلفه (**بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف،**) ويداوم على ذلك (**حتى يأمر هو، وينهي ويأذن كما أمر اللّه بذلك في هذه؛ الآية**).

وظاهر هذا؛ أنه من قدم لازمًا بمعنى تقدم، وفي الأنوار، أي: لا تقدموا أمرًا، فحذف المفعول ليذهب الوهم إلى كل ما لا يمكن أو تركه، لأن المقصود نفي التقدم رأسًا، أو لا تتقدموا منه مقدمة الجيش لمتقدمهم، ويؤيده قراءة يعقوب: لا تقدموا، وفي ابن عطية: قال ابن زيد: معنى لا تقدموا لا تمشوا بين يدي رسول اللّه، وكذلك بين يدي العلماء، فإنهم ورثة الأنبياء، هذا ظاهر في أن معناه التقدم الحسي.

(**وهذا**) النهي عن التقدم (**باقٍ إلى يوم القيامة لم ينسخ،**) سواء كان التقدم حقيقة أو حكمًا، (**فالتقدم بين يدي سنّته،**) الواردة عنه بإسناد صحيح أو حسن، ولا معارض راجح (**بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته،**) لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر/٧]، (**لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم،**) وقد علم التقدم أعم من كونه حقيقة أو حكمًا، فلا يرد أنه ينتهي بوفاته ﷺ، فيتعذر النسخ بوفاته الانقطاع الوحي فلا يحسن. بل لا يصح تفريعه على ما قبله.

(**قال مجاهد:**) عند البخاري في تفسير لا تقدموا، (**لا تفتاتوا،**) أي: لا تسبقوا (**بشيء على رسول اللّه ﷺ،**) بل أمهلوا وامتنعوا عن العمل فيه بشيء (**حتى يقضيه اللّه على لسانه**) فاعملوا به، فالغاية لمقدر.

قال الزركشي: الظاهر أن هذا التفسير على قراءة ابن عباس ويعقوب (بفتح التاء والدال)، والأصل لا تتقدموا، فحذف إحدى التاءين.

قال الدماميني: بل هو متأت على القراءة المشهورة أيضًا، فإن قدم بمعنى تقدم.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمرًا دون رسول اللّه ﷺ.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى.

وانظر أدب الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ معه عليه الصلاة والسلام في الصلاة. أن تقدم بين يديه كيف تأخر فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول اللّه ﷺ، كيف أورثه مقامة والإمامة بعده، فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن أثبت مكانك، سعيًا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام

قال الجوهري: وقدم بين يديه، أي: تقدم، **(وقال الضحاك:)** أي: **(لا تقضوا أمرًا دون رسول اللّه)** أي: دون أمره (ﷺ) بل انتظروا أمره، **(وقال غيره: لا تأمروا حتىٰ يأمر، ولا تنهوا حتىٰ ينهي،)** فأمروا حينئذٍ بأمره ونهيه، **(وانظر أدب الصديق رضي اللّه عنه معه عليه الصلاة والسلام في الصلاة،)** أي: فيما فعله فيها؛ **(أن تقدم بين يديه،)** أن مصدرية (بفتح الهمزة وتقدير اللام) أي: لأن تقدم علة لقوله: **(كيف تأخر)** مقدم عليه، أي: انظر كيف تأخر لتقدمه الحاصل بين يديه، أي: في غيبته ﷺ، فقدم بعد إحرام أبي بكر، وفي نسخة: إذ لكن إصلاحًا ولا حاجة إليه، فإن بهذا التقدير كإذ.

روى ملك والشيخان من طريقه، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد؛ أنه ﷺ ذهب إلى بني عمرو بن عوف وحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر، فقال: أتصلي للناس؟، فأقيم، قال: نعم، فصلى أبو بكر، فجاء رسول اللّه والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف، فصفق الناس، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس من التصفيق، التفت أبو بكر فرأى رسول اللّه ﷺ فأشار إليه أن أمكث مكانك فرفع أبو بكر يديه وحمد اللّه على ما أمر به ﷺ من ذلك ثم استأخر حتى استوى في الصف، وتقدم ﷺ، فصلى بالناس، ثم انصرف، فقال: يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أمرتك، **(فقال:)** أبو بكر **(ما كان لابن أبي قحافة)** (بضم القاف وخفة الحاء المهملة) عثمان بن عامر أسلم في الفتح، ومات سنة أربع عشرة في خلافة عمرو، عبر بذلك دون أن يقول: ما كان لي أو لأبي بكر تحقيرًا لنفسه **(أن يتقدم)**.

وفي رواية: أن يصلي **(بين يدي رسول اللّه)** وفي رواية: أن يؤم النبي (ﷺ) ففيه إن من أكرم بكرامة، تخير بين القبول والترك إذا فهم أن الأمر ليس على اللزوم، وكان القرينة التي بينت ذلك لأبي بكر أنه ﷺ شق الصفوف حتى انتهى إليه، ففهم أن مراده أن يؤم الناس، وأن أمره إياه بالاستمرار في الإمامة من باب الإكرام والتنويه بقدره، فسلك هو طريق الأدب، ولذا لم يرد ﷺ اعتذاره **(كيف أورثه مقامه والإمامة)** الخلافة **(بعده، فكان)** بمعنى صار **(ذلك التأخر إلى خلفه،** و الحال أنه **(قد أومأ:)** أشار **(إليه أن أثبت مكانك)**.

تنقطع فيها أعناق المطي.

ومن الأدب معه ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾** [الحجرات/٢].

قال الرازي: أفاد أنه ينبغي أن لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده، لأن العبد داخل في قوله تعالى: **﴿كجهر بعضكم لبعض﴾** لأنه للعموم، فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي ﷺ كما يجهر العبد للسيد، وإلا كان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض.

قال: ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾** [الأحزاب/٦]، والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه، حتى لو كانا في مخمصة

وفي رواية: فأشار إليه يأمره أن يصلي، وأخرى: فدفع في صدره ليتقدم، فأبى (**سعيًا**) خبر كان (**إلى قدام**،) أي: كان في المعنى شروعًا وعملاً في طلب التقدم عبد اللّه بسبب أدبه مع نبيه، فنال (**بكل خطوة إلى وراء**،) فهو متعلق بمقدر (**مراحل**،) مفعول المقدر (**إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي**،) ولا توصل إليها، (**ومن الأدب معه ﷺ؛ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته**،) لأنه يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام، ومن خشي قلبه ارتجف وضعفت حركته الدافعة، فلا يخرج منه الصوت بقوة، ومن لم يخف بالعكس، (**كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم﴾**،) إذا نطقتم (**﴿فوق صوت النبي﴾**،) إذا نطق، (**﴿ولا تجهروا له بالقول﴾**،) إذا ناجيتموه، (**﴿كجهر بعضكم لبعض﴾**) بل دون ذلك إجلالاً له.

قال المصنف: وليس المراد بنهي الصحابة عن ذلك؛ أنهم كانوا مباشرين ما يلزم منه الاستخفاف والاستهانة، فكيف وهم خير الناس، بل المراد؛ أن التصويت بحضرته مباين لتوقيره وتعزيره.

(**قال الرازي: أفاد أنه ينبغي أن لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده**،) بل يكون صوته دون صوته مع سيده، (**لأن العبد داخل في قوله: ﴿كجهر بعضكم لبعض﴾**) [الحجرات/٢]، (**لأنه للعموم**،) فيشمل ذلك، (**فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي ﷺ، كما يجهر العبد للسيد، وإلا كان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض**،) فيدخل في النهي، (**قال: ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾**) [الأحزاب/٦] الآية، (**والسيد ليس أولىٰ عند عبده من نفسه حتى لو كانا في مخمصة**:)

ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده، ويجب البذل للنبي ﷺ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده لا يلزمه أن يلقي نفسه في التهلكة لإنجاء سيده، ويجب لإنجاء النبي ﷺ، فكما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره، لأن عند خلل القلب مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة، فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي ﷺ لهلك هو أيضًا بخلاف العبد والسيد، انتهى.

إذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجبًا لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به.

واعلم أن في الرفع والجهر استخفافًا قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة.

مجاعة، (**ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات، لا يجب عليه بذله لسيده، ويجب البذل للنبي ﷺ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده، لا يلزمه أن يلقي نفسه في التهلكة**،) أي: الهلاك لإنجاء سيده، (**ويجب لإنجاء النبي ﷺ**) على كل أحد، (**فكما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره**،) بفاء الاستئناف، وعلل الأولوية بقوله: (**لأن عند خلل القلب مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة**،) حذف المشبه، أي: كذلك تجب رعايته ﷺ وفداؤه على المؤمنين بأنفسهم، إذ لو لم يدفع الهلاك عنه وقدم غيره لهلك ذلك الغير، وأشار إلى هذا المعنى بفاء التعليل، فقال: (**فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي ﷺ لهلك هو أيضًا**،) ويحتمل أن الفاء زائدة، والمعنى أن رعايته وتقديمه على النفس مشبهة بالعضو الرئيس في رعايته وتقديمه على بقية الأعضاء، (**بخلاف العبد والسيد. انتهى**،) كلام الرازي.

(**إذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجبًا لحبوط الأعمال**،) أي: فسادها وهدرها مصدر لحبط من باب فرح، وفي لغة من باب ضرب، وبها قرىء شاذًا، كما قال تعالى: ﴿**أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**﴾، أي: خشية ذلك بالرفع والجهر المذكورين، (**فما الظن برفع الآراء**:) جمع رأي، (**ونتائج الأفكار**) ما يظهر لها تشبيهًا بنتائج الحيوان، وهو ما يلده (**على سنته وما جاء به**).

(**واعلم أن في الرفع والجهر استخفافًا**) بحسب الصورة (**قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة**،) وإلا فالرفع والجهر لا يلزمهما الاستخفاف.

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه، لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وقد روى وأن عمر كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار ما كان يسمع النبي ﷺ حديثه بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

وقد روي أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له ملك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عز وجل أدب قومًا فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية ومدح قومًا

(وروي أن أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية، قال: والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي) أي: أي: صاحب **(السرار)** (بكسر السين مصدر سارة)، أي: الكلام الخفي الذي يراد كتمه.

وفي البخاري عن ابن أبي مليكة: كاد الخيّران أن يهلكا أبا بكر وعمر، رفعا صوتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه، ركب بني تميم فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصواتكم﴾.

قال: ابن الزبير: فكان عمر لا يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر.

(وقد روى؛ أن عمر كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار، ما كان يسمع النبي ﷺ حديثه بعد) نزول **(هذه الآية حتى يستفهمه،)** وفي الاعتصام من البخاري؛ فكان عمر بعد ذلك إذا حدثه يحدثه كأخي السرار، لا يسمعه حتى يستفهمه، ففي تعبيره بروي في هذا شيء، وفيهما وفي غيرهما نزل؛ ﴿إن الذين يغضون﴾.

(وقد روي) فيما أسنده القاضي عياض من طريق أبي الحسن علي بن فهراي، مؤلف فضائل لملك بسنده؛ **(أن أبا جعفر)** المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، **(أمير المؤمنين،)** ثاني الخلفاء من بني العباس، ولي الخلافة اثنين وعشرين سنة، وكان محدثًا، فقيهًا، بليغًا، حافظًا للقرآن والسنّة، جماعًا للأموال، فلذا لقب أبا الدوانيق، مات سنة ثمان وخمسين ومائة بقرب مكة محرمًا بالحج وله ثلاث وستون سنة، **(ناظر)** مفاعلة من النظر، بمعنى الفكر، لا لأن كلا منهما ينظر في كلام من يجادله **(مالكًا)** الإمام في مسئلة فرفع صوته **(في مسجد رسول الله ﷺ)** ولم يذكروا ناظره فيه لأنه لا يترتب عليه فائدة هنا، **(فقال له لملك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عزّ وجلّ أدب قومًا، فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾)** [الحجرات/٢] **الآية)**.

روى ابن جرير عن قتادة، قال: كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم، فنزلت:

فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم﴾ الآية، وذم قومًا فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ الآية. وإن حرمته ميتا كحرمته حيًا، فاستكان لها أبو جعفر.

ومن الأدب معه أن لا يجعل دعاؤه كدعاء بعضنا بعضًا، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا﴾ [النور/٦٣] وفيه قولان للمفسرين.

أحدهما: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا نبي الله يا رسول الله مع التوقير والتواضع، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسول.

(ومدح قومًا) كالعمرين وثابت بن قيس وغيرهم، (فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم﴾) [الحجرات/٣] (الآية، وذم قومًا،) أي: بني تميم (فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾) أي: حجرات نسائه بأن أتوها حجرة حجرة، فنادوه أو تفرقوا عليها متطلبين له، لأنهم لم يعلموه بأيها مناداة الإعراب، بغلظة وجفاء أكثرهم، لا يعلقون محلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم، إذ العقل يقتضي حسن الأدب، وفيه تسلية وتلميح بالصفح عنهم (الآية، وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًا،) إذ هو حي في قبره، فيجب أن يراعى بعد مماته ما كان له في حياته، (فاستكان:) خضع وذل (لها،) لهذه المقالة والموعظة.

وفي نسخة له، أي: للملك أي: لقوله (أبو جعفر) المنصور، لوضوح استدلاله، (ومن الأدب معه أن لا يجعل دعاؤه كدعاء بعضنا بعضًا.

(قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا﴾) [النور/٦٣]، بأن تنادوه باسمه، بل قولوا: يا نبي الله يا رسول الله بلين وتواضع وخفض صوت.

روى أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس، قال: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القسم فأنزل الله ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا﴾، فقالوا: يا نبي الله يا رسول الله، (وفيه قولان للمفسرين).

(أحدهما: لا تدعوه،) وفي نسخة تدعونه على أنه خبر بمعنى النهي (باسمه، كما يدعو) ينادي (بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا نبي الله يا رسول الله).

وهذا ما دل عليه سبب النزول المذكور (مع التوقير) الإجلال (والتواضع) وخفض الصوت لآية الحجرات، (فعلى هذا) القول (المصدر مضاف إلى المفعول، أي: دعاءكم الرسول،) أي: نداءكم له، (والثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم

والثاني: أن المعنى: لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا، إن شاء أجاب وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاءه إياكم، وقد تقدم في الخصائص من المقصد الرابع عن مذهب الشافعي أن الصلاة لا تبطل بإجابته ﷺ.

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد، أو رباط، لم يذهب أحد مذهبًا في حاجة له حتى يستأذنه، كما قال الله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه**﴾ [النور/٦٢]. فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا لحاجة عارضة لم

بعضًا، إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد:) فراق ومحالة (**من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة**) (بقطع الهمزة)، (**فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة،**) أي: الرجوع عن تمام ما ندب إليه، لقوله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ [الأنفال/٢٤]، (**فعلى هذا المصدر**) في دعاء الرسول (**مضاف إلى الفاعل، أي: دعاءه إياكم**) ولو في الصلاة.

(**وقد تقدم في الخصائص من المقصد الرابع عن مذهب الشافعي**،) وهو المعتمد في مذهب مالك (**أن الصلاة لا تبطل بإجابته ﷺ**،) وقال جماعة: تجب الإجابة، وتبطل الصلاة، (**ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط**).

وفي الإكليل قال ابن أبي مليكة: الآية في الجهاد والجمعة والعيدين، وقال عطاء: أمر عام، وقال مقاتل: طاعة يجتمعون عليها.

أخرجها ابن أبي حاتم: (**لم يذهب أحد مذهبًا في حاجة**) عرضت (**له حتى يستأذنه، كما قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾**) [النور/٦٢]، ففيه وجوب استئذانه قبل الانصراف عنه في كل أمر يجتمعون عليه.

قال الحسن: وغيره ﷺ من الائمة مثله في ذلك لما فيه من أدب الدين وأدب النفس.

قال ابن الفرس: ولا خلاف في الغزو أنه يستأذن إمامه إذا كان له عذر يدعوه إلى الانصراف، واختلف في صلاة الجمعة، إذا كان له عذر كالرعاف وغيره، وقيل: يلزمه الاستئذان، سوءا كان إمامه الأمير أم غيره، أخذًا من الآية، (**فإذا كان هذا مذهبًا**)، أي: سببًا يقصد، **مقيدًا**

يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين، أصوله وفروعه، ودقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿**فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [النحل/٤٣].

ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء بقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف، يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، ﷺ وهو عين الجراءة عليه.

ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه صاحبه آراء أذهانهم، فيوحد التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل

لحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه ودقيقه:) قليله (**وجليله:**) كثيره، (**هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟**، ﴿**فاسئلوا أهل الذكر:**) العلماء (**إن كنتم لا تعلمون**﴾) [النحل/٤٣] الآية، ذلك فإنهم يعلمونه (**ومن الأدب معه ﷺ أن لا يستشكل قوله،**) الثابت عنه بلا معارض راجح، بقوله أيضًا، ونحوه: (**بل تستشكل الآراء بقوله: ولا يعارض نصه بقياس،**) لأنه فاسد الاعتبار مع وجود النص، (**بل تهدر:**) تطرح (**الأقيسة وتلقى:**) عطف تفسير لتهدر (**لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال،**) أي: ظن (**مخالف، يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول،**) أي: مصروف إلى غيره، (**ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد**)، بل يقبل، ثم تارة يعمل به، وتارة لا لقيام دليل غيره على عدم العمل به، (**فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجراءة**) بزنة غرفة وضخامة، أي: الهجوم بلا توقف، وذلك مذموم (**ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد:**) الإذعان (**لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله خيال**) ظن (**باطل يسميه صاحبه**) معقولاً، أو يسميه شبهة، أو شكًا، أو يقدم عليه (**آراء**) الرجال، وزبالات أوساخ (**أذهانهم:**) جمع ذهن، وهو الذكاء والفطنة، كما في المصباح، (**فيوحد التحكيم،**) أي: يجب على كل أحد أن يجعل الحاكم هو النبي ﷺ، (**والتسليم والانقياد والإذعان**) من أذعن: انقاد فهو عطف مساوٍ، (**كما وحد المرسل،**) (بكسر السين)، وهو الله سبحانه (**بالعبادة،**) فجعله مستحقًا لها دون غيره، (**والخضوع والذل**) عطف تفسير، (**والإنابة**)

والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يتحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، انتهى ملخصًا من «المدارج» والقرءان مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ فليراجع.

النوع التاسع

في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة على عدوه ﷺ توفيعًا لشانه

قال تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم/ ١ - ٢] لما قال المشركون: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾

والرجوع (والتوكل) عليه في جميع الأمور، (فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسل،) وهو الله عزّ وجلّ، (وتوحيد متابعة الرسول، فلا يتحاكم إلى غيره) بالعدول عنه وطلب الحكم من غيره، (ولا يرضى بحكم غيره، انتهى ملخصًا من المدارج) للعلامة ابن القيم (والقرآن مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ فليراجع) وفيما ذكر كفاية.

النوع التاسع

(في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة،) أطلق النفس عليه تبعًا لقول إمام الحرمين أنه الصحيح، وقيل: إنما يجوز للمشاكلة نحو تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، ورد بقوله: كتب ربكم على نفسه الرحمة، وخبر أنت، كما أثنيت على نفسك، وتقدير كتب رب نفوسكم، ولا تحصى نفسي بعيد (على عدوه،) يحتمل أن يريد المفرد وعمومه من الإضافة استغراق المفرد أشمل عند أهل البيان، ويحتمل أن يريد الجمع، فإن لفظ عدو يقع لغة على الواحد المذكر والمؤنث، والمجموع (ﷺ ترفيعًا) مفعول لأجله وتضعيفه للمبالغة، إذ هو متعدٍ بدونه (لشأنه) أمره وخطبه.

(قال تعالى: ﴿ن والقلم، وما يسطرون﴾،) أي: الملائكة، ومر الكلام فيه مبسوطًا (﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾،) [القلم/١]، أي: انتفى عنك الجنون، بسبب إنعامه عليك بالنبوة وغيرها.

(لما) حين (قال المشركون: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾) القرآن في زعمه (﴿إنك لمجنون﴾،) أي: لتقول قولهم، بدعواك أنه نزل عليك لا الجنون الحقيقي للقطع بعدمه، فلا يريدونه لئلا يكذب من قاله: (أجاب تعالى) الأولى: فأجاب بالفاء، إذ الجملة الأولى

[الحجر/٦]، أجاب تعالى عنه عدوه بنفسه من غير واسطة، وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من سب حبيبه تولى بنفسه جوابه، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم بنفسه منتصرًا له، لأن نصرته تعالى له أتم من نصرته وأرفع لمنزلته، ورده أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده.

فأقسم تعالى بما أقسم به من عظيم آياته على تنزيه رسوله وحبيبه وخليله مما غمصته أعداؤه الكفرة به وتكذيبهم له بقوله: **﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾** **﴿وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون﴾**، هو أو هم؟ وقد علموا هم

كافية، وكأنه تركها، لأنه بيان لتعظيمه؛ بأنه أجاب (**عنه عدوه بنفسه من غير واسطة،**) وتوطئة لقوله: (**وهكذا سنة الأحباب،**) أي: عادتهم، (**فإن الحبيب إذا سمع من سب حبيبه، تولى بنفسه جوابه،**) وفرع على هذا قوله: (**فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم بنفسه منتصرًا له، لأن نصرته تعالى**) التي تولاها بنفسه (**له أتم من نصرته**) عليه الصلاة والسلام لنفسه، كقتال العدو وإن كان لله، أو المعنى لو فعل.

وروى ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد، قال: يقول الله تعالىٰ ابن آدم، إذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك.

ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن وهيب، قال: بلغني أنه مكتوب في التوراة، فذكره، (**وأرفع لمنزلته:**) مقداره العلي، (**ورده**) تعالىٰ على عدوه بتكذيبهم (**أبلغ من رده**) لنفسه ﷺ بإقامة الحجة، وإن كانت ليست لنفسه، بل الله، والمراد لو كان له رد ونصرة، كما مر، (**وأثبت**) أعظم وأقوى ثباتًا (**في ديوان مجده**) شرفه من أن يثبته هو بنفسه، فما أمضاه الله، لا نقض له، فاستعار لمجده ديوانًا يثبت فيه، فإذا أثبته الله كان أتم وأكبر ثباتًا، وهكذا هو باقٍ إلى الأبد، (**فأقسم تعالىٰ بما أقسم به من عظيم آياته،**) أجمله، ليأتي على الخلاف السابق في تفسيره (**على تنزيه رسوله وحبيبه وخليله مما غمصته**) (بفتح الغين المعجمة والميم، وبكسر الميم أيضًا وصاد مهملة)، أي: احتقرته وعابته (**أعداؤه الكفرة به، وتكذيبهم له، بقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾،**) بدل من قوله من عظيم آياته بدل بعض من كل، أو متعلق بتنزيه (**﴿وسيعلم أعداؤه المذكبون له أيهم المفتون﴾**)، فيه إشارة إلى أن الباء زائدة، وهو أحد وجوه سبقت (**هو أو هم**)، واقتصر على الأعداء، مع أن الآية **﴿فستبصر ويبصرون﴾** [القلم/٥]، لأن القصد إخباره بأنهم سيعلمون ذلك، وأما ذكره عليه السلام فيها، فلأنه ادعى للقبول في مقام المحاجة، نحو: وأنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، وقول حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما فداء

والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم به في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة بحيث تتساوى الخلق كلهم في العلم به. وقال تعالى: ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾ [التكوير/٢٢].

ولما رأى العاصي بن وائل السهمي النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاصي قالوا: من ذا الذي كنت تحدث معه، قال: ذلك الأبتر، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة، فرد الله تعالى عليه، وتولى جوابه بقوله: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ [الكوثر/٣] أي عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير.

ولما قالوا: ﴿**أفترى على الله كذبًا**﴾ [سبأ/٨] قال الله تعالى: ﴿**بل الذين**

(**وقد علموا هم والعقلاء**) من غيرهم (**ذلك،**) أي: أنهم المفتونون لا هو (**في الدنيا،**) متعلق بعلموا، (**ويزداد علمهم به في البرزخ:**) القبر، (**وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى الخلق كلهم في العلم به، وقال تعالى:**) عطف على بقوله: ﴿ما أنت﴾ من عطف الفعل على اسم يشبه الفعل، وهو المصدر، والمعنى بقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾، وبقوله: (﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾) [التكوير/٢٢]، فقال: ﴿فلا أقسم بالخنس﴾... الخ.

(**ولما رأى العاصي بن وائل السهمي،**) أحد المستهزئين الميت على كفره (**النبي ﷺ، يخرج من المسجد، وهو،**) أي: العاصي (**يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم:**) بطن من قريش، (**وتحدثا وأناس من صناديد:**) جمع صنديد، وهو السيد الشجاع أو الحليم، أو الجواد، أو الشريف، كما في القاموس، (**قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاصي، قالوا له: من ذا الذي كنت تحدث،**) بحذف إحدى التاءين (**معه، قال: ذلك الأبتر، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة،**) وهو القسم أول من مات من ولده، أو عبد الله روايتان: (**فرد الله تعالى عليه، وتولى جوابه بقوله: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾**) [الكوثر/٣] ، (**أي: عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير،**) الذي لا عقب له ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك فيها ما لا يدخل تحت الوصف، ولا يرد أن العاصي أعقب عمرًا وهشامًا، لأنهما لما أسلما انقطع عقبه منهما، فصارا من اتباع المصطفى وأزواجه أمهاتهما، (**ولما قالوا:**) أي: الذين كفروا على جهة التعجب لبعض هل

لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ [سبأ/٨].

ولما قالوا: **﴿لست مرسلاً﴾** [الرعد/٤٣] أجاب الله تعالى عنه فقال: **﴿يس * والقرءان الحكيم * إنك لمن المرسلين﴾** [يس/١- ٣].

ولما قالوا: **﴿أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾** رد الله تعالى عليهم فقال: **﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾** فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه فقال: **﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾** [الصافات/٣٦ - ٣٨].

ولما قالوا: **﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾** [الطور/٣٠]، رد الله عليهم بقوله: **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرءان**

ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد (**﴿أفترى﴾**) (بفتح الهمزة للاستفهام واستغنى بها عن همزة الوصل) (**﴿على الله كذبًا﴾**) في ذلك، (**﴿أم به جنة﴾**) [سبأ/ ٨] الآية، جنون، تخيل ذلك به، (**قال الله تعالىٰ:**) ردًا عليهم: (**﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾**) المشتملة على البعث والعذاب (**﴿في العذاب والضلال البعيد﴾**) [سبأ/ ٨]، من الحق في الدنيا.

قال البيضاوي: رد الله عليهم ترديدهم، وأثبت لهم ما هو أفظع من القسمين وهو الضلال البعيد عن الصواب، بحيث لا ترجى الخلاص منه وما هو مؤداه من العذاب، (**ولما قالوا ﴿لست مرسلاً﴾**) [الرعد/٤٣] الآية، (**أجاب الله تعالىٰ عنه**) بالإقسام، (**فقال: ﴿يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾**) [يس/١] الآية، ومرت مباحث ذلك، ولم يجعل الجواب من بقية الآية، وهي **﴿قل كفى بالله شهيدًا بيني وبينكم﴾** [الرعد/ ٤٣] ومن عنده علم الكتاب، أي: على صدقي لعدم صراحتها في الرد، (**ولما قالوا ﴿أئنا﴾**) بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين (**﴿لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾**) [الصافات/٣٦]، أي: لأجل قول محمد (**رد الله تعالىٰ عليهم، فقال: ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾**) [الصافات/٣٧]، الجائين به، وهو لا إله إلا الله، (**فصدقه، ثم ذكر وعيد خصمائه، فقال: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم**) وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾، (**ولما قالوا:**) ما حكي الله عنهم بقوله: (**﴿أم يقولون﴾**) هو (**﴿شاعر نتربص به ريب المنون﴾**) [الطور/٣٠] الآية، حوادث الدهر، فيهلك كغيره من الشعراء، وقيل: المنون الموت، (**رد الله عليهم، بقوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي﴾:**) يسهل (**﴿له﴾**) الشعر (**﴿إن هو﴾**،) أي: الذي أتى به (**﴿إلا ذكر﴾**) عظة (**﴿وقرآن مبين﴾**) [يس/٦٩] الآية، مظهر للأحكام وغيرها.

مبين﴾ [يس/٦٩].

ولما حكى الله عنهم قولهم: **﴿إن هذا إلا فلك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾** [الفرقان/٤] سماهم الله تعالى كاذبين بقوله: **﴿فقد جاءوا ظلمًا وزورًا﴾** [الفرقان/٤]. وقال: **﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾** [الفرقان/٦].

ولما قالوا: يلقيه إليه شيطان قال الله تعالى: **﴿وما تنزلت به الشياطين﴾** [الشعراء/٢١٠]، وما ينبغي لهم وما يستطيعون.

ولما تلا عليهم نبأ الأولين قال النضر بن الحرث **﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** [الأنفال/٣١] قال الله تعالى: تكذيبًا لهم: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله﴾** [الىسراء/٨٨].

وذكر وعيدهم، بقوله: **﴿لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين﴾** [يس/٧٠]، (**ولما حكي الله عنهم قولهم: ﴿إن هذا إلا إفك﴾**) كذب (**﴿افتراه﴾**) محمد (**﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾**،) من أهل الكتاب (**سماهم الله تعالىٰ كاذبين، بقوله: ﴿فقد جاؤا ظلمًا وزورًا﴾**) [الفرقان/٤]، كفرًا وكذبًا، أي: بهما، (**وقال**) ردا لقولهم: (**﴿أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا﴾**) [الفرقان/٥] الآية، (**﴿قل أنزله الذي يعلم السر﴾**) الغيب (**﴿في السمؤات والأرض﴾** إنه كان غفورًا رحيمًا﴾) [الفرقان/٦] الآية، (**ولما قالوا: ﴿يلقيه إليه الشيطان﴾، قال الله تعالىٰ:**) لهم (**﴿وما تنزلت به الشياطين﴾**،) كما زعم المشركون أنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة (**﴿وما ينبغي﴾**) يصلح (**﴿لهم﴾**) أن ينزلوا به (**﴿وما يستطيعون﴾**) [الشعراء/٢١٠] الآية، ذلك أنهم عن السمع لكلام الملائكة لمعزولون، أي: محجوبون بالشهب (**﴿ولما تلا عليهم نبأ﴾**) خبر (**﴿الأولين﴾ الآية، قال النضر بن الحارث،**) الكافر، المقتول بعد بدر، المشتري لهو الحديث: (**﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾**) لأنه كان يأتي الحيرة يتجر، فيشتري كتب أخبار الأعاجم، ويحدث بها أهل مكة، ويقول: إن محمدًا يحدثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم حديث فارس والروم، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن (**﴿إن﴾**) ما (**﴿هذا﴾**) القرآن (**﴿إلا أساطير﴾**) أكاذيب (**﴿الأولين﴾**) [المؤمنون/٨٣].

(**قال الله تعالىٰ: تكذيبًا لهم ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾**) في الفصاحة والبلاغة (**﴿لا يأتون بمثله﴾**) ولو كان بعضهم لبعض ظهير) [الإسراء/٨٨]

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿**إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر**﴾ [المدثر/٢٤]، قال اللّه تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون**﴾ [الذاريات/٥٢]. تسلية له عليه الصلاة والسلام.

ولما قالوا: محمد قلاه ربه، فرد اللّه عليهم بقوله: ﴿**ما ودعك ربك وما قلى**﴾ [الضحى/٣].

ولما قالوا: ﴿**مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**﴾ [الفرقان/٧] قال اللّه تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ [الفرقان/٢٠].

ولما حسدته أعداء اللّه اليهود على كثرة النكاح والزوجات، وقالوا: ما همته إلا النكاح، رد اللّه تعالى عليهم عن رسوله ونافح عنه فقال: ﴿**أم يحسدون الناس**

أي: معينًا، (**ولما قال الوليد بن المغيرة**) المخزومي الميت على كفره: (﴿**إن**﴾) ما (﴿**هذا**﴾) القرآن (﴿**إلا سحر يؤثر**﴾) ينقل عن السحرة.

(﴿**إن هذا إلا قول البشر**﴾) [المدثر/٢٥] الآية، كما قالوا: إنما يعلمه بشر، (**قال اللّه تعالىٰ: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا﴾**) هو (﴿**ساحر أو مجنون**﴾) [الذاريات/٣٩] الآية، (**تسلية له عليه الصلاة والسلام**،) لأن المعنى مثل تكذيبهم لك، بقولهم: إنك ساحر أو مجنون، تكذيب الأمم قبلهم لرسلهم، بقولهم: ذلك، (**ولما قالوا: محمد قلاه ربه**:) أبغضه، (**فرد**) بالفاء في جواب لمبالغة قليلة (**اللّه عليهم بقوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾**) [الفتح/٣] ما أبغضك (**ولما قالوا: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾**) [الفرقان/٧] الآية، لولا أنزل إليه ملك، فيكون معه نذيرًا، أو يلقي إليه كنز، أي: من السماء ينفقه ولا يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش، أو تكون له جنة يأكل منها، أي: من ثمارها، فيكتفي بها، (**قال اللّه تعالىٰ: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾**) [الفرقان/٢٠] الآية، فأنت مثلهم في ذلك، وقد قيل لهم كما قيل لك، وكسرت إن، لأن المستثنى محذوف، أي: إلا رسلاً إنهم، أو جملة إنهم حالية اكتفى فيها بالضمير، (**ولما حسدته أعداء اللّه اليهود على كثرة النكاح والزوجات**،) لأنه صفة كمال لا يقدرون عليها، وعبروا عن هذا، (**وقالوا:ما همته إلا النكاح**،) لإيهام الاعتراض والتوبيخ، خلاف ما أبطنوه من الحسد الذي هو تمني زوال نعمة المحسود، (**رد اللّه**

على ما آتاهم اللّه من فضله فقد آتيناآل إبرٰهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكًا عظيمًا﴾ [النساء/٥٤].

ولما استبعدوا أن يبعث اللّه رسولاً من البشر بقولهم الذي حكاه اللّه عنهم: **﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث اللّه بشرًا رسولاً﴾** [الإسراء/٩٤] وجهلوا أن التجانس يورث التآنس، وأن التخالف يورث التباين. قال اللّه تعالى: **﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾** [الإسراء/٩٥]، أي لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة، لكن لما كان أهل الأرض من البشر وجب أن يكون رسولهم من البشر.

عليهم عن رسوله، ونافح) (بالفاء والحاء المهملة)، أي: منع ودافع **(عنه، فقال: ﴿أم يحسدون الناس﴾،)** أي: محمدًا ﷺ **(﴿على ما آتاهم اللّه من فضله﴾)** من النبوة وكثرة النساء، أي: يتمنون زواله عنه، ويقولون: لو كان نبيًا لاشتغل عن النساء، **(فقد آتينا آل إبرٰهيم)** جد محمد ﷺ، كموسىٰ وداود، وسليمٰن **(﴿الكتاب والحكمة﴾:)** النبوة **(﴿وآتيناهم ملكًا عظيمًا﴾)** [النساء/٥٤] الآية، فكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولسليمٰن ألف ما بين حرة إلى سرية، **(ولما استبعدوا أن يبعث اللّه رسولاً من البشر، بقولهم: الذي حكاه اللّه عنهم، ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدىٰ إلا أن قالوا﴾:)** أي: قولهم منكرين **(﴿أبعث اللّه بشرًا رسولاً﴾)** [الإسراء/٤]، **وجهلوا أن التجانس يورث التوانس،)** فيمكن مخاطبته والفهم عنه، **(وأن التخالف)** في الجنس **(يورث التباين،)** فلا يمكن ذلك، فمن حكمة اللّه جعل الرسول بشر الا ملكًا.

(قال اللّه تعالىٰ: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾) [الإسراء/٩٤] الآية، يحتمل أنه حال من رسولاً، وأنه مفعول، وكذلك بشرًا، والأول أوفق، **(أي: لو كانوا ملائكة، لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة، لكن لما كان أهل الأرض من البشر، وجب أن يكون رسولهم من البشر،)** لتمكنهم من الاجتماع به واللقى معه، وأما الإنس، فعامتهم عماة عن إدراك الملك والتلقف منه، فإن ذلك مشروط بنوع من التناسب والتجانس، قاله البيضاوي، وفي الشفاء أي: لا يمكن في سنّة اللّه إرسال الملك إلا لمن هو من جنسه، أو من خصه اللّه واصطفاه، وقواه على مقاومته، كالأنبياء والرسل، وفي الآية الأخرى: ﴿ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾، أي: جعلناه على صورة رجل ليتمكنوا من رؤيته، إذ لا قدرة للبشر على رؤية الملك، **(فما أجل هذه الكرامة،)** أي:

فما أجل هذه الكرامة، وقد كان الأنبياء إنما يدافعون عن أنفسهم، ويردون على أعدائهم، كقول نوح عليه السلام: ﴿**يا قوم ليس بي ضلالة**﴾ [الأعراف/ ٦١]، وقول هود ﴿**يا قوم ليس بي سفاهة**﴾ [الأعراف/٦٧] وأشباه ذلك.

الإكرام من الله لنبيه، حيث كان هو الراد عنه، لا الأمر الخارق للعادة، (**وقد كان الأنبياء إنما يدافعون عن أنفسهم ويردون على أعدائهم، كقول نوح عليه السلام**) رادًا لقولهم له: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾، [الأعراف/٦٠] الآية، قال: (﴿**يا قوم ليس بي ضلالة**﴾) [الأعراف/ ٦١] فنفيها أبلغ من نفيه، (**وقول هود**) دفعًا لقولهم: ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ الآية، قال: (﴿**يا قوم ليس بي سفاهة**﴾ **الآية**،) جهالة، (**وأشباه ذلك**) من دفعهم عن أنفسهم.

آخر الـمجلد الثامن

وينتهي بـــ:

النوع التاسع: في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه الـمقدسة، على عدوه ﷺ.

ويليه: الـمجلد التاسع

ويبدأ بـــ:

النوع العاشر: في إزالة الشبهات عن آيات وردت في حقه عليه الصلاة والسلام متشابهات

شرح العلامة الزرقاني
على
المواهب اللدنية

فهرس المجلد الثامن

فهرس

